سلسلة الترحالات (أدب الرحلات)

الترحـــال الثـــانى

المـــوت و الحنين

يحيى الرخـــاوى

الترحال الثانى

الموت والحنين

لماذا الأعمال المتكاملة؟

عجزتْ أداة واحدة أن تستوعب "القول الثقيل " الذى ألقى علىّ. حملتُهُ. من خلال الجدل الحـــى بـــين ذاتى ومرضاى ودنيايَ، فلجأتُ إلى كل ما أتيح لى من أنغام وأشكال.

لم أكتب إلا مسودات، لذلك كنت أنوى أن يكون العنوان "الأعمـــال الناقــصة" وخاصـــة أن ترجمـــة Collected Worksأو Collected Papersهى "مجموعة أعمال" أو "مجموعة أوراق" فلان، الأمر الذى لا ينبغى أن يسمى كذلك أو ينشر بهذا الاسم، إلا بعد أن يكف صاحبها عن العطاء، أو عن الحياة.

ثم قبل ذلك وبعد ذلك: هل يكتمل شئ أبدا؟

وحين آن أوان الحسم، قررت أن تخرج كل المحاولات كما وصلتْ إليه، ولتكتمل بعدُ أو تتكامل مـــع غيرها. فكان هذا العنوان "الأعمال المتكاملة" أملا فى أن يكون جمّاع المحاولة هو "توجُّهٌ ضام، حـــولَ محورٍ ما."

يحيى الرخاوى

* **(رَحَل)** عن المكان ـــ رحلا، ورحِيلاً، وتَرْحالا، ورحلة: سار ومضى.

وفى الحديث: "لتكُـــفَّنَّ عن شتمه أو لأَرْحَلَنَّك بسيفى."

(رَحّلـــهُ): جعله يرحل .

وفى الحديث: "عند اقتراب الساعة تخرج نارٌ من قمـــر عـــدنَ تُرحِّل الناس."

(ارْتـــحـــلَ): رَحَلَ. وارتحل البعيرَ: جعل عليه الرَّحـــلَ. و ـــ ركبه.

و ـــ وارتحل فلانٌ فلاناً: علا ظهره.

وفى الحديث "أن النبى (ص) سجد فركبه الحـــسَـــنُ فأبطأ فى سجوده، فلما فرغ سئل عنه فقـــال: إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعْجِله."

(الراحلة): من الإبل: الصالح للأسفار والأحمال .

وفى الحديث: "تجدون الناس بعدى كإبل مائةٍ ليس فيها راحلة."

...ويقال: مشت رواحله: شابَ وضعُف.

(الرِّحـــلْة): ما يرتحل إليه، يقال: الكعبة رُحْلة المسلمين، وأنتم رُحْلتى .

(الرَّحـــُول): كثير الارتحال .

(الرَّحـــِيل): الارتحال. و الرحيل القوىٌّ على الارتحال والسير.

(المرْحـــلـــَة): المسافة يقطعها السائر.... بين المنزلين.

(المعجم الوسيط)

،..."رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت،

الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف". **قرآن كريم**.

وفى الاستعمال المصرى:

"آصبر على جارك السوّ يا يرحل ياتجيله مصيبة تاخده."

والترحيلة: هى تشغيل مجموعة من الفلاحين بعيدا عن بلدتهم الأصلية بأجور زهيدة، وبلا مأوى مستقل فى العادة.

وعمال التراحيل: فئة من الفلاحين اعتادوا العمل أساسا فى الترحيلة.

و" الحاجة اترحّلت من مكانها"، أى انتقلت إلى موضع آخر، حسن أو سيء.

إهـــداء الترحال الثانى

إلى الصديقين الراحلين، الذيْـــــن لم أصادقهما أبدا:

أ.د.السعيد الرازقى، أ.د. حلمى نمّـــر

مقدمة الترحال الثانى

لم تنته الرحلة الأصلية مع الأولاد إلى الناس على الطريق. وهى ممتدة فى هذا الترحال الثانى. لكن ما بين وقت الرحلة، وبين ما جدّ أثناء كتابتها حدثت أشياء، وتحدث أشياء، كان لا يمكن إلا رصدها، فلم تعد المسألة تقع بين أدب الرحلات وأدب السيرة الذاتية. تجاوز، هذا العمل هذا وذاك إلى ما أسميته "أدب المكاشفة"، وهو ليس مرادفا بالضرورة لأدب الاعتراف.

يتبيّن لى مع نمو هذا العمل أن أدب المكاشفة – إن صحّت التسمية– هو نوع من السيرة الذاتية "الآنيّة". ذلك أنه بدا لى أنه لا معنى للحديث عن الماضى باعتباره مضى، أما الماضى الحاضر فينا الآن فهو الأصدق والأهم.

أنا لا أومن بالتاريخ مصدرا للمعلومات، لكنه قد يصلح إشارات جيّدة لما تـبـقّـى فينا من حضور فاعل، أو خامل.

إن ما تجلّى لى من خلال مثيرات السفر فى بلاد الله لخلق الله، من ذكريات وتداعيات ومواجهات، ليس له معنى ولا مبرر لحكيه إلا إذا كان مُطِلقا لما يمكن أن يتكشف لى، فأبوح به مما وصلنى من طبقات الوعى المتاح.

سفر آخر فرض نفسه على بداية هذا الترحال الثانى، فغاص بى إلى طبقات أعمق، لم يخل منها الجزء الأول، لكن للرحيل بلا عودة شأن آخر.

فقد رحل عنا والد ابنتيّ اللتين رافقتانا "فى الجزء الأول:مايسة السعيد، ومنى السعيد. هو المرحوم الأستاذ الدكتور السعيد الرازقى. حدث هذا وأنا لم أنته من كتابة رحلتنا الأساسية فتداخلت مواكبتى له فى سفر آخر، مع مواكبتى صحبة بنتينا وبقية أولادى وزوجتى رفقاء السفر الأول، ثم عجِلَ هو إليه دونى.

ثم وأنا أراجع التجربة (البروفة) الأخيرة رحل عزيز آخر، قلّب عندى أكثر معانى الرحيل الآخر، هو د. حلمى نمر.

أما الحنين الذى ألقى بظلاله على معظم هذا الترحال، فهو يتمثل فى الإلحاح المعاوِد للاستجابة لجذب الركن الصغير القصىّ الواعد، هو حنين قد يعنى التمهيد للرحيل الآخر، أو هو الذى يلوّح بوعدٍ بالولادة الجديدة.

أكتشف فى هذا الترحال الثانى، وبالذات من خلال الحنين إلى "الركن" الذى ألحّ بشكل متكرر، أكتشف سر ما يسمى "برنامج الذهاب والعودة"، جوهر حركية الوجود.

فحاولت أن أكاشفكم بما كان. قدر المستطاع.

قبل الفصل الأول

سفرٌ آخر

جعلت أسألها محتجا، وكأنى أسأل نفسى، أو ربى، بصوت مسموع:

"يا ست نعيمة، إشمعنى.. سعيد؟،!

فتفاجئنى– بإيمان المصريين البسطاء – برد شديد الدلال ة:

و"اشمعنى غيرُه"؟،!

....

ثم أصبح يختلط مع الدهشة نوع من الخجل اليقظ الطيب، فعلا:

"إشمعنى غيره؟ واشمعنى غيرى؟"

(١٥ ديسمبر ١٩٨٥)

......حتى المذكّرة الصغيرة التى سجلتُ فيها **(بعد وصولى)** التواريخ، وبضع كلمات عن كل يوم، هذه المذكرة غابت، وكأنها تعمدت الغياب، بعد أن علمت تغير المزاج، وصعوبة العودة، ولم يعد ثمَّ وقت للبحث عن شئ يبدو وكأنه لم تعد له أهمية فى الواقع . فالوقت غير الوقت، والإيقاع غير الإيقاع، وإن كان الالتزام واحدا، والورطة أشد.

كنت أنوى أن أسافر معهم هذا الصيف (١٩٨٥) فى رحلة قصيرة أثبـّت فيها ماجرى، أو أختبره. ولكننى عزفتُ حسما، وقبل أن يحدث ماحدث؛ ذلك أنى خفت أن أشّوه موقفى من السفر بالوقوع فى استدراج الاعتياد الترفيهى السخيف، كما خفت على الأولاد أن ينسوا حين تستدرجنا العادة، تحت وهم أملٍ فى فائدة مرجوة من مواصلة التعرى فى مواجهة حضارة (ثقافة) أخرى، وناس أُخَر، وعادات أخرى، وإيقاع آخر. أقول: إننى خفت منى، وعليهم، خفت من تسحب العادة، فالرفاهية، فالنسيان، فالاغتراب، فالعزلة عن الناس، ثم تصورُ الحق الخاص من الموقع الفوقى الأخص. خفت حتى أننى لم أستطع أن أستجيب إلى رغبتهم ورغبتى، على الرغم من الإلحاح،

أنا–حتى الآن– شديد اليقظة لألاعيب التبرير التى يبرر بها أمثالى مثل هذه الأسفار، سواء تحت دعوى "الحق فى الراحة" (قال "ماذا"؟)، بعد طول عناء!!. أم تحت دعوى) منظرة) المؤتمرات العلمية (السياحية الدعائية الاجتماعية) !! إلخ، وأخيرا تحت دعوى: فرصة "للحوار" الحضارى. (!!) –فقلت: "لا"، لا سفر الآن، على الأقل حتى أنهى كتابة (معايشة) ما كان فى الرحلة السابقة بما أنا فيه الآن، ثم نرى.

فجأة، حدث ماحدث،

فوجدت نفسى فى الخارج هذا الصيف، (صيف ٨٥)، لكن الصحبة غير الــصحبة، والــسبب غيــر السبب، فى بلد غير البلد ،

فرض سفرٌ آخر نفسه علىّ مع صديق رحــلَ متعجّلا،

......بدأت الأحداث المفاجأة فى يوليو ١٩٨٥، وكنت بمحض الصدفة قد انتهيت مبكــرا مــن كتابــة الفصل السابق من هذه الرحلة (الفصل الأخير من الترحال الأول) فحمدت الله أنه قد نفــذ بالكــاد مــن تحمل وطأة ما حل بى، منذ أن حدث ما حدث . حمدت الله أننى لم أضطر، وقتئذ وأنا فى تلك الحــال، إلى الالتزام بالإمساك بالقلم، أحركه كطن من الرصاص، أو أمسكه وقــد تلبــست أصــابعى وعقلــى ووجدانى جميعا بقفازات من الجبس الأسود.

لكن يبدو أننى استطعت أن أتسحب من ورائى؛ لأعاود حركة القلم، بدءا من القيام بالتزاماتى الراتبــة منتهيا إلى التقاطات إشراقات البعث، على الرغم من دوام نفس الأحوال.

فما هذه الأحوال؟

لى صديق أصيب بمرض نذل خفى، فوجدتُ نفسى بجواره جدا، مثل زمان. ثــم تطــورت الأمــور بسرعة أكبر، فوجدت نفسى مسافرا بجواره أكثر؛ حيث تصورنا – هو وأنــا – أن ثمة رؤية علميــة طبية فى الخارج أدق، وأن ثمة فرصة علاجية أنجع.

سافرنا فجأة، هو، و.. أنا.

سافرتُ وأنا أشعر بعكس كل ما تعودت أن ألقى به السفر، هو يستند على جذعه دونى، بجهد جهيــد، بل يكاد يطيــّب خاطرى ويطمئننى، وليس العكس، فهو (أيضا) لم يستطع أن ينــسى موقفــه الأبــوى المزمن الذى تلبّسه مُنذ كان طفلا، وهو لم يكن أبدا طفلا، و"أنا" أسير بجواره أتصور أنى أســانده، أو أسنده، فلا أفعل شيئا إلا أن يعتصرنى الألم بجواره، عاجزا، خائبا، لا أجــرؤ علــى إعــلان رفــض المرض والعجز، ولا على قبولهما، فأكتشف خداعى لنفسى بعد طول ادعاء. فكم تصورت أنى أهيــئ نفسى طول الوقت للنهاية الطبيعية لدورة حياة الفرد البشرى، وقد كان هذا هو حديثــنا المفــضل معــا فى وقت غير الوقت، حين كنا بعيدين عن المواجهة الصريحة لما نتحدّث عنه: "النهاية ."

حين وقعت الفأس فى الرأس: واجهْنا الاختبار الحقيقى، فإذا بنا نفاجأ بأننا نستغرب ما لــيس غريبــا، ليس غريبا بحكم مهنتنا، وليس غريبا بحكم ما نزعم من حكمة وبصيرة!!، فأية غرابة فــى المــرض ونحن أطباء؟ وأية غرابة فى العجز ونحن بشر؟ بل أية غرابة فى الموت نفــسه ونحــن أحيــاء = كيانات بيولوجية محدودة العمر مهما طال؟. هل نحن غير الناس؟

نكتشف كم أن هذا الوهم كامنٌ داخل داخلنا دون أن ندرى: نحن – فعلا – نعتقد "أننا غير الناس". أية خدعة!! أى كذب.

ضبطت نفسى متلبسا بذلك حين عدت مكسورا من هذه الرحلة بعد أن تبيّن ما تبين، وجعلت أسأل "حكيمة" صديقة، تعرف صديقى هذا، وكم أنه كريم طيب خدُوم عالم. طبيب حاذق رحيم... إلخ، جعلت أسألها محتجا، وكأنى أسأل نفسى، أو ربى، بصوت مسموع، "يا ست نعيمة، إشمعنى.. سعيد؟!، فتفاجئنى بإيمان المصريين البسطاء برد شديد الدلالة: و"اشمعنى غيرُه"؟ ،إفأفقت ُفجأة، ثم طويلا، وكلما عاودتنى الجملة دهشت لها وكأنى أسمعها طازجة تقال بصوت واضح لأول مرة. فأدهش من جديد، ثم أصبح يختلط مع الدهشة نوع من الخجل اليقظ الطيب، فعلا: إشمعنى غيره، واشمعنى غيرى؟

كلما قلـُقلت ساخطا، أو حزنتُ مغيظا تذكرتكِ يا ست نعيمة وشكرتك وأنا أردد: "واشمعنى غيره"؟ لماذ نتصور، نحن الأطباء، أو أى "نحن": أن لنا قوانين خاصة، وأمراضا خاصة، وعلاجات خاصة؟ ماذا فينا يستثنينا؟

كانت هذه حالى، لكنها لم تكن هى حال صديقى تماما، فهو أرق صبرا، وأعمق إيمانا، لكنه بشر طيب، وطبيب أستاذ، وأستاذ قدير، وتخصُّصه يكاد يكون فى نفس ما أصابه، مما لم نكن نعرف "تحديدا" قبيل السفر، وإن كنت ــ للأسف ــ كنت أعرف عن طبيعة ما أصابه أكثر منه.

صديقى هذا هو والد ابنتّى اللتين صاحبتانا فى الرحلة التى أكتبها الآن عن "الناس والطريق"، وقد كان حاضرا معنا طول الرحلة بشكل ما. حيث كنا نتذكره، ونسترشد بحكمته، ونرفض فرط تعقله، وندعوا له، ونتوعده، أنا وابنته الصغرى"منى"، حين كنت أجرى بجوارها (فقد كنا ــ نحن الاثنين ــ نفضل الجرى على السير ما أتيحت الفرصة...). كانت هذه الصغيرة تذكرنى أنها حين تعود، ستجعل والدها يغيـّر كثيرا مما "هو فيه"، فأقول فى نفسى: "بل مما اضطـُر أن يكونه"، وأتساءل: أية فرصة فارقة بيننا وبين أولادنا؟ ولا أقبل أن أتصور أنهم (أولادنا) أحسن منا. قد يكونون أوفر حظا، لكنهم أقل ألما شريفا؛.

يبدو لى أن الألم– بجرعة مناسبة– هو حق للبشر مثل الدعة سواء بسواء، لكن يبدو أيضا أن نصيبنا– صديقى وأنا– من الألم والنسيان والإهمال كان أكبر من حقنا. وقد كنت أعلم ذلك وأخفيه طول الوقت، فكنت حين أنطلق، أو حين أصور للجميع أنى منطلق، كنت أفعل ذلك "إلا قليلا"، أو... (ولا تقل لأحد)... إلا كثيرا. نعم، يتسحبُ بعيدا عنى ذلك الفرح الطفلى بسرعة وكأنه يتوارى خجلا أمام ذلك الجزء الغائص فى جوف وجودى، ذلك الجزء الحزين القابع وراء كل شىء، هذا الحزن المتربص يظل يجذبنى ضد كل فرحة، وحين تصورت أنى تغلبتُ عليه، أو على الأقل روّضته، عاد

يلاحقنى، أو يتبعنى خلف كل انطلاق، وكل فرح، وكل ضحكة. فهو لم ينسنى أبدا، فلم أنسَهُ مرغما، بل إنى أصاحبه حتى الائتناس.

أسأل صديقى هذا وقد عضنا الألم وعصرنا العجز، فرحنا نقطر مرارة على الرغم من ظاهر الابتسام. أسأله، فيجيبنى بحكمته المفرطة التى استسلم لها طول عمره (كارها إياها... دون أن يدرى). يقول لى ونحن نسير ببطء يعلن ثقل همومنا على سيقاننا، وهو يميل بأحد كتفيه ميلا خفيفا إلى ناحية (عادة أعرفها عنه من قديم، وليست بسبب ما أصابه مؤخراً، عادة أميزه بها من بين الآلاف وهو قادم من بعيد) يقول، وقد حقت بنا المرارة من كل جانب:

.." كنت أتحدث مع شقيقتى الكبرى، ونحن نبحث فى داخلنا عن ضحكة، أو آثار ضحكة، كتلك التى نراها على وجوه أولادنا. فقالت شقيقتى أو قلت لها: يبدو أنه لا فائدة، فمن لم يضحك صغيرا، لا يعرف كيف يضحك، كبيرا، لقد راحت علينا... ولن نستطيع أن نفعلها مهما حاولنا"..

رحلتى مع صديقى سفر آخر، كما أن الموت شعْر آخر.

هذا ما تعلمته من أدونيس فى رثاء عبد الصبور.

لست واثقا إن كنت أستطيع أن أكتب هذا السفر كله أو بعضه بالطلاقة نفسها.

من البديهى أننى لن أكتب على الموجة ذاتها التى كتبت بها تَرْحالى الأول.

هل يا ترى أستطيع أن أواصل الترحال إلى داخلى ــ خارجى، وأنا محمّل بكل هذا بعد ما كان ذلك كذلك؟.

حاولتُ أن أظهر كيف قالت لنا حرافيش نجيب محفوظ أن وهم الخلود هو أكذب كذبة، وأن روعة الوعى بالموت هو دفع الحياة (نشرت هذه الدراسة فى مجلة فصول، ثم فى كتاب لى نشرته لى هيئة الكتاب عن بعض قراءاتى فى أدب محفوظ) كانت الفروض تقول:

"إن ملحمة الحرفيش تريد أن تؤكد ماهية دورات الموت والبعث،"

"إن وهم الخلود بمعنى البقاء ثابتا فى المحل، أو مكررا فى الفعل، هو عين السلب الساكن، وهذا هو الخليق باسم الموت".

"إن الوعى بالموت هو الذى يعطى للحياة زخمها ويحافظ على دوراتها، واستمرارها."

ثم عشت هذه التجربة: عشت فى صحبة الموت يمشى على أرجل. عايشت الموت خارجى وداخلى، كما عايشت الوعد بالبعث وأنا أغوص فى محاولة الكشف عن معنى هذا الحنين الملحّ إلى ركَن قصىّ. لعل وعسى.

الفصل الأول

(الفصل السابع: من الترحالات الثلاثة)

الموت: ذلك الشعر الآخر

"يختل مجرى العمر والأمل،
(لماذا ياصديقى؟؟)
دائرةٌ ملتاثة:
(عَجــّــلتَ بالنهاية؟)
تقضمُ فى المجهول والمعلوم أنيابُ الظلام الجائعة،
(هل ضقتَ ذرعا باللجاج والجشع؟)
ثارت أجنة الخلايا تصطرع."
تعملقتْ فطرتك الأبية
لم ترعَ عهداً، لا، ولمّا تنتظر
لـــــمْ نـــقوَ بعدُ ياصديقى
(فيم العجالة والسام؟)
تقفز خلف الحدِّ، بعد العدِّ، تقتحمْ
ترجع نحو عشها اليمامة.

الأربعاء: ٢٩ يناير ١٩٨٦

الساعة الخامسة وعشر دقائق (صباحا)

استأذنَ صديقى، والد إبنتَــى رفيقتى رحلتنا هذه،

استأذنَ أن يكمل رحلته وحده، بعد صراع، وعناد، وآلام، ورؤى، وحوار أغلبه صامت، وكل هذا لا أستطيع ــ الآن ــ إهماله أو نسيانه أو إزاحته كما لا أجد عندى الــشجاعة أو الأمانــة لحكايــة كــل تفاصيله التى استغرقت أكثر من سبعة أشهر... جَمَعْنا فيها ــ هو وأنا ــ خلاصة عمرنا قولا وتذكرة، ثم عهدا، ورؤية.

منذ سافرتُ معه، ورجعنا كما سافرنا، وأكثر عجزاً، ونحن نجترّ أيامنا بهدوء شائك، هــو: تعتــصره الآلام، وأنا: يخيفنى العجز، حتى قرَّرَ، هكذا رأيت رحيله، فذهب دون إبطاء، ويبدو أن هذه لــم تكــن رؤيتى وحدى، فحين كتب شقيقه نعيه فى الأهرام حضَرَتــْــهُ آية كريمة صدّر بها النعــى تفيــد مــا ذهبتُ إليه من تسارع صديقى للقاء ربه، صدّر النعى بالآية تقول: "وعجلتُ إليكَ ربى لترضى"،

رحل صديقى عجلا إليه، رحل وتركنى وأنــا أعيش معه/فيه/به، بتقمص يحتد فيه وعيــى فيهزنـــى حتى النخاع. أخطو بجواره مرتحلا إلى ما لم أحسب، مختبــرا ــ من جديد ــ ما كنت أتــصور أنـــى عرفته ظهرا لبطن، ألا وهو ما كنت أسميه ــ مثل الناس ــ "الموت"، فاذا بى لا أعرف منه، أو عنــه إلا أقل القليل.

حين رحل صديقى، وما رحل، وجدت نفسى أحاول أن أواصل بدونه، بعيدا عنه، بالرغم منه، لكنـــى رحت أكتشف أنى أفتعل الأشياء افتعالا، وكأنى أزيح من على صدرى ثقلا لابــد أن أخــــترقه وأنـــا أتكلم، وأنا أكتب، حتى وأنا أفهم، أزيحه بعيدا بما أستطيع، ولا أستطيع. أخذت أواجه اختبــارا صــعبا، حتى كدت أتوقف عن كتابة هذا العمل المنطلق. اضطرنى قلمى أن أعرج إلى هــذا الــسَّــفر الآخــر لأخصص هذا الفصل لرحلتى مع صديقى هذا، على الرغم من أننى كنت أفضل أن تأتى قــرب نهايــة العمل، استسلمت للقلم فاستسلم لى، ما دام الأصل فى هذه الكتابة هو حضورى مع القلم، لاحكايتى عن الحَدَث، فليُقدْنى حيث شاء.

بدون تلكؤ أمسكت بالقلم حتى لا أتراجع، وللقارئ العتبى، أليس عذرا مقبولا أن أتقــدم إلـــى رحـــاب وعيه بأقل قدر من التزييف والصناعة؟

هو" الموت"، الرحلة الأخيرة، والحقيقة الأولى، أو الوحيدة.

كنت أردد دائما، ومن قبل هذه المحنة، أردد معه، ولنفسى، أنه كان من الجائز ألا أولد أصلا، ولكنى متى ولدت فليس ثم احتمال ألا أموت...، ومع ذلك، فإن الجارى يكاد يعلن غيــر ذلــك، إذ يبــدو أن "حقيقة الموت" حقيقة نقولها،.. لا نعيشها، ولا نعايشها، اذ لانتعلم منها... بدليل أننا لا نتغير بها، وبعــد أن رحل صاحبى، ونحن فى بؤرة الموعظة والإفاقة (هكذا بدا لى) قلت لصديق آخر، بمثابــة تلميــذى

وإبنى أ.د. رفعت محفوظ، وهو حكيم صعيدى نقى، قلت له "لو أن واحدا بالمائة من حقيقة هذه الحقيقة بقى معنا.. لكفى،. " فرد التلميذ/أستاذى/ "رفعت" ردا صعبا "، قال:... بل واحد فى الألف"

واحد فى المائة، أو واحد فى الألف مـِـــنْ ماذا؟

وأجيب: من "هذا."

السبت ٢٥ يناير ١٩٨٦

قال لى صديقى على وشك الرحيل وأنا جالس بجوار سريره، قال لى هامسا وكان قد اعتدل إلا قليلا، قال: "... لا أحد يفهم، قل لهم "كفى، دعهم يدركون" ــ وكأنى رددت عليه أن "حاضر" أو ماشابه، فقد كان يكفى أن نقول بلا كلمات، فنتفاهم، ولم يكن جديدا علىّ أو عليه هذا النوع من الحديث الصامت الذى بدأناه منذ عرف أحدنا الآخر فى عز الشباب، إن كان لشبابنا عز كما يعرفه الناس، كان دائما يذكـّر نفسه أمامى ــ فيذكّرنى ــ أنه أخذ أكثر مما حلم، وأنه كسب أكثر مما تصور، وأنه ترقه أكثر مما يحتمل، وأنه أمّن ذويه بالمسكن والدخل المعقول بقدر ما ينبغى، وأنه علّم طلبتهَ كل ما تعلم، وأضاف إلى علمه ما استطاع أن يبدع، لم يحبس حرفا، ولم يرُد طالبا، ولم يقمع فكرا، ولم يعِق منطلِقا، فهو تاركٌ حتما ما يفخر به أى عابر سبيل هذه الحياة المحدودة بطبيعتها، فلماذا الاستزادة من الأيام؟

ثم يستطرد على لسانى "إنه تارك وراءه ماهو أهم، تارك موقفا من هذه الحياة: من قرشها، وبحثها، وناسها، وأخلاقها... وهو موقف جدير بأن يهدى وينير. كلام واضح وصريح، وحقيقى، يعلم الله، إلا أنه كلام، والكلام فى هذه المواقف يبدو جميلا وصحيحا ومقنعا، لكنه كلام.

كيف يكفى الكلام وصاحبنا ــ الموت ــ يزحف فى غير صمت ولامسالمة. ليته يزحف خفيا خبيثا ثم ينقض، لكنّه يجر صاحبى سحلا على حشية من رماح مشرعة طول الوقت، كان الألم أصعب من كل أمر، من كل صبر، من كل حكمة، من كل موت.

ذات مرة من المرات الأخيرة، كان يعيد صديقى علىّ هذا الحديث، وكان مضطجعا على السرير فى الحجرة المشتركة فى فندق "هوليداى إن" على بعد خطوات من المستشفى (ماس جنرال) فى بوسطن، قال مثل ذلك الكلام الحكيم، وهو يهيئ نفسه للرحيل راضيا مرضيا، فأصدّقه ــ كالعادة ــ علّنى أصدق نفسى، قبل أن ينتهى من كلامه هجم عليه الألم الوقح، فتكاد تدمع عيناه فى صمت قابضا على وجهه فى صبر، فأشيح بوجهى عبر النافذة حتى لا يرى ما يتهمنى به "أنى خرع"، وأرجح أنه يشفق علىّ من تألمى لألمه، وليس يلومنى على خراعتى. اضطرب من واقع فشلى فى أن أعينه كما ينبغى، وماذا ينبغى؟ ماذا يمكن أن أفعل؟ هل أحاول تهوين ما لا يهون؟ هل أتصنع التماسك بجوار من يحق له أن يضعف وهو ليس بضعيف؟ هل أستطيع أن أقسّم جرعة الألم فيما بيننا؟ ولا أجد إلا الصمت

المحاور... فيصمت بدوره شاكرا. كأن الاعتراف بحجم العجز، مع استمرار صدق المحاولة، كان هو غاية المطلوب فى تلك اللحظة المكثفة .

فى صمتنا الناطق: نُراجع ــ كلانا ــ مقولته السابقة ونحن نتساءل: "الحسابات صادقة ودقيقة، والحمدُ حقيقى، والرسالة اكتملت، أو كادت، فلماذا الجزع؟"

يبدو أن ثمة فرقا بين أن تتحدث عن الموت "من حيث المبدأ" وأن تعيشه من حيث الواقع المتمثل، فرق بين أن تتكلم عن الموت، وبين أن تموت. إن ثم علما الآن اسمه "علم الموت" يفرق بين "الموت Death"و "أن تموت ،.Dying "هل رأيت التقدم؟ ؟ يا فرحتى !

أتصور أننا – صديقى هذا وأنا – حين كنا نتحدث عن الموت كنا نتحدث عن "مفهوم"، عن "إسم"، عن "صفة"، أما "نحن" "الآن" فنحن فى مواجهة "فعل" الموت، حال الموت (حالة كونه: يموت!) يبدو أن فعل الموت هذا هو هو، سواء فاجأنا من خلف ظهورنا، أم تقدم إلينا مواجهة بكل وقاحة و علانية، بكل ثقته وثقله، ونحن فى قمة الاستعداد لملاقاته، وأنظر فى عينى صديقى فأرى بجوار الحكمة والتسليم والرضا والصدق، أرى... الحياة تطل بحرص عنيد ليس مثله شىء، وكأنها تذكرنا بزيف هذه الحكمة المدّعاة.

أتذكر ونحن فى فى مطار جون فوستر كنيدى (نيويورك) وهو لا يكاد يقدِرُ أن يخطو خارج سلم الطائرة، ونحن نحاول أن نلحق بطائرة "باناميركان: بانام" إلى بوسطن حتى لا نغير المطار ــ وهو فى هذه الحال من الوهن والألم... أتذكّره يقول لى ــ منكرا ــ بفضل دفع الحياة الآمِل: "والله يايَحيى ماعندى حاجة" وكان الوحيد الذى ينطق اسمى صحيحا بفتح الياء الأولى، كذلك كان ينطق لفظ "جَدى" بفتح الجيم"جَدى"، وكان شديد التعلق بهذا الجد الذى حفظه القرآن تلاوة وفهما والتزاما وهو بعدُ طفلا، فبكّر فى حكمته، إذ ساهم فى سرقة طفولته، كان يحكى لى كل ذلك ليبرر كيف أنه" "كهل بالقوة"، "وكهل بالضرورة"، وأتعجب لمحاولته إنكار كل ماعنده من آلام، بل ومن حقائق مرضه التى ظهرت فى التصويرالمقطعى قبل السفر، ينكرهذا وذاك حتى على نفسه، إن استطاع، ثم راح يتمادى قائلا "ياخجلك من الأمريكان حين يثبتون لك أن كل هذا ليس إلا اضطرابا نفسيا، وأنك عجزت عن تشخيصه فضلا عن تطبيبى، فتواجه خيبتك مرتين". أبتسم متمنيا هذه الخيبة كما لم أتمنّ شيئا من قبل. وإن كنت قد رفضت تماما أن أتصور ــ منذ البداية ــ أن صديقى هذا ــ كما أعرفه ــ يمكن أن يبالغ فى آلامه (نفسيا؟!)،

صديقى هذا صاحبَ الألم النفسى والجسدى من أقدم القدم ،منذ كان هو وأخته يمرّضان أمهما، وهو بعد صبيا وهى بعد غـَضـَّة لم تتفتح، وأمهما تمضى الليلة تلو الليلة تلهث جالسة بلا نوم من عجز القلب أن يدفع الدم من الرئتين، لا.. ليس هذا هو الرجل الذى يمكن أن يتأوه إلا إذا ضغط المرض

على (أو انقض يلتهم) نسيج عصب حسى بكل القحة والتحدى، حمـدت الله علـى تـصوره خيبتـى، وابتهلتُ راجيا: "من يدرى، لعلّها نفسية!!"؟ لكنى كنت أدرى، وهو ــ فى الأغلب ــ كان يدرى ويريـد ألا يدرى،

أقول إنه رغم الحكمة والحمد والرضا والتسليم، كانت قفزات الحياة وطموحاتهـا تطـل مـن عينيـه مزيحة كابوس الموت الجاثم لبضع ثوان أو بضع دقائق، وحين أخذ المسكن الفعال لأول مرة، عـادت إليه شهيته، وحدة تعليقاته، وحسم قراراته، وبعض ضحكه،

فى مستشفى ماس جنرال فى بوسطن تظهر نتيجة تحليل العينة فى اليوم التالى لوصـولنا ونتـيقن أن المسألة أخطر من كل حساب، فالعدو الخبيث قد انتشر، ليس إلى الكبد فحسب، بل إلى غدّة ليمفاوية فى الرقبة، هى التى أخذ منها الجراح العينة. كانت النتيجة من الحسم بحيث أثنت الأستاذ الدكتور الجـراح الأمريكى المسئول عن أن يبحث عن أصل هذا الورم المفترس، لكن غبائى الدفاعى الناكر أصرّ علـى أن يسأله عن معنى ذلك، فراح الطبيب الجراح الحكيم يمط شفتيه فى يأس مهذّب وهو يرد على طلبـى المزيد من التقصى أنه "وما الفائدة؟"

وأحاول أن أخفى بعض الحقيقة عن صديقى، فيحاول أن يصدقنى علّنى أصدق نفسى، لكن الحـوار الصامت الصريح كان يجرى بيننا من وراءنا، حتى أعلننى فجأة، كأنه ينفخ فى نفير نوبة الانـصراف أنه:

" أزفت الآزفة"

قلت له ": أكمل يارجل"

قال فى تلكؤ مقصود: "ليس لها من دون الله كاشفة."

قلت: "الحمد الله أن عندنا صمام أمن نتنفس من خلاله بعد أن يغلق الطب والعلـم حـساباتهما، فـالله سبحانه وتعالى قادر أن يكشف عنا الضر بفضله.

فيشير برأسه، كأنه يوافق، ولايرد.

وحين أختلى بنفسى تلاحقنى آية "أزفت الآزفة" فى تصعيد مدو ("أزفت الآزفة") حتى تملأ الحجـرة، فالفندق، فالمدينة، فالأرض، فالكون جميعا، فأكاد أجرى فـى كـل اتجـاه، وهـى تلاحقنـى:(أزفـت الآزفة.."أزفت الآزفة"، "أزفت الآزفة". "أزفت الآزفة"..،) وحين لا أستطيع الهرب وهى تحيط بى مـن كل ناحية يهيج بىَ الشعر قبل أوانه، ألم أقل لكم أن الشعر مهرب مـشروع، ولا أملـك إلا أن أكتـب بعض رثائه وهو بعدُ بجوارى، ولا أتورع أن أقرأه له، مسوّدة فجة، ــ كانت علاقتنا تسمح بهذا العمق وأكثر. يقول لى مشجعا وهو مازال يبتسم. "إنها ستكون سابقة مميزة لرحيلى حين أساهم فى نقد رثائى وأنا "ما زلت حيا".، قرأت له:

"يختل مجرى العمر والأمل،

(لماذا ياصديقى؟)

دائرةٌ ملتاثة

(عجــّــلت بالنهاية؟)

تقضمُ فى المجهولِ والمعلومِ أنيابُ الظلام الجائعة،

(هل ضقتَ ذرعا باللجاج والجشع؟)

ثارت أجنة الخلايا تصطرع."

فتدمع عيناه،

ولا أستطيع أن أكمل القراءة بعد أن غاب صوتى،

لكنه يصر أن أواصل، فأواصل:

تعملقتْ فطرتك الأبية

لم ترعَ عهدا، لا، ولمّا تنتظر

...

لم نــقوَ بعدُ ياصديقى

(فيم العجالة والسام؟)

تقفز خلف الحد، بعد العد، تقتحمْ

ترجع نحو عشها اليمامة.

لا أجرؤ أن أنظر فى شعرى المسودة هذا ثانية أبدا، حتى أنى نسيته تماما إلى أن عثرت عليه بالصدفة وأنا أبحث عن الفصل الضائع (الرابع/العاشر أنظر بعد). أتذكر أنسى الحاج ومعركته مع فكرة السرطان والإشعاع النووى، فأرتعد من فكرة خالدة سعيد وهى تجسد رعب "الحاج" من هذا الزحف المفترس، ما أشد عجز الإنسان ووحدته، حتى جسده يسلمه ويخونه، الجسد يخون، نعم هذه خيانة، وخيانة نذلة، من سمح له أن يأخذ القيادة؟ من سمح للخلايا أن تجن؟ من سمح للحدود أن تنهار؟ خيانة!!، ولكن من يخون من؟ من يخون ماذا؟ ماذا يخون من؟ آه. (لماذا لم يستطع سعد اللله ونوس أن يصرع هذا الوغد المفترس ؟ خاطر لاحق أثناء المراجعة).

هو الموت يتقدّم بخطى واثقة، وإن كنت لا أعرف تحديدا كيف، ومن أين سيقطع شريان الحياة فى نهاية النهاية، ودعوت الله أن يلطف بنا فلا يثقل جسده، ولا يهين صورته، ولا يختبرنا وأهله بما لا نقدر عليه، وعلى الرغم من لطف ربنا وعفوه، فقد مرّت الخطى ثقيلة، والحسرة غائرة، والوعى

شائكا، كما كان العجز أمام المرض الزاحف والألم الضاغط مخجـلا طوال هـذه الـشهور الـسبعة، وحتى هذا الأسبوع المريع.

قبل هذا الأسبوع الأخير كان صديقى قد تماسك بعناد محبى الحياة ممن يواصلون العطاء والتجلد فـى كل حال، فاستطاع أن يذهب إلى عيادته: يشخص الداء، ويصف الدواء، ويتقبل الـود والـدعاء مـن مرضاه المعترفين بفضله، وحين مررت عليه فى العيادة أدعم خطوته تلك بلقاء وحـديث بعيـدا عـن تمديد السرير وعجز القربة الساخنة: جعل يتعجب ــ حامدا ــ من موقفه الطبى المعالِج، وهو لا يجـد سبيلا إلى علاج نفسه، وأحاول أن أنتقل بالحديث بعيدا عن مواجهة العجز:

رحنا نتذكر تلك الليلة التى قضيناها فى بيت صديق لنا فى "نيوارك" (وهى بلـدة بجـوار نيويـورك، لكنها ليست هى رغم تقارب الاسم كما يبدو)، حيث كان صديقنا هذا يعيش وحده بعد أن هجرته زوجته الإيطالية الأصل مصطحِـبة ولديه، ذلك أنه حين تكون فى أمريكا، إفعل كما الأمريكان، فما بالك وقـد أصبح مضيفنا أمريكيا بالتجنس والتعود، إذن فقد فعلها بالأمريكانى وأكثر، فراح صديقنا المتـأمرك د. عاطف غندر، يدفع ثمن مزاعم الحرية والغربة والرفاهية: انفصالا أسريا، فطلاقا موقوفا حتـى يتفقـا على قسمة شقاء العمر وعرق الغربة بينه وبين هذه المرأة (زوجته) التى يبغضها كما لـم أره يـبغض مخلوقا من قبل، كنت أعتبره لا يستطيع أن يبغض أصلا، يبغضها هكذا على الرغم من أنها أم ولديـه الذين يقيمان معها ــ كل هذا وضحكته لا زالت تجلجل ــ كما اعتدناها من ثلاثين عامـا فـى منـزل نواب المنيل فى قصر العينى، مازالت تجلجل فى منزله الخالى حتى من الأمل.

كان زميلنا هذا د. عاطف غندر قد أبلغ اثنين من زملائنا المصريين (المتـأمركين أيـضا) بوجودنـا وبسبب وجودنا كذلك. اتفقنا أن نلتقى جميعا عنده ذلك اليوم، فحضرا من أطراف القارة لنعيش ليلة من ليالى منزل النواب (١٩٥٩/٥٨). نعيشها سرقة من وراء الموت الزاحف، ونحن محاطون بأجواء الألم المروَّض مؤقتا بالمسكنات والذكريات.

السبت ١٩٨٥/٨/٣

كنا خمسة، صديقى المريض السعيد الرازقى والمضيف د. عاطف غندر، وزميلنا القادم من شـيكاغو حاملا معه كل ريح "ساقية أبو شعرة"(موطنه الأصلى!) د. أحمد رشيد، ثم د. محمود شعلان أخـصائى الباثولوجيا الإكلينيكية. على ما أذكر،وزميل رابع (لم يكن من زملاء بيت النواب)، كان قد حيـل بينـه وبين مواصلة الدراسة معنا عاما بعام. حين مُنح أجازة إجبارية (إخوانية) فى معتقـل ناصـرى لمـدة عشر سنوات خرج بعدها يعدو إلى أى مكان فى العالم إلا مصر، حتى صار أمريكيا رغم أنفه، لكنـه أمريكى معمم دون عمامة، وهو ما زال إخوانيا (ربما رغم أنفه كذلك)، وكان مازال لا ينادى أيًّا مِنّـا الا بـــ "يا مولانا".

رحت أطيل الحديث عن تلك الليلة عّلنىّ أنسيه فراغ عيادته بعد أن كانت تعج بالمرضى، فهم لم يعلموا بعودته بعد، ويقول لى هل لاحظتَ أن أحدا من زملائنا هؤلاء ــ فى أمريكا ــ لم يتغير على الرغم من عشرات السنين، وأقول له إنهم لابد يقولون عنا مثل ذلك.

ويذكّرنى حين كنّا فى نيوارك كيف راح احمد رشيد، صديقنا "الجلدى الجراح (جراحة الجلد أصبحت تخصصا حديثا!!) يحكى لنا ذكرياته فى قريته التى تعيش معه فى أمريكا، وكيف أن هذه الذكريات ظهرت نابضة، وكأنها جاءت معنا من مصر ليعيشها صاحبنا من جديد، ذكريات أثار بعضها أننا جلسنا معا فى تلك الليلة، فى بيت مضيفنا عاطف غندر، نأكل على الأرض، نغمس من طبق واحد، فجعل يحكى لنا أحمد منطلقا بلهجته ذات الرائحة الريفية الأصيلة التى لم تتغير، وكأنه لم يغادر قريته إلى المركز فضلا عن القاهرة، فأمريكا، يحكى بتصوير دقيق حتى كدنا نرى حكايته ماثلة أمامنا.

حكى أحمد رشيد ونحن جلوس على الأرض أنه ذات يوم وهو بعد طالب ثانوى، حين كان فى ساقية أبو شعره، وقد اجتمع (مثلما نحن مفترشين الأرض) مع أولاد عم له حول طبلية محدودة المحتوى، راح ابن عمه الأكبر ينهر أخاه هامسا أنه "ماتحقش يادسوقى"، ربما إكراما للضيف الذى هو صديقنا، أو توفيرا للطعام حتى يكفى الجميع، لكنّ أخاه ولا هو هنا، فيكرر الأخ الأكبر مغيظا أكثر: "ماتحقش يادسوقى"، ودسوقى يمضى فى مهمته بجد أكبر، فيهيج ابن العم الناصح المجامِل، ويهجم على البيض المقلى مشمرا ساعده ممسكا بلقمة طرية تكاد تزيد عن نصف رغيف حالفا أنه "طب علىّ الطلاق لانا حافف"، وتستعر المنافسة بين دسوقى وإبن العم، أما ثالثهم ــ صديقنا أبو تيريك ــ فقد راح فى الرجلين ضحية هذه المنافسة التى لم يـُدْعَ للاشتراك فيها، فلم يلحق شيئا مما فى الطبق.

كان أحمد رشيد يحكى لنا الحكاية وكأنه يعيشها الآن بكل تفاصيلها، ياه!! هو أحمد رشيد، مازال هو هو، رغم الزوجة الأمريكية والإبن الطفل "تيريك"، اسمه طارق لكن زوجته الأمريكية لا تسستطيع أن تنطقه إلا هكذا، فحذا حذوها وإلا ارتبك الطفل الذى لايعرف جملة عربية واحدة، وحين قلت له: إذا كان هو مازال هكذا كما هو، فلماذا لا ينزل مصر على مدد متقاربة، فيأخذ جرعات منشطة من هذا الوجدان الأعمق؟ فيضحك احمد ويجيب حاكيا أنه:

حين نزل فى المرة الأخيرة (منذ عدة سنوات) نزل فى بيته، بيت أمه، فى ساقية أبو شعرة (عادى)، وكان قد حضر بجواز السفر الأمريكى، فإذا به يعلم أن عليه أن يبلغ السلطات، أى رئيس النقطة فى القرية !! (أو شيئا من هذا القبيل) أنه ينزل عند أمه، أو إن شئت الدقة: كان على أمه أن تبلغ السلطات بواقعة "إيواء أجنبى"، ويستمر فى الضحك مشيرا إلى نفسه "... أنا؟ على قبة فرننا؟ أجنبى؟؟!" ويسوى الأمور مع السلطات حتى لا تنزعج أمه، ويظل يحكى ويحكى وكأنه يريد أن يتأكد أنه مازال قادرا

على كل هذه الطلاقة بالعربية، أو كأنه يفرغ مخزونا طال حبسه وراء أسوار لغة أخرى، ورموز أخرى ("يا").... ("يا")... بتثقيل الياء وميل الألف قليلا!!)، وأسأله: "وهل تحلم يا أحمد بالعربية؟، أم بالأنجليزية؟" فيسكت للمفاجأة، ثم لا يجيب، كأنه يدفعنى بعيدا حتى لا أعرّى نومه فى غربته.

يتدخل زميلنا "الاخوانى" شارحا: كيف أن الأنسان منا مهما طالت غربته "يامولانا" فهو معجون بماء النيل من تراب مصر، و (لهذا) فهو يطلب أن نبحث له عن عروس مصرية، وزميلنا الأخوانى فى سننا، (أوائل العقد السادس) ـــ ونكتشف أنه لم يتزوج بعد، وما أن يعلننا برغبته فى أن نبحث له عن عروس حتى يضحك الزميلان المتأمركان، فندهش أنا وصديقى السعيد، ونتبين بالسؤال أن "مولانا" هذا لا يقابل مصريا يعرفه فى أمريكا، أو قادما من مصر، إلا ويمارس معه هواية أن يوظفه له خاطبة خاصة، ويا ويل من يأخذ المسألة جدا، لأن "مولانا" هذا لا يتعدى مرحلة نية الخطوبة أبدا، وهو لم يذهب حتى لمشاهدة أية عروس رشحت له، وكأنه لم يستطع بعد أن يزيل آثار العدوان الناصرى على وجدانه، وانتمائه، وأمانه، وآماله، فتقطعت حباله مع الوطن إلا من زيارة (تخفف عبء ضرائبه بادعاء المشاركة فى مؤتمر أو إلقاء محاضرة). كما تقطعت حباله مع أسرته الأصلية الأولى إلا من مساعدات مادية رمزية يرسلها بين الحين والحين، وأيضا تقطعت حباله قبل أن تبدأ مع أسرة مزعومة ينشئها فى خياله بمشاريع الخطوبة المجهضة، ومع كل الضحك والتذكرة بهروبه المتكرر، فقد أصر أن يعطينى عنوان أخيه فى القاهرة، فضلا عن تليفونه شخصيا فى أمريكا، لأتصل به فور عثورى على العروس، وكأنها فرصة ستسنح لتختفى، فأضحك بدورى بعد أن عرفت اللعبة المكررة، ويضحك سعيد وهو فى قمة معاناته ملء تاريخنا معا.

بدا لى حينذاك كأن هذا اللقاء قد مسح المرض وأوقف زحفه، فضلا عن تخفيف الألم أو محوه، وأتمنى أن يتوقف الزمن عند هذه اللحظة، وألا نسافر، وألا نعيد الفحص، وألا نعالج، وألا نفكر، وألا نسأل، أتمنى أن نظل فى هذه اللحظة تحت تأثير المسكن الكميائى والذكرياتى معا حتى يأذن الله فى أمرنا جميعا، معاً.

ونتذكّر كيف تطرق الحديث تلك الليلة إلى أحوال زملائنا فى أمريكا، وأنكش أحمد رشيد أن يحكى لنا بطريقته عن نظام العيادات الجماعية التى يشارك فيها، وكيف قلب الأمريكان كل شئ إلى "أعمال" تجارية Business فيقول إن مصر هى أسبق فى شطارة رجال الأعمال بلا منافس.

ويحكى لنا أحمد وكأنه ما زال فى ساقيه أبو شعرة مهارة أول رجل أعمال أعجب به فى مصر، وتعلّم منه ما نفعه فى أمريكا. حيث الشطارة فى أمريكا هى رأس المال الحقيقى. يحكى أحمد:

هو بائعٌ طاهٍ عند حاتى الحسين، كان يتحايل بذكائه وحسن تسويقه أن يبيع الزبون (صاحبنا) ما يجعله لا يُرجع له باقيا من البريزة، فمحل "كل كبدة ومخ زين ،واقرا الفاتحة للحسين" كان يبيع سندوتش

الكبدة بستة قروش، ولكن رجل الأعمال الحسينى يظل يستدرج صاحبنا يغريه بإضافة بعض البطاطس المقلية، والحلويات السمينة، ثم حبة الطماطم هذه بالثوم والشطة التى تفتح نفسه وتستاهل فمه، المهم ألا يرد مليما من البريزة الصحيحة.

وأنبــّه أحمد معابثا أنى كنت أسأله عن رجل الأعمال الذى يدير عيــادتهم الجماعيــة بــالقرب مــن شيكاغو فإذا بنا فى سيدنا الحسين، فيضحك حتى يستلقى، فتهتز سلسلة ذهبية حول رقبته وهى تتــدلى بشكل ظاهر من قميصه المفتوح حتى تلامس أثر جرح عملية القلب التى أجريت له منذ بضع سنوات، وأقول له إنى لا أستطيع أن أتصوره ــ وهو الرائق البال، السهل المعاشرة، المتجلى الضحكة ــ وقــد أصيب بانسداد فى شرايين القلب (ذبحة صدرية!) لدرجة تستدعى هذه العملية، والا فماذا أبقى لأمثالنــا من المهمومين المكتومين الحائرين، فيوافقنى نــاظرا إلــى صـــدره ضــاحكا مخاطبــا قلبــه قــائلا: "كسفتــِنـــِـــى الله يخيبك"، ويحكى لنا:

إن المسألة لم تكن إنسدادا معــلنا، وآلاما وأعراضا مثل خلق الله المذبوحين صدريا، وإنما الأمر قــد اكتُــشف بالمصادفة أثناء الكشف الروتينى، ذلك أنه بصفته شريكا فى العيادة الجماعية التى كنا فتحنــا الحديث عنها، قد اعتبروه ــ شخصيا ــ جزءًا من رأسمال المؤسسة، وبالتالى عليه أن يتبع نظاما دقيقا للفحص الدورى حتى لو لم يشكُ من شئ، عليه أن يجرى الفحوصات المفروضة مثل أى اختبــار لأى جهاز سوف يستعملونه فى العيادة الشاملة، كما أن عليه أن يجرى العمليات الجراحية المناسبة إذا لــزم الأمر ليدخل إلى الشركة مضمونٌ عمره الافتراضى وكفاءته حتى لا يتعطّل العمل إذا ماحدث شئ كذا أو كذا، وأشعر ــ ويوافقنى ــ أنهم قد أجروا له هذه العملية من باب أن "الاحتيــاط واجــب"، وأكــاد أتصور أنهم قد جددوه، مثلما نغير الإطار الداخلى فى إحدى عجلات السيارة قبل أن ينفجر، مادام قــد كاد يــُستهلك حتى لاينفجر فى مكان غير مناسب، فيوافقنى على كل ذلك، وعلى الرغم مما يبدو فــى كل هذا الإحتياط من تقدم علمى وطبى، فإنى شعرت بأن المسألة كلها هى من باب "حسابات الجــدوى" لصالح المؤسسة التى يعمل بها أولا وقبل كل شئ، وأن عمليات "الصيانة الآدمية" هذه لا تختلف بحــال عن عمليات الصيانة لأى جهاز فى نفس المؤسسة، وأكاد أرفض ذلك وكأنى أفضل المــوت وســط ود دافئ على أن أصبح هكذا مجرد جزء من آلة كبيرة يحافظون على حياتى لأن ذلك أرخص من وفاتى، التى ستضطرهم إلى شراء آلة طبية بشرية جديدة تملأ الفراغ الذى سأتركه، وأكاد أضبط نفسى متلبسا بهذه الشاعرية البدائية، وأنا أرفض أن يعتنوا بى كمصدر ربح للمؤسسة أساسا، أو تماما، كأنى أفــضّل أن أموت بالصدفة على أن يصلحونى دوريا، أو يجددون ما هو معرّض للتلف فىّ قبل الاستعمال، قبل أن أتمادى فى الادعاء حتى أكاد أصدق نفسى ألتفت بإطلالة سريعة فألمح هذا الوغد الزاحف المتربص يطل من عمق عيون صديقى المترنح من الآلام، ألمحه يمتد وسط الضحكة العريضة، فأرفع كلتا يــدى

معتذرا مستسلما، وكأنى أعلن قبولى أن أكون ــ ويكون ــ قطعة غيار بشرية، تُصان كما تصان الآلة "لعل وعسى". ترى هل يمنع ذلك من أن يزحف الموت إلينا وغداً يتلمظ؟ همست لنفسى بلا معنى مـرة أخرى: لعل وعسى؟! أىُّ لعل وأىُّ عسى؟ إن مرض صديقى لا ينفع معه احتياط ولا صيانة ولا "لعل"،ولا "عسى"، فالخلايا المغيرة ملتهمة متقدمة لا يوقفها ولا الشديد القوى، لم يكن بالإمكان عمل أى شئ فى أى وقت كان، قالها صديقى منذ عام وبعض عام حين اكتشف تلك الدائرة الغريبة قابعة فى أيسر كبده، اكتشفها بالموجات الصوتية بمحض الصدفة وهو يبحث عن احتمال حصوة ناحية الكلية اليمنى!!، وحينذاك وضع المسألة برمتها فى جملة مفيدة، ظلت للأسف هى الحقيقة الأولى والأخيرة فى كل ما جرى بعد ذلك، قالها بشجاعة الفرسان، وحكمة المؤمنين:

"هذا مكان خطير وتلك علامة دالة، فإن كانت المسألة حميدة فلا داعى للتدخل، وإن كانت غير ذلك فلا فائدة من التدخل". وأكاد أسمع الخيام يصفه دون غيره:

فاذا ساقى المنايا أوجبا:

شربة غصّت ومرّت مطمعا ،

فأحسُ جلدا خمرة الموت الزؤام.

ومع ذلك: ما أن عاوده الألم عقب العيد الصغير الأخير، ثم تبين ما تبين، حتى عدنا نهتاج ونقول ونعيد فى ما لا يفيد، وأنه "لو كان كذا..لكان كيت" كلام فارغ فى فارغ، وتثبت الأيام أن رؤية صديقى الأولى هى الأدق، والأشجع، وأنه بقراره البسيط الشجاع ذلك، قد سرق من الزمن عاما وبعض عام، تهيأ فيه للرحيل، كما أحسن الوداع، لكن الضعف البشرى ينفخ فى العناد أمام عدو متفوق فى العدة والسرعة ووسائل الإبادة، ولا نتعلم من العجز، ولا نتعلم من الموت إلا قليلا، وحتى هذا القليل لا نطمئن إلى مدة بقائه فى وعينا، بما يسمح بتحرير سلوكنا، بما يتضمن هذه الحقيقة الراسخة البسيطة:

"الموت "حتم القدر".. ونسيانه فى كل لحظة هو حتم البشر.

أفيق لأجد نفسى ما زلتُ جالسا فى عيادة صديقى الخالية فى شارع قصرالعينى، لكن الممرض يدخل معلنا حضور كشف، فأبتسم منصرفا، فيبتسم صديقى فاهما، (أنه" :ولو"، لنضحك على أنفسنا قليلا) .

أنزل على السلام المظلمة مفضلا ألا أنتظر المصعد .

السلالم قذرة. العمارة حديثة شارع قصر العينى .

أطل علىّ فجأة وأنا نازل، وسط الظلمة والقذارة والرائحة القبيحة، كلٌ من وجه ريجان الأمريكانى العارى من كل شئ، وكل تعبير، وكل نبض، وحتى كل تمثيل، ثم ماركوس الفلبينى تدفعه زوجته الجميلة فوق كرسى هزاز ملطخ بنزْف وروث، أى والله، أهلوس أنا مثل مرضاى !!!

هؤلاء الناس (ريجان وماركوس وأشباههما) ألم يبلغهم نبأ ماهو الموت، مع أنهم ميتون الآن أو بعد باكر، فإن كان بلغهم، فلماذا هذا؟ وإن كان لم يبلغهم، فكيف؟

أسئلة طفلية، وبديهيات ردودها جاهزة والعظة فيها شكلها حسن لكن يبدو أنها — من كثرة تكرارها على منابر المساجد والكنائس وفى محفوظات المدارس والدعايات الانتخابية قد أصبحت ديكورات للحياة الدنيا، وليست الوسيلة الأولى لتغيير الحياة كلها وتطوير الوجود،

أى قانون تطورى جديد يحكمنا الآن؟ "البقاء لمن؟": للأقوى (ذريا)، للأنفع (يهوديا)، للأسبق (استغلالا)؟ البقاء لمن؟ وهاهم: ريجان، وماركوس، وشارون، وديفاليرا يعيشون "جدا"، فى حين أن الموت يقترب من صديقى دون سائر الناس،

أضبط نفسى متلبسا بالنظر فى البديهيات القديمة، مثل طفل يتعرف على الدنيا الماثلة بعيون متجددة، نفس الآفة القديمة. يعاودنى هذا التسأول المزعج:"لماذا يعيشون؟" بالنسبة لأولاد الخنازير هؤلاء يبدو السؤال معقولا، إلا أنى أذكر أنى عشت نفس التساؤل فى ظروف أخرى، غريبة ومرفوضة.

ذلك أنه مر على حين من الدهر، فى فترة غرور الفتوة وتصور احتمال تحقق الحلم، كنت فيها أسأل نفسى هذا السؤال عن الناس العاديين ممن لا أرى لحياتهم معنى أفهمه أنا بحساباتى الواضحة (التطورية والعياذ بالله!!) وكأنى موكل بدراسة جدوى استمرارهم لصالح أفكارى (هل تذكر راسكولينوف فى الجريمة والعقاب؟)

وكان لى صاحب آنذاك (طبيب نفسى أيضا) ينبهر لما أقول، رغم أنه يرفضه فى البداية، ويناقشنى فيه بحماس شديد، لكنّه اذا اختلى إلى نفسه صدّقنى، فراحت أفكارى تتردد فى وعيه بلا إستئذان، فيذهب يتساءل بدوره: لماذا يعيش هذا؟ ولماذا لا يموت ذاك؟ وتزداد المصيبة حين يطلق السؤال عشوائيا فيصيب صدفة أحد أقربائه من الوادعين فى الحياة ممن يبدو عليهم أنهم أقفلوا حساباتهم مبكرين، فأخذوا يدورون فى محلهم فى رتابة مستسلمة، واذا بصاحبى "المقتنع" هذا يراهم بمنظار أفكارى فيكتشف أنهم "مستمرون بلا داع"، وكان يعود إلىّ ثائرا علىّ، لاعنا يوم عرفنى ويوم سمع منى، ويوم صدّقنى، فأعتذر له مؤكدا أن تسأولاتى هذه لا تعنى الرغبة فى التخلص من هؤلاء الذين حسبَهم "زيادة عدد"، ولكنها مجرد تساؤلات خائبة، تعلن عجزى عن فهم قوانين الحياة الأعمق، بدليل — مثلا — أنى لا أدرك فائدة دولة النمل المهولة، ولا أعرف أسرار عالم القنافذ، وإن كنت كثيرا ما أشعر بالزهو أنى أنتمى إلى نفس الوجود الحيوى الذى ينتمى إليه الفيل والدرفيل وحمام الزاجل والنورس، لماذا؟ لست أدرى، إذن فهى تساؤلات عجز تطلع منى بصوت مسموع، لكنها أبدا ليست مواقف رفض أو تبريرات قتل.

قد حدث أن ضبطت نفسى متلبسا وقد انطلق منى هذا السؤال يــدور حــول مغــزى حيــاة "مــن لا يتطور"!!، كان السؤال يحوم حول خالتى، هى أمى الثانية، أو الأولى، حملتنى ــ على كتفها ــ وهْنــا على وهن، وقد عاشت وحيدة بلا ولد ولا زوج بعد أن طلقت وأنا فى الرابعة عــشر، ولــم تقبــل أن تواصل حياتها معنا فى بيت أمى على الرغم من أن أمى هى شقيقتها الوحيدة، ذلك أنه "ياداري ياســتر عاري يا منيّماني للضحى العالى"، وقد تعلمتُ منها فى مسألة الحياة والموت ــ فى كِبَرى ــ أضــعاف ما تعلمت أى شئ من أى أحد فى صغرى. كانت علاقتها بأشيائها ــ مع عدم وجود هــدف مقنــع ــ غاية فى الدلالة:

كان من بين أشيائها التى انتقلت إلى بيتنا مؤقتا بعد طلاقها "بوريه" (أو "بوفيه"، والفرق ليس واضــحا عندى)، وكان موضوعا فى "طرقة" ضيقة أثناء إقامتها لبضعة شهور عندنا فى مــصر الجديــدة بعــد طلاقها، وكان وجهها يتغير غاضبا إذا لمسنا هذا البوريه أثناء مرونا، وكأننا بلمسه سننتقص منه شيئا، وكانت تغطيه بملاءة قديمة نظيفة تتصور أنها تحمى البوريه من تأثير مستطيل الشمس الصغير الــذى يصله مترددا قادما من شباك مواجه، ثم تظل تحرك الملاءة مع حركة مستطيل الشمس طول النهــار، وكأنها تخشى عليه أن تصيبه ضربة شمس. كنت أحيانا أرجّح أنها ربما تستعد لبداية جديدة مــع زوج جديد، وأن هذا هو رأس مالها، ولكن السنين مرت بعد ذلك بالعشرات، ولم يتحقق شئ من هذا، ولا أنا لاحظته حتى فى خيالها، وهى لم تتغير إلى غير هذا، بل ازدادت تعلقا "بالأشياء" حتى نهايــة النهايــة، وكنت أتساءل فى كل مرة أزورها: لماذا؟ وحتى متى؟ وحين شغــلتنى الدنيا عنها فتباعدت زيــاراتى لها إلى كل عدة شهور، ظلت هى مستمرة كما هى، وحيدة عنيدة، تعيش صلبة فــى دائــرة واضــحة المعالم بالنسبة لها، أما بالنسبة لى، فكانت دائرة غامضة مثيرة للتساؤل القبيح، كانت حياة مشكوك فــى جدواها ومعناها، أحيانا أسمح بإعلان هذا القبح لنفسى، وأحيانا أضــبطه متلبــسا وراء بــاب وعيــى الظاهر، بدت لى حياة بلا مبرر:، فلا صاحب، ولا ولد، ولا هدف من الأهــداف التــى حــسبتُ أنهــا مبررات الحياة (فلا تطور!!). كانت لا تحب أكثر من أغنيه أحلام "ياعطارين"، كما كانت تعلــق فــى حجرة الاستقبال التى تعتنى بها وكأنها فى انتظار رئيس الديوان، كانت تعلق فرخا كبير مــن الــورق لست أدرى من الذى كتب لها عليه البيتين الشهيرين "سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى، وأصــبر حتى يأذن الله فى أمرى، وأصبرحتى يعلم الصبر أننى، صبرت على شئ أمر من الصبر" مع أنها لــم تكن تقرأ أو تكتب. كانت أحيانا تطلب منى أن أقرأ لها المكتوب، وكأنها لم تسمعه من قبــل، فأفعــل، فتهز رأسها ولا تبكى، أنا لم أرها تبكى أبدا، كنت أسترق السمع لما يشبه العديد تردده وهــى تعطــى وابور الجاز نفسا قائلة:

"أهمّ ما اقدْر اهم أكنى جمل تقل علىّ الحمل،"

ثم تواصل فيما يشبه الغناء

"وانْ حمّلونى حمْل الجمال الحمْر، الحمل أشيله بس الكلام المُرْ

وانْ حمّلونى حمْل الجْمال البيض، الحمل أشيله، بس الكلام يكيدْ."

لم أستطع أن استوعب لـمَ كل هذا الصبر والاصرار والتحدى، لمنْ، لماذا؟ إلى متى. ما أغبانى، ما كان أغبانى. ما أغبانى! أنا مالى؟

وحين كنت أزورها بعد غيبة، كانت تستقبلنى بنفس البشاشة والسماح، وكل ما تقوله من لومٍ محب أنه "إخص عليك" فأتصور أنها تعاتبنى على تقصيرى، لكنها تسارع وتكمل: "ما جبتهُمش ليه؟" فأعلم أن هذا "الإخص" يعود على عدم إصطحابى لأولادى وليس على تأخرى عنها، فأخجل خجلا لا ينفع، وأتبيّن الفرق بين كرم سماحها، وبين نذالة نسيانى، وأتساءل لماذا لا يتآكل إلا الوقت المخصص لصلة الرحم، وهى لا تنفك تدعو لى بالسلامة حتى مع الهجر اذ تهمس لنفسها بصوت أسمعه "قساوتهم ولا خلو بيوتهم"، على الرغم من ذلك كنت أضبط نفسى وأنا أجلس معها، أو وأنا أتابعها وهى تتحرك بصعوبة مستندة الى عصا معوجة قديمة قد أثبتت فى أسفلها قطعة من الكاوتشوك البالى، تتحرك وثدياها المتضخمان جدا (طول عمرها) قد تدليا يخبطان فى بعضهما البعض حتى يخيل إلىّ أنهما قد يثنيان جذعها للأمام حتى يعوقا السير أكثر، كنت أتساءل بالرغم منى (ويا لخسة التساؤل): "لماذا تعيش خالتى هذه بحسابات "التطور؟" ولماذا تبدو وكأنها تحمل رسالة عظيمة معقدة هادفة وأنا لا أعرف عن رسالتها تلك شيئا، لكنى كنت أرجّح فى النهاية أنها رسالة كأعظم ماتكون رسائل الوجود، رسالة تضمّنها كل بريزة تخبئها فى طيات ثوبها، وكل وعاء طبيخ متناهى الصغر تطبخ فيه ما يكفى حاجة شخص واحد، حتى أنى حين كنت آكل منه كنت أتصور أنى عدت طفلا ألعب لعبة البيوت مثل زمان، وكلما ازدادت علاقة خالتى بالحياة توثقا، زاد تساؤلى الخسيس هذا إلحاحا، وأحيانا أجد لتساؤلى إجابات رائعة: مثل أنها "ربما تعيش لتدعو لى أنا وأولادى"، فأضبط نفسى صاحب مصلحة ذاتية فى كل شىء، حتى فى استمرار حياتها.

يا ذا العيب. أنتبه بقوّة إلى خطورة مثل هذا التفكير البدائى الذى يبدو أنه متغلغل فى تركيبنا الحيوى منذ كانت الحياة تتخلص بمنطق عشوائى من كل ضعيف أوعاجز أوعالة. ترى ماذا فعلنا بهذا التركيب القديم، هل يكفى أن ننكره ونتمادى فى التظاهر بعكسه؟ أم أن ثم سبيل آخر لتحمّل مسئولية تطورنا بشرا بالاعتراف به ثم احتوائه. وأخفف من غلوائى فى محاولة البحث عن غاية ــ أعرفها ــ من كل حركة وسكنة وشخص.

كم كنت أدور حول نفسى معاقا بهذا المستوى من التفكير، قال ماذا؟ "التطورى!!" كنت فى غرور الفتوة لا أستطيع كبح جماح هذا الفكر ناسيا عجزى أمام معرفة غاية أبسط الحيوات، فماذا عن غاية

طائر البومة، أو حية الكوبرا، أو دودة البلهارسيا، أو فيروس الايدز؟ وكم حمدت الله أن حب خالتى لى، ودعائها لنا لا يتأثر بهذه البلاهة الفكرية التى تدور حول معنى حياتها "التطورى"، والأهم من كل هذا أننى كنت ــ ومازلت أحب خالتى هذه ربما أكثر من أى شخص آخر.

أذكر أن والدى نفسه كان أحيانا ــ حتى فى شيخوخته ــ يتساءل مثلى، حول هذه المسائل وإن كان تساؤله كان ينعكس على نفسه أكثر مما يصيب غيره، فكان أحيانا يجاذبنى الحديث حتى نصل إلى أن يسألنى: "وأنا.. لماذا أعيش بعد الآن؟ ــ وحين أدعو له بطول العمر يعاكسنى مداعبا أنه "يحق لك، إذ أن كله مكسب، ألستُ "خوليا" زراعيا لكم بدون أجر؟" ــ ولكن ما أن يقترب الموت من أبى حقيقة وفعلا حتى يتشبث بالحياة كما لم أر مثل ذلك من قبل.

حين حَجَبَتْ مضاعفات مرض السكر مناظر الدنيا عن عينيه، ثم حجب التهاب الأذن الوسطى المزدوج أصواتها عن أذنيه، رحت ألازمه فى محنة عجزٍ تغلغلت آثارها فى كيانى حتى النخاع، ثم تصورتُ أنها تضاءلت مع مرور السنين، لكنى ضبطت نفس المشاعر تعود بحجمها وأنا بجوار صديقى الراحل، فى رحلتنا هذه ،

جعلت أواكب صديقى نفس مواكبتى لوالدى معايشا العجز والخيبة أمام قهر المرض فى الحالين، لكن والدى كان قد حبسه عجز الحواس عن التواصل مع العالم، مع تمام صحته البدنية فيما عدا ذلك، أما صاحبى فهو تحت وطأة غول ورمٍ زاحف ملتهم، ويكثف المحنة فى الحالين أن كلا منهما ظل ذهنه متوقدا متسائلا، حاضرا، عابدا، شاكرا، على الرغم من العجز الطبى والألم الزاحف، والسجن الحسى جميعا.

أذكر بعد انقطاع المواصلات مع العالم عند والدى بفقد سمعه وبصره أنه حبس صوته عن الكلام ظنا منه أنه ما دام لايرانا ولايسمعنا، فنحن كذلك، لكن ذهنه يعمل بنفس الدقة والحدة، فراح يتفاهم معى بالكتابة بسبابته، وأحيانا بمؤخرة قلم، على بطن يدى، فأشفقُ أن أذكّره أنه ما زال يستطيع أن يتكلم، فأرد عليه، بدورى، كتابة على بطن يده، حتى كدنا نتفاهم رويدا رويدا باللمس.

ثم أجريت له عملية تزيح الصديد المتجمد فى أذنه الوسطى، فعادت إليه حدة سمعه فجأة بعد العملية، فراح يتكلم وهو يكاد يطير فرحا حتى أنه لم ينم طول الليل، وظل يحكى لنا، أنا وأخى أحمد (أكبرنا) الحكاية تلو الحكاية، ويتندر على رجل كان بمثابة عمٍّ له، كان يبيت ذات ليلة بجوار "الحلزونة" ليحرس البهائم بالتناوب مع عامل أصغر، وحين سمعا صوت "شخشخة" بين عيدان الأذرة، راح العامل الأصغر يسأل "سامع ياحاجّعْلى" (حاج على)، فينكر عم والدى فى إصرار، ويؤكد أنه لم يسمع شيئا من أصله، لكن "الخشخشة" تعود، فيكرر العامل السؤال، ويكرر الحاجّعْلى الإنكار، حتى يفيض بالسائل الغيظ فيصيح ".. ما تقوم تشوف فيه إيه ياحاجّعْلى، ولامش راجل" ــ ويبدو أنه فى جوف

الليل يمكن لــلواحد أن يتحلى بشجاعة من نوع خاص، شجاعة إعلان الخوف مثلا، إذ ثار الحــاجّعْلى مدافعا عن حقه فى الخوف والدفء معا، فراح يعلنها بصراحة، أنه: "مرة ابن مرة، ولا إنـــى إتحــرك من تحت الدفية، واللى فـْ قرنك انفضه يابن بهانة". ولا أتبين ما مناسبة أن يحكى لنـــا والــدى هــذه الحكاية بالذات فى تلك الليلة بالذات، ولكنى أضحك معه، ويضحك أخى الأكبر الذى كـــان يــشاركنى صحبة والدى تلك الليلة، نضحك، كما لم نضحك أبدا. كانت هذه الحكاية آخر ما حكى والدى، ما دلالة ذلك يا ترى؟ أرجح الآن أنه لما سمع أصواتنا بعد طول حبسها عنه وراء حاجز الصديد المتجمّد قفزت الى ذاكرته حكايات الأصوات، بدءا بالخشخشة بين أعواد الأذرة، أو لعله بحكايته تلــك كـــان يبــرر شجاعة الاعتراف بالعجز، ولا ننام ثلاثتنا من الفرحة منتظرين الغيار الأول بعد العمليـــة كمـــا وعــد الجراح.

كنت قد علمتُ بوصفى طبيبا أن ثم تمزقا قد حدث أثناء العملية، تمزقـــا فـــى غــشاء الأم الجافيـــة المحيطة بالمخ، وأن ثمة كمّادة قد حُــشرت فيه حتى لايتسرب السائل النخاعى المحــيط بـــالمخ، وأنّ قرار رفع هذه الكمادة متروك للجراح الكبير الأستاذ الدكتورعلى المفتى الحـــاذق المــشهور، بعــد أن يطمئن إلى التئام التمزق، أو حسب ما يرى، وقد رأى الجراح فى الصباح ابتهـــاج والـــدى لاســتعادة سمعه، وتعجب حين انبرى والدى يناقشه فى السياسة. والدى كان يعلم علاقه د. على المفتـــى الطيبـــة بعبد الناصر، وعلاقة المرحوم أخيه أنور المفتى من قبله، ويواصل د. على الحوار فرحا بنجاح العملية معجبا ببداهة والدى وحجّتـــه، مستبشرا خيرا بالحوار السياسى مع والدى رغــم اختلافهمـــا (!!)، ثــم يجرى الغيار فى حجرة العمليات وما أن تــُزال الكمّادة حتى ينسكب السائل النخاعى فجأة بما لم يتوقع أحد، فيغفو والدى، فينام، فيغيب، ولا يصحوا أبدا.

يمر اليوم فالليلة، فاليوم والليلة وأنا بجواره أتصور فى كل لحظة أن الجــرح ســيلتئم، وأن الــسائل النخاعى سوف يتجمع من جديد، وأن صوته سيعود يحكى لنا الحكاية، تلو الحكاىة، كما بدا فـــى تلـــك الليلة الأخيرة، كنت وأخى ليلتها مثل طفلين يجلسان بجوار أبيهما يسمعهما حدوتة المــساء، يــسمعانها بشغف متجدد ولو كانت نفس الحدوتة، علما بأن أبى لم يحك لنا أطفالا حواديت أصلا، لكنه كان كثيــر الحكى لنوادره مع زملائه المدرسين فى المدرسة وخاصة إذا زين النادرة بشعر مرتَجل.

مازلت أذكر هجاء زميله الشاعر لزميل آخر معمم علّــق على معاهدة استقلال مــصر ســنة ٦٣٩١ بأنها (مصر) ليست أهلا للاستقلال بعد، فقال زميل والدى الشاعر فى ذلــك الــشيخ الــساخط علـــى الاستقلال هجاء ما زلت أذكره بحروفه، قال :

خرف الشيخ فضَلاً   رام يعلو فتدلّى

ماله وهو ابن مصر   ساءه أن تستقلا

مـــــــن لرجلى بقفاهُ   إنه يصلـــح نعــلا

ويــُعجب أبى بالصورة الصارخة فى البيت الأخير، وأستنطقه ــ فى غيبوبته ــ أن يكمل لنا ما بـــدأ، ولكن شخيره ينتظم أكثر، فأنظر بتركيز خاص إلى موضع التمزق عله يختشى ويلتحم ،فإذا بى ألاحـــظ شفتى أبى تتحركان برتابة وهو فى غيبوبة تتفاقم، لكن شفتاه تتحركان كما كان حـــين يـــستغرق فـــى عبادته، وقراءة ورده.

كنت أعلم من علمى الطبى أن القشرة المخية قد توقفت عن العمل بعد هذا الارتجاج وســكب الـــسائل النخاعى فجأة، الا أنى كدت أميـّز ألفاظا معينة من بين شفتيه رجحت أنهـــا "وامتـــازوا اليـــوم أيهـــا المجرمون" فأتيقن من أن ما يمر بشفتيه الآن هى سورة يس، يتلوها بجذع مخه لـــيس إلا، والمحاليـــل المعلقة تساقط نقاطها نقطة نقطة كأنها المسبحة تنظِم ورده اليومى، وأجد نفسى وحيدا معه فـــأدعوا الله ألا يفعلها وأنا بجواره وحدى هكذا، لماذا؟ لست أدرى.

أرجّح بعد مدة أنى ربما قد خِفت شعورا بالذنب نتيجة لعجزى!!، أو أن يتقمصنى لحظـــة انـــصرافِه دون اختيارى، أو أنى كنت خائفا من مواجهة صائدٍ ماهر مجهول يتربص بنا ولا أريد أن أعرف عنـــه أكثر من نتاج قنصه **(**الموت**)**.

حقق الله رجائى. فى صباح اليوم الثالث، جاء أ.د. عبد المنعم حسب الله يتابع إفراز الكلى، وبينما هو ينظر إلى كمية البول المتجمعة أسفل السرير ليطمئننى، كنت أنا أنظر الى حركة نفس والـــدى. وفجـــأة أقول له:"لكنّ نَفَسَه"، فيرفع أ.د. عبد المنعم رأسه ويعتدل بسرعة، يمسك بيد والدى، تتحسس أصـــابعه نبضه ،ينظر لى بطيبة حقيقية. "البقية فى حياتك."

أية بقية؟ بقية ماذا؟

أتذكر كل ذلك وأنا أجلس بجوار صديقى فى غيبوبته، أنظر فى نفسى فأجدنى أكبر سِنا، وأكثر خبرة، وأعرف مصيرا، ولكنى أيضا أكثر طفولة، وأخيـَـب تساؤلا، وأبهر اندهاشا، وأعنف رفضا، أتـــساءل: لماذا لا يستجيب الـــله لدعائى لصديقى؟ ولدعاء ابنتيه وزوجته؟ ولدعاء مرضاه؟ ولدعاء راعية الغـــنم العجوز التى تعمل فى بيته محتمية به من نفسها والناس، وهى لا تعدو أن تكون قطعة من الفطرة لـــم تتشكل؟ لماذا؟

فإذا كان الله سبحانه لا يستجيب لكل هذا الدعاء فكيف نحسِبها إذن؟

ما هى المعادلة التى قد تحل لنا اللغز فيـــما بعد مدى رؤيتنا؟

لماذ يطلب منا أن ندعوه، أستغفر الله، لماذا لا نعرف تلك الحسابات حتى نسلك الطريق الصحيح إلـــى اليقين، واذا كان والدى قد أنهى مهمته فسَتَرَنَا، وزوّجنا، وقام ليلهُ، وقرأ وردهُ، وحكى حكايته، ودعـــى ربـــَّهُ، ثم مضى، وإذا كانت خالتى قد عاشت بلا ولد ولا هدف **(**ظاهر لى**)**، ثم راحـــت بهـــدوء كمـــا

تمنت تماما، فلماذا يذهب صاحبى "هذا" الآن "هكذا" وهو فى قمة عطائه، وبداية جنيه لعائد تعبه ولشقائه، وهو فى تمام نضجه، وشدة حاجة الناس لعلمهْ؟

لماذا الآن؟ ولماذا هكذا؟

وأضبط نفسى وقد مُلئت بـ "لماذات" كثيرة، ولا أعرف لمن أوجه التساؤل: للموت؟ أم لخالق الموت والحياة؟ بل إنى ذات مرة ضبطت نفسى وأنا أوجهه لصديقى الراقد فى غيبوبة الموت، وكأنى أعاتبه لأنه يتركنا فيقسو علينا ــ هكذا ــ بذهابه، وأتذكر رثاء كتبته فى صلاح عبد الصبور، وقد التقيت به صدفة قبيل وفاته بساعات فى برنامج عن مسلسل "أديب" طه حسين، قلت أعاتبه.

.."وحين تقسو إذ تموت وحدَك، تفرّقتْ قوافلُ الكلام،

ماعاد يجمعها حداؤك الحزين ،"

هل حقا أن حزننا على فراقهم هو احتجاج على انسحابهم؟

هل حقا نحن نتمنى ــ كما نزعم أحيانا مولولين ــ أن نغادرها معهم؟

وفى الحالين: أليست هى الاعتمادية عليهم هى التى تهوّل لنا ما سينقصنا بعدهم؟

وما ذنبهم هم يستمرون من أجلنا إذا كانوا رضوا أن يتوقفوا ها هنا؟

ولكن هل هم رضوا حقا؟

ثم إنى أحسب أنها ليست كذلك بالضبط، فهناك جانب يقول: إننا نعاتب ونحتج ونهم بالرحيل معهم رغبة فى أن نستمر معا بغض النظر عن "من" يعتمد على "من"، أما سؤال "لماذا؟" فيبدو أنه أصيل فى علاقتنا بالرحيل الأخير، نقوله فيما يشبه الفلسفة أو التفلسف، ونقوله فيما يؤدى الى مزيد من التسليم للايمان بالغيب، ويقوله عامة الناس بغير التفكير فى هذا وذاك.

حين كنا أطباء مقيمين فى منزل نواب المنيل (١٩٦٠/٥٩) (صديقى وأنا ومضيفنا عاطف غندر فى أمريكا وآخرين)، كان المنزل يقع بالقرب من المشرحة، (مشرحة قصر العينى الشهيرة!! أقيمت مكانها ومكان منزل النواب هذا كلية طب الأسنان الجديدة). كنا نستيقظ على نداء منغم "ودا كان ليه؟ ودا كان ليه؟" ثم يعلو النداء تدريجيا حتى يطغى على أرضية العويل والنحيب والصوات، نفس التساؤل "لماذا؟ لماذا؟" رحنا فى البداية نتشاءم من النواح وخاصة أيام الامتحانات، حيث كنا نتطير من هذا العديد هكذا على الصباح. خاصة أيام امتحانات الدبلوم، ثم أخذنا نعتاده، ثم نستأنس به، ثم نستعمله فى مداعباتنا موجهين الإشارة والمحتوى إلى غير أصله، "ودا كان ليه: هذا السؤال الصعب فى غير المقرر"، "ودا كان ليه: ذاك الممتحِن السمِج المتحيز".. ودا كان ليه: للزميل الذى أحب ولم ينل الوصال (اللى حب ولا طالش) وهكذا رحنا نألف الموت وأهازيجه حتى نسينا مغزى السؤال، وحتى المشاعر المواكبة

لأهازيج الموت وعديده لم تعد تؤثر فينا، وربما كان لمهنتنا دور فى هذا التعود (أو التبلد) ومـــع ذلـــك فما أن نواجه الموت شخصيا حتى يبدوا لنا حدثا جديدا ليس كمثله شىء

وهل أفعل أنا الآن مع صديقى حين أتساءل" لماذا؟"، هل أفعل أكثر من نسوة المشرحة وهم يـــردون "، دا كان ليه، ودا كان ليه؟."

وأكتشف أن خطابى إلى صلاح جاهين حين عملها هكذا، كان كله عتابا ورفضا لموتـــه، أكثـــر منـــه حزناً لفقده. كان عديدا لائما، رحت أقول له":

يا صلاح، كان لسه؟

ماقدرتش تشرب شفطة كمان من ألم الوحده

...

ياصلاح مش بدرى؟

طب حبّه، طب حبّه، طب لأه.....

كدهه؟ آه يانى.

طب روحْ.

لأ لأه، ماتروحشى.

إزاى؟

ماعرفشى.

علاقتى بالموت والموتى ليست جديدة علىّ، كذلك حوارى معهم، فقد انتقل والدى بنا من منزلنا الكبير ذى الثلاثة أدوار فى داير الناحية فى قريتنا الى حديقة فى أطرافها أو بعـــد أطرافهـــا تقابـــل المقـــابر مباشرة، فكنا لاندخل ولا نخرج الا ونحن نمر على "السابقين" الصامتين دون أن نتـــذكر أننـــا "نحـــن اللاحقون"،

ظلت هذه المقابر تمثل عندى مصدرا للتخويف من الأرواح حتى أصبحت مصدرا للحـــصول علـــى عظام للدراسة عليها حين لزم ذلك فى السنتين الأولى والثانية فى كلية الطب، وكم أمـــسكت بجمجمـــة قريبٍ لى (لا بد أنه قريبى بشكل أو بآخر.. اليست جمجمة من بلدنا؟) أحاورها، وألومها على صـــمتها، وأحاول أن أكتشف سرها، وما يقال بشأنها، ثم أنسى كل ذلك لأحفظ ماذا يمر فى الثقوب المرصوصـــة بقاعها من أعصاب وأوعية "لزوم الاستعداد للامتحان".. وتضيع معالم الموت تماما ولا تبقى إلا ثقـــوب وخطوط لزوم النجاح فى علم التشريح.

كيف ننسى الموت؟

بالتعود فقط؟، و هل نحن نتذكره أصلا؟

نتذكره بمعنى أن نربط حقيقته (أم الحقائق جمعيا)، بالفعل اليومى؟ نربطهــا بطعــم الحيــاة؟ بنــوع العلاقات؟ بإعادة الحسابات؟ بالتغير الواجب؟ هذه وحدها هى "الذكرى التى تنفع المؤمنين"، فلابد مــن إيمان، ولابد من نفع إن كان لــلذكرى أن تصبح فعلا يوميا لا اجترارا، ولا احتجاجــا، ولا ســخطا، وهنا فقط (حين تصبح الذكرى فعلا) يمكن أن يكون هذا النوع من الذكرى اختيارا: "فمن شاءَ ذكره".

أقف طويلا عند الآية السابقة مباشرة، وعند "كلا" بالذات "كلا إنها تذكرة" وأصر أن الضمير المتــصل فى "ذكره" يعود على الموت وليس على التنزيل (القرآن الكريم) كما جاء فى بعض التفاسير، ثم أنظــر فى "من شاء"، وأكتشف أننا حتى نشاء: لابد أن نستطيع، أو أن نتوهم أننا نستطيع، ولكن كيف نستطيع مع استمرار المسيرة هكذا بنفس الزحمة وملاحقة التفاصيل، لهذا فنحن لا نــشاء إلا أن يــشاء (ومــا تشاؤون إلا أن يشاء الله) وهو لا يشاء بالنيابة عنا، بل إن وعينا باتجاهنا إليه ــ حقا وصدقا ــ لابد أن يغير من حسابات هذه الدنيا، إذ يبطئ من دورة اللهاث، كما يحسن توجيه عائد العمل، فهى مشيئتنا فى النهاية إذ تتضفر مع مشيئته، فلا اتكال، ولا غفلة، ولكنها حسابات إيمانية أخرى لو أنها تنعكس علــى فعلنا اليومى.

يبدو أننا الآن نعيش حياة أخرى، نحن بشر آخرون، "لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر" فمتى نشاء أن يشاء لنا فنشاء؟ لا أحسب أن هذا ممكن فى خضم حياتنا الغربية المستوردة هذه، والمغلفة بقشرة دينيــة اغترابية تجعل من تذكرنا للموت تبريرا للغم، أو ديكورا يقوم بتركيبه خطباء الترهيب والترغيب، يبدو أننا قد اكتسبنا قدرا من مسلمات الوعى يمكن أن يلغى أى "تذكرة" حقيقية"، يحــدث ذلــك تحــت كــل الظروف، حتى ونحن نحاول أن نعمق التذكر بحضور عيانى.

فعلتْ ذلك خالتى مرة معى دون قصد، أرتنى علاقتها بالموت محسوبة مجسّدة، استقبلتنى ذلك اليــوم ووجهها أكثر إشراقا وبشاشة عن كل مرة، ولم تذهب البشاشة حين اكتشفتْ ــ كالعــادة ــ أنــى لــم أصطحب الأولاد، فعلمتُ أن ثمة ما يــُفرحها ويشغــلها عن توجيه "الإخص عليك" المعتادة، وفعــلا.. أخذتْ بيدى وهى تتكئ جزئيا على ساعدى وتقول "تعالَ أطمئنك على خالتك" فقد حلمتُ، أنك مــشغول بى،منشغل علىّ، وكانت تعامل أحلامها مثلما تتعامل مع حقائق حياتها، سواء حلمت فعــلا أم نــسجت الحلم بعد استيقاظها دون أن تدرى، فأدخلتنى إلى الصيوان الذى لا يُــفتح إلا فى المناسبات، وأرتنــى لفة لم أعرف ما بها وماذا تعنى لأول وهلة، وجعلتْ تفكها وترينى: قماشا ثمينا، ومنــشفة، وصــابونة، وزجاجة رائحة ولفة قطن..و..و..، "ما هذا ياخالتى"؟ كفنِى ياحبيبى والحمد الله، لــم أتــرك شــيئا إلا جهزته، حتى أجر المغسِّلة وضعته فى ثنايا ثوب الكفن ــ أنظر، حتى لا أكلف أحدا شيئا". فــينــقبض قلبى غما فى حين أن وجهها يزداد إشراقا، فأتعجب: هل أنا الذى أتصور أنى أعرف كل "هذا" يكــون تفاعلى "هكذا"، وهى الحريصة على كل أشياء الحياة بلا هدف أو رؤية (بحساباتى التطورية الخائبــة!!)

يكون هذا هو موقفها؟ أهذا هو إيمان العجائز؟ يارب، خابت حساباتى، ويبدو أنها كانت خائبة دوما، لك العتبى حتى ترضى "فمن شاء ذكره".

كيف أذكره أكثر من هذا وأنا جالس أراقب الصراع الجارى بينه وبين الحياة، ونَــفَسُ صاحبى يتردد بلا انقطاع ضد كل توقع وحساب.

كنت قد أوقفتُ أية محاولة غبية تجرى لإطالة ما لا يطول من عمر صديقى، رفضت الانــسياق وراء عواطف خائبة (تبدو طيبة عادة!) رافضا اللعب بجسد غال ضد إرادته الحرة، أو ضد نصيحة العلمــاء الأطباء، الذين هم كذلك، فمنذ أن كنا فى بوسطن قال لى المتخصص فى العلاج الكيميائى لهذا المرض " لو أنى مكانه ما أخذت إلا المسكنات، "منذ ذلك الحين وأنا أعتبر أن أى تدخل عاطفى، لمجرد تخفيف الشعور بالذنب ــ ذنبنا نحن ــ هو إهانة لا يبررها علم أو خلق، لذلك قررتُ، ومنذ البداية، ألا أفعــل له إلا ما يطلب هو، وهو الطبيب الحاذق، وقد رضىَ أن يأخذ علاجا كيميائيا المرة تلو المــرة، علــى أساس أننى أخفيت عنه ــ أو هكذا تصورت ــ تفاصيل التفاصيل، أو على أساس أنه فوق كل ذى علم عليم، أو على أساس أن يتــدرج الأمر حتى تتحمل عائلته ما سيحدث.. نعم.. ولكــن... للمحــاولات الخائبة حدودا، وحين توقفنا عن امتهان الجسد، تجسد العجز أكثر فأكثر، وتبينتُ الفرق بــين خبرتــى هنا، وخبرتى مع والدى حيث كنت أواصل تعليق المحاليل له أملا فى رتق التمزق فــى غــشاء المــخ ليتجمع السائل النخاعى من جديد، ثم من يدرى، أما هنا.. وقد انتشرَ ما انتشر، وانسد ما انسد، والــتهم ما التهم.. فالحمد لله رب العالمين.

وحين يكون الانتظار هو كل الفعل الممكن.. تكــون الحوقلــة (لا حــول ولا قــوة إلا بــالله) هــى الذكرالواجب.

ويصاحبنى فى داخل حجرة " الانتظار " صديق لكلينا،اسمه أحمد الدواخلى، ليس طبيبا والحمد لله: هو رجل فحل الإيمان، أبيض القلب، حاضر الوجدان، غامر الوعى، رقيق الحضور، أتعلم منه فــى كــل مقابلة شيئا جديدا، شيئا أرجو ألا أنساه، هذا " إن شئت أن أذكره " وكان هذا الرجــل الأبــيض دائــم الدعاء والتلاوة، لا يفتأ يكرر مخاطبا المحتضِر: "اللهم سهل أمرك يا الــسعيد، اللهــم طمــئن قلبــك ياالسعيد، اللهم هدئ سرك يا السعيد " ثم يكرر الدعاء مرة أخرى دون ذكر اسم صديقى، فــأحس أنـــه يوجهه لى، فأستعد، وكأنى أنا الراحل.

فجأة أسمع الدواخلى يرد على سعيد وهو فى غيبوبته أنه ".. حاضر "، وأنا الطبيب الــذى أعلــم أن قشرة مخ صاحبى المودّع للحياة قد سبقت وسافرت إلى الجانب الاخر منذ أغفى بلا صحوة، وأنـــه لــم يبق نشِطا معانِدا إلا جذع المخ ضابط إيقاع الحياة التنفسية والقلب، لكننى أستمع لحوار الرجل الأبيض ــ الدواخلى ــ مع الصديق المعاند ــ السعيد ــ فأكاد أصدقه وأتذكر ما سمعته من والدى وهــو يتلــو

الورد فى غيبوبته، كأنه كان هو أيضا يتكلم هناك بإيقاع الحياة لا برموز قشرة المخ، هـذا إن صـدق أنى سمعته حقيقة وفعلا، ولكن ها هو صديقنا الأبيض يرد ثانية "حاضر يا " " ياخويا" ثـم يوصـيه أن "يطمئن" ثم يقسم عليه، ثم يتجه إلى ربه "لبيك اللهم لبيك" لبيك لا شريك لك لبيك"، ثم إنه" لا إله إلا الله حقا وصدقا" ويعود يواصل حواره معه، ثم ينفجر باكيا دون استئذان أو إنذار، فيخاف أن يسمعنا أهـل البيت وكنا قد حـُـلنا بينهم وبين التواجد فى الحجرة ــ إلا قليلا ــ طوال هذه الأيام الصعبة، فيكـف صاحبى الأبيض عن البكاء فجأة ناظرا إلىّ بغضب وكأنى أنا الذى بكيت بصوت مرتفع، وكأنه ينهـانى أن أفسد جو الدعاء بهذا النحيب المزعج للأهل، ألا يكفيهم ما عانوا ويعانون بمـا لا يمكـن وصـفه؟ فأتلقى غضبه الصامت حتى يسكت، وكأنى أنا الذى رضخت فسكت.

هو الموت، ذلك الشعر الآخر، (هكذا أسماه أدونيس فى رثاء صلاح عبد الصبور)، نخلق منه مـا لا ندرى إذ يخلق فينا ما لم نحتسب، أحياء كما نعلم، وراحلين كما نتصور، لكن كل هذا لا يجيـب علـى التساؤل الملح الذى عاد كما هو وكأنى لم أحاول الإجابة عليه آلاف المرات "لماذا هـو بالـذات؟ الآن بالذات؟ هكذا بالذات؟" وأحاول أن أعدو ــ حقيقة ــ هربا من ملاحقة ما سبق أن لحقنى بـلا طائـل، فأعجز.

أرتد طفلا أنظر فى ظهر غلاف الكراسة "كنظام وزارة المعارف العموميـة" أم سـت مليمـات ذات الورق الأسود الذى "يشف" وغلافهما الخلفى القبيح قد قسم إلى مثلثين أحدهما يحتوى جدول الـضرب الصغير، والآخر جدول الضرب الكبير، وأتذكر كيف أنى كنت أتصالح مع جدول الـضرب الـصغير رويدا حتى وصلت الى ٥ ،X5 فيزداد أملى أن أصل يوما ــ وان طال الزمن ــ إلى ١٢..X12 وهـذا ليس على الله ببعيد، ألم يقدرنى أن أحفظ هجاء كلمتى تمساحcrocodile وجميل beautiful وكل منهمـا مكون من تسع حروف بالتمام، لكنى أبدا لم أحلم أن أقترب من جـدول الـضرب الكبيـر بـدءا مـن ١٣ X13حيث تزدحم الأرقام وتتقارب حتى تسود صفحة الغلاف وهى بلا لون أصلا، كنت أتـصور أنه يستحيل أن يحفظ هذا الجدول إنسان مهما بلغ من ذكاء، حتى والدى، حتى الناظر نفسه، حتى الملك فاروق.

تختفى الصورة لتعود إلىّ الآن فأكتشف أن ثمة جدول ضرب أكبر فأكبر إلى ما لا نعرف، وأن إجابة تلك الأسئلة الملاحقة البادئة معظمها بـ"لماذا؟" لابد أن تقع فى مكان ما فى وسط محيط جدول الضرب الأعظم بلا حدود، وأفهم لم كان الايمان بالغيب ركيزة أساسية فى دينى، وأنه (الايمان بالغيب) هو قمة المعرفة، لأنه حركة متصلة تتجاوز دائرة المعارف المتاحة إلى ما بعدها، فـلا نكتفـى غـرورا، ولا نستسلم غباء، ولا نتواكل عماء، وأجد نفسى انطلاقا من هذا الموقع ــ أقبل التحدى، فأروح أرد علـى

كل الـــ "لماذات" التى لاحقتنى مخرجة لسانها لى طول الوقت، أرد عليها من جنسها إيمانا بهذا الغيب: جوهر كل معرفة حقيقية:

س: لماذ سعيد؟

جـــ :ولماذا غيره؟ (رد الست نعيمة، حكيمتنا الحكيمة).

س: لماذا الآن؟

جـــ: ولماذا بعد؟

س: لماذا هكذا؟

جـــ: ولماذا غير ذا؟

وهكذا انتصرتُ أخيرا، فالحمد لله، عالم "الغيب" والشهادة. وهو الحكيم الخبير.

وأدعو الله ألا أكون موجودا لحظتها، وكأنى لا أريد أن ألحق هذه اللحظة بلحظة وداع والـــدى، فقـــد شعرت فى خبرتى الأخيرة هذه أنه (والدى) قد عاد فاستيقظ بداخلى بحـــضور ثقيـــل، منـــذ انفـــردتُ بصديقى هذا فى غيبوبته.

ولكن هل يا ترى كان صديقى هذا والدى، أم أنى كنت والده؟، أم أننا كنا نتبادل الوالدية فـــى اتفـــاق سرى صامت؟

لعل كل الاجابات صحيحة ـــ ولعل هذا هو ما دعانى أن أكرر لزوجتى (وابنتيه ذات مرة قبل وبعـــد وفاته) أنه لم يكن صديقى، فربما كنت أعنى أن ما بيننا كان شيئا أعمق مـــن الـــصداقة أو متجـــاوزا الصداقة، أو هو شئ أهم من الصداقة، أو ربما أنا لا أفهم أصلا فى الصداقة مثلما لا أفهم فـــى الحـــب إياه، هل من معالم الصداقة ـــ مثلا ـــ تبادل الوالدية سرّا؟

لم يكن سعيد صديقى بالمعنى السائد عند عامة الناس، فهو لم يشترك معى فى عادة، أو يواكبنى فـــى نشاط، أو يحرص على قراءة مجلة أصدرها، أو يتمتع معى بصحبة لصيقة صريحة طويلة، (اللهـــم إلا فى "بيت نواب" المنيل فى قصر العينى، مثله مثل غيره من النواب)، كما أنى لـــم أســـتطع أن أعـــرّى نفسى أمامه "تماما" كما أفعل مع آخرين أقل قربا إلىّ منه (وكل هذا عندى هو من مقومات الـــصداقة)، فما هى طبيعة علاقتنا؟ فأرجح أن أهم ما كان يميز علاقتنا هو ذلك القدر الهائل من "الإلتزام والسماح" معا، كان يجمعنا موقف موحّد تجاه الاغتراب فى حياتنا عامة، وحياتنا العلمية الجامعية خاصـــة، كمـــا كان كل منا يسمح للآخر أن يتحرك بعيدا عنه فيما يعتقد ويعتنق.

نعم، لم يكن صديقى بالمعنى الشائع.

فتتهمنى زوجتى ـــ كالعادة ـــ أن "هذا"بديهى، وأنها تصدّقنى دون خلق الله الذين لا يفسرون كل مـــا قمت به نحوه ونحو أسرته الا بما هو "صداقة" كما يألفونها ـــ تصدّق أننى لم أقم إلا ببعض ما ينبغـــى

مما تفرضه بداهات الحياة ــ، وتواصل اتهامها ــ أو تقريرها ــ لى معلنة أنه ليس لى أصدقاء أصــلا: لا هو، ولا غيره، وتتحدانى أن أذكر لها اسم واحد فقط أستطيع أن أطلق عليه هــذه الــصفة، فــأمتلئ غيظا، وأهم بالرد متصورا أنى سأستدعى ألف إسم وإسم، وفورا ــ لعلها تخجل وتعتذر، ولكن إســما واحدا لا يأتينى، يا خبر!!!، ما هذه الشروط التى تهجم على هذه الكلمة ــ صداقة ــ تحيط بها من كــل جانب حتى لا أقدر أن أستعملها؟ ماذا أريد من الناس قبل أن أسمح لهم أن يحلوا فى مضمون هذا اللفظ "صداقة"؟ ثم ما هذا الذى أكرره طوال هذا الفصل وغيره؟ جاء صديقى قال، صديقى. راح صديقى، ثم رحل صديقى؟ حين تختبرنى زوجتى هكذا فجأة، لا أستطيع أن أذكر اسما واحدا من الألف ألف إســم الذين تخيلتهم جماعة لكننى عجزت أن أسلخ منهم فردا بذاته.

يبدو أن زوجتى لم تكن تنتظر إجابة، ولكنها أيضا لا تــُظهر شماته (على الرغم من أنى أحــاول أن أتصور شماتتها بالرغم منها) ــ وأواصل العناد:

" بل لى أصدقاء وأنت تعلمين" على، وأحمد، وهدى، وهالة، ووليد، وهبة، وكل الأطفال، ثــم ســعيد وعوض وجمال ورمضان وعادل وعبد العزيز وكل الفلاحين (أنظر الترحال الثالث إن شئت)، وقبــل أن أواصل ذكر أسماء مرضاى تبتسم زوجتى فى صبر وتود لو أنها لا ترد، لكنهــا تلمَــح تحفــزى، فأواصل أنا:

إن هذه صداقة حقيقية، وحين كنت ألاعب "على" الورق أمس الأول، لم أكن أتنازل، لــم أكــن والــدا يلاعب ولده، أو جدا يلاعب حفيده، بل كانت مباراة "ند لند" فتضطر زوجتى للرد:

" إنك؛ تصادق الناس ولا تسمح لهم أن يصادقوك، تصادق المجموع لا الأفراد، تصادق الجزء الــذى تختار من كل واحد، ولا تصادق الشخص على بعضه. وكل من ذكرتَ هم مــن الأطفــال والفلاحــين والمرضى (لم أكن قد ذكرت المرضى لكنّها ضمّتهم بيقين) هم فى موقع الأضعف منك، فــلا خــوف عليك ولا هم يعلمون".

وحين نصل الى هذه التعرية أرتب للانسحاب المنظم، فلا فائدة من الكلام اذا ما أطلت "الحقيقة" هكذا إلى هذا المدى، رحت أعيد تقييم صداقتى لمرضاى خاصة. هل يــسرى عليهــا مبــدأ الأقــوى مــع الأضعف؟

أهكذا ؟

ولكن (بينى وبين نفسى) لا أقر النتيجة أبدا، أنا أصدقائى بلا حصر، بلا حصر، لذلك لــم أســتطع أن أختار من بينهم اسما محددا، أختار من؟ أم من؟

لا أصدق نفسى تماما، ولا أصدق زوجتى تماما.

سعيد الرازقي، صديقى أم والدى أم إبنى، ها هو يحتضر، لكنى أصمم على ألا أكـــون فـــى موضـــع الإبن داخل حجرة "الإنتظار" لحظة الوداع، لا..لا، لا أريد أن يلبسنى من جديد أباء جدد أحملهم بعد أن يرحلوا لأكمل مسيرتهم لا مسيرتى. يكفينى كل من ارتدى من أثواب والدية قديمة من كل شكل ولون.

يستجيب الله لى، فما أن أنصرف لغير هدف الساعة الخامسة الا خمس دقائق، يوم الأربعاء الموافـــق ١٩٨٦/١/٢٩، لأرجع بعد نصف ساعة بالتمام، فأجده قد استأذن فى سلام آمن، وتتفرق الطرق، هـــو يمضى فى رحابه تعالى بلا تفاصيل ظاهرة، وأنا حيث أنا كما ترون.

وأذكر الآن حين كنت أسَرّى عنه فى دعابـــة مغامرة كان يتصف بها حوارنا الصريح فى كثير مـــن الأحيان، أذكر أننى قلت له:

" إسمع، كن شهما كما اتفقنا ولا تنسنا حين تذهب إلى الجانب الآخر "بالسلامة"، كن شهما وأخطرنـــى أولا بأول ماذا الحكاية، حتى أستعد بطريقة صحيحة، إن أمكن" فيبتسم طالبا منى أن أخفـــض صـــوتى حتى لا يسمعنا أهل البيت، ويعدنى ــ وهو ينتزع ضحكة حقيقية سرعان ما يجهـــضها الألـــم ــ أنـــه سيفعل ما يقدر عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، ويسترد آثار ضحكته بطيبة رائقة.

استأذنَ فى سلام ،

وتبدأ مراسم الوداع، وأتعلم، وأتعلم، وأتعلم ،

يجتمع البسطاء معا هناك بفضل وصيته.

كان قد أوصى بشجاعة فريدة ألا يُـــتعب أحدا بنقله مئات الكيلومترات إلى بلده فارســـكور، لمجـــرد التظاهر والتقاليد، فأوْصى زوجتى أن تسمح له أن يدفن فى مدافن أسرتها هنا "بمقابر الإمـــام" بجـــوار المقطم، وكأنه أراد بذلك ألا يكبدنا مشقة السفر إلى بلده الأصلى حتى يدفن بجوار أمـــه. كـــان يحمـــل هَمـــنا حتى بعد موته، هو ليس له مقابر فى القاهرة وقد طلب من زوجتى أن يدفن فى مقابر أســـرتها فى الإمام الشافعى، وفرحت أنا لأنه سوف يذهب بجوار حمایَ الذى أحببته حبا صامتا عميقا، وهكـــذا يتجمع هناك فى نفس المقبرة معاً: حمایَ الأمى الوديع، وإبنة أخى التى رحلت بعد ساعات من قدومها، وصديقى هذا.

ثلاثة نماذج تمثّل عندى توحّدا مُهّما:

البداية التى لم تتلوث،

والبساطة التى لم تتشوه ،

والشجاعة التى لم تغـــتـــرب.

وكأنَهم لم يجتمعوا "هناك" تحت الثرى، بل استقروا هنا فى أنقى مساحة داخل داخل وجدانى.

ثم تمضى المراسم بكل ما لها وما عليها، وأتعلم ــ من جديد ــ كيف أننا ونحن فى بؤرة الحقيقــة، لا نتكلم إلا عن زيف الزيف، وأدرك بيقين متجدد أن هذا الزيف فى الحفل الجنائزى وسرادق العزاء هــو من أعظم رحمته تعالى بعباده الضعفاء: هو أهل الرحمة، وأهل المغفرة.

وهكذا، "طارت" فى وداعة البسطاء، وترن فى أذنى بهدوء نابض، ومعان متجددة:

"حمامة بيضا، طارت يا نينه،

ما خدها البلبل، وطار وياها،

قصده يا نينه، يعرف لغاها."

ياه !! يا للوعى الشعبى وهو يعيش لحظات الخلق والعدم بعمق لا يعرفه غيره.

كنت أجلس مع ابنتيه مايسه ومنى قبل الوداع الأخير ببضعة أيام أصارحهما بكل شئ لم تكونــا قــد أبلغتاه من قبل،وجعلت بداية حديثى عن رحلتنا هذه التى أكتبها هنا.

قلت لهما إنى أتصور أن الله سبحانه أراد أن يقربهما منى وبالعكس. ليطمئن والدهما قبــل رحيلــه، وأنهما ــ من خلال رحلتنا هذه ــ قد أصبحتا صديقتين بمعنى يختلف عن علاقتــى بوالــدهما، وأنــى تعجبت لموافقة والدهما ان يصطحبانا، حيث كنت أتصور أنه أكثر تحفظا، وتخوفا، وامتلاكا، فإذا بــى اكتشف فيه مؤمنا آمنا، وشجاعا، ومبدعا أبدا، حتى فى تربية بنتيه الوحيدتين، فكان الــسماح، وكانــت الصحبة فكانت الرحلة كما وصفتُ وأكثر، وكان من أهم مكاسبى منها أن اتسعت دائرة صداقاتى برغم رأى زوجتى فى ذلك، فقد تعرفت على رفاق الرحلة أكثر فأكثر، ومن بينهم بنتاى هاتين وهمــا همــزة الوصل الذى أستطيع أن أتكئ عليها وأنا أعبر الآن الى الجانب الأخر، فأروح أجذب الخيط من جديــد الى مواصلة معايشة ما كان "لنا" "معا" "هناك"، وكيف كان ما كان أثناء تلك الرحلة التى لم تنته بعد.

(يبدو أنها لا تنتهى)

الخميس ٦ سبتمبر ١٩٨٤

كانت فرصة فى ما بقى لنا من أيام فى باريس أن نفترق أكثر لنلتقى أقرب، فاستطعنا من خلال ذلــك أن نضبط جرعة "الصحبة" و "الاستقلال" معا، كنت وزوجتى فى فندق الجوبلان (نجمتان بالتمام) لكــن الحمام النظيف والتلفزيون الملون يزينانها بما لا حصر له من نجوم، وكان الأولاد فى فنــدق "الإقامــة السعيدة (!!) Belle Sejour" بنجمة واحدة وكلب كبير ورائحة خاصة ــ كما ذكرت ــ فجعلت دائرتانــا تتحركان اقترابا وبعدا فى حرية نسبية، و حين استطعت أن أتحرك داخل دائرتى الخاصة رحت أوقــظ باريس فى كيانى بهدوء متنام، لأعود أنبض بريحها كما عشتها، ثم كما حملتها معى منذ كان ما كــان، حملتها معى إلى مصر، والطائف، واليونان أو البحرين، وحجرة نومى، ودهب، وأنطاكية، وحربيــات، وبلودان،

أنا لا أتحدث عن باريس البلد بقدر ما أتحدث عن باريس الناس، ثم إنهم ليسوا ناس باريس بقــدر مــا هم "الناس فى باريس" بمعنى أنهم ليسوا فرنسيين من عاشرتهم آنذاك، لكنهم كل العــالم، حتــى أنــى تصورت أن باريس هذه، لا بل "تلك" (٦٩/٦٨) هى "دوار الدنيا" بأسرها .

كنت أنتظر نزول زوجتى فى مدخل الفندق حين انتبهت أنه قدجلس بجوارى هندى وهندية (لم يكــن هناك جوارٌ أصلا، فالمدخل شديد الضيق يكاد لا يسع أحدا)، ولم تكن السيدة جميلة جدا، كانت جميلــة فقط أو أقل قليلا، ولم يكن جسدها رشيقا، لكن السارى الذى كانت تلبسه بدا لى أجمل ما فيها، ولم أكن أعلم أنه، مع شموله لكل القوام حتى جزء من الرأس، يمكن أن يكشف عن مساحة لابأس بها من لحــم البطن حول الوسط، على الرغم من برودة الجو، ولم أنتبه، لأول وهله، أنه لحم بشرى!!، خلقة ربنــا، كما لم يجذبنى إليه أية فتنه صغرت أم كبرت، بل لعل العكس قد حدث، فقد كان، بلا مؤاخذة، متــرهلا إلا قليلا، ومع ذلك فقد تذكرت الثوب السودانى الشفاف الرائع الذى ترتديه نساء السودان، وقلت: فهــو الرمز والوطن وليست الحشمة والطقوس، ولو كان الحجاب تطور عندنا حتى يعنى ذلك، أو مثل ذلــك لكان له وضع آخر، أما بحالته الراهنة وتنوعاته (على "الموضة") فهو ــ فى الأغلب ــ لإبداء الزينــة وليس لإخفائها فى كثير من الأحوال، ثم إنى لاحظت فى ممارستى التــى تطّلــع علــى الأفئــدة أنــه (الحجاب) كثيرا ما يعمل لإعفاء من ترتديه من الغوص فى جوهر دينها بالاكتفاء بالرضا عن ظــاهر شكلها،

حاولت أن أنظّر قليلا حول مسألة الحجاب هذه، حيث رحت أبحث له عن وظائف إيجابيــة مثــل أن تستعملها الواحدة منهن للتصالح مع الجسد والجنس معا، وذلك بأن تعفى الواحدة مــنهن نفــسها مــن استعمال جلدها وظاهر جسدها حجابا دفاعيا (باردامتبلدا من خلال حيل دفاعية كابتة)، وكأنها إذ تغطى جسدها بهذا الغطاء الحسّى الحقيقى، إنما تسمح بتلقائية حيويتها أن تنطلق داخل الغطاء، كما أنهــا قــد تساعد نفسها على تذكر أن جسدها هذا هو جسدها، وليس "محل وجودها المختار" تسكن فيه بالــصدفه، ويستعمله زوجها من الظاهر، أو لعلّه ــ كما ذكرت ــ ثورة نسائية تحدد الهوية فــى مقابــل هجمــة التغريب، وكلام آخر كثير من هذا القبيل، تحققت من صحته أحيانا، وفشلت أحيانا أكثر، المهم أنى لــم أستطع أن أقارن السارى الهندى إلا بالثوب السودانى ثم بالملاءة اللــف عنــدنا، تلــك المــلاءة التــى انقرضت والتى كتب فيها الدكتور صلاح مخيمرنظرية علمية هى بمثابة قصيدة جنس من أجمــل مــا يكون، كتبها وهو فاقد البصر يصف الملاءة وهى تمثل التحدى الأنثوى الرائع الذى يفرض على المرأة الرشاقة والليونة والنشاط فى آن، كما كتب عن اللغة التى تتحدث بها المــلاءة وهــى تلــف، وتتزلــق وتتحرك، وتُخفى لتــُظهر.

تصورت لو أن سيدات المجتمع عندنا بدأن بارتداء الملاءة رسميا (لا فـــى حفـــل جلابيـــة "بـــارتى") لتطـــلـــّب ذلك منهن جهدا جميلا خليق أن يميزهن أنوثة وجنساً وحضورا خاصّا، لكنهن يستـــسهلن التقليد والديكورات الزائفة والزائلة.

ننطلق إلى "باريس الناس"كما أعرفها بما تحوى من هنود وسنغاليين وبرتغـــاليين وإيطـــاليين ومـــن أمريكا الجنوبية، وأمريكا فقط، وأيضا بما تحوى من فرنسيين. العرب أغلـــبهم مـــن شـــمال إفريقيـــا. تصوّرت دائما أن الموْطن الأصلى للباريسيين هو مقاهى وأرصفة باريس وحـــدائقها، وأركانهـــا، وأن المنازل تزار أحيانا قبيـــل النوم، مقاهى اعتبرتُها بمثابة مصاطب الدوار فى بلدنا، بل والمصاطب أمام الدور أيضا، فالمقهى فى باريس يدعوك وأنت سائر أن "تتفضل"، ويكررها مرارا(كأنـــك تمـــر أمـــام مصطبة كريم من بلدنا) حتى تتفضل، فأتفضل بعد أن تنصرف زوجتى إلى هوايتها حسب موعدها مع الأولاد.

أقبع فى ركنى المفضل فى مقهى "الجوبلان" حيث أمامى صفين من مقاعد الزبائن، دون زبـــائن، إلا قليلا، ثم الواجهة الزجاجية، التى لا تحجب عنى المارة فى الخارج، وحين استقر فى موقعى أبدا رحلة المقارنة بحثا عن الفروق، قافزا عبر الهوة الحضارية للأمام وللخلف على حد سواء، ويبدو أن مهنتـــى الطبية النفسية قد سهلت على لعبة التقمص بما يسمح لى أن أضع قدمىّ فى حذاء كائن من كان (كمـــا يقول الإنجليز)، فأحاول أن أدخل إلى أبعد مسافة ممكنه فى عمق وجودهم ثم فى نـــوع وجودنـــا،علنى أخرج بما هو أكثر من الفرجة، وأعمق من الحكم، لكنى لا أنجح فى كثير من الأحوال، ويتجدد أمـــامى ــ مثلا ــ منظرا رأيته مئات المرات، وسمعت عنه قبل أن أراه عشرات المرات ــ وكتبت عنه أحيانا ــ وهو منظر الفتى والفتاة وهما يتلامسان ويتلاثمان ويتقابّـــلان (من تبادل القبل، لذلك وضعت شـــدّة على الياء!) ويتحاضنان، إلى آخر ما هو كذلك، ونحن لم نألف مثل ذلك، ولا بعض ذلك،، وقد تعودت ــ كما سبق أن أشرت ــ أنى حين لا أفهم شيئا لا أبادر برفضه، وانما أصبـــر عليه لعلى آتينى بخبـــر ولو بغير يقين.

حين نزلت باريس أول مرة جعلت أنظر الى نفس هذا المنظر مندهشا ثم منتظرا، ثـــم متـــسائلا، أمـــا الدهشة فهى لعدم الألفة، وأما الانتظار فهو ترقب لما سيوصل اليه "هذا الذى".أما التساؤل فكـــان عمـــا يحدث، وما لم يحدث، وكيف يبدأون هكذا، ويستغرقون هكذا، ثم يتوقفون رغـــم تـــصورى اســـتحالة التوقف هكذا.

كان خط المترو الذى أركبه من ميدان الإتوال حتى مستشفى سانت آن اسمه "ناسيون ــ إتوال"، وفيه، وعلى رصيفه عـــلِمتُ ما لم أكن أعلم، وهو ما زال يشغلنى. كنت أتصور أن لحظة انفصال الجـــسدين

بقدوم المترو أو توقفه هى لحظة البتر إلى نصفين مثل تهديد سيدنا سليمان للمتنازعتين علـــى الطفــل، لكن الذى كان يحدث أنه لا بتر ولا يحزنون، بل انسلات مثل الشعرة من العجين.قلت فى ذلك:

قبّلها. عبثت بالشعر أناملهُ،

رفعت عينيها فى لهفة،، شبّتْ تلتقط الرَّشفة،

أطراف أصابعها تبتهل الرِّىْ

....فصلَ السياف الجسدين الجذع.

ذهب الولد إلى "الناسيون" يغنى

والبنت الزهرة ركبت مترو الإتوال

وتكوّرت الغصّة

....

ونزعتُ السكينَ بلا نزفٍ ظاهرْ.

رغم مرارة سم الحسرة

فى الأغلب كانت حسرتى أنا، لا حسرة أى منهما، أنا لم أتخذ موقف الرفض المتشنج من ذلك أبــدا، لكننى لم أفهم. رحت أتذكر لعبة الحمام فوق أسطح بلدنا، وحركات الذكر أمام الأنثى، ودغدغته لرقبتها أو تحت جناحها، ودورانه حول نفسه ثم حولها، ثم طيرانها دون أن يطأها، أو طيرانها وعزوفه عــن متابعتها حالا، أو عودته واختفائها، وقلت: إن الإنسان أصله حمامة أيــضا، فلمــاذ ا ألحقنــا داروِيــن بالسمك دون الطيور، وإذا كنا ننعت "الجنس" القح "بالحيوانية"، فخليق بنا أن ننعــت الـــلثم، اللمــس "بالحمامية" وإذا كان بنا شئ تلقائى يرفض الحيوانية (لست أدرى لماذا هكذا دون تمييز) فإنى لا أعتقــد أن فينا ما يرفض الحمامية (أو اليمامية: أرق، أرق) هكذا دون تحفظ.

تحضرنى دروسى السرية فى الجنس من المدرسة الحيوانية فى القرية، وكان أول من نبهنـــى إلـــى معنى ودور معايشة هذه الطبيعة الحيوانية مباشرة فيمن يعايشونها من أطفال وشباب هناك هو اســتاذنا عباس العقاد فى ترجمته لحياة واحد لا أذكره، وحين راجعتُ مقولته فى نفسى وتاريخى تبينت فعلا كم كانت مدرسة القرية الجنسية الحيوانية شاسعة المعارف، متعددة الوسائل، ولولا إشارة العقاد تلــك، مــا تجرأت على تذكرها وذكرها، فضلا عن وصفها الآن، فماذا يــُخجل فى ذِكْر مصدر تعلمنا الجنس من خالقه مباشرة فى كل زوجين اثنين.

ما زلت أذكر نشاط ديكنا الزاهى وهو ينفض ريشه وقد نجح فى الإسهام فى الحفــاظ علـــى نوعـــه، وفحولة ذكر البط و "أمّا فاطمة" تُخضع له أنثاه حتى "يكسّرها" (لاحظ التعبيــر) وأنـــا ألاحــظ اللقـــاء باستطلاع ومتعة، وألاحظ أكثر شعور هذه العجوز الطيبة وهى تقوم بالمهمة بكفاءة وطيبة أم حانيـــة،

ثم كبش القطيع المدلل من كل النعاج بلا استثناء، والمسيطـِرٌ على الذكر الأضعف الناشىء: استعدادا لتولى المهمة بعد إحالة الأكبر إلى المعاش، ثم حمارنا الأزرق العجوز الذى يمنع أى حمار آخر، مهما بلغ شبابه أو جماله أو تناهت فتوته، يمنعه أن يعتّب الحظيرة طوال فترة "طلب" الأتان الركوبة الغندورة الخاصة بوالدى، ثم نشاط ثورنا "الطلوقة" مصدر رزق العلاف الخاص، (و أتصور أنه ما أعظم الذكر حين يؤجر على مهمته ليقبض صاحبه)، وفى المدينة لم تغب عن بصرى متابعات أقل، مثل تلك المظاهرات خلف كلبة أضاءت اللون الأخضر، ولكن الريف شئ آخر فيا خيبة (أو سوء حظ) الذين يتعلمون الجنس من كتاب "مبادئ الأحياء " المقرر، أو من روايات الوالدين الكاذبة، والآن من الأطباق الفضائية المقززة، والشاذة.

الجنس الحيوانى الوحيد الذى أذكر أنى رفضته، حتى الجزع والخوف والقرف معا، كان ذلك المنظر الذى قلب بطنى وشاكَ وجدانى بين قط وقطة على سور نافذتنا فى مصر الجديدة، تيقظت من نومى تلك الليلة، على عواء باك كنحيب المتوجع الوحيد، فاكتشفتُ ما يجرى، ولم أجد فى ما أرى ما أَلِفْتُ فى ريفنا النقى، فليس يبدو "على القط الذكر" أى زهو أو علو أو امتلاء، وليس يبدو "عليها" أى استمتاع أو استقبال أو استرخاء، بل قسوة وإغارة فى مقابل خنوع فى ضياع (هذا هو استقبالى آنذاك) فرفضتُ ولم أستطع أن أقرن ذلك بالحوار الجنسى الذى عايشتُه فى بلدنا.

أعود إلى موقعى فى الجوبلان، أتابع بلبلا وإليفته (بعد تحية اسمهان) ــ فأقول لنفسى: ليكن أصل الإنسان حمامة أو يمامة، ولكنه أصبح إنسانا، فلماذا العلانية؟ فيرد: ولماذا السرية، فأقول: اذا كان زوج الحمام يمارس نشاطه هكذا كجزء من طبيعة التمهيد والإعداد، فان ما أرى هنا لا يبدو أنه تمهيد أو إعداد لشيء، بل هو ينتهى كما بدأ، ويا خيبة التقمص المجهَض، وأكاد لا أصدق: وأسكت، لكن الشعر لا يسكت حيث خيل الى أنى رأيت فيما جرى هذا الصباح فى قهوة الجوبلان شيئاً جديدا غير الذى أدهشنى من قبل:

هو جالس يحتسى قهوته مع "أهلـّة" الخبز الخاص "الكرواسون" فتدخل هى عليه.

"هى" سريعة الخطى حمراء الحضور،

التفتتْ. وتلاثما، جلستْ.. فتحسَّسَا، شاركتْ.. فتهامسا، ابتعدتْ. فتمايلا... الخ، وأنا أفرح بهما وأشفق "علينا"، و أفهم القليل، وأرفض القليل، وأؤجل الكثير، وتزداد وحدتى بمعنى خاص أعرفه.

هذه المنطقة أحوم حولها من قديم، لا أعرف تفاصيل لغتها، ولا دورة حياتها، ولا تداعيات مسارها، لذلك أظل ألف بلا انقطاع مع اللحن الصادح حول الكراسى. وحين يتوقف اللحن أو تحين الفرصة، لا أسرع بانتقاء كرسى مثل الآخرين، بل أقف مكانى بعيدا فى انتظار أن تدور الموسيقى ثانية لأعاود اللف حول الدائرة دون أن أدخلها أبدا، وقد رضيت بهذا الدور من باب الوعى بما هو أنا، فى حدود

ما أعرف، وكانت هذه الدرجة من الوعى لا تمنعنى من المشاركة والحوار والتساؤل دون أن أغـامر بأكثر من ذلك، فلا أنا المتفرج المتعالى، ولا أنا المنسحب الذى يصدر أحكامه على الآخرين من فـرط عجزه، ولا أنا الأعمى المتغافل، أو لعلى بعض من كل هذا، لكنى مع كل هذا مشارك متسامح.

ثم إنى رحت أكتشف من بعد آخر أنه ربما يكون هذا التلامس، والتلاثم...الخ. ربمـا يكـون تباعـدا أخطر، ذلك أنى أتعجب كيف أن الشائع عن هؤلاء البشر الأكثر تحضرا (!!!) أنهم أكثرحرية، فيبـدو لى أن حرية الترك هى شرط حرية الإقدام، بل إننى أتصور أن مسئولية الحرية هى أكبر من تحمّلهـم، تحملنا، اكتشفت ذلك وأنا أتساءل لم أنهيت قصيدة الجبلان بهذا البيت "أفرج عـن الـضحايا تنتحـر". أضبط نفسى حاكما على ما يجرى من بُـعد آخر حين استقبل ما يجرى وكأنه "طقوس نظام"، وليس "مسئولية حوار"، وأن هؤلاء الناس هم ضحايا هذا النظام بشكل ما، وحين ضحكوا عليهم بهذا القدر من الحرية المشبوهة دار كل منهم حول نفسه لا أكثر، فما أضيق المساحة، يلتقى الواحد منهم بـصاحب أو صاحبة، دون أن يلتقى ثم ينصرف دون أن يمتلئ وعيه بحضورٍ جديد، قلت وكـأنى أكمـل القـصيدة الأولى. الإثارة واحدة، والعجب يزداد، لكن الحكم أصبح أشد قسوة:

ـ ١ ـ

تميل فى دلال، أو غباءٍ، أو عبثْ
(كأنّها تصدّقً)
يلثمُها،
تقضم رأس الجُـمــلهْ
يبدو كمن فهم:
يحتدمْ
يُخلخِلُ الهواءَ،
تضطرمْ
تنداح من بؤرتها الدوائرْ
يكثّف اللهبْ

ـ ٢ ـ

يزقزق العصفورُ يحتضرْ
الوحدة العنيدةُ،
الجوع والحرمان والشَّبَقْ
تــُؤَجّل القضيهْ

تُـــوَزع الغنائم

اللعبةُ الكراسى

ـ ٣ ـ

تفور رغوة الكؤوس والرؤوس والرُّؤىَ

تهدهدُ الكلابَ والشجرْ

ـ ٤ ـ

تَحَدّدَ الميقاتُ والمحلّفون والشهودْ

تَملْمَلَ القفصْ

ـ ٥ ـ

أفرجْ عن الضّحَايا..

تنتحرْ.

أهكذا؟ بعد كل ادعاء التسامح والفهم، يعرّينى شِعرى الخائب، فيضعنى فى موقف حكم فوقى، فأشـــك فى ادعائى القبول بالاختلاف،

الأرجح أننى مخطئ فى الحالين.

الخميس ٦ سبتمبر ١٩٨٤ (ما زلنا)

التقينا حول الظهر فى ميدان الأوبرا بعد الاطمئنان على حجز العودة بالطائرة مـــن جنيـــف لـــلأولاد (هكذا قرروا)، جلسنا على رصيف قهوة السلام "Le Pais" التاريخية بروادها من الساسة المـــصريين خاصة، والشمس قد تسلطت على صلعتى فحركت ذكريات المشى من المونمارتر حيث كنـــت أســـكن، إلى جنوب باريس حيث أعمل، أو أدرس، مارا بميدان الأوبرا (أين أوبرانا القديمة فى مـــصر؟) وثمـــة محل على الناصية المقابلة يبيع المجوهرات المزيفة التى تحتاج إلى خبير ومجهـــر لكـــشف تزييفهـــا (فلماذا الأصلية؟) وكنت قد حضرت إليهم متأخرا قليلا بعد أن استغرقتنى قهوة جوبلان حيث هاج بـــى الشعر دون إستئذان، فأجد مصطفى ممسكا بنسختين من صورة لهم فى جلستهم وقد اكفهر تماما حيـــث خدعه أحدهم، أو هو قد خـــُدع له، حين فهم منه أن ثمن الصورة فرنكان وثمانين سنتيما deux quatre vint (وفى الفرنسية لا ينطقون حرف العطف"و") فوافق ابنى فرحا باعتبار أنها أرخـــص حتـــى مـــن التصوير العادى (فرنكان وثمانون سنتميا)، وبعد التصوير يكتشف أن الصورة الواحدة بأربعين فرنكـــا، وأن البائع كان يقصد أن "الاثنين بثمانين" أى أنه توجد سكتة بين لفظى اثنين، وثمانيين!! ويـــدفع ابنـــى النقود وهو يغلى ويلعن حروف الجر والعطف وعدم ظهور "الفاصلة" فى الكلام، وكان هذا بداية يـــوم المقالب والنصب الخوجاتى:

ذلك أنى حين تركتهم لساعة وبضع ساعة حسب ميعاد سابق مع د. حلمى شاهين وهو ينزل فى فندق قريب (سان جيمس) بشارع ريفولى، ذهبت وأنا مشغول بمهمة ثقيلة تتعلق بمستقبل مصطفى، مهمة لا أحبها، ولا أتحمس لها، وان كنت مضطرا للقيام بها بكل التزام التكيف وضد كل المقاومة الداخلية، فجعلت أكلّم نفسى وأنا أشوح بيدى كالعادة حين يحتد ما يشغلنى "ضدى"، ويبدو أن منظرى هذا قد جذب انتباه أحدهم من ركاب العربات الفخمة (كانت B.M.Wعلى ما أذكر ــ تحمل أرقاما أجنبية)، وحين توقفتُ فى الاشارة اقترب منى راكب العربة ــ وهو بالداخل لم ينزل ــ وقال لى بلهجة ليست باريسية ولا فرنسية أنه: يا مسيو، ولم أتصور أنه ينادى علىّ، ثم حسبت أنه يسألنى عن عنوان ما، لكنه جعل يحكى ".. أنا رجل من إيطاليا وقد نفذت نقودى وأريد أن أرجع بلدى، وقد كنت قد أحضرت بعض الأغراض لصديق لى ها هنا، لكنى لم أجده، ويبدو أنك غريب، وطيب، فقد تنفعك هذه الصناعات الإيطالية، المتواضعة الثمن، فقد أدخلتها بدون جمارك...الخ، لم ألتقط كل ما قاله لكنى فهمت مجمل المُراد، وأنا بى ما بى، وقبل أن أرد معتذرا فتحت الإشارة فحمدت الله إذ اضطرت صاحب السيارة أن يمضى، ونسيت لتوى كل ما كان، لكن ما أن عبرت التقاطع ومضيت بضع خطوات حتى وجدته فى سيارته الفخمة ينتظرنى، وقد أوقف العربة وخذ عندك "يا مسيو... يا مسيو"، وقبل أن يعيد ما قال قررت ــ لست أدرى كيف ــ أن أسهل طريقة للتخلص منه هو أن أستجيب له تماما، وحالا، مع أنى لم أستبعد احتمال النصب، فأعطانى سترتين من الشمواه فى كيس أو ما شابه، فأعطيته ما أراد من فرنكات، فانصرف وجعلت أنظر للكيس المجهول المحتوى الذى أحمله فى يدى وأنا فى طريقى لمقابلة د. حلمى شاهين وتمنيت أن ألقى به بعيدا، وقبل أن أفعل، لاحظت أن العربة قد توقفت من جديد، يا نهاراً لن يمر، و "يا مسيو يا مسيو.." وقبل أن ألقى فى وجهه كل شىء، أو أشتمه بالعربى كما ينبغى، بادرنى: أنت رجل طيب من مصر، وأنا أحب مصر، خذ هذه أيضا هدية بدون مقابل، وناولنى سترة ثالثة من نفس النوع!! فتأكدت أولا أنه نصاب، ثم رجحت أن النصبة طلعت واسعة حبتين حين استجبتُ فدفعت كل الثمن الذى طلبه فورا دون مساومة، ثم تعجبت أنه أشفق علىّ لدرجة أنه عاد يصلح بعض ما اقترف، فأهدانى السترة الثالثة، حتى يبارك الله له فى سرقته، وحين وصلت إلى هذا الاستنتاج ابتسمت بالرغم منى، هذا نصّاب طيب فعلا.

وتذكرت ما سمعته عن قريب لى كان "يقتل" بالأجر، وحين جاءته امرأة فقيرة، ليس لها رجال، لتستأجره فى مهمة اضطرارية، ترفق بحالها وأقسم بالطلاق أن يقوم لها بالمهمة "جدعنه" وأن يقتل خصمها لوجه الله.(!!)

أديتُ مهمتى الثقيلة فى الفندق الفخم مع الأستاذ الدكتور حلمى شاهين واعتذرت عن زوجتى بحجة اختلقتها، اعتذرت عن دعوة من زوجته الفاضلة لزوجتى الكامنة، على غداء أو عشاء، فزوجتى لا

تحب هذا المجتمع، ولم تُحضر الملابس التى...، وهى لا تتقن لغة أخرى، فلماذا؟ ولم أستطع أن أعتذر عن نفسى أنا أيضا لأن الوليمة كان سيحضرها شخص قد يساعدنى فى مهمتى الثقيلة الخاصة بـــابنى، ثم إنها دعوة لغداء عمل يتعلق بالتعاون الطبى المصرى فيما يسمى بـــ "السِّديم" وانتهى اللقاء بالموافقة .

قفلت راجعا الى زملاء الرحلة الجالسين على مقهى السلام فى ميدان الأوبرا، وأنا أحـــاول أن أدارى خجلى، لكنهم يتبينون ما أحمل، فأحكى لهم بإيجاز شديد وأريهم محتوى الكيس: ثلاث سترات من نفس النوع، بنفس المقاس، وبعد فترة كتمان ينفجرون ضاحكين، فتأكدتُ مما جرى، والألعن ــ أو الأرحـــم ــ أن المقاس لم يكن مقاسى أصلا، وشربتُها بأكملها..، بسيطة؟ ويحكى لى مصطفى مـــا غـــرم فـــى حكاية التصوير، فأضحك بدورى، واحدة بواحدة.

انصرفنا معا حتى أبواب مبانى محلات اللافييت المتعددة المتجاورة على الجانب الآخر مـــن ميـــدان الأوبرا، وتفرقنا على أن نلتقى، فاتجهت الى قسم ملابس الرياضة، حيث أنى طالع فى المقدر جديـــدا، لكنى أكتشف أنها أغلى بكثير من الملابس العادية، إذ يبدو ان "بدعة الجرى" الحديثة، والنشاط البـــدنى الهوائىAerobics ، قد أصبحت من مميزات الطبقة القادرة (كادوا يحتكرون كل شئ يا عـــالم !!حتـــى الرياضة والصحة الجسمية!!) ولم أشتر شيئا طبعا، ثم تجمعنا على الناصية، وبدأ فصل النصْب الثالث:

يتقدم شاب أنيق رشيق له رأس متناسق مستدير، ووجه أحمر فى صحة "خواجاتية" يكاد الـــدم يطفـــح منه، وله شعر أصفر ذهبى جدا!! خواجه ابن خواجه وأمه خوجايه ١٠٠%، كلّمنـــا بلهجـــة إنجليزيـــة سليمة، ليس بها أية لكنة فرنسية، وعرض علينا بعد أن عرّفنـــا أنـــه انجليـــزى ــ أن نـــصرف منـــه الدولارات بسعر أكبر (أظن ثلاثين أو أربعين فرنكا أعلى من السعر الرسمى، لكل مائة دولار)، شككنا فيه من باب الحيطة، قالت منى يحيى ابنتى: فلنحاول، ولنكتف بمائة دولار واحـــدة لا غيـــر حتـــى اذا نصب علينا تكون الخسارة محتملة، ولم أفهم لمَ نقدم على المحاولة ما دمنا على هذه الحالة من الـــشك فى الرجل، علما بأن فرق السعر ليس كبيرا، ولكن ماذا تفعل فى النصاحة المصرية؟ قلنا نجرب ونفتح أعيننا جميعا:

ذهب صاحبنا وأحضر المبلغ ممسكا به فى يده يحاول أن يخفيه (قال يعنى) و قبل أن أناوله الورقة أم مائة دولار (لاحِظ درجة الحرص منى) ناولنى المبلغ وطلب منى بإلحاح أن أعده حتى أطمئن (منتهـــى الأمانة) فعددت واكتشفت (ويا للحذق!) أنه ناقص ثلاثين فرنكا، فتأسّف (جدا) وانطلق بخطى ســـريعة يُحضر بقية المبلغ ،وأنا مازلت ممسكا بالمائة دولار، ثم عاد وأخذ يتلفت حولنا منبـــــّها أن نحـــذر أن يرانا البوليس، (يا ولد!!) هل فعلنا كل ذلك من أجل ثلاثين فرنكا فرقاً؟ لكنها المغامرة والشطارة. أخـــذ منى الأوراق ذات الفئات الكبيرة ليعد الأوراق جميعها معا، وراح يعد: واحد اثنـــين ثلاثـــة...ثمانيـــة، وقال: تمام؟ قلت: تمام، فركنها واتجه الى الفكة (وهى التى كانت ناقصة) وعدها فلم تعد ناقصة بعد أن

أحضر الثلاثين فرنكا (يا سلام على الدقة!!) وهنا اطمأن قلبى أننا أخيرا نجحنا ألا ينصب علينا أحد (اللهم إلا اذا كانت الأوراق مزورة) ــ فناولتُه المائة دولار، فانصرف بخطى سريعة وأنا ممسك بالأوراق الصغيرة (العشرات) الأخيرة فرحا بدقتى وحرصى، ألم أكتشف نقص الثلاثين فرنكا وأصر على إعادة العد؟ وكانت "منى يحيى" تراقب الجارى زيادة فى الحيطة والحذر، وإذا بها فى نفس ثانية انصرافه تسألنى بغته: أين الأوراق ذات الفئة الكبيرة (فئة المائة فرنك)؟ فدهشت للسؤال.. فهى معى بداهة، وجعلت أبحث فى جيوبى فلم أجد شيئا، وهنا ــ فقط ــ فقست اللعبة الذكية، فتلفتنا جميعا وكان صاحبنا ــ الخواجة الإنجليزى إبن الخوجاية ــ فص ملح وذاب، ونتبين أنه بعد أن عد الأوراق الكبيرة احتفظ بها فى يده، وأنا أظن أنها معى ثم أخفاها بمهارة خاصة موهِما إياى أنها معى جاذبا انتباهى أولا: إلى التأكد من إكمال الأوراق الصغيرة التى كانت ناقصة، وثانيا: ألهانى بالتركيز على تجنب احتمال مداهمة البوليس.

ألا يستأهل هذا المحتال الرائع الإعجاب بالذمة؟ ،

لكن ابنتى لم تكن قد نسيت ضياع الألف دولار " فى "نيس"، ولم أكن بدورى قد نسيت نصب الإيطالى الطيب بائع السترات الثلاث منذ ساعة.و ها هو النصاب الانجليزى الحاذق يكملها، أهى عصبة أمم للنصب والاحتيال يا بلاد الحضارة السعيدة؟ وهكذا استبدلنا بمائة دولار مائة فرنك كاملى العدد (يا حلاوة!!)، ماذا جرى لأهل الحضارة يا خلق هوه؟ أهذا هو الانجليزى الذى كنا نضرب به المثل "معاملة انجليزى"،.. "مواعيد إنجليزى".. فإذا به "نصب إنجليزى".. "خطف إنجليزى".

وتكررت حكاية رفض ابنتى منى يحيى أخذ العَوَض (المائة دولار كانت من رصيدها هى) مع أنى المسئول، فتوصلنا الى حل وسط، ورجعنا مكسورى الخاطر من آثار تلاحق المقالب، نضحك مرة، ونخجل مرة، على أرضية من الغيظ فى كل حال.

بدا لنا أننا نستحق تعويضا ما، وقد كان، وعزمتهم على وجبة متواضعة فى المطعم الصينى الرخيص أسفل الفندق، نفترق بعدها لنلتقى فى المساء الى السينما.

مازلنا الخميس ٦ سبتمبر ١٩٨٤

للذهاب إلى السينما فى بلاد بره طعم خاص بالنسبة لمواطن عادى مثلى ليس سينمائّى الطبع، ولا هو مثقف التكوين. لم أنجح أبدا أن أكون مثقفا عاما، أو مثقفاً سينمائيا، حتى بعد أن استدرجنى بعض طلبتى وأصدقائى الأصغر إلى الاشتراك فى "نادى السينما" فى مصر فى منتصف السبعينات، فتمتعت مثلهم ببعض الأفلام الحرة، لكنى وجدت نفسى أتفرج على مجتمع "نادى السينما" أكثر من فرجتى على السينما، ورويدا رويدا أحسست أنى فى غير مكانى، ذلك أنى شعرت أن هذا المجتمع المثقف جدا، اليسارى كلاما، المتيقن استقرارا، الساخر دائما، هو مجتمع بديل بشكل أو بأخر، بديل عن حزب

سياسى، أو بديل عن إنتاج مغامر، أو بديل عن خبرة مبدعة، وشعرت أن فيلما واحدا تبلغنـــى رســـالته مثل "إبنة ريان" أو الفيلم الايرانى "الغريب والضباب" (وقد كتبت عنهما نقدافى الـــسبعنيات نـــشرا فـــى الأهرام و"نشرة نادى السينما" على التوالى) هو ما أحتاجه بدلا من ملاحقة وعيى هكذا بما يحب مجتمع نادى السنما أن يتباهى بتكرار الحديث فيه أسبوعا بعد أسبوع ليثبت أنه يفهم أكثـــر مـــن النـــاس الأى كلام.

أحيانا بعد فيلم جيّد، أعنى مخترق، أو بعد آية من القرآن الكريم مشرقة، أحتاج أن أقفل مسام وعيـــى حتى أعيش هذا أو ذاك بحق كلٍّ، وأتعجّب لمن يفتح المصحف المرتل طول الليل والنهار مع أن كـــل آية هى قول ثقيل.

يا عبء من تُحمّله أمانتها، ويا خيبة من يحرم نفسه منها بتهميشها بغيرها.

فى السفر الوضع يختلف، وفى باريس أعتبر أن السينما تكمل تعريتى.

ما زال فيلمَىْ "آخر تانجو فى باريس"، "وكل هذه الموسيقى الجاز" اللذان شاهدتهما منذ بضعة سنوات فى باريس يدوران معى.

أذكر أن آخر تانجو فى باريس أزعجنى تماما، لا أعرف لماذا، أظن أن صيحة البطلـــة (لا أعـــرف اسمها) فى مارلون براندو بعد كل ما حدث، صيحتها فى آخر لقطة فى الفيلم وهى تقول له "ما اســـمك (كان الفيلم مدبلجا بالفرنسية) هى التى ظلت تتردد أصداؤها حولى، لم يكن فيلما جنسيا بـــالمعنى الفـــج لكنه كان مزعجا، وأحسب أن هذا يعنى أنه جيّد، فى هذا الفيلم يظهر الجنس كجزء لا يتجزأ من واقـــع يصعب الترابيط بين أجزائه إذا ما انفصمتَ عن مجراه العام، ولو لحظة انتباه إلـــى تفـــصيلة واحـــدة، وصلتنى الرسالة كما لو كان الفيلم يريد أن يعـــرّى مثل هذه العلاقة بشكل أو بآخر فـــى هـــذا النظـــام الغربى المغترب، وتصورت أنه يستحيل أن تتعرى مثل هذه العلاقة بهذه المباشرة بغيـــر هـــذا الفـــن "هكذا: وإن كنت لم أستطع أن أخفى على نفسى امتعاضى حتى الغثيان أحياناً، لكنّه فن حقيقـــى. أثـــر الفيلم فىّ، حرّك عندى إشكالة الذاتوية، وأوهام الحرية بشكل صارخ، حتى صحت:

بعتم للأطفال العزّل وهم الحرية

وهمو سمكٌ قد ترك الماء بحسن النية

وتقلب فوق الرمل الساخن.

فاحت رائحة شواء

عبثت إصبع زانٍ فى أوتار العانة

وانغمس السيف الخشبى، داخل كهف الكلمة

فانطلقت حشرجة الأغنية الثكلى

"ليس بجوف الناس عصارةٌ،

أغلقت الخمارة" ..

لست أرى إلى أى المستويات أنا – شخصيا – إلى أقرب، هجوم شعرى وقسوته (رغم تواضع قيمته)، أم إلى ادعائى السماح والتعلم من الاختلاف ؟ ماذا أفعل؟

الإبداع يقول، ويثير ويراجع، وكلما كان أكثر صراحة وإزعاجا، كان أكثر اختراقا.

أتذكر فزعا تلك البدعة الخطيرة الذى دخلت حياتنا الثقافية تحت عنوان "تجنب ما يخدش الحياء" لدرجة سمحنا معها بقص كل لفظ صريح أو موقف محدد فيه جنس إنسانى دال، تحت عنوان "ما يخدش الحياء"، وقد تجسد هذا التشويه مؤخرا فى قضية ألف ليلة التى انتهت والحمد لله لصالح الثقافة والحقيقة والفن والتراث، لكن القص والجبن ما زالا عاريان يلطخان وجه دواوين شعرية أصيلة مثل ديوان أبى نواس أو بشار بن برد أو عبد الحميد الديب، فاذا أضفنا إلى ذلك ألعاب الرقابة الأحدث، عرفنا أين نحن، وان كنا قد لا نعرف ــ بهذه الصورة ــ "إلى أين"، فالأرجح أننا نسير بظهورنا.

إن هذا النوع من: الأخلاق بالإغماض، والأخلاق بالحذف، والأخلاق بالادعاء، والأخلاق التى تستعمل من الظاهر، كلها تدل على ضعف المواجهة، وعتمة الوعى، والجبن أمام الحقيقة. أنا لست من أنصار الحرية المطلقة، كما أنى لست من مشجعى الإثارة العنيفة للتجارة بالغرائز، وإذا كنت قد أفهم ــ بصعوبة وفى حدود ــ دور الرقابة على الأفلام والتليفزيون مثلا، لأنها مادة مفروضة لجمهور مستسلم، فإنى لا أفهم معنى التدخل فى التراث الأصيل المنشور فى كتب بالحذف الجبان، فهل نحن أكثر أدبا وتدينا وحياء من المسلمين فى القرن الثالث الهجرى مثلا؟

لابد أن أعترف أنه اذا كانت مواكبة ومشاهدة الجنس عند سائر مخلوقات الله قد سمحت لنموى الجنسى أن يتحرك فى رحاب الطبيعة، فإن قراءة التراث الجنسى كان يغذى خيالى بما ينبغى.

مازلت أذكر كيف حصلت على نسخة من كتاب "رجوع الشيخ إلى صباه" وأنا فى مرحلة الثقافة العامة (الرابعة الثانوى/ ١٥سنة) فرحت أنقله نسْخا باليد، وأفرض شروطى حتى على إخوتى الأكبر مقابل أن يستعيروه منى، ثم اختفى الكتاب المنسوخ بفعل فاعل،، لعله أبى، (دون أن يذكر حرفا لى، أو لإخوتى، إن كان هو) ورغم أنه كتاب موضوع أصلا للإثارة الجنسية، الا أن طريقة كتابته وصور المبالغة فيه أدت وظيفتها فى استكمال ما لم تتحه لى الطبيعة الحيوانية.

رحنا نبحث عن فيلم مناسب، واكتشفت أن الأفلام التى هى ممنوعة لديهم، انما تمنع لمن هو أقل من ٣١ سنة، وتصورت أنهم قد يسمحون عندنا بالأفلام الصريحة والشجاعة بعد بلوغنا المائة، لضمان اننا حينذاك سنكتفى بالفرجة مثل أم جرير أو أم الفرزدق. كان ولداهما يتهاجيان بوصف أمٍّ كل منهما كيف حالها حين أصبحت عجوزا.

ما يزعجنى فى موقفنا هذا أكثر فأكثر، أن القهر والحجر والمنع يأتى من الأصــغر، فــى حــين أن السماح يصدر ممن هو أكبر، وكان المتصور أن يكون الجارى هو العكس، وهذا لا يعنى كمــا يــدعى البعض أن الأصغر منا قد أصبح أكثر تدينا والتزاما، وانما قد يعنى أن الأصغر صــار أكثــر خوفــا وعماء، وأن الأكبر مازال أكثر مرونه وموضوعية، وهذه ظاهرة منذرة، لأنها تشير الى أن الشباب قد أصبح شيوخا، فاضطر الشيوخ أن يحافظوا على شباب الأمة بمزيد من المرونة والحركة والسماح فــى مواجهة هؤلاء الخائفين المتجمدين وراء كذبهم على أنفسهم.

أتصور أن المسئول أساسا عن ضيق الأفق وعتمة الوعى وعلو الصوت الأجوف هو الحكم الشمولى بوجهيه الناصرى والساداتى، وأنه لا بديل لاستعادة شباب الأمة فكرا ومواجهة وإبــداعا إلا بــالحوار الحقيقى وإنهاء كل ما هو جيش، أو تهديد بجيش، سواء كان جيش يوليو أم جيش أكتــوبر أم الجــيش الأحمر أم جيش الخلاص الدينى الاغترابى أم الجيش دون جيش.

وندخل فيلم أكاديمية البوليس، ونضحك بما يفرّج عنا آثار مقالب النصب. أحب أن يكون التافه تافهــا جدا، إسماعيل يس فى الجيش/ فى البحرية. ما أعظم تفاهة ذلك.

وفى طريق عودتنا نتواعد أن يكون باكر (الأحد) هو يوم حر تماما، ثم بعد ذلك نتفــق، فقــد كنــت محتاجا إلى بعض الانفراد بنفسى لأتنفس ببطء، وأرى...

(استطراد أثناء الكتابة. القاهرة فى: الخميس ١٣/٢/١٩٨٦)

مرت على ابنتى صباحا بعد أن كنت قد ألغيت سفرا مصلحيا إلى بلدتى الأصلية فى ريفنا الذى لم يعد ريفاً، ألغيت سفرى هذا محتجا على نفسى رافضا أن أستدرَجَ حتى فــى أيــام العطــل، فأســتعملنى "هكذا"طول الوقت لصالح من لم يعودوا فى حاجة إلىّ.

قالت ابنتى هذه ــ تستأذننى ــ أنها ذاهبة إلى بور سعيد، فقرفت كالعادة، فأنــا أكــره هــذه الرحلــة البورسعيدية مهما حسبوا اقتصادياتها، ودرسوا جدواها، وأنا لم أذهب إلى بورسعيد ــ كما ذكــرتِ ــ منذ أربع وعشرين سنة (١٩٦٢)، كنت أعمل طبيبا ممارسا فى شركة للبترول، وذهبت هنــاك لاقــوم بكشف دورى أو ما شابه، وأذكر أنى لم أنشئ علاقة معها،أبدا، ثم حدث الاحتلال فانقبضتُ، ثم الجلاء الجزئى، فرفضتُ، وقلت لا يضحكون علىّ أولاد الكلب هؤلاء فيوهمونى بالجلاء وهم علــى مرمــى البصر، ثم جلوا عن سيناء كلها، فلم يعد لى حجة، لكنى لم أستطع الذهاب مع أسرتى أبدا، كنت أراهــا أراها ثقبا فى اقتصاد بلدى، يتمتع فيه بالإعفاء ذوو الحيثية والتصريحات الخاصــة، وبالتهريــب ذوو الذكاء والطرق الخاصة، قلت لا، لكنها "لا" خائبة لا تعود إلا على شخصى، أما بقية أســرتى ــ علــى الرغم من أنهم مازالوا ضمن مسئوليتى ــ فلم أستطع أن أتدخل فى حركتهم، فأصبحتُ رغمــا عنــى مساهما فيما أكره.

المهم ان ابنتى ستسافر، وأنى سأوافق، ويتكرر المضض، والحمد لله على كل حال،

وبديهى أن أمها ــ على الأقل ــ ستسافر معها، فهذه هى هوايتها المفضلة، لكن ابنتى فاجــأتنى أنهــا ستسافر وحدها، أو مع بنت طيبة تساعدنا فى أمر بيتنا، فتعجبت ولم أعلن رفــضى صــراحة لكنّهــا التقطته، فعرضتْ علىّ أن أسافر معها، وهى تعلم ردى فرحت ألتمس عذرا جديدا ثانويا، فادعيتُ أنى موافق على اصطحابها لو أنها غيرت الرداء الذى ترتديه، وأنا واثق أنها لن تفعل، ولن تــصدق، فأنــا أعلم عناد أولادى جميعا. وإذا بى أجدها تعود إلى بعد خمس دقائق وقد فعلتها، غيــرت الــرداء كمــا طلبتٌ، فوقعتُ فى الفخ، ولم أملك التراجع، ورطنى حذق مناورتى.

وهكذا وجدت نفسى، ــ فى بور سعيد بعد ربع قرن من المقاطعة، وذلك بسبب زلة لــسان خرجــت منى لست أدرى متى. كنت مشغولا وأنا أرد!!!!

دخلنا إلى بورسعيد بسهولة استغربتها، لم يكن واضحا عندى أن الخروج غير الدخول، وكنت أحــسب أن ما أسمع من قصص هى تجرى على"الحدود" ذهابا وجيئة طول الوقت، وما أن سرنا بضعة أمتــار داخل الحدود حتى انقبض قلبى وجعلت أسأل المارة ــ مداعبا ابنتى ــ عن الطريق إلى القاهرة، بــدلا من سؤالى عن وسط البلد فى بورسعيد ــ فحذّرتنى إبنتى وكأنها تصدق رغبتى فى العودة الفورية من أن الخروج قد يستغرق ساعة أو أكثر حتى لو أثبتنا لهم أننا دخلنا من خمس دقائق، حتى لو اســتدرت فى نفس لحظة دخولى.

سألت عن مخبأ أختبئ فيه بعيدا عن السوق والتسويق حتى تنتهى ابنتى ورفيقتها من انتهــاك حرمــة اقتصادنا، فقالت لى أنها سمعت أنه يوجد على البحر ما هو "هلتون" قلت علىّ به فأى هلتــون عنــدى يمثل لى مكانا مناسبا حيث تطيب لى القراءة والكتابة (وكنت قد أحضرت معى كالعادة خمــسة كتــب ورزمة ورق وسبعة أقلام!!!) ــ ولكنى قبل أن أنسحب قلت "أجاملها"، وأشــترى شــيئا، أى شــىء، فدخلتُ معها محل أربطة عنق، وتشاجرت مع البائعة المحجبة فى نــصف دقيقــة، (دون ســبب فــى الأغلب) وانصرفت دون أن أشترى شيئا، ثم اشتريتُ حزاما قبيحا من على الرصيف، أخزى به عــين السفرية (ولم يكن مقاسى، وكأن للأحزمة مقاسات ــ لم يكن ينقصه طبعا إلا ثقب إضــافى) ومــضيت على قدمى وحدى نحو الشاطئ أسأل عن هذا الهلتون الذى سمعتْ به ابنتى، وكأنى سائح كاره متورط، حتى وصلت، فاذا بهذا الهلتون ليس فندقا وانما سوقا تجارية تتربص بى شخصيا،، فتماديت فى السؤال حتى أشفقَ على شاب صغير وقال: تقصد هيلتون ايتاب، وقلت: نعم ــ أى شىء، وطبعا كنت أتــصور أنه لا يوجد شئ اسمه هيلتون ايتاب، إما هيلتون وإما ايتاب.

فى مقهى الفندق (ايتاب) وجدتنى أجلس فى مكان شديد الجمال، وليس معى جنس مخلوق، إذ لابد ان جميع زوار بورسعيد فى حالة شراء مزمنة، فجلست محتميا بوحدتى وجمال المكان، وأخرجت أوراقى وكتبى وأقلامى، وقلت لهم (لأوراقى، كتابى، أقلامى): يختارنى من يشاء منكم.

لم يكن قد مضى على وداع سعيد سوى أسبوعين، واذا بالهدوء والجمال يُحضرانه ماثلا أمامى يودع الحياة ببطء راسخ، لم أفهم ما هى علاقة الموت بالجمال، ولم أستطع أن أتبين من الذى يعاند، الموت زاحفا أم الحياة تستغيث، تحدثت قبلا عن علاقة الشعر بالسفر، لم أكن أعرف أن الشعر يعرض خدماته حين تفرض نفسها ما نسميها تناقضات، وهى ليست كذلك، لا يوجد تناقض بين الموت والحياة، بين الموت والجمال، كيف ؟ لا أعرف، لكننى لم أجد أى مبرر للاستغراب ناهيك عن الرفض.

السفر الذى يعرّى ويحاور يقارب أطراف ما نسميه تناقضا، يحرك دوائر الحياة نحو بعضها وهو يحرّك الناس نحو بعضهم البعض ليتعارفوا ،

يهيج الشعر دون استئذان، بغض النظر عن مستواه من مثلى، لم أكن أتصور أنه حتى هذا السفر إلى بور سعيد، كالمقبوض علىّ رهن التحقيق، يمكن أن يصاحبه هذا التحريك الخاص الذى يجمع الصور إلى بعضها يحاول أن يصنع منها لحنا ما.

كنت أحسب أنى خاصمت الشعر الى غير عودة، بعد أن أكدوا لى أنى طرقت بابه عن طريق الخطأ، وبغير داع، أنا لا أكتب شعرا. الأدوات تفرض نفسها كل فيما يخصصه، ليس لهذه الصور اسم آخر، المكاشفة!! ابتسم صديقى وهو يجز على أسنانه ليخفى عنى الألم، دمعتْ عيناى، تذكرتُ نقده لرثائه ونحن فى مستشفى ماس جنرال فى بوسطن، لم أكن أقرأ عليه شعرى أبدا، لم يكن يحب إلا الشعر العمودى.بورسعيد، لم أزرها ثانية حتى الآن (أكتوبر ٢٠٠٠).أسميتها:"حتى إذا بلغت التراقى".

— ١ —

وصاحبى.

يقولُها، يعيدُها، يصارعُ الألمْ.

بلهاء ترعى فى سرابِ الخلدِ تُفرزُ العدمْ.

— ٢ —

وصاحبى

يلهثُ خلفَ الموتِ، قبْل الموتِ، جاء الموتُ،

يسكبُ الحياةَ قطرةً فقطرهْ،

فتطفحُ البثورُ فوقَ صفحة الكلامْ

أقلّب الديوان بَحْثاً عن قصيدةٍ مُهْترئهْ

وصاحبى: يروّضُ الهواءَ،

ينتظمْ.

ــ ٣ ــ

مَرْحى انطلاقة التَّحَرر

مَرْحَى استدارةَ الزَمنْ

[العارُ ياسيدتى الكريمة،

العارُ ألاّ تختفى الأبدانُ.

أجسادُنا تكبّل الإلهامَ،

تبررُ العفنْ]

ــ ٤ ــ

يُجمّد الجليدُ ذرّاتِ المناوبهْ

لم يبقَ إلاّ ما تبقّى.

ياصاحبى:

لا تطفئ الشموعَ قبْل الرَّجْفةِ المسافِرةْ.

-٥-

الآن؟

ليس الآن، حتّى الآن،

قبل الآن،

يا نبضها:

حقيقة الرَّانِ المكثّفِ فوق قلب الخائبين العزّل.

ــ ٦ ــ

يشهقُ فى رتابة.

سرٌ توارى فى لحَاء الشّوكَةِ المزدهرهْ

يحنو عليها ــ تنطلقْ،

يزفِــرُهَا

يطلّ من ورائها الوعدُ الذى لمّآ يعِدْ.

تراقصَ الضياءُ فى تسابق التتابع،

-٧-

..لا سَهْلَ إلا ما جعلتَ منه سهلاً.
[شيخٌ إذا ما لبس الدِّرْعَ حَرَنْ،
سهلٌ لمنْ سَاهلَ ،حزْنٌ للحزنْ]
هل يا تـُــرى تَسَــلــَّمَ القيادةْ؟
هل يا تُرى قد أصبحا في واحدٍ،
إن قال: كُـــنْ، يكنْ؟

ـــ ٨ ـــ

دائرةٌ حائرةٌ ،
تقولُ؟ لا تقولُ؟ تَعْتَمِلْ
[لم أبدُ يوما، لا، ولمّا أستَتِــرْ]
يا بيضة الحَجَرْ
لا تَقْسِي الكآبةْ

ـــ ٩ ـــ

يعاودُ الشهيقَ، والزفيرُ يرتقبْ
ليست كتابةً كما الحسابْ
فالقولُ: للأحلامِ، لِلْجُنُونِ، للسَّرابِ، للعبثْ.
القول: للعذراءِ، باحتْ؟ لم تَبُحْ.
لا، ليس سرّا أننا لمّا نكن أبدا سوى ما لم نكُــنْهُ.

-١٠-

ماءٌ تَزَمْزَمَ، يقصفُ القلمْ:
لبّيكَ، مرسِلِ اللواقحْ،
لبّيكَ، ينزلُ المطرْ،
لبّيكَ، وعيُ الناسِ يزدهرْ
لبّيكَ، ريحُك الذرات والتخلّق الضفيرهْ
لبّيكَ، عادتْ نحو عُشِّها اليمامهْ،

لبّيكَ، أفلتَتْ من قبضةِ العَدَمْ.

ـ ١١ ـ

إيقاعها انتظمْ.

الحمدُ للّذهاب للمجيء للدوائر النغمْ

تَسَّـــاقطُ المشاعلْ

تحشرجَتْ فى سَــــمّ خيطٍ أفرزتهُ دورة المشانقِ

يشحذُ سنَّ شوكةِ المحاوَلهْ

خيّبتُ ظنّ الموتِ،

لم أستترْ

لم أمْحُ نبْضَ الحُلم.

سارعتُ أنفخُ المقولة القديمة،

دارتْ تئنُّ

ترَّددَ الصَّدَى.

ـ ١٢ ـ

هذا، ولمّا كان يوْمُها بلا غدِ،

وريحُها بلا اتجّاهْ،

مزّقتُ ثوبَ الشِّعْر،

تراجعتْ قصيدةٌ وليدةٌ، وأسبلتْ جفونَها

فى وَعْدِها القتيلْ

ـ ١٣ ـ

فى كلِّ وجهةٍ نبى.

أجاءها المخاض عند جذع نخلة.

يعاوِدُ الشهيقُ، يُشهد الزهورَ والحقبْ:

"ما مضنّنِى سوى الزّفير ينتحبْ،

ما هدَّ ظهرى غيرُ طوْطَم البكَمْ".

ـ ١٤ ـ

غَافلَنَا َ بلا ودَاعْ

أرْخَى سُدُولـــهَا.

نظر إلىّ سعيدٌ معاتبا، لكنّه لم يتخل عن ابتسامته، على الرغم من هجمة الألم. لم أعرف ماذا اقترفتُ حتى يعاتبنى، لكننى تأكدت من أن عنده حق، أهْمَلَ القصيدة تماما. لم يطلب منى أن أقرأها عليه مثلمـــا فعل فى بوسطن حين رثيته حيا. هل مات؟ أنا أيضا لم أجرؤ أن أقرأها بعد أن انتهيتُ منها، لم أعُدْ لها إلا الآن (أكتوبر ٢٠٠٠).

ألتفت حولى فاذا بالمكان نصف ممتلئ فقد قاربت الساعة الثانية، ألمح على مائدة بعيدة، يـــسمح لـــى وضعها أن أرى متحلقيها دون أن يرونى، ألمح زملاء بالكلية ورؤساء بالجامعة من كبار القوم جـــاؤوا يتناولون غداء ويتبادلون كلاما، فأجدنى رافضا تماما، رافضا ماذا؟ لم أحدد.

أنقل بصرى بينهم وبين القصيدة. أقيس المسافة فأجد أنه يستحيل...، يستحيل، يستحيل ماذا؟ يستحيل والسلام .

أنظر للقصيدة وأقول لها: اخترتِ وقت وموقع ولادتك قبل أن يحضروا، وإلا فما كان لـــك أن تـــرى النور أبدا. بحثت عن ابتسامة سعيد، لم أجدها، لم أجده. هل مات؟

قبل انصرافهم، يلمحنى أقرب واحد منهم، شخص مهم جدا، (ش.م.ج.) شـــمجيٌّ، يـــأتى للـــسلام، و يصمم أن يواعدنى لأغادر معهم المدينة ليمررونى من الجمرك دون رسوم. رسوم ؟ رسوم ماذا؟ هـــل يأخذون رسوما على كتابة الشعر؟

تلكزنى القصيدة فى وعيى.

تدور أمامى دائرة قبيحة بين التهرب من الضرائب، والشطارة فى الجمارك، ثم إعلانات بأسمائهم فى قوائم تسديد ديون مصر..!!! وقوائم بترشيحات الحزب الوطنى.

أتعجب كيف يكون الموت بكل هذا الحضور، وكيف نتبادل المواعظ فى المآتم، لكننـــا نبـــدأ النـــسيان ونحن نقبـــّـــل بعضنا البعض مع انصرافنا من السرادق، أو قبل ذلك بقليل.

تحضر ابنتى محملة بأقل القليل، ربما خوفا منى، ونمر من الجمرك فيما يقل عن نصف ساعة فتفـــرح ابنتى بسلامتها حيث كانت تتصور أننا لو تأخرنا أكثر فقد أقتلها ـــ جاءت سليمة.

أشعر ان السفر هو السفر، وأسأل نفسى :

إذن لمَ لا أكمل هذه الترحالات بالحديث عن تجوالى فى ربوع بلدنا ؟

فهمت أدونيس وهو يقول فى رحيل صلاح عبد الصبور:

"الموت! ذلك الشعر الآخر!!"

أردد مكملا:

"ذلك الترحال الآخر."

هل الشعر إلا ترحال؟

الفصل الثانى

(الفصل الثامن: من الترحالات الثلاثة)

ويا ليتنى أستطيب العمى!

وأخْجَلُ أنْ تستبينَ الأمورُ فأضْبَطُ فى حُضْنِها، الغانية.

فأزعم أنّى انتبهتّ، استعدتُ، استبقتُ، استبنتُ..،

(إلى آخرهْ!!)

ويرقُصُ رقاصُها فى عنادٍ، فتنبشُ لحْدَ الفقيدِ العزيز، تُسَرّب منه خيوط الكَفَنْ.

أخبِّئها فى قوافى المراثى لأغْـمــــدَ سَيْفَ دنوّ الأجَلْ.

......

فياليته ظلّ طى المحال،

وياليتَها أخطأتْها النبالُ،

وياليتنى أستطيب العمى.

الخميس ١٩٨٦/٦/٥ (يوم الكتابة)

البين عملنى جمل واندار عمل جمّال

ولوى خزامى وشيــّلنى تقيل الاحمال

أنا قلت يا بين والله الحمل ما ينشال

لم أفهم – من قبل – كيف أن الفراق (البين)، أو الهجر، يمكن أن يصبح هو القائد الآمـر (الجمّـال)، ولا أنا كنت أتصور كيف يمكن أن أسلم له قيادى (جملا) مخزوما محملا بما لا أطيق، ولكنـى رأيـت ذلك رأى العين،

أكتب هذا الفصل، وقد بعدت الرحلة عنى عامين بالتمام، فقربت منى عمرا كاملا. فى "هـذا اليـوم" تحركت ذكريات قديمة مريرة وغائرة، فهزت ذلك السكون الزاحف على السطح: همودا ويأسا.

ذلك أنه لما طال الأمد، وجثم الموت، بدا لى أن أعظم حكمة يمكن أن أكمل بها أيامى هـى أن أكـف عن الحركة تماما: عن الكتابة، عن الحماس، عن الأمل، وعن الإصرار، وعن الحوار. خيل إلىَّ أنـى بذلك أعيش الموت، وفرق بين أن تعيش الموت، وأن تموت، وأن تقرر الموت، قلت أعـيش المـوت، كما فرضته على رؤيته "فى" صديقى الراحل... ثم "فى" صلاح جاهين، ليس حزنا عليهم كمـا يحـب

الناس أن يتصوروا اختزالا للمشاعر، ولكنى قررت أنى أحق الناس أن أمضى بقيــة حيــاتى متفرجــا ساكنا، وكأنى انتقلتُ إلى هناك مع "وقف التنفيذ"، فبدلا من أن أفرض بنفسى قدَرًا غير مضمون مثــل فعلة صلاح جاهين الرصينة، قلت أجرب قدرا ساكنا أراقب به ــ متفرجا ــ عبث هذه الأيام المفاجئة، ثم أرى:

ذلك أننى ما كدت أودع صديقى فى الفصل السابق حتى فعلها صلاح بمنتهى الشجاعة (وربما منتهــى النذالة!!). أنا لا أعرف صلاح "معرفة" تسمح لى بأن أتحدث عنه وكأنه صديق، وإن كنت قــد قابلتــه بضع مرات فإن ذلك كان يبعدنى عنه أكثر فأكثر، (بقدر ما كان يقربنى منه بعدى الجسدى عنه)، لكنه حين رحل (ولا أقول مات) ــ عمّق فىّ معايشتى لخبرة الموت، وكأنهما ــ صــديقى فــصلاح ــ قــد أطلقا من داخلى إلى أعماقى تلك الصرخة المكتومة، المُفيقة الخاذلة، المتحدية الخبيثة، فتحرك المــارد المتربص زاحفا، ساحبا وجودى إلى بؤرة السكون.

تحضرنى بقية الموال فتصل بى إلى ذروة الإفاقة:

قال: رق الخطى ياجمل وامشى على مهلك.

دا كل عقدة لها عند الكريم حلال.

ليكن: أتسحب معه ــ مخزوما ــ إلى بؤرة الدوائر، حاضر: أرقق الخطى، وأمشى على مهل، لعلــى أرى أكثر وأنا فى جوف السكون، فيخيل إلىّ أننى همدت بلا اتجاه، ولا تيه ولاحركة، حتــى الــرفض الذى كان دائما "فعلا". وجدته أنه قد قبع فى عمق اللافعل، بدا لى أن بعض من حولى قد لاحظ ما طرأ علىّ فتركونى وشأنى مقدرين منتظرين، يذكر لى إبنى الأكبر أنه قد أجل مفاتحتى فى أمر مــا "حتــى أفيق من موت صلاح جاهين" فتعجبت كيف أبدو "هكذا" أمامهم كتابا مفتوحا. حاولت أن أخفــى نفــسى فى مزاح، أو نقاش، أو عمل، بلا جدوى، وتصوّر ابنى أنه إنما فقد "عمه" صلاح، وما هو بعمه، ومــا صلاح بأخى، بل الأرجح أنه إبن لى رغم حكمته وروائع أعماقه، ثم إنى لم أرعب أبدا من المــوت، ولا أنا رافض له أبداً. هذا الموت ــ موت صلاح بعد صديقى ــ لم يهمد حركتى إلا ظاهريا، فقد تحركت فى داخلى يقظة ساكنة، منسحبة، لكنها مليئة بزخمٍ ما،

هذا الحزن الهادر فى الداخل هو ثروتى طول عمرى،

فما لهم لا يرون ما وراء مظهر السكون؟

خجلت من هذا التعرى الفاضح، وكأن حزنى لم يعد ملكى، مع أنهم لم يحيطوا به كما هــو، فرُحــت أتسحب أمامهم لأمارس شكلا آخر من الحياة، لعله أقرب إلى ما يفعلون، لكنه بالنسبة لــى، أبعــد مــا يكون عمّا أعرفه من معانى "الحياة/ الحركة/ التحدى/ التجاوز" إلا أننى اكتــشفت أن ذلــك التــسحب المشارك ساعدنى أن أعاود الاختباء لأتستر على ما استيقظ فى أعماقى من موتٍ حى، فأخذت أطيــل

الجلوس "معهم" (أولادى) أمام التليفزيون الذى لا أحب فيه إلا ألوانه وبعض قديمه، ثم بعض الجديد ذا الرائحة القديمة، كما رحت أحل الفوازير وأتابع مغامرات "ماندو" و"وردشان"، وكـأس العـالم: حتـى استطعت أن أقارن بنجاح نسبى بين مارادونا (الأرجنتين) وعزيز بو دربالة (المغرب) وأنا لا أعـرف فى الكرة "الليبرو" من "القشاش"، ثم عدت أستجيب للإدلاء بأحاديث صحفية من النوع الفاتر المُعاد بعد أن كنت قد قررت أن أتجنب مثل هذا النوع من الأحاديث "تحصيل الحاصل" ـــ وكأنى أعدت بكل هـذا النشاط القهرى تحريك ظاهرى لمجرد أن أدارى به صمتى الزاحف، فراح كل ذلك يصب فى "مركـز السكون" فأزداد انسحابا منتظرا أمرا ما.

رويدا رويدا أكتشف أن هذه النقطة المركز ليست إلا بؤرة دوامة بالغة النشاط. هى لا تبدو ساكنة إلا لأنها تدور بسرعة أكثر من أن تُلاحـَـظ، ثم هى تبتـلع ـــ فى صمتها الدائرى ـــ كل ما يصل إليهـا من أحداث، وآمال، وخطط، ـــ فتحتوى المستقبل كله حتى لو بدا بلا حراك.

هل رحلتَ يا صلاح ياجاهين فى لحظة شُحذ فيها وعيك حتى أدركت اسـتحالة الـسكون واسـتحالة الوعى بهذه الحركة معا، فاستسلمت للزحف السرى الجاذب إلى عمـق بـؤرة الدوامـة، لتتركنـا ـــ ياصلاح – فاغرى الأفواه، لا نكاد نشعر بكثبان الرمال المتحركة تحت أقدامنا؟ أنا على يقـين ـــ دون دليل محدد ـــ من أنك لم تكتف بالاستجابة لنداء ليس من صنعك أنت، فما بلغنى ـــ هكذا ـــ منك وعنك أنك لم تودعنا مستسلما، بل متحديا مصمما، مخرجا لنا لسانك، حيث أقدمت شجاعا تحسم مصيرك بعد أن عجزت عن تلقى زخم إبداعك كله بما هُوَ، أتقمصك يا صلاح فأزعم أنك رفضت أن تموت بفعـل الملل ـــ بعد طول الصبر (الصبر طيب ـــ صبرأيوب شفاه، بس الأكادة مات بفعل الملل)، كما رفضتَ إلا أن تحاول بنفسك رغم كل محاولاتك الرائعة السابقة. قررتَ هذا الاختيار لمّا نسيناك ـــ شخـصا ـــ فى زحمة انبهارنا بنتاجك. فلم تجد عشا يحتويك بعد كل تحليقة من تحليقاتك، فاختفيـت فـى طيـات السماء مثل طائر النورس الجميل بلا عشوش، ولا رفيق (طيور جميلة بس من غير وشـوش، قلـوب بتخفق إنما وحدها).

هل كنت يا صلاح تجيب ـــ بما فعلت ـــ عن سؤالك إن كانت الحياة "كده كلهـا فـى الفاشـوش"؟ لا أوافق.

"طيب"!! فأين ـــ حلاوة الشقشقة، رائحة نسيم الصباح، رقة السماح، دغدغة الفجر، همـس الـورود: ألست أنت الذى كنت تصارع مصيرك هذا بضده، فاتحا دائما باب الغد الحامل لألف ألف احتمال، ثـم لم ترجح ـــ فى النهاية ـــ يابو صلاح إلا "هذا" الإحتمال بالذات، فى هذه اللحظة بالذات، فأستقبله أنـا، "هكذا!!"

فكتبت أعاتبك يا أخى فسامحنى.

هكذا ألقانى رحيل صلاح ــ بعد صديقى سعيد ــ إلى ما تصورته سكون الحكمة، فــإذا بــه دوامــة الإنسحاب، وإذا بدوامة الانسحاب هى هى مركز الانطلاق. لم أدرك هذا التــضمين الخفــى إلا حــين اضطررت لكتابة هذا الفصل تحت قهرالوعد والقصور الذاتى فأتذكر كاريكاتير صلاح جاهين اليــومى الملــزم، فربما هو الذى حافظ عليه لنا طول هذه الفترة ــ حافظ عليه ما طال عمره رغما عنــه مــن يدرى؟،

أمسك القلم لأواصل كتابة الرحلة، أو لأستجيب إلى تسجيل هذه السيرة الذاتية الضاغطة، أو لأحــاول المكاشفة من خلال تلك المواجهة المتحدية.

مع دورات الليل والنهار تتسرب الحقائق من وعينا فلا يبقى منها إلا ما نقدر على اســتيعاب بعــض أطرافه مما يدفعنا إلى الاستمرار بشكل ما.

ومع دورات الليل والنهار يعود إلينا ما يمكن أن يقترب منا لنعيشه أقدر. هذا مــا كــان. بعــد هــذه الإجازة الإضطرارية بعيدا عن القلم، والأمل، والحوار، والحركة،

بعد هذا الرضا بالتصنم أمام حقيقة الموت راح يدب فى "وجودى" انبعاث آخر، فنشطت حركة ما فــى إتجاه ما، حركة لم أشعر أنها تمت إلى الحياة بصلة مباشرة، فهى لا تعــِدُ بنقله، ولا تلــوّح باختيــار، وأتبين احتمال أنها تكرار لنص قديم،

لعلّ من أكبر نعم الله علينا أن سمح لعظة الموت التى نتذكرها بالكاد كلما فقدنا عزيزا، جعلها تتسرب بنعومة واثقة ،

عثرت أثناء بحثى عن الفصل الرابع فى هذا الترحال (أنظربعد) على ما جعلنى أضبط نفسى متلبــسا بهذا التسرب العظيم.

وأزعم أنَّ القناعَ القديمَ تساقطَ حتَّى استبان المدارُ، يبشّرُ بالمسْتحيلِ:

إذَنْ؟

وتسرى المهاربَ تَنحَتُ درباً خفيًّا بجوْف الأملْ،

فأخْشَى افتضاحَ الكمائِنَ نسف الجسور، وإغراقَ مَرْكبِ عَوْدَتَنا صَاغرينَ، فأمْسكُها، تَتَــسَحّبُ بــين الشّقُوقَ، وحوْلَ الأصَابع، تَمْحُو التَّضَاريسَ بين ثَنَايَا الكلامِ، تُخَدّر موضعَ لدْغ الحقَائقْ، تَــسْحَقُ وَعْــيَ الزُّهَورِ، ولحَنَ السَّنَابِلِ.

مَنْ؟

لماذا الدوائرُ رنُّ الطنِين، حَفِيفُ المذنّبِ، يجرى، بنفس المسار لنفس المصير، بلاَ مُستِــقَرْ ؟

لماذا نبيُع الهُنَا الآن بخساً بما قد يلوحُ، وليس يلوحُ، فنجَتُّر دَوْما فتَاتَ الزَّمْن ؟

لماذا الوُلُوجُ ؟الخُروجُ ؟ الدُّوار؟ لماذا اللِماذا؟ ؟

فمَاذا؟

وأخْجَلُ أنْ تستبينَ الأمورُ فأُضبَطَ فى حُضنِها

الغانية.

فأزعم أنّى انتبهتُ، استعدتُ، استبقتُ، استبنتُ..،

(إلى آخره!!)

ويرقُصُ رقاصُها فى عنادٍ، فتنبشُ لحْدَ الفقيدِ العزيز، تُسَرّب منه خيوطَ الكَفَنْ.

أخبِّئُها فى قوافى المراثى لأُغْمِدَ سَيْفَ دنوّ الأجَلْ.

فياليته ظلَّ طى المحال،

وياليتَها أخطأتْها النبالُ،

وياليتنى أستطيب العمى

فهمت من شعرى أن الرثاء، حتى الرثاء، هو محاولة أن نخبّئ عن أنفسنا حقيقة الموت (أخبِّئُهـا فـى قوافى المراثى لأُغْمِدَ سَيْفَ دنوّ الأجَلْ).

خبّأتُ حقيقة الموت عنى، طنبلت عنها، (كلمة عربى جميلة عثرت عليها مؤخرا) فلاحت لى إمكانيـة العودة.

عدت إلى القلم حاملا عشقى للحياة،،

خجِلا من سبق إعلان مغازلتى للموت،

راضيا بأى درجة من الغفـلة تسمح لى بالاستمرار.

(وياليتنى أستطيب العمَى)

أى غفلة هذه، وأى عمى يمكن أن أستطيبه والنتيجة أمامى تتحدانى لتصادُف عودتى للكتابة فى نفـس هذا اليوم الحزين، ٥ يونيو، حزيران الكلب. كنت أحسب أننى تخلصت من مرارته بما تحرك بى مـع نصر أكتوبر من استعادة توازنى حتى الفخر والزهو بما هو أنا، نعم، مع نصر أكتوبر: بمـا صـاحبه وسبقه ولحقه من عودة احتمالات الكرامة، ونسائم الحرية. لكن يبدو أن المرارة كانت قد تجمدت فـى نخاع وجودى، منتهزة فرصة أننى على ألفة جاهزة بكل ما هو مؤلم، ربما لأبرر بـه وخـز الرؤيـة ونزف الوحدة، أبدا... ذلك شئ آخر لا يبرره تكوينى المستهدف للألم والمرارة، شئ يعاودنى مع كـل عام بهذه المناسبة التعيسة: خمسة زفت، يعود ليلبسنى بلزوجته الحارقة، منذ أن اقتحم كيـانى داهـسا كرامتى، ساحقا وجودى.

فى ذلك اليوم تحديدا أو فى تلك الليلة (٧ يونيو ٦٧) استبنت ما كان، ـــ نعم هو هو نفس الشعور مـا زال يعاودنى: يجثم على أنفاسى، هو نفس الغول يحتوينى من كل جانـب بملمـسه الرخـو الحـارق،

وتشوهات سطحه الغائرة المعقدة مثل جوف حبة عين جمل عطنة. أنا لا أعلم تحديدا مــا هــو طعــم منقوع الحنظل، ولا مذاق ماء النار، ولا رائحة نتن الجيفة داخل القبر، ولا كثافة لسع الزنابير الهائجــة معا بعد هدم عشها مباشرة، ولا بشاعة التهام أسراب الجراد للأخضر الممتد، ولكننى أكاد أعرف أنــه لو اختلط كل هذا بكل ذاك لما عبــّر عن عشر معشار ما اقتحَم وعيى ذالك اليوم حتى طمس معــالمى داخل الكتلة من الخِزى المرير، والمهانة المفضوحة.

فى ذاك اليوم تعرى أمامى "والدى" الذى لم أخترْه، تعرى غبيا مغرورا وهو يتــشدق بــزعم تحمــل مسئولية لا يعرف أبعادها ولا آثارها على واحد مثلى ــ فما بالك بالأرقّ حسا والأصغر سنا، والأكثــر ثقة فى عنفوانه وحمايته، أحسست يومها ــ ولا مؤاخذة ــ أنى طفل أدفن رأسى بين ساقى والدٍ ضــخم يرتدى جلبابا بلون النيلة، أدفن رأسى بين ساقيه احتماء به من مجهول، فإذا به يــضغط علــى رأســى الصغير حتى يفقأ عينى دون أن أتصور إلا أنه يحمينى حتى من الرؤية، فأزداد غوصا بــين ســاقيه، فرحا بمزيد من الحماية، لكنى أكتشف أنه إذ أمسكنى هكذا مكّن منى أســفل أوســاخ المــشردين مــن الصبية الأوباش، يعرون مؤخرتى، فيعبثون بها تحت سمعه وبصره، و أزداد تمسكا به ودفسا لرأســى بين فخديه، ومع زيادة عارى وخجلى وعجزى أكاد أسمعه وهو يعلن عزمه على أنــه ســوف يغــادر الميدان، (ويتركنى هكذا)، محنىّ الظهر، عارى المؤخرة، وأن هذه "هــى مــسئوليته"، عمــا كــان!! فأرعب: طفل أعمى، مجروح الكرامة، فاقد الوعى، مطموس البصيرة، مشلول الحركة،، يتركنى أبــى ــ مهما كان ــ هكذا؟ ساحبا ساقيه المرتعشين دون أن يشعر بالتفاف ذراعــى القــصيرين حولهمــا، فأزداد التصاقا بمخبئى الوحيد، حتى لو أدى ذلك إلى أن يتمادى الصبية الأوباش فى العبث بمــؤخرتى، بإذنه، أو بعجزه. ياساتر،

أى ذكريات وأى عار، وأى قلب للأمور، والناس والتاريخ يحاسبون القادة مثل حسابات التجــار، كــم خسر وكم كسب، وماذا خسر وماذا كسب، مع أن الحساب الحقيقى ينبغى أن يتضمن أخطــاء تجــُب كل ماعداها من إنجازات، كما قد يتضمن إنجازات تجب كل ماعداها من أخطاء، فإن لم يوجد هــذا أو ذاك، فدع الحساب يتم بالقطعة، واحدة واحدة، وأكتشف أنى لــن أسامحه أبدا على هــذا الموقــف، ولا أعفى نفسى بالاعتذار بطفولتى، أو باستسلامى لأبوته، فأنا الذى غرستُ رأسى بين طيات ثوبــه بلــون النيلة، وأنا الذى فقأت عينى بالاعتماد عليه، وأنا الذى أطلت فى أجَله بتشبثى بساقيه، ومن فرط حــدة عودة هذه المشاعر فى كل مرة، هكذا هى، أشعر أحيانا أنه حتى لو ذاب كلى وتلاشــى جــسدى فلــن يزول طعم الحنظل هذا مع زوالى.

زاد من مرارة طعن هذا العدوان ــ عدوان أبى المفروض علىّ المقتِحمِ لو جودى– أنــى ســافرت سفرتى الأولى إلى باريس عام ١٩٦٨ لأفاجأ بصور موشى ديان "البطل" وهى ملصقة علــى جــدران

باريس تعلن عن فيلم ما، بطولة القرصان الأعور، وكلما أطل على وجهه بضخامته امتدت يـــدى إلـــى مؤخرتى أحاول أن أخفيها عن الأعين، فيصيبنى الغثيان.

حين أعود إلى باريس، أتابع عيونى وهى تبحث أول ما تبحث عن صور القرصـــان الأعــور قـــاهر الآباش، وكأنها ستظل تطل علىّ فى عيون الخواجات بقية عمرى، أمد يدى أتأكد من وضـــع ســـترتى تستر عريى. أتابع عيون أولادى فلا أجدها تفعل مثلى، وأتساءل عن موقف هذا الجيل الذى لم يتـــذوق أصلا أمل الحرية، كما لم يتجرع بعد ذلك كأس الهزيمة بعد الخدعة، ولا أعلن لهم عـــن طبيعـــة مـــا أبحث عنه، ولا عن عمق سخطى على والدى الكاذب أو المخدوع (= سواء)، فلا هم سوف يـــدركون، ولا هذا مجاله.

أملتُ أن تكون رحلتى إلى باريس ذلك العام بداية تصالح مع جانب آخر من موقف غيـــر شخـــصى. يخيل إلى أنى أعتبر رحلتى إلى باريس بالذات فرصة متجددة لإعادة النظر، لأنها كانت كذلك فى تلـــك السنة المزدحمة بكل هذه التغيرات (٦٩/٦٨)

٧سبتمبر ١٩٨٤(عدنا لأيام السفر)

كنا قد اتفقنا على أن يكون اليوم هو يومٌ حُر، يفعل فيه من يشاء ما يشاء، فانطلق الأولاد مـــع أمهـــم، وبقيت أتمتع بحريتى المزعومة، وإذا بى أكتشف أن هذا الزعم بالحرية الانسحابية، هو ــ أيضا ــ من ضمن الخداعات الأساسية التى تلوح بها "الوحدة". أغلب من يعرفوننى، أو قل يعاشروننى يتـــصورون ــ فيما يشبه الاتهام ــ أنى عاشق للوحدة، مفضل لها عن أى صحبة مهما أبديت غيـــر ذلـــك. أكـــاد أصدق ما يروْن، فكم أتصور أنى أريد أن "أكِنّ" بعض الوقت، أو طول الوقت، فيبـــدو ذلـــك وكـــأنى أفضّل أن أكون "وحدى"، وما هو كذلك تماما، ذلك أنه حين يقفل الواحد منا أبواب مُثيرات الخارج فهو لا يعيش وحدته أو عزلته، بل هو يفتح الأبواب فى ذات اللحظة لساكنى الداخل، يتحركـــون ليؤنـــسوه، ويؤنسهم، فأين الوحدة.

تركنى الأولاد مع زحام الداخل وظاهر الوحدة فما كدت أستشعر نفسى معى، حتى تبينت أنى لـــست كذلك، فاليوم هو الجمعة، وأنا حريص دائما على صلاة الجمعة فى جامع باريس بالذات مثلمـــا كنـــت أفعل منذ خمسة عشر عاما، حيث كنت أذهب بانتظام باحثا عن ملامح إسلامٍ لم يعد له ملامح، مكـــررا محاولاتى ــ بوعى فاتر ــ لتوطيد أواصر الانتماء إلى أهل دينى. ورغم الإحباط المتكرر فإنى مازلت أصرعلى "بعثٍ ما"، يؤكد لى حقى فى التمسك بفطرتى ــ دينى الحنيف، أفعل ذلك رغـــم إصـــرارهم على غير ذلك، الخيار المطروح هو إما أن أتبع تفسيرهم المقولب المتجمد، وإما أن أجمح سائبا شاطحا مغرورا، وأنا أبداً: لا أستطيع لا هذا ولا ذاك.

ثم تذكرت أن اليوم هو أيضا موعد "غداء العمل" أو "دعوة التعارف" مع الجانب الفرنسى ـ تلك المناسبة التى دعانى للمشاركة فيها الأستاذ محمد حلمى شاهين وهو الذى زرته أمس الأول فى فندقه بشارع ريفولى ـ فطردتُ عنى أى أمل فى استراحة منفردة، وقلت يبدو أن هذا اليوم ليس يومى ولاهو "يوم حر" ولا يحزنون.

أديت صلاة الجمعة فى جامع باريس بنفس الطريقة، وبنفس الدوافع، وبنفس الاحتجاج لما أصاب جوهر ما أنزل على نبينا الأمى، فقلب نبض إيماننا الى هذه الرتابة المملة، التى تُلقى فى خطب الجمعة فى تكرار منفر. كان صوت الخطيب يأتينى ممدودا وكأنه ينطق اللغة العربية بلهجة فرنسيةِ أهل الجنوب الغربى فى مقاطعات "الباسك". أنا لم أفهم أبدا سببا لكل هذا "الزعيق" الذى يلجأ اليه هؤلاء الخطباء، ولم أفهم أيضا سر هذا التمايل فى غير نشوه، فلا زعيقهم يوقظ الوعى، ولا حتى يخدّره، ولا تنغيمهم يطرب السامع أو يشجيه، فماذا لو تكلموا مثل سائر البشر: أبسط، وأوضح، وأقرب، وأسهل، مهتدين طول الوقت بثقة اليقين لا بعلو النبرة، وبوضوح الفطرة لا بتهييج النعرة، وقد تيقنت من قديم أن الحاجز الذى بينى وبين خطيب جامع باريس ليس مرده فقط إلى اللهجة المطاطة وصعوبة المتابعة، وإنما هو يرجع أساسا الى قِدَم المحتوى واغتراب الرسالة التى يريد توصيلها، إن كان يريد توصيل شئ أصلا، كنت أجد نفس الحاجز فى مساجدنا فى بلدنا رغم وضوح اللغة وسطوع البيان (أحيانا)، حتى أنى رحت أفضل أخيرا أن أحرم نفسى من ثواب حضور الخطبة فى مقابل ألا تصرفنى الخطبة عن علاقتى البسيطة والمباشرة بفطرتى التى فطرنى الله عليها، وحاجتى الملحة إلى مجاورة الناس البسطاء من أهل دينى فى صف واحد بحثا عن توجه واحد، وباستثناء فترة الاخوان المسلمين فى صدر شبابى حيث كان بعض خطباء الجماعة ينجح فى أن يربط بين ما هو ديننا، وما هو فعلنا، وما هو يومنا، وما هو انتماؤنا السياسى وجهادنا الوطنى (مثل سعيد رمضان أو محمد الغزالى...الخ) باستثناء هذه الفترة أنا لم أتصالح مع أغلب خطباء الجمعة ممن يستهينون بفطرتنا وذكائنا جميعا، وفى تصورى أنه لم يبق من الخطب الدينية إلا خطابة رسمية مأجورة أو خائفة أو تافهة، ثم على الجانب الآخر: خطابة عمياء مندفعة متعصبة مهيّجة، وأنا لم يعد انتمائى الأوسع يطيق الأولى فلست فى مدرسة للتربية الفكرية، كما لم يعد وعيى المُسامح يحتمل الثانية، حيث أنى على يقين يرجح أنى لو لم أولد مسلما لعجزت أن أكون مسلما بسبب هؤلاء. مازالت هذه العبادة الأسبوعية تمثل لى أملا فى مشاركة، وحرصا على جماعة، وإصرارا على فطرة نقية مهما طُمست بفعل الخوف أو التعصب، يتأكد ذلك أكثر فأكثر وأنا فى الغربة. لم أجد أبدا ما أريد، لكن الأمل لا ينقطع.

ثم أنتقل من الاغتراب فى مسجد باريس الى الغربة فى وليمة علِية القوم من الفرنسيين فى مطعم فى الحى السادس عشر على ما أذكر (زمالك باريس!)، وكان علىّ أن أمر بالفندق الذى ينزل فيه

الأستاذ الدكتور حلمى شاهين الذى تفضل بدعوتى الى ما دُعى اليه، وجدته فى انتظـارى فـى بهـو الفندق الفخم، ثم تهبط زوجته الفاضلة لتلحق بنا، والاثنان يتكلمان الفرنسية معـا كأهـلها ـ وربمـا أحسن! ـ يتكلمانها معا فى غير وجود فرنسيين، أما أنا فقد رحت أشاركهما الإيماء والـرد بالعربيـة كلما فهمت شيئا، ويتركنا الأستاذ الدكتور الشيخ ليتكلم هاتفيا، ثم ينبه رجل الاستقبال إلى مكاننا حيـث ننتظر، فظللنا "نتجاذب أطراف الحديث"، ولأول مرة أفهم هذا التعبير فهما جميلا مناسبا، فـنحن، فـى مثل هذه المقابلات الفخمة والمحسوبة، لا نتحدث، لا نغوص إلى وسط الحديث ولا نلامس بدنه، ولكننا ـ بالكاد ـ نتجاذب أطرافه، يا حلاوة!! هكذا يكون التعامل الرقيق، الراقى، المتحضر، والحر، ولكـن المأزق عندى، أنى آخذ المسألة جدا معظم الوقت، وأتصور أن" الحديث" لكى يكون حديثا، لا ينفـع أن نكتفى بلمس أطرافه، الحديث فعلٌ مقتحِم، الحديث معنى فحل، الحديث ،...

أطرد هذه الخواطر بعد أن كدت أقترب منها معـلنا بعضها، فيلتقط مضيفى رائحة ما عرجـتُ إليـه دون تفصيل، فيترفق بى، ويمتدح بعض ما ينـشر لى أحيانا فى الصحف المصرية، وهو أقل الأمـور دلالة على ما هو أنا، فأحمد الله أن ثمة شيئا يقدمنى إليه متجاوزا الأطراف، فأنتهز الفرصـة بفـضل تفضله الدمث لأكسر حدة بَكَمِى الذى يبهتنى حين أواجه بالمحتوى والطريقة التى يمضون بها أوقـات الانتظار هذه .

يدخل علينا فى بهو استقبال الفندق وجيه من الوجهاء، ويسأل فى لطف عن الأستاذ الدكتور، ويقـول فى همس مسموع (كأنه يلمس هو الآخر طرف الحديث حتى دون أن يجذبه) أن السيارة تنتظرنـا فـى الخارج، وينصرف متقهقرا فى رقصة بالية متسقة، فأخذت أتتبع خطواته الرشيقة وهو يتسحب مـائلا، ثم ينطلق بعوده السمهرى (أى والله: السمهرى!!) إلى الخارج، فيتمهل الـسيد الأسـتاذ الـدكتورحلمى شاهين، وتستأذن زوجته لتأتى بمعطفها (أو ما شابه) ثم تعود ليصحبانى إلى الخارج، وأنـا أتمنـى أن يجدّ ما يحول دون استمرار كل هذا، وأتوجس حرجا أكبر فى المجتمع الفرنسى الذى ينتظرنـى، فـإذا كنت لا أقدر على متابعة لغة مضيفىّ الفرنسية، وهما المصريان لحما ودما، فماذا سأفعل مـع عـلِية القوم من الفرنجة وأنا المدعو بصفتى أمثـل ـ كما ذكر لى الـداعى ـ جانبـا مـن الهيئـة الطبيـة المصرية؟ فدعوت بالستر وأقدمتُ أكثر، وما أن لمَحَنا "السمهرى" حتى اسمَهَـرّ أكثر، ثم انطلق يفـتح باب السيارة للسيدة، ثم للسيد بجوارها، ثم لى بجواره، وجعلت أتأمل هذا "الوجيه" الوسيم، مثـل نجـم سينمائى أبهى من محمود يس ومصطفى فهمى (الآن) ومن كمال الشناوى وأنور وجدى (زمـان) ـــ كيف يكون هذا الوجيه مجرد "شوفير"؟ (فمثل هذا الفتى لا يصح أن يقال له "سائق" فضلا عن "سـواق" فلزم التعريب) ـ ثم إننا ذهبنا إلى المطعم الفخم، فقابلنا واحدا باشا جدا لكنّه أيضا يقوم بخدمتنا، فـى الأغلب، بدا لى أنه إما رئيس الوزراء أو عميد الأطباء أو ـ علـى الأقـل ـ رئـيس مجلـس إدارة

المطعم، فأخذت عيناى تدوران فى المكان تبحث عن مطعم مثل المطاعم فـأعجز أن أجـد موائـد أو كراسى تطمئننى، فليس إلا صالة رحبة، وأركان جميلة، ويتقدمنا هذا "الرئيس الجليل" ليعرج بنـا إلـى جناح على ناحية، فنجد فى استقبالنا بعض علية القوم من الداعين، فأبلع ريقى، وأتقدم معهم الى حجرة خالية تماما إلا من منضدة عريضة عليها دوارق وزجاجات مخلتف ألوان ما بها، وكئـوس، والجميـع وقوف فى غاية الأناقة، والمدنية، والفرنسية، ومثل ذلك، ولا أحد منهم يبحث بناظريه عـن مقعـد أو منضدة مثلما أفعل، قلت لنفسى ـــ مكررا ـــ سوف تنتهى على خير حتما، مادامت عقارب الثـوانى لا تكف عن الدوران فلكل شئ نهاية. وبدا المضيفون (الأكثر عددا من الضيوف) بالاحتفـاء والتحيـة، و "ماذا تشرب"، و "أيها تفضل"، وأسقط فى يدى، ولكن السيدة الفاضلة حرم أسـتاذنا الـدكتور، طلبـت عصير طماطم، فأنقذتنى اذ تبعتها حرفيا حذوك الكأس بالكأس، وجعلت أرشف العصير ببطء مجتهـدا وأنا أتمتم بما لا أميز، وأرفع حاجبىّ، وأحنى هامتى، وأردد ـــ كما سبق أن أشرت ـــ الى أنه "نعـم"، "مؤكد"، "موافق"، "لا يا شيخ؟" وهى كلمات تصلح لكل المواقف، ويمشى بها الحال، وخاصة إذا نُطقـت بلهجة باريسية حذقتُها من أيام حرج زمان ـــ لكن الموقف يتأزم حين أفاجأ بسؤال محدد، يحتاج الـى إجابة محددة، ولاتنفع فى ذلك إيماءة بلا أو نعم، فأنطلق باللغـة "الانجلـو فرنـسية" خالطـا الألفـاظ وتصاريف الأفعال كيفما اتفق، وأتعجب حين يفهمنى سامعى بالرغم منى، فلعله يقرأ تعبير الوجـه، أو على الأقل يرجح حسن نيتى ويقدر إخلاصى فى المحاولة، وتمر الفقرة، لكن تطول الوقفـة، وتـُملأ الكئوس من جديد حتى تصورت أننا سنتغذى عصير طماطم صرف.

بينما أنا أدعو الله أن تمر المسألة على خير، إذا بى أشعر بدوخة أو ما شابه، وكأن الأرض التى أقف عليها ترتفع بى إلى أعلى، فرعبت ثم ظننت بعقلى وتوازنى الظنون، ثم رجحت أن عـصير الطمـاطم هذا لم يكن "بريئا"، تماما، فرغم طعمه الطماطمى إلا أنه من المحتمل أن يكـون ذلـك مـن الألعـاب الكحولية المستحدثة، فجعلت أنظر الى السيدة الفاضلة شريكتى فى الطماطم فوجدتها ـــ كمـا وجـدت الجميع!! ـــ يرتفعون معى إلى أعلى، قلت "حصل" أخيرا، ولم أجرؤ أن أسأل، أو أمسك بأى شىء، أو أى أحد، وجعلت أنظر إلى السقف خوفا من ارتطامنا به ونحن نرتفع، فاذا بالمـسافة بيننـا وبينـه لا تضيق أصلا، ثم خيل إلى أن الحجرة تتسع من أحد جوانبها فتظهر فجأة مائدة مستديرة وحولها مقاعـد وفوقها أطباق، اللهَ!! الله!! أهى المعجزة؟ أم السكر البيّن؟ وأخيرا، وبضربة إفاقة لطيفة أدركـتُ مـا حدث: فقد كنا حتى تلك اللحظة فى حجرة التعارف وقوفا مع كئوس "فتح الشهية" (مـن قـال لهـم أن شهيتنا كانت مغلقة؟) وهذه الحجرة يفصلها عن حجرة المائدة المخصصة للضيوف المتميزين ـــ أمثالنا ـــ حائط متحرك، ينزل إلى تحت بفعل زرٍّ ما، فى مكان ما، (توموتيكى) يفعلها بلا ضجيج ولا إنـذار، وبنزوله المتسحب هذا نشعر بدورنا أننا نرتفع إلى أعلى فى الاتجاه المعاكس، يا حلاوة، مثـل زمـان،

فلا أنا فقدت اتزانى، ولا عصير الطماطم كان منكرا خفيا. عادت لى نفس الصورة التى ذكرتها ســالفا فى محطة سكك حديد طنطا حين كنا نتصور أن القطار الذى نركبه يسير الى الخلف ثم نكتــشف بعــد لحظات أننا مازلنا وقوفا كما نحن.

يلتف الجميع حول المائدة المستديرة، ويجئ ترتيبى بجوار عميد كلية طــب جامعــة فــى ضــواحى باريس، أذكر أن اسمه د. بورتوس (جان لوى)، ويبدو أن منظم الجلوس قد تعمد ذلك لأنى اكتشفت أن جارى هذا قد ولد وتربى فى ــ شبرا مصر ــ حتى ما يقارب الثانوية العامة، ثم لحقه أمــر الله وأمــر عبد الناصر ورجوع الأمور الى نصابها، أو الحق إلى أصحابه، أو الحذر من الغرباء، المهم أنه رجــع إلى حيث ينبغى: إلى بلده، لكنه أبدا لم ينس، ولا يريد أن ينسى، وهو يعتبر نفسه مصريا بكــل معنــى الكلمة، وقد خفف ذلك عنى كثيرا، وإن كنت عجزت عن مشاركته انطلاقاته المرحة، على الرغم مــن كلامه بالإنجليزية معظم الوقت، وبالمصرية البلدية القح حين يميل علىّ يعلق على حــديث لا يعجبــه قائلا:"فوّت دى" أو يصدر حكما على مصير "مشروع طبى فرنسى مشترك": بأنه ســيتعثر فــى الــــ "معــلشّات"، ولا أشعر أنه ينتقدنا بقدر ما هو يصف نفسه كمصرى أصيل يحذق موقع "معلــشى" فــى وجودنا الإيجابى والسلبى على حد سواء، وهو مصرى إبن بلد يخلق لغته الجديدة وهو يستعمل "معلش" بصيغة الجمع.(الــ "معلشات").

حين حضر "البكوات" الذين يقومون بخدمتنا وإعداد المائدة أسقط فى يدى، فقررت ــ إيثارا للــسلامة ــ أن آخذ نفس القدر من نفس النوع الذى يأخذه جارى بالضبط، حيث أنى رجحت أن هذا هو الــسبيل الأسلم تجنبا لأى مخاطر غير محسوبة، لكننى فشلت أن أضبط سرعة تناولى الطعام مع سرعة تناولــه نفس الكمية، ثم إنه يكتفى بعينات فى حجم الريال القديم، فأفعل مثله مضطرا، ولكــن مــا أن توضــع العينة فى طبقى حتى تختفى بقدرة قادر، بحكم العادة، فى حين تظل قابعة فى طبق جــارى، تتنــاقص عن أطرافها بدلال متمنع، فأخجل من طبقى الفارغ وأمتلئ غيظا من عجزى عن تنفيذ قرارى الــسابق بالاقتداء بجارى حذوك القطمة بالقطعة، ولكن ما يملؤنى حرجا أن يتقدم "البك" النــادل ليرفــع طبقــى الفارغ دونهم، ثم يفضحنى بأن يحضر طبقا فارغا آخر مع أن الأول كان نظيفــا بــلا شــائبة وحيــاة النعمة، فأظل أنتظر انتهاءهم وهم لا ينتهون، إذ يبدو أن غداء العمل هذا هو أصــلا للمناقــشة وحــل المشاكل المعلقة، وليس لما أفعل هكذا "كالمسروع" الذى يخشى أن يخطف منابه آخر إن لم يسارع هــو بالتهامه، فأُرجع ذلك إلى عدم الأمان، الذى كنا نستشعره أطفالا من احتمال عدم كفاية الأكل لينال كــل الحضور "مناباتهم".

أذكر ــ ربما تفسيرا لما أنا فيه ــ أن توزيع منابات اللحم بواسطة أمى كان كثيرا مــا يــتم بطريقــة عشوائية دون تخطيط يضمن عدالة التوزيع ووصول الدعم إلى أصحابه، فنحن سبعة أفراد، والفرخــة

أربعة أرباع (لا خمسة ولا أكثر)، وأمى كانت دائما تغيب عنها هذه الحسبة حتى لو ذكّرها بها أحـــدنا، وبالتالى فلا ينال أرباع الفرخة إلا الأربعة الأوائل ــ ووالدى فوق الرؤوس. غير نصيبه المخفى وحده (بعد، أو قبل الأكل الجماعى، مما لا نعرف، ولكننا نستنتج)، وحين تدرك أمى أن ما تبقى من الفرخـــة لم يعد يكفى مَن تبقى من المتحلقين حول الطبلية، تبدأ فى توزيع الأجنحة، أو منطقة الوســط ممـــا لا يجدى، فتعود إلى الأربعة الأوائل (باستثناء أبى طبعا) بنية أن تنتقص منهم، فالشاطر يكون قــد الــتهم منابه قبل هذه المراجعة، ولا تتعلم أمى أبدا من تكرار هذه القسمة الضيزى، ولا ينفع التنـــافس علـــى اختيار الجلوس جنبها لأننا لا نعلم من أى جهة ستبدأ.

جعلتُ أتذكر كل هذا وأنا أثنى نفسى عن العجلة فى تناول ما يلقى بطبقى، وكان أغْيَظ ما يغيظنـــى أن يعتذر "قدوتى" عن طبقٍ ما، يبدو لى شهيا، فأحذو حذوه، وأعتذر مثله، رغم أننى لم أقل أننـــى ســـأقلّده فى الامتناع، وإنما فى الاختيار، لكن يبدو أننى رجحت أن "السلامة أولا"، وأجدنى أبلع ريقى كلما مـــرّ طبق نِفسى فيه، لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه،

ويغيظنى أكثر ألا أتبين هذا الذى آكلــُه، أهو "كفتة" لحم مفروم، أم هو تشكيلة خضار معجون، أم هو "بهريز" سمك مطبوخ فى شرائح، فكلها مختلطة ببعضها بشكل فنى مُحكم،

ثم هذه الأشياء الصفراء والحمراء التى يمكن أن توضع أو لا توضع على الأطعمة، ناهيك عن يأسى أصلا من احتمال معرفة اسم أى مما ينتقل الى معدتى من "روائع الدسم" ــ (قياسا على برنامج: روائع النغم).

ينتقل الحديث من مشاكل بناء قصر العينى إلى زحمة القاهرة، إلى وحدة أشكال الجنون علـــى الـــرغم من اختلاف الحضارات واللغات، المجانين كانوا أنجح فى التشابه العـــالمى، رائحـــة، "وتنـــاثراً، ووداً، ووداعة، مِـــن هؤلاء العقلاء الذين يقتلون بعضهم البعض تحت زعم الدعاوى الإنسانية والحضارية ،

ينتقل الحديث من فيلم وداعا بونابرت، إلى داليدا وشبرا والإسكندرية.

ويمضى الغداء على خير.

فى طريق عودتنا يشكرنى الاستاذ الدكتور حلمى شاهين أنى "شرفت مصر خيـــر تـــشريف، وأنـــى رفعتُ رأسه أمامهم."

يا سبحان الله، أنا؟ كيف؟ ماذا قلت ؟ ماذافعلت؟ وأنظر فى وجهه فأنا أعرف كيـــف تنتقـــل عـــدوى المجاملة إلينا من هؤلاء الخواجات "الكمّل"، فيخيّل إلىّ أنه جاد فى تعليقه، بـــل إن زوجتـــه الفاضـــلة تضيف مثل ذلك، جبرَ الله خاطركما، " يا بركة العجز."

فى طريق عودتى أضحك من دهشتى وانبهارى بما لا أعرف متذكرا انبهـــار الـــشيخ عبـــد الـــرحيم الكفيف، مقرئ ليالى رمضان فى بيتنا فى بلدنا. حين كان يسهّينا قبل السحور فيقوم يتمسح فى الحـــائط

المصيصى الأملس، ويهمس لنفسه مُهَمْهِمًا أنه " يا سيدى فهد الرجال ،دا مدهوك بسمن صافى". ثم يكاد يترنم بما يعلن بهجته باكتشافه، كان الشيخ عبد الرحيم، عكس الشيخ اسماعيل البرعى زميله السهران، فنانا يحذق العزف بالسلامية، ويستدرجه والدى ذات مرة إلى الحمام ليريه مفاجأة لا يستطيع مجرد تخيلها حين تهبط عليه مياه "الدش" من أعلى وكأنها معجزة المطر الصناعى، وكان الشيخ عبد الرحيم بعد أن تخلص من مخاوفه وحذره وقد خرج سالما المرة تلو المرة من تحت المطر دون أن يغرق، كان يعتبر أنه أصبح حقا مكتسبا أن يحظى بهذا الدش البارد الذى يخرج منه منتعشا فى ليالى الصيف، ويقسم أن قراءة "ربع" بعد هذا الدش يساوى ختم خاتمة بحالها.

وأرجح أنى،مثل الشيخ عبد الرحيم، سوف أعتاد على ما يبهرنى من، مثل هذه الدعوة، لكنى أشك أنى يمكننى أن أحتفظ بالنشوة نفسها مثلما فعل الشيخ عبد الرحيم.

ثبت لى صحة ذلك حين عدت إلى بلدى فدعانى أحد الزملاء من علية القوم **(قومنا نحن هذه المرة)** لأكون الضيف المتحدث فى غداء اللقاء الشهرى لأحد نوادى الليونز (الروتارى) ــ وكان ذلك فى مطعم بفندق هيلتون النيل، وكان المجتمعون ذكوراً دون الإناث فعلمت أن هذامن أول تقاليد هذه النوادى، ثم بدأت الطقوس بعزف السلام الوطنى، ثم أخبار النشاط، ثم الحديث على الطعام، وعرضت بعض آرائى مما حسبت أنها مناسبة، فاذا بى أكتشف من أسئلتهم ــ وعلى الرغم من احترامهم الضمنى لموقفى الفكرى (وهو سبب دعوتى) أكتشف أن أسئلتهم (فى الأغلب) ليست كذلك (ليست مناسبة)، وأقول فى نفسى: ها أنذا، نفس الشخص الذى خاف من الحائط المتحرك فى باريس، والذى حرص على تقليد جاره خوفا من السهو والخطأ، والذى تقمص الشيخ عبد الرحيم لاصقا خده بالجدار الأملس، هو أنا ضيف الشرف الذى يسألونى فأجيب، وعلى الرغم من حسن التقدير وسلاسة اللغة، ودفء الاستقبال، فقد شعرت أن الروتارى "هذا" ليس مكانى، وبدون الهجوم على ما يجرى فى هذه النوادى فإنى لم أفهم حقيقة جدواها، رغم أننى لم أشك فى طبيعة محركيها.

عدت إلى فندقنا وأنا محمل بالتساؤل: إذا لم يكن هذا، وذاك، هما مكانى، فأين مكانى؟، ألست أستاذا جامعيا، اجتماعيا!، طبيبا، كاتبا، عالما،... الخ، أليس هذا، وذاك، من مستلزمات ما هو ظاهر وجودى؟ فلماذا هذا الاستغراب، والحرج، والتجنب، والغرابة؟.. أفبعد كل هذه الممارسات الاجتماعية، وهذا النجاح المعلن، أجدنى فى نفس موقفى شديد العزوف عن كل ذلك، لم أحذقه يوما، ولم أحبّه أبدا، ولا أعرف سبيلى إليه، ولم أفهم طبيعته، أو وظيفته، كل ذلك رغم اعترافى الأكيد أنه ضرورة اجتماعية فيها كثير من الخير والفرص، لكن أبدا، ويلح على تصورٌ أنه لابد أن ثمة مجتمعات أخرى، رقيقة أيضا، وعميقة أصلا، وبسيطة جدا، وأتصور أن ثم مجتمع اشتراكى،أو إيمانى، أو فطرى، أو تلقائى، يصلح لأمثالى دون أن يضغطوا على أنفسهم كل هذا الضغط.

حاولت طوال خمس عشرة سنة مضت أن أحقق هذا "الفرض" تحقيقا عمليا على أرض الواقع، حتـــى تصورت أنى نجحت، فاختلط مرضاى بتلاميذى بأسرتى بعمالى بشكل طيــب ومباشــر، ثــم بــدأت المضاعفات، لكننى أصررت على التحوير لا التراجع، وما زلت أمارس نشاطا "اجتماعيا" فــى بعــض هذه المجتمعات البديلة بعد تحويرها قليلا قليلا، لكنى أشعر أن هذا التحوير سوف ينتهى، خصوصا بعد رحيلى، حتى يعود الحوار إلى ما هو: "تجاذب أطراف الحديث" و"الأطعمــة بغيــر اســم" و"الحــوائط المتحركة" و "السائق السمهرى" ــ ويصبح كل ما فعلت مجرد ذكرى محاولة فاشلة، وأزداد اقتناعـــا أن أى إصلاح أو إبداع ثورى شامل معرّض لأن يسرق من داخله أو أن ينتكس. إلى ميوعــة طفليـــة، أو كذبة نقيضية، مالم ينتشر ويتدرج ويتأصل ويواكب الفطرة معظم الوقت.

رجعت إلى فندقى النظيف الجميل المتواضع، شاعرا بالخلاص، فعادت إلىّ رغبتـــى فـــى أن أنتهــز فرصة غياب الأولاد لأعاود محاولة أن "أكـــنّ" حتى أستتر فى أُنس نفسى، وقد كانت هدأة طيبة حدث فيها فض اشتباك بين أكثر من موقع، ثم عادوا، ثم انفصلنا بعد أن انضمت زوجتـــى لـــى، فــصحبتها واعدا بمفاجأة، وقد أضمرت أن أعوضها بعض حرمان تلك الأيام، واكتشفت أنى مازلت جائعا، فأنا لم أتناول شيئا فى حقيقة الأمر من غداء ذلك اليوم العصيب.

فى الشانزلزيبه، مطعم بدورين، كم وقفنا أمامه ــ قديما سنة ١٩٦٩ ــ نشاهد قائمة الطعـــام دون أن نجرؤ على الدخول، وها نحن قادرون على أن نفعلها من حُرِّ مالنا بعد خمسة عشر عاما، ولا أجد فـــى نفسى وأنا فى المطعم الفخم أية فرحة خاصة بقدرتى المالية، ولا أتذكر توجعا خاصا من زعم حرمـــان كنت فيه، إذ يبدو أن المسألة تتعلق بضبط جرعة الرغبة مع جرعة القدرة، (واللـــى مامعـــاهوش مـــا يلزموش) مع تواصل إعادة التناسب كلما أمكن ذلك.

السبت ٨ سبتمبر ١٩٨٤

مازلنا فى حالة من الاستقلال سمحتْ لزوجتى ولى، أن نقوم هذا الصباح بجولة خاصة، بدءا بالمرور بالمنزل الذى كنت أسكن فى إحدى حجراته فى الحى الثامن عشر، بالقرب من ميدان كليـــشى وحـــى البيجال، فى شارع كولانكور، وهو بداية جولتى القديمة إلى المونمارتر حيث أبدأ، بعد صعود مناسب، بالانحراف يمينا بعد ناصية بيتى بكثير (هكذا أعتبره حتى الآن. وعدت الأولاد أن نزوره غدا) ثم هات يا صعود، فيما هو أضيق وأضيق، سيرا على الأقدام، فرحا بالحجارة القديمة، وآثار الرطوبة، وبعــض الخضرة، والأبواب الخشبية الصغيرة، وأشعر أن زمنا وادعا يغلف كل ذلك دون قفزات شائهة تحــرم هذا الحى من تاريخه تحت أى عنوان. زوجتى تستسلم لجولتى هذه التى اعتادتها كلما زرنـــا بـــاريس، حتى أنها بدت لها مثل طقوس المزارات الخاصة، نفس المسار، ونفس الانحناءات، بـــنفس الترتيـــب، حتى نصل من الطريق الخلفى إلى تجمع رسامى الشارع والمقهى من الفنانين وأدعياء الفن علـــى حـــد

سواء، هناك على حواف كنيسة الساكركير، فأكرر ما قمت به وعشتـــــه عشرات المرات وكأنى أفعله لأول مرة، وأشترى الكروت الصغيرة التى تصور ذلك الطفل الذى "يطرطر" فى غير حيـــاء مخرجـــا لسانه، أو تلك الطفلة التى تتواعد مع صديقها الطفل وقد رفع الهواء "جونلتها"بشكل محـــسوب جميـــل، فأجلس جلستى المستعيدة لما كان، المستكشفة لما قد يكون قد استجد، فأتصور ــ ربما خطأ ــ أن ثمـــة إصابة أصابت المكان كما أصابت الزمان، حتى كاد يفقد أصالته، أو تلقائيته، أو وظيفتـــه، لـــى علـــى الأقل، وأشك فى تقديرى إذ أرجح أن تعلقى بالقديم يحرمنى من قبول التغيير ويشككنى فى الحركة إلى أعلى. أنا لا أشك فى الحركة إلى "أعلى" لكنى أبحث عن الحركة إلى "أعمق" فأكاد أجزم أن المكان قد أصابه "انفتاح ما"، ليس انفتاحا على مزيد من الفن والإبداع، لكنـــه انفتـــاح "بـــوتيكى" الطبـــع، لعلـــه "تأمْـــرَكَ" (صار أمريكيا) أو تهـــوَّدَ (صار يهوديا) أو تَـــهَـــنــْدَسَ (نـــسبة الـــى مدينـــة المهندســـين عندنا)، لأنه شتان بين مكان قديم، اعتاده فنان فقير، ترك نفسه تجرى مثل ماء نهر صغير بـــلا غايـــة مسبقة، فإذا بالخضرة تنمو حوله من فائض دفقه، فيرعاها مزارعٌ عجوز، ويبتاع بعض ثمارها عـــابر سبيل ــ فقير أيضا، شتان بين هذه الصورة التى هى عندى "المونمارتر"، وبين المكان الذى وجدته هذه المرة وكأن تاجرا قد اشتراه بالجدَكْ، فوظف فيه صبيان الفن ترسم لك صورة بعشرة فرنـــك، وتقـــرأ الفاتحة للشيخة "ساكركير"، ولست أدرى لماذا أعزو كل تغيير من هذا النوع إلى جريمـــة اللاحـــضارة الأمريكية. الدنيا تشقلبت: الأصيل يتأمرك، فى حين أن الأمريكان يتمسحون، ويقلدون الأصالة.

ما زلت أذكر قرية جرينوتش فى نيويورك، وهى تحاول أن تكون نسخة زائفة من الحى اللاتينـــى أو المونمارتر أو البيجال أو منها جميعا، فاذا بها مستنقع للشذوذ الجنسى والبدع المزخرفة، وحين زرتهـــا قبل ذلك بعام فرحتُ بكل ما هو "موالدى" فيها من مأكولات فجة، وألعاب صـــارخة، وزفـــة بدائيـــة، وطبل وزمر وتهريج وبدع، ولكن النظرة الثانية جعلتنى أهرش رأسى وأتساءل: هـــل هـــؤلاء النـــاس منطلقون من داخلهم أم أنهم هائصون من خارجهم لا أكثر، فى النظرة الثالثة هرشـــت جـــسدى حيـــث أدركت زيف التقليد.

أرجح ــ أن الامريكى حين يعجز عن إتقان التقليد يدفعه الغيظ الى إتلاف الأصل، فباريس الزجاجيـــة وناطحات السحاب ليست هى باريس التى أعرفها، وحتى المونمارتر هنا ليس هو ما ألفته قـــديما، هـــو يكاد يتنكر لى بقدرما أتنكر له، نفس الـــشعور يـــصيبنى وأنـــا أشـــاهد ناطحـــات ســـحاب القـــاهرة المُـــتَـــنَـــوْرَكَـــة. (نسبة الى نيويورك).

نفس الأسى أتذكره حين زرت مؤخرا قهوة الفيشاوى، فاذا بى أبحث عن فيشاوى الخمـــسينيات، فـــلا أجدها، إذ أفتقد الشيخ محمود الضرير القصير وهو ينادى "أنا بابيع الأدب" كما أفتقـــد شـــلل الـــشباب، وشباب الشيوخ وهم يتبارون فى الشعر والضحك والقافية والمؤانسة، دون عدوان أو بذاءة: تهتف ثلـــة

على اليمين أنه "أبو شنب فضّهْ، تقّـيتْ على شنَـبُهْ، قام الشنَبْ صدّى" فيرد الجانـب الآخـر، وثلثـه تردد وراءه "أنا البابور إسود غطيسْ، إللى يقابلنى يروح فطيسْ" ــ لكن الآن، ثمة شئ آخر، كأنه ظـل باهت لذكرى مشوهة، ويبلغ قمة التشويه، حين تقلد الفنادق ذات الخمس نجوم الأحياء الشعبية، فيكـون الناتج ذلك المسخ الكاريكاتيرى لحى السكرية "البلاستيك" فى فندق السلام هاييتى بمصر الجديدة مـثلا وحى بين القصرين فى فندق رمادا الهرم (تقريبا) يسرقون القديم، فيُفرغـون منـه رائحتـه ونبـضه وروحه. (الكلام عن سنة ١٩٨٦ ــ أمور كثيرة تغيرت الآن حتى الأسماء تغيّرت، والتقليـد المـشوّه مستمر– يوليو ٢٠٠٠).

أنا لا أحب أن أتمادى فى تكرار هذه اللهجة التى تشعرنى أنى لست إلا عجوز خائـب عـاجز عـن استيعاب الجديد، ليس عنده إلا أن يعيب ويعاند ويشوه ويحكم ويمتعض، ذلك أننى على يقـين مـن أن القديم لا يعود ولا ينبغى أن يعود، لكنى على جهل عظيم بما يمكن أن يحل محله مما هو أفضل منه. سيحدثْ.

ونلف حول الساكركير دون دخولها، فكم دخلتها، وشاركت فى طقوسها، فى كل مرة أشـعر وكـأنى أزف السيدة العذراء إلى السماء، اعتدنا أن ندور حول الساكركير لنهبط متـدرج سـلالمها العـريض الجميل نازلين متجهين لــ "وكالة البلح" الباريسية، أقابل عشرات السنغاليين الذين يبيعون الطبلة والرق ونموذج الأفيال الصغيرة من العاج، ويذكروننى بالفتى النحيل الأسمر الذى قابلناه فـى "ثيـو" شـمال "كان"، وأعرف أنهم يمارسون هذه التجارة بشكل مخالف للقانون، ورجال الـشرطة الفرنـسيون علـى مرمى البصر، ولكن يبدو أن ثمة اتفاقا غير مكتوب "يسمح لهم" بذلك فى حدودٍ مـا، وأقـول لنفـسى: ياسبحان الله: لو أننا حسبنا القوانين الحقيقية التى تتحكم فى معاملات وسلوك البشر لوجدناها أبعـد مـا يكون عما يجرى فى أقسام البوليس وساحات المحاكم، وربما أهم، وأنفع،

أواصل نزول الدرج مع زوجتى، وأعجب لعدم الازدحام رغم تدفق الآلاف، وأقارن بين نظافة المكان النسبية وبين فضلات البشر وبقايا كل شئ حول الهرم الأكبر، وأبتلع غصتى بصعوبة، ونجلس ــ كمـا اعتدنا ــ على "دكة" جانبية فى منتصف طريق الهبوط بعد أن تبينا أن أغلب محـلات "الوكالـة" قـد أغلقت أبوابها، فاليوم هو السبت، والأجازة أصبحت يومين فى الأسبوع فى كثير من المواقـع، علـى الرغم من أن المحلات العملاقة فى المدن العملاقة قد عمدت إلى بدعة العمل طول الاسبوع ــ والـذى لا يشترى يتفرج!! فأوقن من تواصل التهام المحلات الأكبر للأصغر مثل سمك المحيطـات، وآسـف على احتمال اختفاء وكالة بلح باريس، فكم حفظتْ ماء وجهى إذ باركت فـى فرنكـاتى القليلـة حتـى استطاعت أن توفى بهدايا المنتظرين "كل حى باسمه".

نواصل النزول بعد الوكالة آسفين فى اتجاه البيجال مخترقين الشوارع الخلفية، لكننا نتـوه قلـيلا أو كثيرا، أعرف أن المسافة لا تزيد عن عشر دقائق سيرا، لكننا نسير منذ نصف ساعة، فنجد أنفـسنا ــ فجأة نسبيا ــ فى منطقة: شديدة الزحام، شديدة الغوغائية، شديدة التشويش، بادية "العروبة" وأتبين فيمـا بعد أنها منطقة "باربيـس روشو"، ونجدأنفسنا كأننا قد انتقلنا فجأة إلى زنقة الـستات بالاسـكندرية أو حوارى الموسكى، وأحكم زر جيوب سروالى، وأنظر إلى وجه زوجتى فأجد عليه الرضـا بالمفاجـأة، وتتفتح شهيتها للفرجة، والفصال، وتتذكر عشرات من أسماء الأقارب والمجاملين (الـسابقين بالفـضل والدائنين) من المنتظرين والمنتظرات، من الكبار والأولاد والبنات،"... وهذا لهذه وذلك لتلك، أما هـذه فهى لابنة فلانة، وتلك لا تليق إلا على ابن علانة، وأخيرا سأرّد جميل ترتانة، وكله سلف وديـن..."، فأستسلم استسلام العالم الثالث للبنك الدولى، وأفتح الاعتمادات لشراء ما لا أريد لمـن لا أعـرف، ولا أنكر أننى أحترم هذه العادات، ولا أطيقها، فى نفس الوقت، وتتأمل زوجتى المـشتريات وأتأمـل أنـا الناس، وأتعجب للإغارة العربية التى احتلت هذا المكان بالجملة، وكأنها نوع من انتقام الذين اتَّبَعوا من الذين اتُّبِعوا، وأضع يدى على قلبى من احتمالات المواجهة بين اليمينية العنصرية الجديدة على فرنـسا وبين هؤلاء المستعمرين العرب، ربك يستر ــ ثم تنتهى الأزمة الشرائية على خير يسمح بأن أطمـئن إلى عدم تكرارها، ولكن من يدرى؟ فأمضى محملا بأكياس ورقية وغير ورقية مقتنعا ــ رغم أنفى ــ أنى وفرت بذلك الشئ الفلانى.

ما أن أصل إلى الطريق الممتد بطوله من ميدان كليشى (حيث كنت أسكن قريبا منه جدا) إلى البيجال وبعده حتى أدعو زوجتى الى "وليمة" قارعة الطريق، التى اعتدناها أيام الحرمان، لكنّها اختيارية هـذه المّرة، الجلسة على دكة الحديقة، والمفرش أوراق إحدى الصحف، أذهب لـشراء ما تيسر من البقـال والفرن، والشواية القريبة ــ وحين أعود إلى زوجتى المنتظرة فى الحديقـة، أجـدها ممتقعـة الوجـه غاضبة منى أو علىّ، وقد تعودت أن أكون "مسقط" غضبها حتى لو لم أكن "مصدره"، فأسـأل، فتـزوم صامتة، ثم أسأل وأنا أتلفت حولى فألمح بعض الجزائريين بالكاسكيت أو البيريـه المميـزين بـالوجوه السمراء المعروقة، والجسم النحيل، فأسأل زوجتى:! هل هم؟ فتجيبنى، أن "نعم"،ثم تكمل دون كلام: ما دمتَ تعرف فلماذا تركتنى؟ كدت أصرخ فيهم لولا أن لمحت غيرهم مثلهم فى كل مكان"، وأحـاول أن أفهمها أنه ليس فى الأمر خطر حقيقى، وأنها مجرد تماحيك معتادة، فتكاد تبكى وهـى تـذكر بعـض الألفاظ التى رجحت أنها بذيئة نظرا لاختلاف اللهجة، لكنها استنتجت ذلك من حركات الوجه واليـدين، وأبلع ريقى بصعوبة وأكف عن محاولة التخفيف عنها، وأتألم لها كما أتألم لهم.

فى هذا الحى بالذات يقوم الجزائريون بأعمال القوادين والفتوات لأن أغلب رواد هذه الأماكن هم مـن مواطنيهم الذين يعيشون فى باريس دون زوجاتهم، فلابد لبائعات الهوى من حامٍ من جـنس الزبـون،

حيث لا يفل الحديد الا الحديد، فلا يستطيع "زبون" جزائرى أن يتملص من دفع أجرة الاستمتاع بـــاللحم الفرنسى الأبيض، ولا من الإطالة بدون مقابل، ولا من الإيذاء إذا تمادى فى تشويه النشوة ــ وتنتهـــى الأزمة على خير.

فى المساء نجتمع مع أولادنا ثانية، لندخل فيلما سيئا، أذكر أن اسمه سلاما Slama، وهو اســم الفتـــاة المراهقة فى الفيلم، أو اسم قطعة الموسيقى التى يعزفونها، لا أذكر، لكنى قرفت حتى قرب القـــئ مـــن امتهان كل ما هو قديم، وكل ما هو كهل، وكل ما هو تقاليد طيبة، وكل ما هو محتـــرم، وكـــأن الفـــيلم يدعو بكل وقاحة الى حرية "قلة الأدب" و "نذالة الأبناء" والأحفاد لا أكثر، وقد شعرت بأن مثـــل هـــذه الأفلام هى أخطر وأقسى وأدنى من كل الافلام العارية والجنسية، وأعترف أننـــا أخطأنـــا الاختيـــار، ولكنى أفرح باكتشاف "الغث" و "التافه" و "الضار" فى بلاد الحضارة السعيدة، ففى كل بضاعة ما هـــو طيب وما هو خبيث، وأقول إن الهبوط وارد على سلم الصعود، وبدونه على حد سواء.

الأحد ٩ سبتمبر ١٩٨٤

اليوم يوم جماعى، وقد قررنا أن نبدأ بغابة بولونيا وننتهى فى حديقة اللوكسمبورج، وكان قد أوحشنى حوار الصغار، ومفاجآت الاختلاف، وجولات الاستطلاع.

لغابة بولونيا فى وجدانى موضع هام، فهى أرحب وأرخص مكان كان يمكن لمثلى فى وحدته وفقـــره "آنذاك" (١٩٦٩) أن يجلس، ويقرأ، ويتأمل ويكتب، ثم لا يدفع شيئا، ولا يكلم أحـــدا، فيمـــضى اليـــوم بطوله لا يكلفه إلا ثمن رغيف (باجيت) وزجاجة عصير، والمراكب تجرى على سطح البحيـــرة تعيـــد إلىَّ ذكريات فلوكات زفتى، وجولات التجديف حول جزيرة المنيل قبل التخرج ومـــع زمـــلاء منـــزل النواب، وربما لأنى لا أعرف العوم فإن التجديف قد ربطنى بالماء الهادئ ربطا سبق أن أشرت إليه.

أضيف هنا أننا حين كنا طلبة فى الجامعة فى مصر (حوالى سنة ١٩٥٣ تحديدا) كنا نـــؤجر مركبـــا متواضعا من مرسى بجوار كوبرى قصر النيل لمدة يوم كامل، ونقوم بالتجديف حتـــى حلـــوان، وذات مرة لم نرجع من حلوان إلا بعد منتصف الليل، حتى انخلع قلب صاحب المركب وقد نزل يبحث عنـــا فى وسط النيل.

وما بين محطة مترو بورت دوفين وبين غابة بولونيا مسافة تسمح لى بالعدو أنا وابنتى النشطة منـــى السعيد، فنعدو سويا، وأتركها تستكشف بنفسها لقطات من الداخل إلى الخارج وبالعكس، وتلهث هى قبل أن أفعل، فأغيظها بأنها عجوز، فتذكرنى بأنى اعتدت ذلك أكثر منها معظم الأيام، وقد كنت قد أشـــرت إلى هذه العادة (القبيحة) ــ عادة الجرى ــ المنتشرة حديثا فى طول أوربا وعرض أمريكا بشكل بلـــغ حد الوباء بعد أن صارت بدعة لها كتبها المنشورة، وأبحاثها المنظمة، وتجارتها المرتبطـــة بالدعايـــة

(للأحذية وملابس الرياضة)، وبالدعاية المضادة ضدها التى ثارت حين هددت هــذه الرياضــة ســوق الأدوية وتدخين السجائر.

رفضتُ هذه الممارسة ابتداء بمعناها الغربى، ذلك أنى كنت ألاحظ أنهــا رياضــة فرديــة، تــذكرنى باستمناء رياضة كمال الأجسام أمام المرآة، وما أكاد أنظر فى وجه العدّاء ــ صغر أم كبــر ــ حتــى أشعر بتكثيف الوحدة وشقاء العناد وعشق الجسد جميعا، فأقول لنفسى إن هؤلاء الناس قد تفرقت بهــم السبل، وأن الأولى أن يعملوا عملا جسديا ــ لا يدويا ــ حتى يتصببوا عرقا بدلا من هــذا الاســتمناء المضحك، ويؤكد لى ذلك ظاهرة موازية وهى ظاهرة المستمع المشّاءWalkman، أعنى حامــل جهــاز التسجيل (أو المذياع) ذى السماعات أطول الوقت، فتجد الشاب أو الرجل أو الفتاة مــن هــؤلاء، وقــد وضع السماعات على أذنيه وراح فى غيبوبته الذاتوية يسير بين النــاس ذاهــلا، لا يــسمعهم، ويكــاد يتصور أنهم لا يسمعونه، وقلت فى نفسى عندهم حق، فماذا يمكن أن يسمعوا من البشر مثلهم ممــا لا يقال أصلا؟ ما هكذا يكون الرد على العزلة المفروضة بعزلة اختيارية، وما هكذا نحل مــسألة تقطيــع أوصال احتمالات الحوار الإنسانى، أقول إنى استقبلت "العدو المنفرد" من نفس المنطلق.

ولكنى حين عودتى إلى وطنى، وكنت قد قرأت كتابا عن "جذل العــدو Joy of Running "قــررت أن أدخل التجربة من باب أحبه وهو علاقته بالتطور، فقد ذكرهذا الكتاب أن التــاريخ الحيــوى للإنــسان (للأحياء!!) يؤكد أن أجداده لم يكفوا عن العدو خلال ٣٠٠,٠٠٠ (ثلاثة ملايين) سنة، وأن الإنسان لــم يقم على ساقيه واقفا ماشيا تماما الا منذ نشأة أول حديقة (٧,٠٠٠ سنة) وبالتالى فالعدو ــ بــين أشــياء أخرى ــ يربطنا بماضينا (هكذا يقول الكتاب)، وبما أننى أحب أن أجرب ما أرفض، حتى أتعرف عليه بحق، فقد بدأت أعدو وحدى حتى لا يسخر منى من يشاهد انقطاع أنفاسى بعد عشر أمتار، بدأت علــى طريق سقارة السياحى وأخذت أزيد المسافة تدريجيا حتى نجحت أن أعدو من كوبرى أبو صير حتــى انحناءة طريق أهرام سقارة وبالعكس (حوالى عشرة كيلومترات) دون توقف عدة أيام فــى الأســبوع، وكان ذلك بعد الفجر حتى لا يضحك منى الفلاحون وسائقو الكارو، وما كان يطمئننى إلى عكس ذلــك هو أننى أعدو فى منطقة سياحية، اعتاد فلاحوها أن يشاهدوا بعض الخواجات المهفوفين يفعلــون مــن البدع ما يشاءون.

اكتشفت رويدا رويدا، من واقع الممارسة، أن داخل هذا النشاط مــا يتخطــى الاهتمــام بالجــسد، أو بتحسين الدورة الدموية، كما اكتشفت أنه بقدر ما يمكن أن يكون مثل هذا النشاط اغترابــا واســتمناءا جسديا، (كما تصورت فى الخارج) قد يكون إبداعا وتفجرا فكريا. فى الحالة الأولى قد تــزداد وأنــت تعدو وحدة واغترابا، وفى الثانية قد تنبض إحساسا واقترابا، وعرفت أن الفروق المحتملة لا تكمن فــى

نوع النشاط نفسه، وإنما فى طبيعة التوجه الباعث إليه، ومدى السماح المتضمن فيه، ومعنـــى التنـــاغم المحتمل إلى ما بعده،

اخترقت من خلال هذا النشاط المتكامل طبقات من وعيى لم أكن أحلم باكتشافها وأنا فى كامل يقظتى فى الوضع جالسا على مكتب، وحين كنت أستحم فى عرقى وأنا أجرى، كنت أشـــعر بـــاقترابى أكثـــر فأكثر من ربى وكونى.

ثم خطر ببالى ــ بعد صعوبة معينة مع مريضة لم تستجب للأساليب العلاجيـــة التقليديـــة ــ أن هـــذا النشاط قد يفيدها، وقد كان. كانت مصابة بهوس دورى يجعلها تسلك سلوكا جنسيا بلا كف أصلا كـــل عام بضعة أسابيع، ولم نرد أن نكتمها فقط بالمهدئات بل تحايلنا على أن نقلب هذا النشاط إلـــى بـــسط بالجرى وسطنا ومعها، وبالتالى أن نحتوى هذا البسط الدورى فيما بينى، وليس فى النكوص الخطـــر، وقد نجحت المحاولة وهى الآن زوجة فاضلة نسمع عنها أخبارا طيبة بين الحين والحين.

ثم جربت ذلك بعد ذلك فى مرضى آخرين. فأنجز الجرى ما وعد فى كثير من الحالات، فكـــان هـــذا بداية الممارسة المنتظمة لعلاج "الجرى فى جماعة"، وهو نشاط غير الجرى المنفرد تماما، ثـــم تطـــور الأمر إلى تكامل نشاطات جماعية معا أثناء الجرى حين يتناوَبَ الـــصمت (الجمـــاعى) مـــع الـــرقص (الهرولة)، مع التسبيح، مع الحمد، المهم فى كل ذلك أنى تعلمت كيف أحذرُ مـــن الجـــرى التنافـــسى، الجرى للسباق، الجرى للتفوق، الجرى الاستمنائى، فكل هذه قيم فاسدة امتلأت بها حياتهم بشكل لايبرر التقليد لكننا يمكن أن نستوعب ما يفعلون لضيف إليه ما يحبيه ويناسبنا.

تأكدت من هذه المحاولات ما تعلمته من غيرها: إن الحكم على شئ دون تجربته هو حكم ناقص، كما أن تعميم الحكم خطر أى خطر، وحين بدأت موجة الدعاية المضادة ضد هذا النشاط بالمبالغة فى ذكـــر مضاعفاته، تصورت أن الدافع إليها هو شركات الكحول والسجائر والأدوية (فالجرى يقلل استهلاك كل هذا) وحين ذكرت ذلك الاحتمال لابنى الأكبر (وهو يعدو معى أحيانا) قال لى،إن جرْينـــا لـــيس مثـــل جريهم، فمثلا هم لا يتمايلون حمداً لله معاً مثلما نفعل مع مرضانا ومع أنفـــسنا أثنـــاء الجرى،فـــالجرى المتناغم والتكاملى هو نقيض الجرى المتحوصل الذاتوى.

نكتشف ونحن فى غابة بولوينا، أنا ومنى السعيد، أننا وصلنا بسرعة الى بحيرة الغابة، فنلتفت وراءنـــا فلا نعثر على بقية المجموعة على أثر، فنستدير ونواصل الجرى إليهم غير عابئين بالرذاذ الـــذى بـــدأ يتساقط، غير خائفين من الوابل المحتمل انهماره فى أى لحظة ــ ونصحبهم إلى البحيـــرة، ونـــستأجر المراكب مع بعض دهشة المسئول عن التأجير، ولا ينزل غيرنا تحـــت هـــذا المطـــر إلـــى التجـــديف بالبحيرة، فنشعر أننا امتلكناها دون غيرنا مما سمح لنا أن نغنى، ونكبـّـر، ونحمد، ونهلل، فما زلنا فـــى أىام العيد، ثم نتقاذف المياه بسن المجاديف وكأن المطر المستمر لا يكفينا، فنضيف إليها ميـــاه صـــفق

المجاديف لسطح البحيرة، وتذكرنى حركة المجاديف بطبيعة التواصل بين شقى الحركة، بين الكمــون والبسط، بين القبض والانفراج، بين الذات والناس، بين الهمس والحديث الصارخ.

نخرج من رحم الماء إلى إحاطة الشجر، ومازال المطر يذكّرنا بحدة: أين نحن، وكيف، وأطرد مــن ذاكرتى ــ الآن وأنا أكتب ــ ذلك اليوم الرطب القائظ الذى مكثنا فيه ممددين كأصــنام مــن العجــين المتخثر بجوار البحيرة ذاتها فى العام المنصرم حيث تصادف وجودنا هناك تحت وطــأة موجــة حــر رطب يسمح لك بأن تقطع فيه "الهواء" إلى قطع مجسدة بسكين حاد.

وفى طريق عودتنا مررنا بالشانزلزييه ثانية، فاستوقفنا موكب غريب يسير فيه أنــاس أغلــبهم مــن متوسطى السن الأقرب إلى الكهولة وقد ارتدى بعضهم الملابس المدنية وعليها وشاحٌ مــا، فــى حــين ارتدى عدد أقل بعض الملابس العسكرية، ويتقدمهم لفيف من شرطة رســمية ويتقــدم الجمــع فرقــة موسيقية بسيطة، تبدو رسمية أيضا، وقد اصطف الناس على الجانبين يتفرجون، وبعضهم يصفق فــى حدود، ثم يتراجع، والأغلبية تسير غير مهتمة، ويظل الركب يسير وظهره إلى قــوس النــصر حتــى وصل منتصف الطريق إلى الكونكورد، فسألتُ أحد المارة، فعرّفنى أن هذا هو يوم الاحتفــال بــذكرى انتصار معركة "كذا" (لست أذكر ماذا) وأن هؤلاء بعض من اشترك فى هذه المعركة أو مــن ينــوب عنهم من أقاربهم، فتعجبت من هذا الحفل الشعبى البسيط والتلقائى، والجميــل، وتــصورت أن مغــزاه أرقى من أى حشد رسمى محاط بزقة من النفاق الإعلامى،شعرت أنه موكب تاريخى متواضع طيــب، أكثر من كونه موكبا حماسيا عسكريا مفروضا، فتعاطفت مع كل ذلك.

قلبت كالعادة فى أوراق بلدى، فلم أتبين ما يقابله حديثا، ولم أتــذكر أى احتفــال وطنــى تلقــائى إلا الاحتفال بذكرى سعد التى كان يقيمها شباب الوفد زمان فى دوار عائلتنا بالبلدة، وكنا ــ رغم انتمائنــا حينذاك للاخوان ــ نشارك فيه تلقائيا بحماس مسامح، ويستمر الموكب جاذبا أفكارى وأقدامى جميعــا، فأواكبه دون تردد حتى أذوب فى حشده، وحين يتحلق الركب بعد الوقــوف تلــتقط الــصور ويتجمــع السواح ثم يتفرق الجمع تدريجيا، وهنا ــ هنا فقط، أفيق لصحبتى، فأكتشف كل أولادى حولى، لكننــى أفتقد زوجتى وأسأل عنها، فأتبين أنها تاهت منا فعلا، فننتظر طويلا بلا طائل .

زوجتى حين تكون معى تعتمد على ذاكرتى وحافظتى وحدسى المكانى طول الوقت، فى حــين أنهــا حين تكون وحدها تعرف كل شى، بلا دليل، وأرجّح أن هذه الاعتمادية هى نوع من العــدوان الــسلبى رضينا به كلانا دفعا لما هو أسوأ، لكنها اليوم تاهت بحق، وليس معهــا نقــود، ولا حتــى العنــوان، فنــتفرق أنا والأولاد فرقا للبحث، ونتفق على مكان محدد للقاء مهما طــال البحــث. أرجــح، وأدور، وأتصور، وأحسب، وأعود، وأضيق بجهدى، وباعتماديتها، ولا فائدة. أشعر بوخز فــى جنبــى كــأنى انتبهت إلى ما لا ينبغى أن أنتبه اليه، فأبلع ريقى، وأواصل البحث. تمضى ساعة وبــضع ســاعة، ثــم

تعثر عليها إحدى بناتى. تعثر عليها فى نفس الاتجاه الذى كنت مكلفا بالبحث ـــ شخـــصيا ـــ فيـــه، ولا أحاول أن أبحث عن تفسير ذلك، وخاصة بعد أن تجزم زوجتى، وهى فى أشد حالات الألـــم (متهمـــة إياى دون غيرى طبعا: بالإهمال والترك والنسيان) تجزم أنها لم تغادر مكانها ولا خطوة واحـــدة منـــذ تركناها، إذ يبدو أننا انسقنا وراء ركب الاحتفال دون تفكير، وقد تصورنا أنها تمضى مثلنا مع الركـــب دون إخطار سابق، خاصة وأنها تحب المواكب بكل أشكالها. لا أترك لنفسى العنـــان أتأمـــل علاقتـــى بزوجتى من خلال ما عرّته هذه الحادثة، وحين أتذكر ما قيل عن علاقة سقراط بزوجته أو تولـــستوى بزوجته، وما لم يـــُقل عن علاقة ابن سينا بزوجاته أو عن برناردشو بـــ"لا زوجاته". حين أتذكر كـــل ذلك أتساءل: هل هذا الذى وصَلَنَا، والذى لم يصلنا، من معلومات عن هذه الزيجات والزوجـــات، هـــل هو حقيقة ما كان؟ هل هذه السير (الذاتية وغير الذاتية) المزعومـــة قـــد أنـــصفت هـــؤلاء الزوجـــات البسيطات فى محنة معايشة غرور هؤلاء المبدعين ووحدتهم (دون ادعاء أنّى منهم)؟ هل ســـمع أحـــد لآرائهن الحقيقية وما لحقهن من ظلم وتجاوز ومامارسْن من صبر وتحمل؟

لو كان الناس يحتملون، لقلت، وربما قالت، فى هذا الشأن ما ينبغى أن يقال، فثمة أمـــور لا يعرفهـــا عنى مخلوق فى هذه الدنيا إلا هى، وثمة آراء ومعتقدات لا تخطر على بال أحد عنى لكنها على علـــم واضح بها، تـــقبلها فى صمت مسامِح، حتى لو لم تقتنع بها أو بمثلها، وثمة احترام لشطحاتٍ ليس لهـــا أى مبرر، ولا تستأهل أى إحترام، ولا تُحتمل تحت أى عنوان، لكنها تتركها تمر، ومـــع ذلـــك فهأنـــذا "أنساها" هكذا ببساطة وسط الزحام. لا أعتذر لها حتى لا أضاعف المأزق، وحـــين أعلـــم مـــن أولادى لاحقا أنها حين ضاعت قررت ألا تغادر موقعها ولو تأخرنا عليها طول الليل. لا أســـتطيع أن أتخيـــل ماذا حرّك هذا القرار بداخلها من مخاوف وذكريات وضياع، وماذا أثار من احتجاج وعدوان، وكيـــف ربطت بينه وبين صفاقة الجزائريين الذين آذوها قرب البيجال ـــ فأحاول أن أخفف عن نفـــسى وطـــأة خطيئتى شارحا لنفسى أسباب انسحابى وراء الركب. يبدو أنى اعتمدت علـــى أولادى وهـــم اعتمـــدوا علىّ، فنسيت نفسى وانسقت أمام انجذابى إلى الشارع والحدَث.

أنا شديد الضعف أمام الشارع، أتعلم منه كما ذكرت ـــ أكثر مما أتعلم من حديث المرشدين الـــسياحين وتواريخ الآثار وصخب المسارح، أتعلم من وقفة المتـــسكعين، ومعاملـــة البـــائع، ولهـــاث العـــدائين، وموزعى الإعلانات الصغيرة من أصحاب العقائد الجديدة والشاذة، ومن مجددى الأديان القديمة حتـــى أنى رجحت مثلا، من هذه الاعلانات المتكررة الملاحقة فى شوارع نيويورك، أن ثمة محاولة أمريكيـــة يهودية ترمى الى تهويد المسيح، إذ يبدو أن اليهود لم يكتفوا بادعاء تبرئتهم مـــن دم المـــسيح ولكـــنهم تمادوا إلى تهويده فعلا، حتى شككت من فرط إلحاحهم باعلانات الشارع هذه، شككت فـــى معلومـــاتى التاريخية، قلت لعلهـــما دين واحد، ولعل المسيح ما جاء إلا ليذكرنا بالدين اليهودى، أفلا يجتمع العهـــد

القديم مع العهد الجديد فى كتاب واحد؟ ألا توصف تلك الحضارة الوافدة باسم الحضارة اليهودية المسيحية؟ فإن صح ذلك كله أو بعضه فإن علينا أن ننظر بعين الاعتبار لوجهة النظر التى تنظر للمسألة الصهيونية باعتبارها الوجه المعاصر للحروب الصليبية، التى هى بدورها ليست صراعا بين أديان سماوية تكمل بعضها بعضا بقدر ما هى تنافس للتفوق والتعصب والسيطرة من الجانبين لا أكثر ولا أقل،

لعل إصرار دعاة "الشارع" من اليهود النيويوركيين خاصة، وغيرهم، على تهويد المسيح يتطلب بالضرورة اعتبار اسرائيل واجهة هذه الحضارة الواحدة، أى أن إسرائيل هى الفيلق المتقدم نيابة عن الحضارة المسيحية اليهودية للإغارة على أى احتمال آخر، حتى لو كان الأفضل، ومن هذا يصبح ترشيد وإبداع الحركة الإسلامية الأحدث هى الرد الطبيعى على مناورة شديدة التعقيد مترامية الحلقات، ولا يصح أن نعتبر عائد مثل هذا الإبداع الاسلامى، إنْ صدَقَ وأبدع، خاصا بالمسلمين، لأنه سوف يكون محاولة للاسهام فى إنقاذ البشر لا تمييز المسلمين يا خبر!! إذن فالصهيونية بكل تجلياتها المسحية والأمريكية ليست إلا ردّة لمسيرة الانسان إذ تغفل بقية أديان العالم و"لا أديانه"كذلك.و هل يملك كل فريق ــ ولو مؤقتا- إلا الرد عليهم بالمثل؟

ما شأن ترك زوجتى إهمالا ونسيانا بكل هذا، هل تركتُها لأحل مشكلة اسرائيل أو الإغارة الصليبية المحتملة، أم أنه الاستغراق فى الشارع على حساب الصاحب الآخر،

زوجتى ــ كالعادة ــ تعذرنى فى النهاية،، وهذا عبء جديد فى ذاته، وأنا لا أعرف لكل ذلك حلا.

قلت لنفسى: إن أفضل اعتذار لها هو أن أدعوها إلى ما تحب، وقد كان، فانفصلنا عن الأولاد واتجهنا الى الحى اللاتينى فى صمت، وتركنا أقدامنا تسوقنا هنا وهناك، فقابلنا فى أحد الشوارع الجانبية تلك الحلقة المتكررة من الموالدية الخوجات المتجولين، يقومون بالألعاب السحرية كالحواة ويرددون بعض الأغانى الغجرية وغير الغجرية، هذا غير بعض ألعاب الحظ، والتهريج. "قرّب، قرّب، قرّب قبل ما يلعب، شربة الخواجة سيمون أحسن من عصير الأفيون"أو كما قال، وهات يا موسيقى، ونفخ بالنار، وقفز بداخلها، ومفاجآت عجيبة وأخبار غريبة، كل ذلك "أحسن من السرقة والنصب وكافة شىء يغضب العم سام"، هذه التجمعات بالذات هى المجال الأكبر للسرقة والنشل والذى منه الأمور التى يتولى تحديثها العم سام شخصيا فى كل المحافل الدولية.

أنا لا أفهم بوضوح أين أضع هذا النشاط الشوارعى البدائى فى إطار الحضارة الباريسية (الغربية) وكيف أقيسه بمقاييس التقدم والتكنولوجيا،وأقول لنفسى راضيا موافقا: هذا تهريج طيب، واحتمال نصب وارد، وبالقياس أنظر فى التهريج الأكبر الذى يقوم به القادة المتقدمين وهم يعرضون ألعاب التكنولوجيا الحديثة على العالم الثالث بنفس الطريقة، وكأنها الحضارة التى لا قبلها ولا بعدها فأضبط نفسى متلبسا

برفضٍ عميق لهذه الخدعة المتمحكة فى ادعاء التقدم. لا أرفض هذه الحــضارة، لا أحــد يــستطيع أن يرفض الحضارة، أنا أرفض سوء استعمال أدواتها فى غير ما وعــدت بــه. أرفــض ســيركُ المــال والسياسة والكذب والشطارة.

أحاول أن أذكّر نفسى أننى ضيف عليهم، وأننى منبهر بهم، وأننى دائــم المقارنـــة بــين إيجابيــاتهم وسلبياتنا، وأننى أتعلّم منهم الكثير. لا أريد أن ينطبق علىّ موّال يقول: "والله ان كسيت الخسيس حريــر من الهندى، ياكل فى خيرك وعند الناس يـــــدِم فيك،"

أكاد أقتنع أننى ما دمت أنهل من عطائهم فلا بد ألا أذم فيهم.

حين أقتنع بما لا يقنعنى، يثور علىّ داخلى إما بالتوقف والعرقلة، وإما بالحركـــة والمغــامرة، وإمــا بالشعر الذى لا أنتمى إليه، أثار هذا كله عندى هيجة سياسية قفزت منى شعرا لدرجـــة الــسباب هــذا "بعضه":

"إفتح عينكْ، أقدِمْ تلعبْ.
فالحظ اليوم لأولاد الأفعى،
من وُلدو من لدْغة عقربٌ.
......
يا تجارالكمات الخاوية المهجورة.
أفيونُ السعدِ دعارةْ.
......
فتدحرجتْ الكرة الأثقل فى غير الخانة.
خرج لسان السعد الوعدْ، يتدلّى،
من جوف العذراء المومس.

لم تطل وقفتنا،انجذبنا– زوجتى وأنا – إلى موقع نحبه: تقاطع سان جرمان بــسان ميــشيل، وتهــدينا أقدامنا إلى مطعم يابانى. زوجتى تحب كل ما هو شرق أقصى، (ويبدو أن ابننا مصطفى قد ورث هــذا الميل دون مورث! انظر الترحّال الثالث إن شئت) وهذا المطعم اليابانى أدق وأرق وأغلى من المطعــم الصينى المتواضع تحت الفندق. قلت: لعلها ــ بذلك ــ تغفر لى سهوى وغفلتى عنها فى الــشانزلزييه، لكن مثل هذا "الترك" يحرك فى الداخل ما لا يزول.

حكت لى مريضة صديقة أنها حين كانت فى الثالثة دخل أفراد الأسرة المسكن وأغلقوا الباب دونهــا، فظنت أنهم استغنوا عنها إلى الأبد، ونفس المريضة تحركت عندها هذه الذكرى حين كانت فى الرابعة، دخل أهلها شركة بيع المصنوعات وتركوها وحدها فى العربة فظنت أنهم لن يعودوا أبدا ،

حضرنى كل هذا بعد العَمْلة الخائبة التى اقترفناها فى حق هذه السيدة زوجتـــى ــ وكيــف يمكــن أن تمحو وجبة يابانية مثل ذلك.

وقلت أيضا: ليست الأمور كما أتصوّر.

الاثنين ١٠ سبتمبر ١٩٨٤

لم نتمكن أمس من زيارة حديقة اللوكسمبورج ــ فحاولنا اليوم أن نوفــق بــين زيــارة المونمــارتر وزيارتها، وكنت قد تحدثت مع السيدة كومباليزييه التى كنت أسكن عندها فى مهمتى العلمية، وحــددت معها موعدا لزيارتها مع أسرتى لتحيتها، فاستقبلتنا أحر استقبال وأطيبه. كنت لم أرها منذ ذلك التــاريخ البعيد. فوجئت بكهولة متعجلة لم أضعها فى حسابى، وسألتها عن "بيير" إبنها المعاق (شلل أطفال قــديم جسيم) فأخبرتنى أنه تخرّج، واستقل فى منزله فى "الفرساى" وكانت ابنتها قد تركت المنزل منذ حللــتُ أنا محلها فى حجرتها فى تلك السنة، ولم أجرؤ أن أسأل عن زواج ابنها أو ابنتها كما اعتــدنا عنــدنا، فالاستقلال عندهم حتم وحق وواجب، بزواج أو بدونه، هو حتم حتى لو كانت الأم فى هذه السن، وهــو حتم حتى لو كان الإبن بهذا الشلل، فسألتُ عن حجرتى وهل يسكنها ــ إن كان قد حدث ــ أحــد الآن، فأجابتنى بالنفى، ففرحت، واكتشفت أنى كنت حريصا على أن أطمئن أن حجرتى بعد كل هذه الــسنين لم يمتهنها أحد، وأن من سكنها أو يسكنها قد أحبّها مثلما أحببتها، وأكرمها مثلما فعلتُ، مثلما أكرمتنـــى. فهمت لتوى قول الشاعر: "أهيم بدعد ما حييت فان أمت، فوا أسفى من ذا يهيم بها بعدى"، ورفضت ــ نسبيا ــ قول الآخر: "أهيم بدعد ما حييت فإن أمت، فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى". وإن كنــت قــد اقتربت من المعنى الآخير حين خطر ببالى أنى أفضّل أن تظل حجرتى (دعد) خرابة على أن يهينهـــا أحد أو يسئ استعمالها، وأكتشف وأنا أحكى عن حجرتى تلك كأنى امتلكتهـــا دون صـــاحبتها، وأجــدد اكتشافى علاقتى بالأماكن ومعنى الوقوف على الأطلال.

طلبت أن ألقى على حجرتى نظرة، فضحكت السيدة، وفهمَتْ، وسَمَحَت، وما أن فتحت البـــاب حتـــى اعترتنى دهشة غير متوقعة، فقد بدت لى الحجرة أضيق مما كانت تحل بخيالى بعد أن تركتها - .عـــام ٩٦/٨٦ – كانت لى عالما بأسره، فكيف اختُزلت هكذا الى هذه المساحة المحدودة، وأين شرفتها؟. هى لم تكن لها شرفة أبدا، كان ثمة نافذة طويلة قليلا لها حافة أسفلها ممتدة للخارج أقل من نصف متــر، لا تسع إلا زرعا جميلا محدودا، ولكن هكذا قفز إلىّ هذا التساؤل: أين الشرفة؟ هل يمكن أن يشكل الخيال ما يشاء إلى هذه الدرجة؟ قلت ياليتنى ما رأيتها ثانية لتظل صورتها كما صـــوّرتها، لــم أكــن إذ ذاك طفلا، كنت فى منتصف العقد الرابع، وما أمر به هكذا جائز لطفل اختلفت عنده المقاييس حــين كبــر. لكن هذا هو ما حصل.

أعود إلى مضيفتى فأسألها عن أحوالها، وتجيب.

هى تقضى وقتها مع صديقات كهول بعد أن تقاعدت، وهى تحافظ على صحتها بممارسة ألعاب خفيفة لمدد محدودة كل يوم، وتضبط زياراتها المنتظمة لطبيبها، كما تتبع نهجا غذائيا وقائيا محكما.

أتساءل: لم كل ذلك؟ لتحافظ على ماذا، لماذا، إلى متى؟ ولا أعلن تساؤلاتى جهرة طبعا وأخجل من عودة سخفى وقد كنت أحسب أنى تعلمت حتى التوبة العدول عن عبث مثل ذلك التساؤل عن معنى استمرارحياة الناس!! (انظر قبلا خبرتى المؤلمة مع خالتى فى هذا العبث الفكرى الغبى– الفصل السابق). أشفق على مدام كومبالزييه، وأحترمها، وأسرع بالانصراف قبل أن تلتقط بقية مشاعرى العبثية، فتودعنا شاكرة الزيارة، كما تشكر نيابة عن ابنها بيير هدية الشطرنج الفرعونى الذى تركته له؟ ويتعجب أولادى من تعلقى الشديد بحجرتى تلك، وأتصور أنها (الحجرة) كانت لى بمثابة الرحم الحانى فى تلك الولادة المنتصف عمرية.

أهى "الركن" أيضا ؟

أصحب أولادى بنفس مسار أمس الأول إلى المونماتر، ولا أجدنى قد مللته أبداً، وما أن نصل إلى المقاهى والمراسم حتى نفترق حيث قررت هذا اليوم أن أطيل الجلوس وحدى لأطيل التأمل، فتفضل زوجتى البقاء معى، ولا أتأكد إن كان ذلك اختيارا لصحبتى، أم تجنبا لتكرار ممل، مع الأولاد فيذهب الأولاد ونجلس على مقهى فى موقع ممتاز.

يمر أمامى بائعو الفن يغرينى كل واحد منهم برسم "بورتريه" لوجهى البهى(!!). أرفض بداهة، فلا أنا من يهمه التصوير أصلا، ولا وجهى هو الوجه البهى، ويأتى واحد أكثر ذكاء ومخاطرة من عنادى، فيبدأ فى الرسم دون إستئذان منى، فأحاول أن أثنيه عن عزمه. أُفهمه بوضوح أنى لن أشترى ما يرسم مهما كان، فلا يهتم، ويجيب أنى غير ملزم بدفع سنتيم واحد إلا إذا وافقت، ويكمل رسمه، ولا يعجبنى طبعا، فإذا كان الأصل لا يعجبنى فكيف تعجبنى الصورة، ولكنى أخجل وأدفع، ويثبُت أن إصراره أذكى من عنادى– وأتصور أن هذه وسيلة ناجحة محسوبة لكننى أتابع نقاشا يجرى بجوارى مع "زبون" أحسب أنه أمريكى، فقد غامر أحد الفنانين معه بمثل ما فعل معى، لكنه رسم وجه جارى رسما كاريكاتيريا جميلا وناطقا، تصورتُ منه أنه لمَسَ داخله وأظهره جنبا إلى جنب مع دقة التقاط التقاطيع، وخاصة أنفه المتميزة، ويبدو أن الرجل قد أُعجب بالرسم مثلى، فهم أن يبتاعه، لكنه قبل أن يفعل خطف نظرة إلى زوجته (أو صاحبته) الحسناء فتحفزت، وجعلت تقلب النظر بين الرسم وبين الأصل، ذلك أن الكاريكاتير قد ضخّم الأنف حتى أصبح أكثر دلالة وتمييزا، وقد تصورتُ أن هذا أفضل، لكن يبدو أن ذلك لم يرُقها، فتراخت يد جارى رويدا رويدا من على حافظته حتى خرجت بيضاء من غير سوء، وصح ما توقعه وتوقعته حيث "زامت" صاحبتنا أنْ "لا"، وهى "اللاّ"، وكأنها أرادت أن تظل محتفظة بصورة صاحبها (بل الأرجح: زوجها) بأبعادها الكاريكاتيرية الأخرى، إذ يبدو أن ما نرسمه

فى خيالنا لبعضنا البعض هو كاريكاتير مفضل على الحقيقة من جهة وعلى كاريكاتير الآخرين لنا من جهة أخرى، بل إنى رجحت أن كل واحد منا له صورة للذات وصورة للجسد، كما أن له كاريكاتير للذات وكاريكاتير للجسد، وقد يحتاج هذا لبحث خاص!!!

مازلت أذكر - كما أشرت- كيف فوجئت بصورتى فى مرآة حجرتى فى باريس سنة ١٩٦٨، وحتى الآن. أنا أصدم فى كثير من الأحيان حين أضطر لاكتشاف الفرق بين وجهى فى المرآة وبين صورتى الداخلية الكامنة، فقد أجد المرآة أفضل أو أسوأ، وقد يفاجئنى سنى، أو تفاجئنى كشرتى، أو جديتى، أو همى، يفاجئنى أى من ذلك فى وقت لم أستعد له، وأحيانا أتعجب كيف يحتمل من يعيشون معى هذا الوجه (وجهى) طول الوقت فى حين أننى لا أستطيع أنا أن أتحمله إلا مصادفة، وأحيانا أكتشف أن لوجهى حضور متميز يمكن أن يبرر قبوله لو صبر عليه أحدهم بعد النظرة الأولى،

تأكد لى هذا الاحتمال مؤخرا(أغسطس ٢٠٠٠) وأنا أقوم بتسجيل أعمالى التى قد لا تنشر فى حياتى بالصوت والصورة، حيث أعددت مكتبى لأقوم بنفسى بذلك دون مساعدة أحد، وكلما شاهدتُ نفسى فيما سجلته تساءلت: من هذا؟ لكننى أجده أقرب من كل تصوراتى السابقة.

المهم رفضتْ السيدة أن ترى زوجها كما رآه الرسام، أو ربما تصورت بذلك أنها تستطيع أن تحتفظ بصورته التى رسمتها له داخلها كما تشتهى، وألتفتُ إلى زوجتى فأجدها راضية بوجهى وصورتى معا، وأمرها إلى الله، وأقول فى سرى: الحمد لله، فلا هى "تزوم" ولا أنا أرضخ.

يمر بنا كهل مهلهل، شديد حمار الوجه ،متوسط جحوظ العينين، يمسك عودا خاليا من الأوتار، وعلى الرغم من أنه لم يمد يده سائلا أحدا أى شيء، إلا أنه يتسول ما فى ذلك شك،، يذكرنى منظره بشيخ درويش أعرفه فى الحسين يحمل مروحة ريش بلا ريش، لكن درويش المونمارتر أكثر احمرارا- بفعل الشرب فى الأغلب- وعينيه أكثر جحوظا، وعوده بلا أوتار فهو أكثر لفتا للنظر من المروحة الخاوية الريش بيد درويش الحسين، وتكاد تصطدم به السيدة صاحبة المقهى (فى الأغلب) فتعتذر وتفسح وتتراجع فى أدب جم واحترام حقيقى، فأتصور أنه كان أحد هؤلاء الفنانين المتجولين، وأنه قد تبين بحدس واع أن حكاية الحياة كلها لا تساوى- سواء خطها على الورق، أم رصها فى كلمات، أم عاشها فى خطوات، أم أصدرها فى نغمات، ومن ثم هو قد قصف فرشاته، وأخلى عوده من أوتاره، وأبقى عليه أجوف يردد أصداء ما تبقى من نغمات متفرقة كيفما اتفق.

يبدأ الرذاذ من جديد، وتحلو الجلسة، وتخرج المعاطف المضادة للمطر، وتُفرد بعض المظلات، وينصرف أقل الناس ويبقى الآخرون، وأشعر أن المطر قد هطل هنا بالذات: تحية لى، ورسالة، فأشكره، ويخف حتى يسمح لنا بالانصراف لمقابلة الأولاد لننطلق الى اللوكسمبورج، سُرة الحى اللاتينى وعلامته.

اللوكسمبورج حديقة مثل كل الحدائق، لكنها ــ دون أن يقول لى أحد ــ جذبتنى حتى صاحبتُها أيضا، صاحبت عددا من الأمكنة بكل التفاصيل أكثر مما صاحبت البشر، حتى البشر حين أرصدهم فى الأماكن أعاملهم كجزء من المكان لا ينفصلون عنه، أو لعلى أعامل الأماكن كبشر، ألم أكن مع "دعد" حجرتى منذ قليل؟

اللوكسمبورج تختلف عن غابة بولونيا فى أن أشجارها ناس، وناسها طبيعة، وهى تحيل وسط المدينة إلى طبيعة، ولا تكمّلها بطبيعة منفصلة. أهم ما فيها هو "مَن" فيها: السيدة العجوز، والطفل الذى يعدو، والشباب المستلقى، والمارة الطيبون، والفن الحى. لم أكن أعرف أن لها عند سارتر موضعا خاصا فى نشأته وخياله، وحين قرأت علاقته باللوكسمبورج اقتربت من خياله واحترمت نبضه مع استمرار اختلافى مع كثير مما فرضه على نفسه وهو يُحِل كَلماته محل جوهر الطين وقلب العرق، ونتصرف بسرعة هذه المرة لأننا كنا على موعد لزيارة صديقة لابنتى فى ضواحى باريس بعد الظهر.

فى محطة "سان لازار" ننتقل من محطة المترو إلى محطة القطار، فنجد الدنيا تضرب تقلب، مئات، آلاف، داخلين خارجين، فى زحام منتظم، أو انتظام مزدحم، وبسرعة محسوبة لأن مواعيد القطارات مُعلنة فى لوحات مضيئة بالدقيقة(وربما الثانية).

علاقة باريس بضواحيها علاقة غريبة رائعة، فالضاحية تسمى ضاحية حتى لو وقعت على بعد مائة كيلو متر، وأرجح أن المسألة لا تقاس بالكيلومترات، وانما بالميكرو ثانية، وبالتالى لا يوجد ما يبرر أن تسكن فى باريس إذا كنت تستطيع أن تصلها فى سبع عشرة دقيقة أو سبع وعشرين، فأنت تعرف مسبقا متى تحلق ذقنك، ومتى تغادر بيتك، ومتى تستقل قطارك، ومتى تغيره إلى المترو (هذا اذا لم يكن نفس القطار يخترق باريس مثل خط الــ .R.R)، وبالتالى متى تصل عملك ــ فإذا كان الأمر كذلك فأنت فى باريس متى شئت، وأنت خارجها متى أردت. تقفز إلى ذهنى لعبة المقارنة وأقول لنفسى إننا نصل إلى العمل بالصدفة، ونعثر على المسكن بالقرعة، وبالتالى فنحن نعمل "بالتيلة"، وبسرعة التقطت اسم البلدة التى نتوجه اليها على اللوحة المضيئة..، "هويل"، فوجدت أن القطار سيغادر المحطة إليها بعد دقيقتين، وهات يا تذاكر، ويا جرى، ويا قطار، ونحن غير متأكدين تماما أننا على صواب، ويطمئننا بعض الركاب الطيبين، ونجد الأماكن كافية على الرغم من الازدحام الذى كان بالمحطة والقطار بدورين مثل ترام الاسكندرية زمان، والناس مثل ناس المترو، نعم.. هم.. هم، لكن الكتب هنا أكثر وهى تخرج أسرع، والكلمات المتقاطعة أقل، والجو الأسرى أوضح، والشباب أقل، والقطار يبدو أسرع، والدنيا مكشوفة، والحقول تتبادل مع مداخن البيوت أو المصانع الصغيرة.

نصل إلى المحطة المعنية، "هويل" فلا نجد صديقة ابنتى كما تواعدنا، فننتظر، وفى خلال دقيقتين يخلو الرصيف إلا منا، فيبدو مهجورا تماما، وهى محطة مفتوحة، بسيطة، جميلة، وخلوها يعنى عندى

الدقة والطمأنينة معا، فالناس تحضر قبل القطار بدقيقة (مثلا)، فيحضر القطار بعدهم بدقيقة، فتخلو المحطة فى أقل من دقيقة، ودمتم، وهكذا أرى محطة ليست سوقا ولا بوتيكا ولا ناديا ولا ميدانا، لكنها محطة، وننتظر أكثر ولا حس ولا خبر لصديقتنا، ونتعجب، ونُرجح سوء فهم الاتفاق على المكان، فتذهب كل من ابنتىّ للبحث فى احتمالات أخرى، وتعثر إحدى البنات على الصديقة، ونلتقى.

صديقة ابنتى اسمها فرانسواز، فتاة فى العشرين وزوجها كذلك (هكذا يبدو) وهى، ليست جميلة، وزوجها شديد الجمال والوسامة، والظاهر أن الرجل الفرنسى ـــ بصفة عامة ـــ هو أجمل من المرأة الفرنسية، واستقبلتنا البِنيَّة بفرحة حلوة، وقد كنت أتصور أنى سألتقى بفتاة صغيرة، تلميذة، مثل ابنتى، حتى لو كانت متزوجة، لكنى فوجئت بامرأة كاملة لها وجه طفلة جدا، ذلك أن بطنها كان أمامها جدا، وظهيرتها خلفها جدا ،حامل هى فى الثامن على الأقل، ورغم ذلك فزوجها "الجميل" لا يكف عن التغزل فيها ومداعبتها أمامنا طول الوقت. زوجته: أى نعم، على سنة ديجول ورئيس وزرائه، لكن هذا لا يمنع من الغزل المستمر، والمتجدد!!! ـــ وهى ترحب بى وبزوجتى أساسا، ثم تواصل حديثها مع ابنتىّ بفرنسية واضحة، سريعة وجميلة، ويشترك الأربعة فى حديث حار وكأنهم يكملون محادثة لم تتقطع إلا أمس، أو صباح اليوم، وأسحب نفسى بعيدا أتأمل هاتيك الشابات الثلاث والجدع "الحليوة" زوج فرانسواز، وأرى روعة اختفاء الفروق الحضارية والتاريخية والعنصرية واللونية واللغوية فى ذوبان إنسانى مطمئن، وألعن كل الفروق، وكل التشويهات، وكل التعصب.

كانت ابنتى الكبرى ـــ منى يحيى ـــ (تذكرّ أن لى ابنة أخرى اسمها منى السعيد) قد تعرفتْ على صديقتها هذه أثناء رحلة كشافة فى جزيرة كورس (كورسيكا بالعربية ـــ بلد نابليون: مولدا ومنفى) حيث شاركتا فيما يسمى "راندونيه" وهى مغامرات كشفية وسط الجبال سيرا على الأقدام مستعملين معابر (كبارى) قديمة لا أحد يعرف مدى صلاحيتها، مارين بمسارات لا تسع إلا فردا واحدا بالكاد، أو بلا مسارات إطلاقا تصعيدا فى جبل أو انحدارا إلى سفح، مكتشفات طبيعة مجهولة، عابرات ـــ من خلال ذلك ،وفى حضن الطبيعة الأم ـــ معظم الحدود بين الأجناس والعقائد وما يصاحبها من تعصب وغرور. كان هذا دائما هو غرضى الأساسى من وراء السماح لأولادى الواحد تلو الواحدة بهذا السفر الجماعى. كان هدفى هو إذابة الحدود بينهم وبين من يعرفون ممن هم على غير دينهم وغير شاكلته. كنت دائماً آمَلُ أن يعرفوا من خلال ذلك أن الحياة الحقيقية ليست فى الرفاهية أو فى احتكار الجنان، يعرفون ذلك بالممارسة، والمشى، وليس بالنصائح والكلام،

ومنذ هذه الرحلة المشائية الجبلية التى خاضتها منى وهى فى الخامسة عشرة، وهذه الصديقة "فرانسواز" وأهلها يرسلون الدعوة تلو الدعوة لابنتى وأختها للنزول ضيوفا عندهم فى صيفٍ ما. ورغم رقة حالهم ماديا، فقد كانت دعوة مفتوحة مجانية إلا من ثمن تذكرة السفر، وكانت ابنتى تكرر لى دائما

أن الكرم ليس له وطن، كما أنه ليس مرتبطا بقدرة مادية معينة، وأخيرا قبلت بنتاى الدعوة، كان ذلك لسنتين سابقتين على رحلتنا هذه. حكت لى ابنتى عن تواضع منزلهم فى ضاحية "بيك"، وعن زيارتها لعمة صديقتها الفلاحة فى الشمال (فى ولاية بريتانيا)، وعن مدى نشاط الفلاحة الفرنسية، وكمية اللبن التى تدرها البقرة الفريزيان، وتواضع دورات المياه لديهم.. فنقلتْ إلىّ وإلى أمّها صورة حقيقية لما هو أسرة فرنسية من الشمال "غير" ما نعرف عن باريس وأهلها، وتوطدت العلاقة، وتواعدوا على تبادل الزيارات الحرة، ولم تحن الفرصة بعد لـرد الزيارة، وهانحن نزور من جديد هذه الأسرة الصغيرة بعد أن عملتها فرانسواز مع صديقها دون تردد، ونشأت أسرة صغيرة ظريفة فى هذه السن، وبكل هذا الاستقلال، وهذه هى بطنها أمامها، وزوجها ذائب فى هواها، طول الوقت.

عرض علينا المضيفان أن نستقل تاكسيا فرفضنا بداهة، وفضلتُ أن نواصل السير إلى المنزل حتى أعيش خطواتى كالعادة، فجعلت أتملى فى واجهات المحلات، وأقرأ الاعلانات بالتفصيل، ومن بينها إعلانات عن ستوديوهات ومنازل صغيرة، وفيلات، وأثمانها كلها معقولة، لاتزيد عن ثمن شقة متوسطة فى القاهرة أو حتى فى بلبيس!!، حتى خطر ببالى الخاطر المتكرر ــ بلا أى مبرر ظاهر ــ أن يكون لى كوخ فى هذا المكان أو مثله (بدأت تلوّح أعراض الحنين إلى الركن القصِى).

خجلت من نفسى فراجعتها، وجدتنى، على الرغم من تكرار هذا الخاطر كلما زرت مكانا أخضرا جبليا بعيدا، أتصور أنى لا أعرف بديلا أحب الالتصاق به والموت تحت ثراه أكثر من أرض بلدى كما لا أعرف فعلا أشرف من إفادة ناسى أولا وقبل أى شىء، لكننى أتصور بين الحين والحين أنه سيأتى علىّ يوم يمنعوننى فيه من أن أفكر لنفسى بنفسى، وبالتالى فسوف أعجز عن أن "أعلن"، أو "أقول" ما أفكر فيه، وأنا أعانى حاليا من صعوبة النشر بعد أن كشفت عديدا من أوراقى الواحدة تلو الأخرى، وبرغم الحذرالشديد لاحت بعض معالمي: فى الدين والجنس والسياسة والتاريخ، فلم أعد أكتب ما يعرفون، كما لا أستجيب لما يريدون، لا "هؤلاء" ولا "أولئك"، وهم حتى الآن لا يتهموننى بالخيانة أو العمالة أو الكفر، وإن كنت أرجح أنهم يصفونى بالجهل أحيانا و بالغرابة كثيرا، ولكنى أتصور أنه حين يتولى "هؤلاء" أو "أولئك" الأمر، وهما على طرفى نقيض، فلابد أن أجدنى مواجها باتخاذ قرار، قبل أن يتخذوا هم قرارا فى شأنى، وأتصور أنى سأكون كهلا لا يحتمل التعذيب، كما سأظل عنيدا لا أخضع للقهر، يقظا لا أحتمل التخدير، وحين لا تتسع أرضى لمثلى، وهم على قمة التحكم الفوقى، فأرض الله واسعة، فلا مانع من إعداد الركن الذى سيأوينى حتى لا أتنازل عن شرف عقلى مقابل ذل إقامتى حيث يقهرون حقى فى أن أفكر لأقول.

أفيق فجأة: من هم؟ ومن أنا؟ أنا لست فى أولها ولا فى آخرها، بل كلا الفريقين يفرحون بأمثالى ممن لا يتعدى خطرهم اجترار أفكارهم، فما هذه القصة الطويلة العريضة التى تستدرجنى حتى أهم بشراء

كوخ فى ضاحية خواجاتية؟، وحتى لو فعلت، فلمن سأعلن آرائى هناك من هذا الكوخ البعيـد، وكيـف سأستثمر حرية تفكيرى، هل ستسمح لى بذلك تلك الصحف العربية الخوجاتية التى لا أحد يعلم حقيقـة تمويلها ولا غاية توجهها؟ أم أنى سأزرع أوهام أهميتى فى أوراق مهملة أخزنها فـى حديقـة كـوخى المزعوم، وأوزعها على خواجات لا يدرون عن وجودى شيئا أصلا ثم تـُدفن، قبلى، دون أى ذكـر، بعد أن يعجز الحانوتى الخواجة عن فك طلاسمها، وحين أفقس نفسى بهذا الوضوح أكتشف حجم حاجة الواحد منا إلى الاطمئنان "بشكل ما"، إلى وجود "ركن ما"، ينتظر الواحد منا فى حالة "ما إذا"...،

أحسب أن وجود مثل هذا "الركن"، حتى لو لم نلجأ اليه أبدا، هو أمل قائم عند كل منـا منـذ غـادر الرحم، ولكنى أعترف أنى بالغت فى تشييد "الأركان" دون استعمالها، فحيثما حللتُ، أقمتُ لى حجـرة، أو عشة، أو تعريشة، أو استراحة، أعدها وأتحمس فى إعدادها، متصورا أنى سأقيم فيها بقيـة حيـاتى "بهدوء"،(ليس "بهدوء" إبراهيم نافع) وبمجرد أن يتم ذلك – وقد تمّ فعلا فى أكثر من مكان فى بلدنا– قد لا أبيت فيها ليلة واحدة، ولكنى أواصل العناية بها استعدادا "للجوء إليها" فى وقت ما، وقـت لا يجـئ أبدا.

أتذكر أن أبى كان يمارس هذه اللعبة بطريقة أخفى، فإمكانياته كانت أقل. وقد سبق أن أشـرت إلـى كيف انتقل أبى بعد المعاش المبكر إلى حجرة منفردة فى حديقة لنا بعيدة عن البلدة تقع أمـام المقـابر مباشرة، وقبلها كان قد أعد حجرة فى حقل أبعد، وكانت له حجرة فى الشقة الأصلية تسميها أمى "ركن العزل" ـــ وكانت سِـلفتها ـــ زوجة عمى ـــ تشاركها الرأى وتوافق على هذه التسمية، حيث أن عمـى (زوجها) كانت له نفس النزعة، وبالتالى نفس الحجرة، يلجأ إليها عند التصادم والاختلاف، فهل المسألة وراثية؟ هل استطاعت عائلتنا، بهذا التكرار الملح، أن تعلنها باعتبارها طبيعة بشرية عامـة. فلمـاذا لا يعملها غيرنا هكذا بهذا الإلحاح ؟

أعلم يقينا أنه لا الركن ولا الرحم، ولا الموت يستطيع أن يحل مشكلة القهر، والسلطة، والإعاقة، وأن من لا يتمكن من إدارة معركته على أرضه فلا سبيل إلى تصور أنه سيفعلها على أرض غيـره، ومـع ذلك فأنا لا أحرم نفسى من حقى فى أن أحلم "برحمٍ ما" لحين أستقر فى جوف الرحم الأوسـع (القبـر) فى حينه ـــ ولكنى لم أكن أتصور أن حاجتى إلى الاطمئنان لوجود هذا الرحم سوف تتمادى الى الحلم: بكوخ ـــ مِلك ـــ فى بلاد الفرنجة" هكذا،بهذا التكرار، طول الوقت.

أسترجع ما قالته لى ابنتى فى "نيس" حول تفكيرها فى الهجرة، ثم كيف عدلتْ بعد حادث السرقة فـى "فيل نيف" فى شاطئ الزير (الكوتدازير). أتصور أن الحرية المزعومة فى بلاد الفرنجة هـى خدعـة أكبر من كل تصور، فإن كنت أخاف من قمع حريتى فى نشر كلمة، أو إبداء رأى، فى بلدى، فى يـوم ما لم يأت بعد، فإن حرية المشى ليلا، وحرية إمكانية الـتخلص مـن وصـاية الإعـلان، ووصـاية

التليفزيون، ووصاية شركات التأمين وغير ذلك هى كلها حريات غير قائمـة فـى بـلاد الخواجـات المتقدمة. إن هذا الحنين إلى حرية أخرى، أو ركن كهف واحد، مرتبط بعجزى عن أن أنفـصل عـن مشاكل ناسى ومرحلتى، يختلط عندى العام بالخاص، حتى لا أميز.

موقفى السياسى موقف فردى خائب، لم أترك فرصة أعلن فيها رأيى إلا فعلت، ولم يُنشر لـى رأى حقيقى واضح إلا إذا ابلغ من الغموض ألا يفهمه رئيس التحرير الذى ينشره، أو لعله يتمتع بالقدر مـن الشجاعة الذى يسمح له بالتغابى، وحين تضيق بى الصحف، القومية والمعارضة، وتـرفض كلمـاتى أنشرها فى مجلة مجهولة أرأس تحريرها منذ عشرين سنة، هى مجلة "الانـسان والتطـور"، وأحيانـا أختبئ فيما أسميه تجاوزا:شعرا."

عندما حدثت "هوجة" الأمن المركزى فى بلدنا (١٩٨٦/٢/٢٨)، ومنعونا من التجول فـى القـاهرة، ضجر الناس و ضجوا، وقد أهاجنى هذا الحادث واعتبرته نذيرا ضخماً لأمر ما، أنـا أعـرف مـدى استثارتى حين تعجز الكتابة العادية عن استيعاب دفعة انفعالى، فيهيج شعرى ضد اعتراضـى عليـه، وعلى مستواه، نظرا لبصيرتى أنه ليس أحسن أدواتى، لكننى على الأقل أكتشف أزمتى من خلاله، قلت فى هذا الانفجار وكأنه يعنى سقوط الأقنعة والثورة ضد النمطية الدائرة.، أذكر ما يناسب حـالتى الآن، وقد يفسر الحنين المتواصل إلى الركن القصى

ـ ١ ـ

....

طلاسِمُ المعادلة،

والنّسْمَةُ البلهاءُ تاهَتْ فى سَحَابَة الملاحَقةْ.

....

.... ـ ٥ ـ

أمِرْنا بليلٍ

يَمُوُت الأملْ

ـ ٦ ـ

تململــتْ رسالة مغلّقة

من حول ساق الزاجلِ

[حُلمُ لاح لعيَن السَّاهر]

وهمسٌة شاردُة تَفنفدَتْ

....

لفّ الدثارَ أحكم المراوغةْ

تمزقت رسالة مـُنـتـَهكـةْ،

تطايرت أوراقها

[حلمٌ ضاعَ بدربِ الثائر]......إلخ

حكاية الثورة والحرية أصبحت غير ملائمة لحاجة الإنسان المعاصر، هذه البضاعة المعروضة من حوانيتهم ليست مطلبى،

لا أريدها، ولا أستطيع الاستغناء عنها،

بديلها هو القهر بلا حدود،وهى لاتساوى شيئا،

فما العمل؟

أتذكر كيف كنا فى نيويورك، أو حتى سان فرنسيسكو، نسرع الخطى للعودة للفندق قبل الساعة ٨ مساء، حيث التجوال بعد ذلك (دون طوارئ ودون قرار منع التجول) وإلا تعرضنا للنهب أو ما هو أخطر، ولا أظن أن هذا حرية أو حضارة. أنا لا أميل إلى اعتبار هذه الحكومات المتحضرة بريئة مما يحدث فى شوارعها، باعتبار أن السود وقطاع الطرق الآخرين من السكارى والعاطلين والمجرمين هم المسئولون عن الإغارة على "حرية التجول" هذه، الدولة الأضعف من التحكم فى سلوك أفرادها هى مشاركة فى نتائج هذا السلوك على حرية المواطنين والزائرين على حد سواء.

ماذا يفيد الرجل الحر أن "يقول" ما يشاء وسط إرهاب دعائى إعلامى يسجنه فى حدود ما يراد تماما، وماذا يفيدنى أن أتصور أنى حر التفكير وأنا لا أستطيع أن أمشى فى الشارع حرصا على حياتى، وقروشى، فأتوارى مقهورا بعد المغرب فى بلاد الحرية؟ وأفيق من جديد على تعدد أشكال القهر بقدر تعدد أوهام الحرية.

هكذا اكتشفتُ أننى أعيش أوهام الحرية والأمل فيها أكثر مما أمارسها ،

أنا حين أحسب أن كوخا فى بلاد الفرنجة ينتظرنى عند اللزوم ليحمينى من القهر، أو أن هجرة واعدة قد تسمح لى بمساحة أكبر فى الحركة، لا أمارس إلا الوعد بحرية زائفة، فهى ليست إلا "حرية" عدم الانتماء " لا أكثر ولا أقل، إنها دعوة أن أعيش بين ناس لست مسئولا عن مشاكلهم وآلامهم، فأتصور أنى حر.، حرٌ بالتخلّى، هناك، أستطيع أن أستدفئ بظلام كهفىّ، فى حين أنى أكون قد اخترت التعجيل بنهايتى.

من ذا الذى يستطيع أن "ينشر" رأيه فى بلاد غير بلاده، بلغة غير لغته، دون أن ينحاز لهذا الفريق أو ذاك، ممن لا ينتمى إليهم أصلا.

أدرك من خلال تعرية تبريراتى الهروبية بهذا الوضوح أنه حتى العلم ليس محايدا أبدا، ولــن يكــون كذلك أبدا. راجع التمويل.

ولكن: ماذا أقول فى بلدى أكثر من عدة فقاعات كلام أو كتابة قد تطفــو أو لا تطفــو علــى ســطح المسيرة، تتفجر طاقة أو لا تتفجر حسب حسابات صعبة، ليست فى متناولَ تحكمى، ولا هى فى متناولَ أى فرد واحد أو شعب واحد مهما بدا دوره واعدا.

نصل الى منزل فرانسواز ونجد والدها وأخاها فى انتظارنا. يقودنا المضيفون إلى "المنزل" عبر ممر طويل وهو ليس منزلا لزوجين حديثين بقدر ما هو "مشروع" مصغر، يــأوى أمــل شــابين، قــانعين شجاعين، وهذا المشروع يقبع أغلبه تحت السلم، فهو مكون من حجرة واحدة كــالحُق، بهــا منــضدة متوسطة تكاد تملؤها، فاصطففنا حولها بالكاد، وبجوار الحجرة "فكرة" مطبخ ما يسع موقدا مــا، يعلــوه سلم خشبى يصل إلى حجرة نوم فوق الاثنين.

أعجب أن الطفــلة الحامل وزوجها لا يشعران بأى حرج من استضافتنا هكذا هنا، بل إن فرانــسواز تدعونا لرؤية حجرة نومها، وهى فخورة، دون خوف من احتمال تصدع السلم أو عدم اتساع الحجــرة، وتفهم زوجتى وابنتاى أهمية هذه "الفرجة" لعروس صديقة، وأعتذر، ويدور الحديث عن جمــال البيــت كأنه القصر المنيف!!! وأتعجب لهذا الرضا بهذه البداية التى لا تؤجِّل الزواج، وتقول لى ابنتى ونحــن عائدون أن الرضا ليس نابعا من حسن استغلال ضيق المكان فحسب، بل من التأكد من إمكانية تغييــره متى ألحّت الحاجة وتغيرت الإمكانيات، فى ظروف متكاملة، فما دامــت الفــرص متاحــة ومتنوعــة، والإمكانيات متزايدة، فإن أى بداية واردة لأنها ليست نهاية، أما عندنا فالمنزل ــ إن وجد ــ هو البداية والنهاية حتما، وتدافع ابنتى بأن المسألة عندنا ليست دلع شبان، لكنها الخوف من جمود الحركــة وقلــة الفرص، وتخبرنى ــ مثلا ــ أن فرانسواز قالت لها إنهما ــ سينتقلان قريبا الى منزل آخــر بمناســبة قدوم الطفل الجديد، فالمكان تُحدد سعته حقيقة استعمالاته، والحاجة الحاضرة، وهو يتجــدد أو يتغيّــر بتجدد الظروف والاحتياجات والإمكانات..

أراجع عدد الحجرات التى لا تستعمل عندنا، وعدد الساعات التى لا تمتلىء، وعدد الأمخاخ التــى لا تفكر، وعدد طبقات الوعى التى لا تُخترق، وأشعر أن الفاقد عندنا أكبر من كل تصور، ثم إن اختفــاء الأمل فى أى حركة إلى أحسن، هو دعوة للجمود من البداية.

أتذكر كيف كان والدى فى طنطا يترك الشقة التى نسكنها أثناء شهور الصيف توفيرا لإيجارها الــذى لا يتعدى ثلاثة جنيهات شهريا، وكان والدى يُحضر جملا أو اثنين من البلدة ليحمل عليهمــا "العــزال" (عدة مراتب وأغطية وسريرين حديد أسود، وصيوان مفكك) وأذكر أننا كنا نفرش حجــرتين فحــسب، وتبقى حجرة خالية،فــنرص فيها الأحذية والشباشب، حتى أسميناها "أودة الجزم."

فى تلك الأيام كنا نشترى نصف أقة "الـدِّعْدِع" بخمسة تعريفة، والـدِّعْدِع هو البقايا المتناثرة من قلىْ الكفتة، يبيعها الحاتى- بدلا من أن يرميها- لمن لا يقدر أن يشترى الكفتة السليمة، فتصبح غموسا بـه رائحة الشواء وعرقه بشكل غامر، كان هناك شئ اسمه "قيمة الشىء" كان لكل شئ قيمة، فلا تـُلقى ورقة بيضاء تصلح للكتابة، وبقايا الرغيف نعمة من يرميها قد يحرمه الله من استمرارها.

أفيق على حديث والد فرانسواز عن فشل ميتران فى أن يحقق آمال الطبقة العاملة وعمـوم الـشعب، وهو، والد فرانسواز، قد انتخبه، لكنه ينوى أن يُفشله حتما ليقف عند حده، وأتعجب لفـشل الحكومـات الاشتراكية (وليس بالضرورة الحل الاشتراكى) فى إقناع الناس، عامة الناس بأنها الأفضل، ولا أظـن أن المشكلة الآن هى فى الترجيح ما بين الحل الاشتراكى والحل الرأسمالى بقدر ما هى فـى تـرجيح النظام الذى يمنع "الفاقد" بكل صوره فى كل موقع، وأطرد عن أذنى وعقلـى هـذا الاسـتدراج الـذى حرمنى من لحظات أدق وأرق.

لا أستطيع إلا أن أحترم هذا النظام الذى يجعل هذا الرجل "الاشتراكى" الطيب (والد فرانسواز) يقول بكل ثقة أنه - شخصيا - هو الذى أتى بميتران، وأنه سوف يخلعه، يا صلاة النبى، هذا هو الكلام، هو لم يقل: أتينا به، وسوف نخلعه، لم يستعمل صيغة الجمع، وإنما: أنا انتخبتُه، وأنا سوف أفشله، أما نحن فليس عندنا إلا: "إحنا اخترناك، وحانمشى وراك"، ونظل نمشى وراء كائنٍ من كان دون حتى أن نسأل إلى أىن،

أذكر فى بداية الثورة أن "أحمد أبو الفتح " كتب عدة مقالات بعنوان "إلى أىن؟"، وقامت الـدنيا ولـم تقعد إلا على رأسه هو وعائلته وصحيفته، إلى أين يا حمار ؟ هل أنت أعمى؟ هل هـذا يـصح؟ إلـى أىن؟ يا بجاحتك ياأخى !! ألا تعرف إلى أين؟

ثم كان ما كان.

ولم يجب أحد على السؤال حتى الآن.

أقمع نفسى للمرة المليون. قف.انتبه لما حولك ومن حولك فى ضواحى باريس،

الإجابة ليس أسهل منها،

إلى أين؟

إلى محطة القطار لنستقله عائدين إلى باريس.

ونحن فى طريق العودة يصحبنا الوالد والمضيفون، جعلت أتابع علاقة والد فرانسواز العجوز الطيـب المتفجر حيوية، ببنتىّ منى، ومَىْ، وعلاقتهما به، فأشعر به والدا طيبا يكلم منى كأنها ابنته من ظهـره، ياحلاوة، أخيرا وجدتُ من يتبنى بناتى كما أتبنى بنات الناس، هذا طيب، وهذا بعـض فائـدة الانفتـاح الرحلاتى .

تعدد الآباء ــ عندى ــ من أهم معالم التربية الحقيقية، وعندما نقول فى بلدنا للعم والخال ومن فى مقامهما "آبا" فلان، فإننا نوسع دائرة الأبوة بدلا من حكاية "أونكل" و "عمو" خيبهم الله.

كنت قد قمت بمغامرة مع أولادى فى هذه المنطقة منذ أربع عشرة سنة (سنة ١٩٧٢ ــ فى عز حماس الأمل فى التغيير). شجبت لفظى "بابا" و"ماما" لأحل محلهما لفظى "أمّا" و "آبا". أصدرت هذا الفرمان بشكل حاسم فاستجاب الأولاد وما كان يمكنهم غير ذلك، ولكنى التقطت بعد ذلك بسنوات همسا يشير إلى أنهم أحيانا ما يخفون هذا "الشذوذ" عن أصدقائهم وزملائهم ــ فأواصل إصرارى مهما كان الثمن.

ذات مرة، بعد سنوات طوال، (أظن سنة ١٩٨٣) تباحثوا فيما بينهم، وفكّروا أن يرجعوا إلى اللفظ العام "بابا"/"ماما"، وافقتُ على مضض نتيجة إجماعهم، مع أن الفرمان كان ساريا لمدة سنوات طويلة طول الوقت كما ذكرت، وما إن نادانى أحدهم: "بابا" حتى استقبلتُ اللفظ كأنه "طوبة" صكت وعيى، لم أعرف ماذا جرى لى، ولم أتراجع عن موافقتى، لكن الأولاد كانوا قد كبروا وشعروا بما بى، وكأنى بموافقتى على التراجع إنما أعلن هزيمتى وفشل محاولتى أن أتجاوز ما فرضته علينا الحملة الفرنسية فالاحتلال الانجليزى حتى فى أدق ما ننادى به أهلنا، فيشفقون علىّ قبل أن أعلن أننى لم أعد أحتاج منهم أن ينادونى لا بابا، ولا آبا، ولا أبويا، ولا شئ إطلاقا. فتراجعوا هم وحدهم رحمة بى وقد وصلهم كل هذا دون أن أقوله، هذا على الرغم من أنى كنت أنادى أمى أمامهم بـ "ماما"، كما أنى ما زلت أذكرها أيضا بـ "ماما" كما تعودتُ منذ أكثر من ستين عاما،

أىُّ مفارقة؟!! أنا صاحب الفرمان أقول "بابا" و"ماما"، وهم المساكين ممنوعون، أى سخف، وأى ورطةَ!!

وما زال الحال كما اعتادوا، وكما اعتدت: أبويا وأمى، بلا تراجع، فات الأوان (أغسطس ٢٠٠٠).

أعود إلى "آبا جبرييل (والد فرانسواز) وأتابع حديثه مع بناتى، ثم ننصرف شاكرين فرحين داعين إياهم لزيارة بلدنا وهم السابقون بالفضل،

كنا نزمع زيارة أم فرانسواز فى ضاحية قريبة، ولكن فى الطريق يستأذن الوالد و ينتحى بابنتى الكبيرة جانبا، ويسر إليها أمرا وهو يحرك ذراعيه شارحا مُسهبا، فتومئ برأسها، ثم تعود قائلة أننا سنتوجه الى مترو الـ RR مباشرة، دون أن نزور منزل الأب.

نفهم بعد ذلك أنه كان يعتذر لها بمرض زوجته لأنها (زوجته) لا تستطيع أن تستقبلنا الآن. تحكى لى ابنتى أنه ليس مرضا طارئا، وأنها كانت قد لا حظت بعض مظاهره خلال زيارتيها السابقتين، وأتاكد من جديد من علاقة ابنتى بوالدها هذا الخواجة، وأحترم أنه أسرّ إليها دوننا، واتعلم الجديد المفيد.

الثلاثاء ١١ سبتمبر ١٩٨٤:

غدا رحيلنا عن باريس.

قررت آن أجالس نفسى فى الفندق طوال الفترة الصباحية، علنى أعيد ترتيب أمورى، داخل دماغى، وأواصل حوارى معى فيما قد يجمعنى فى قرار، أو يوضح لى موقفا، أو يوجه خطوة، أو يستوعبنى فى مراجعة.

بعد انصراف الأولاد، أخرجت قلما وورقة، وجعلت أكتب وأكتب مدة لا أعرف مداها، ثم نظرت فإذا بشخبطة هائلة، وخطوط بلا معنى .

كلمات متناثرة فى غير جملة مفيدة.

ابتسمت. هذا هو "القرار!!"

ثم أنتبه على صوت رنين التليفون فإذا به "بيير" ابن السيدة كومباليزييه يشكرنى على هدية الشطرنج التى تركتها له عند أمه بعد زيارة أمس، يا للذوق.

يدق التليفون ثانية، فأعجب وكأنى فى مصر فإذا به العميدا.د.بورتوس إبن شبرا، يخبرنى أنه فشل أن يفعل شيئا لابنى هذا العام، فأشعر براحة شديدة ضد ظاهر حرصى على إجابة مطلبى، أشكره وأرتد غوصا إلى قاع اللحظة متسائلا: أنا مالى، مالى بهذا الابن أو بغيره، وماذا سيفعل لى بدراسته هنا أو هناك.

لا أتمادى فقد عرفت مدى كذبى فى كل هذا مهما كررت، ولكنى لا أكف عن التكرار، لعلنى لا أفقد الأمل فى أن أستوعب يوما ما أردده هكذا.

ربما يثبت أن هذا الكذب هو الحقيقة الأولى بالرعاية.

ثم آمل أن أتمادى فى هذا الكذب حتى أصدقه، ثم أستطيع أن أنفذه.

لا أكف عن الطمع فى أن يتجمع تراكم الرؤية، مع مواصلة الإصرار، وتحمل الحيرة، فأجد كلمة بسيطة جدا تشير إلى بديل حقيقى.

أولادى لن يحلّوا إشكال وجودى.

أعرف ذلك جيدا.

ودّعنا باريس،

واتفقنا على الرحيل المبكر.

أنا الذى سأوقظهم هذه المرّة .

مسحراتى،مسحراتى، من أجل خاطر البكور.

الفصل الثالث

(الفصل التاسع: من الترحالات الثلاثة)

الجَمَالُ تتجدّدُ طزاجته

الإشكال عندى هو أننى أتمتع الآن بقدر من الحرية، مع هذا الكم من الإنجا،ز مما يقربنى أكثر وأكثر من مواجهة مسئوليتى عن وجودى ومحاسبة نفسى عن حقيقة إنجازى،

وحين أعلن بعض أفكارى هذه على بعض من حولى.. مترددا خائفا، أواجَه بما أتوقع من أنى لابد "طماع" لا يرضينى "كل هذا ".

فكان لزاما على أن أجمع نفسى قهرا وفورا، فأنتقل بها إلى حيث تصورت أننى يمكن أن " أقرر".

السفينة: أدرياتكا ــ البحر: الأبيض، ١٩٨٦/٨/١٠

يشاء السميع العليم أن أسجل بقية حكاية رحلتنا الأولى، وأنا " أعبر"من جديد، حواجز الذات، والبحر، والناس، والرواسى: الرواسى من الجبال، و الرواسى من الهموم والجشع.

أكتب هذا الفصل فى نفس السفينة أدرياتيكا، على نفس المقعد، بتوجه آخر، أملاً فى "تثبيت" بعض ما كان واختباره، وربما الإضافة إليه أو تعديله.

أقرّ أننى قررت القيام بهذه الرحلة الجديدة دون سابق إعداد، فى محاولة أن أنتهز فرصة المأزق الجديد حتى أُضطر أن أقدِمُ على قرار"ما"،،ذلك القرار الذى ظل مؤجلا مؤجلا، واعدا مؤمِّلا، ثم هو لا يأتى أبدا.قلت:"أقفز إليه".

لابد من قرار يمكننى من النجاة،

فكانت هذه الرحلة الجديدة، بهذا الهدف الجديد (القديم).

حسبتُ أننى بتكرار نفس الرحلة سوف أتأكد أن الأمور قد تغيرت، وقد وجدت ذلك منذ البداية، فأنا لست أنا الذى ذهب فى المرة الأولى، يُلقى بنفسه حيث لا يدرى، فيدرى ما أراد وغيره، مما لا يعرف أنه أراده أم لم يرده ،

هذه المرة أجد نفسى أكثر هدوءا، وأقل فى عنف التلقى، وهذا سيٌّ بعضه، أو سيٌّ كله لست أدرى، الرحلة مفاجئة، والصحبة محدودة (زوجتى فقط) فالأولاد سوف نلتقى بهم لبضعة أيام فى أثينا ثم يرجعون لنستمر زوجتى وأنا إلى حيث أريد أن أتخذ القرار،الذى لا بد أن تترتب عليه قرارات وقرارات. فلأحدد "المجال" أولا.

مما لا شك فيه أنى منهك تماما، وأنى أتقدم فى العمر وأنى لم أُنجز شيئا مما تصورت ــ وأكده لى آخرون ــ أنى قادر على إنجازه، ومما لا شك فيه أنى طرقت كل الأبواب، وتكلمت بكل اللغات (عدا

لغة التشكيل بالخط واللون، ولغة الموسيقى). تمكنت من لغة العلم وحذقت اللعب بأدواته، وحللت شفرة اللغة الأدبية فى معظم تجلياتها. قلت ما أتيح لى قوله بكل لسان،

يستحيل على مَــنْ مثلى أن "يقرر" بمعنى أن "يحسم أمره" بالنسبة للخطوة أو الخطوات التاليــة، فأنــا أسلّم نفسى كل صباح لخطوات متتالية من الواجبات والطلبات (والمطالبات)، فيستلمنى هــذا ليــسلمنى إلى ذاك ساعة بعد ساعة، وعيادة بعد جامعة، وصحيفة بعد مستشفى، وإبنا بعد كتيــب، ومجلــة بعــد ندوة، وجمعية بعد جماعة، ثم أجد نفسى فى نهاية اليوم " شيئا متبقيا" قد أفرغت أغلب طاقته فيما يفيد. (أى والله) فأنا مازلت أعتقد أن وجودى فى إيقاعى اليومى ــ بالرغم من كل ذلك ــ هو مفيــد بــشكل ما، لكنى أتأكد أن هذا الشئ "المتبقى" آخر نهار كل يوم لم يعد به ما يقف بذاته لذاته، كما أنه لابد عليه أن يغيب عن الوعى مساء كل يوم فيما يسمى النوم.

فى الفترة الأخيرة أصبح نومى هو حياتى، أشعر أن داخلى ــ أثناء النوم ــ يتقلــب بحريــة أكثــر، وسهولة أرحب، وانفعالات أعمق، أتحرك داخل نومى أكثر مما تسمح به يقظتى، لكن، ما أن يــسحبنى الصباح من مرقدى حتى أمضى مستسلما لاهثا لا أستطيع أن ألملم ما تحرك فى، أو ما تحــرك بــى، فأجد نفسى وقد استسلمت للنهار التالى بنفس الخطوات المتتالية من الواجبات، والطلبات (المطالبــات). يتسلمنى هذا فيسلمنى إلى ذاك... حتى أصل إلى ضرورة غياب الوعى الظاهر ولو ظاهريــا ــ فيمــا يسمى النوم ــ لأسلم نفسى فى اليوم التالى، وهكذا، وهكذا. إلى متى؟ إلى أين؟

الإشكال عندى هو أننى أتمتع الآن بقدر من الحرية، مع هذا الكم من الإنجاز مما يقربنى أكثر وأكثــر من مواجهة مسئوليتى عن وجودى ومحاسبة نفسى عن حقيقة إنجازى، وحين أعلن بعض أفكارى هذه على بعض من حولى.. مترددا خائفا، أواجَه بما أتوقع من أنى لابد "طماع" لا يرضينى "كل هذا " فكان لزاما على أن أجمع نفسى قهرا وفورا، فأنتقل بها إلى حيث تصورت أننى يمكن أن " أقرر".

أقرر ماذا؟

كنت عائدا لتوى من "سانت كاترين"، وهى بلاد برة " الجوانية" بالنسبة لــى، عرفتهــا بعــد رحلتــى السابقة (١٩٨٤) واعتزمت أن أخصص لها ولما حولها وما تحويه من باطن المعانى والإيحــاءات، أن أخصص لكل ذلك الفصل الأخير من هذا العمل، فمصر أوْلى، ومصر التى لا نعرفها أولى فأولى، وقد فكرتُ أن تكون عزلتى لاتخاذ القرار، هناك، فى حضن الجبل بجوار الدير، أو فى عشّة أؤجرها فــى وادى فيران.لكنى شعرت أنى أعجز من ذلك، لأنى مادمت فى مــصر، فأنــا فــى متنــاول الأيــادى والطلبات والمطالبات..، طالما أنا فى حدود إمكانية العودة فورا..، لا يمكننى أن أخلو إلى نفسى- فــى مصر - حتى أستطيع أن " أقرر"

صدمنى الموت بعد موت (جاهين بعد صديقى) فسارعت ألحق نفسى لأقرر قبل أن يقرر لى أحد دون أذنى.

أنا مسافر هذه المرة كى أفعلها وخلاص، لم أكف طول حياتى عن "اتخاذ قرارات، وفى كل مرّة كنت أعتبر القرار هو آخر قرار، ثم يتجمّع فى داخلى ما يتجمّع، ثم يطفو باستئذان أو بدونه، وأتصوّر أننى أتخذ القرار الأخير بعد كل هذه الخبرة الناضجة على نار هادئة، ثم...وهكذا.

متى أتعلم ؟

أريد أن أختلى بنفسى لأنظر، وأجيب، وأختلف.

حين وصلتُ بعربتى الخاصة هذه المرة إلى ميناء الاسكندرية وكنت قد ألفت الإجراء ات من المرة السابقة فقلّت الدهشة وفتر التأمل، طلبت أن أثبت على جواز سفرى آلة تصوير"فيديو" (لا أفهم فيها شيئا، على وعد من ابنتى بتعليمى هناك)، اصطحبتها معى هذه المرة مستجيبا بذلك لرغبة غير رغبتى، تحت زعم أن ما أصوّره من متعتى قد تتيح هذه التكنولوجيا أن يتمتع به غيرى إذا شاهده، ولم أقتنع بهذا السخف.

قال لى رجل "الجمارك" أن علىّ أن أدفع تأمينا " الشئ الفلانى"، ولم أكن مستعدا، ولم يكن هناك من يودعنى أصلا حتى أطلب منه ذلك "الشئ الفلانى" لزوم التأمين، فقررت أن أرجع آله التصوير، وكان الوقت يسمح أن أذهب الى بيتى بالإسكندرية، وبدلا من أسفى على هذا التصرف، والتعنت غمرتنى راحة عميقة نبهتنى إلى استحالة مخالفة عمق داخلى.

رحت أراجع عزوفى شبه الدائم عن هذه الهواية الطيبة " التصوير". على الرغم من أنها تحتفظ بالذكريات، وتسجّل الجمال، وتثبت اللحظة، وتحافظ على الأثر، إلا أنى لا أشعر بقيمة كل ذلك، بل لعلى ــ من عمق معين ــ أجد أن الصور بكل أشكالها (تصوير ورقى، أو شرائحى، أو سينما، أو فيديو) قد تأخذ الانسان ــ أحيانا ــ من الطبيعة أخذا، وقد تكون بمثابة التوقيع فى دفتر"تشريفات الطبيعة "مما قد يفيد فى إثبات " الحضور والانصراف" ليس إلا، حتى أنى حين تماديت فى تمثل هذا الجانب السلبى، شعرت ــ مخطئا فى الأغلب ــ أن عملية التصوير هذه قد تحل محل التقاط الصور بالعين الإنسانية المجردة، فوم ثم الحوار معها بوعى طازج يستطيع أن يتعهدها حتى تنضج ثم تهضم ثم تتمثّل فتصبح زاد الإبداع والتجديد. مثل كثير من الألات، على الرغم من روعة ما أضافت، فإنها حلّت محل أشياء ثمينة جدا، أن تلتقط الصور بحواسك هو الأصل، ثم تظهر آلة تسجّلها أو لا تسجّلها، أما أن تمسك آلة فتلتقط هى الصور نيابة عنك، فهذا ما تجنبته أبدا، ربما بغير قصد. التصوير بالحواس يضيف وجودا إلى الوجود، أمّا أن التقاط صور بآلة منفصلة عنك، فهو شئ عظيم وجميل، لكن..، فقط: لكن.... زمان كان لا بد أن نحمّض الصورة حتى تظهر، لا أعرف، فأقف عند لفظ

التحميض هذا وأتمادى فى السخرية التى أرفضها شخصيا، ومع ذلك أقول: كأن بعض الصور هى "طبيعة مخللة"(حامضة). آسف ذهبت بعيدا الناحية الأخرى. أنتبه فجأة الى التحفظ الإسلامى على عملية تصوير الأشخاص خاصة، وكيف أنها أخذت على الإسلام باعتبار أنه تخلف، وضد الفن... وما إلى ذلك، ورغم أن ظاهر التحفظ ينهى عن تصوير الشخوص دون الطبيعة، ويفسرون ذلك بتجنب محاولة خلق ما ليس فى اختصاص البشر خلقه، أو خشية عبادة الرمز دون الأصل، فإنى استلهمت من راحتى بالتخلص من هذه الآلة الأحدث، ومن تفضيلى أن تكون حواسى وخلاياى، هى آلة التصوير الأدق، أقول إنى استلهمت من هذا وذاك بعض معنى هذا النهى الإسلامى، معنى يتصل بمحاولة الإسلام دائما أبدا تعميق الفطرة البشرية وإزالة كل العقبات التى تحول دون نمائها ونقائها، فلعل الإسلام ــ إسلامى ــ لا يريد أن تحل الصورة المصنعة محل الصورة الحيوية النابضة، ليحافظ على العلاقة المباشرة مع الناس والطبيعة، من يدرى؟

هذا الخاطر جعلنى أواجه تساؤلا ذا دلالة: لماذا يهيج علىّ إسلامى فيقترب منى، وأقترب منه كلما ابتعدتُ عن المسلمين الخطباء والمفسرين والحاكمين والدامغين؛

فى سفر آخر "عثرت على" معنى للتأكيد على رؤية الهلال بالعين المجردة لتحديد رمضان (فالعيدين) ــ كان ذلك فى باريس، حيث ثرت بعد خجلى من اختلافنا، نحن المسلمين، مع علم الفلك، ثرت حتى رجـّحت أن الاسلام يصر ــ من حيث لا ندرى ــ على ضرورة الإبقاء على هذا التواصل الحى المباشر بالطبيعة الدورية ــ المتمثلة فى دورات القمر، بغض النظر عن حسابات الفلك، وتيقنت أن الله ــ سبحانه ــ لا يهتم إن صمنا يوما زيادة أو يوما أنقص عن شهر فلكى بذاته، بقدر ما يؤكد الاسلام ضرورة احترام حواسنا، وأن نتبع ــ جميعا رؤية " أحدنا "، حتى لو كان غير مختص، أى من عامة الناس، حتى ولو كانت رؤيته محض خيال، فتصديقه أكثر فائدة من تقديس آلة لا نباشر حضورها فى وعينا مباشرة، على شرط أن نصدقه لأنه قال، ورأى، وليس لأن هذه هى الحقيقة !!!!

خطر ببالى أن يكون التصوير تصويران: أحدهما يبرز، ويعمق، ويحرك، ويذكّر: بما يفجر الإبداع ويلهم التجاوز، وهذا حلال وعبادة، والآخر يسجّل، ويسطّح، ويغرّب، ويحل محل، ثم يخزّن، فيعفى الإنسان من معايشة صوره الذاتية الداخلية، فهو حرام (و الله أعلم). الحلال والحرام هنا ليس بمعنى الجواز والمنع، ولكن بمعنى الإقبال والادبار (!!!.) فإنما يُعلن الحلال ويحدد لتسهيل إيقاظ الفطرة للإقبال عليه، وإنما ينبه إلى الحرام ويحدد، لا للعقاب والترهيب أساسا، وإنما لإرشاد الفطرة النقية للنفور منه، أو الانتباه إلى الآثار السلبية التى قد يحملها.

إن تشويه الفطرة بأى اغتراب، حتى على المنابر بالفذلكة، حرام.

كما أن تنقية الفطرة بأى تناغم، يأتى بالتعتعة، حلال.

بهذا الحرام وهذا الحلال تتقى الفطرة وتهتدى إلى طبيعتها هدى النجوم إلى مسارها.

أقر وأعترف أن إسلامى (فطرتى) قد هاج علىّ بمجرد استنشاق ريح السفر هذه المرة، فهو لم ينتظر حتى أسافر إليهم وأختلى بنفسى، فى مواجهتهم فأعيش تحدى الاستعلاء والأحكام، فتثور فطرتى ــ إسلامى ــ وهى تعيش الاختلاف والاقتحام،

ما الذى يهيج على إسلامى فور سفرى؟ أو حتى قبل أن أسافر، بمجرد أن أهم بذلك. هل أحتمى به من أى تشويه لوعيى يمكن أن يغمرنى دون حساب، من فرط البهر، والإعجاب بهم؟

هل أتخلص من آثار عدوان المتدينين الشكليين، من المسلمين الثلجيين، فتنطلق فطرتى تعلن إسلامها أمام غرور الغرب وزهوه بانتصاره المزعوم على الطبيعة، واحتكاره الغبى للتاريخ؟

كنت قد سألت ابنى الأكبر محمد ــ وهو رفيق رحلة من نوع آخر ــ هل أكتب ــ فيما أكتب ــ عن الإسلام ــ إسلامى هذا، فقال دون تردد، وهو مسلم ولكن بطريقة خلاقة، قال: "طبعا". محمد ابنى هذا نادرا ما يبادرنى بالرد، أو الموافقة، إلا هذه المرة، وكأنه يعلن حاجته وحاجة جيله أن يسمع من مصدر آخر، وبلغة العصر، يسمع وصف ما أودعه الله فينا من فطرة نقية، نشوهها مرة بالتكنولوجيا، ومرة باختزال ديننا الحنيف إلى "طرحة"، أو "لحية" أو حتى "ظاهر شريعة"، وكأن ديننا الجوهر قد لصقوا عليه لافتة تقول: "لا يـُتعاطى إلا بواسطة الوصاة" أو لافتة مثل أدوية الجلد تقول "يستعمل من الظاهر"، قال ابنى "طبعا" وكأنه يتصور أنى قادر بما سأكتب على الوقوف فى وجه هذه الموجة التجارية والهروبية التى أغرقت الصفحات بمداد ومعلومات أشد سوادا مما كتبت به، حتى الكتّاب الأحرار الكبار أمثال زكى نجيب محمود وحتى يوسف ادريس لم تفتهم فرصة الكتابة فى هذا الاتجاه بتراجع بيّن أو بتلفيق سطحى، أنا لا أتهمهم بالنفاق أو ركوب الموجه، ولكنى أعذرهم لتقهقرهم أمام تقدم السن وإحاطة المخاوف....، سواء كان الخوف من الوصاة على الفكر، أو من اقتراب الموت، وهم إذّ يغازلون الإسلام على "كبَر" أكاد أسمع باطنهم يقول: بما أننا لم نفلح ــ قديما ــ فى أن نتحول عنه، فمن أدرانا؟ الحيطة أوجب!!

قبل مغادرتنا القاهرة، فى نفس يوم الرحيل، كان علىّ أنا وزوجتى أن أزور جارة قديمة لنا، أصيبت بشلل نصفى قبل سفرنا بيومين، ونُقلت إلى مستشفى حديث يملكه ويديره بعض أقاربى من المتدينين المستثمرين الأطباء المهرة، فذهبت فى زى الرحلة، وهو زى غير مناسب لمثل هذه الزيارة وسط هؤلاء القوم، وقابلت ابنة عمتى الطبيبة الأستاذة المديرة الفاضلة، فأوصيتها بجارتنا خيرا فى غيبتى، حيث أنى مسافر اليوم. فقالت الدكتورة بنت عمتى المديرة جدا: إلى أين؟ فقلت: أتعرّى فى الجبال فى حضن الطبيعة بالقرب من الله، قالت فهو "الحج" (ونحن فى الخامس من ذى الحجة) ففكرتُ أن أجيب

بالإيجاب، والأغرب أن زوجتى كان قد خطر ببالها أن تجيبها نفس الإجابة دون تفكير ـــ ودون كـــذب ـــ أننا فى سبيلنا فعلاً إلى حجٍّ ما، قد شعرت أننا صادقين (زوجتى وشخصى).

حين أدينا الفريضة، كنا ـــ تقريبا ـــ فى نفس "حالة التجرد للتلقى"، رحت أتساءل هل يا ترى يتفجـــر الإسلام الفطرة فى قلوب الحجيج هكذا كما يفجره السفر إلى بلاد الله لخلق الله، وهل ياترى ـــ بعد أداء الفريضة ـــ تنفع الحجة تلو الحجة فى الاقتراب من الفطرة عمق الفطرة، أم أن التكرار يفقـــد الخبـــرة نبض الطزاجة ؟

الله وحده يعلم ماذا يتفجر فى البشر هنا وهناك، وهو وحده الأعلم بمغزى الحج.

لا أنسى شعورا قريبا من ذلك شعرت به أثناء المشاركة العالمية لمشاهدة مباريات كأس العـــالم لكـــرة القدم عبر الأقمار الصناعية، ليس حجّا هذا، لكنه يذكرك بالحج ،

تمتد يدى إلى زر المذياع فى العربة الخاصة هذه المرة أختبر الموجات الأدق التى تربطنى بالعالم أثنـــاء ترحالى، فأسمع من لندن خبر موافقة مجلس الشيوخ الأمريكى على تخصيص مبلغ وقدلاه ٢٩٥ ألـــف مليون دولار كميزانية للتسليح هذا العام(١٩٨٦) وأن السيد السند ريجـــان شخـــصيا لـــيس مـــسرورا للتخفيض الذى لحق بالرقم الذى كان قد اقترحه!! كذا؟! كذا؟! فيرعبنى الرقم، ويرعبنى أنه للتـــسليح، أراجع نفسى: إذن، فأى قرار أنا ذاهب لاتخاذه؟ وها هو السيد ريجان يقوم عن البشر جميعا بالواجـــب. هذه القرارات التسليحية المليارية، التى لا راد لها إلا بمثلها على الجانب الآخر (كان ذلك قبـــل انهيـــار الاتحاد السوفيتى) ونحن: أنت وأنا، نضحك على أنفسنا بالجرى حول الملعب وكأننا نـــشارك، مـــع أن أسماءنا لا تـــُدرج حتى فى الاحتياطى، ثم نضحك على أنفسنا ونحن نقول" نحن نقرر"، "أنـــا أقـــرر"، يبدو أن الضمائر أصبحت طبقات "هم يقررون"، "هو يقرر"

إذن: لماذا التسلح لأمثالنا بالشئ الفلانى؟

وماذا يحدث لو أن العالم الثالث كله، والرابع والخامس والسابع عشر، رفض أن يتـــسلح أصـــلا، أن يدفع مليما واحدا فى هذا العبث المجنون؟

هل سيعود أصحاب السلاح لاحتلالنا؟

وهل سلاحنا (بالمقارنة بهذا الرقم) سيمنعهم من احتلالنا؟

ماذا لو ركزنا أن نقصر حروبنا معهم على حرب العصابات فى حالة الاحتلال، بما يسمح لنـــا بـــأن نسرح الجيش العامل، ونوجه التجنيد الاجبارى إلى زراعة الصحراء والتدريب الدورى علـــى حـــرب العصابات؟

حين تدعو لى أم مريضة شفاها الله عن طريقى أن أصبح وزير صحة أشفق عليها وأقول يـــا رب لا تستجب لأن أحلامى أن أكون وزير حربية حتى أنفذ هذه الخيالات!!

خيّل إلىّ لمدة ثوانٍ أننى عثرت على القرار الذى أنا ذاهب لاتخاذه؟، ألا وهو

:نزع سلاح العالم الثالث والرابع حتى العالم السابع عشر، مع زراعة الأرض وإخراج الألـسن، ثـم الاستعداد لحرب عصابات لاتنتهى إذا لزم الأمر!!!"

سوف أكتفى بأن أقرر أن أكمل كتابة "الناس والطريق"

عائد أنا الى رحلتنا الأولى، وإن كانت إرادة السميع العليم قد شاءت أن أكتب نهايتها وأنا حالة كـونى فى هذه الرحلة الثانية فلأفعل ،

كنت قد تركتكم ونحن ننهى إقامتنا فى باريس؟

باريس فى ١٢ سبتمبر ١٩٨٤

كالعادة، ورغم قيامى بدور المسحراتى، خرجنا متأخرين عما تعاهـدنا عليـه، فتـركتهم يحمـّلون الأتوبيس وجلست على قهوة جوبلان أحتسى قهوة الصباح، وأودع الشارع والمقاعد وزجاج الواجهـة وريح الحرية. وتوكلنا جنوبا.

عند بوابة الخروج من ضواحى باريس، ونحن نهم بأن نمتطى صهوة الطريق السريع، أشـار الأولاد إلى حيث أمضينا ليلة العيد داخل الأتوبيس بجوار دورة المياه، أشاروا إلى "الموقع" بعتاب وامتعـاض، بما يعنى "لا أعادها الله ليلة" فى حين أنى قد خفق قلبى لها (وكذا قلب زوجتى كما أخبرتنى فيما بعـد)، وكأن هذا الموقع ــ بالنسبة لى ولزوجتى ــ قد أصبح ــ بمبيتنا فيه تلك الليلة ــ بعض دارنـا، نحـنّ إليها كما نحن إلى بيت أمضينا فيه العمر كله، ما أبعد ذلك عمّا شعر به الأولاد!. ما الذى جعل الأولاد "هكذا"؟ وجعلنا نحن "هكذا"؟ أهو العمر؟ أهو طعم تاريخ الشقاء الحلو؟ أهو استسهال الأولاد؟ أهو أنـى بت فى هذا العراء مختارا فى حين باتوا هم فيه مقهورين؟

لعله كل ذلك ،

لأول مرة بعد أن عبرنا البوابة ودفعنا "المعلوم" أشار لنا رجل الشرطة أن نتوقف، ثم نذهب إلى ناحية على جانب الطريق، وقلت لنفسى: حصل، أخيرا سوف يطّـلعون على أوراق الـسيارة، ويـا تـرى، فلست متأكدا إن كانت تلك الرخصة المسماة بالدولية تغنى أم لا، فقد قرأت المواصفات اللازمة للقيـادة فى الخارج، وكلها مواصفات شديدة الصعوبة، قد لا تغنى فيها تلـك الأوراق التـى يـصرفها نـادى السيارات بالقاهرة (وغيرها) بلا جدية ولا مسئولية. الشئ الوحيد الذى طلبوه منى على حدود إيطاليـا ــ كما سبق أن أشرت ــ هو الكارت الأخضر الدال على التأمين لصالح الغير،

الشرطى يشير إلىّ أن تعال الى جانب وانتظر. صدعت للأمر،"ربنـا يـستر"، وأخـذت دورى مـع السيارات التى أشير إليها مثلى بالتوقف وكان أغلبها سيارات شحن ونقل، فسألت الجنود الطيبين: "ماذا هناك؟" فقال لى الوزن (ولم يقل العدد كما تصورت). فقلت فى نفسى الـله أكبر!!، صحيح أننا نحمـل

فوق سطح السيارة ما يجعلنا أشبه بسيارات النقل، لكن كل حمولتنـــا ليـــست ســـوى أدوات التخيـــيم، وصحيح أن عددنا تسعة، لكن مِن هؤلاء التسعة طفلين، وغالبية الباقين من الأوزان غيـــر المدعومـــة، طيب، لنفرض أنه ثبت أن الوزن عندنا أكبر من المسموح ماذا نترك؟ أو "من" نترك؟

تخاطَبَ الجندى الطيب مع الضابط الوسيم، ونظر إلينا، ولعله قرأ أفكارنا أو لعله وزننا بعينه الحـــرة، أليست عين الحر ميزان، وأشار لنا بالانصراف ومواصلة الطريـــق دون أن نـــصعد علـــى "الطبليـــة" ويزنوننا كما البضاعة أو كما عجول التسمين.

أشفق علينا العسكرى الخواجة، فصرفــنَا شاكرين، غير موزونين.

وهات يا جرى جنوبا جنوبا. نفس الطريق الذى جئنا منه من ليون، البداية مشتركة، لكن النهـــار لـــه عينان، وكان المطر قد توقف، فكشفتْ فرنسا عن خضرتها اليانعة، والمتنوعة كما أعرفها،

تذكرت رحلة رأس السنة حين كنت فى فرنسا (٦٩/٦٨). تلك التى قضيتها فى جبال الجيرا، فقفز إلى ذهنى اسم البلدة التى عسكرنا فيها، فى مدرسة ثانوية للبنات، دون تلميذاتها طبعا، حيث كنا نعثـــر فـــى حجرات النوم بين الحين والحين على بعض الرموز النسائية، فنتمسك بها، ونتضاحك، ونتغامز، وحين تذكرت كل ذلك عدلت خط سيرى حتى أمر على هذه البلدة "دول" **Dole** بعد ديجون.**Dijon**

أخذت أتعجب من ذاكرتى هذه وكيف استعادت فجأة نبض تلك الأيام، خاصة وأن تلك الأيام ـــ علـــى ما أذكر أيضا ـــ لم يكن لها نبض (ظاهر) يـــُذكر،

لست أتذكر أنى سعدت بها سعادتى بذكراها الآن، بل لعلى حينذاك كنت مـــشغولا بأشـــياء صـــغيرة خطيرة حالت بينى وبين ما أسميه الآن نبضا!! فقد كانت القروش قليلة، والخبرة محـــدودة، والوحـــدة جافة، والغربة طاغية، والمفاجأة شديدة، لكنى ـــ مع كل ذلك ـــ وحين اقتربت من نفـــس المكـــان الآن بدأت أتحسس فى وجودى ذكريات ما، هادئة، رصينة، وقوية، ورائعة، فمن أين جاءت الآن؟

أنا لم أعش هذه الخبرات أيام كنت أعبُّ منها "هناك" "حينذاك"، فمن أين جاءتنى هكذا؟ كيـــف تتفجّـــر منى الآن. حتى كأنها جديدة تماما؟. أبدو وكأنى لا أتذكرها بمعنى الاسترجاع، وإنما كأنى أستعيد شـــيئا لم يحدث، وأتعجب لهذا الذى يصر أن يعيش تماما وأصلا فى "الهنـــا والآن"، بـــوعى إرادىّ محـــدد، وأتعجب أكثر لمن لا يعيش أصلا لا "هنا" ولا "الآن" ولا "هناك"، ولا "حينذاك"، فأكتشف أن هذا الكيان الحيوى المسمى الإنسان، اذا ما تفتحت مسام إدراكاته بقدر كاف، فلم يكتف بأن يـــُدخل العالم الى ذاته من ثقب إبرة التعصب، أو يُخرج ذاته إلى العالم مترجمة إلى ما يعرفه عنها، مما يفرضه عليها، إذا لم يفعل هذا أو ذاك، وتفتحت مسام إدراكاته كما قلت، فهو يعيش متجدد أبدا، هو لايذكر أو يتذكر، وهـــو يجدد باستمرار جدله مع "الآخر"، ومع "الطبيعـــة"، ومع "الكون"، يدرك ذلك أو لا يدركه فى حينه، هذا أمر آخر. لكنه إذا ما عاد إليه، سوف يعيد التعرف عليه، سوف يجدده وهو يتجوّل فيه مـــن جديـــدا، و

لماذا يسمى ذلك ذاكرة أو تذكر؟ وهو ليس إلا ما دخل إليه من مسام وعيه الطازجة الـنشطة، فهضمه وتمثله، ثم احتفظ به فى هذا العمق الكامن حتى إذا عاد إليه نشّطه ليعايشه وليس استعاده ليعيده.

جعلت أتأمل مناظر مرت بى منذ أكثر من خمسة عشر عاما، وكأنى أكشف عنها هى هى فى داخلـى بتفاصيل ما حسبت يوما أنها وصلتنى أصلا، ويعاودنى الحقد الوطنى ــ ما كل هذه الخـضرة!!! كـل هذه الزراعة، فائض الفاكهة، فائض الألبان.. وقد سبق أن تواترات أفكـارى إلـى مثـل ذلـك فـى يوغسلافيا وسجلته فى هذه الرحلة، لكنى عدت أقارن وأقارن !!!!! ذكرتنى بحديث لاحق جرى علـى لسان زميل لنا أثناء زيارتنا بوسطن فى أزمة صديقى الراحل التى حكيت عنها طويلا.

كان زميلنا هذا (أستاذ امريكى فى التخدير!!) ذهب فى مهمة علمية إلى إنجلترا أواخـر سـنة ١٩٦٧ (لاحظ السنة!!) ثم مِـنها إلى أمريكا، ثم إنه تأمْرَكَ، إذ تجنس، وأقام، فراح يقول لنا وهو يـصطحبـنا إلى بيته فى إحدى ضواحى بوسطن حيث يقطن: "هذا هو كوبرى قصر النيل" (مشيرا إلى أحد الكبارى التى تشبه كوبرى قصر النيل فعلا لعله جسر البوابة الذهبية) وهذا كوبرى أبو العلا (يشير إلى كوبرى آخر من الحديد)، وهذه هى جزيرة المنيل، وهذه هى الجزيرة (حاف)... سـيقول ذلـك لـيس بلهجـة المشتاق إلى أسماء كبارى القاهرة، وإنما ليقنع نفسه أنه واجد ما هو مثل مصر وأحسن. يـردف: فمـا حاجتى إلى مصر بعد أن خدعنا وطردنا عبد الناصر، كان يقول هذا الكلام بعد حوالى عـشرين سـنة من رحيله، وهو زميل متوسط الحال لم يضار شخصيا لا بعبد الناصر ولا بغيره، بل لعل فضل إكمال تعليمه حتى صار طبيبا كان يرجع إلى عبد الناصر، ثم إنه قد غادر مصر بمحض إرادته، وبقى هنـاك بمحض إرادته، فأستوضحه،

فيقول بمرارة غاضبة:

"صور لنا عبد الناصر الجاهل أن مصر هى أم الزراعة، وربة الصناعة، وسيدة الحـروب، ورائـدة العالم، وكنت محتاجا أن أصدقه، فصدقته، ثم رمانى جنديا فى الصحراء، بعد الهزيمة، بلا حـرب، ولا تطبيب استدعونى فى حرب لم تحدث أصلاً، رمونى فى الصحراء وأنا طبيب التخـدير فـى الجامعـة لأقوم بما هو أقل من التمريض، ويا ليتنى وجدت من أمَرِّضه، كل ما فعلته أننى عـدت سـائرا علـى قدمَىّ، حتى أوامر الانسحاب لم تصلنى، رأيتهم يعودون مهرولين فعدت.

هربت بجلدى إلى انجلترا فى أول فرصة. إنجلترا التى اسمها انجلترا، تزرع أكثـر منـا وأخـضر (أكثر اخضرارا) تزرع، وتصنع، وتحارب وتحترم الإنسان .

لماذا كل هذه الأوهام التى نشأنا نجترها دون وعى؟

فهمتُ وهو يتحدث بكل هذا العتاب المـرّ أنه لما رأى أوربا الخضراء طول الوقت طولا وعرضـا، ولما رأى مدى احترام الفرد، ثار حقده الوطنى مثلما حدث لى شخصيا، ولكنه وجه آثـار هـذا الحقـد

سخطا على عبد الناصر وليس أسفا على قلة المطر، وقيظ الصحراء وخيبتنا القوية، وكأن عبد الناصر هو المسئول عن ضيق الشريط الأخضر الذى نتجمع حوله فى الوادى مثلمـا يتجمـع النمـل حـول آثار"سرسوب" عسل أسود. أنا شخصيا لا أذكر أن عبد الناصر ــ أو غيره ــ قد أفهمنى كل الذى قالـه زميلى هذا، وإن كنت أعرف أن ما بدى من سطحيته وغروره وقصر نظره قد برر لصديقى أن يجعله مسئولا عن غربتـه التى يبدو أنه لا يتحملها رغم التجنس والتأمرك، فراح صاحبنا يرسم حول نفسه "مصر بديلة"، وكأنه بتشبيهه معالم ما حول بوسطن بمعـالم القـاهرة قـد نقـل مـصر إلـى ولايـة ماساشوستس الأمريكية مادام لم يستطع هو أن يعود الى مصر. وأحاول أن أهدئ من غلوائه، فأضحك معه قائلاً "حاسب على نفسك يا أبو على (اسمه حسن حسن على)، حتى لا تأكل الأحماض بقية جـدار بطنك" (وكانت قرحة معدته من ضمن علامات توتره المزمن) فلا يرد مباشرة وينطلق يحدد اتهام عبد الناصر بأنه السبب فى ما آل اليه، حتى القرحة فعبد الناصرمسئول عنها، أليس هو الذى أكرهـه فـى عيشته، وهو الذى خدعه بما هو ليس نحن، إذ نفخ فى صورته دون حقيقتنا حتى انتفخ ثم فـشّ فجـأة حين سافر وتبين الحقيقة.

يبدو أن صديقنا هذا حين ارتطم بحقيقتنا "(حقيقة مصر) الموضوعية" بعد أول سفرة له إلى إنجلتـرا تبين أننا كنا نزرع ونصنع ونبدع ونتحضّر بالخطب والتحريض أكثر من أى فعل موضـوعى ممتـد، وأحاول أن أهدئ من ثورته التفريغية فأمزح وأنا أقول له إنها "أرزاق؛، فما ذنب عبـد الناصـر فـى اخضرار أوروبا وأمريكا هكذا؟ فيصيح دون تردد: إنه (عبد الناصر) راح يمد الخطى فى غير اتجـاه الواقع، قـفز بنا فى المجهول، فهبطنا بلا مظلة إلى أرض غـُفل، أسقط علينا أحلامه فرُحنا نرقص ونحن نهتف له، بدلا من أن نزرع ما نستطيع فى تراب وجودنا المتواضع، وبدل أن نعيش على قـدرنا لنكبر واحدة واحدة، ونتعلم ممن سبقونا، ونحترم قدراتنا. ألتقط الخيط مرة ثانية وأقول "وحتى إذا صـح ذلك فلماذا تركتَـنَـا وجئت إلى بلاد الآخرين؟ ثم تبدو وكأنك تعايرنا. "فيعود يلقى إلىّ الكرة صـائحا "البركة فيك إفعل ما يمكنك، أرنَا شطارتك، وسوف ترى ماذا سيفعلون بك، فمـا زال عبـد الناصـر يحكمكم من داخلكم، ومن خارجكم وأنتم لا تدرون، أُخرج إلى الخارج، أخرج من نفسك، وانظر مـن بعيد وسوف ترعبك الرؤية الحقيقية فتفيق، أو تستسلم،"

فأسكت غير مقتنع، ولا معترض تماما.

تذكرتُ كل هذا وأنا أسترجع أين كنت أسبح منذ تركت الطريق السريع بعد أن خرجنا من باريس إلى الجنوب فى طريق العودة، كنت أسبح فعلا بين أحضان موجات الخضرة المتلاحقـة علـى اخـتلاف درجات خضارها، وكأنى أغوص فى طبقات بلا نهاية من الأشجار والأزهار والمحاصيل والمراعـى، وأقول لربنا: (لا لعبد الناصر): أما آن الأوان؟ أما آن الأوان؟ والى متى سـنهرب مـن واقعنـا إلـى

أحلامنا، ومن أحلامنا إلى أمريكا حيث تُجتث الجذور ليتوقف التواصل بيننا وبين أولادنا. صديقى هـذا ــ حسن حسن على ــ نفسه يكاد يكون غريبا عن إبنه هناك:

حين وصلنا إلى منزله (كوخه الجميل ــ أو قل قصره الصغير) فى عربته الفارهة فى بوسطن، لمحنا شابا فى حوالى السابعة عشرة من عمره يلف بدراجته الرياضية الجميلة، وقد مرّ بنا وأشار لنـا بيـده أنْ: "هاى" فتمتم زميلى هذا رادّا أنّ "هاى"، لأعلم بعد قليل أنه ابنه من أمه المصرية لحما ودمـا، فمـا لهذا الشاب لم يعتن بلقائنا، ولم يرحب بنا ولا بوالده، ولم ينزل من على درّاجته مثلما اعتدنا عنـدنا؟ أو يهم بفتح باب الجراج مثلا. على أنه لم تكن ثمة حاجة إلى معونته، فقـد وشـوش صـديقى"جانـيّا" تكنولوجيا فى عربته أن "افتح ياسمسم" فانفتح باب الجراج وحده دون حاجة إلـى معونـة ابنـه هـذا، ودخلنا.

وأحسب أن مضيفنا قد قرأ أفكارنا تجاه ابنه وغياب زوجته على الرغم من علمهـا بقـدومنا، فأخـذ ينادى أن " ياعمر ياعمر" ولستُ متأكدا -رغم التزام صديقنا بطقوسه الدينية ــ لست متأكدا إن كان قـد أسمى ابنه هذا على اسم عمر بن الخطاب أم عمر الشريف، ولم يرد عمر فـورا، لكنـه عـاد يتمـتم بكلمات فيها "دادى" وما أشبه، فجعل الوالد يستدرجه فى رفق أن سلم على أعمامك "من مصر"، فكـان أنْ، "هاى" أخرى، قلت فى سرى "هاى عليكم ورحمة الله وبركاته"، وتلف الدراجة بنفس السرعة ،

أنا شديد الحساسية لقياس نجاح الوجود الأبوى (أو الحل الوالدى) بنوع النتاج البنوى، وقـد أشـرت كيف أنى كثيرا ما أخطئ و أقيس أفكارى وأفكار من أعرف (ومواقفنا) ــ وخاصـة اذا تمـادت فـى المثالية والادعاء ــ أقيسها بما أنتجت هذه الأفكار مجسدا فى طبيعة وجود وسلوك أولادى وأولادهـم، همست لنفسى ــ مخطئاً ــ أنه بهذا المقياس، فإن عمر "هـذا" يعلـن فـشل أبيـه الأسـتاذ الطبيـب الأمريكى/المصرى بشكل أو بآخر، فوالده الذى لم يستطع أن ينتزع مصر من داخلـه، فـراح يرسـم لنفسه مصر خيالية فى بوسطن، هذا الوالد قد "أسقط" كل سخطه على عبد الناصر، وإحباطه فى مصر، أسقطهما على ابنه فانتزع من جوهره كل ما هو مصرى بحق، فلم تبق ثمة "علاقـة" بـالوطن الأم إلا اسم"عمر" أو بعض طقوس دينية، من يدرى، وربما تبرٌّع، أو إعلان، أو احتجاج (فى حب مـصر!!!!) ثم إن هذا الوالد نادى ابنه من جديد ليلتقط لنا صورة "تذكارية". جاء الولد علـى مهـل ممـسكا بآلـة تصوير جاهزة، ثم قال لنا فى عجالة أن: "قل جُبن"**say cheese**، فلم أفهم، وترددت، فكررهـا، وجعـل والده يستجيب له دوننا، فخجلت،وترددت حتى أنهى الشاب مهمته، وصوّرنا، ثم انصرف مـتململا، أو باسما بسمة لا طعم لها، ألعن من التململ.، خطر ببالى أن تكنولوجيا التصوير الحديثة تجعل الكـاميرا تصوّر حين تسمع مِن الذى سوف يتصوّر كلمة بذاتها تفك شفرتها !! هذه الكاميرا مع الولـد ربمـا لا تعمل إلا إذا قلت لها "تشيز" (جبن)، وربما لو كانت الصورة بالألوان فإن كلمة السر ستصبح "حـلاوة

طحينية"، مثلا، أما كاميرا الفيديو فقد تحتاج أن نقول "محشى ورق عنب " وهكذا، من يدرى؟ كل شــئ بالكمبيوتر جائز والعياذ بالله، تجرأت وأعلنت أفكارى هذه ساخرا، فراح صاحبى يــشرح لــى الــسر الأعظم: وهو أن إبنه طلب منا ذلك ــ حتى إذا نطقنا "تشيز" كشرنا عن أنيابنا بطبيعــة نطــق الكلمــة وكأننا نضحك فنبدو فى الصورة بــُلــَهاء مُنْفرجى الأفواه، ظاهرى الأسنان (أكثــر بياضـــا!!)، ولــم أتمالك داخلى أن يصيح "يا خبر مثل الهباب" حتى الضحك أصبح زائفا، فماذا لو صورنى متجهما ألعن ملــّة أهل أى أمريكى لئيم، هماز مشاء بنميم؟ أو وأنا متألم سارح خجل مما آل إليه حالنا؟ أليس هــذا أصدق وأكرم؟ فإذا تصادف أن صورنا ونحن نضحك لنكته مصرية، فليكن، وحتى إذا كان المــصوِّر مصرِّا على أن نظهر فى الصورة فرحين ببيتهم وحديقتهم فليطلب منا أن نبتسم ونحن وشــطارتنا، إن نجحنا كان بها، وإلا فيمكنه أن يمزق الصورة بعد رحيلنا،

جعلت أعابث صديقى المضيف بأفكارى هذه، محاولا فى نفس الوقت أن أسرِّى عن صــديقى المتــألم الذى كان يتابعنا وهو يجز على أسنانه حتى لا نلاحظ، واستطردتُ أننا لو حاولنا أن نقتبس هذه البدعة للتصوير عندنا فلابد أن نغير فى الألفاظ فنقول: قل :"مِعيز" أو "تــِغــيظ" أو "عزيز" (مع التحرج مــن ذكر اللفظ الآخر الذى لا يغيب عن بداهة القارىء) ويا "عزيــز" يــا "عزيــز" كبــة تاخــد الانجليــز والأمريكان وكل من انتزعنا منا دون أن ندرى حتى انتزع حقيقة حجمنا المتواضــع ليغرينــا بمــا لا يكون، أو لنقبل أن نكون خدما درجة ثانية بلا انتماء، كبة تأخذ هؤلاء جميعا. لكن يبدو أن الكُبّة حتــى لو أخذتهم بالقضاء والقدر أو من فوق المنصة، لا تأخذهم تماما، فعدوان صديقنا هذا على عبد الناصر وتحميله إياه مسئولية كل ما جرى، ولومه له على أن انجلترا تزرع، ونحن "لا"، كل هذا لا يختلف عن اعتمادية وبلاهة أولئك الذين يقدسون عبد الناصر ويحسبون الزمن بحساب ظهوره وينتمون إلى اسمه، هذا وذلك جميعا من مخلفات العبودية الشائهة المشوهة، لا أكثر ولا أقل، ويبدو أنهــا مازالــت تحتــل وجداننا وتغلف وعينا مهما بعد بنا المسار أو تأمركنا أو تَــسَــقْــيَــثْــنَا.

تنبهنى ابنتى الصغرى، منى السعيد، ــ المرشد الذى عليه الدور ــ أنى لم أطلب اليوم ما يكفى مــن وقودى من المياه الغازية المنعشة، فأنتبه أننى لم أفعل فعلا، ربما لأنى أرتــوى مــن هــذه الخــضرة المتعددة بما يكفينى وزيادة، ولكن تنبيهها يدعونى أن اعتدل فى وقفتى التأملية، لأنظر الــى علامــات الطريق، فأجدنا قد اقتربنا من انحناءة تخرجنا من الطريق السريع الى "ديجون" **Dijon**، فتهــب ريــح "دول" **Dole** وسلسلة جبال الجيرا.

أتذكر كيف كنت أخرج من مدرسة البنات مبكرا مبكرا متلفعا بعباءة المرحوم حماى، وكأنه يؤانــسنى بدفئه وطيبته وصمته وأميته فى هذا الصقيع الرائع، تلك العباءة التى كانت من فرط فرحتى بها وتعــدد استعمالاتى لها: تكاد تحاورنى حين تلتف حول رأسى، أو تتدلى بجوار جسدى، أو أوسدها وسادة تعلى

رقبتى (كما اعتدت) أو أضيفها غطاء إذا خف الغطاء، أو أجمعها فى حيز متواضع فتضم نفسها وتقبع منتظرة إياى، ولى فيها مآرب أخرى: رحمه الله.

كنا فى فى "دول" فى أجازة رأس السنة (١٩٦٨ ــ ١٩٦٩)، وكنت أنطلق فى الصباح الباكر فى صقيع أول العام، ألفُّ لفَّ المحب الخجلان من اعتافه بمشاعره حتى لنفسه، الخائف من اكتشاف ضعفه، المقتحم الصابر على وحدته، ولم أكن أعرف أنى كنت كل هذا، أو بعض هذا، ولكن هأنذا، بعد كل هذه السنين أتعرف على نفسى ــ حينذاك ــ وأرانى وأنا أخطو فوق طبقات الجليد، وأتحسس أنفى لعله مازال فى مكانه، وكأن ثلج تلك الأيام والأماكن قد جمّد الخبرة فظلت محفوظة حتى عادت تتحرك الآن حين أتيحت لها الفرصة، وأتمنى أن يشاركنى أحد رفاق رحلتنا هذه أى شئ مما أنا فيه، ولا أطمع فى أكثر من التمنى، فمن أين لهم بأى جليد، أو عباءة أو أنفٍ يتحمّدْ أمشى، فلا أتمادى فى التمنى.

عبرنا خارج "دول" **Dole** سريعا دون أن ندخلها، واتجهنا إلى اختراق سلسلة جبال الجيرا، وقد سبق لى أن اخترقتها مرة ثانية أواخر عام ١٩٦٩ وأنا أوصل زوجتى وإبنى إلى فينسيا، وكان يطيب لى أن أقارن بينها وبين سلسلة جبال الألب، وهى تقع فى الجانب المقابل من بحيرة ليمان، ومازلت أشعر أن سلسلة الجيرا هى أطيب وأرحب من الألب الشامخة المتحدية فى صلافة، فللجبال حضور كما الإنسان ، وقد حدثتنى جبال سيناء واحدا واحدا كل بلغته، حدث ذلك لاحقا حين زرتها مرارا، أحسب أن من ينصت جيدا لحديث الجبال، حتى وإن انعدمت الخضرة عليها ومن حولها، لابد أن يعاملها ككائنات حية "تقول" "وتسمع" وتحب ولا تغضب، لكنى نادرا ما وصلنى أنها تكره.

كان عجبى شديدا وأنا أدخل المدينة المنورة من الشرق قادما من "القسيم" (قائدا سيارة أيضا) حين واجهتنى تلك القمم السوداء وكأنها عباءة حماى، تحمى قبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وحين مضيت من المدينة إلى مكة، قبل تمهيد الطريق مثلما هو الآن (كان ذلك عام ٦٧) أخذت أنظر إلى كل هذه الجبال وأتذكر رحلة الهجرة، وأعجب لتصورى السابق من أن الهجرة كانت إلى مكان أقرب، فى صحراء أسطح، فاذا بها مئات الكيلو مترات، وسط سلسلة متحدية من الجبال ناهيك عن الهجرة الأولى إلى جبال الطائف، جبال كلها "تقول"، كلها "تقول"، وصدقونى، ومن لا يصدق، فليرهف السمع إذا أتيحت له الفرصة، ولسوف يسمع حتما ما تقوله الجبال، كل الجبال بكل اللغات.

لكن جبال الجيرا تقول، وتعزف، وتغنى معا. أعبرها هذه المرة بشكل جديد، وأمان مادى جديد، مع صحبة جديدة، وقد تقدم بى العمر لكنى أكتشف أنى أنبهر بها بدهشة أخرى طازجة فتية ــ كأنى أراها لأول مرة. رؤية الجمال فى ظروف غير ملائمة تصل إلينا كأنها مسودة سريعة، أو خطوط عامة (اسكتش) لما يمكن أن يحتوى ويقول، فإذا أتيحت رؤية ثانية، فثالثة فى ظروف مختلفة ملائمة، فان

هذا "الاسكتش" يتحول إلى واقع نابض، ثم يتكشف عن طبقات بعد طبقات فى كل مستوى منهـا شـئ جديد، هيرقليطس يقول إن الإنسان لا يستطيع أن ينزل نفس النهر مرتين، بلغنى الآن أن ذلك لا يرجع فقط لأن النهر جار فهو ليس هو نفس النهر أبدا، ولكن أساسا لأننا نَحْن لسنا نحن فى اللحظة التاليـة. إننى أتخلق من جديد مع كل ما أرى وهو يتخلق بدوره، بى، فيتجدد انبعاث المستوى تلو المستوى تلـو المستوى من الجمال المتعدد الطبقات والمتفرع المقولات، موجات البحر التتالية ليست أبدا هـى هـى، ولا موجة واحدة، تتكرر، كيف يفضل أحادى حمام أسباحة على الحر ؟ حتى الجبال برسوخها و ثباتها أستقبلها كموجات بنفس الطريقة، ولكن من باب وعى متموج آخر، وقد كنت أحب البحر قبل أن أتعلـم العوم مؤخرا مثلما أحبه الآن، بل إننى كنت أنزل فى الصباح الباكر وأنا أحذق العوم أقفز وحدى فـى حضن موجه عملاقة، كانت عباءتها تهدهدنى وتحمينى فى نفس الوقت من احتمال سحبى فـى البحـر الهائج، (انظر إن شئت الترحال الأول).

أبطئ بالسيارة وكأنى أتمهل مضغ لقمة سائغة، "أحرك داخلى لأرى ما سبق أن رأيـت: لـيس كمـا رأيت"، فقد كانت انشغالاتى الحياتية آنذاك تمثل حاجزا ما، لكنه حاجز مسامىّ غير مصمت، استطاعت الرؤى أن تنفذ من خلاله لتستقر، حتى أعود لأجُـرّها هكذا:

نبدأ فى الصعود فى جبال الجيرا الملتوىة قليلاً قليلا، ثم كثيرا قليلا، ثم كثيرا كثيرا، ثم قليلا، وهكذا، والأولاد يطربون بعد أن اعتادوا اللعبة، حتى لم يعودوا ينطلقون فى الغناء بغية أن يغـالبوا تـوترهم، فأستثير مشاركتهم، فىتلكأون، فأنتهز فرصة صعود سحيق، وأبدأ أنا هذه المرة الأغنية التى ترجمتـها ــ لهم صغارا لتؤدَّى بالعربية بنفس اللحن، تقول الأغنية ذات الأصل الفرنسى:

هىَّ نازلة مالجابل عالحصان،

هىَّ نازلة مالجبل عالحصان ،

هىَّ نازلة ملْجابَالْ، هيه نازلة ملْجابَالْ، هيه نازلة ملْجابَالْ، عالحصان

هبىَّ يايايا، هبِّـى يا.

وهكذا. إلى أن تقول:

هىَّ شايلة مُسَدّسَاتْ فى الحزامْ ،

هىَّ شايلة مُسَدّسَاتْ فى الحزام. أو:

هىَّ شايلة مُسَدّسَاتْ، هيه شايلة مُسَدّسَاتْ.هىَّ شايلة مُسَدّسَاتْ: فى الحزام.

ثم

هىَّ قابْلِتْ جدّها وهيه نازلة.

(نفس التكرار)

هيَّ بَاسِتْ جدها وهيه نازلة ،

(نفس التكرار)

ياريتنى كنت جدها وهى نازلة.

ياريتنى كنت جدِّها، ياريتنى كنت جدها، ياريتنى كنت جدها وهىّ نازلة.

نقولها مرة بالعربية، وأخرى بالفرنسية، ونهتز معها وتهتز العربة وكأنها ترقص.

أتصور كيف يمكن أن تتهم هذه الأغنية البريئة الجميلة بأنها تخدش الحياء .

أغانى الفلاحين الطيبين الشرفاء فى بلدنا كانت تقول ألطف من ذلك وأصرح، ولم تخدش حياء أحد، ولم تفسد دين أحد، بل إن ما تحمل أغانى أهل بلدنا من رموز جنسية رائعة، أعتبره من أنجح الكلمات التى تزيل الحواجز بين طبقات النفس، وأيضا فيما بيننا، تزيلها فى طيبة جماعية سلسلة وحياء دافئ.

علمت "الود الجنسى"، "واللمز الجنسى" من أغانى قريتنا، كما تعلمت الجنس العارى من حيوانات وطيور قريتنا، ثم من كتب صفراء مفيدة (أنظر قبلاً) مثلا، أغنية تحضرنى أغنيه جميلة الآن تقول:

يا سرير النوم عجلاته حلاوة بيضا، عجلاته حلاوة بيضا،

أخطرى يا عروسه وتعالى فى الأوده، وتعالى فى الأوده،

اسكت يا عريس دنا فرحانة، دنا فرحانة،

....

يا سرير النوم عجلاته بمبى، عجلاته بمبى،

أخطرى يا عروسة وتعالى جنبى، وتعالى جنبى،

أسكت يا عريس دنا.... الخ

أستعمل بعض هذه الأغانى فى علاجى لبعض مرضاى الذين يخشون "الليلة" الأولى"، أو يتصورون فشلهم فيها، أو يفشلون فعلا، فكنت أقول لأحدهم: عليك ألا تراقب نفسك، ألا تفكّر ولا تتساءل عن رأيها فيك، ألا تنتظر إذنها كلاما منطوقا، لقد أذنتْ، أليست عروسك؟ هى آذنة دون إذن، ثم أحكى له الأغنية التى استقيت منها كل هذا قبل أى علم مستورد،، وأطلب منه مازحا (جادّا) أن يحفظها، وأحيانا أحفظها له:، تقول الأغنية:

ليه يانا يانا، ليه يا غرامى

خايف أقولكِّ، ولا ترضيش

وإن مارضيتش لانزل واقايس

واحط عينى فى وسط راسى

أرضى لك انت ياسى "فلان" مارضاش لغييرك.

(....ويذكر اسم العريس تحديدا محمد، إبراهيم، عتريس)

وكنت أؤكد على حكاية، "خايف أقوّلك، ولا ترضيش"، لأن هذا التردد، وفهم ظاهر التمنع باعتباره رفضا، هو الذى يوقع بعض الرجال البكر فى ذلك الخوف، ومن ثمّ تصوُّر العجز؛ وكان الصديق الهائب (المريض) الذى يسمعنى أستشهد بهذا "الأصل" يطرب ويفهم أكثر بكثير من شرح النظريات العلمية التى تفسّر صعوبته بعقدة أديب وعقدة الرضا. فإذا وصلنا الى أنه رضيت به وله بالذات، دون غيره، على سنة الله ورسوله، داخله زهو أذاب بقايا خوفه.

فانظر معى ــ فقهك الله ــ كيف تُربينا الأغانى المزعومُ قُبحها وخدشها للحياء، وكيف تؤدى وظيفتها الوقائية، وكيف تحرك مشاعرنا فى طيبة حانية، أفضل من كتب التربية الجنسية التى يكرر محتواها مدرسون لا يعرفون الجنس أصلا حتى لو ملأوا الأرض ذرية!!

أشعر من جديد أننى أفضّل رحلة السيارة لأنها تسمح بهذا الاقتراب المباشر من الفطرة. فالطبيعة خليقة بأن تفجر فطرة كل من ألقى السمع والوعى وهو شهيد، فمتى يدرك الناس أن دين الفطرة هو الذى يتعهد فطرتنا بالتنمية، فالانطلاق، وأن الفطرة المنطلقة المتفجرة الهادئة الهادية هى أصل كل الأشياء؟

يثيرنى، فى نفس الاتجاه أن أتذكر تلك الليلة التى كنا فيها فى "دول" وذهبنا نزور كهفا من الكهوف التى يصنعون فيها النبيذ، أو ما شابه، وأذكر أن النبيذ كان اسمه "النبيذ المجنون" Vin Fou وكان المسئول عن الرحلة رجل ناهز الستين ضخم الجثة كجثة أنطونى كوين، واضح الملامح كأنه توفيق الدقن، أحمر الوجه كأنه مستر تشرشل. أخذ هذا الشيخ الشاب يردد الأغانى كالطفل المتأرجح يوم عيد طيب، وهو واقف وسطنا فى الحافلة الكبيرة، ونحن نرددها وراءه، وبعد عودتنا اعتبر المسئول الأكبر أن هذا الذى فعله مرشدنا الطفل الكبير الحجم الجميل الحضور هو النجاح المطلوب تماما لتوصيل روح فرنسا الحضارية، لمبعوثى العالم الثالث الذين هم نحن،

وكان من بين ما أنشد هذا المرشد الشاب (!!) الطفل الفحل أغنية تبدو شديدة الصراحة، وهى فى عمقها شديدة الذكاء والرقة، كانت كلماتها تقول:

"جانوتون" أخذت فأسها، (لاريناتو لاريناتو ــ أو: لا غيناتو... الخ)، لتحصد القمح حصدا، فى الطريق قابلتْ أربعة صبيان حلوين وأشقياء (لاريناتو... الخ)، ــ كان الأول خجولا، فقبّلها على ذقنها، (لاغيناتو... الخ)، ــ وكان الثانى أقل تعقلا فرفع طرف "جونيلتها" البيضاء ــ أما الثالث فكان أقل فأقل تعقلا فأوقعها على الحشيش، لكن ما فعله الرابع لا يمكن ذكره فى هذه الأغنية،

وتنتهى الأغنية بإعلان الحكمة من كلماتها قائلة:

إن مغزى هذه القصة هو أن الرجال خنازير

ثم تردف :

لكنّ مغزى هذا المغزى هو أن النساء تحببن الخنازير.

وأعجب لهذا القدر من التلقائية التى كنا نعيشها دون أن تثير فينا "أدنى الغرائز" بل أكرم "الضحكات" وأرقى المشاركة، وحين يكشف الناس بهدوء واحترام طبيعة هذه النزعات الفطرية التى خلقها الله فينا، يأتيها الهواء المعرفى النقى فيقترب بعضنا من بعضنا فى تكامل لابد أن الله يحبه،

سبق أن أعلنت حذرى فى هذا العمل وغيره مما قد ننحدر إليه تحت عنوان محاربة الأغانى الساقطة وعدم خدش الحياء، وكأننا لانعرف كيف نفرق بين "الحياء" وبين "الكبت"، بين الحياء الظاهرى الــذى ندعيه، والقتل الخفى الذى نحمله بين جنباتنا، دفاعا عن دفاعاتنا المجمدة المتجمدة.

تبدأ السيارة فى الهبوط الحاد، وعادة يبدو لى الهبوط أصعب من الصعود، لأن السيارة تندفع وتسحبنا سحبا ما لم نكن فى أتم حالات اليقظة، وكنت أشعر أحيانا أن قلبى يسبقنى "إلى تحــت" مــع الــسيارة المندفعة، قبل أن يلحق بهما تحكمى، وننزل أكثر فأكثر، هابطين الى تحت (العــسل النحــل!!) لأنـــى تذكرت تلك الأغنية العارية أيضا، وأقارن فأقول أنه إن كانت الأغنية الفرنسية قد "حــضرت" ونحـــن نصعد الجبل فى لطف ودندنة، فلتحضر أغنيتنا الريفية تغنى أيضا فى لمز وتورية:

يالـلا بينا على تحت،

العسل النحل

العسل النحل

لبّــــسته البدلة البمبى

قلعته البدلة البمبى

واحدة واحدة على جنبى

وانت نازل على تحت

العسل النحل

العسل النحل

ثم البدلة الحمراء، والبدلة الرصاصى، وفى كل بدلة: واحدة واحدة على جزء حساس مـــن جـــسدها، لحين ينزل "على تاحْت"، "العاسَال الناحل"

هكذا خلق الله البشر، فأين خدش الحياء رحمكم الله.

ثم إن العلانية والجماعية فى هذه الأغانى الجميلة تحمل ما هو تعليم رقيق خفـــى، والعلانيـــة ليـــست فجورا ولا قبحا، العلانية تؤكد ــ إذا ما تناسقت بمسئولية ــ نقاء الفطرة، والتشرف بشجاعة الإعــلان عنها، وسلاسة انسيابها.

أقول لنفسى إن كل ما خالف الفطرة باطل ومعوق ومؤقت، ثم يا ترى حين تنهار هذه الحواجز الكاذبة بيننا وبين فطرتنا بالانفجار، أو حين تخفت بالهمود، ماذا سيتبقى من نبض البشر النامى؟

نقترب من الحدود السويسرية (إن كان ثمة حدودا حقيقية) ولكن قبل أن يتمادى الهبوط المتلاحق ينادينى منظر "موتيل" صغير نظيف، فأتوقف معتزما أن أتعرف عليه، وأعرض على صحبتى وقد اقترب الليل أن نبيت فيه فيعزفون، فلم يبق أمامنا سوى ليلة واحدة، وهم يفضلون أن يمضونها فى جنيف لإحياء الذكرى أو للتحية، ولكننى أصر على الاستعلام، ولو للمستقبل، فأعرف أن أجر الإقامة فى غرفة متوسطة، بحمام كامل مستقل، لشخصين هو ٦٨ فرنكا فرنسيا (كان الدولار أيامها بثمان فرنكات إلا قليلا وكان يساوى أقل من جنيه مصرى).

أحسب حسبتى فأجدنى أستطيع أن أمضى بقية حياتى هنا بلا عمل، (من أعمالى القهرية!!) فى هذا الجبل قريبا من نفسى، من الله، من كَلِمَتِى وخبرتى، فماذا يدفعنى بعد ذلك للعودة، فالشقاء، فالتحمل، فالمحاولة فالإحباط؟ وماذا يمنعنى أن أعتزل الآن ما دمت سأواصل العطاء بلغة أخرى، من موقع آخر، سدادا لدينى للناس؟ نعم من موقع "الكلمة" و"رصد الخبرة"،(وكلام من هذا)، ولا أجرؤ أن أعلن أفكارى هذه لرفقتى، وخاصة زوجتى، فأبتلعها دون أن أنساها، وأحتفظ بصورة المكان فى ركن خاص من وعيى، وأقول له هامسا: رغم كل شئ فإنى عائد إليك حتما، متى؟ هذا ما لا أدريه.

لا أنتبه هذه المرّة بوضوح إلى أن علة "الحنين إلى الركن" قد عاودتنى، فهى أحيانا ما يصاحبها بصيرة حادة، و كثيرا ما تتخفى وراء حجج تبريرية تغطيها، أوتعطيها اسما حركيا خفيا (مثل التفرغ، والإنجاز، والإبداع، وإعادة الولادة وكلام مثل كلام الخطبة العصماء التى ذكرتها حالا، ومثل كثير من الذى سيأتى ذكره).

نمضى هبوطا، والآذان تمتلىء، وبعضها يصفر، والأدمغة تصفق، وبعضها يطقطق، ويعضنا الجوع، فنحن لم نتوقف منذ الصباح، بل منذ أمس!!، فنتوقف قبل الحدود عند محل بقالة طيبة (لاحظ تكرار "وصف الفرنجة" بالطيبة، وهذه ليست مجاملة) ونتزود بمئونتنا بالعملة الفرنسية، لأننا نعلم ما أكدته لنا البقال(ة) (كانت سيدة!)، أننا بمجرد أن نخطو إلى سويسرا سوف تشتعل الأسعار، وتؤكد لنا البقالة أنها ـــ شخصيا ـــ حين تنزل إلى جنيف، تصطحب معها حاجياتها الضرورية حتى لا تضطر إلى التعامل بالفرنك السويسرى .

ثم نمضى ونمضى حتى ننساب مرة أخرى عبر حدود وهمية إلى جنيف، ونكاد لا نلمح رجال الحدود وهم يشيرون إلينا أن "مروا" فحسبناهم من رجال المرور لا من رجال الحدود، وحين قلنا نتزود بالبنزين من محطة ظهرت، كنا نتصور أننا سنتزود بالفرنك الفرنسى، وإذا بنا نكتشف أن حللنا سويسرا شخصيا دون أن ندرى.. نفس الخبرة بين إيطاليا وفرنسا قادمين.

دخلنا جنيف بعد العصر بكثير.

مازلنا الأربعاء ١٢ سبتمبر ١٩٨٤

أبدًا لم أحب فى جنيف، الا جنيف القديمة، أما جنيف الساعة الزهرية، وجنيف حول طرف البحيرة، ومنطقة الفنادق والمحلات والبنوك، وهى المنطقة التى يتكدس فيها العرب باعتبار أنها هى سويسرا، فإنى قد كرهتها فعلا، ولم أحاول أن أبرر كرهى لها، لكن هذا هو ما اعترانى وسط السائحين من بعض أثرياء العرب، وفى كل مرة أحاول أقيم معها علاقة ما، أجدنى أفشل، وأشعر أن السويسريين، أعنى الجنيفيين يضعون مسافة بينهم وبينى (بيننا)، هل هذا هو التفاعل الطبيعى من واقع ما خبروه من الضيوف العرب الأمجاد؟، أم أنهم هكذا يحسون بالانتقاخ العنصرى والأنفة السيادية، وكأنهم يقولون: "سياحة، وأنا سيدك". تصورت أن أغلب السويسريين قد تركوا البلدة فلم يبق إلا من هو لزوم التجارة والسياحة، إذن، فهؤلاء ليسوا هم السويسريين الذين لابد أن أحبهم لنظافتهم ورقتهم ونظامهم، إلا أن ثمة أمور أخرى ربما تبرر لى هذه المشاعر السلبية.

كنت قد نزلت ــ كما ذكرت ــ فى العام السابق لكتابة هذا الكلام ــ ضيفا فى أحد فنادقهم الفخمة (فندق الرئيس: بريزيدانت Presiden) .tلم أحببه بسبب فخامته الفائقة، وكنت ضيّقا بوضعى كضيف، وضيّقا بالمسافة بينى وبين السويسريين، وضيقا بمعاملتى ــ بصفتى عربيا ــ كأى صنبور نقود، يفتحونى، فأوقع، ويدفع المضيف، فحرمونى من نفسى، ومن حرصى، و.. ومن كرامتى يا شيخ، (دون أن يمس طرفى أحد والله العظيم)، فجعلت أتطلع إلى اللافتات بالحروف العربية مثل لافتة "البنك العربى المحدود (سويسرا)، مكتوبة بالعربى والمصحف الشريف، أنا لا أترجم، وتصورت أنه لو فتح نفس هذا البنك فرعا عندنا فسنكتبه وسنقرؤه هكذا "ذى أرابك بانك أف سويتزر لاند ليمتد!!"، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قلت لنفسى وأنا أمر بين الفنادق والبنوك، "هنا يصب البترول بلا عائد حضارى، حقيقى، وهنا ــ وأمثال هنا ــ ستدفن حقبة من تاريخ أمة أعطاها الله فلم تقتنص الفرصة، فضيعت الأمانة"، سوف

لا أحد يحتاج من العرب الحاليين شيئاً غير نقودهم وأسواقهم، ثم بترولهم من قبل ومن بعد، لا أحد يحتاج فكرهم، ولا إبداعهم، ولا اختلافهم، ولا حوارهم، هم يحتاجوننا لهم بقدر ما ننزف حتى ننتهى، وهم يسخرون منا ونحن نتسفه بما أعطانا الله، خطر ببالى أننا لم نستقلّ أصلا، وحتى البلاد التى لم تُحتل ابتداء، قد سعت إلى هذا الاحتلال الجديد بنفسها وبإلحاح، وبمقابل!!!،(كتبت ذلك مثلما سبق أن شعرت به، حتى قبل الاحتلال "المدفوع الأجر") بعد خيبة العراق البليغة) وأكاد أقسم أن فخرنا بالاستقلال التام هو بلاهة ما بعدها بلاهة، فالاحتلال العسكرى الصريح له مزاياه التى لا يمكن إغفالها

من أول التنفيرللتحدى، إلى التذكير بالواقع، إلى لم شمل الفرقاء فى مواجهته، وغير ذلك كثير. أما هذا الاحتلال السرى المخادع فنحن لا نرى آثاره الا بعد أن نُستنزف، فنضعــُف، فنستجدى.

اقترح على الأولاد أن نبيت فى نفس المخيم الذى أمضيتُ فيه ليلتين سنة ١٩٦٩، فيوافقونى مجاملة، مع أنهم ألمحوا أنهم أمضوا فى طريق عودتهم فى العام الماضى ليلة فى مخيم علـــى بحيـــرة ليمـــان مباشرة وكانوا يفضلونه، وشكرتهم فى نفسى، وأحاول أن أتذكر اسم مخيمى فـــأعجز، ولا أتـــذكر إلا "الاتجاه" ناحيته، فتظهر إشارات مخيمية، أتصور أنها هى، ولكنها تؤدى بنا الى مخيم آخـــر مهجـــور، الساعة متأخرة، وليس أمامنا خيار كثير، وكان الليل قد أطبق، ثم إنها ليلة واحدة لنا واثنتين لـــلأولاد، فاستخرنا الله وقلنا نتحمل سواد الليل كيفما اتفق، المهم أن نضع جنبنا على أرضٍ ما، ونلتحف بـــسقف ما، نعم كان مخيما مهجورا، لم نلمح فيه سوى نزيل أو اثنين، وكان يبدو بلا صاحب وكأنه ترك بقيـــة الموسم صَدَقة جارية لمن يريد، وقلنا همم، وهاى، و ييا، بلا فائدة، ثم ظهرت قافلة من القطـــط غيـــر الضالة تتقافز حول شبح قائم فى الظلام (كما فى السينما!!) فتبينا أنه المسئول عن المكان يزفه ويتقدمه موكب القطط التى لا بد أنها كانت ضالة فلمـــّها، فصارت حرسه الخاص وعشيرته. كان وجهه جهما، لكنه مرحب فى هدوء صارم، وأخذ يكلمنا بلغة غريبة رجحنا أنها الألمانية من كثرة ما امتلأت لهجتـــه بالشخط والـــ "خاء ات" وما يصاحب هذا وذاك من نفخ متكرر فى شدقيه. وأنت تـــستطيع أحيانـــا أن تميز بعض اللغات بموسيقاها، أو بقراء ة ملامح الوجه والشفاه أثناء نطقها، ولكن ماذا نستفيد من تمييز أنها الألمانية (يا فرحتنا!!) ونحن لا نفهم فيها حرفا ـــ وتذكرت وأنا أكتشف من واقع الحـــال أن ثمـــة سويسريين ألمان (!!) كما أن ثمة سويسريين فرنسيون سواء بسواء، (بل وإيطـــاليون أيـــضا) أعنـــى يتكلمون بهذا اللسان أو ذاك، ولكن ـــ بينى وبينك ـــ المسألة ليست مسألة لسان، بـــل كيـــان، رحـــت أتساءل من جديد: ما الذى يربط هذه الشعوب ببعضها داخل حدود دولية (آمنة) ومعترف بها؟!!، مـــع اختلاف اللسان هكذا، وما الذى يفرقنا نحن العرب عن بعضنا عبر حدود لا آمنة ولا معترف بها (بمـــا يعنى الاستقلال الحقيقى) ونحن نتكلم نفس اللسان ومن قديم الأزمان، ومع ذلك لا يربطنا اللـــسان، ولا البيان، ولا الأمان المزعوم، ولا رَبَطَنَا حتى اللاأمان فى مواجهة الـــوحش الإســـرائيلى، إن وحـــدتنا العربية يمكن أن تسمّى الوحدة الصوتية الخطابية، فى مقابل وحدتهم الاقتصادية النفعية.

أتذكر صديقى القاسى الطفل الملحد الجميل «عبد الله القصيمى» صاحب كتاب "العرب ظاهرة صوتيه" ـــ كنت كلما زرته فى بيته فى الروضة بجوار كوبرى عباس، على النيل، رحّب بى كمـــن ينتظرنـــى بوجه خاص، عرّفنى به صديق يمنى رائع، هو على محمد عبدالله، يلقب الآن بـــ "السناتور" حين نجح لمرّة واحدة فى الانتخابات اليمنية ثم فشل بعد ذلك (ربما لأنه نبيل، وأمين، وبـــسيط، ورائـــع). كـــان الشيخ "عبد الله" (هكذا كنا نلقبه رغم أنفه) يفتح النار علىّ بعتاب ساخر باعتبارى طبيبا، وطبيبا نفـــسيا.

وكأنى المندوب السامى الراصد لكوارث الكون، وليس بالضرورة المسئول عنها. كانت حدتـــه بالغـــة وهو يتهم الطبيعة وخالقها بالقسوة والعشوائية والإضرار والظلم. حين أهدانى كتابـــه العـــرب ظـــاهرة صوتية كتب بخط كبير جميل ما غطى الصفحة الأولى حتى كاد عنوان الكتاب يختفى بين ما كتب مـــن إهداء، كان يدعونى أن أسخّر (أنا وزملائى) الطب الذى تعلمناه لإصلاح ما أفسدته الطبيعة وخالقهـــا. كتب فى إهدائه:

إلى الإنسان المداوى من هجمات وعدوانيات وجهالات وبـــداوات ووقاحـــات الـــــ.... والطبيعـــة، المداوى من كل البلادات والسفاهات والتشوهات والآلام والأخطاء فى ضـــمير وأخـــلاق وعـــضلات ونيات الـــ... والطبيعة... أى الصديق "شخصى" محبا وشاكرا وذاكرا ومتداويا"

طبعا حكاية متداويا هذه من باب المداعبة، فمثل هذا الشيخ الجليل كان يمثل لى وجودا رائعا أتعلم منه ما لا تتيحه لى علاقات المجاملة والمناورة. لم أكن أتفق معه إلا فى أقل القليل مما ينادى بـــه، مثلمـــا كنت لا أتفق مع شيخنا الجليل محمود شاكر على الجانب الآخر، لكننى لم أملك إلا أن أحبه جدا،

ذات مرة، زرته بعد وفاة المرحومة زوجته، وكان قد قارب التسعين، فتح لى بنفسه (كالعادة) وكـــان وحيدا تماما. رحب بى وقام على خدمتى وأنا أحاول أن أثنيه، بدا لى أهدأ قليلا، وأكثرنحافـــة، وربمـــا انكسارا، عزوت ذلك لفقد زوجته، لم تمض بضع دقائق حتى ثارت ثائرته وتحركـــت براكينـــه التـــى يحاول أن يغطى بها إيمانه العميق وطفولته المجروحة، كان من القلائل الذين لم أستطع أن أركن إليـــه والدا، بل لعل العكس هو الذى حدث.

مرة أخرى وجدت عنده أربعة شيوخ أفاضل من مصر واليمن والسعودية والعراق، وكـــان الجميـــع يرتدون الجبة والقفطان والعمامة (ما عداه طبعا). كانوا أصغر منه سنا. لعلهم من تلاميـــذه الأوائـــل. عرّفنى بهم. رغم الاختلاف البادى فى المظهر والفكر، لا أذكر إلا أنهم كانوا يحيطونه باحترام وحـــب حقيقىن. كما كانوا يتجنبون الدخول فى التفاصيل حتى لا تشتعل النار أكثر،

تجرأت هذه المرّة مؤتنسا بحضورهم وقلت له عن رأيى فيما يصلنى منه من إيمان راسخ، وأن ثورته المزمنة هذه على الطبيعة وخالقها لم تنجح فى تخليصه من عميق إيمانه، تعجّبت لاستجابته. نظر فـــى الأرض يخفى ظل ابتسامة، ثم رفع رأسه وداعبنى، فأكملت جادا كالمداعِب أننى أتصور، أو آمـــل، أن الله سبحانه سوف يتغمده برحمته فى آخر لحظة، أو حتى بعد آخر لحظة، وأنه ســـوف يعطيـــه مقلبـــا ويدخله الجنة. ضحك المشايخ ولم يعلّق هو، وصلنى منه – لست متأكدا – خليط من الحمد، والـــشك، والرفض، والتخوّف.

كان سخطه على العرب يصل إلى درجة الإهانة ،

كان يردد بفخر وعرفان موقف البرلمان المصرى فى الأربعينيات حين قبل إيواءه بعد الحكـم عليـه بالإعدام فى السعودية. (حسب ما تسمح به ذاكرتى الآن)،

لم يكتف أن يسب العرب فى كل صفحة من الثمانمائة صفحة التى يحويها كتابـه "العـرب ظـاهرة صوتية" وإنما كتب على الغلاف ما كرره حرفيا على الصفحة الأولى:

"إنه لا أضْيَع أو أخْسَـر أو أرْدَأ حظًا ومجدا من كتاب عظيم أو جيد يتكلم اللغة العربية ويكتب بهـا مخاطبا الإنسان العربى... إن اللغة العربية لن تكون إلا كفنا لكل فكر أو معنى عظيم أو حر أو صادق أو شجاع أو مبدع يكتب بها، أى لو كتب بها وهل حدث أن كتب بها؟"

لم يكن ينكر على العرب وعلى اللغة العربية حاضرها فحسب بل وماضيها أيضا، ومن أشد ما لفـت نظرى هجومه على المتنبى مثلا فى الفصل الذى أسماه "المتنبى يروى معارك سيناء والجولان".

قبل أن أتمادى فى رفض رفضه حضرنى موقفى الباكر فى القصيدة التى أرسلتُها فى سـن ١٤ سـنة لشيخى محمود شاكر واصفاً فيها ناسَنَا بأنهم:

"فحتًى المحاكاةُ لم يتقنوها: مسوخ قرودٍ بقايا بشر" .

هذا الشيخ الجليل يصرخ ألما لم أعرف مداه إلا مؤخرا.

إن حال العرب صعبة فعلا.

فى سفرة عاجلة،(١٩٨٠) انتقلتُ فجأة من باريس إلى بلد عربى، مرورا بالقاهرة لليلة واحـدة، كنـت منفعلا جدا ضد سلبيات ما هو "غربى؛ كان قد حرّكنى فيلم "كل هذا الجاز"و "آخر تانجو فـى بـاريس" (كما أشرت سابقا) وإذا بى أجد نفسى فجأة فى مواجهة سلبيات وخيبة ما هـو عربـى، خـلال ثمـان وأربعين ساعة، فوجدت نفسى غراقاً فى كذبة آسنة أكثر إثارة: جزعتُ حتى قلت:

وبلادٌ تركبها الفِيَلة،

والناس تُساقْ.

أفكار الواق الواقْ

النقش الوهمُ على الأوراقْ.

المنزول الترياقْ.

......

أبشرْ بالخير. أبشرْ بالشر.

لا فرقَ اليوم: الأحد السبت الجمعة.

والناس سواسية والرجل السمعة.

....

والثورة "سابقة التجهيز".

تشفى كل الأوجاع

آلام الرؤية، ولزوجة الاستماع

إلى أن قلت :

فضّ الشيخ بكارة عقل الأطفال السُّدَّجْ.

أقرأهُم فأعادوا لغة العصر الأعرجْ.

باسم الموت الذهب الأصفر والأسود،

الأشطرُ ألزجْ، والأحوجُ أغنجْ.

والقرش لمن يحذقُ خَطْفه، أو ساسَ الناسْ.

....

لا تسأل عن شئ إن يظهر لك تكفُرْ.

فاشكرْ، واصبرْ.

من حضر القسمة يقتسمُ.

من أخذ الصرة يبتسمُ.

كيف –قبل ذلك– كنت ألوم المرحوم عبد الله القصيمى على كل هذه القسوة وهو يرفض كل عربـــى؟ ثم أقول أنا هذا الكلام. الآن أتاكد أن شعرى – مهما تواضع – أكثر جسارة منى .

وكيف – بعد ذلك – استجبت لسامح كريم وهو يطلب منى أن أرد على قصيدة نـــزار قبـــانى "متـــى تعلنون وفاة العرب" علماً بأننى أحب شعر نزار حبا جما، ذلك الشعر الذى يذكرنى بتحدى محمد عبـــد الوهاب أنه يستطيع أن يلحن سطور خبر فى الأهرام. نزار يجعل من الكلام الدارج جدا شعرا جمـــيلا جدا، مرّة ذكرت للأستاذ نجيب محفوظ شعر نزار وسألته عن رأيه، قرأت رأيه فى إشراقة وجهه أكثر من تشبيهه بأنه شعر "مثل العسل النحل"، أنا لا أحب العسل عموما لا النحل ولا غيـــر النحـــل، لعـــل نجيب محفوظ كان يقصد كيف تجمع النحلة نقطة العسل مكثفة من رحيق الزهور، وكيف أنها طبيعيـــة بلا أدنى تكلف، فعلا هذا هو شعر نزار، فلماذارفضتُ التشبيه آنذاك، تشبيهات نجيب محفوظ لها عمـــق خاص. تذكرتُ تشبيهه لموسيقى الشيخ زكريا أنها مثل "التقلية". مع كل هذا، ومـــع شـــجبى شخـــصيا للعرب كما سلف، كتبت ألوم نزار على قصيدته، وأرفض هذا النوع من الشجب، كما رفضتُ شـــجب القصيمى، بل وشجبى لهم (لنا) شخصيا. إننا بالمغالاة فى موقف الشجب هكذا لانضيف شـــيئا، نكتـــب شعرا، ثم نتراجع عنه نثرا (مثلما أفعل أنا الآن)، أو ينسخ نزار شعره السابق فى ١٩٦٧ بشعر لاحـــق بعد وفاة عبد الناصر، فلا ينفع هذا أو ذاك فى حفز إفاقة مناسبة .

حين كتبتُ ناقدا قصيدة بشار فى الأهرام حضرنى كتاب عبد الله القصيمى الذى استطردت إليـــه الآن، ثم هأنذا يحضرنى هذا الموقف الحكمى الذى اتخذته شخصيا، وكأنى حين خاطبت نزار كنت أخاطـــب القصيمى، ونفسى، معا. قلت:

سيدى نزار، يقولون فى بلدنا على من يبصق: إنه إذا رماها إلى أعلى سقطتْ على وجهه، وإذا رماها أسفل سقطت فى حجره، فأين سقطت بصقتُكَ يا ترى؟؟ أمَ أنك ظننتَ أنك ألقيتَ بهـــا ـــ بعيـــدا عنـــك، لأنك تنخمّتَها طويلا وعاليا، ثم قذفتَ بها لزجة ملفوفة، فإذا بها عقربٌ سام لابد وأن يلدغك أوّلا؟

ذكّرتنى يا رجل بشاعرنا العربى شوقى وهو يحكى على لسان "الست هدى" كان إذا تنخمّـــا، أرســـلها إلى السما

فلست تدرى ما رمى، أعقربا أم بلغما.

....

ثم دعنى أستأذنك لأختم ملاحظتىّ هذه ببعض ما سبق أن كتبتُه أنعى فيه ميتاً يأبى إلا أن يعلن موتـــه بنفسه.كان ذلك قبل قصيدتك بأكثر من عشر سنين (سنة ١٩٨٣) – دعنا ننتبه ألا نقتل القتيـــل ونـــسير فى جنازته...:

لا يحملُ نعشَ الميتِ قاتــلُهُ ،..

....

يقضى العصر الملثات:

أن التوقيع يتم بخط الميت،

والميت يرفض أن يعلن موته ،

بعد هذه السنين، أتصور أن هذا الكلام ينبغى أن ألقيه فى وجهى أنا أولا.

ليكن فى سويسرا ثلاث لغات، لم تمنع من أن يكون لهم هويّة واحدة، سويسرية.

نحن عندنا لغة واحدة، لم تفلح أن تجمعنا فظللنا ألف قبيلة وملايين الملوك، فصرنا لاشىء. ما لانهاية تساوى صفر ،

يغضبنى فى جنيف ماتشوه به العرب، و ما تميزت به الكلاب!!! ولا أستثنى نفسى.

ظل الرجل الألمانى صاحب أو مدير المخيم يشخط (أى يتكلم)، لكن بغير زعل، فقد كان مبتسما طول الوقت، أوهكذا أوْحى لنا الجوع والظلام، وحين فشلتْ كل محاولات التفاهم، أخرج ورقة وكتب رقمـــا، فرجحنا أن هذا الرقم هو إيجار الكوخ (البنجالوز) فى الليلة، فرضينا، ولم يكن أمامنا إلا أن نرضـــى، ومع إصرارنا وقبولنا لكل شىء، يبدو أنه أخذته الشفقة علينا ـــ بالألمانى ـــ، فراح ينصت لما لا يفهم، ويستجيب لإشاراتنا التى تطلب مرة بوتاجازا، ومرة غطاء زائدا (فقد بردت الدنيا ـــ نحن فى منتـــصف

سبتمبر يا ناس)، وزاد الأمر برودة خلو المخيم من أى صخب دافئ كما اعتدنا أن تكـون المخيمـات، وأصرّ الأولاد ــ رغم ضيق الوقت ــ أن يطبخوا لنا طبخة الوداع، ولسبب آخر: هو ألا يفسد التموين الذى جلبناه معنا من فرنسا شخصيا، وما كان لنا أن نرفض "عزومتهم " رغم عزوفنا عن قضاء آخـر ليلة بوقتها المحدود فى هذا الطبيخ، ومثله.

انطلقنا إلى جنيف البلد نودع، ولم نتمكن إلا من تحية الممشى أمام سلسلة الفنادق على طرف البحيرة، ألقينا التحيه على فندق «البريزيدانت» قائلين له أن "بنجالوزا" تخفق الأرواح فيه وتحيطه رائحة الشواء وتصدح منه الضحكة الرائقة، أحب إلينا من فندق فخم يقدم خدمة رائعة بأنوف عالية تنحنـى لقـرش وهى تحتقر صاحبَه، وهناك فى هذا الممشى الجميل المتسع أخذت أسترجع كراهيتى للمكان، فـسعدت باكتشافى أنه حتى استرجاع الكراهية هو نبع طيب لنبض حياة ثرية، إذ يبدو أن المهـم أن نحـب وأن نكره، وأن نعاود الحب وأن نعاود الكراهية فنتخذ موقفا فى كل حين، من كل شـىء، فاقتربـت أكثـر فاكثر مما أكره، حتى اكتشفت أنى أكرهه لأنى أمِـلت فيه ما يستحق، فلم يعطنى ما وعد.

ارتبطت جنيف فى خيالى (رغم عدم الود)، بالنظافة والجمال والنظام، وما أروعهـا علامـات علـى الحضارة بما تحمل من احترام الغير، وتصورت أنه بإمكان زائرها أن ينتقى مما يلقى علـى حواسـه نغمات تؤلف لحنا جميلا رائقا، لكننى وجدت ما يجعلنى أراجع تربيطاتى السابقة، فجنيف هذه الآن قـد امتلأت بفضلات الكلاب وسفاهات بعض العرب.

أما العرب فقد سبق الكلام عليهم، وأما الكلاب فقد ملأونى تحديا، وملأوا شـوارعها بآثـارهم، ولا يوجد جهاز مهما بلغت ملاحقته يستطيع أن يتابع ما تفعله "الكلاب" بالشوارع، اللهم إلا إذا عينت البلدية وراء كل كلب موظف نظافة، أو ربما ألزمت أصحاب الكلاب بـأن يتوقفـوا عقـب قـضاء الحاجـة يتصرفون بمعرفتهم فيما آذوا به شعور الأخرين والشوارع. أو ربما استلهموا مشروع "بمبـرز" مـن سنبل.

جعلت أتأمل ظاهرة اقتناء الكلاب بهذا التواتر الغريب، وكأن العلاقة بين "الجنيفى" (والأوربى عامـة) والكلاب قد حلت محل العلاقة بين الإنسان والإنسان، بل إن المسألة لم تقتصر أبدا على الكلاب، حتـى أنى شاهدت مرّة فى حديقة فى باريس بعينى رأسى سيدة شديدة النظافة (والعقل كما يبدو) وهى تجـر خلفها أرنبا مدللا(أى والله)، وقد لفـت جذعه برباط جلدى مثلمـا يفعلـون بـالمينى كلْـب (الكـلاب المصغرة الدقيقة!!) ــ فيزداد ترجيحى أن الكلاب والقطط والنسانيس والأرانب قد حلت محل الانـسان لمّا التهمته خدعة الحرية والندّيةالشكلية، فصارت العلاقات صـفقات، وصـارت اللقـاء ات مـصالح سطحية، وفُرضت الوحدة على كل ما هو بشرى "حر"، فُرضت الوحدة الصقيعية اللهم الا من فرقعـات التصادم التى تحدث بالمصادفة أو بالجذب اللحظى ثم كل ملهـىٍّ فى حاله.

يبدو أن الإنسان مازال يحتاج لمن يربطه ويتبعه، كما يحتاج لكائن يرتبط به ويرعـاه ويعتنـي بـه بخصوصية مميزة، والكلاب ــ ولامؤاخذة ــ يقومون بهذا وذاك بعد أن عجز الإنـسان والإنـسانة أن يأمنوا لبعضهم البعض،.

النظام، وهو أعظم ما يحدد خطى الانسان فى اتجاه غائى، تضخَّم فى جنيف حتى كرهته وكرهتهـا من مدخل آخر، فقد امتد النظام إلى زهور الشوارع والأرصفة والحدائق الجانبية والعامـة، فـصارت تنسَّـق بمنتهى الدقة كل صباح، أو كل ساعة، تمادوا فى ذلك حتى حسبت أن الطبيعة قد رفعت يـدها عن زهورها، ليحل محلها هذا التشكيل المحكم القاسى، وليس عندى أحن من الطبيعـة وهـى تهـدينا زهرة ما، أو ظلا ظليلا، نهذبه بقدر ما يؤكد انسجامنا مع نغمها الأصيل، أما أن نتدخل كل هذا التدخل حتى ينقلب الحال الى ما يشبه الوسواس "الزهورى" فنجد الزهور وقد اصـطبغت بـصناعة إنـسانية مفتعلة ترسم الشكل، بالمليمتر الواحد، فهذا ما أشعرنى بالمبالغة حتى كدت أشـك فـى أنهـا زهـور طبيعية، فرُحت ــ فى السفرة السابقة ــ أنقل مشاعرى هذه الى زوجتى، فتوافقنى حينا وتخالفنى حينـا، حتى إذا هممت بالامساك بالزهور الـشديدة التنسيق لأتأكد أنها ليست من البلاستيك نهرتـْـنى خـشية أن يحسب الناس أنى أهم بقطفها، وأيضا: خوفا على الزهرة من شكوكى.

تأكدت من كراهيتى لجنيف هذه المرة، فرحت أقبل على ما كَرهْتُ إقبـال الـيقظ الفـرح بـصراحة مشاعره، وكان الجو ليلا، ولسعة البرد المنعش تذكّـرنا أننا ما زلنا فى أوروبا وتحاول أن تـصالحنى، وقد حصل:

هذه مباراة فى "الباتيناج" تقام بين شباب غض ماهر نشط، ملعبها هو الرصيف الناعم الملمـس أمـام سلسلة الفنادق قرب ميدان ساعة الزهور، يحيط بالملعب بضعة متفرجين من المارة منّا، والمبـاراة ــ إن صح التعبير ــ هى بين شابين لا يتعديان العشرين، وقد لبس كل منهما حذاء الباتيناج ذى العجلات، ووقف بقية أفراد الثلة يتابعون، وقد رصوا علب الكوكاكولا الفارغة فى خط طويـل وعلـى مـسافات متساوية أو مختلفة، ويبدأ المتبارى الأول من بعيد منزلقا على عجلاته، فيمر فى خـط متعـرج يـشبه "زجزاج" بين كل علبة وأختها من ناحية إلى أخرى، بحيث لا يجمع علبتان معا، ولا يلمس أى علبة ما أمكن، فهو لو لمسها فى سرعته تلك ستقع حتما وقد تتدحرج بعيدا، يعملها مرة بكلتا قدميـه، وأخـرى بقدم واحدة، ثم بالقدم الأخرى، ويعد المشاهدون من الثلة (الحكام) عدد العلب التى لمسها (انقلبت) فـى كل مرة ثم يأتى غريمه ويبدى من المهارة ــ بدوره ــ ما يبدى وهكذا، وأقف مشدوها معجبا بكل هـذه المرونة، والمهارة، والسرعة، والتحكم.

أتذكر مهارة شبابنا التى فاجأتنى يوما من حيث لم أتصور، كانت رحلة نظمها نـادى مـن النـوادى القاهرية إلى "دهب "على خليج العقبة، فشاهدت حفلا شابا بسيطا يقوم فيه الشباب الذى كنـت أحـسبه

هشا «خرعا» مائة بالمائة برقصات أشبه بنوع من ألعاب القوى، أحب أن أسميها رقــصة الاختــراق (هذه هى الترجمة الاقرب ــ كما تصورت ــ حيث يسمونها Break dance) وفرحــت بهــؤلاء كمــا فرحت بأولئك، ولكن يا ترى: هل هذه المهارات الأصيلة (فى جنيف) أو المــستوردة (شــباب نــادى الجزيرة فى دهب) تصب فى وجود ماهر، حاذق، فعلا، متحد، أم أنها استمناءات جسدية تــدور حــول نفسها؟ أنا لا أشك فى العلاقة بين هارمونية الجسد وهارمونية الوجود،لو كان ذلك مقــصودا وتــدربنا عليه منذ البداية، وهذا غير وارد فى تصورى فى مثل هذا النشاط، فأتصور أن هؤلاء الشباب ــ عندنا ــ قد أغلق عليهم وعيهم حتى صارت المسألة كلها ــ على قدر علمى وملاحظتــى ــ ســيرك آدمــى جميل،

وأعبر لابنتى عن تاريخى القديم مع هذا القبقاب ذى العجلات، وكيف استعرته من صديق ــ رحمــه الله ــ بمصر الجديدة، وكيف اختليت بنفسى فوق سطح بيتنا المبلط غير المستوى، وكم وقعت ووقعــت حتى كدت أكسر عظامى عدة مرات، لكنى وحتى الآن ما زلت مستعدا أن أعاند من جديد، ويبــدو أن ابنتى صدقتنى، وأن رغبتى مازالت قائمة، وهذا صحيح، فاشترت لى بما ما تبقى معها من نقــود قبــل ركوب طائرة العودة مباشرة اشترت لى حذاء ذى عجلات (تطور القبقاب الآن)، وقد فرحت به جــدا، للذكرى، ولأنها تذكرتْ رغبتي، لكننى لما رحت أجربه فى السر بعد عودتنا ــ فى هذه السن، اكتشفت تيبسى وخطورة التمادى، لكننى ــ ولا تقل لأحد ــ ما زلت أحاول، ومع تحفظى على جــدوى مهــارة الشابين على الطوار، فقد انحنيت لهما ــ سرا ــ إعجابا وقبلت وساطتهما لأتصالح على جنيف، لكــن قبول الوساطة لا يعنى نجاحها.

ونعود للمخيم، ونتوه، ونجده بعد لأى، فيفتح لنا الرجل السويسرى الألمانى وهو نصف نــائم، وبعــد شخط ونفخ وطيبة وتسامح، يعود يكمل ما كان فيه مما لا ندرى،

أطل علىّ وجه هولندى يشبه هذا الألمانى المنتفخ الصدغين وهو يفتح لنــا بالــصدفة فــى عجالــة، وأحسب أن الهولندى والألمانى أولاد عمومة حتى فى اللغة، لكن الذى أحضر وجــه الهولنــدى هــو الحركة التى استقبلنا بها الرجل " فتحٍ بالصدفة من شخص متعجل"آ

أول ما وصلنا بالسيارة إلى هناك، أمستردام (سبتمبر ١٩٦٩) صادفنا بيتا متواضعا فــى الــضواحى يؤجر صاحبه حجراته لأمثالنا من أبناء السبيل على قدر حالهم، وكان مديره بحارا ــ أو لعله صــاحبه ــ وقد رجحتُ بغير دليل، أنه أمى (مستحيل؟؟ لا أعرف)، وقد وشم ذراعيه وصدره بما ينبغى لبحّــار أمّى (هكذا قررت شخصيا)، ووجدنا إيجار الحجرة شديد الرخص لــى ولزوجتــى وزميــل إيرانــى (رافيانى) وزوجته وزميل مصرى (المرحوم د. وجيه اليحكى)، فما صــدقنا، فتركنــا أشــياءنا عنــده ومضينا مسرعين إلى جولة التعرف والاستطلاع، وإذا بنا نكتشف أننا قد ابتعدنا بما يهدد عثورنا علــى

العنوان من جديد، لكن المثابرة فى المحاولات استمرت حتى رجعنا إلى البيت حوالى العاشرة مساء، وكنا قد علّمنا الباب بسقاطة تتدلى منه ومقبض قديم مكسور، فجعلنا ندق الباب دقا عنيفا متواصلا ونحن نسمع صوت صاحب البيت وأصحابه وربما نزلائه يغنون ويضحكون سكارى هائصين. نحن متأكدون أنه البيت وأن أشياءنا فى الداخل، وهذه الأصوات الصاخبة هى أيضا فى الداخل، ولا أحد يفتح. جلسنا على الثلاث درجات التى تتقدم الباب، وقلنا نعاود الطرق دقيقتين كل خمس دقائق حتى لا يتعوّدوا على الطرق المنتظم، والدنيا لا تزال فى الداخل تضرب تقلب، ولا أحد يفتح. ومالَ بعضنا على بعض واستسلمنا لاحتمال النوم على السلالم الثلاث، لكن الأصوات علت أكثر فأكثر، فقدرنا أن قتالا قد نشب بين الصاخبين، وأنه لا بد أن يكون ضاريا، قد لا ينقصه إلا استعمال السلاح الأبيض والأسود جميعا، قلنا ليلة لن تمر، وإذا بنتيجة الشجار تنتج عن "هبوط اضطرارى" لأحد أطراف الصراع عدوا على السلالم ثم خروجه مندفعا كالقذيفة قاصفا الباب وراءه، لكن منْ!!، كانت قدمى قد قفزت إلى العتبة قبل رزعته بقليل، فحالت دون إغلاق الباب، ولم أحاول أن أتبين ما لحق قدمى من أذى. صعدنا نتنفس الصعداء وعرفت مرة أخرى لماذا سموها "الصعداء "، وتأكدنا أنه المنزل، ووجدنا أشياءنا حيث تركناها، كما وجدنا البحار فى عز عزه، لم يهتم بنا أصلا، بل لعله لم يرنا، فقد كان فى حال، فلم نجد جدوى من المطالبة باعتذار أو الحديث عن عتاب، ونمنا، ليس فى الحجرات التى أراها لنا، وانما حيثما وجدنا ما ننام عليه – فى أى مكان، وحين استيقظنا وجدنا الرجل مستيقظا قبلنا متعجبا كيف دخلنا (وربما"مَنْ نكونَ؟)، وهو فى غاية الصداع والأسف، حاول أن يتنازل عن الأجر مقابل ما لحقنا. رفضنا،وشكرناه رغم كل شئ، فقد كان ابن بحر حقيقى (على وزن ابن بلد)، لكن للصحو حدود، وكان الصنف شديدا على ما يبدو.

ذكرت كل ذلك وأنا ألاحظ مقابلة هذا السويسرى ذا اللسان الألمانى، وهو يتركنا إلى ما كان فيه بعد أن فتح لنا، ربما مصادفة مثل الآخر. قلت لذاكرتى: ما هذا، وكيف استطاعت اندفاعة صاحب المخيم هنا راجعا محتجا، أن تستدعى اندفاعه نزول السلم هناك متدفقا مندفعا ؟

فسبحان من جعل من كل حركةٍ حكاية!!، وفى كل اندفاعة شبه، ومن كل ترابط مغزى.

حين التففنا فى المخيم المهجور حول طاسة الشواء، والأولاد منهمكون فى إعداد "العشاء الأخير "سنحت الفرصة لاسترجاع بعض مواقف الرحلة، اقترح بعضهم – لا أذكر من – أن يعلنوا رأيهم فى شخصى بمناسبة افتراقنا غدا، ما المناسبة؟ ما الذى شجّعهم؟ هل اقتربت منهم أكثر؟ هل تشجعوا أجرأ؟ هل حققوا هم من الرحلة ما عجزت أنا عن تحقيقه على الرغم من أنه كان هدف الرحلة الأول، أن أتعرّف عليه فى أرض محايدة، وسط نبض ثقافة مغاير؟

ولست أدرى أى جو من السماح جعلهم يتحدثون بلا تردد لعله: التعب، والجـوع، وقـرب النهايـة، ورائحة الشواء، وخلو المخيم جميعا. لن أحدد الأسماء: أولا لأنى لا أذكر مَنْ بالضبط قال ماذا، فـإذا ذكرت بعضها فأنا لا أريد أن أحدده.

أسمتنى إحداهن "الطاغى الطيب"،

وأجابت أخرى: "لكنه مُحتمل"

فأضافت الثالثة أن مشكلة صحبتى "أنه لا يمكن التنبؤ بما أفعل"

فردت أخرى: أنى حين أخطئ مندفعا يصعب تصحيحى، ولكنى حين أخطئ هادءا فثمـة أمـل فـى حوار.

قبلتُ كل ذلك، بل وفرحت به، على الرغم من أنى لم أوافق على تماما.

أيضا لم أقاوم.

تعشينا "العشاء الأخير" واحتوانا الكوخ جميعا هذه المرة.

وأمضينا الليلة الأخيرة فى خيمة واحدة،

دافئة بأنفاسنا وذكرياتنا جميعا.

الخميس ١٣ سبتمبر ١٩٨٤

أصبحنا ونحن راضون عن كل ما كان، وما لم يكن، ودعنا الأولاد وودعونا، وتواعدنا أن ينتظرونـا فى الإسكندرية عند وصولنا بالباخرة، حيث كانوا سوف يستقلون الطائرة مـن جنيـف، وتعاهـدنا أن نقضى يوما فى الإسكندرية قبل السفر إلى القاهرة على اعتبار أن هذا اليوم ضمن الرحلـة، وبالتـالى فالرحلة لا تنتهى بالوصول. فرحت من الفكرة التى تؤكد الفرض الذى أشـرت إليـه مـرارا، وهـو ضرورة التمييز بين الانتقال والارتحال، يمكن أن تنتقل ولا ترتحل، كما يمكنك أن ترتحل وأنـت فـى المكان.

منحناهم ــ بعد حسبة صعبة ــ ما تبقى معنا من نقود يمكن الاستغناء عنها، باعتباره "بـدل تـأخير"، ففرحوا بها لأنها جاءت فى آخر لحظة على غير توقع.

ركبتُ وأمهم العربة وأخذنا نلوح بالأيدى وكأننا قطعنا معهم عمرا آخر، وسط عمرنا العادى الممتـد، أو عمرا موازيا لعمرنا الذى نعرفه.

ما أن اختلينا فى العربة بدونهم حتى أحسسنا بفراغ صعب، لكنه بدا فراغا طيبا، فرغنا منهم، وفرغنا إلينا، وعلمتُ أن الفراغ ليس دائما سلبا، بل هو عادة دعوة إلى امتلاء، أو هو ينبغى أن يكون كـذلك، فجعلنا نقطع الطريق فى هدوء، فالوقت متسع، والتأمل واجب والجو صحو، ففضلنا أن نسلك الطريـق العادى ــ لا السريع ــ حول ضفاف البحيرة (ليمان) متجهين إلى لوزان فمونتريه، وتذكرنا كل ما كان

فى العام الماضى، وتوقفنا مع المزاحمين فى "مونتريه" دون أن نزاحم، فما كان غرضنا إلا أن نقولهـا فى صمت: نقولها للناس والطبيعة، نقول شكرا، وقد كان.

عاودنا المسير، وفى نيتنا أن نصل إلى فينسيا فى نفس اليوم، برغم هدوء الإيقاع، فقـد كنـا نقطـع المسافات دون أن ندرى إذ يبدو أن المسير أصبح يحمل مقومات راحته واستمراره فى ذاتـه، فجعلنـا نستنشق ريح جبال جديدة، على الرغم من أن عموم المنظر أصبح مألوفا. دخلنا فى نفق ممتد أكثر من عشرين كيلو مترا (على حسب ما شعرنا) إلا أنه كان نصف نفق بشكل أو بآخر حيث كان مفتوحا مـن جانب فذكرّنى بطريق عين الصيرة، وأيضا ببواكى مصر الجديدة كما بناها البارون "امبان" قبل حكايـة الحى السادس والحى السادس عشر، وأيضا تذكرت بواكى سوق الحميدية فى دمشق، هو لم يكن نفقـا إذن، فليمتد كما يشاء، فاعتدناه حتى أننا أسِفنا حين انتهى، ومررنا من نقطة الحدود بنفس السهولة التى دخلنا بها.

حين وصلنا الى سلسلة جبال "سان برنارد" مالت العربة تلتقط أنفاسها على الرغم من أنهـا لـم تكـن تلهث، وفى خلال ربع ساعة أو أكثر، حيث توقفنا، ساد صمت ثرى، كان مليئا بما كان. وشعرنا، دون كلام أيضا، أننا نحتاج عمرا بأكمله لنستوعب هذه الخبرة بما تستحق، ناهيك عن تحمل مـسئوليتها، (و أحسب أن من بعض ذلك خروج هذا العمل "هكذا".)

ما إن وصلنا الى "أيوستا"، بعد ألعاب جبلية بهلوانية، حتى بدأ الطريق الـسريع، الـسهل، الخطـر، الممل، فانطلقنا مصممين على الوصول إلى فينسيا فى نفس الليلة، وعند ميلانو، ازدحم الطريق وكأنـه شارع صلاح سالم فى عز لخبطة المرور عصر يوم فى رمضان، لكننا مضينا فى النهاية، وانطلقنا فى غير كلال ظاهر، وما أن بقى من الطريق ستين كيلو مترا لاغير، حتى شاهدنا لافتة تشير الـى قـرب مدخل "فينسيا" شخصيا، فأقول لزوجتى: "تصورى أن هذا البلد الساحر البحرى الصغير يمتد قطره إلى ستين كيلو مترا" تعجّبت:"ياه"!! وكأنها توافقنى، فاقترحتُ عليها أن نستكشف هـذا البعـد الممتـد فـى اليابسة لهذا البلد المائى جدا!!، وكنا نتكلم وكأننا لم نر فينسيا أصلا، وكأننى لم ألـفـّها سـيرا علـى قدمى مائة مرة، وكأننا لم نعبر الجسر الفاصل بينها وبين"ميستر" (مثل جسر زفتا وميت غمر) عشرات المرات، ونحن نعرف أن حدودها تنتهى بمجرد عبور هذاالجسر، لكن ماذا تفعل فى ما قررنـاه هكـذا فجأة حين اعتقدنا ــ ربما من فرط التعب ــ أن طولها ستين كيلومترا حسب اللافتة؟

المهم أننا خرجنا من الطريق السريع نستكشف"أطراف البلد"!!!! وننوى أن نمضى الليلة فـى فنـدق جديد فى هذا الظرف الجديد، فإذا بنا نفاجأ أنها فسينزا Viscenza ليست فينسيا .Venezia فهـو التعـب الذى لم نعترف به أصلا، وضحكنا، وأتذكر فجأة، ولعلى لا أكون مخطئا، أنها (فيسينزا) البلدة التى فى ضواحيها صدح اللحن فجأة، فسمعه نيتشه، وعرف أنه زرادشت، فاستسلم لما ملأه، ثم راح بعد سـنين

يحدثنا على لسان زرادشت بما كان له فى حياتى من آثار لم أعد أتبينها تحديدا، وإن كنت أعلم أنها مما يحافظ على أملى المستحيل طول الوقت..

أتذكر أمى وهى تخاطب مقام السيدة أن"ناديتينى وانا جيت أهه يا طاهرة"، وكأن ثم نداء، وليس قرارا إراديا من أمى، هو الذى جذبها إلى المقام الطاهر. نداء يأتى فى الحلم أو فى غيره، لكنه يتأكد أثناء الزيارة، وأتساءل وأنا ألف عائدا إلى مداخل الطريق السريع، هل نادانى زرادشت ونيتشه فانحرفت السيارة للزيارة دون إذنى نتيجة لهذا الخطأ الجيد، فأحييهما شاكرا وأنظر إلى زوجتى ملتمسا لنا العذر، إذ يبدو أنه: كم تعبنا، وكم أخفينا تعبنا كل عن الآخر، بل عن نفسه، فنحن نسير منذ أكثر من خمس عشرة ساعة، لكن هذا لم يمنع من تحسرنا ونحن ندخل الطريق السريع من جديد حيث اضطررنا أن ندفع رسوما جديدة، وكان ينبغى أن نعرف أنه لا أحد يتعلّم بالمجان.

نواصل السير فى عناد جديد حتى نصل إلى"بادوفا" التى كنا قد تهنا فيها أثناء رحلة الذهاب، فأقترح على زوجتى أن نقضى الليلة فيها حيث كنا قد تعرّفنا على معالم تستأهل المشاهدة أثناء التوْه الماضى، (هل صدّقتم مزايا التوْه أخيرا؟). ثم إنه لم يبق على فنيسيا وميستر إلا بضعة عشر كيلو مترا، ونمضى نبحث عن فندق فلا نجد إلا فندقا عتيقا عريقا ورائعا، فنحسب حسبتنا، فنجد أننا نستطيع، فنترك فيه أشياءنا ونتجه إلى وسط البلد نبحث عن مقهى أو مطعم، والساعة لم تتعد التاسعة مساء، لكنها: مثل أغلب بلاد أوربا فى هذا الوقت "هس هس!! "» وأعود لتساؤل قديم: لماذا تنام أوربا هكذا من العِشاء؟ ربما لأنهم ناس وراءهم شغل، ونلتقط محل بقالة ومقهى فى نفس الوقت، لذلك هو لم يقفل بعد، فنتقوت، ونتناقش، ونتشاجر، ونذهب للفندق فننام فى حجرة جدرانها من خشب قديم وكأنها من القرن السابع عشر، حتى الحمام والحوض مصنوع من الخشب، أو مغلف بخشب طبيعى ذى نكهة قديمة ونافذة معا !!

الجمعة ١٤ سبتمبر ١٩٨٤:

استيقظنا فى هدوء على الرغم من شجار ليلة أمس، ومضينا نتجول فى بادوفا، فوجدناها بلدة مترامية ثرية، فيها كل شئ لكل شىء، تـرى: من يستهلك هذا كله يا ناس؟ (تانى !!)، ونواصل المسير بعد أن تناولنا قهوة الصباح فى قهوة واحد بادوفى رقيق، ثم نجد عندنا من الوقت ما يسمح بالذهاب إلى مخيم "المرأة المهرة، مخيم الألبا دورو!!؟العشرة لا تهون، ثم إن المحل الخاص بأدوات التخييم قريب منها، ونشترى بما تبقى لدينا من نقود حاجيات تخييم لازمة لكل الاحتمالات. حتى المرحاض المتنقل وكيميائياته، نشتريها وكأننا سنذهب إلى وطننا من هنا، وهات يا رحلات من هنا (لم نستعمل هذه الأشياء مرة واحدة فى بلدنا حتى الآن يونيو ٢٠٠٠)، ونتغذى فى المطعم الذى قدم لنا الأرز الخاص

بالكمون والنكهة المميزة، لكنه لا يقدمه لنا هذه المرّة، ولا نعرف كيف نطلبه فنحن لا نعرف اسمه، ثم نتوجه إلى الميناء فى فينسيا.

تهل علينا روائح مصرية، ليست كذلك تماما، ليست مصر، ولكنها روائح بعض ما حلّ بمصر، فقد كانت الأنظمة حينذاك ما زالت تسمح بهذه التجارة المضحكة التى ُتستورد فيها العربات القديمة بالجملة بتحايل قانونى منظم، وأكتشف ــ عكس رحلة الذهاب ــ أن معظم زملاء رحلة العودة هم من هؤلاء المصريين العاطلين والمغامرين الذين يشحنون العربات والبشر بالجملة، كل عربة قديمة تحملها"ناقلة بشرية" لها جواز سفر، واسم،ورقم، وهى ناقلة لا تدرى عما يجرى حولها، ومن خلالها، شيئا، كل ما عليها هو أن تسلم جواز السفر، وصاحبه، عدة أيام، مقابل أن تقبض كذا قرشا أو كذا جنيها، وقد لا تغادر الباخرة ولا مرّة واحدة، فقط توقع الناقلة البشرية (المحلل) على عدّة أوراق، وتتناول وجبات الباخرة، وتقبض المعلوم، ويقوم التاجرالمتحايل بكل الباقى.

رأيته كما عرفته فى بلدنا، نفس "اللبدة»" ونفس الجلباب، ونفس المسبحة، ونفس التمتمات، كان منزويا فى أحد الأركان يتابع فى حذر وخوف واستسلام ما يجرى حوله، وحين اقتربت منه وفاتحته بطريق غير مباشر قال لى: أنه "و الله يا ابنى ما أعرف، تعالى تعالى، روح روح، وربنا يرزقه ويهدّى سره" ــ يعنى إبنه ــ فقد كان هؤلاء المغامرون يستعملون آباء هم وأمهاتهم كعبـّارات قديمة لعربات قديمة، ولعلهم كانوا يسترخصون الأجر باستعمال الأقربين السذج.

ويقترب منى قبل أن تقلع السفينة رجل كهل أعرج، ذو وجه أكاد أعرف من هو، أو بتعبير أدق، أكاد أعرف ماذا سيقول هذا الوجه قبل أن يقوله، وجه متهدم قد لصقت فى تجويفيه العلويين عينان ترقصان حذرا وقد امتلأتا بما يشبه النصاحة، فيحيينى بالعربية المصرية، وأنه فى الخدمة، ويدلنى على بعض إجراء ات شحن الماكينا (العربة بالطليانى، هكذا ينطقونها)، ولا يصدق أنى اصطحبت عربتى معى من مصر، وأنى لم أشتر عربة أخرى، وأنى لست تاجرا، وأسأله إن كان مسافرا معنا، فينظر حوله، ويرطن بالطليانى لبعض من لا أعرف، ثم يواصل شارحا بإيجاز كيف أنه يقيم هنا منذ أكثر من عشرين سنة، وأنه لا عمل له إلا مواصلة التقاضى مع الشركة التى أصيبت فيها ساقه وهو يعمل بها بحاراــ وينظر إلى ساقه التى يعرج بها، وأنه بالرغم من نيله بعض حقوقه، فإنه لا يزال يستأنف الحكم لينال بقية حقوقه، وأنه لو عمل رسميا لضاع عليه تأمينه، وكذا، وكذا، وحين يطول بنا الحديث بالرغم منى، يميل علىّ قائلا: معك دولارات؟، فأتردد، ثم أجيب أن نعم، فيقول: هل تريد الاحتفاظ بها؟ فأقول طبعا، فيشرح لى كيف يشتريها منى بجنيهات مصرية، فأفهمه أن هذا غير وارد لأسباب كثيرة لا أريد أن أعددها، ويداخلنى إشفاق مؤلم عليه، وعلى بلدى، وعلى نفسى ــ ويقبل علينا ونحن نتحدث شاب طويل راقص فى سماجة، فيعرفنى العجوز عليه باعتباره أنه إبنه ويذكر له إسمى خطأ

(د.السخاوى) فأغتاظ، ربما لأننى أفترض ــ ولو لاشعوريا ــ أننى نار على علم، لا يصح الخطأ فى اسمى حتى من مغترب عاطل فى فينيسيا، وتنتهى المقابلة باعتذاره عن المقايضة بالجنيه المصرى، ويعتبرنى أبلها أو عبيطا، دون أن يعلنها، فأكتفى بالانسحاب وأنا أكاد أغوص فى غثيان من ثقل ريح حضور ابنه هذا ــ إن كان حقا إبنا له.

أصعد بعربتنا الى المركب بأرقامها المصرية، وألمح نظرات العجب والاستخفاف، ويصارحنى بعضهم أنه: كيف أخرج بها ثم أدخل بها، وكأن المفروض أنه إما أن أخرج بها، وإما أن أعود بها، أمّا أن أخرج وأعود بها هى نفسها فهذا غير مطروح وغير مفهوم بالمنطق التجارى الشطارى السائد، تساءلت: وهل أنا هو أنا الذى سافر ثم عاد؟ أم أننى لا بد أن أغيّر اللوحات نتيجة ما حدث؟ ثم هل يا ترى هذه العربة التى كانت طول الوقت أحد أفراد الرحلة، هل استفادت هى الأخرى من الرحلة بحيث تغيرت بما تيسر، مثلما أفترض فينا ؟

أحاول أن أتحمل الصياح من حولى: واحدٌ ينادى الآخر أن "السبع عربيات بتوعى" كذا وكيت، ويمضى يقود واحدة تلو الأخرى يرتبها فى السفينة فيذكرنى بترتيب أكياس القطن فى بلدنا على العربة الكارو لتسليمها للشونة، ثم ينتقل لحمل الاجساد/الأسماء السبعة التى سيُدخل العربات باسمهم، ويكاد يرتبهم فى مقاعد الركاب ترتيب أجولة القوالح الهشة، أبتلع كل ذلك مشفقا غير رافض رفضا مطلقا. "كل شئ مباح فى التجارة والنصب"!! (لم تعد الإباحة قاصرة على الحب والحرب). جوّ الباخرة خانق، رائحة التجارة والشطارة تفوح من كل ركن، من كل شبر، تتردد مع كل نفس مختلطة بعرق النذالة وريح استعمال البشر. سحابة من الغثيان تتكثف حول وعيى، وعلى الرغم من أنها نفس المركب، إلا أننا (شخصى وزوجتى) نشعر أنها ليست كذلك، ليست هى مركب الذهاب رغم أنها تحمل نفس الأسم، لا يمكن. والأدهى من ذلك أننا نشعر بالغُربة أكثر حين وجدنا أنفسنا بين أغلبية مصرية، فنخجل أن نعلنها حتى لأنفسنا، الأصوات عالية ومختلطة وكأنهم لا يتكلمون العربية أو المصرية، والألفاظ قبيحة وجارحة، متنافرة وخاوية.

وصل الأمر أن أحد هؤلاء الشبان لبس لباس الاستحمام (المايوه) وهمّ أن ينزل حمام السباحة أعلى السفينة، ماذا فى هذا ؟ مثله مثل غيره. وإذا بأصدقائه يتصايحون عليه يحاولون منعه، حتى قال أحدهم "حتكسفنا يا ابن القحبة" ولعل الشتّام قرر أنه لا أحد يفهم العربية إلا هو وصديقه مع أن أكثر من ثلاثة أرباع الركاب كانوا من المصريين.. كان يجلس حول الحمام أستاذ جامعى فاضل وزوجته أكاد أعرف وجهيهما، فقامت السيدة حين سمعت اللفظ بسرعة وقد امتقع وجهها. بدا لى هذا التناقض مرعبا. أيهما يخجلنا؟ الشاب الذى تصرف تلقائيا ليستحم فى حمام السباحة مثله مثل كل الناس، أم الذى فضحنا أمام أنفسنا وأمام الأغراب وهو ينصح زميله ألا "يكسفنا" وأنه إبن.....!!! تلقيت الصفعة فى صمت عاجز.

يدور الكاسيت الضخم بصوت أم كلثوم عاليا مزعجا فينقرنى حتى من صوت أم كلثــوم، إلـــى هـــذه الدرجة يمكن أن يصبح الجمال نشازا إذا غلب القبح من حوله. وأشاهد الشاب الطويل النحيف ــ الإبن المزعوم لــلبحّار الأعرج ــ وهو يتجول فى صالة الاستراحة، أو يطلب القهوة من الكابتشينو بأسلوب ليس كابوتشينيا، وأعجب حين أراه يسحب كلبا صغيرا مربوطا بسلسلة رقيقة طول الوقت، فلا هو يبدو من هؤلاء، ولا الكلب يبدو موافقا على ذلك، وأفتقد العلاقة العميقة الأخرى التى فسّرت بها هذه البدعة الأوربية الحديثة، فهذا الشاب يجر الكلب فى قسوة دون أن يدرى، ولا يناديه باســـمه، ولا أرى الكلـــب يقفز على ساقيه أو يتمسح به، وأقول لعـــلها تجارة جديدة مثل تجارة العربات والبــشر، وأشـــك فـــى طبيعة المهمة، والبنوة، والكلب، والسلسلة، ويصدق حدسى فقد قبض البوليس المــصرى علـــى هـــذا الشاب، هو وكلبه فور نزولنا من السفينة، لست أدرى لماذا. وأنظر فى عينى زوجتى فأجد عندها مثـــل ما عندى، فأصيح بها وكأنها المسئولة عما خطر ببالنا معاً، أكاد أصيح "لا: ليست هذه مصر" فترد أنها لم تقل شيئا، وتروح تلتمس الأعذار لكل ما أزعجنا، ولكنى أشعر أنها تبتلع الأعذار ابتلاعا وتحاول أن تقنع نفسها بها قبل أن تقنعنى.

تطول الرحلة فى البحر أكثر من رحلة الذهاب حيث ركبنا من فينيسيا ولـــيس مـــن بيريـــه. أتـــنفس الصعداء حين نصل الى بيريه، فأبادر بالنزول أستنشق هواء مغايرا فى سماح مغاير، وأقول لهذه البلدة المرحـــّبه أن وداعا. لم أكن قد تجولت فى بداية الرحلة فى بيريه، فتصحبنى زوجتى لأعرف بعـــض معالمها، وأحمد الله أن اليوم (١٦ سبتمبر ١٩٨٤) هو الأحد، فالمحلات مغلقة، فلا شراء، ولكن أبـــدا، فمحلات الحلوى مفتوحة فلا بأس من فستق لأن فلانه تحبه، وهذه البومبونيرة من محل حلويـــات مـــن باب الذكرى، وتتعرف زوجتى على بائعة الحلوى فقد سبق أن حادثتها بالعربية أثناء الذهاب، وهات يا كلام وذكريات، وتتحسر البائعة على أيام الأسكندرية، وأنها تربت هناك حتى سن العشرين، فأقول لهـــا أن ذلك زمن مضى، وأننى أجد الإسكندرية هنا أكثر مما أجدها عندنا فى مصر، وترد محتجة "أن أبدا" هناك فى مصر يقولون "تفضل"، هناك من يحلف عليك أن تشاركه كل شىء، حتى الألم. هنـــاك مـــن يحيطك بالرعاية دون أن تطلب، أما هنا، وتمط شفتيها، وتشير بإصبعيها السبابة والإبهام: إنه "القرش". ولا أعقب، وأتراجع عن أحكامى الظاهرية، ولكنى لا أرجع عنها تماما ونمضى فى الشارع على مهـــل حتى نجد أريكة فى الشارع نجلس عليها.

يتصادف أننا جلسنا مقابل كنيسة جميلة، وجمهرة من الناس مـــن ذوى الوجـــوه الحمـــراء المـــشرقة متجمعة أمام الباب، لعلها صلاة، ولكننا قرب المغرب فلعله حفل عرس خواجاتى، ونتأكد أنـــه كـــذلك، فتتمسك زوجتى بمقعدها فرحة فرحة خاصة، فللأفراح عندها جذب خاص، سواء رأت سيارة مزينـــة،

أم سمعت دقة الفرح فى فندق ما، أو سمعت زغرودة فى بلدنا، وهى فى ذلــك عكــسى تمامــا حيــث أتصور دائما أن حفل العرس هو للعلانية لا للإعلان وأظن أن الفرح هو فى المشاركة لا فى التباهى.

بدأنا حياتنا (زوجتى وأنا) بهذا الاختلاف، وأبلغتُها رأيى أن زواجنا لن يكون بزقة أو فــرح أصـــلا، فوافقــتْ (أو حسبتُ أنها وافقت) وتصورتُ أن زواجنا سوف يتم بهدوء وببساطة كمـــا قررنـــا (كمـــا قررتُ) وأنه ليس لأحد غيرى وغيرها أن يتدخل. ذهبت إليهم عصر اليوم المحدد مع والـــدتى فقــط، واصطحبتُ زوجتى الى بيتنا بعد استقبال طيب هادئ من أهلها الكرام، لكن عيونهم كانت تخفى أشـــياء لم أتبينها فى حينها، لكن الأيام تمر، وأكتشف بعد أكثر من عشر سنوات أن الليلة السابقة لاصـــطحابى عروسى هذه كانت فرحا كما الأفراح، ولكن بدون عريس (الذى هو أنا) وابتلعت الغصة، وأخـــذتُ ــ بعد فوات الآوان ــ أتصور تساؤلات الناس، وإحراج الأهل، وألم العـــروس، زوجتـــى، وأتعجّـــب – بأثررجعى – كيف وافقتنى هى؟ وكيف تمزّقتْ بينى وبينهم؟ وكيف شرحتْ لهـــم ؟ وكيـــف بـــررتْ؟ وكيف مضت الليلة؟ ولكن المؤكد أنها مضتْ والسلام، وأن الناس فى اليوم التالى قد صـــدقوا أن ثمـــة عريسا، بدليل أنها زوجتى منذ ذلك الحين وحتى تاريخه، فـــــرُحتُ أفسر انجذابها إلى كل فرح كائنـــا ما كان،، أينما كان، كلما دخلنا بهو فندق وكانت ثمة زقة وقفت صامتة بعض الوقت، ثم حـــديثها عـــن أحلامها برؤية ابنتنا فى ثوب الفرح،أوابننا فى الكوشة، وأنا ولا هنا. أفسر هذا الآن بما فعلتُه بها حـــين حرمتـــُها من فرح عرسها شخصيا.

يخرج العروسان من الكنيسة. كانا زهرتين فى غاية الجمال، وحولهمـــا الوجـــوه ممتلئـــة بـــالفرح، والمقارنة، والمشاركة، والحقد، والحسرة، والدعوات، والتسليم، والقبلات، وبالرفـــاء والبنـــين، وربنـــا يستر، وربنا يتمم بخير، نفس التعبيرات فى كل فرح، بكل لغة تقرأها على الوجوه كأنها كتاب مفتوح.

نعود إلى المركب حامدين الله أنه لم يبق على وصولنا إلا غطستين (ليلتين) ونهارا، فالليل فـــى مثـــل ذلك الجو الخانق فائدته الأولى هو أن تنقضى ساعاته، أما النهار فهو لا بد سينقضى مثلمـــا انقـــضت نهارات سابقة، وقبل أن نصعد إلى المركب مباشرة أجد معى بعض دراخمات، فأميل إلى محل صـــغير يبيع مطواه بشوكة وسكين، فأشتريها لزوم الرحلات أيضا، فتسألنى البائعة من أى بلد، فأقول مصرى، فتسألنى عن معنى كلمات بذيئة بالعامية المصرية، كلمات كلها أعضاء جنسية وعملية جنسية، تنطقهـــا بلكنة يونانية وهى تبتسم وهى لا تدرى ماذا تقول، يبدو أن أحد المصريين قد أوهمها أن هـــذه الألفـــاظ تعنى شيئا آخر، فلا أترجمها لها، وأنصحها ألا تكررها لأن معناها لا يليق، وأبتلعها على مـــضض ولا أعرف كيف أعتذر عنهم.

الثلاثاء ١٨ سبتمبر ١٩٨٤

نصل إلى الاسكندرية صباحا فنتم بذلك شهرا ويوما، ويستقبلنا الأولاد. هم هم أولادنا. يستقبلونا فـــى ميناء الإسكندرية مثلما استقبلونا منذ شهر فى بيريه، فنفرح فرحة تغسلنا من ذلك الجو الجـــاثم، لكـــن هناك فرق.

يذكّرونى بوعدى لهم بإكمال الرحلة فى الإسكندرية ليوم واحد، وبعد إجراءات لا لزوم لأغلبها، وبعد التشهيل الكريم والثقة الطيبة فى شخصى من رجال الجمارك المرهقين، أخرج بعربتى إلـــى الـــشارع المصرى فأجدنى وكأنى قد نسيت القيادة.

كنت فى الخارج حين أعطى إشارة اليمين أو اليسار، أتصرف باعتبار أن السيارات التى خلفـــى قـــد تلقت الرسالة، لكنى تذكرت أنه ينبغى علىّ هنا أن أعطى الإشارة، ثم أخرج ذراعـــى، ولا بـــأس مـــن إخراج رأسى، ثم بعد ذلك لابد أن أتقى خطأ الغير بنفسى، وبسرعة استعدتُ حذقى المـــصرى القـــديم وشطارتى الواجبة لمواصلة السير دون حوادث.

بعد استراحة قصيرة فى المنزل نزلنا نزور قلعة قايتباى ـــ كما السواح ـــ ولم أكن قد زرتها من قبل، وإذا بها شديدة الروعة بالغة التنفير بما حولها من رائحة فى آن واحد، آمل أن تكون الرائحة إياها قـــد تضاءلت أو اختفت بعد خناقة الصرف الصحى ،

يقولون فى بلدنا " لا زرعك ولا ولدك تغضب عليه".

فأضيف، " ولا بلدك": أولا ودائما .

من سيمسح عنها دموعها، وينقى أجواءها غيرنا ؟؟

[مسحها ونقاها مؤخرا محمد عبد السلام المحجوب، ربنا يستر. أغسطس ٢٠٠٠]

الجمعة ١٩٨٦/٨/١٤

اليوم هو عيد الأضحى المبارك، والمكان هو فندق "ريجينا مارى" فى جليفادا (اليونان) والمنطقة مليئة بالعرب الوسط، إن كان ثم وسط، فالأكثر ثراء تركتُهم منذ عامين فى "كان" ولابد أنهم ما زالوا هنـــاك، أو عادوا إلى هناك، فهم يخلقون هذا المستوى حيث ينزلون حتى فى بيوتهم على ما أعتقد،

فندقنا هذا مثل غيره ملئ بهؤلاء دون أولئك،

نزل والأولاد فى فندق قريب، فتواعدنا منذ أمس أن نصلى العيد فى الخلاء، وأن ننتقى مكانـــا نظيفـــا متسعا فى حديقة قريبة، وأن يكون تكبيرنا عاليا ليلحقنا من يلحقنا من المسلمين ،

حين كنت فى طريقى إلى فندق الأولاد فى الخامسة صباحا أهنئهم بالعيد، وأكبـّـر وأهلل وأنا أوقظهم كما اعتدت فى مصر، صادفنى فى بهو فندقنا رجل عربى ذو لحية سفـــلية يبدو فى منتصف العمـــر، والساعة الخامسة صباحا، فقلت خيرا لابد أنه استيقظ مثلنا مبكرا يصلى العيد، فألقيت عليه السلام فلـــم

يرد بوضوح، لكنه تمتم حتما بالعربية، وهو نصف نائم أو نصف لا أدرى، استبعدت أن يكون قد استيقظ للعيد، الأرجح أنه لم ينم بعد. فخجلتُ ومضيت فى طريقى،

أيقظت الأولاد بنفس الطريقة، بالتهليل والتكبير كمااعتدت، وذهبنا إلى أرض الله الواسعة، المكان الذى عاينّاه أمس. افترشنا الأرض فى الحديقة المقابلة ،وأخذنا نهلل ونكبر حتى طلعت الشمس وبعدها بقليل، أقمنا الصلاة وصلينا، وخطبت إكمالا للسنة وكبرنا، ولم يلحقنا أحد من كل هؤلاء المسلمين المحيطين، قلت لا أظلم أحدا، وحساب كل منهم على الله، من أدراهم أننا نصلى العيد فى الخلاء؟ من نحن؟

رجعت إلى فندقى ونزلت لتناول الإفطار فاذا بأغلب من حولى يتكلم العربية، ولا يشعر أى منهم بعيدٍ أو بغيره، لتكن الصلاة سنّة، وليكن التدين موقفا شخصيا بين العبد وربّه، لكن العيد مناسبة اجتماعية أيضا وجدا، لماذا لا يبدو على أى من الجالسين نصف نيام أن لهم عيد أصلا، ألا ينتمون إلى نفس الثقافة ؟ إلى نفس القومية، ناهيك عن نفس الدين ؟ ما الحكاية ؟

لم أجرؤ أن أقول لأحدهم " كل عام وأنت بخير"، فضلا عن أن أتقدم لأسلم عليه باليد مهنئا خشية أن يردنى خجِلا. جعلت أتعجب من كل هذا، وقررت الإسراع بالسفر من هنا على الرغم من روعة المكان، أنا ما حضرت هنا لأغترب وسط أهلى وناسى وأنا الذى كنت مؤتنسا وسط غرباء عجم .

للدين وجه إجتماعى غير علاقة الانسان بربه وأدائه فروضه، غير الحلال والحرام، وغير الحدود والأحكام، الدين انتماء، والعيد يعلن مناسبة تسمح لنا – خاصة فى الغربة – أن نعلن انتماءنا، ولو لبعضنا البعض.

أنا لا أعرف فئة كثرت أم قلت فى أى مكان فى العالم لا تحتفل بعيدها مثلما أعيش هذا الدش البارد الذى تلقيتُه على يد بعض أخوة العرب المسلمين الأمجاد هنا، هكذا.

نحن لا نتمسك بلغتنا العربية، ولا بطقوسنا الدينية، ولا بأعيادنا، فماذا يبقى؟ الخطب والحديث عن أمجاد عبد الناصر؟

مازال الأرمن مثلا، وهم أقلية فى كل مكان يحتفلون جميعا بأعيادهم حتى لو كان بعض أفراد الطائفة ملحدين ،

الصينيون فى أمريكا يفرضون على الأمريكان الحديث بالصينية فى مطاعمهم، وكذا أهل المكسيك،.العيد عيد يا ناس، عيدنا، إلى ماذا ننتمى بعد ذلك إذا لم نعيّد معا؟

كنت قد عزمت الأولاد على رحلة بحرية نزور فيها الجزر الثلاث الأشهر فى خليج سالونيك: "هيدرا"، و" بوروس " و" أجينا ". صعدنا الحافلة فوجدناها مليئة ــ أيضا ــ بالعرب، ولا كل عام وأنتم بخير ولا يحزنون، حتى الشيوخ والشيخات، أصابهم سهم الله فأصبحوا واجمين. حين قلت للأولاد ونحن

وقوف فى الحافلة هيا نفرض عليهم العيد بالتكبير والتهليل وسط الأتوبيس، لم يكن الأمر بهجة طارئـــة كما غمرتنا منذ عامين فى الشانزليزيه فى باريس، بل كان غيظا وانفجـــارا وتحـــديا. فعلناهـــا بـــضع مرات، فشاركنا شاب أو اثنين لبضع مقاطع، أما الباقون ــ من العرب والمصحف!الشريف من العـــرب ــ فقد نظروا إلينا فى استغراب، بل لعلّهم خجلوا مما نفعل، وصلتنا الرسالة فـــسكتنا، حتـــى الـــشيوخ نظروا إلينا شذرا!!!

قف عندك، هذا هو: قد وصلتُ حالا الى قرارى الذى قمت بهذه الرحلة الجديدة، للبحث عنه. ألم أقـــل أنى ما سافرت هذه المرة إلا بحثاً عن قرار؟

هأنذا أقرر أن: " هذا يكفى". ما هذا ؟ ويكفى ماذا؟

ليس مهما.سوف أكف عن التعرى هكذا نصف نصف، فلا أنا أتعرّى كما ينبغى، ولا أنا أتـــستر وراء لقب أو لا فتة أو تخصص أو ادعاء علم .

إن صحّ قرارى هذا فلن أكتب عن تلك البلاد الساحرة، ولا عن "جليفادا " التى جمعـــت بـــين جنيـــف وبوسطن وباريس، ولا عن جزيرة هيدرا الأشبه بفينسيا، ولا عن شوارعها الضيقة ودرجها المتصاعد، وخلوها من السيارات، ولـــن أشير إلى إدراكى كيف يستطيع المسافر أن يسافر وهو فى بقعة محدودة، لو أحسن تحديد الهدف واختيار ما يناسبه، وكيف أنه يمكن أن يلف العالم دون أن يسافر، بل أكثر مـــن هذا، فإنى أعتذر عن عدم ختم هذا العمل (الناس والطريق) بما رأيت يوما أنه مسئولية حتمية ورســـالة واجبة التبليغ وهو وعدى غير الجازم بأن أكتب عن رحلاتى الى جنوب سيناء وخاصة الرحلة الأولـــى (٦/٢٦ ــ ٨٥/٧/٣)، و أنا أشد النادمين على هذا التراجع.

كم تمنيت أن أكتب عن شعورى بما هو "نفق أحمد حمدى" وما هو تحرير سيناء رغم أنف الذين لـــم يقبـــّـــلوا الأرض، ولم يلحسوا التراب، والذين لم يشربوا من ماء "دهب " والذين لم يتحسسوا صـــخور سانت كاترين تبركا وحمدا، ورغم أنف القوة المتعددة الجنسيات كأن أفرادها شرذمة مـــن معـــسكرات ضعاف العقول، أو كأنهم منفيون من بلادهم يقضون مدة عقوبة على جريمة لم يرتكبوها.

كم تمنيت أن أكتب عن الأشياء الصغيرة التى أعادت لى ثقتى ــ وما راحت أبدا ــ ببلدى الحقيقـــى: عن عامل البنزين الذى أيقظناه فى السادسة صباحا فى رأس سدر، فلم يسخط، وعن ناس وادى فيـــران الذين ساعدونا حين غرزت السيارة حتى كادوا يرفعونها على أكتافهم، وعن وادى فيران نفسه بخضرة نخيله، وتنوع جماله وتحدى طبيعته، وصدق ناسه، (للأسف لم يعد كذلك الآن:أغسطس ٢٠٠٠) وعـــن روعة احتضان الجبل له واحتضانه الجبل، بحيث تصورت أنه من بين أحد المواقع القليلة التى يمكـــن أن أكمل فيها ومنها رسالتى المزعومة التى أنوى أن أكتبها للناس والتاريخ! هذا المكان الجميل (مـــرّة أخرى ركن بعيد: رَحَم جديد لكن فى بلدنا!! ألن أهمد أبدا؟).

كم كنت أود أن أكتب عن الطلمبة المجاورة للدير، فى سانت كاترين التى شرب من الماء الذى تجلبه ــ فى الأغلب ــ سيدنا موسى شخصيا!!، وعن جماجم الرهبان ودلالتها ورسالتها وعن صلاتنا الظهر فى أحد ردهات الدير، وعن لغة الجبال الرصينة من كل جانب حول الفندق الرائع الطيب.

أيضا كنت أريد أن أكتب عن ذلك المرشد البدوى الذى اتفقنا معه أن نصعد الجبل قبل طلوع الشمس فى سانت كاترين لنرى طلوعها بين الجبلين، فحضر ــ حسب الموعد ــ فى الثالثة صباحا، وكان قد جد جديد جعلنا نعتذر، ويأبى هذا المصرى الشهم أن يأخذ مليما ولو على سبيل الهدية، وراح يؤكد أنه "حصل خير" وأنكم لابد عائدون مرة أخرى، وأنه سيكون فى الخدمة ،ويمضى راضيا مبتسما بكل عزة وكرم وطيبة وافتخار.

أطمئن أننى حين سخطت على مصرىّى الباخرة منذ سنتين لم أكن أسخط على مصر، ولا على هذا المرشد المصرى. لا. ليسوا سواء.

كان بودى أن أقول لكم ماذا همس لى كل جبل من جبالنا على حدة، فحمّلنى رسالة خاصة أملا فى أن أنقلها إلى أولاد العم: جبال الجيرا وجبال الألب، وربما إلى جبال الهملايا يوما ما من يدرى؟

كنت أود أن أحكى عن شمال سيناء، وعن إغارة غابات الخرسانة على جمال النخيل، وإغارة ناس الوادى على ناس الطبيعة.

كنت أريد أن أحكى عن رفح، وكندا وياميت المرحومة وأوبروى العريش وسوق العريش، ورجل البوليس الطيب يهدينا بود فائق كأننا أبناؤه.

كنت أود أن أحكى كل ذلك وأترك قلمى يتداعى فيحركنى أكثر لأتعرّى أكثر.

أشعر أن داخلى ليس ملكى وحدى،

أشترط على من يحبنى أن يراه ثم نرى .

أخاف.

ثم جاء القرار (المزعوم فى الأغلب)، جاء بكل هدوء وتسحُّب ليجعلنى أتوقف الآن ،

وكأنى توقفت .

الساعة التاسعة مساء، فندق لندن ــ جليفادا ــ

الحادى عشر من ذى الحجة ثانى أيام عيد الأضحى. الموافق ١٩٨٦/٨/١٥.

الفصل الرابع

(الفصل المفقود: ١)

(الفصل العاشر: من الترحالات الثلاثة)

ممَــرٌّ حانَةٍ فى عطفةٍ مجهولةٍ بلا هُويـةٌ

....واللحنُ ظِلُّ الناس فى حُضْن القمرْ
تنوًعات البرق ِ والرعودْ
لــــحفر بئرٍ غائر بلا مياه،
وزهرةٍ بلا شَجرْ،
وبيضةٍ بلا يمامْ.
وغارُهَا:
ممَرٌ حانَةٍ فى عطفةٍ مجهولةٍ بلا هُوية.
وعنكبوتُها:
يدبّج النقوشَ فوق طينٍ أحْرَقَــتْهُ نارُ أحلام الذهَبْ
غجريّةٌ فى ثوبِ سهرةٍ عريقْ،
تسحَبُ عَنْزَها التَّمِلْ.

المقطم ٢٠٠٠/٣/٢٢

الذى حدث هو أننى أنهيت مراجعة وتنظيم الكتاب الثانى من هذه الترحالات فى إجازة العيد التى طالــت هذه المرة إلى عشرة أيام (أول مرة آخذ إجازة عشرة أيام متصلة داخل مصر منذ ٤٣ سنة!!) وكان قــرار نشر "الأعمال المتكاملة " قد بدأ فى التفعيل على أرض الواقع، سلّمتُ خمس كتب إلى المطبعة (من بينهــا الصورة الأولى للترحال الأول باسم تداعيات السيرة الذاتية) ثم جاء دور هذا الترحال الثــانى. كنــت قــد أنهيت مراجعة قراءتى الخاصة والمشتركة مع د.إيهاب الخراط لمواقف النقرى، وتعجبت من نوع وعمــق علاقتى بمن هو "الله " سبحانه وتعالى.

ما إن وصلت إلى مراجعة الجزء الثانى من هذه الرحلات/السيرة، أو السيرة/ الرحلة، أو ما تبــيّن أنــه "أدب المكاشفة "، حتى افتقدتُ فصلا بأكمله كنت أذكر جيدا أننى كتبته تفصيلا على الرغم من أننى أنهيت الفصل السابق بإعلان حاسم "أن هذا يكفى "، نعم كتبته و حكيت فيه عن زيارتى أنــا و زوجتــى –دون

الأولاد – لتركيا (اسطنبول) بعد أن ودّعنا الأولاد فى مطار أثينا بعد قضاء العيد معنا فى جليفادا والجزر الثلاث. أذكر أننى كتبته فعلا. أنا متأكد. سألت زوجتى إن كانت قرأته فأكدت لى أنهـا قرأتـه منـشورا، بحثتُ عنه فيما نشر فى مجلة الإنسان والتطور. لايوجد أثر له. اكتشفت أيضا أن الفصلين الأخيرين مـن رحلاتى/سيرتى هذه لم ينشرا أصلا لكنى وجدتهما على الحاسوب مصححان كاملان. متى كتبتهما؟ لمـن؟ ما الحكاية؟ ماذا حدث لذاكرتى؟ فصلٌ قديم أنا متأكد أنه قد نُشر، أو على الأقل قـد أعـدّ للنـشر كـاملا وبالتفصيل، لا أجد له أثرا، وفصلان كاملان أكتشف أنهما كانا مجرد مسودات لم تنـشر؟!!

هل هو السن؟ هل كتبت الفصل فعلا؟ هل هى مجرد ذكريات؟ كيف قرأتـه زوجتى؟ متى؟ أيـن؟ هـذا الفصل بالذات له دلالة خاصة لأن فيه مفاجأة قرية لبتوكاريا فى شمال اليونان، حيث كتبت مـسودة أهـم أعمالى فى الإبداع " جدلية الجنون والابداع "، ولأن فيه تجسيدا لحنينى إلى الركن البعيد الـصغير، إلـى الرحم، ولأن فيه تعميق لــ "برنامج الذهاب والعودة ". كل ذلك يفسر حركتى وسكونى، إقامتى وترحالى.

ابنتى الكبرى "منى " معى فى دهب (أصبحتْ أما لها طفل وطفلة أصادقهما بالتدريج بديلا عن أهلهم أو أكثر من أهلهم)، ترانى مُنَى مهموما وأنا أعيش هذه التساؤلات بعد تلك المفاجئة، التقطتْ مـدى جزعـى. حدثتها بما بى. قالت لى ببساطة ووضوح وثقة لست أعرف من أين أتتها: أكْتبه يا أبى من جديد. سـوف تكتبه من جديد. كيف يا ابنتى؟ بعد أربعة عشر عاما بالتمام أكتب من الذاكرة ما حدث خلال بضعة أيـام مر عليها كل هذا الزمن؟ قالت ابنتى: أنا متأكدة.

من ماذا هى متأكدة؟ كيف؟

بعد عودتى من دهب صممت أن أجد هذا الفصل ما دمتُ متأكدا هكذا. قلت أبحث فى كل أوراقى القديمة لعلى كتبت مسودته ولم أنشرها بسبب انقطاع ظهور المجلة عدة سنوات، لكن كيف ظهرت الفصول التالية تحكى أحداثا تالية، ومع ذلك رحت أقلب فى أكوام الأوراق المخبأة من سنين بعضها كوّمتـه تحـت اسـم "أصول " وبعضها باسم "أوراق لـلفرز " وبعضها " أوراق بلا عنوان ".

لم أجد الفصل. لا كله ولا بعضه ولا أى إشارة له. حل بى غمّ أكبر من قيمة ما ضاع، كأنى فقدت شـيئا لا يعوّض، مع أنه ــ فى الأغلب ــ فصل ككل الفصول، ومع أنى كثيرا ما أتساءل: ما معنى كـل هـذه الفصول؟ ماذا فيها مما هو عام بحيث يخص القارئ العام؟ فلماذا هذاالجزع هكذا؟ وماذا لـو لـم ينـشر هذاالفصل أصلا؟ بناقص فصل. بل وماذا لو لم ينشر هذا العمل كله من حيث المبدأ؟ هل سـينقص أحـد شيئا، هل سينقصنى أنا شخصيا شيء؟ ماذا أضيف بهذا الكلام، وهذا الحكى؟ ما جدوى هذا العمل أصلا؟

فجأة، حضرتْ أمامى صورة ماثلة مستعرضة لأحداث هذا الفصل المختفى. ما هذا؟ ما هذا كله؟ لم أكـن أتصور أنى سأتذكر لحظة واحدة مما كان، ولا كلمة واحدة مما كتبت، (إن كنت كتبتهـا أصـلا. بـدأتُ أشك). وإذا بكل هذه السنين التى مرّت (١٤سنة) تختفى، وإذا بى أعيش كل لحظات ما كنتُه، وتذكرت ثقة

"مُنى "ابنتى، وفرحتُ أنها تعرف عنى، أوتظن فىّ. ما سمح لها بما قالت. ابنتــى !! ترانــى، تعرفنــى!! الحمد لله، ما أجوعنى لذلك.

قررت أن أنفذ اقتراحها. أن أعيد كتابة الفصل بعد أن تأكدت من فقده وقلبــت أوراقــى المبعثــرة عــدّة مرّات، سوف أتذكر أغلب المهم، الذاكرة لا تنفى إلا ما لا لزوم له، أو ما لا تطيقه، ليكن، أن أستدعى مــا تيسّر مما غاب، هذا وارد حسب ثقة ابنتى بى، لكن كيف أستبعد ما حــضر ممــا وجدتــه فــى أوراقــى المبعثرة؟ مأزق جديد. الأصعب أنتظر ما حضر. أصعب من أن تستدعى ما غاب. ذلك أن ما عثرت عليه مبعثرا فى أوراقى أثناء البحث، بعضه كان مكتوبا من خمسين عاما، والبعض الآخر مــن ربــع قــرن، وبالذات خلال عقد من حياتى كان حافلا جدا (العقد الخامس). متى كتبت كل هذا؟ لمن؟ لماذا؟ أنــا لــست ممن يكتب مذكرات منتظمة؟ لا أفهم فائدتها إلا بقدر ما يكون لصاحبها شأن خاص. أنا لست كذلك. ما كل هذا الذى سجّلته هكذا؟ متى؟ ماذا أفعل به؟ أفكار، وثورات، وخطابات متبادلة مع أستاذ وطبيب نفسى كان صديقا، وما زلت أعتبره كذلك. احتفظت لصديقى هذا بمكان خاص فى نفسى وحافظتُ عليه "كما كان ". تركت له ما فعله بنفسه لاحقا. يبدو أننى كنت أشم رائحة ما كان سوف يحدث. ذلك أننى طلبــت منــه أن يسلّمنى خطاباتى إليه كما احتفظت بخطاباته لى. كيف نهمل ذلك مع أن الخطابات التى كانت بين فرويــد ويونج، أو الخطابات بين ديتويفسكى وأخيه، أو بين فان جوخ وأخيه، أوطه حسين وسهير القلماوى، كانت من أهم ما سجّل مسار فكرهم،.الله الله الله ! ما لى أنا بهؤلاء؟ أين أنا منهم؟

المهم، وجدت أشياء كثيرة، مكوّمة أكواما كثيرة،حلّت محل ما تصورته مفقودا، وبدت لى أهــم وأكثــر دلالة إن كنت أحاول حقيقة أن أقدم نفسى للناس .

ما العمل؟

مادام هذا العمل قد انتهى أن يكون محاولة مكاشفة، فليكن كذلك، وليكن هذا الفصل بمثابة اختبار للذاكرة من ناحية، وامتداد فى الزمن من ناحية أخرى. رجّحت إمكانية اقتطاف معالم الحاكى قبل نصف قرن بمــا تيسّرمما وجدت.

هل يمكن أن أتنقل بين أوراقى، وذاكرتى المسافرة، وحالى الآن بما يجعل ضياع هــذا الفــصل إضــافة دالة؟

والله فكرة. تنجح فقط لو استطعت مقاومة أن تستدرجنى هذه الأوراق إلى ما لا لزوم له مــن تــداعيات هامشية قد تخرجنى عن الخط الأصلى لهذا العمل الذى أقدّم به نفسى، لمن؟ ربما لنفسى .!!

قال لى نجيب محفوظ منذ أيام أنه فى ورطة أدبية (وكنت قد اختليتُ به وحدى علــى النيــل فــى فلفلــة بالقرب من "كوبرى الجامعة " نظرا لغياب بقية الحرافيش تلك الليلة). دهشت وفرحــت فرحــة خاصــة بتواضعه وصدقه، وانتظرت أن يُكمل فقال: إنه أرسل الحلمين الأخيرين إلى سناء البيسى (نصف الــدنيا)

وهو غير راض عنهما (هو يكتب هذه الأيام ما أسماه "أحلام فترة النقاهة). ثم أضاف أنه طلب منهـا أن تحكم هى إن كانا صالحين للنشر أم لا، وطمأنها فى نفس الوقت أن عنده غيرهما ممـا هـو راضٍ عنـه تماما، فدهشت أن يجعل سناء حكما على ما يكتب، وقلت له إنها سوف تتحرج أن تقول رأيها حتما، فأنـت مَن أنت، فكيف تجرؤ سناء أن ترفض أو تلوح بالرفض؟ فأكد لى أنها تجرؤ، ولم أؤكد شكى ثانية احتراما لرأيه رغم أنه لم يقنعنى. سألته ماذا لا يرضيه فيما أرسل للنشر؟، قال: إن الحـاج صـبرى (المكلـف بقراءة الصحف له يوميا) حين قرأهما لى، وجدت أنه، ليس فيهما شئ عام. لا بد أن يكون فى الكتابة شئ عام. استفسرتُ منه عمّا يعنيه بالفرق بين الخاص والعام، فلم يزد عما قاله.

تذكرت هذا الحديث وأنا أتساءل: هل فى هذا الذى أكتبه شئ عام، وكيف أفرز العام من الخاص؟ وكيف حكم نجيب محفوظ على هذين الحلمين بالذات بأنه ليس فيهما شئ عام؟ حين قرأتُهما لاحقا منشورين فـى نصف الدنيا وجدتُ فيهما ما افتقده هو. وأكثر. فإن صح هذا فىما تـصوّر شـيخنا فـى كتابـة القـصة أوالرواية أو الحلم، فهل يصح فيما هو سيرة ذاتية؟، وهل السيرة الذاتية إلا شأن خاص له صـدى عـام؟ وحتى القصة القصيرة، والرواية، كيف تكون صادقة وباقية إلا إن كانت معبرا سلسا من الخاص إلى العام وبالعكس؟ ثم إنى لست أنا الذى أضعتُ هذا الفصل الرابع، هو الذى ضاع. لـتكن تـداعيات، ولتـصطف الهوامش بجوار بعضها لتصنع متنا هى مسئولة عنه، وما قُدِّر يكون.

بقدر ما فرحت حين عثرت على مذكرة (أجندة) قديمة ترجع إلى سنة ١٩٥٠ (نـصف قـرن بالتمـام) انقبضتُ .ذلك لأنها ذكّرتنى أننى قبل كتابة هذه المذكرة بعدة سنوات (ربما ثلاثة أو أربعـة أى فـى سـن ١٢/١٣سنة) كنت قد بدأت كتابة مثلها،أو ما هو أكثر فجاجة وصدقا منها.

الذى حدث أننى سنة ١٩٤٩ كنت دخلت "مرحلة " الاخوان المسلمين، وهى مرحلة كان يمر بها أغلـب من هم فى سنى آنذاك، وكانت مرحلة بالغة الدلالة واعدة الفائدة، (طالما ظلت مرحلة وليست مـستقبلا!!). وحين حـُـلّت جماعة الاخوان: كنت أقوم ــ دون تكليف ــ بنسخ نشرة سرية أذكـر أن اسـمها كـان: "الوثبـة ". كان على كل واحد منا أن ينسخ نسختين بيده ويوزعها على من يعرف ممن يهمه أمـر هـذا البلد، أو بتحديد أصدق: أمر هذا الدين الذى سوف يصلح هذا البلد. كان التفتيش والقـبض علـى بعـض الاخوان قد بدأبعد اغتيال النقراشى، أو ربما قبل ذلك بعد حادث سيارة الجيب أو مقتل الخازندار. كان لـى ابن خالٍ (من بعيد) متهم (وهو المرشد العام للإخوان حاليا ــ سنة ٢٠٠٠)، لكنه لم يكن معتـادا زيارتنـا بدرجة تجعل بيتنا موضع ظن. إلا أننا، أخواى وشخصى، وأنا أصغرنا، خفنا من والدى أن يعثـر علـى أوراق من نشرات (رسائل) الاخوان، وبالذات على "نشرة الوثبة " المنسوخة بخط يـدنا، فوضـعنا كـل الأوراق الخاصة بنا عند جارة لنا ليس لها أولاد (اسمها "أبلة نازك ")، وكـان مـن بـين مـا وضـعتُ مذكراتى هذه من سن ١٢ إلى ١٥، ثم نسيت (أو نسينا، أو تناسينا) الأمر حتى قامت الثورة.

كان الجو فى بداية الثورة يوحى أن الضباط والإخوان سمن على عسل. فكّرت فى استرداد أوراقى و "أجنداتى " من عند أبلة نازك، وكنت قد أصبحت طالبا فى كلية الطب، وبدا لى أن مذكراتى هذه تستأهل النظر، لكن "أبلة نازك " أخذت تعِدُ وتؤجل، ثم تعِدُ وتؤجل، حتى انتقلت إلى حيث لا تستطع أن تعد أو تؤجل. رحمها الله. ولعل ذلك التأجيل كان بإيعاز من زوجها الأكبر منها كثيرا، والأحرص منها كثيرا، (أنا لا أذكر اسمه الآن، فقد كان يعرف لدينا بأنه "زوج أبلة نازك ")، والراجح عندى حالا أنها،ربما بإيعاز من زوجها، قد فهمت مغزى أن نودع هذه الأوراق والكراريس عندها، فتخلصت منها بشهامة الأم المنقذة أولادها من تهورهم، وأيضا حرصا على سلامتها. معها حق.

مع عثورى على أجندة سنة ١٩٥٠ هذه تصورت أن ما كتبته قبلها فى سن أصغر كان أهم وأكثر دلالة. لا يا شيخ!؟!،حتى لو كان كذلك فهو قد لا يضيف إلا كوما آخر من أكوام الأوراق التى عثرت عليها وأنا أبحث عن الفصل الضائع.

قف.

لنبدأ أولا بما استحضرته الذاكرة بعد أن أوصلنا الأولاد المطار، ولنختبر ثقة ابنتى بذاكرتى. وأننى قادرعلى كتابة (أو إعادة كتابة) الفصل الضائع.

١٩٨٦/٨/١٦

كان الأولاد قد شبعوا وبدوا فرحين وهم عائدون بهذه القطمة الصغيرة التى ملأت وعيهم، وكأنها أعادت لهم كل نبض، ورائحةٍ، وجزلٍ، وفرحةٍ، ودهشةٍ رحلتنا الطويلة السابقة، لم يكن ينقصنا فى هذه الرحلة الجديدة الموجزة إلا الصغيرين أحمد رفعت، و على عماد.

هذا النوع من "الإحياء "، كما أسميه، هو أهم ما أهملناه فى التربية وتنمية الخبرات، اسميه فى ممارستى الطبية: الجرعة المنشّطةBoster dose بمعنى أن كثيرا من المعلومات (الرسائل/الإشارات) تقوم بعملها ليس بقدر فاعليتها هى، وإنما بقدر ما تنشط من خبرات أقدم متعلقة بها، تماما مثلما تأخذ مصلا ضد التيفود، ثم كل عام أو عامين، تأخذ ربع الكمّية من نفس المصل لتنشط المناعة إذ تعود الأجسام المضادة إلى مستواها وأعلى، أحيانا يأتينى مريض قديم كان فى المستشفى عندى لبضعة أسابيع أو شهور، لكننى أدخله مجددا لمدة يومين أو أسبوعا واحدا، فأجد أن هذه المدة القصيرة كافية لإحداث المفعول العلاجى الذى احتاجَ قبل ذلك عدة أشهر للوصول إلى نفس مستوى التحسّن الذى وصل إليه المريض لاحقا فى بضعة أيام. علّمتنى هذه الممارسة العلاجية أن كثيرا مما يصل إلى المريض (وإلى الوعى البشرى عامة) ليس مجرد مثيرات تحتاج إلى استجابة، وإنما هى رسائل تحتاج إلى استيعاب، ثم إنه يمكن تنشيط هذه الرسائل بين الحين والحين كما نشَّطت هذه الرحلة القصيرة لدى الأولاد خبرة رحلتنا الطويلة. فعادوا راضيين.

رجّحت أن السفر عامة، مهما قصُــرت مدته، قد يقوم بنفس المهمّة التنشيطية التذكيرية، السفر فى ذاتــه ــ مهما قصر ــ قد يحرّك أسفارا سابقة لتتكامل معه، فتتكامل الخبرات ويمتلئ الوعى، لــيس فقــط بمــا استجد من مشاهدات، وخبرات وتعــرية، وإنما بما نشّطَ من وعى كامن، وذكريات، ورؤى. كنت شخصيا أتساءل عن معنى كثرة أسفارى الخاصة، أسافر فأرى وأجد، لست أدرى ماذا، حتى ولو أرجع فــى نفــس اليوم. الآن أتبين كيف أن مثل هذه الرحلات ــ بغض النظر عن وجهتها أو مدتها ــ تقــوم بالواجــب إذ تنشّط رسالة كامنة، وأحيانا يصل بى الأمر الآن (مارس ٢٠٠٠) أن أسافر إلى جنوب ســيناء "دهــب " (ست ساعات وأنا أقود السيارة وحدى) لأمكث هناك يوما واحدا وليلة واحدة، أكتب فيها وأقرأ وأعوم (فى عز الشتاء) وأبادل أصدقائى من العاملين فى محــلات الأكــل والــشرب والأشــياء الــصغيرة التحيــة والأشواق.ثم أعود خلال نهار وليلة (٦ ساعات أخرى) وكأنى مكثت شهرا، أو عمرا. كثيرا مــا يــسألنى المحيطون ماذا أجنى من كل هذا "التعب "، وإضاعة الوقت، فأكتفى بالرد بأنى أكتب أكثر وأقــرأ أكثــر، ولا أقول لهم إن الوقت يتضاعف رغم ما يتصورونه من ضياع ١٣ ساعة فى الطريق. وحــين تــصلنى دهشتهم رغم تبريرى أعود أنظر فى نفسى فأكتشف أننى أمارس هذه الرحلات وكأنها برنــامج "الــذهاب والعودة " In-and-out program الذى لا بد أننى أشرت إليه كثيرا. هذا البرنانج (الــذى وصــفته مدرســة العلاقة بالآخر/الموضوع،وأكّده جانترب بالذات) يشير إلى أن الحركة الحيوية، حركة النمو، لا تسير فــى خط مستقيم مضطرد، وإنما هى دائمة التقدم للتراجع، ليس فى المحل، وإنما لتحقيق النقلــة النوعيــة كــل مرّة. أنا لا أذهب لأعود، لكننى أعاود لأتجدد وأضيف، ثم خذ عندك هذه الرسائل التى أتلقاها أثناء القيــادة مهما تكررت المناظر، وفى محطات الوقود، وعند مقابلة من لا يعاملنى بما شاع عنى، هذا هو بعض مــا عنيته من أن السفر هو "جرعة منشطة " لما قبلها، فاتحة لما بعدها، أكثر منه خبرة مــستقلة، وهــذا مــا تصوّرت أنه بلغ الأولاد من أسبوع واحد فى أثينا وضواحيها، كان كافيــا لعــودتهم ممتلــئين فــرحين راضيين، وكأنهم استعادوا رحلة الــ ٨٢ يوما التى حكيت عنها فى الترحال الأول وبداية هذا الترحال.

ماذا يهم القارئ مما يبدو خاصا جدا هكذا؟ هل هذا خاص فعلا؟ ما هى حكاية الخاص والعام هــذه؟ الله يسامحك يا شيخنا الجليل محفوظ. السيرة الذاتية تتداعى فى رؤى تتخلق. هى ليــست أحــداثا، ولا حتــى ذكريات، ولا هى حتى أمور خاصة. ألهذا عنوتَ بعض سيرتك فيما أسميته "أصداء "؟

من المطار توجهنا، زوجتى وأنا، بالعربة الخاصة (ليست حافلة هذه المرة) إلى الشمال مباشرة. كنا قــد وضعنا أشياءنا فى العربة عامدين أن نواصل رحلتنا من المطار بعد توصيل الأولاد مباشرة. كان بنا نفورُ واضح من العودة إلى فندقنا ولو ليلة واحدة حيث العرب المسلمين الذين ليس لهم عيد، لم نعتبر فتــورهم تقصيرا، وصلنا أنه إنكار تام لهوية لم يعد لها معالم!!

عرفنا الطريق هذه المرة دون سؤال أو حيرة، كنّا قد تعلمنا ــ من الرحلة السابقة ــ لغة الإشارات، ورسم الحروف باليونانية، وفروق النطق عن الانجليزية، وبدأت تصلنا من الطريق تلك الجرعة المنشّطة التى راحت تعمل عملها،

مررنا على "لاميبا ". وتذكرنا كيف كنا ننطقها خطأ ،

مضينا مؤتنسين فى صمت مختلف.

لا. لا. هذا سفر آخر.

الطريق هو الطريق، والشمال هو الشمال، و لاميباا هى لاميباا، لكن أين الاولاد؟ أين الأغانى؟ أين نومهم الذى يغيظنى ويسمح لى بالتأمل معا؟ للسفر مع الأولاد طعم آخر، مواجهاتى مع زوجتى التى اضطرت إلى مسايرة إيقاعى (بزواجها منى) يجعل هذا السفر نوعا ثالثا (النوع الثانى: سفرى وحدى)، ما لها هى وكل هذه الحركة التى لا تهمد، ذهابا وإيابا، فى الداخل والخارج طول الوقت، إلى متى؟

كنت قد كتبت أطروحه عن "تحرير المرأة وتطور الانسان " تبدأ بالتأمل فى الفرق بين حركة الحيوان المنوى القلق فى مقابل استقرار البويضة المستقر، على أن هذا الفرق ليس نهاية مطاف الفرق بين الرجل والمرأة، بل هو بداية الطريق، الرجل لا يكتمل إلا إذا حققت حركته (فعلُه Verb to do) كينونتَه، والمرأة لا تكتمل بدورها إلا إذاحققت كينونتُها (Verb to be) حفزَها للفعل. وبناء على هذه الأطروحة، أتبين أننى لم أكتمل، ولا زوجتى، وكأنى مازلت أعانى قلق الحيوان المنوى، وكأن زوجتى ما زالت تصر على التبويض المُستقبِل المستقر، إلا أن مشاركتها لى هذه الرحلات لم تكن قهرا والشهادة لله، بل إنها كثيرا ما كانت أنشط منى فيها، وأحرص على تكرارها، مهما اشترطتُ عليها من شروط المشقة و تَوَاصُل الكشف، وقلة التسويق.

بعد لاميبا بكثير، نبّهنا مؤشر الوقود إلى محطة للتزود به لاحت من بعيد. كنا قد جعنا. تعلّمنا أن كثيرا من محطات الوقود ــ فى اليونان وغيرها ــ تشمل وقودا للبشر مثل وقود السيارات، بما فى ذلك الوجبات الساخنة. توقفنا، وملأنا الخزان، وعرجنا إلى المقهى/المطعم، تبينا أن من بين الوجبات التى شبّهنا عليها وجبة رجّحنا من شكلها و إشارات النادل أنها "مسقعة "، ويبدو أن المسقعة فى بلاد الخواجات تحمل مزيجا من ريح (تقلية) الشرق، وبرد (سقعة) الشمال، أثناء تناوُلنا هذه الوجبة التى هى من الوجبات القليلة التى أحبها أنا وزوجتى معا، اكتشفت أننا فى أعلى جبلٍ ما. متى صعدنا إلى كل هذ الارتفاع؟ حين تكون بعيدا عن السفح، وعن الجبل قد يسحبك الطريق إلى أعلى دون أن تدرى إلا من أنين عربتك أو احتجاجها بالإبطاء بدون سبب ظاهر. لسنا فقط فى أعلى الجبل، بل إن هذا الجبل، مثل كثير من جبال اليونان تنتهى حافته إلى البحر(المتوسط طبعا). على مرمى البصر لمحتُ كوخا (أو اثنين أو ثلاثة) قرب الشاطئ وبضعَ أشجار جميلة وسط الخضرة الممتدة، وعاودنى حسدى لهم. قفزت إلى

مخيلتى أحلام اقتناء كوخ منعزل وسط جبل أخضر، هاج علىّ الحنين إلى "الركن الصغير وسط غرباء طيبين "، ناديتُ على النادل أسأله عن هذا الكوخ (أو الأكواخ) بالإشارة طبعا: هل هو موتيل أم بيت أسرة صياد. لم تنجح لغة الاشارات. لم يفهم شيئا. لكننى صممت أنه فهم. رجحتُ ــ بالعافية ــ أنه حتى لو كان كوخ أسرة صغيرة، فإنهم قد يسمحون بتأجير حجرة لليلة واحدة. تعلمتُ ذلك من مبيتى فى منزل الأسرة المتناهى الصغير فى جنوب فرنسا فى القرية قرب بيارتز (مما سبق الإشارة إليه. غالبا). كل الناس فى بلاد الفرنجة تستغل ماليديها من أماكن وأشياء طول الوقت أقصى الطاقة حتى لو كانت حجرة نافرة فى الحديقة، أو عشّة على السطح. كانت زوجتى تتابع حوار الصم هذا متوجسة شطحة ًجديدة لا تعرف إلى أين سوف تنتهى بنا، أنا أشير من جديد، وأغمض عينى وأميل برأسى لأفهّمه أنى أريد أن أمضى ليلة فى هذا الكوخ، وهو يشير إلى أسفل حيث الكوخ، بما لا أفهم، والخطر يزداد اقترابا من زوجتى، فتتحقق من مخاوفها حين سألتها عن رأيها لو أننا قضينا ليلة أو بقية أيام الرحلة، فى هذه الحجرة المزعومة عند هذه الأسرة الصغيرة المُفترضة، على هذا الشاطئ الجميل الواعد، فى حضن الجبل الحانى، قلت كل ذلك، أو تصوّرت أننى قلته، وأنا فى أشد حالات الحماس. الكوخ يجذبنى إليه بشكل أقرب إلى قوانين جاذبية مغناطيس الحديد منه إلى رغبة بشرية، طأطأتْ زوجتى رأسها، وتباطأتْ، وامتقع وجهها، فقرأتُ حجم مقاومتها• كان أكبر مما توقعت، ومع ذلك تماديت أقلل من جدوى ذهابنا إلى تركيا أصلا، ماذا سنجد فيها؟ نحن نريد معاشرة خواجات "بحق وحقيق "، والأتراك ليسو خواجات، ثم إنى أريد أن أنهى كتابة دراسة كُلفت بها من مجلة فصول عن "جدلية الجنون والإبداع "، وقد أحضرتُ معى كل شيء ": الأوراق والأفكار وسجل العناصر والأقلام والحماس، ولم يبق إلا "كل شيء: الكتابة والترتيب والتبويب والإعادة والمراجعة والتوثيق!! ثم إنى أحلم وأنا أكتب هذا الموضوع بالذات أن ينزل علىّ فتحٌ من البحر والغربة، أن أتجدد منطلِقا فى حضن الخلاء والسماء والجبل، أتصورأنه فى هذا الكوخ البعيد المتفرد، قد يحدث كل ذلك، سوف تتاح لى الفرصة التى أنتظرها من زمن، كل ذلك قلته أو لم أقله وصل إلى زوجتى وهى صامتة ووجهها يزداد امتقاعا. خليطٌ من التوجس والخوف والتردد والغضب والرفض، ولا أستبعد درجة من الاشفاق علىّ، وربما محاولة فهم. يصلنى جُمّاع كل هذا وهو أنها لا توافق بمنتهى البساطة والوضوح. على الرغم من أنها لم تعلن رأيها بعد، إلا أنى أعلنت عدولى عن كل ما قلت، عدلتُ راكضا نحو الناحية الأخرى: الاحتجاج الصامت، والانفصال المتجمد الحزين، حتى وددت لو بقيتُ جالسا فى مطعم محطة الوقود هذه حتى يحين موعد عودتنا إلى مصر، كنت مثل طفل يحرن بعد أن رفضت أمه الاستجابة لمطلبه الذى يعتبره الحياة ذاتها.

لا لا لا. المسألة تكررت بشكل بدأت أنشغل عليه، لم تعد بصيرتى فى هذا الجذب الملحّ تكفى أن تمنعه أو تحد من قفزاته العشوائية، كم مرّة شُددت هكذا إليه، فى فالورسين فى جبال الألب، فى ضاحية باريس

ونحن نزور فرانسواز صاحبة ابنتى منى، فى أبيثيا وبونيار (شمال أسبانيا)، فى المنوات مقابل أبو صـــير، فى الفيوم، فى دهب، فى العين السخنة، فى أعلى المقطم حيث أكتب الآن؟ فـــى رأس الحكمـــة، الانفعـــال الذى حلّ بى نتيجة موقف زوجتى الطبيعى من رغبتى هذه التى أرجّح أنها تعلم شطحها الناشز هو الـــذى نبّهنى من جديد إلى جدّية مسألتى هذه، ومع ذلك فكل هذه البصيرة، وهذا النظر وهذا التنبيه لا تمنعنى من الاستجابة للحنين إلى حضنه.

أنا لا أعرف ماذا كنت أفعل لو أن زوجتى وافقتنى.

الأرجح أننى سرعان ما كنت سأتبين أنه "ليس هو "، ثم نتشاجر لسبب أو لآخر، فلا نحن ســـافرنا، ولا أنا كتبت، ولا تحقق شئ من مزاعمى فى الإبداع وإعادة الولادة، والتجدد وهذا الكلام الكثير.

أنهينا أكل المسقعة والزيتون الأسود فى صمت تعرف زوجتى معناه ومضاعفاته، وانطلقنا إلى الشمال، رحت أتابع لافتات تقول سالونيكى وأخرى كاتيرينا والثالثة "باراليا " من أعلى إلى أسفل على التـــوالى. (الأسفل هو الأقرب). الصمت يزداد ثقلا وثرثرة معا. صورة الكوخ تراودنى وكأنها "الحـــل ". لـــم يعـــد هناك أى شك فى أنى أمارس ــ طول الوقت ــ "برنامج الذهاب والعودة " مـــع جـــذب متزايـــد نحـــو "الركن البعيد الصغير " "الواعد بنقلةٍ ما "؟ ليس مهما إلى أين، لكننى لا أستطيع أن أوقف هـــذا الإلحـــاح الواعد أن هذا الكوخ، هذا الركن الصغير القصى سوف أخرج منه مختلفا حتى لو لم أكتب حرفا. بالـــذات لو لم أكتب حرفا. لو رصدتُ كم عددا من المرات حرّك هذا الجذب المعاود خيالى نحو شئ ما، أمر مـــا، كشفٍ ما، شئ لم أعرفه أبدا، لوجدتُها بلا حصر.

أعتقد أن أول ذلك كان صيف سنة ١٩٥١، لم يكن هناك امتحان بين سنة أولى وسنة ثانية طب، كنت فى الحديقة التى اتخذها أبى بمثابة ركنه الصغير هو أيضا (هذا ما أتبينه الآن بوضوح). حجرتـــان لا تـــسعنا نحن السبعة بحال، ومع ذلك اضطررنا للانتقال من منزلنا الكبير وسط القرية (ثلاثة أدوار كل دور ثلاثـــة حجرات). لم يضطرنا أبى، بل أظن أن أمى، وربما أخى الأكبر هما اللذان وجدا أن هذا هـــو الطبيعـــى. هاجر أبى من بيتنا الكبير ذى الثلاثة أدوار غير البدروم إلى هاتين الحجرتين العتيقتين فى تلـــك الحديقـــة التى تقع مقابل المقابر مباشرة، – ذكرت ذلك قبلاً – وكان ثمة مقابر متفرقة بينها مفتوحة بسبب الإهمـــال أو فعل الذئاب، وكنت فى حاجة إلى عظام آدمية من التى ندرس عليها التشريح، وكنـــت أحـــصل عليهـــا ببساطة، وبوفرة تكفينى وتزيد حتى أهدى زملائى القاهريين بعض ما يفيض عنى. لم يكـــن يعترينـــى أى تردد أو خوف من تلك المقابر، أتذكر الآن كيف كنت أنسى وأنا أبحث عن عظمـــة ذراع أو فخـــذ، أنهـــا مقابر أصلا، وأنها بقايا أعضاء بشرية فعلاً.

فى يوم ما، فى ذلك الصيف البعيد (١٩٥١)، سافر والدى إلى إخوتى فى القـــاهرة، وكـــانوا لـــم ينهـــوا امتحاناتهم بعد. أخطرنى أنه سيغيب يومين. وجدتنى وحيدا، وبدون أى سبب، تحت شجرة مـــانجو عتيقـــة

جدا، وجدتنى أبكى بحرقة صادقة، ثم أفقت منتشيا وأنا أشعر أن وحدتى تتعمق بشكل رائع، فرُحت أتغزل فيها وكأنى عثرت على كنز ثمين، سجّلت ذلك كتابة (على ما أذكر. على الرغم من أننى لم أجد له أثـرا فى أوراقى المبعثرة). حين ذهبت بعد ذلك إلى إحدى المقابر وحدى أستكمل بعض حاجتى مـن العظـام، شعرت لأول مرة بهذا الجذب المريح الواعد، كانت لحظات عابرة لكنّها شديدة الوضوح، ثم نسيت الأمـر تماما، ولم أتذكره إلا الآن وأنا أعِد هذا العمل للنشر(٦/٧/٢٠٠٠) بعد اكتشافى فقد مسودة هذا الفصل.

حتى حجرتى عند مدام كومباليزييه فى الحى الثامن عشر قرب المونمارتر فى باريس، اكتشفُ الآن أنها كانت ركنا قصيا على طرف المونمارتر، بعيدا عن زملائى فى الحى اللاتينى، وبعيدا عن كـل مـا هـو قريب، كانت ركنا على طرف الدنيا، وليست حجرة فى شقة. حين أبتعد،أقترب.

لا تكتمل صورة الركن عندى إلا إذا كان صغيرا (حجرة واحدة عادة) ملحق به،(الأفضل: فـى داخلـه) دورة مياه خاصة بها، مهما صغرت، ونافذتين على الأقل إحداهما بحرية،

بمجرد أن أجد نفسى فيه (ولو تخيلا) أهدأ وأترك نفسى لها، لكننى لا أستكين كما يتبادر إلى الذهن، بـل سرعان ما يبدأ نزوعى إلى حركة جديدة يقظة متحفزة، لكنها ليست حركة ضجرة ولا لحوح.

أحيانا أتصوّر نهاية المطاف بعد التقاعد الاختيارى أو الاضطرارى فأركن إلى ركن خيالى وهـات يـا كتابة، أيضا ذهابا وعودة، وتقفز احتمالات ما لا أعرف بعد مشوارى الطويل الذى خـدعتُ نفـسى فيـه بمواصلة معرفة المُتاح.

أعتبر هذا المتاح مجرد تمهيد للوعدالملوّح.

بعد صمت ثقيل، قطعنا فيه مالا يقل عن ثلاثين كيلو مترا اكتشفت أن اسم البلد الأقـرب لهـذا الكـوخ الملوّح هو "باراليا، " قلت لزوجتى فجأة، وكأنى نسيت كل ما اهتدت إليه بصيرتى مما سبق، قلـت لهـا جادًا مكفهرا فى غضب لايتناسب مع كل ما اعترفتُ به لنفسى عن نفسى: "إذا مـــِتُّ، فـأخبرى أحـد الأولاد أننى كنت أريد أن أبيت هنا فى هذا النزل على الشاطئ تحت أقدام هذا الجبل، ولو ليلة واحدة. " لم ترد، ولم أشك أنها أخذت كلامى مأخذ الجد، ومع ذلك أكملتُ: أنا أعنى ما أقول، اعتبريها وصـية، البلـد اسمها باراليا، والمكان هو بجوار أقرب محطة لها فى اتجاه لاميا، ثم أضفتُ أيضا: أو ربما تمكنتُ يومـا من العودة إليه وحدى. زاد صمتها غورا واحتجاجا، ورجحتُ ــ كما فرحتُ ــ أنها لـم تـشعر بالـذنب، وأحسب أن هذا من أهم ما حفظ علينا حياتنا، حيث أتصور أن ما أمارسه معها من "تأثيم " كان جديرا أن يخرب بيوتا كثيرة، ونفوسا كثيرة، لكنها كانت دائما أطيب، وأظن أقوى من حركاتى تلك.

وصلنا إلى سالونيكى قرب المغرب، وهى العاصمة الثانية لليونان كما سمعت، وقـد تـذكرت أيـضا، لا أعرف كيف، أن اسمها هذا مرتبط قديما وحديثا بأحداث خاصة وتاريخ متميز (مثل كل بقعة فـى الـدنيا على ما يبدو) .

الجو بينى وبين زوجتى مازال مكفهرا قبيحا، كأنى أخرجت فعلا من رحم مزعوم قبل موعد الولادة الطبيعية، ولادة مبتسرة دون حضّانة حانية ولو صناعية، أنا لم أدخل هذا الرحم المزعوم أصلا فكيف تكون الولادة دون حمل، حتى لو كانت مبتسرة؟

نسأل عن الطريق إلى حدود تركيا، ولايطول السؤال ولاندخل إلى وسط البلد، سالونيكى،، وتبدأ عربات الشحن العملاقة تكاد تسد الطريق إلى الشرق، إلى تركيا.

تتجنب زوجتى أن تسأل، وربما أن تتساءل، عما إذا كنا سنواصل السير طول الليل أم سنلتزم بتحفظى الذى أعلنته بتجنب السير ليلا، تقليلا لاحتمالات الخطر، فهى تعلم أنه ما أسهل علىّ أن أخل بتحفظى، وأن أجد المبررات جاهزة لأى دوران فى عكس الاتجاه. ثم إنه لا يبدو أى احتمال للتوقف أصلا، فلماذا السؤال أوالتساؤل؟

الشاحنات المتعاقبة والمتثاقلة جعلت الحركة بطيئة، فزادت كثافة الهواء العازل بينى وبين زوجتى جدا. عبرنا سالونيكى من الخارج، وبالتالى أسقطتُها من حساباتى. ذكرت من البداية أنه لا يمكن أن تتعرف على مدينة أو قرية إلا من خلال السير على الأقدام فى حواريها قبل ميادينها، انفرجَ الطريق نسبيا، لكن سجى الليل !!!

مع انفراج الطريق انفرجت أزمة الولادة المتعسرة بالاستسلام إلى الأمر الواقع.

يبدو أنى ولدت خطأ، ولدت فى غير أوانى، إما قبله وإما بعده.

هذا الجذب اللحوح، أحلام الرحم، نص (برنامج) "الذها ب والعودة "، يقول ذلك.

اختفى الطريق فى عباءة الظلام تماما، ولم يبق أمامنا إلا الأضواء والعلامات، فالعلامات والأضواء، وحين وصلنا إلى بلدة متوسطة نوعا، وكان الطريق يخترقها ولا يلف، لمحنا لافتات تشير إلى مخيم وأكثر، فقررت فجأة، ربما رحمةً بزوجتى، وربما اعتذارا لها، قررت ضد انطلاق العربة وضد مزاجى النافر، وضد القصور الذاتى، أن نمضى بقية الليل فى أحد هذه المخيمات التى لمحنا الإشارة إليها.

البلدة اسمها "أسبراجاليا "، أثناء عبورنا وسطها لمحتُ محلا مضاءً كبيرا لا يتناسب مع حجم البلدة، "سوق أعظم " (سوبر ماركت) فهمست لنفسى أن جولة قصيرة هنا قد تبلّغ زوجتى ما عجزت ألفاظى عن قوله من أسف واعتذار، وقلت لها:نطمئن على مكان المخيم أولا ثم نرجع فى جولة قصيرة. لم ترد، ولعلها لم تصدق.

المخيم على بعد كيلو مترين، به مكان لنا طبعا، ميزة المخيمات أنها لا تمتلئ بروادها أبدا،لا تتخلى عنابر سبيل، اطمأنت زوجتى إلى عدولى عن مواصلة السير ليلا وأنا فى هذا المزاج المشحون من الداخل والخارج معا. سجلنا أسماءنا، وكنت أعرف يقينا أنه لا وقت عندنا لنصب الخيمة ولمّها بعد بضع ساعات، وزوجتى تعرف ذلك، وتنتظر المفاجأة، أو المفاجآت.

رجعنا الى البلدة المتوسطة التى رحمتْ زوجتى من مواصلة الرحلة ليلا، كنت قد حاولت حفــظ اســمها بالطريقة التى كنت أحفظ بها اسماء البلاد فى دروس الجغرافيا فى الابتدائى، قطعت الاسم إلـــى نــصفين، ورحت أردد فى سرّى "أسبرا " من الاسبرين و "جاليا " شئ أشبه بالجالية، الجاليــة الفرنــسية، الجاليــة الإيطالية!!،

تذكرت اقتراحا ساخرا مؤلما كان قد اقترحه أحد الأصدقاء فى إحدى المناسبات التى تــُذكرنا بتهميــشنا أو إلغائنا أصلا: التهميش يجرى عندنا طول الوقت لكنه يزداد حدّة فى مناسبات الانتخابــات، أو بمناســبة إصدار قوانين جديدة، وربما إعلان حرب، أو معاهدة سلام، كل هذه المناسبات العابرة البسيطة (!) التـــى لا يريدون أن يشغلونا بها حتى نتفرغ لمهمة المواطنة الخاصّة المغلقة، والمهذبة، والمسالمة، وهذا ماجعل صاحبنا يقترح أن نقوم بتسجيل مجموعتنا باسم الجالية المصرية فى مصر، وراح يشرح فكرته:

"بما أننا مجموعة متجانسة، موطننا الأصلى حسب شهادة النشأة هو بلد يسمّى مصر، وبما أن لنا أصول عرقية متقاربة، ولغة موحدة، وتاريخ قديم، فإن من حقنا أن تكون لنا جاليتنا الخاصـــة فـــى هــذا البلــد المضيف الذى نحن لا جئون فيه، والذى تصادف أن له اسم يشبه اسم موطننا الأصـــلى، والـــذى تفــضل بمنحنا حق الإقامة دون حق الانتخاب الحقيقى، ولا بأس من إبداء الرأى بلا لون ولا طعم ولا فاعليـــة ولا لزوم ". انتهى كلام (منطق) صديقنا المغترب،

عاودنى كل هذا وأنا أتحايل لتذكر اسم النصف الثانى من هذا البلد "جاليا "، "أسبراجاليا "، وكان أســهل علىّ أن أحفظها على وزن اسم "داليا " بنت أختى.!!

زوجتى تأخذ شهيقا هادئآ لأول مرة منذ ما يقرب من مائة كيلومتر، ويبدو أنها لم تصدّق بعــد أننـــا لـــن نكمل الرحلة ليلا إلا حين رجعنا إلى هذه المدينة النصف نصف، نحييها تحية المساء ونتأكد أننا فى مدينـــة بها كهرباء وناس وسوبرماركت، به فاكهة وأدوات من البلاستيك، وأكياس كثيرة مليئة بأشياء كثيرة، وجه زوجتى يقول إنها مطمئنة إلى أننا فعلا فى طريقنا إلى تركيا وأنها تشتاق إلى استكشافها جــدا (لا أعــرف لماذا) لم انتبه ــ كالعادة ــ إلى محتويات السوق الأعظم (السوبر ماركت) الذى ظل مفتوحا حتـــى هــذه الساعة المتأخرة من الليل فى هذه البلدة الـــ "أسبراجاليا "، لكن مجرد التواجد وسط الناس، وشراء بعض الفاكهة وبعض التذكارات كان كافيا لعودتى كما كنت قبل حكاية "الركن القصى، والجذب اللحوح ".

كلما ازددت شفقة على زوجتى، واعترافا بخطئى بينى وبين نفسى، ازددت قسوة ظاهرة أو خفية عليهـــا، وكلما ازددت صمتا ازدادت زوجتى توجسا.

رجعنا إلى المخيم أحسن على كل حال، واقترحت عليهـــا أن ننـــام فـــى العـــراء بجـــوار أى خيمـــة منتصبـــــة داخل كيس النوم (Sleeping Bag) لكل منا، فلم نجد إلا كيسا واحدة، ففرشنا قماش نـــصف خيمتنا وكأنها حصيرة، وتغطينا بالنصف الآخر. كان الجو محتمل البرودة.

لا نعرف كم لبثنا هكذا، ولا إن كنا نمنا أصلا أم لا، حيث بدأ الريح يشتد فى تصعيد غيــر مــألوف لنــا حتى قامت عاصفة متوسطة أخذت تشتد حتى انتبهنا جلوسا فى أشد حالات اليقظة. لا يوجد حــل آخــر، قمت قفزا إلى السيارة متصورا أن النهار قد اقترب. حاولت زوجتــى بطريقتهــا المهذبــة الحريــصة أن تنبهنى، لكن المحرك كان قد دار. محرك دماغى قبل محرّك السيارة. لممنا أشــياءنا الــصغيرة بــسرعة، أيقظنا الحارس بصعوبة ليفتح لنا الباب، ويأخذ حساب الليلة. وننطلق دون أن أنظر فى الساعة أصلا.

الاتجاه شرقا، والعاصفة تشتد، والرؤية محدودة، ولا تهدينا إلا أنوار الشاحنات التى تعلّمتُ كيــف أنهــا تزداد عددا وشطحا بعد منتصف الليل. لم أنظرفى الخريطة. لا يوجد احتمال آخر. إلى الشرق. دائما نحو الشرق،

مدى الرؤية يقل حتى يكاد ينعدم. أستنتج ارتفاعنا عن سطح البحر من علو أنين الــسيارة رغــم قوتهــا وسعة اسطواناتها.

يقترب فجرٌ آخر. فجرٌ يحاول أن يخترق طريقه إلى جبال لم تظهربعد، تحول بينه وبينها تلــك العبــاءة المتسخة المصنوعة من عدد من الرقع من الــضباب الأسود. نكتشف أن هذا السواد ليس ضبابا صــرفاً، وإنما هو مختلط بنسب متفاوتة من الدخان والهباب. تتراءى أشباح مصانع ما فــلا أميّــز الــضباب مــن الدخان من الهباب. نشاز ليس كمثله قبح. أكتشف أن مزاج أمس ما زال كامنا متحفزا. وســط كــل هــذا السواد الرمادى المبرقش تتبين زوجتى بصعوبة أننا نــدور حول جبلٍ ما. فوق جبلٍ ما. جبل منــسطحةٌ قمته، لكننا على حافتها. تنظر زوجتى إلىّ متسائلة فى صمت "لماذا، إلى متــى "؟ ولا ينــادينى الــوادى السحيق، فلا أرد عليه.

نخترق البلد الكبيرة التى لم أعتن أن أعرف اسمها، كانت مصانعها القبيحة قد استقبلتنا منــذ قليــل بهــذا الخليط الرمادى المتسخ، وحين تمتص مبانيها بعض عباءتها الداكنة نلمح معالم بشرية، تسير فــى عجلــة باكرة، ليست هى نشاط الصباح الجميل على كل حال، كما نلمح بعض الأتوبيسات ونتــذكر ــ أتــذكر ــ أننى لست وحدى فى هذا العالم، هذه التذكرة تقفز إلىّ بتكرار ملح، بلا فائدة على ما يبدو، لسنا وحدنا فــى هذا العالم. لست أنا العالم.

ما هذا؟ لماذا؟ فسحة هى؟ رحلة؟ أم قهر ذاتى بلا مبرر؟ !

كل ذلك لأننى لم أتمكن من الاستجابة لوهم جذب الركن القابع فى داخلــى أسقطـــُه علــى أى زاويــة مهجورة، وأنا على يقين من أننى لو أمضيت فيه عاما أو سبعة أعوام (مثل باتيست جرينــوى– العطــر. قرأته لاحقا. سبتمبر ٢٠٠٠، باتريك زوسكن. خِفت) سوف أغادره وأنا أبحث عنه من جديد؟

كيف أكون بكل هذه البصيرة، ولا أكف عن الخيال الواعد خداعا هكذا؟ ماذنب زوجتى ياناس فى هــذا كله؟ إما أننا معا على سفر أو: لا .

ومادمنا قد أخذنا تأشيرات تركيا واقتصر هذا الجزء من رحلتنا على تركيا، فما الداعى للمراجعة أو التراجع؟

أشعر أن بصيرتى هذه المرة تقوم بعملها أفضل، لا أستعملها الآن للتبرير الذى يغرى بالفهم لكنه يترك الحال على ما هو عليه. شعرت مع اقتراب النهار أنه يحمل معه رحمة ربنا بقدرٍ يكفى أن أتجاوز هذا كله، ومع اقتراب إشارات الحدود، اكتمل طلوع الشمس وهدأ الداخل، إلا قليلا.

على الحدود كانت الإجراءات بسيطة، والأتراك أقرب لنا، وإن كانت اللغة بدت لى سخيفة الجرْس، لست أدرى كيف أسرعتُ بالحكم عليها بالسخف مع أن المفروض أن كل لغة غريبة تكون كذلك؟ من أين آتى بهذا المفروض؟ خذ اللغة الإيطالية مثلا، أنا لا أفهم حرفا فيها، لكننى أشعر أنها لغة شديدة الجمال، ألمحتُ من قبل كيف يغنى أهل الوسط فى فرنسا .يغنون وهم يتكلمون، إنك تستطيع أن تميز موطنهم الأصلى أينما حلوا فى فرنسا. فليست كل لغة جديدة سخيفة الجرس، فلماذا التعميم؟

أثناء إجراءات الحدود كان معنا بعض اليونانيين، شعرتُ أن رجال الجمرك الأتراك قد فصلوهم عنا،مثلما تفعل عندنا دورية المرور حين تدع العربات الخاصة تمر دون العربات النصف نقل، أو الأجرة، خيّل إلىّ أنهم حجزوهم على جانب، مع أنهم لم يفعلوا ذلك. الوجوه مكفهرة على الناحيتين، والكراهية تكاد تقفز من الحقائب قيد الفحص، وأيدى رجال الجمارك تغوص فى المحتويات وكأنها تقلب التاريخ بين البلدين، أما نحن (غير اليونانين) فلم يطلب منا أحد حتى فتح حقيبة السيارة، داخلنى شعور بالارتياح الخبيث لم أعرف مدى خبثه إلا فيما بعد، تذكرتُ وأنا راجع من أسبانيا إلى فرنسا حين قسمونا إلى قسمين، الأول: مواطنوا دول السوق الأوربية، والثانى: سائر الآخرين، أولعلهم كانوا العرب خاصة، وفهمت معنى "أولاد الجارية "، وها هم اليونانيون دون غيرهم يوشَمون بوشم "ابن الجارية " على الحدود التركية، ماذنب الأفراد يحملون أوزار حكوماتهم، بل ماذنبهم يحملون حزازات تاريخهم؟ أصعب الأمور على النفس حكاية التمييز هذه بلا ذنب اقترفه المنبوذ، وتطوف فى خيالى كلمة "المنبوذون " فى الهند خاصة، مجرد الكلمة تشعرنى بآلام حارقة وغيظ مسنن.

أنا لا أتصالح مع ذكرى عبد الناصر إلا حين أقابل أحد "أولاد الناس " الذين ما زالوا يعامِلون غيرهم من الناس على أنهم ليسوا "ناسا " أو على أحسن الفروض كمواطنين من الدرجة التاسعة. بعد كل هذه السنين من قيام الثورة لم تنسَ هذه الطبقة أبدا، أنهم من طينة أخرى، بل إن بعضهم، وهم من تلاميذى، وقد أصبحوا أساتذة طب وعلوم وكذا، أشعر أمامهم أنهم ما زالوا يعاملوننى شخصيا من فوق'، وأنهم يمارسون تميزهم بأصلهم، لا بـعِلمهم ولا بطبّهم، وأنهم يحكمون على واحد مثلى بالتطفل على موائدهم بسبب مجانية التعليم، فما بالك بحكمهم على الآخرين، فأترحّم على عبد الناصر مضطرا. وأقر وأعترف أنه هو الذى كسر شوكة هؤلاء الناس بما ينبغى كما ينبغى، وأقل، أو أكثر. صحيح أن طبقة أخرى أقبح

وأقسى وأكثر ظلما تكونت، لكنها طبقة "كنظام " الحكم الفوقى. طبقة لا يتقن أبناؤها ألعـاب وأنَفَـةِ أولاد الأصول ذوى الدم الأزرق، لا يعرفون كيف يمدون أيديهم لـلسلام نصف نصف، ولا كيـف يـستعملون "الشفقة " للاستعلاء لا للعطف والتراحم، يعيش جمال عبد الناصر، يعيش غصبا عنى، ولو أنى لا أستطيع أن أنسى له كل ما فعله من "عك ". متى يدفع الواحد منا، قائدا أو موظف أرشيف، ثمن ما اقتـرف هـو فقط، دون ذويه، أو طائفته أو أهل دينه؟

وهذا هو موظف تركى لا ذهب ولا جاء، يمسخر مواطنا يونانيا يعبر حدوده، لأن واحدا يونانيـا آخـر احتقر بائع سميط من أصل تركى فى نيقوسيا. متى نصير بشرا بحق؟

وعدتُ نفسى أن أقوم بدراسة مقارنة على الحدود عند عودتى إلى اليونان لأعرف كيف يعامل موظفـوا الجمارك والجوازات اليونانيين زوارهم من الأتراك وهم يدخلون عبر الحدود البرية؟ هذا بعـض فـضل السفر بالسيارة.

بصمات التاريخ، فى البلقان خاصة، لا تريد أن تمّحى.

أتذكر سنة ١٩٦٩ فى احدى رحلاتنا الأسبوعية فى فرنسا، لعلها كانت إلى الشمال. نورماندى، وكانـت هذه الرحلات – كما أشرت سابقا – تضم كل الممنوحين من العالم الثالث (بما فى ذلك اليابـان!!!) وكـان معنا زميل يوغسلافى شديد الرقة والشاعرية والأدب (اكتشفت الآن أنه صربى!! وماذا فى هـذا؟ ليـسوا سواء) كما كان معنا زميل تركى شديد الصلافة والاحمرار والفوقية، وحين انتشى التركى حتـى الـسكر على مائدة العشاء بدا مشاكسا عدوانيا فجّا مع اليوغسلافى بلا مبرر واضح لأحدنا، وكنت قد شككت فـى ما يدور تحت المائدة بين التركى وصاحبةٍ له ملتبسة الهوية، كانت فرنسية –فى الأغلب – ضخمة الملامح والحضور معا، شككت فى أن شيئا قبيحا يدور تحت مفرش المائدة، فهل كان هذا هو سـبب الاحتكـاك، وحين اختليت بالصديق اليوغسلانى أخذ يحكى لى تاريخا يبرر تصرفات التركى، وكأنه يحكى عن الأغـا فى رواية كازانتزاكس المسيح يصلب من جديد، (ملحوظة: لم يكن التاريخ قد عاد يمارس التصفية العرقية والتوحش البشرى فى البوسنة أو كوسوفو بعد).

نحن الآن فى داخل تركيا. اختلفت المناظر – فجأة – إلى مالا يسر، الخـضرة أقـل، الجبـال تتـوارى والأرض تنـبسط والطريق يتسع، والناس لاهم خواجات ولا هم عرب، ولا هم مصريون، وأتذكر ركاب عربة الأتراك الذين قابلناهم فى طريقنا من يوغسلافيا إلى إيطاليا فى الرحلة الأولى، وأرجـح الآن أنهـم كانوا أكرادا فعلا. أما أتراك ما بين الحدود واسطنبول فلابد أنهم أوربيون أسلموا مـؤخرا. حتـى قـرب النصف الثانى من الألفية الثانية، كانت القسطنطينية أوربية، وكانوا مسيحيين كيف أسلموا جميعـا ١٠٠% كيف تنصّر كل أهل الأندلس بلا استثناء، أى قهر تواصل عبر التاريخ كله؟ قف كما وقفت العربـة عنـد أول محطة وقود، محطة ليس بها كل الخدمات التى اعتدناها فى اليونان (وفى أوربا عامة). طبعا نحن لا

نعرف كلمة واحدة من اللغة التركية، فأخذنا نشير لعامل البنزين وهو يحاول أن يفهم، وأخيرا أخرجنا إليه بعض أوراق النقد التركية (بالملايين، مثل ايطاليا) فأخذ بعضها وارتسم على وجهه سؤال ما، وكأنه يقـول هل تريدون بنزينا بهذا المبلغ؟ ووافقنا طبعا إنهاء للموقف، قام الرجل بمهمته وأنهاها بسرعة وهو يـشير إلى عداد النقود (لا عداد اللترات) ولأوّل مرّة اكتشف فائدة أن يترجم لك العداد الثمن أولا بـأول، ليـست المسألة أن يسهل عليك الحساب وكسور الضرب والقسمة، ولكن ليسمح لك أن تختار بين أن تشترى عددا من اللترات أو بما تشاء من نقود، لايوجد مجال للتقريب (والتطنيش، واللكاعة)، ولغة العيـون الراجيـة، فالفارضة، فالحاقدة، التى يتدرب عليها عمال محطات البنزين عندنا بسرعة هائلة. ولم يتصنع عامل آخـر مسح الزجاج الأمامى واقفا أمام مقدمة العربة وكأنه يحول دون انطلاقها إلا إذا دفعنا المعلوم.

وصلنا ضواحى اسطنبول (القسطنطينية) ما أطول الاسم بالعربية، وجدنا فندقا مما يمكن أن نحبـه. مـا صدقت أنى وجدت هذا الفندق حتى عرجت إليه وكأنى لا أنـوى أن أدخـل اسـطنبول أصـلا. مـازال الاحتجاج مستمرا، أحتج على منْ؟ لماذا؟ كانت توجد اتوبيسات صغيرة يمكن أن تنقلك إلى وسط البلد كما تشاء، وتذكرت مخيم الألبادورو، ودقة مواعيد الأتوبيسات إلى فينسيا.

المواصلات أصبحت أسهل بينى وبين زوجتى، فتحققت تسوية صامتة بعد مفاوضات سرية، هل رأيـتم فائدة المفاوضات السرية!! يا أيها الوطنيون البلهاء!!! هى اطمأنت إلى أننا سافرنا ولم نعد أدراجنا، وأنـا اطمأننت إلى أنى وجدت مكانا بعيداعن المدينة، وأننى يمكن أن أبدأ الـمشروع المزعوم لكتابة أطروحـة الجنون والإبداع، وحين نزلنا إلى الكافتيريا لنتناول لقمة بعدما تأكد وصولنا، وجدت حولى كل الجنـسيات إلا الأتراك، فلماذا جئنا هنا إذن؟ أحيانا أضبط نفسى وأنا أذهب إلى دهب، ليس فقط لأنى أحـب جنـوب سينا حبا شديدا ،ولكن لأكون بين خواجات أكثر من المصريين، أعنى أكثر من القـاهريين، هكذاأكتـشف مجددا أننى لا أمتطى صهوة الطريق إلا لألاقى الناس الذين يُشعرونى ـــ من خلال الاختلاف لا التـشابه ـــ أنى واحد من الناس، ناس دهب وليس ناس شرم الشيخ، ناس مرسى مطروح (زمان ١٩٦٦). ولـيس ناس مارينا، ناس طنطا وليس ناس مصر الجديدة، الناس الذين مازالوا يحاولون أن يظلوا ناسا، أرجـح أن كل هذه التصنيفات هى تعميمات متحيزة!!. ففى كلٍّ خير.

بدأت جولات التعرف على المعالم بسرعة، ونزلنا إلى وسط البلد بعد أن استشرنا فتى الفندق الذى يجيـد الإنجليزية وكأنه خواجة ابن خواجة، هل استطاع الأتراك أن يصبحوا خواجات بحق؟ كنا قد سألناه بقلـة ذوق: هل هو مسلم، فرفع حاجبيه مستكرا، وكأنه لا يوجد احتمال آخر.

كل الأتراك مسلمين. وكل الأسبان مسيحيين. يعنى ماذا؟

عيب والله هذا الذى جرى.

فى الذهاب إلى المدينة، كان من السهل أن تأخذ أى حافـلة صغيرة،ميكروباس، لتوصلك إما إلى وسـط المدينة أو إلى حى تاكسيم مباشرة (الحى الذى أوصانا به فـتى الفندق)، أما عند العودة فقد تعجبنا من هذا التنافس العجيب على اصطياد الزبون وكأننا فى موقف كفر الزيات، أو منوف أو حتى أحمد حلمى (قبـل إلغائه) والمنادى ينادى واحد مصر أو واحد المحلة، فى كل ميكروباس فتى يقف على السلم ينـادى علـى اسم الجهة المتوجهة لها، هذا جديد علينا يشعرنا أننا فى بلدنا أكثر فأكثر،

أما الذى أفاقنا فجأة لنتأكد أننا لسنا فى أوربا (على الرغم من أننا فى أوروبا!!) فهو عدد المـآذن التـى امتلأت بها سماء اسطنبول، وأفتش فى ذاكرتى وفيما حصلت عليه من كتيبات تحكى عن مـا نحـن فيـه فأكتشف أن فتح القسطنطينية لم يتم إلا حديثا (سنة ١٤٣٥) .

إذن فقد ظلت أوربية مسيحية حتى هذا التاريخ. إذن...، إذن ماذا؟

لا شيء. الله !!!

أين الفاطميون فى مصر الآن؟ أين الشيعة؟

ألم يحكم الفاطميون مصر مئات السنين؟

(مرة أخرى) أين المسلمون الأسبان؟؟

يبدو أن التاريخ السرى يقول إن الإنسان أقسى إبادة لأخيه الإنسان أكثر مما نحسب.

أحبت زوجتى حى "تاكسيم " بالذات مع أنه لا توجد به فرص تسويق كثيرة، بالنسبة لى كان أقرب إلـى الحى الثامن عشر الذى عشت فيه فى باريس فى الـسنة إياهـا (٨٦ ــ ٩٦)، رحـت أشـبّه: الـشوارع والميادين بما يقابلها فى باريس، متذكرا ما فعله صديقنا فى بوسطن بتشبيهاته معالم القاهرة بمعالم مقابلـة فى مهجَره فى بوسطن، رحت أنا كذلك أهمس لنفسى: هذا ميدان كليشى، وذلك شارع كولانكـور، نفـس النوافذ، نفس الشرفات الصغيرة، شرفات لا تستعمل، هى نوافذ مستطيلة أمامها مساحة ضئيلة جـدا ربمـا لوضع أصص الزهور لا أكثر، نحن فى أوربا فعلا، وحى تاكسيم هذا كأنه جزء من بـاريس، ثـم نفـس الحدائق ونفس اتساع الشوارع، لكن الناس غير الناس.

عدلت مؤخرا عن وصف الناس بأن هذا أحسن وذاك أسوأ، هم ناس وخلاص. لكنهم دائما ناس "غير " بعضهم البعض. بقدرما يشترك الناس فى كونهم ناسا، فإنه لا يوجد ناس مثل بعـضهم، حتـى لـو كـان الطريق واحدا.

أثناء عودتنا من "تاكسيم " عرجنا على ما يسمى "وسط المدينة، تاركا لزوجتـى مهمـة حفـظ أرقـام الحافلات التى تذهب بنا هنا أو هناك، كنت كمن يحاول إنكار أنى وصلت حيث لـم أخْـتَـــرْ، فعلـى الرغم من كل هذه المصادفات المهدئة كان داخلى مصرا عل نفس موقفه من التحصّن فى الفندق الـصغير فى الضاحية البعيدة طول أيام إقامتنا فى اسطنبول، وفى نفس الوقت يبدو أن زوجتى لم تكـن تـصدق أن

الرحلة مستمرة وأن أزمة "البارانويا " أعنى "البارااليا " قد مرّت بسلام، (زلّة قلم محسوبة علــىّ بتأويــل فرويدى، لكنّها مقصودة يا عم سيجموند، ولاهى لا شعورية ولا حاجة، ضحكتُ عليك)، فراحت زوجتـــى تمارس دور المرشد الذى اعتادت أن توكلنى به، واثقة فى حاستى المكانية الفائقة. وهكذا حــضرتُ إلـــى تركيا ولم أحضر.

بدأت رحلات زوجتى الماكوكية بين الفندق ووسط البلد وتاكسيم، كما بدأت رحلتى الجدلية بين الجنـــون والإبداع، تلك الرحلة التى لم أغادرها طول اشتغالى بمهنتى هذه، أو حتى قبلها.

أرى المجنون مبدعا مُجهــَضا مهزوما، كما أرى المبدع مجنونا متجاوزا مخترقــا مــسئولا، مــتحملا لمسئولية ما أقدَمَ عليه مختلفا. وكنت كلما تقدمت نحو هذين المتناقضين معا ازددت معرفة، وازددت يقينا بأن خبرتى فى هذه المنطقة تسمح لى بإضافةٍ ما.

حفظتْ زوجتى المكان والمحلات وصادقت الناس بغير لغــة، وزاد من انطلاقها أنها يئست منى تمامــا أن أصحبها لبعض ذلك، وفى نفس الوقت لم أستطع أن أنجز شيئا من الكتابة و "الإبداع "!! حتـــى نـــزول حمام السباحة لم أنزله أصلا.

ثم إنى وافقتُ على اصطحاب زوجتى فى اليوم الأخير لترينى معالم مـــارأتْ واكتــشفتْ، ممـــا يجعلهـــا منبهرة هكذا طول الوقت.

١٩٨٦/٨/٢٠

هو اليوم الأخير لنا فى تركيا، وأنا لم أخط شيئا فى موضوع الجنون والإبداع إلا عددا لا حصر له مـــن العناوين والخطوط والمقابـَلات والاقتراحات والأسئلة والشطب، فما الداعى للبقاء أكثر. يبدو أنه بـــالرغم من رخص الأسعار، وتقليد البضائع بنفس الماركات العالمية دون تردد، فإن رصيد زوجتى ابتـــدأ يهتـــز حتى وافقت على الرحيل مبكرا، مع أننى كنت أعمل جاهدا أن أصلح ما أفسدتْــه المحـــزنة التى أقمتهـــا لحرمانى من تحقيق رغبة فى شىئ ليس له وجود (ياللبصيرة !! ماالفائدة؟).

ذهبنا إلى حى تاكسيم الذى أحبته زوجتى أكثر.

عند العودة، مارين بوسط المدينة، قررتُ أن أصلى الظهر فى أحد المساجد الكبيرة فى وســط المدينـــة، لمحتُ مسجدا أقرب إلى مسجد محمد على بالقــلعة منه إلى مسجد السلطان حسن، دخلت فإذا بـــه خـــال تماما إلا من بعض الكهول بجوار الأعمدة، لكن هناك فى المقدمة وجدت شابا لا يتعـــدى العــشرين وقـــد جلس يتمايل أماما وخلفا بانتظام، فعرفت أنه يتلو القرآن، ربما انتظارا للأذان، اقتربت منه دون أن يـــشعر فوجدته يرتل بنغم هادئ وبسلامة نطق متوسطة، خجلتُ (أو استحرمت) أن القى عليه السلام وهو يقـــرأ، لاحظنى الشاب برقه فأنهى قراءته وألقيتُ عليه السلام فـــردّ بوضـــوح، وعلـــيكم الـــسلام ورحمـــة الله وبركاته. لكننى عجزت بعد ذلك عن مواصلة أى حوار مفيد، على الرغم من كلامى معه بالفصحى،

كيف يقرأ بهذا الوضوح وفى نفس الوقت يكاد لا يعرف العربية؟

مازلت أتعجب للمسلمين الذين يرددون القرآن بوجْد منجذب، وسلامة نطق جميلة، وحب واضــح، وهــم ليسو عربا، وفى نفس الوقت أعجب من صاحب اللسان العربى الذى لايستغل هذه النعمـــة الخاصـــة (أن لغته هى العربية) التى تتيح له أن يعيش هذا النبض الحى كما أُنزل بلغـــته، اكتفيتُ بهذه الجرعـــة وأنـــا أتساءل عن إسلام تركيا (كان ذلك قبل حكاية أربكان وحزب الرفاه ثم الفضلية، والذى منه).

كان الشاب الذى يتلو القرآن، على الرغم من رقته، حزينا، لا أعرف لماذا؟ ولا أعرف كيف قررت أنـــا ذلك، هذا طبعٌ سخيف، لعلّه حـــُزنى أنا الذى أوزعه على الناس هنا وهناك.

بعد ذلك بسنوات، أتيحت لى فرصة صلاة الجمعة فى الإسكندرونة فى أقصى الجنـــوب الـــشرقى، كـــان المسجد كبيرا جدا، جدا، عايشت طقوساً لم أتوقعه: فثمة خطبة بالتركيـــة، وأخـــرى بالعربيـــة، والقـــرآن والصلاة بالعربية، ودعاء الرجل بجوارى بين الخطبتين بالتركية (فى الأغلب).

"الله واحد " بكل اللغات، والمسلمون هم المسلمون، والدين عند الله الإسلام .

كان ذلك ضمن رحلة قصيرة نسبيا.

انتهزتُ فرصة ترددى المنتظم على دمشق فى شأنٍ علمى (الشهادة العربية لاختصاص الطـــب النفـــسى) واتجهت مع زوجتى شمالا إلى أنطاكيا حيث عايشت الفرق الهائل بين اســـطنبول (بـــاريس ذات المـــآذن) وبين أنطاكية (سوريا تتأثركْ)، فى أنطاكية: كان أغلب من تزيد عمره عن أربعين ســـنة يـــتكلم العربيـــة الشامية بسهولة وطلاقة وحنين، أما الشباب (عشرين سنة فأقل)، فهم لا يعرفـــون إلا التركيـــة (عـــادة)، وتعجبت كيف تتعايش هذه الأجيال معاً فى بيت واحد، اسطنبول (القسطنطينية) لم يفتحهـــا المـــسلمون إلا سنة (١٤٣٥) ولواء الاسكندرونة انتزعته تركيا انتزاعا، أنطاكية كانت عاصـــمة ســـوريا خـــلال القـــرن العاشر والحادى عشر الميلادى، واستولت عليها تركيا ــ أو أصبحت جزءا منها ــ سنة ١٩٢٣). ما هذه الحدود بالله عليكم؛ بالله علينا؟ إلى متى سيظل العالم يـــُقسَّـــم حسب من يملك ســـلاحا أســـرع، وبجاحـــة أجهز، وسحقا أقدر. العالم يعاد تقسيمه باستمرار: مرّة بالصدفة، ومرّة بالخيانة، ومرة بالـــصفقة، ومـــرارا بالحرب؟ والآن يختلط كل شئ بكل شئ لحساب سيد مجهول.

كانت رحلتى إلى أنطاكية ذات دلالة خاصة، وذات دافع خاص، ذلك أننى كنت قد انقطعت عن الترحـــال بالسيارة لافتقادى الصحبة متعددة الأطراف، والأعمار، لكننى ظللت أتردد على دمشق أربع مـــرات فـــى السنة (على الأقل) لنفس الأسباب العلمية السالفة الذكر، ثم قررت أن أذهب إلى دمـــشق بالـــسيارة عبـــر الأردن، لعلى أستعيد "وعى الترحال " فيبـــلّغنى شأن آخر.

فى الطريق من العقبة إلى عمان كنت مؤتنسا مسترخيا، أفتقد دهشة السفر، الطريق إلى عمان ليلا ملـــئ بالشاحنات التى لم تكن أضواؤها هى المشكلة بقدر ما كانت آثار المازوت الذى يتساقط منها يجعل القيـــادة

مخاطرة حقيقية، حين وصلت إلى عمان حقدت عليها. وعلى عمارتها وهى ملتزمة بالواجهات الحجرية أو الرخامية من نفس اللون تقريبا، رحت أقارن بيننا وبينهم، حتى فى المقطم المفروض أنه منطقة جديدة، وسياحية (حيث أسكن!!) يوجد قدر مقزز من النشاز المعمارى، حتى يخيل إلىّ أن من يبنى مبنى جميلا وسط هذا النشاز،يصبح مُطالَبا بالاعتذار، وعموما فإن الجمال وسط النشازيصبح نشازا بالعدوى، أو بالأغلبية.

ذكرياتى فى عمان محدودة، اللهم إلا من شفقتى على العمال المصريين الذى يملؤون الورش والمحلات بصبر جميل، وكذلك زياراتى "البتراء " أثناء عودتى قبل الوصول إلى العقبة.

مدينة البتراء هذه تستحق وقفة قصيرة: سبق أن ذكرت كيف أن علاقتى بالماضى وبالآثار، وبالتاريخ هى علاقة ضعيفة شاكّة. أنا لم أتمتع فى البتراء بقصص المرشد وحكايته عن التاريخ، بقدر ما كنت أرفض سيره على الأرض يمسك بلجام الحصان الذى أركبه ويطوف بى أنحاء المدينة المنحوتة فى الجبل تقريبا. عاودنى منظر العبد الذى كان يجرى لا هثا "وراء الشيخ الصالح " أول رواية قرأتها وسنى حول التاسعة، تلك الرواية المجهولةُ المؤلف التى أشرت إليها فى الترحال الأول من هذه السيرة حيث ذكرت أنى تقمصت العبد الذى كان يجرى وراء سيده (قاطع الطريق: الشيخ الصالح)، تذكرته وأنا أنظر إلى هذا الصبى/الرجل وهو يسحب الحصانين ونحن راكبان، كم مرّة يقطع هذه الجولة السياحية راجلا وهو يسحب أحصنة الناس راكبين؟ ومادامت المسافة يمكن عبورها سيرا كما يفعل هذا المرشد الصغير فلم لا يفعل مثله السائحون، إلا الكهول والمرضى. لا أنا ولا زوجتى كذلك بعد، فترجّلنا ونقدناه نفس المبلغ واستغنينا عن خدماته.

أذكر أثناء عودتنا ذات سفرة من سوريا عبر عمان أننى فكّرت فجأة أن أنحرف إلى البتراء، وكنت قد زرتها قبل ذلك مرتين على الأقل، لكن مثل هذه الأماكن لها جذب خاص، أقل إلحاحا من نداء الركن القصى اللحوح. فى هذه المرة ضللتُ الطريق، حلّ ضباب كثيف كثيف، وكنا بين المغرب والعشاء، وكنت أحسب أن الضباب لا يتواجد إلا فى الصباح، ثم بعد عدة خبرات خطرة عرفت أن الضباب قد يهجم فى أى وقت ولو فى منتصف الليل، و كانت هذه هى المرة الأولى التى يهبط علىّ فيها الضباب بعد المغرب مباشرة وكنا سنضيع، ولم نضع.

تحدّثت من قبل عن فضل التوه فى السفر،لكن هذا التوه فى الطريق إلى البتراء لم يكن فضلا بل امتحانا.

لكن توها آخر حدث لى فى سوريا أثناء عودتى من تركيا كانت به من الإشارات ما لم أستطع أن أفسره حتى الآن.

كانت عاصفة ممطرة قد هبّت علينا بعد حماة فى طريقنا إلى الشام (دمشق)، رُحنا نسير بالتقريب معظم الوقت، والعلامات ليست مثل أوربا والالتزام بقواعد المرور يكاد لا يوجد أصـــلا، لا هـــو ولا محطـــات خدمات أو حتى محطات وقود. فى الطريق، وحين وصلنا إلى مشارف الشام كنا بعـــد العـــشاء. فركبـــت رأسى وواصلت السير وسط العاصفة وزوجتى لا تصدق، وبعد الشام بعدة كيلومترات أخطأت فى قـــراءة علامة "إلى درعا "، وبعد بضعة كيلومترات أخرى تبينا أننا فى طريقنا إلى دمشق (الـــشام مـــن جديـــد) فواصلنا السير وقلنا إن الله أمرنا أن هذه الليلة من نصيب دمشق، وعند بـــاب الفنـــدق المتواضـــع الـــذى اخترناه بعيدا عن فنادق المضيف الفاخرة أثناء المهمة العلمية، اكتشفنا أن إطار السيارة قد فـــرغ تمامـــا، وأن الإطار الاحتياطى فارغ أيضا. ماذا لو كنا أكملنا؟ وسط العاصفة وبدون خدمات على الطريق؟ ربنا ستر، وهو دائما يستر معى لأسباب لا أعرفها، لكن زوجتى تحذرنى بطريقتها أنه "لـــلـــستر حدود ".

البتراء ِ)بترا) هذه مدينة قديمة فى جنوب البحرالميت (الأردن الآن)، وكانت مركزا تجاريا مهمـــا مـــن القرن الخامس قبل الميلاد حتى أوائل القرن الثالث الميلادى، استقرت فيها قبائل الأنباط العربية، واحتلتهـــا القوات الرومانية سنة ٦٠١ ميلادية، وأصبحت مدينة نصرانية بحلول القرن الرابع وفتحها المسلمون بعـــد حوالى عشرة سنوات من الهجرة، ثم احتلها الصليبيون أثناء الحروب الصليبية حتى سنة ١١٨٩م، ثم جلوا عنها لتصبح مدينة مهجورة مخصصة للزيارة، يحكى لنا المرشد كل ذلك وهو يشير مرّة إلـــى المحكمـــة ومرة إلى مقابر ملوكها التى هى داخل نفس قصورهم، والله فكرة!! وفى المساء يجتمع السائحون من كـــل صوب، ويشربون، ويسكرون، ويقصفون زيادة، ولا يغتالهم أحد، أما نحـــن. !! يـــاه!! إلـــى متـــى هـــذه المقارنات الحاقدة يا أخى (كنا أيامها فى عز رعب الإرهاب).

صورة هذه الرحلات اللاحقة إلى سوريا عبر الأردن تعاودنى وكأنها تخفف عنى ثقل حكى خبرتى فـــى اسطنبول، تُـــرى هل ضاع هذا الفصل الرابع نتيجة مقاومتى لهذا الجزء من الرحلة إلى تركيا.

حين وصلتُ إلى إربد شمال الأردن وأنا متجه إلى سوريا عرجتُ على إحدى طالباتى القدامى (أصـــبحتْ طبيبة من زمن)، وكنت وعدتها بزيارة أثناء عبورى بلدتها، وعاودنى الحقد وأنا أتابع فيلات وحدائق إربد وأشاهد كثافة الخضرة على الرغم من ندرة المياة، حكت لى تلميذتى هذه وهى خجلى كيف أن الأردنىين (والفلسطينىين) لم يعودوا يقبلون القيام بالأعمال القذرة (الأعمال الدنيا)، وأنه إذا اضطـــــُر أحـــدهم أن يعمل فى جمع القمامة مثلا فإنه يفرض على البيوت أن يمر عليهم بعىد الفجر، وقبل طلوع الشمس حتـــى لا يراه أحد، ثم أردفت ابنتى الأردنية هذه، وهى لا تخفى حرجها، أن الذى يقوم بهذه الأعمال حاليـــا هـــم العمال المصريون، وأبلعُها بغصّة كادت تفضحنى. أتذكر موقف الخادمات (الشغالات) المـــصريات فـــى قصور الخليجيين، بل فى بيوت الخليجيين بدون قصور. مصر التى علمت الإماراتيين قبل البترول القراءة والكتابة، بمدرسين مصريين، يقبضون رواتبهم من الحكومة المصرية فى أبنية تقيمها دولة الكويت، مصر

التى تعلّم فيها أجيال من شباب البلاد العربية لعقود طويلة قبل أن تبيعهم أمريكا معظم شـــهاداتهم العليـــا، أصبح شبابها، شباب مصر، هم الذين يقومون بالأعمال القذرة فى الأردن، كما أصبحت بناتها هن اللائـــى يشتغلن فى البيوتات خادمات وخلافه، وأين؟ ليس فى بلد بترولى ثرى، وإنما فى الأردن التى تعيش علـــى المعونات، والتى استوعبت مليون فلسطينى.

أتذكر مقابلاتى وحواراتى مع العمال المصريين فى سوق الملابس القديمة فى عمـــان، وفـــى محـــلات تصليح السيارات وفى محطات البنزين.وأحزن حزنا شديدا. هل أنا ناقص؟ ما الحكاية؟

قف، عودة إلى رحلتى الحالية. نحن الآن فى اسطنبول.

أثناء تجوالى فى حى تاكسيم لمحت لافته عن القنصلية السورية، فخطر ببـــالى ــ كالعـــادة ــ أن أكمـــل رحلة العودة عبر سوريا لأرى بالمرة أنقرة حيث لابد أن الاختلاف شديد، وأن الأمر يستأهل، وجدت باب القنصلية مغلقا، قرعتـُـه طويلا وأنا أتأكد من اللافتة، أخيرا فتح أحدهم شراعة الباب وحين ألقيـــت عليـــه التحية بالمصرى فتح الباب أكثر، لكن بما لا يسمح بالدخول. سألته عن طريقة الحـــصول علـــى تأشـــيرة دخولى أنا وزوجتى إلى سوريا قادمين من تركيا، على افتراض أننى سوف أســـافر بـــرا، رفـــع الرجـــل حاجبيه دهشة، "كيف يا رجل تقول هذا الكلام؟ لا يوجد تأشيرات بين العرب وبعضهم، تذهب وقتما تشاء وتدخل وقتما تشاء. " ياعم المشوار بعيد، أكثر من ألفى كيلو متر، ولو ذهبنا حتى الحدود وأرجعونا سوف يكون المقلب واسعاً حبتين، و الرجل الشهم يزداد إصرارا على أنّه: "إلاّ "، وتِسلمْ لِـــى عيونـــك، وتُـــأمر سيييدى، وسلام. سلام.

بعد أن ودعت الرجل على باب القنصلية غير مصدق كل تسهيلاته، التفت إلى زوجتـــى التـــى تابعـــت الحوار بقلب واجف، فهى تعلم أننى قد أعملها، احتارت هذه السيدة معى، أصرّ على الركون إلـــى الـــركن القصى الصغير يحتوينى حتى أبدو أننى لن أخرج منه أبدا، أو أنطلق مستكشفا مغيّرا طريقـــى وخططـــى ووعودى مهما كانت المغامرة والصعوبات، ماذا تفعل هى فى هذا البنى آدم هكذا؟ أبلغتُ زوجتى عـــدولى عن الفكرة أصلا، بسبب شكى فى وعود ومعلومات رجل القنصلية، ومع ذلـــك فحـــين عبرنـــا الكـــوبرى الواصل من أوربا إلى آسيا فوق مضيق البوسفور، رحت أسأل من جديد عن الطريق إلى أنقـــرة، وعـــاد الانزعاج إلى زوجتى رغم تأكيدى السابق لها عن العدول.

بعد عشر سنوات من هذا التاريخ صدق ظنى، وأن المسألة ليست بالساهل، ولا هى "تـــسلـــم ســـيدِى " ولا حاجة،، فحين قررت الذهاب إلى دمشق برا فى مهمتى العلمية السالفة الذكر، أرســـلتُ رجُلـــى الـــى السفارة السورية بالقاهرة، يستخرج تأشيرة دخول، وقوبل بنفس الترحيب " وهل هذا يـــصح، وهـــل هـــذا كلام، وهل بين العرب فيزات، وأنها وحدة عربية لايغلبها غلاّب وبالتالى لا تحتاج إلى تأشيرات ". تمامـــا مثل ما سمعت فى اسطنبول من عشر سنين مضت، وداخلنى نفس الشك الـــذى داخلنـــى آنـــذاك، وعنـــد

وصولنا إلى الحدود بين الأردن وسوريا، وعلى الرغم من جواز سفرى، وبطاقتى، وإسمى وصفتى، كـل ذلك لم يكن كافيا للسماح لى بالعبور، لا فيزا أعطونى، ولا مرور مرّرونى، ما الحكايـة؟ حتـى بعـد أن أظهرتُ لهم الأوراق الخاصة بمهمتى العلمية لم يفهموا فيها شيئا، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة مـساء، والاجتماع العلمى الهام سوف يعقد فى دمشق فى الثامنة صباح اليوم التالى، فاضطررتُ أن أطلب مـنهم أن يوقعـوا لى على ورقة أنى حضرت حتى الحدود لمهمة كذا من واقع الأوراق. وأنهم ردّونى، وأنـى عائد إلى بلدى بكرامتى، بعد أن منعونى من حضور المهمة الرسمية، وهنا تفضل أحـدهم فطلـب منـى الانتظار حتى يتصل بدمشق شخصيا، إلا أن مقر المجلس العربى للاختصاصات الطبية كان قد أغلق فـى هذه الساعة المتاخرة (كنا قد بلغنا الحادية عشر) وهات يا اتصالات وإصرار من جانبى لإثبات ما جـرى كتابة. وأخيرا سمحوا لى بالمرور، حينذاك تذكرت وجاهة شكى أمام القنصلية فى اسطنبول وحمـدت الله أنى لم أصدّقهم.

فى تلك الرحلة اللاحقة، ونحن فى طريقنا إلى حلب متجهين إلى تركيا، كان معنا صـديق مـن شـمال سوريا (من القامشلى) اعتاد أن يحضر إلى الشام (دمشق) كلما حضرنا لأراه بعد أن اجتاز محنة خاصـة، وحين وصلنا إلى حلب، عرجنا إلى فندق من الفنادق التى لا أحبها (خمسة نجوم) أذكر أن اسـمه فنـدق "أمير "، وإذا بصاحبنا يقرر أن يقضى الليلة معنا فى حلب، زيادة فى الكرم وحرصا علـى دور المرشـد المتطوع. كنا أحوج ما نكون إلى توديعه جدا حتى نأخذ راحتنا، لكنه أصرّ على اسـتمرار خـدمتنا، لـم أستطع بصراحة أن أحتمل، أعنى أن أوافق !!، قررتُ أن أواصل سفرنا الليلة إلى تركيا مباشرة حلاً لهذا المأزق، وكانت الساعة حوالى الثالثة مساء، وسألته عن الطريق إلى تركيا لأننـا سـوف نـسافر حـالا، فوصف كيف أنه علينا أن نتوجه إلى "جرابلس " باعتبار أنها البلدة الحدودية التى نعبر منها إلى تركيـا. شكرته وأوصلته إلى الأتوبيس المنطلق إلى القامشلى، ونظرت إلىّ زوجتى وكأنها تقول: مادام صاحبنا قد سافر بالسلامة فلا داعى لدخول تركيا ليلا ونحن نريد أن نشاهد جمال الطريق، وفرحة الانتقال. ويقظـة التحريك، واختلاف الطباع، وغرابة اللغة، كما اعتدنا، لكننى خجلت من نفسى أن أكون قد كـذبتُ علـى مرشدنا لـلتخلص منه، وكأنه سوف يتتبع خطواتنا أو أن أحدا سوف يبلغـه بتحركاتنـا بطريقـة مـا!! فصممت على مواصلة السفر.

انطلقت السيارة. إلى جرابلس (وليس طرابلس وإن كان التشابه هو الذى ثبّـــــت الاســم). طــال بنـا الطريق، والناس قلة ونحن نسأل عن جرابلس لا أكثر ولا أقل والعلامات قليلة، بل منعدمة، ما الحكايـة؟ كنت قد سمعت أن بين حلب وبين الحدود حوالى ٦٠ كيلو مترا، وقد قطعنـا حتـى الآن أكثـرمن مائـة وعشرين كيلومتر، ولا توجد أى علامة تشير إلى تركيا أو أنطاكية، ونستمر، ونسأل عن جرابلس ولـيس عن الحدود، ويشيرون علينا، ولا نلاحظ تعجبهم أو شفقتهم مع أن أغلبهم تعجّب وأشفق. ونستمر، وأخيرا

وصلنا عبر طرق صغيرة وملتوية، لكنها نظيفه وسلسلة، بعد حوالى ١٥٠ كليلو مترا من حلب، والطريق كله لافتات تحتفى بالأسد وكأنه كان هناك أول أمس، ولا فتات تمجده، وكلام اشتراكى عربى جـدا يعلـن قوة الديمقراطية العربية الخصوصية، والأسد إلى الأبد، طيب كيف؟ وأى أبد هذا؟ أبد الدهر، أم المؤبـد؟ (انتقل الأسد إلى رحمة الله وأنا أراجع هذا الكلام، وفهمت من الأحداث اللاحقة أنهم -بحدس شعبى عربى مجيد – كانوا يعنون الأسد، أى أسد، وليس بالضرورة حافظ الأسد، معقول!!!) وحـين عـدت وحكيـت تعجبى من هذا الشعار للاستاذ نجيب محفوظ قال لى ضاحكا، لعلّ السجع حكـم، وصـدّقت علـى قولـه مستشهدا بأحد الخلفاء العباسيين الذى كان مصمما أنه شاعر، وحين حضره قاضى مدينـة "قـم" هـاج الشعر بلا أى مبرر، على مزاج الخليفة فقال شطرا ولم يعرف كيف يكمل بعد الشطر الثانى، قال: "أيهـا القاضى بقمْ" ولمّا طال غياب الشطر الثانى، أكمل: "قد عزلناك فقم"، يضحك شيخى نجيـب محفـوظ، ويحمد الله أننا فى مصر، وأنه ما دام ليس لنا زعماء وقادة يحبون قرض الشعر، وأنه مـا دام شـعبنا لا يستلطف السجع، فنحن ما زلنا فى السليم. عندنا وقايّة من الفصل !!!

وصلنا جرابلس أخيرا، ولا علامات ولا عساكر ولا أحد، ومع ذلك استمررنا فـى الـسير نـسأل عـن الحدود، وأخيرا وجدنا جنديين من الجنود السوريين المتواضعين الطيبين، ونسأل أليست هذه هى الحـدود؟ نعم هى الحدود؟ نسأل ويزداد عجبنا كيف تكون الحدود دون صفوف السيارات ولافتات الإرشـاد؟ أيـن نحن بالضبط؟ ونقول لهم بسذاجة "نريد أن نعبر إلى تركيا"، فيرودن بعجب أكبر من عجبنا بكثير أنـه ما الذى جاء بنا إلى هنا؟ نعم إنهانقطة حدود ولكنها ليست نقطة عبور؟ ولا نفهم لأول وهلة، ولكن المسألة تبدو أبسط من أن تُفهم، وينصحونا أن نعود إلى حلب ومنها إلى "باب الهوى"، وأتذكر فجأة أن هذا هـو الأسم الذى سمعته كنقطة حدود عبورية، وأنه هو الذى يبعد عن حلب حوالى ستين كيلو مترا فقط لا غير. وماكنت قد نسيته لكن الذى حصل!!! لم يكن قد تبقى على المغرب سوى ساعة وبعض ساعة، والطريـق ليس به علامة واحدة ذات دلالة كافية، وعلينا أن ننطلق عائدين. وقد كان، ويستر ربنا فقد كنا قد عرفنـا بعض الطريق فلم نحتجْ إلى أسئلة كثيرة ونصل إلى مشارف حلب حول العِشاء.

جولة ليلية سريعة فى حلب كانت كافية لنتعرف على غلبة التحجب،وغلبة الجمال، وغلبة اللّحى، وبالتالى على حالة التعايش السلمى (أو السلبى) بين الفئات والعقائد الذى تعيشه سوريا منـذ حـوالى ثلـث قـرن. ونضطر للمبيت فى الفندق الفخم الذى لا أحب أمثاله، وتفرح زوجتى على الرغم من كل شىء. ويوقظنى رجل الفندق فى منتصف الليل ليسألنى عن المرأة التى معى فى الحجرة، وأن هذا فندق محترم لا يـسمح بذلك، ذلك من يا عمّ؟ وأكتشف أننى لم أخطره أن معى زوجتى، ربما من قرفى من الفنـدق، وانـشغالى بآثار ما حدث لنا وبنا، وأسوّى المسألة وأنا فى حال.

جميلة المرأة السورية، لكن المرأة المصرية "جِـــرْشَة" و "نغشه" وكلام كثير من هذا .

نكتشف كم أضعنا من وقت وجهد بالذهاب إلى جرابلس، هذا التوْه هو من نوع آخر غير تـوه أوربـا أو أمريكا، كان توها موحشا غريبا، ومع ذلك لم يخل من جدّة، فالناس فى أقصى الشمال طيبون، والفلاح هو هو فى كل مكان، كأن الأرض تنبت ناسها كما تنبت نباتها، وقد فهمتُ بعد مدّة مـن أيـن أتـت فتـوى مرشدنا صديقى إياه المضياف الذى غادرنا فى حلب بالعافية، ذلك أن جرابلس تقع فـى اتجـاه القامـشلى محافظة صديقنا هذا، وقد أشار ــ بحكم موطنه والعادة ــ إلى أقرب نقطة حدود من بلده، وليس من حلب.

نتعجب، ولا نندم، ونحن نقطع المسافة من حلب إلى باب الهوى فى حوالى نـصف سـاعة، لا أكثـر، وندخل إلى تركيا بسهولة وطيبة بعد أن انتظرنا رجل الحدود حتى ينتهى من صلاة الظهـر، إذن فتركيـا مسلمة فعلا، لماذا أشك فى هذا كثيرا؟ ونغيّر النقود، ونصبح مليونيرات نملك أوراقا كبيرة بأصفار كثيرة، (مثل حالنا فى إيطاليا، يا خيبة الأرقام !!. ونصل عبر سلسلة من الالتواءات وسـط زراعـات وأشـجار شديدة الجمال، والتنوع فى درجات الخضرة وألوان النباتات الأخرى، يزداد الجمال جمالا كلما تنوع.

نصل إلى أنطاكية بسرعة قبل الظهر، وبعد جولة سريعة يهدينا شاب اسمه محمد، يتكلم العربيـة رغـم صغر سنه، ونسأل ــ تجنبا للمدن الكبيرة كالعادة ــ عن ضاحية قريبة بها فندق متواضع، فيصحبنا هـذا الشاب محمد، إلى ضاحية اسمها "حربيات "، فنجد مطلبنا جدا، ونمضى أياما نتعرف فيها على التـاريخ، وعلى استقطاع هذا الجزء من سوريا منذ أقل من قرن، الموسيقى هى هى، والمشهيات الشامية تكاد تفوق فى مذاقها وأصالتها أصلها فى الشام، وأيضا الأغانى السورية واللبنانية تصدح فـى المقـاهى والمطـاعم المتواضعة فى حربيات، والأسعار تسمح لكل واحد بما يستطيع دون أن تحرم أحدا تقريبا.

رجل الفندق ذو الساق الصناعية فى حربيات يفرح أننا من مصر، يتكلم العربية الـشامية أحـسن مـن فلسطينى فى العريش، يعزم علينا بجناح مكوّن من حجرتين وصالة بنفس ثمن الحجرة الواحدة، كنوع من الكرم، فنقبل من باب الطمع، ولكن ما إن ندخل إليه حتى نجدنا كأننا فى شقتنا فى مصر، ما هـذا؟ نحـن نريد أن نسافر لا أن ننتقل من شقة إلى شقة،؟ ونرفض عطية الرجل شاكرين ونفضل الحجـرة الـصغيرة المطلة على الجبل، وتشاركنى زوجتى الرفض، فأنظر إليها ممتنًّـا،

هل أصابتها عدوى الحنين إلى الركن الصغير؟

انتهى الاستطراد وعلىّ أن أنتقل من أقصى الجنوب الشرقى إلى أقصى الشمال الشرقى. وأيـضا ننتقـل إلى الوراء فى الزمن بضع سنوات،لنكمل الرحلة الأولى.

١٩٨٦/٨/٢٠

نعود إلى أوربا عبر مضيق البوسفور، وينتهى التهديد بالسفر إلى أنقرة، فتطمئن زوجتـى إلـى حـين، وتسألنى عن ناتج "فرصة التفرغ " فى هذه الأيام الأربعة، وأنها كانت تتعمد إطالة التـسوّق حتـى أنجـز بعض ما يعيننى على الاستقرار نسبيا، تريد أن تطمئن على الآثار الجانبية لما مارسته من ضـغطٍ خفـىّ

حتى أكملنا الرحلة، وبالإضافة: فهى تعلم أننى أكون أقرب إليها وإلى نفسى حين أتم عملا أحبــه، وأنـــى أقلبها غما فى أى رحلة إذا أنا لم أقرأ ولم أكتب أضعاف ما أفعل وأنا مقيم بالقــاهرة، وأقــول لهــا إننـــى شخبطتُ كثيرا، وترابطتْ عناوين وتقاسيم كثيرة، وعرفتُ مداخل كثيرة لما أريد، لكننى لم أكتــب شــيئا، ولم أستقر على شىء، لكنها تطمئن لعدم انقلاب سحنتى حين أصاب بالعُقــــلة التى تطمسنى أحيانا.

١٩٨٦/٨/٢١

استبانت لى فعلا أثناء هذه الأيام الأربعة فى ضاحية اسطنبول الخطوط العامة لجدلية الجنون والإبــداع، وتصورتُ (أو حدث) أننى أمسكت بالخيط، ففرحت، بل إنى وددت لو نمد إقامتنا ليــوم واحــد أو يــومين لعلى أثبتُ ما وصلتُ إليه ببعض التفصيل خشية أن يفلت منى الخيط أو يتلخبط، وحين عادت زوجتى مــن جولتها النهارية، عرضتُ عليها أنا هذه المرة أن نقضى سهرة متواضعة مع عشاء خفيف فى ذلك الحــى الذى حدثتنى عنه وأحبته "تاكسيم "، لم تصدق، ولم تقترح أن نبقى لأتمكن من مواصلة الكتابة، إذ يبــدو أن شكلى كان مختلفا.

فى تاكسيم، تركتنى زوجتى أقودها هذه المرة، فالأماكن التى تعرّفتْ عليها هى غير الأماكن التى يقودنى حدسى (المكانى) إليها: من شارع واسع إلى شارع ضيق إلى زقاق إلى مقهى أو مطعم صغير إلى حــارة سد. هكذا الحال فى كل مدينة مهما اتسعت شوارعها الأكبر، وهكذا وجدنا نفسينا فى حى فــرعى، أو قل زقاق على مقهى أو حانة أو كليها، والناس تقصف وتصخب وتضحك ولعلها تفرح، لكنى افتقــدت فرحــة المطعم الألمانى فى سان فرانسيسكو، وفرحة الطليان الراقصة فى فينسيا، وفرحة الفرنسيين الهائصة فـــى دُولْ (فى جبال الجيرا) خيل إلىّ أن الناس هنا يضحكون بحِدّة وليس بانطلاق، وهم يتصايحون لا يغنــون، وهم يسكرون لا يشربون، وهم يأكلون ولا يستطعمون.

جلسنا محشورين فى المقهى،أوالمقصف، جاءت جلستنا بجوار رجل متوسط العمر، كان وجهه قد احمر من أثر المدام، بدا لى: وحيدا جدا لكنه ليس حزينا مثل فتى المسجد وسط المدينة، لكنّه مع التمــادى فـــى الشراب كسرت وحدته ليبزغ من ورائها حزن ثرثار، نظر إلينا الرجل وحيانا بمنتهى الثقة دون تــردد(أو هذا هو ماخيل إلينا) رددنا على سؤال تصورنا أنه عن جنسيتنا أو بلدنا، قلنا "إيجيبت "، فلم يفهم وانتبهنــا الى اسم مصر بالتركية فصححنا أنفسنا بسرعة وقلنا: "مِــسِــــرْ " كما ينطقونها، انتفض الرجــل واقفــا يهلل، وراح يحيينا وينحنى و هو يقول كلاما كثيرا، وبدا لى أنه نطق كلمة الأزهر. لكننى غيــر متأكــد، المهم أنه عدل كرسيه ناحيتنا وصمم أن يعزمنا على شىء. فهمنا ذلك بوضوح وهو ينادى النادل ويــشير إلينا، فاعتذرنا وشربنا ما كنا طلبناه، لكن صاحبنا واصل الشرح والتأكيد والتشويح والإعادة (فى الأغلــب) دون أن ينتظر منا أى فرصة لــلتعبير عن أننا لم نفهم حرفا، لكن الأمور كانت قد تخطت الإنذار المبكر، والمتأخر. الأعجب أن زوجتى كانت تسمع له بانتباه، ويبدو أنها كانت تصدّقه (تصدق ماذا؟ لــست أدرى)

لأنها كانت تومئ برأسها بالموافقة بين الحين والحين، ليست مجاملة، بل خيل إلىّ أحيانا أنها تفهمــه، ولا يعدم الأمر أن تلتفت إلىّ وتترجم لى بعض ما يقول، تكون قد سمعت كلمة (بالتركية طبعا) لها رنين كلمــة عربية، أو تشترك مع كلمة عربية فى حرفين أو أكثر، فتتحول إلىّ وهات يا ترجمة، ماذا جرى بالــضبط؟ أصبحتُ أنا وحدى الذى لا يفهم تركى، وكما عجزت أن أهدئ الرجل أو أوقفه عن طلاقته أو انطلاقاتــه، كذلك عجزت (إلى درجة أقل) أن أوقف زوجتى عن محاولة ترجمة ما يقوله الرجل.

خيل إلىّ أنها تقرأه كما كانت تقرأ الفنجان، فهى قد مارست هذه الهواية فترة من قبل، وكانــت تــصدُقُ معها فى أحيان ليست قليلة، وقد عدلتْ عن ذلك تدريجيا ثم نهائيا، وقد أخبرتنى بأنها حــين كانــت تقــرأ الفنجان لم تكن تنظر فى الفنجان أصلا، ولم تكن تحل نقوشه، أو تترجم رموزه، بل كانت تتــرك حدســها بوعيها المتغير قليلا ينطلق، وكانت تتعجب ــ هكذا حَكَتْ ــ حين كان طالب أو طالبة القراءة تصدق مــا تقول، لم تكن تستعمل ذكاءها أوتلفق الحكايات بشكل يصلح لكل الأغراض، ومع أنها هى التى كانت تقــوم بكل هذا إلا أنها لم تعتقد أبدا فى مصداقية ما تفعل،

تذكرتُ ذلك وهى تقرأ وجه الرجل وتترجم لى أصواته بكل هذه الثقة والوضوح، كانت كأنها تقرأ وجهه كما تقرأ الفنجان، هل يمكن؟

قضينا ليلة طيبة لم أكن انتظرها فى تركيا أصلا، فكل ما كنت أتصوره فى تركيا أنها بلد إسلامى، خلــع إسلامه ليصبح مسْخا أوربيا، وأنها سوق أرخص من غيرها، أما أن نقابل فيهــا ناســاً نتعــرف علــيهم، ويتعرون إلى هذه الدرجة، حتى نتقارب ونحن لا نفهم حرفا ممايقوله بعضنا لبعض، فنتعاطف بكــل هــذه الحرارة، فهذا هو الجديد، وهو جديد رائع يذكرنى بعلاقتى الأصلية بالناس والطريق .

هل تركيا هذه هى تركيا العثمانية التى كانت فوق أنفاسنا دهورا (كما سمعنا)؟

هل هى بلد أوربية كانت مسلمة؟ هل هى بلد مسلمة تأوْرَبَــــتْ؟

أين ناسها مما صارت هى إليه؟ وهل هى إلا ناسها؟

أين يقع هذا الرجل السكران الــمسلم الطيب من كل هذا؟

تذكرت كيف أن الفقراء بالذات حين يسكرون يكونون أكثر طيــبة وأبيض قلبا، وذلك قبل أن يرحلوا إلى المرحلة التى يستحقون فيها إقامة حد السكر (الذى لا يصح ــ فقهاً ــ أن يقام إلا إذا لم يعد السكران يميز الليل من النهار ولا الرجل من المرأة) ذكرنى هذا الرجل الطيب بسكارى حانــات العتبــة أمــام محطــة الأتوبيسات قرب مسرح الطليعة، أو حانات الأوبرا فى مقابل المسرح القومى وإلى درجــة أقــل حانــات شارع التوفيقية حيث يجتمع كثير من العمال وبعض البوابين يشربون ويتحدثون دون ســابق معرفــة، أو بسابق معرفة، وتمر عليهم المرأة بائعة الفول السودانى بقشره، والترمس، ويزدادون طيبة أكثر فأكثر، ثــم يزدادون صمتا، ثم يغط بعضهم فى النوم، فيكاد الآخر يغطّيه ويهدهده، ذلك كله وأنا أحاول أن أتعــرف

على خلفية مجموعة قصص "خمارة القط الأسود "، وجو البوظة فى الحرافيش، ونوع الحوار فى عوامة "ثرثرة فوق النيل "، فإذا بى أكتشف نبض وجدان العرايا المصريين الفقراء الهاربين، خيل إلى من بعض مشاهداتى تلك أن الشرب ـــ بدرجة ما ـــ يوحد بين البشر الفقراء بالذات قبل أن يغيبوا عن الوعى، وحين تقوم المعارك بينهم مع السكر البيّن، سرعان ما تهدأ أسرع من العاديين. من يدرى ؟ يغفر الله لهم ويهديهم، هو أدرى بهم.

هذه الحانات الصغيرة هى أمعاء المدن الكبيرة، ما الحكاية؟

من هو التركى؟

ليس جلفدان هانم، ولا راكبى السايرة الذين قابلناهم فى طريقنا إلى بلجراد (قلت إنهم كانوا أكرادا فى الأغلب)، ولا هو هذا الرجل الذى كسرت الخمر وحدته وأطلقت ثرثرة حزنه فى حانة حى ماكسيم، من هو التركى؟

هو كل هؤلاء، وهو غير هؤلاء.

أثناء تجوالى وحدى من يومين، وقدتركت زوجتى مشغولة بمشاهدة ما تحب فى الواجهات، لمحت صورة كمال أتاتورك فى أحد المحلات الصغيرة، لا أذكر ماذا كان يبيع أو فيم يختص، ولا أعرف لماذا تصورت أنه محل كى طرابيش،مع أنى أعرف تماماً أن الطربوش كان من أوائل ما تخلص منه كمال أتاتورك، دخلت المحل وأنا أتصور أننى سأجد وسيلة للتفاهم مع صاحبه الكهل بشكل ما، وصدق حدسى فقد كان يتكلم بعض العربية، وبعض الانجليزية بدرجة كافية، سألته مباشرة عن صورة كمال أتاتورك التى ما زال يزين بها محله: هل هى مفروضة عليه مثل صور الرؤساء عندنا، ولو من باب "الحيطة القومية "، فهم بسرعة، وتغير وجهه محتجا، وأعلن لى بوضوح أنه يحبه فعلا، وأنه يفخر به، ثم راح يؤكد لى أن الأتراك يحبونه، وأنه فعلاً مؤسس تركيا الحديثة، وأتذكر أننى سمعت من أبى كم كان المصريون فرحين بأتاتورك فى أوائل العشرينات، وكان لى ابن عم اسمه كمال، وزوج اختى (ابن عم والدى) اسمه عصمت، والاثنان من مواليد ١٩٢٢، وقد سميا على اسم كمال اتاتورك وعصمت لست أدرى ماذا، وقد تمادى حديثى مع هذا الكهل الطيب حتى طرقنا باب وضع الإسلام فى تركيا (فى ظل ما قال)، فتعجّب من السؤال وحوّله إلى شرح إسلامه هو، وكاد يقول لى بذلك أنه: ماله هو والإسلام فى تركيا إنه يكتفى أن يمارس إسلامه هو، وهو يصلى بانتظام، وهو مثل شاب الفندق، فخور بإسلامه بشكل أو بآخر.

رجعت وأنا فى حال، لا بد أن أدرّب نفسى على مزيد من رحابة تحمّل الاختلاف والتأجيل.

كل هؤلاء الناس، والمحطات التليفزيونية التركية الخالعة برقع الحياء، وأرقام التليفونات لتسويق الأجساد، والجميلات، والمآذن، وهذا العجوزالرائع، ورجل الحانة الذى أطلق السكر لسانه فراح يتدفق

حزنا وحبا، وهذا العجوز المتمسك بإسلامه المحب لزعيمه، الفخور ببلده، والشاب قارئ القرآن فى مسجد وسط البلد فى اسطانبول، ياه!!! ما ذا يعنى هذا كله؟ كل هؤلاء معا هم تركيا، أو على الأقل هم النمـــاذج التى وصلتنى من اسطنبول لأقترب أكثر من ناس تركيا على الطريق إليها ومنها وفيهـــا. لـــم أســـتطع أن أسجل كل هذا نثرا، فهاج بى الشعر إياه:

ـ ١ ـ

وموج بحر الناس يلطم الخدَرْ

تقولُها،.....وهِزَّةٌ مسافرهْ،

تعيدُها،.... مؤذّنٌ، وفاجرهْ،

تقولُها،..... تكبيرةٌ، وقُبّره،

تعيدُها

يجرجر اللُّغْدُ المدلّى قاعَهُ من فوق سقف الأَحْجية.

تقُولُها ،.....

يُقَهقِهُ القدَرْ.

ـ ٢ ـ

تَخْتَــلِطُ الأجناسُ والألوانُ والحقبْ

فتستدير الكلمهْ،

وتنثنى بنقطةٍ وشولهْ،

من اليسار لليمين أحرفٌ مبعثرهْ،

من كلِّ زهرةٍ جنيئُها،

ذِكّرىَ أريجهَا،

وشوكُ غَيْرهَا،

وريحُ أرضها،

بلا ثمرْ.

ـ ٣ ـ

هل أنت مسلمٌ؟

نعمْ!!

أسلمتُ وجهى للذى فطرَالخلافَ والزمانَ والقدرْ

للذى شطرَ البشرْ
تعارفوا، تفرّقوا، تآلفوا، تنافرُوا أبادُوا.
]أفندمْ، تَشَكُّرَاتْ، سلامْ[
فاملأ لنا ذاكَ الذى سكبتَه
فى ِصحتِكْ، فى غَفْوَتِكْ، فى صَرْخَتِكْ،
مكتومةً بلا صليلْ
"ميميت " شفيعُ الفقراءْ
لكنّ يوم الحشر طالْ،
أفرغْ لنا خمرَ المُنىَ قبلَ المقالْ
وابدأ بِنَا منْ ذا الحديث الأوّلِ
فى صحّتِكْ،
نخب التُّقى والجنْس والوجد الأبىّ،
ونخبَ قلبِ الأسَدِ.

ـــ ٤ ـــ

وعنه قال :
لا تـــُكثرُوا الكلامْ،
وأسْكِنُوها اللؤلوهْ،
وأرجُعوها فى المحَار تحت ثدْى الموجَةِ المهاجرهْ

ـــ ٥ ـــ

تَنَوعاتُ الفِكْر والنَّظرْ،
على نشيج الناى والدموع بَهْر ضوءِ البهرجهْ،
واللحنُ ظِلُّ الناس فى حُضْن القمرْ
تنوُّعات البرق ِ والرعودْ
لحفر بئرٍ غائر بلا مياه،
وزهرةٍ بلا شجرْ،
وبيضةٍ بلا يمامْ.
وغَارُهَا:

ممَرٌ حانَةٍ فى عطفةٍ مجهولةٍ بلا هُوية.

وعنكبوتُها:

يدبّج النقوشَ فوق طينٍ أحْرَقَــتْهُ نارُ أحلام الّذهَبْ

غجريّةٌ فى ثوبِ سهرةٍ عريقْ،

تسحَبُ عَنْزَها الثّمِلْ

ـ ٦ ـ

أَيَا بلادَ الشَّمْسِ والمآذن:

الموتُ فى التَخلفِ،

والموت فى التّقدم

وصورةٌ لمنقذِ العقول من عقُولِهَا،

ـ ٧ ـ

تعويذةٌ منمّقهْ،

وآيةٌ محفورةٌ تمدحُ آل المصطفى،

وشمعةٌ يرتجُّ ضوؤُها يراقص الظلَّ الوليد.

يختفي،

يدور حول المُلتقى،

بلا لقاءْ

ـ ٨ ـ

غطّت به ضفيرةٌ نافرةً

تمنّعت، فأغضت ،

تهشّمت غــمامةٌ عابرةٌ ،

أصابَهَا ـ فى مقتلٍ ـ قوسُ قزحْ،

تكشّفتْ ما كشَفتْ.

فانسابَ ما تبقّى،

تمايلتْ، ما سَكَبَتْ،

وما ارتَوَتْ.

وعلى الرغم من تحفظى الشديد على ما أسميه شعرى إلا أننى ما زلت أشعر أن هذا الشعر أصدق تعبير لما جاش بصدرى آنذاك.

نظرتُ إلى زوجتى شاكرا وأنا أتساءل: هل كنتُ سوف أجد خيوط ما كنت أبحث عنه لو أنها استجابت لى؟ لو أنها رضختْ فأمضينا بقية الرحلة فى ذلك الكوخ القابع على الشاطئ، فى حضن الجبل بالقرب من بارانويا، أعنى باراليا؟

لا أعرف.

لاأظن.

الجمعة ١٩٨٦/٨/٢٤

كانت الأمور قد ترتبت فى ذهنى من بعيد، ونحن نحزم أغراضنا، طلبنا من فتى الفندق الحساب لأننا سنغادر فى ساعة مبكرة، قال بسرعة، دون أن ينظر إلينا. إن الحساب مسجل على الحاسوب، وإنه سوف يكون جاهزا بضربة زر، فى ثوان، ونحن نغادر(لم أكن أعرف هذه المسألة بعد)، وقد كان، هذه الآلات تقلل من الحوار الإنسانى المحتمل، توفر وقتا هائلا لنقضيه "فى ماذا؟ ".

غادرنا الفندق فى السادسة صباحا ونحن فى رضا ذكّرنى بالرضا الذى ساد معظم رحلة الأولاد. كان الطريق سهلا و.مألوفا. ألم نعبره قادمين منذ أيام؟ وصلنا الحدود بسرعة أكثر مما توقعنا، وتمت الإجراءات أسرع أيضا. نسيت حكاية المعاملة التصنيفية من رجال الحدود، ثم إنه لم يكن ثمة أتراك فى مجموعتنا فى طريقهم إلى اليونان، فضاعت فرصة اختبار المعاملة بالمثل، أو الدراسة المقارنة أصلا .

نحن الآن فى اليونان مرة ثانية والطريق أسهل، نمر على البلد ذات المصانع، أو المصانع البلد، ولا نحبها بنفس الدرجة التى ألمحتُ إليها فى فجر ذلك اليوم القاتم المدخن أثناء قدومنا.

اليوم الجمعة.

كان والدى رحمه الله لا يصلى الجمعة، مع أنه يقوم الليل نصفه أو ينقص منه قليلا أو يزيدعليه، وأول مرة عرفتُ أنه يقوم الليل حين تعثرتُ فيه واقفا أثناء قيامى ليلا أبحث عما يروى عطشى، أظن كان سنى سبع سنوات، وحين اصدمت به حسبته عفريتا، ثم إنه كان له وِرْدٌ كما لا بد أنى ذكرت ـ وِرْدٌ تستغرق تلاوته أكثر من ست ساعات يوميا، وحين كنت أسأله عما يردده طول الوقت هكذا،ولماذا؟ كان يربّت على رأسى ويقول: أليس هذا أحسن من أن أمسك سيرة الناس هذا الوقت، مع أنه كان يمسك سيرة الناس مثله مثل غيره أثناء توقف الورد، ولم أر فى ذلك تناقضا، كان لا يصلى الجمعة بالمسجد، ويأمرنا نحن بصلاتها، وحين كبرتُ أكثر.ربما فى سن الحادية عشر. سألته عن سبب عدم صلاته الجمعة، وحاول ألا يجيب لكننى ألححت، فقال لى إن له أسبابه الخاصة، لكنّه فضّل أن يقدم لى الفتوى الرسمية التى يمكن أن أتصوّر أنه يستند إليها، كان يحكيها لى وهو يبتسم، ربما حتى لا أصدّقه، وهى التى تقول استنادا إلى

مذهب أبى حنيفة "لا تجب الجمعة إلا فى "مصر "، والمصر كما فسره أحد تلاميذ أبى حنيفة (لا أذكر إن كان محمد أم أبا يوسف) هو البلد الذى تقام فيه الشرائع وتحد الحدود، أما التلميذ الثانى للإمام أبى حنيفة فقد عرّف المصر بأنه "البلد الذى به أكثرمن أربعين مسلما، قال والدى إنه يأخذ برأى تلميذ أبى حنيفة الذى يعرّف الـ "مصر " بالشرائع والحدود، وتعجّبت من كل هذا التخريج، الأقرب إلى التبرير، وسألته عن معنى هذا كله، فقال إنه يبدو أن ذلك كان حتى يتجنب المسلمون ــ إذا كانوا قلة ــ أن يُغار عليهم فجأة وهم مجتمعون فى الصلاة، فيُبَادوا عن آخرهم أثناء تجمعهم، وكلا التفسيرين يفيد أن الجمعة تجب ــ إذن ــ حين يكون المسلمون كثرة، ولم أناقشه أكثر فقد كان واضحا أن هذا التفسير هو ما يمكن أن يقدّمه هو لى، وليس هو السبب الحقيقى، فهو يعلم أنه لا أحد سوف يغير على مسلمى قريتنا بالذات إذا تجمعوا، أو لم يتجمعوا. فمن ناحية هم لا يمثلون خطرا على أى كائن من الكائنات، ومن ناحية أخرى فإن مسلمى بلدنا باسم الله ما شاء الله يمثلون فائضا يمكن الاستغناء عنه بأى عدد من مصلّى الجمعة ومن الممتنعين معا، طبعا هذه أفكار فتى فى الحادية عشر، ومع ذلك فهى ما زالت تراودنى حتى الآن (بينى وبينك) إذن ماذا؟

احترمت كل ما قاله والدى ليس لأنه وجيه أو مُقنع، ولكن لأنه قاله، وفهمت أن التفسير الحقيقى هو خارج نطاق فهمى آنذاك، لكننى تماديتُ فيما يخصنى سائلا إياه أنه ما دام الأمر كذلك، فلماذا يأمرنا أن نصلى نحن الجمعة، فقال تفسيرا (تبريرا) أعجب، قاله وهو ما زال لا يخفى ابتسامة طيبة. قال: لأنه يتعبّد على مذهب الإمام أبى حنيفة منذ كان طالبا يافعا فى المسجد الأحمدى يعد نفسه ليصبح قاضيا شرعيا، لكنه دخل دار العلوم فى آخر لحظة لظروف يعتبرها هو من محاسن تحوّلات حياته، أما بلدنا (هورين غربية حينذاك) والتى ننتسب نحن (أبناؤه) لها فهى تتعبد على مذهب الإمام الشافعى، وبالتالى – ما زال يبتسم – فهو يحق له أن يتبع رأى أبى حنيفة، أما نحن فشافعيين وعلينا أن نصلى الجمعة، !!! ولمّا كان مازال يبتسم فقد فهمت أنه ينبغى علىّ ألا أسأل المزيد.

لم أكن أعرف أن كل قرية لها مذهبها، وبالتالى لم أكن أعرف أننى شافعى بالمواطنة، واستنتجت فيما بعد أن كل قرية تتبع المذهب الذى درس عليه أحد شيوخها الأهم فى الأزهر، ثم انتبهتُ بعد ذلك أن البلدة المجاورة لنا اسمها الرسمى "كفر نفرة " لكننا نعرفها باسم شائع طريف هو "العَطاعْطة "، هذه البلدة كانت تتعبد على مذهب الإمام مالك، وكان بين بلدتنا وبين هذه البلدة نوع من التفاخر، وأحيانا العراك (تسمّى بالفلاحى: القتْلة بتسكين التاء) على مياه الرى، كنا أطفالا نعايرأطفال العطاعْطا بثلاث معايرات: المعايرة الأولى: أننا أطلقنا عليهم شائعة تقول إنهم يخافون الهجوم لإطفاء الحرائق بعكس أهل بلدنا، وكان هناك تصوير كاريكاترى لإحجامهم هذا، كنا نقول عنهم أن الواحد منهم يقترب من الحريق ويضع عصاه على مسافة منه قائلا "حدّى وحدّك " وكلما امتد الحريق أكثر، تراجع الواحد منهم ليضع

حدا جديدا، طبعا لم يكن الأمر كذلك، فهو منظر مضحك ومستحيل فى آن، لكنها سخرية أهل بلدنا، ومـــع أنها كذلك، فقد كانت هى الصورة التى حضرتنى فى تردد وأنا أتابع انسحاب ١٩٦٧، ومن قبل انـــسحاب ١٩٥٦، وأيضا نفس الصورة ما زالت تعاودنى كلما انتهت المفاوضات إلى إعادة الانتشار أو جاءت سيرة ترسيم الحدود (الجديدة). تحضرنى صورة أهل "العطاعْطا " وهم يتراجعون خطوة خطوة قائلين لـــــلنار "حدّى وحدّك "، سواء حدث ذلك أو كان هذا هو ما أشعـــْـناه عنهم، المعايرة الثانية: أنـــه لـــيس عنـــدهم مدرسة ابتدائية فى حين أن فى بلدنا واحدة، أما المعايرة الثالث: فهى أنهم لا يمانعون أن يأكلوا من حيث لعقت كلابهم، وهذا بسبب أنهم يتعبدون على مذهب الإمام مالك الأقل تحفظا بالنـــسبة لمـــسألة "نجاســـة الكلاب ".

على الرغم من أننى أتقمص والدى فى كثير من أيام الجمع محتميا بفتواه المعـــلنة، مؤتنسا بتدينه الشديد، فأنا أكثر حرصا على صلاة الجمعة فى السفر أكثر من حرصى عليها مقيما فى بلدنا، ولعل ذلك كان أحـــد أسباب انتظامى عليها فى جامع باريس، وربما كان لذلك علاقة ما بحرصى على صلاة العيد (على الرغم من أنها سنة وليست فرضا) أكثر من حرصى على صلاة الجمعة، ذلك أننى متى سافرتُ فإن تعرفى على الناس يكون أوثق وأعمق أثناء تأدية العبادات معا، الانتماء إلى جماعة الناس المختلفين مع توحد العبـــادة يجعل لهذه العبادة دلالة ووظيفة خاصة جدا تمثل موقفا محوريا فى إشكالة وجودى شخصيا .

اليوم الجمعة، ونحن الآن فى أقصى شمال غرب اليونان، ومثلما قلنا فإن كل ما هو حول الحـــدود تجـــد تشابها بين الناس والمبانى حول جانبى الحدود، لتدرك ـــ كما ذكرتُ ونحن نعبر إلى يوغسلافيا ـــ أن هذه الخطوط بين البلاد وهمية. كنت كلما اقتربت من، أو اخترقت. بعض القرى اليونانية قرب الحدود، أحسب أننى ما زلت فى تركيا، ذلك أننى كنت ألمح ما يشبه المئذنة، ولم آخذ المسألة جدا، لعلها مآذن تشبه مـــآذن بيوت مصر الجديدة، (مصر الجديدة التى بناها امبان البارون وليست مصر الجديدة النزهة، والحى العاشر وإخوته. أعوذ بالله، هذه كلها ليست مصر الجديدة، ولا القديمة ولا النصف نصف)، ســـألت نفـــسى: هـــل يوجد مسلمون فى هذه القرى، وهل تقام الجمعة؟

لم أستطع مقاومة نداء يدعونى إلى الانحراف إلى داخل إحدى هذه القرى بعد أن نظرتُ فـــى الـــساعة، ورجحت أن هذا وقت صلاة الجمعة. وقد كان.

سألت بالإشارة (إشارة التكبير) والنظرفى الساعة، وعلامات الاجتماع، فاستجاب لى أحـــدهم، فالثـــانى، حتى وصلت إلى مسجد صغير جميل، الوضوء بعيدا عن المسجد تماما فـــلا رائحـــة ولا رطوبـــة، والله سبحانه يحيط بالمكان بشكل مباشر (لا تسألنى كيف)، والناس صفين ونصف فقط، والمنبر من درجتـــين، والكلام باليونانية (فى الأغلب) لكن الخطبة بالعربية، وكذا الصلاة طبعا. أراهن أن الخطيب لا يفهم نصف

الخطبة على الأقل. خرجت وأنا أتعجب، زدت فهما لعمق وظيفة الدين، أنا على يقين من أن الله سبحانه لا يحتاج إلى لغة معينة لنعرفه.

ونصل إلى "أسبراجاليا "، ونلمح المخيم الذى لم يستضفنا إلا ساعة ونصف ساعة، ثم طردتنا عاصــفته التى بررتُ بها هروبى فجرا عقابا لزوجتى التى حرمتنى من الاستجابة لنداء ركنى الــصغير، ونختــرق وسط المدينة بالنهار فنلاحظ أن السوق الأعظم الذى بهرنا ليلا (ذهابا)، لم يعد "أعظــم " بطلــوع النهــار (إيابا) ،

حين وصلنا الى سالونيكى كنا بعد العصر، فكرنا أن نسأل عن موتيل قريــب أو مخــيم، إلا أن ســطوع الشمس أغرانى بالاستمرار وذكرتنى زوجتى بوعدى ألا نسير ليلا، فأكدت لها أننى عند وعدى.

لاحت لافتة تقول: كاتيرينا لكن السهم كان يشير إلى الغرب، ونحن نتجه جنوبا، واقترحــت زوجتــى أن نقضى فيها ليلتنا، لكننى كنت أتمنى بعد ما حُــــلّت المسألة (أية مسألة؟) أن أقضى الليلة بالذات فى مكان طيب يليق بحالتنا الطيبة التى هى (حالتى على الأقل) تكاد تكون عكس مــا كنتــــُــــه أثنــاء الــذهاب. كاتيرينا هذه كما تبدو على الخريطة بلد كبير، وأنا فى عرض قرية على الشاطئ، فغــامرت بالاســتمرار داعيا الله ألا نبلغ مغرب الشمس إلا وقد عثرت على ضالتى.

بعد أقل من نصف ساعة لاحت معالم تشير إلى احتمال قرب قريــــةٍ ما.

فعلا، وجدنا شارعا جانبيا ،إلى الشرق هذه المرّة، عليه لافته قرأناها بالكاد كان نطقها صــعبا إذا قــورن بما اعتدنا عليه، كان اسمها "ليبتوكاريا "، فانحرفنا على الفور دون حتى أن نتبادل المشورة، و علــى أول الطريق الجانبى، على الناصية وجدنا محل ملابس نسائية تبدو فاخرة، لكنه محل وحيد، ما هذا؟ من الذى يأتى هنا لهذا المحل المنعزل؟ دخلنا ونحن ننتظر مباراة فى التهتهة ولغة الإشارة، وإذا بنا نفاجأ بعجوز لا تبدو عليه اليونانية، فعلا ما إن سألنا: تتكلم الإنجليزية؟ لا، طيب الفرنسية ؟ حتى انطلــق وكأنــه وجــد لــقيّة، وراح يرطن بالفرنسية بطلاقة لم نقابلها من قبل فى أى يونانى. ورغم خيبتى البليغة وقلة أبجــديتى فى الفرنسية إلا أن اللهجة الباريسية التى تعلّمتُ بها الكلام لأغراض الحياة اليومية، تجعــل مــن يــسمع الجملتين الأولتين منى يحسب أن تحت القبة شيخا، أسعفنى ما حضرنى من فرنستيى الهزيلة رغم اللهجــة السليمة، وهات يا حديث معه بها،، فرح بى الرجل كما فرحتُ به، ثم راح يتباهى بأمه البلجيكيــة وكيــف أنه أقام فى فرنسا كذا سنة، وألمحت بدورى إلى السنة إياها التى أمضيتها فى باريس، والتى تحولتُ فيهــا إلى ما هو أنا، ثم إلى ما هوبعد ذلك، و هكذا تبادلنا تاريخا مناسبا بسرعة. كان المحل يعرض مجموعــة من الملابس الجلدية بالذات، كما كانت الأثمان ليست كما تركناها فى اسطانبول ولا كمــا اعتــدنا عليهــا عموما، كيف فى بلدة نائية مثل هذه البلدة تكون الأثمان هكذا بهذا الارتفاع، ومن ذا الذى سوف يــشترى بهذه الأثمان؟ فى هذا المكان المنعزل؟ من هذا المحل المنفرد؟ أرزاق.

مشينا كما أشار اليونانى نصف البلجيكى، وبعد كيلو مترين أو أكثر قليلا لاحت لنا هذه الليبتوكاريا.

بلدة صغيرة جميلة وعلى البحر، هكذا خبط لصق، وجدنا فندقا صغيرا، بسرعة، يكاد يكـــون خاليـــا إلا منا، ومن أصحابه، نبهنى صاحبه أننا فى نهاية الموسم، وأن المدارس فى اليونان تفتح فى أول ســـبتمبر، وأمام الفندق (الموتيل) كان يوجد محل مكتوب عليه كلمة لا فتة لم أفهمها ولا أذكرها الآن، تبينت فيما بعد أن معناها "ستائر "، وتكررت مثل هذه المحلات كثيرا، وعلمت أن اليوغـــسلافيين (لـــست أدرى الآن أى عرق منهم) مهرة فى هذا النوع من الشغل والأنسجة وأنهم يحضرون فى الـــصيف يـــسوّقون بـــضاعتهم الرخصية ويقضون بعض الاجازة بما يربحون، وهم يتمتعـــون بـــبعض الحريـــة، الموقوتـــة، وتكـــررت مشاهدتى لهذه اللافتات، وتذكرت لعبة بضائع غزة فى الخمسينات وأوائل الستينات، عندنا، ثـــم رحـــلات بورسعيد قبل الانفشاخ (أعنى الانفتاح).

فرحت بالفندق (المنزل) وبقربه من البحر، وبالمقهى (البلدى تقريبا) علـــى البحـــر وبالـــصيادين الـــذين يشغلونه، وفرحت زوجتى لفرحى فى الأغلب، فحبها للأماكن يضطرد صعودا مع عدد الناس فيهـــا. أنـــا أحب الطريق أولا، بناس وبغير ناس، ولا يوجد طريق بدون ناس، أو هو يؤدى بالضرورة إلى ناسٍ مـــا، لكن زوجتى تحب الناس فى الطريق وفى غير الطريق، المهم الناس. حتى فى الجنّة: المهم الناس.

سلمتنا زوجة صاحب الفندق مفتاح الحجرة، والقرص الطارد للبعوض والآلة التى يوضع فيها القـــرص، فوضعنا أغراضنا فى الحجرة واكتشفنا أنه لا يوجد نزلاء غيرنا.

نزلنا بسرعة، انطلقنا نتعرف على هذا البلد الصغير جدا، الجميل على ما يبدو، الجميل فعلا كمـــا بـــدا، ونحن نتصور أنها ستكون بلدة هادئة شوارعها، خالية من غير سوء، إلا أننا حين اقتربنـــا مـــن الـــساحة الرئيسية سمعنا أصوات آلات عزف عالية، سرعان ما تبينا أنها موسيقى فعلا أو أغان تعلو مـــع اقترابنـــا من مصدرها، هل هو مسجل قد رفع صوته صاحبه على آخره مثلما اعتدنا فى بلدنا؟ مع وصـــولنا إلـــى الساحة الرئيسية، وكانت شديدة الاتساع بما لا يتناسب مع صغر القرية، وجدنا على جانب فيها مـــا يـــشبه الساحة الصغيرة ودائرة وكراسى ومناضد فى الهواء الطلق حول حلقة عالية، تمازحنا ونحـــن نعتبـــر أن لبتوكاريا هذه قد أعَدَت لنا هذا الحفل الجميل خصيصا تحية لقدومنا، وانجذبنا إلى مـــا اعتبرنـــاه منـــصة المحتفى بهم.

يوجد ما لا يزيد عن عشرين شخصا حول حلقه الرقص، ومع ذلك فكأنه حفل لألف واحد، وبدأت الفرقة الصغيرة (لعلهم كانوا ثلاثة) يعزفون، وبدأ الحضور يرقصون وحدهم تلك الرقصات الجميلـــة، الـــشريفة، الحقيقية، السريعة، القافزة فى هدوء منسجم، ويحضرنا أنتونى كوين وزوربا معا، (أليسا واحـــدا؟ لكـــنهم بدوْا لنا توأمان) وفرحنا معهم، ولا ينغصنى جدا إلا ما لا أمل من ترديده فى هذه المناسبات من مقارنات: أين رقصتنا،؟ أين رقصتنا الجماعية؟ أين دبـــــْـــكتنا؟ أين قفزنا معا؟ لا نريد تانجو ولا فوكس تـــروت،

نريد أن ندور ونفرح بأجسادنا، بوجودنا كله، نريد أن نقترب من بعضنا فى سماح وصدق راقص، نريـــد أن يتركوا لنا حتى ذكر الله سبحانه ونحن نتمايل، حتى هذا أصبح من المحظورات الجديدة،

لن نبدع إلا إذا تحررت أجسادنا، وعضلاتنا، وأدمغتنا، و "أدلجاتنا "

(جمْع أيديولوجيا!!).

الفصل الخامس

(الفصل المفقود:٢)

(الفصل الحادى عشر: من الترحالات الثلاثة)

أوراق قديمة، وأوراق مبعثرة

من مذكرات ٣ يوليو ١٩٥٠

معذرة لقد نسيت أن أعلق على الحرب الكورية!!!

٢٠ فبراير ١٩٥٤

قال والدى ونحن نتكلم فى مقدار نصيب الإنسان من الجهد ومعنى الاعتماد على الله:

يا إبنى إنى حين أقول أسلمت وجهى لله كل صلاة لا أقولها وأستسلم، وإنما أقولها لأقبل النتائج، و أتعلّم.

(عود على بدء) ٢٧ / ٨ / ١٩٨٦

"ديكى ديكى، أنت صديقى أنت رفيق البيت، رفيقى

صِح فى الدار، أيقظ جارى، واشرب ماءً من إبريقى".

هنا فى لبتوكاريا كنت أنا الجار الذى يوقظه الديك، وأنا الصديق معا،

صديق عن بـُعد كالعادة، حتى مع هذا الديك أصادقه عن بعد!!!

٨ اغسطس ١٩٨٧

.. .. قالت لى ابنتى الصغرى (مى) إنها تريد أن تهدينى من أول مرتب تقبضه هدية ما، وسألتنى عما أريد، فقلت لنفسى ثم لها: أنت تعرفين ما أفضله: لعبة أطفال أو قلم جاف سنه رفيع جدا، فاشترت لى لعبة لم أحبها، أنا لا أحب اللعب ذات التكنولوجيا الأحدث، ولم أستطع أن أخفى عنها رفضى، قرأتنى بسهولة، وتألمت وأعادت السؤال، فوجدتنى أنتبه إلى أنها ابنتى الصغرى، لم يبق من أولادى إلا أصغرهم طالبا، فهل آن الأوان لأكتب تجربتى؟ قلت لها أريد كشكولا ضخما، أو عشر رزم مسطرة تقومين بتجليدها معا، وذلك لأكتب لكم وللناس بعض ما هو أنا، ثم أضفت جادًا وكأنى أهزل: على شرط ألا تفتحى هذه الأوراق إلا بعد عشر سنوات من وفاتى، وألا تنشر قبل عشرين"، يا صلاة النبى وكأن هذه الأوراق هى أسرار المملكة المتحدة، وكأنها سوف تحوى ما يستحق نشره، ولكن يبدو أننى كنت أنوى أن أكتب تاريخ كل خبراتى بحق. وهو ما لم يحدث طبعا، وهو ما لا يحدث أبدا مهما زعموا.

٢٠٠٠/٣/٢٤

هذا ما وجدته مكتوبا حين كنت أبحث عن أصول الفصل المفقود، عثرت على اثنتين وثلاثين ورقة من هذا المجلد، الذى أهدتنى إياه ابنتى، واكتشفت أن هذه الصفحات هى كل ما دبجت فى هذه الرزم الضخمة من ورق مسطر (فولسكاب) ويكاد يبلغ حوالى ٥٠٠ ورقة، وهى مجلدة بغلاف مقوى، لكنها أصبحت قديمة، وقد تكون بعض الصراصير قد زارت أطرافها.

ماذا كنت أنوى أن أكتب من أسرار لا تُفتح إلى بعد كذا سنة؟

لماذا توقفت؟ لماذا نسيت الأمر كلية؟ ما علاقة هذا الذى أكتبه الآن بهذه النيّة.

كنت قد عثرت أيضا على ست كراسات كُتبت سنة ١٩٧٤ بنفس النية (كنت قد نسيتها أيضا)، لكن هذه الكراسات الست كانت كلها مليئة، وبإسهاب، وأغلب ما فيها كان حول تلك التجربة التى خضتها مع مجموعة من الأصدقاء والزملاء فى محاولة مواجهة جماعية نمائية، كان من ضمنها تجربة "مجموعة المواجهة" ،Encounter Group التى لم أتمكن إلا للتلميح لها فى ديوانى بالعامية "أغوار النفس" وفى الجزء الثانى من روايتى "المشى على الصراط" باسم مدرسة العراة، هذه التجربة غير قابلة للكتابة مباشرة، فماذا كل ماعداها؟

نظرت فى الاثنتين وثلاثين صفحة من هدية "مى"، الوريقات قديمة، الصفحات الأولى بعضها ممزق، فلصقتها، وجدت عنوانا قرأته بالكاد يقول "قبل البداية" لم يكن تحته أى شىء.

وجدت أيضا كلاما عن بعض المرضى، وأنا عادة لا أكتب عن مرضاى هكذا، فى مثل هذه الأوراق، وهل عندى أوراق مثل هذه؟ خذ مثلا:

١٠ سبتمبر ١٩٨٧

منذ أيام جاءتنى مريضة، أو من هى كذلك، تشكو من زوجها المقاول بالصعيد (محافظة قنا) إذ يريد منها (أ) أن تنجب له كل عام طفلا (وقد أنجبت فعلا ٤أطفال فى خمس أعوام) (ب) وأن تظل مقيمة معه فى الصعيد. هذه هى كل شكواها. لم أجد فيما قالت ما يخص ما هو مرض نفسى، قلت لها أن هذا شئ طبيعى، وأن طلبها العيش فى مصر ليس مناسبا بعد هذه السنين من الزواج، ومع ظروف هذا العدد من الأولاد، فانبرى شقيقها يدافع عن حقها فى العيش فى مصر، لأنه (زوجها) لا يحترمها، ولا يريحها، ثم إنه يطلب منها طلبات لا يمكن أن يصرِّح بها، وحين ألححت فى الاستفسار لأكون حَكَمًا عدل بين شقيقته وزوجها، قال لى شقيقها إنه (زوجها) يعرض عليها أفلام "الثقافة"" ويريد أن تتجاوب معها أو أن تقلدها، فاندهشتُ للوهلة الأولى، وكررت الاستفسار فأكد لى شقيقها أنها فعلا أفلام الثقافة، ثقافة ماذا فى الصعيد لرجل يريد كل سنة طفلا ؟ استدرت إليها أسألها "ثقافة فى ماذا" قالت "إنه يريد أن أعمل معه: "زى الخواجات العريانين دول اللى بيناموا مع بعض فى الفيديو، وأنا ماباعرفش" فهمت أخيرا أن هذا هو الاسم السرى لأفلام الجنس، وتذكرت مريضا شابا كنت سألته عن كيف يحصل على

هذه الأفلام من نوادى الفيديو، فقال لى إن هناك "سيم" متعارف عليه فى كل ناد للفيديو، وعلى الزبون أن يعرفه ولو بالتقريب، مثلا هو يتعامل مع ناد يسمى هذه الأفلام بأسماء مباريات كرة القدم، مباراة البرازيل مع الأرجنتين، أو ألمانيا مع فرنسا.. وهكذا.

٢٠٠٠/٦/٩

اكتشف وأنا أقرأ هذه الاستعارة الدالة، أن علاقتنا بالأجانب، بما فى ذلك حكاية الثقافة بالمعنى الشائع يكاد ينطبق عليها هذا المثال، من هذا النوع. بل إن اختيار هذا الصعيدى لهذا اللفظ "ثقافة" هو مناسب جدا لوصف مثل هذه العلاقة تحديدا. هناك من يريد منّا أن نتحضر بهذه الطريقة، بأن نعمل مثلما يعمل الخواجات فى أفلام الثقافة.

والله فكرة! أكثر الله خيرك يا ست هانم. تعلمت منك ومن زوجك الكثير، أدعو الله أن تكونى قد تثقفتِ بطريقتك، وأن يبارك لك فيما أنجبتِ، فيكتفى زوجك ويعينه الله على رعايتهم وشكرك.

وجدت أيضا مكتوبا فى ١٩٨٧/٩/١١

أعيش هذه الأيام مرحلة جديدة: هى مأزق ختام تربية الأولاد. فأكتشف أنى دفعتُ بهم الواحد تلو الآخر إلى أن ينتهوا إلى تخصصى ــ لست أدرى كيف ــ، ولعل الدافع الظاهر أو الخفى وراء ذلك هو امتداد مادى، أو محاولة خفية لكسر الغربة التى فرضها علىّ تخصصى، أوكلاهما.

التحدى الصعب ــ دائما صعب ــ هو ما أُمتحن به من مواجهة التطبيق الآخر والمباشر لما أزعم أنى أعيش به وله، وهو "قيمة العدل" فكم قلت، وقررت وسجلت، وأعدت التسجيل، أن "مالى" ليس ملكا لأحد، وأنه أمانة لابد أن ترجع إلى أصحابها، وأن صاحبها هو "المريض"، و"طالب العلم" (الحقيقى)، وتفصيل ذلك هو ما يشبه الوصية بأن كل قرش أمتلكه فى حياتى وبعد موتى لا بد أن يوجَّه لعلاج مريض أو لمنح فرصة لرواج فكرة جيدة، ناهيك عن منح الأمان للدفع إلى إخراج فكرة (حياة) جيدة

٢٠٠٠/٦/٩

ماذا تحقق من ذلك؟ وماذا يمكن أن يتحقق؟

هل أولادى هم الأحق تحت زعم أنهم أقدر على حمل هذه الأمانة إلى ذويها؟

ما المقياس؟ من يدرى؟ من يحكم؟ كيف؟ ماذا أفعل الآن؟

لم تكن هذه أول مرة أكتب فيها مذكرات، فقد بدأت من سن الثانية عشرة على ما يبدو من الأوراق المبعثرة التى عثرت عليها أثناء بحثى عن الفصل المفقود، أكتشف أن "فرط الكتابة" الذى غمرنى فى مأزق منتصف العمر (٧٢ ــ ٨٦) أخرج عدة أعمال ما بين الشعر والرواية الطويلة، وكلها كانت أشبه بمذكرات متصلة حتى انتهت بهذه السيرة الذاتية الجزئية التى أخذت شكل أدب الرحلات فيما أسميته "الناس والطريق" ثم هآنذا أقرر كتابة ما اسميته "أدب المكاشفة" ــ تصورت أن هذه السيرة

الذاتية غير المقصودة هى الأهم والأصدق (ربما هذا هو مبرر كتابة الترحال الثالث، بل هـو كـذلك- لننتظر)، أواصل القراءة:

وجدت أيضا مكتوبا فى ١٩٨٧/٨/٩

هل هو الشعور بقرب النهاية؟ هل أعطِي بذلك لنفسى أهمية أكثر مما أستحق؟ هل هو الشعور بأمانـة المسئولية وضرورة تسجيل ما أحجمتُ عن، أو خفت من، تسجيله حتى الآن؟ هل هو سبيل آخر (ثالث أو عاشر) لتسجيل خبرتى العـلمية بعد أن عجزت الوسائل الأخرى (حتـى الـشعر والروايـة) عـن تسجيلها؟

أريد أن أكتب عن خبرتى، مِن خبرتى، فى ثقافتنا هذه بالذات:

(أ) ملحمة الفصام (تشكيلات ذهانية)

(ب) فن المعالجة ودفع النمـو والإبداع

(ح) معنى الأعراض النفسية!!!!

هذا فضلا عن إكمال نظريتى فى "ماهية تطور الانفعال/ الوجدانية. ونطريتى عـن "تطـور المـرأة" فـ"تحرير الرجل. الرجل لا يتحرر إلا إذا إذا تحررت المرأة من عبوديتها لذاتها وله بالنيابة. من أيـن نبدأ؟ التحرير كذبة عالمية وتاريخية ؟ لا أحد يعرف عمق ومـسئولة ومخـاطر الحريـة، خـصوصا الرجال. على المرأة أن تعقل وتمسك الدفة فقد خُدعَ الرجال وفشلوا، فهل تسعنى هذه المذكرات؟

وجدت أيضا مكتوبا فى ١٩٨٧/١٠/٩

أثناء تواجدى بالعيادة، هذا الأسبوع، دخل علىّ ذلك الرجل الذكى المعمم الذى بدا صديقا دون معرفـة سابقة إلا استشارة محدودة قبل أسابيع، كان قد أمضى فى جنوب السودان وغرب أثيوبيـا وكينيـا مـا أمضى من سنوات، يتكلم أربع عشرة لهجة أفريقية، كما عاش المجاعة معهم. كان يتنقل بـالهليوكوبتر والحمير حسب المتاح والحماس، جاءنى من إحدى قرى محافظة المنيا غـرب ملـوى، كـان مرافقـا لمريض جديد بعد أن برأ هو من عارضٍ ألمّ به واستشارنى بشأنه. فوجئت به يقول وهو يـشير بيـده محتجّا :

-"هوه أنت مش حا تكتبها بقى؟

قلت له فى دهشة:

- أكتب ماذا يا فضيلة الشيخ؟ "

أكمَل وكأنه لم يسمعنى:

-هل ستظل هكذا رائحا غاديا، طارقا مترددا، أكتبها يا رجل وخلصنا.

هذا الرجل لا يعرفنى، وكأنه يعرفنى أكثر من كل من عاشرنى.

قلت له وكأنى أواصل حديثا طويلا ما انقطع، حادثه وكأنه يعيش معي، بداخلى، وكأنه أقرب من أقرباء أهلى. وكأنى أحادث نفسى، عرّانى هذا فضيلة شيخ دون استئذان. قلت له:

ـ متى يا فضيلة الشيخ؟ متى؟

رد علىّ فى غضب حقيقى:

ـ هذا شأنك، أم تريد أن تظل على هذا المكتب (يشير إلى مكتب العيادة) تؤجل حتى تنسى، وتعِدُ ولا تفى.

ذكّرنى إبنى محمد، ونحن فى الاسكندرية، بهذا الحديث الذى نقلته له قبلاً، هذا الشيخ لم يقرأ حرفا مما كتبتُ تنظيرا وفروضا، ولا سمع عمّا وعدت، فكيف عرف ما أحمله من قول ثقيل يرهقنى، وكيف أتته هذه الإحاطة بمشروعى الذى يلومنى بسبب التقاعس عن إتمامه، كانت تذكرة محمد إبنى لى بحديث هذا الشيخ بمناسبة ما عرضته عليه مما كتبته عن "الضلال" فى الموسوعة النفسية التى تنشر بانتظام فى مجلة الإنسان والتطور، بدون توقيع، قال محمد: إن هذا الذى كتبتَه فى عجالة عن الضلال فى هذه المجلة التى لا يقرأها أحد، يصلح فروضا لأبحاث تستمر عشر سنوات، وأن أى وقت يضيع من وقتك فى غير هذا الاتجاه هو مسئولية لا يعلم هو كيف سوف أدافع عن نفسى إذا تخليتُ عنها.

فهل هذه المذكرات (فى رزمة أوراق "مى") هى ضياع وقت فى غير الاتجاه الذى نصحنى به فضيلة الصديق الصعيدى، وذكرنى به إبنى محمد؟

ذات يوم فجأة: قال لى أ. د. عماد حمدى غز (الآن أستاذ طب نفسى، ثم استشارى فى المملكة المتحدة): إنك تحوم حول نظرية فى الحياة للحياة، هى فلسفة كاملة، فلماذا لا تكتبها، بدلا من أن تُخرجها متناثرة متخفية تحت اسم حركى هو الطب النفسى، أو الأمراض النفسية،

كدت أفهم مقصده، وخاصة وأن كتابى "مقدمة فى العلاج الجمعى" كان مقدمة لرسالته فى الماجستير التى أشرفتُ عليها، وكانت به إرهاصات ما يتحدث عنه.

وجدت أيضا مكتوبا فى ١٩٨٧/١٠/١٠

لست أدرى وأنا أكتب هذه المذكرات أهى حديث شخصى أم أنها هى هى هذه النظرية؟ المهم أننى قررت وبصفة عاجلة، بعد ما أحضرتْ لى ابنتى هذه الهدية، أن أكتب هذه المذكرات هكذا (يوميا) ثلاث صفحات على الأقل، هآنذا أبدأ، وكأنى بوجود هذا المجلد الفارغ أمامى أحرج نفسى لألتزم بالكتابة، أفرض على نفسى ما فرضه علىّ التزامى بإشغال عامل جمع حروف طباعة حتى يجد عملا منتظما بعد أن كنت السبب فى تركه عمله، فخرج كتاب السيكوباثولوجى، أهم أعمالى حتى الآن، وحكايته كالآتى:

إنه فى ديسمبر سنة ١٩٧٨ تقرر عقد المؤتمر الأول للطب النفسى، وكنت المسئول عن اللجنة العلمية تخطيطا، وتنفيذا، بما فى ذلك طباعة دليل المؤتمر. وموجزاته وغيرها، ولم أجد مطبعة تسعفنى، ولـــم تكن تجهيزات الطباعة الأحدث فى المتناول أصلا، فاشتريت على حسابى صـــندوق حـــروف كامـــل، ووضعته فى حجرة بجراج بيتى، وأستأجرت عامل طباعة، قام بالمهمة فى وقتها، وأنقـــذنا الموقـــف، وطبعنا اللازم وانتهى المؤتمر، لكننى وجدت أمامى عاملاً ترك عمله وتفرغ لهذه المهمة مـــن أجلـــى، كما وجدت فى حوزتى حروفاً استُعملت مرة واحدة، ولا يمكن بيعها بسهولة، قـــلت أكتـــب كـــل يـــوم عددا من الصفحات أناولها للعامل يجمعها وهو يواصل عمله عندى، فى الجراج، حتى يجد عملا آخـــر من جديد، ووجدت المهمة جد عسيرة، فما أسهل أن تكتب لنفسك ثم تمزق ما تكتـــب، أمـــا أن تكتـــب صباح اليوم ما يُجمع حروفا قابلة للطباعة فى المساء، فهذا شئ آخر، فاستخرت الله أن أقـــوم بـــشرح ديوان سر اللعبة الذى صغت فيه "علم السيكوباثولوجى" شعرا، وذلك وفاء لوعدى لصلاح عبد الصبور أثناء مناقشته معى هذا الديوان فى البرنامج الثانى، حين وجده ـــ متفضلا ـــ شعرا صرفا، وتحدانى أن يكون هذا علم أصلا، وفرحت لكونه شعرا قحا وليس رجزا مثل الألفية مثلا، وقبلت أن أقبل اقتراحـــه، أو تحديه، ثم وعدته أن أكتب شرحا على هذا المتن الشعرى، ووجدت الظرف الطـــارئ هـــذا حـــافزا لكتابة هذا الشرح حتى أجد ما أشغَـــلُ به هذا العامل حتى يجد عملا، وهكذا يوما بيوم رحـــت أكتـــب أربع عشرة صفحة وهو القدر الذى قدّره هذا العامل ليملأ به سبع ساعات العمل، فخرج عملى الأكبـــر "دراسة فى علم السيكوباثولوجى" كأهم ما كتبت حتى الآن، وليس معنى هذا أنه خرج بالصدفة، ولكنـــى من يومها تبينتُ كيف أن المثير، أو الدافع المباشر، قد لايتناسب بالضرورة مع المحتوى والناتج.

كنت أسجل مع صلاح جاهين يوما برنامج عن بيرم التونسى، وجاء ذكر الليلة الكبيرة، وسألته بحب: لماذا لم يكرر المحاولة ليتحفنا بمثلها أو ربما يتجاوزها؟

قال لى صلاح: إنك لا تعرف قيمة الصدفة، إن الـــصدفة لا تتكرر، وحكى لى كيف ظهـــرت فكـــرة الليلة الكبيرة فى جلسة مع سيد مكاوى، وكيف تطورت حتى خرجت هكذا، وقلت لنفسى إن مثل هـــذه الصدفة ليست صدفة بالمعنى الشائع، لكنها "فرصة" لإطلاق الكامن.

هل هذه المذكرات فرصة، أم صدفة؟ أم مضيعة للوقت؟

إن المبرر الوحيد لكتابة هذه المذكرات، هو أن أقول مالم أستطع قوله من قبل. فهل أجرؤ الآن؟

ثم هبْ أنى تصورتُ أن شرط عدم قراءة ما أكتب قبل عشر سنوات، وعدم النشر قبل عشرين ســـنة قد نفذتـــْـــه ابنتى حرفيا، فما معنى أن ينشر هذا الكلام سنة ٢٠٠٧ (ألفان وسبعة ميلاديـــة)؟، ألـــيس الأولى أن أمضى مباشرة إلى كتابة النظرية أو النظرة أو الفلسفة دون التـــلكع والتهرب هكذا؟

أنا بالذات، أشعر أنى مدين بكتابة ما هو أنا، أشعر أنه واجب لا مفر منه أن أسجل هذا الجانب من تجربة حياتى، فأنا أحسب أنه قد أتيحت لى فرصة لم تتح لغيرى، وأن معرفة هذاالذى كان هو من حق الناس، وأحيانا أبالغ فأقول إنه من حق الوعى البشرى، نعم؟ نعم؟ حقه فى ماذا؟ فى تعرية نموذج بشرى هو أنا، وليس فى مجرد الإعلان عن أحداث مرّت بشخص ما. هذه أهمية وهمية لا أساس لها، فانتبه !!

انتهت الصفحات الثلاث الأولى، ولم أبدأ بعد ،

أرى أن أذكر حادثا مؤلما غامضا تراودنى آثاره بألم دفين: هو هجومى القاسى على أمى منذ عام، فى محاولة تثنيتها عن القيام بلعبة كاذبة وقاسية تحت وهم تكفير عن ذنب خفى تجاه خالتى المتوفاه (أمى الأخرى)، وقد أعود إلى تفاصيل ذلك مرة أخرى وقد لا أعود.

المقطم في ٢٠٠٠/٦/٩

هذا ما كان مكتوبا هكذا، ولم أعد أبدا: ولم أكتب شيئاً عن ذلك، ولا أذكر الآن ماذا فعلتْ أمى بذكرى خالتى مما جعلنى أكتب هذا الكلام، ولكن الذى أذكره تماما، وذكرته سالفا أن لى أمَّين، خالتى وأمى، وأن أمى الأكثر مالا وولدا كانت تحقد على خالتى المطلقة عديمة الولد وحيدة الإقامة محدودة الرزق جدا جدا، لماذا؟ ما هذا؟ كيف هذا؟ لم أكتب شيئاً عن كل ذلك رحمهما الله رحمة واسعة، وسامَحَنى إن كنت أسأت إلى أيهما. (أنظر فصل "أمى" فى الترحال الثالث إن شئت")

وجدت أيضا مكتوبا فى

1987/8/27 الساعة الخامسة صباحاً

اليوم أسافر إلى اليونان مع بعض أولادى وأصدقائى، قررتُ أن أكتفى بأخذ هذه الأوراق الخالية (المذكرات) معى لأعفى نفسى من حمل أثقال الكتب الأخرى، ولألزم نفسى بالكتابة دو ن القراءة هناك، ولكنى فى آخر لحظة حشرت عدة كتب داخل الملابس وكأنى أهرّبها من شخص ما، كتبٍ كنت أجّلت قراءتها، ومن بينها رواية جبرا إبراهيم جبرا "البحث عن وليد مسعود"، لا فائدة، لا أتغير. الرحلة قصيرة، وهى هدية زواج ابنى الأكبر الذى لم يتمكن من اصطحابنا فى رحلتنا الأولى بسبب التجنيد،

إبنى هذا – محمد – هو الأقرب، ومع ذلك أتبين كيف تتسع المسافة بيننا باضطراد، لا أعرف لماذا يتجنب كتبة السيرة الذاتية الحديث عن أبنائهم فى حين يتحدثون عن طفولتهم وإخوتهم ووالديهم بإسهاب لا حدود له، أكتشف الآن أن طه حسين – على حد علمى – لم يذكر شيئاً ذا بال بشأن أولاده أو علاقته بهم، أليس الأولاد هم صناعتنا نحن، فهم أدل على ما هو نحن، فى حين أننا صناعة أهلنا؟ سيرتنا الأولى أؤلى أن تكون سيرة أهلنا.

المسافة بينى وبين إبنى الأصغر، مصطفى، ظاهرة منذ البداية، منذ لاحظت عليه ميلا للرفاهية أو الفوقية، فاضطررته أن يذهب معى إلى مزرعة صغيرة أنشأتها بالقرب من الجيزة وأرغمته (وهو بعد فى الثالثة عشرة على ما أذكر) أن يمسك الفأس ويعمل مع الفلاحين معى، أو بدونى، لا أذكر، حتى يعرف معنى العمل، والعرق، والفلاحة، والفلاح، والوقت، والطين، والطبيعة، والناس. ومنذ ذلك الحين ارتفع حاجزبينى وبينه مع أننى أتصوّر أن هذه الخبرة حوّلت ما رفضته فيه إلى إبداع رائع فى مجالات لا تخطر على بال، مجالات متنوعة لست أدرى كيف اكتسبها كلها مرة واحدة، من أول التصميم المعمارى حتى فن الترتيب المنزلى الداخلى (الديكور)، حتى الطبيخ،حتى تصميم موديلات جديدة لأثواب نسائية لأختيه وأمه وقريباته بما فى ذلك:"فساتين الزفاف" .

لكنّه مع احتفاظه بكل هذا أصبح طبيبا نفسيا. ولا أدرى إن كان سيستمرأم لا.

"أنا مالى" أنا بكل هذا؟

2000/7/23

ثم تزوج إبنى الأكبر – محمد – من بنت رجل طيّب، لكنّه يحب الأفراح والرسميات، وله معارف من علية القوم بلا حصر هو المرحوم أ.د. حلمى نمر، فكان الزفاف فى فندق من إياهم، ورفضت هذا النوع من الاحتفال من حيث المبدأ، لكننى لم أعترض حتى أحول دون ذلك. فقط عملت لهما زفافا أسبق فى مزرعة لى قريبة من القاهرة دعوت إليه كل أصدقائى الفلاحين وغير الفلاحين، وحين جاءت مناسبة هدية الزواج أو "النقوط"، فكرت فى أن تكون هديتى لهما هى أن أصحبهما فى رحلة إلى الخارج، أعوض بها غياب ابنى هذا عن صحبتنا فى الرحلة الأولى (كان مجندا آنذاك كما ذكرت). ثم لعلنى أؤكد بها ما أنتمى إليه من"ناس وطريق"، وأيضا لعلى أتعرف على أولادى فى مرحلة أخرى بعد أن بدأوا مسيرة الاستقلال الفعلى،وهل أنا نجحت فى التعرف على من اصطحبنى منهم فى الرحلة السابقة، هم الذين تعرّفوا علىّ.

وجدت مكتوبا فى الأوراق التى أهدتها لى "مى":

الجمعة ٢٨ / ٨ / ١٩٨٧

لوكاندة الشاطئ اليونانى Greek Cost Hotel

ضاحية فولياجمينى Vouliagmeni تقع بعد ضاحية جليفادا فى اتجاه الشمال الشرقى من أثينا (فى الأغلب) فى الطريق إلى سونيو، كنت قد تعرفت عليها من رحلتى مع زوجتى عند عودتنا من تركيا.

ابنة صاحب الفندق اسمها كاترينا، تبدو كأنها نمرة هائجة بشكل ما، لم تكن مفرطة الحركة أو قافزة الخطى، أتذكرتشبيهاتى للمرأة المهرة فى مخيم "ألبادورو"، بالقرب من فينسيا، والمرأة البومة أعلى

بوليو بالقرب من نيس، والمرأة القطة (العانس) فى فيل نيف بين نيس وكان، ما الحكاية / ما تفسير ذلك؟ ولماذا راعيات الفنادق بالذات هن هكذا؟ هكذا ماذا؟

كانت كاترينا هذه متحفزة تكاد تثب عليك فى أنوثة فائرة واثقة. استقبلت تهيجها من نظراتها المقتحمة، وقوامها الفاره، واحمرارها الملتهب، هياجٌ يخبرك بأن النار ليست دائما عذابا للجاحدين، كاترينا هذه أقرب إلى النمِرة المختالة المتحفزة للقفزة الرشيقة العملاقة معا، ومع ذلك، أو ربما لذلك، لم أستطع البقاء فى فندق أبيها إلا لليلة واحدة، ثم انتقلنا تحت زعم السفر المفاجئ إلى فندق مجاور يبعد عن الشاطئ قليلا لكنّه على ربوة أجمل،

فى هذا الفندق الجديد قابلتنا المرأة البطة: فرنسية الجنسية (هى التى تقول)، من أم يونانية ووالد فرنسى، و جدة لبنانية، ونشأة اسكندرانية، وأبناؤها ــ على حد قولها أيضا ــ متزوجون ويعيشون فى فرنسا، حكت لى بعربية مصرية ليس فيها حتى اللكنة اليونانية أنها ولدت فى الاسكندرية وتربت حتى سن السابعة عشرة هناك، وأنها تعيش على أمل أن ترجع. وأقول لها "لماذا؟ " نحن نأتى وأنتم تريدون الرجوع؟ فتقول: أنا لا أحب "الجريك".

لم أفرح بكلامها المصرى الطليق، ولم أرفض شهادتها وعواطفها.

أنا؟ ما ذا بى؟ ما ذا بى أنا؟ أريد أن أشعر أنى"قريب و غريب معا "أننى "حر ومطلوب فى نفس الوقت" (وجدتنى قد كتبت هاتين العبارتين فى الأوراق بالإنجليزية لست أدرى لماذا: Free and A near stranger،Wanted together).

أريد أن أنطلق بعيدا عنهم دون أن ينسونى،

أن أقترب مع ضمان حقى فى الابتعاد فى أى وقت.

وهم؟ من أين يأتى لهم الأمان تجاهى ما دمتُ كذلك؟

أم أننى أريد أن أتمتع بحق لا يحق لهم.

من هم؟ هل يحقق لى السفر تلك العلاقة المتصلة المنفصلة فى آن؟

أعتقد أن فى السفر شيئا من ذلك.

ثم يبدو أننى على سفر دائم، مسافر أنا فى الزمان، فى الوقت، فى اللحظة، فى الـ "لا لحظة". فلماذا الإصرار على تفعيل ذلك واقعا على الطريق بين الناس؟

السفر هو تجسيد حى "من"<=>"إلى"، وبالعكس،

هل هو يوضح لى أكثر فأكثر علاقتى بتلك الحركة الحتمية "الذاهبة<=> الآيبة" أبدا؟

تلك الحركة التى تحافظ على قدرتى على الاستمرار والتجدد؟

لا أستطيع أن أحيا إلا على حافة المجهول الواعد.

(هل هذا ما التقطه سعد الله ونوس فى طقوس الإشارات والتحولات؟ يوليو ٢٠٠٠)

إن من يحيا على يقين مطلق ساكن: ليس حيا.

والذى يتحرك إلى معلوم، يكاد لا يتحرك.

أما الذى يتحرك إلى يقينٍ يتحرّك وجوده وينبض بمجرد الحركة إليه، فهو مَـــن أقدّم له نفسى هكـــذا. هل نأتنس إذن ونواصل؟

توفيق الحكيم حين اقترب من النهاية ليموت ميتته الرائعة، كان خفيف الدم، متفـــتح الـــوعى، يقينـــىّ الوجود، مات وأنا أحسده على هذه الحياة الفنية التى عاشاها متفرجا أو كالمتفرج، قـــال كلمتـــه وكأنـــه يكتبها هوامش طول الوقت، حاول أن يخدعنا طول الوقت وكأنه ليس عنده إلا هوامش ليـــدعنا نحـــن نستنتج المتن، فإذا بهوامشه متن كلها (ما عدا التعادلية، فهى أهمش من كل هامش)، أوهمنا أنـــه ظـــل يسير طول الوقت بجوار الموكب الصاخب دون أن يدخله، فلا هو أحـــد أعـــضاء الموكـــب ولا هـــو مشارك فى الصخب، ولكن فى نفس الوقت هو لم يتخلف خطوة واحدة عن الموكـــب، ظـــل يراقبـــه، ويعلق عليه، ويقبل، ويرفض، ويشير، ويرسم، وينصح،ويعقب،ويغضب، ويقرّ، لكنه أبدا لم يدخل إلـــى وسط الزقة.

كما أنه لم يتخلف عنها لحظة واحدة. والله "جدع"!! لست متأكدا.

وجدت أيضا مكتوبا فى

صباح ٢/٩ / ١٩٨٧ الساعة ٨,١٥

تتفتح أمامى حرية محدودة، وغموض طيب، والتزام غير مفهوم موضوعيا وعلامات اســـتفهام بـــلا حدود، أغلبها حول الجنس!! إنى لم أر أبدا أن من أطلق سراح الجنس سهلاً طيبا أو خبيثا، قد أصـــبح أكثر إبداعا أو أعمق أصالة، الجدل الخلاق مع جسد آخر هو شئ غير الجنس، ليس حـــل الجـــنس أن نحققه أو نتسامى عنه، لا "ولهلم رايخ" كان محقا فى هجومه على فرويد متصورا تجاوزه، ولا "فرويد" كان محقا فى جبنه الجنسى وتشويه بحكاية التسامى والتنظير، فرويد لم يجنسن الإنسان بل هو انتـــزع الجنس من بين الفخذين ليضعه داخل الدماع أفكارا وحكايات، والجنس لـــيس هـــذا ولا ذاك. الجـــنس الإنسانى هو الذى نكونه لنتخلّق من خلاله فلا يصير جنسا، ولا يصير شيئاً آخر غير الجنس. الجـــنس الذى نتسامى عنه بالحضارة ليس جنسا، الجنس نفسه هو حضارة الأرقى.

(إضافة: ألقيت بعد ذلك محاضرة عن "الوظيفة الجنسية من التكاثر إلى التواصل"

ضمن ندوات "لجنة الثقافة العلمية " فى المجلس الأعلى للثقافة أوضحت فيها هذه

الأفكار بالتفصيل، ثم طورتها وأنا أجمع فروضى وتنظيرى فىما بعد. .أكتوبر ٢٠٠٠)

وجدت أيضا مكتوبا فى ٣٠ أغسطس ١٩٨٧

أثينا ــ فولياجمنى: صباح الساعة ٨,٤٠

انتهيت لتوى من قراءة الفصل الخامس من رواية جبرا ابراهيم جبــرا. بعنــوان: "الــدكتور طــارق رؤوف يتأمل فى برج الجدى"، لماذا يختل توازن الأدباء حين يقتربون من هذه المنطقة؟ منطقة تصوير الطبيب النفسى، أنا لا أدافع عن هذه المهنة، بل إننى أعرف عن هذه المهنة وعن المشتغلين بها ما هــو أسوأ بكثير مما يدمغونها به، لكننى أتحدث عن السطحية التى يتناولونها بها، بعــضهم يتعمّــق أكثــر وأصدق وهو يحكى عن المرضى النفسيين دون أطبائهم، هذا إذا نجحو فى تجنب تشويه المرضـــى أو استعمالهم.

إبنتى "مى" تمثل لى مشكلة حادة، ومصطفى ابنى يمثل لى ضميرا مترصدا خائفا، كلما أغرتُ علـــى مى لأكسر ذاتويتها بعدوان كاسح محب يخيّل إلى أنى أنجح فى توصيل رســالة جوهريـــة، إلا أننـــى أعيش ألماً لا طاقة لى به، لا أعرف إلى متى ستتحمل مى هذا، وإلى متـــى أعــيش حتـــى أواصـــل محاولاتى هذه بالإغارة المحبة المسئولة؟ منتظرا ناتجها الإيجابى حتما؟

قلت لعماد (د. عماد حمدى غز أستاذ طب نفسى، وتلميذ لى، وزميل رحلتنا هذه) إن مواجهة انفصال الأولاد، هى المحك الأكبر لحقيقة تواصُل المسيرة البشرية، فأنا ضد هــذا الــزعم الغربـــى الكـــاذب بالتعجيل باستقلال الأولاد ليبدأ كل منهم يعيد نفس الدائرة ــ محلك سر ــ كذلك أنـــا لا أفهــم كيــف تتواصل الأجيال مثل سباق التتابع؟ يسلم كل جيل الشعــلة لمن يليه بخبراته وطفراته وجمـــال إبداعـــه وعناده. ثم إنى لا أتمادى مع النفخ فى زعم حتمية الصراع بين الأجيال، لكننى أتصور نمـــاذج كثيـــرة لتواصل الأجيال لا بد أن نستلهمها من التاريخ عامة ومن تاريخنا خاصة، نبدأ الاستلهام من الحيوانات، ونلم بالتاريخ بالطول والعرض، فلا نهمل بكين لحساب واشنطن، ولا نهمل النوبة لحـــساب القـــاهرة، ونتعلم من القبائل، ومن الأحياء الشعبية، ومن الغرب معا، أما أن نفترض مشاكل ليست هـــى مـــشاكلنا أصلا، ثم نضيع وقتنا فى محاولة حلها،، فهذا مضيعة للوقت، وعبث بالتلقائية.

إن الأجيال لا تتابع، بل تتداخل فى بعضها البعض.

الطفل يحتاج والدا يتصف بصفات أخرى غير ادعاء الحرية، وزعم الحوار

قلت لـــمَىْ إن التحاقك بمعهد الطفولة لـــن يكون مثمرا إلا إذا وجدتِ لنا سبيلا ومنهجا نحقــق بـــه فروضا تناسبنا نحن، سألتْـــنى عن بعض تلك الفروض فقلت لها، مثلا:

إن الوالد لا بد أن يقدم لابنه إطارا محدد المعالم يتحركان ــ معا ــ داخله ،

وأن يكون الوالد فى متناول ابنه ــ حتى لو كان غائبا بجسده ــ لا كابسا على نفسه ،

وأن يحافظ على مسافة بينه وبينه شريطة أن تكون مسافة مرنة، دون زعم الحرية.

وأخيرا أن يتحاور معه على أكثر من مستوى، لا يكتفى بالتراشق بالألفـــاظ المناقـــشاتية، والإقنـــاع العقلى،

والعجيب أنها فهمت، ولم تستوضحنى، فخِفتُ مما قلت.

أرجع إلى الدكتور طارق رؤوف، فى البحث عن وليد مسعود، ولا أميل هنا أن أنبه إلى تحفظى على كيف ضاجع هذا الطبيب النفسى مريضته مريم ــ ولكن لماذا الإفراط فى كل هذا اللاسواء فـــى الأدب الروائى عامة، يبدو أن الصحة النفسية تبدو للأدباء فاترة حتى لا يلتفتوا إليها، تصورت لـــو أن جبـــرا كتب عن وليد مسعود السوى، فربما كتب ما يلى: :"ولد وليد مسعود، وتعلمَ، والتزمَ، وتزوجَ، ورافـــقَ، وتابَ، وأنجبَ، وكافحَ، وأعطىَ، وصبرَ، وماتْ. "

[توقفتُ عن الكتابة ــ ولم أكن قد أكملت من الرواية (٣٧٩ صفحة) إلا ١٨٠ صفحة، ثم عدت إلـــى الكتابة بعد أن أكملتها ــ نفس اليوم، الساعة ٨,٢٥ مساء]

أنهيت رواية البحث عن وليد مسعود، وأقر أن الكاتب قد أنجز عدة اختراقات سواء من ناحية الـــشكل أو الإبداع الروائى (إن صح التعبير) فقد كان حدسه يلتقط كثيرا من المتناقضات بسهولة ويتركها تلعب جدليتها وكأن الأصل فى الطبيعة البشرية هو هذا التناقض الرائع المستحيل، حتـــى موقـــف الـــدكتور طارق رؤوف الذى أشرتُ إليه قبلا. والذى ضاجع مريضته يمكن أن يمثل تناقضاً آخر بـــدلا مـــن أن أقف منه موقفا أخلاقيا مسطحا.

أعود إلى قضية تعاودنى بإلحاح: سجن الأخلاق، كل الحلول المطروحة هى حلول فردية فى النهايـــة. مع أن المفروض أن جوهر الأخلاق هو السلوك وسط الناس، بين الناس، السرية تكاد تُخرج الموضوع من قضية الأخلاق إلى موضوع آخر، ومع ذلك فالحل على المستوى العام يبدو مستحيلا.

ليست قضية وليد مسعود هى أنه عشق من عشِق، وعاند من جابَه، واخترق من سَكَن، وجَـــنَّنَ مـــن اقترب، ولكن قضيته هى أنه استطاع أن يكون "كلمة" نابضة متخلـــقة، طول الوقت.

قضيتى أنا هى الإبداع، وليس السواء، ولا الصحة النفسية، ولا الالتزام الخلقـــى الفـــاتر، ولا الـــدين الرشوة،

٢٠٠٠/٦/٨

ما هذا؟

سيرة ذاتية هذه؟ أم أدب رحلات؟ أم نقد أدبى؟ أم مقالة علمية؟

لكن هذا بعض ما وجدته مكتوبا فى أوراقى المبعثرة.

وجدت أيضا مكتوبا يوم

الجمعة ٤ / ٩ / ١٩٨٧

أثناء سيرنا دون الأولاد فى جليفادا قابلنا شابا أسمر/ أسود يوزع إعلانا يدعونا فيه إلى الذهاب — مجانا — إلى جزيرة لست أدرى ماذا، لنقضى ليلة وبعض يوم فى الفندق القابع فى جنوب شبه الجزيرة — عبر بوروس — والمسمى "نادى بورتو هيدرا" فندق خمس نجوم. مجانا؟ قلنا لبعضنا مازحين "سوف يخطفونا، ونحن لا نساوى تعبهم هذا". حاولنا أن نتأكد: ما هذا الكلام يا سيدى؟ تقول مجانا؟ قال اورجار (هذا هو اسمه كما عرّفنا بنفسه، وهو من زمبابوى) مؤكدا: "مجانا"، يا عم اورجار مجانا؟ أعاد:مجانا

الشك يساورنى، يساورنا جميعا. ربما سيكلفلوننا مصاريف أخرى غير منظورة، ربما سوف يجندونا فيما لا نعلم، على أى حال قد نصبح رهائن وتطلع صورنا فى الصحف الأجنبية وهات يامفاوضات وكلام من هذا، وأخذنا نضحك.

قبلنا الدعوة بيننا وبين أنفسنا وقلنا: مغامرة أخرى لن تضر، بل هى ما نحتاج،

وجدت أيضا مكتوبا فى

١٩٨٧/٩/٥

مساء الاثنين، ونحن نتأهب لرحلة الثلاثاء

قابل اورجار الزمبابوبى ابنتى مى بالصدفة (هو هو حسب وصفها)، قابلها فى نفس المكان وأخبرها أن الرحلة أجِّلت إلى يوم الخميس. نفس المكان، نفس الدعوة المجانية (فى الأغلب) جادلته مى حتى عرفت أنه هو الذى دعانا، وأنها نفس الرحلة، وأنها تأجلت، يا ابن الـــماذا؟ كيف ذلك دون أن تخطرنا؟ وقد أخذتَ هواتف فندقنا؟ لعب الفأر فى عبنا أكثر.

يوم الخميس بدأت الرحلة المجانية.

الأتوبيس الفخم ينتظرنا فى الموعد تماما، وأيضا يتحرك فى الموعد، ومنه إلى الأتوبيس النهرى الظريف إلى جزيرة بوروس ومنها بالمعدية إلى جال تاس ومعنا المرشدة "فولا". ينتظرنا أتوبيس آخر، ينقلنا إلى فندق بورتو هيدرا فعلا، إذن فالحكاية جد يا رجال!!، واحتمالات النصب تتباعد. الموقف فى غاية الوضوح، والمواعيد بالثانية.

ليكن، وننزل إلى جزيرة بورتهيدرا، فتقابلنا مرشدة أخرى أفخم من "فولا"، وتخطرنا بأرقام حجراتنا كذا وكيت، وتعطينا كوبونات للعشاء والإفطار مجانا، كما تخطرنا أننا أحرار نفعل ما نشاء حتى بعد إفطار الغد.

تأجل حب الاستطلاع النهائى حتى الغد.

١٩٨٧/٩/٦

اكتشفنا الحكاية بسرعة، هى دعاية محسوبة لما يسمى شراء الوقت (اقتسام الوقت Time Sharing) يغامرون بدعوة كل الناس: الذى يسوى والذى لا يسوى (أمثالنا). ويحسبونها حسبة منضبطة: إن عدد من يتورط (أو يتفهّم) ويشارك (فى الوقت)، يمكن أن يغطى مبيت ومواصلات وأكل العالة أبناء السبيل أمثالنا. والشهادة لله أن المندوب المكلف بإقناعنا (بإغوائنا) بالاشتراك كان شديد الإخلاص، قابَلنا ظهرا فى اليوم التالى على مائدة جانبية قبل الغداء، وهات يا إغراء وهات يا دعاية، وهات يا تسهيلات، ثم عرض علينا قائمة بالمصريين المشتركين من قبل. ياه!!! كل هؤلاء؟ بعض الأسماء نعرفها، بعضهم زملاء. ونحن لا ندرى؟ وهل المفروض أن يأخذوا إذنا منا، أو أن يشهروا اشتراكهم فى صحيفة محلية؟ فلماذا العجب؟ يبدو أن كمية الشراب التى تجرعها المندوب المكلف بنا كانت كافية ليلة أمس لتجعله لا يلاحظ ابتساماتنا المتبادلة بيننا شفقة على مجهوداته الضائعة، ولم ينجح طبعا فى إقناعنا، ماذا لو حرمونا من الغداء نتيجة مقاومتنا؟ ثم إنه لم يلاحظ –ضمنا– كيف كنا نتجنب رائحة الكحول المتصاعدة مع تنفسه، ومن فرط ما ألحّ وسهّل وزيّن كدت أتصور أنه يمكن أن يشركنا فى هذا الوقت المقتَسَم مجانا، أصبح كل شئ قابل للبيع بالتقسيط، حتى الوقت، كما أضحت الأموال والأحوال والفسح والأدمغة كلها قابلة للتوظيف.

انتهت المغامرة وأنا أتذكر ــ مرة أخرى ــ ما ذكرتُه عن اكتشافى عن معنى "ابن السبيل"، وضرورة إكرامه مجانا،. ما أكبر الفرق بين الدعوات المجانية المسئولة التى تحترم غربة الإنسان و ظروفه غير المضمونة، والدعوات المجانية المحسوبة بدراسات الجدوى جدا.

هذا ما كان من حماس، ومغامرة، ورشوة، وإغواء للمشاركة فى الوقت،

ماذا عن المشاركة فى الحياة؟ فى الهم؟ فى الوجود الضام؟ فى الطريق إليه؟

وجدت أيضا مكتوبا فى ٦ / ٩ / ١٩٨٧

موعدنا أن نذهب إلى مهرجان النبيذ فى "دافنى" وقد اصطحبنا الخواجة سوتيرى (المعلم يوسف ــ عديل الخواجة أولوز، والاثنان من أبناء شبرا مصر!!) وللأسف وجدنا أن المولد قد انفض فعلاً، وكنا قد مررنا مصادفة على حفل شوارعى بالقرب من سينتاجما فعدنا إليه فإذا بالمغنيات والمغنين يقدمون "نمرهم" فى مكان عام مقابل مشروب للجالسين لا يزيد ثمنه عن حوالى ٤ جنيه وهو الثمن العادى للمشروب.

نسافر غدا إلى مصر.

هذه الرحلة لم ترونى حتى الآن كما كنت أتمنى.

لكنها ــ على كل حال ــ علامة، (كالعادة). علامة على ماذا؟

يخيل إلى أن العلامات فى حياتى أطول من الطريق نفسه!!

ما زلنا الأحد ٦ / ٩ / ١٩٨٧ (بعد الظهر)

ذهبت إلى فندق كوستا المجاور لأخلو إلى أوراقى بعيدا عن الثلة، ذهبت وأنا أدعو الله ألا أجد المرأة النمرة ابنة صاحب الفندق، وقد كان. جاءتنى فتاة صغيرة شديدة الرقة، وحين قدمت لى طلبى وقلت لها أشكرك شكرا جزيلا Thank you very much لم تأخذ المسألة ببساطة، فراحت تسألنى لمـــاذا أشـــكرها جدا هكذا، ولم أعرف بم أجيب، ويبدو أنها كانت قد انتبهت إلـــى اســـتغراقى فـــى الكتابـــة، كمـــا أن انجليزيتها سمحت لها أن تسألنى سؤالا لم أتوقعه أيضا جعلنى أدهش لإمكانية اختراقى بهذه الـــسهولة، قالت لى وهى تشير إلى الأوراق أمامى.

ــ هل أنت الذى تكتبها أم هى التى تكتبك؟

فـــرحت بها، فرحتُ بها جدا، ياه!! كم أنا محتاج لمن يرانى دون استئذان أكثر من أى شـــئ آخـــر. شكرا أيتها الرقيقة. الحمد لله أن أبْلتك كاتيرينا النمرة ليست هنا اليوم،

تذكرت بالمقابل كيف أن الكتاب الجيّد يقرؤنى وليس أنا الذى أقرأه، مثلا: هذا الـــ "الوليـــد مـــسعود"، كيف جعلنى جبرا ابراهيم جبرا أتقمصه مع أننى لست فلسطينا، ولست مغـــامرا فـــدائيا، ولـــست دون جوانا، ولست ناجحا ماديا بمعنى اللعب المصرفى الصفقاتى، ولست مهاجرا مطرودا عائدا عنيدا. ومع كل ذلك فقد استطاع هذا الكاتب أن يقرأنى. وهذا هو الإبداع.

)إضافة: كتبت لاحقا فى نهاية قصيدة: ياليت شعرى لست شاعر:

تدقٌ بابى الكلمة أصدّها . تُغافل الوعى القديم، أنتفضْ

أحاولُ الهربْ، تلحقنُي، أكونُها . فأنسلخْ.

كيف رأت هذه البنت اليونانية هذا؟ قبل ذلك بكثير؟ هل أنا عار إلى هذه الدرجة؟

يوليو ٢٠٠٠

الأثنين ٨ / ٩ / ١٩٨٧

علاقتى بالتاريخ مضحكة إلى حدٍّ ما، أدّعى أننى أكتب للتاريخ حتى أتصوّر أن أحدا سيقرؤنى يوما ما، ثم أتهمه بالزيف وعدم المصداقية على طول الخط.

كنت منذ حوالى عشرين عاما أو يزيد (حوالى سنة ١٩٦٥) كنت قد التقيـــت بطـــارق علـــى حـــسن (أشرت إليه كثيرا، وهو الذى تولى أمور دار الأوبرا فترة ما وخرج فى ظروف ناكرة لفـــضله) لقيتـــه فى القطار الذاهب للمنصورة ذات صباح قال لى إنه هو ــ أيضا ــ يكتب للتاريخ، أية خدعة نـــضحك بها على أنفسنا حين نفتقر إلى القراء الحاليين فنتصور أنهم قادمون فى زمـــن لاحـــق، لقـــد صـــدّرت روايتى التى نالت الجائزة بمثل هذا الزعم، وأظن أن ما يجعلنى أواصل الآن هو هذا الوهم أيضا.

بعد ذلك بأقل من عام (بعد لقائى فى القطار بطارق على حسن) وجدت فى أوراقى المبعثرة الأقدم ما يلى:

١٩٦٦/١/٨

" . ..وأى فرصة خير من هذه الفرصة، عملى هذا!!، فرصة يتمسح فيها المتأدبون، ولا يتــأدّب لهــا المختصون: ألتفت حولى لأرى الزملاء الأفاضل، ولا أستطيع أن أتخلص من صـــور تقتحمنـــى وأنـــا أعتذر: وجدت الموتور الديزل، يريد أن يصل إلى أبعد الأشواط بأرخص التكاليف، ثم وجدت الكاسيت القديم، وهو يدق العلم ويصحنه، ويعيده ولا يزيده، حتى لو كانت نقاوته صافية وطيبته غالبـــة، فمـــن هو؟ ولماذا؟ أما هذا الذى لعب فىه الخوجات مالعبوا، وحـــلـــلوا ما شاؤوا فقد رجع كما هو: ســـاخط بلا مبرر، حريص بدون زخم، محصّل بذكاء مخزون، أخلاقه تبدو متينة،سجّلها فى الـــشهر العقـــارى حتى يثبت أنها ليست مزيفة، ولم يقبل رجل الشهر العقارى التسجيل. اكتفى بإثبات التاريخ.

يا لقسوتى عليهم، ربما أنا كل هؤلاء ؟ من أدرانى ؟

وجدت أيضا فى نفس التاريخ هذا الكلام:

" . ..الصورة التى حسبتـــُها هى ليست هى،

والصورة التى أردتُها هى لن تكونها لم يتم تحميضها،

والصورة التى كانتها لم تعد هى،

أنا الذى أفسدتُها بطيبتى الظاهرية وسلبيتى الحقيقية وادعاءاتى المثالية. وهى مسئولة عن كل ذلـــك . يعنى!! "

ورقة أقدم جدا (سنة رابعة طب:)

١٩٥٥/٦/١١

" ..أريد النقود حتى لا أفكرفيها، حتى أفرغ إلى حياة أفضل لا يلهب ظهرى سوط السعْى وراء اللقمة، أريد الصديق الواحد أوالثلة الصغيرة حتى أستطيع أن أخلص لها وتخلص لى، ولا أريـــد أن يتحـــدث الناس عنى أو يهتموا بى أو يلتفتوا إلى حتى لا أختنق برأيهم، وأريدهم أن يتحدثوا عنى ويهتمو بـــى ويلتفتوا إلىّ حتى أشعر أنى أحيا بينهم.

ورقة أقدم أيضا

٢ مارس ١٩٦٦

قال لى الشيخ آسماعيل الرخاوى (إبن عم لى مصاب بفصام منذ عرفته)

" ..النسيان والأمل هما أعظم المعانى التى تدفع الإنسان فى الحياة"

إضافة: ظلت هذه الجملة معى منذ كنت طالبا فى البكالوريوس

ولم أكن أفكر فى هذا التخصص أصلا، وهى ما زالت معى تجعلنى أحسن الإنصات لكل أصـــدقائى المرضى حتى اليوم ٦٢ يونيو ٢٠٠٠

(أنظر الترحال الثالث إن شئت)

ورقة أقدم كذلك

فى ٢٠ فبراير 1954

قال والدى ونحن نتكلم فى مقدار نصيب الإنسان من الجهد ومعنى الاعتماد على الله :

يا إبنى إنى حين أقول أسلمت وجهى لله كل صلاة لا أقولها وأستسلم، وإنمـــا أقولهـــا لأقبـــل النتـــائج وأتعلّم. أنظر إلىّ مثلا وإلى ما قدرتُ لكم، كان نهجى فى تربيتكم أن أتبع ما تعلمته فى علم النفس فـــى دار العلوم، وهو أن أحقق المبدأ القائل "إصنع النموذج الأول، المثل الأعلى" يأتى الباقى سهلا، فـــأردت أن أصنع النموذج الذى تصورته فى أخيك أحمد، واتبعت كل الطرق التى تعلمتهـــا وحـــسبتها مفيـــدة لتتبعوه أنتم الأصغر، فتكونوا على مثاله، أردت أن أربّيكم من "فوق لتحت"، ولكن الله أرادالعكس، وإذا بى أجد المثال مقلوباوأنه "من تحت لفوق".

بدا لى أنه كان يمدحنى، هو فعلا لم يقترب منى مثلما فعل مع أخى الأكبر، حتى أننا كنا إذا أخطأنـــا جميعا، كان يعاقبه نيابة عنا، وكنا نحسب أن أخى الأكبر بعد أن يأخذ نصيبه من الضرب سوف ينادينا الواحد تلو الآخر لنأخذ ما تيسّر، لكنه كثيرا ما كان يكتفى بضربه هو، هل كان ينهك؟ هل كان يراجـــع نفسه؟ هل كان يلاحظ أن ضرب أخى لم يظهر على وجهه تعلما وردعا، فيكتفى بهذا، ظـــل والـــدى ن مشغولا بمشروعه هذا فنفذت بجلدى، لكنى تساءلت: إلى أى مدى يفهمنا والدى، وبأى مقياس يقيـــسنا؟ أنا الأصغر. وهو يرى أننى الأفضل، ليت شعرى هل هذا الرجل الممتاز يكون سطحيا فى حكمه مثـــل عامة الناس، .. .. . الذى أدريه يقينا أننى لست كما يظن، بل ولا أنا قريب مما يظن،

26 يونيو سنة 2000 (من الذاكرة الآن)

فى يوم ما. شتاء سنة 1954

نادى والدى أخى الأوسط وهو مكشر عن أنيابه، وسأله أين يذهب أخوك ليلا، وكنت قد اعتـــدت أن أقفز من الشرفة، كان منزلنا فى الدور الأول بشارع قمبيز بمصر الجديدة لأذهب إلـــى الـــسينما، وقـــد فعلتها فى تلك الليلة، فحسبت أنه قد علم بذلك أو لاحظ ذلك رحت أتصنّت لكن صوتهما كان قـــد بعُـــد عنى، ولما عاد أخى الأوسط (أكبر منى بسنتين فحسب) قال لى إن "بابا" يشك فيك، ويقول إنه ســـمعك تحلم وتغنى"هات الإزازة وتعال لاعبنى، والمزة طازة، والحال عـــاجبنى" وكنـــت أيامهـــا لا أعـــرف الزجاجة، من الكوب، من القلة، لكننى تذكرت أن هذه الأغنية كانت فى الفيلم الذى شـــاهدته متـــسللا، وفرحت أنه لم يعرف حكاية القفز من الشرفة هذه، وتجرأت يومها (أعتقد أنى كنت فى التاسعة عـــشرة

سنة أولى طب) وذهبت بكل مغامرة مستعبطا أسأله (أسأل والدى): هل ما يقوله الإنسان وهـو نـائم، وهو يحلم بصوت مرتفع يعنى ما يفعله فعلا فى يقظته، فعلمَ بأن أخى قد أخبرنى بحوارهمـا، فانقلبـت سحنته وأشاح بوجه وأجاب بالإيجاب، فقلت له "حتى حضرتك يا بابا؟ "، وهنا التفـت إلـيّ متجهمـا وسألنى، ماذا تقول يا ولد؟ فأعدت تساؤلى، فسكت قليلا ثم صاح بى ناهرا أن أنصرف فورا. لا أذكـر إن كان وصفنى بالوقاحة أم بقلة الأدب، أم اكتفى بصرفى فقط، والواقع أنى كنت سمعت منـه سـبابا قبيحا وهو نائم، سبابا لم أعتده منه يوجهه إلى شخصٍ ما، كان يصيح يا بن المـ.. .. .، هذا كـل مـا فى الأمر، ولعله انتبه من تساؤلى إلى احتمال أكثـر من ذلك، فطردنى ولم يفتح الموضوع ثانية.

قفزة أكثر من ربع قرن بعد هذ التاريخ وجدت أوراقا أخرى أكثر تناثرا، قرأت:

الأربعاء ١٩٨٧/١١/٢٥

كنت أعدو مع مرضاى أول أمس، فوق هضبة المقطم، قبل طلوع الـشمس، وظـل هـذا المـصرى الصعيدى ينظر لنا من بعيد، ونحن نردد "حمدا لله" "حامدا لله" (نرددها بتنغيم غنائى: حامْـدًا" لـلااه، حامْدًا لله)، وبعد أن عبرناه لا حظت أنه ابتسم جدا، ثم التفت إلى الناحية الأخرى، وراح يعدو مبتعـدا وهو يردد نفس ما كنا نردده (حامْدًا" للااه، حامْدًا لله). ولا يلتفت إلينا إلا بعد كل فتـرة، راح يبتعـد وهو يعدو، وكأنه يقترب جدا. تصورتُ أنه لا ينظر إلينا خجلاً ويردنا ألا نغيب عن ناظرية فهو مـن وجودنا رغم ابتعاده، تماما مثل الطفل الذى يتأكد من عدم غيبة والدته بلعبة تغطيـة رأسـه بـالملاءة. هؤلاء المصريون، ما أبسطهم وأرقهم وأطيبهم، وأيضا ما أخوفهم، وأسطحهم، وأسلسهم. قريبا من هذا الموقف سجّلت يوم:

الجمعة ١٩٨٧/١١/٢٧

كنا قد قابلناهم فى مرة سابقة ونحن نعدو (مرضاىَ و أنا) فى نفس الميعاد قبل طلوع الشمس، كـانوا خمسة من الصعايدة الذين بنوا وما زالوا يبنون مصر وغير مصر، ألقينا تحية الـصباح فلـم يـردوا حذرا، أو لم يصدقوا أننا نعنى ما فعلنا، وكنا نتناقش مازحين فى موضوع شارب أحد المرضى الـذى أطلقه مؤخرا، وهل الأفضل أن يهذبه أم يحلقه، وكان هو يبادلنا المزاح، وزيادة فـى ذلـك اقتـرح أن نسأل هؤلاء العمال الصعايدة الخمسة رأيهم فى المسألة كأنهم محلفون فى قضية تعرض فـى محكمـة بريطانية!!!، ولم نفعل طبعا احتراما لهم، واكتفينا بتحيتهم ونحن نعدو، إلا أنهم لـم يـردوا، فاسـتدرنا نحوهم وقد قررنا أن نصر على إلقاء السلام من جديد، حتى يردوا لكـنهم تـصوروا، دون أى مبـرر واضح، أننا نريد بهم شرا، أخذو ذيلهم فى أسنانهم (حقيقة لامجازا) وانطلقوا عدوا. أصبحت مطـاردة فعلا.

أىُّ قهر نعيشه ياسادة ياكرام يجعلنا نجرى من بعض هكذا دون أى ذنب اقترفناه؟

كنت قد قابلت من أيام صديقا أستاذا ترك القصر العينى، ومازال يحاول أن يــفحّــر فى نفسه، مثلى، وربما لذلك ابتعدنا عن بعضنا جدا، لنظل قريبين بشكل ما، سألنى عما أجلسنى هكــذا علــى الأريكــة الخشبية وسط المرضى وبجوارى إحدى الطبيبات، فذكرت له أننى أشرف على رسالتها عن الاكتئاب، فقال لها مازحا، يعنى تبحثين فى حالتى، قلت له: ألن تكف عن تسمية فصامك باسم اكتئاب، فقال لقــد انصرف عنى الفصام ليحل محله هذا الغم الأزلى، ومضى الحوار هــزلا كالجــد، أو جــدا كـــالهزل، لأتهمه، مازحا بجد يعرفه، أن مرضه ما زال فصاما، وأن الاكتئاب هو الاسم الحركى لما به، أو هــو على أحسن الفروض اسم التدليل، أوربما لمنع الحسد.

ضحكنا، وتذكرنا، وتذاكرنا أيام كنا نحاول أن نحتفظ بالأمل واقعا حيا، وأصررت أننى ســوف أظــل كذلك آمِلا حتى لو لم يبق أحد سواى، فنبهنى أن حالتى أصبحت مستعصية، وأشار إلى أن كل شئ قــد تغيّر، فاستعبطتُ متسائلا: إلى أين، وقال إلى أسوأ، ورفضت التمادى فى الترحم على الماضـــى كمـــا يفعل النعّابون الكهول أمثالنا.

قال لى زميلى هذا إنه لا يقول ذلك لــلشباب، لكنه يــُسِرّ به إلىّ لأنه يعرف أنى أعرفــه، وأضـــاف: إنى حين أحافظ على آمل شاب جاء يسألنى فى أمر ما أصاب بالغم والهم فور ذهابه ،

قلت له إن تفسير ذلك أحد أمرين: فإما أنه يشفق على هذا الشاب من متطلبات تحقيق الأمل، وإما أنـــه يتحسّر على نفسه حين كان شابا آمِلا يوما ما ،

قم أضفت، وكأنى أحدّث نفسى أو أنبهها:

إنى قررت ألا أخدع الشباب إلا وأنا أخدع نفسى معهم،

الخداع الواعى وسيلة رائعة للحفاظ على الأمل.

17 سبتمبر 2000

هذا الصباح كان المرور الكبير فى مستشفى دار المقطم مع زملائى الأصغر، كنت أغلى مما يجــرى فى القدس وغير القدس (انتفاضة القدس!!) سألت المريض الذى كنا نفحصه عما يجرى هــذه الأيـــام، فذكر إغلاق مطارغزة، ومنع الطائرات من الهبوط، وإغلاق معبر رفــح، حاولـــت بكـــل طريقـــة أن أستدرجه لأن يذكر جرح مواطن، أو مقتل طفل، أو استشهاد شاب، فلم يستجب، وحين ألححـــت عليـــه ماذا يسمع، قال أغنية هانى شاكر، (وهى أغنية حديثة بمناسبة اغتيال الطفل محمد الــدرة) . مــضيت أسأله ما الذى استرعى انتباهه: الأغنية أم ما تحكى عنه، أى الطفل القتيل، أكد أنهـــا الأغنيـــة ولـــيس الطفل. هذا المريض يمثل موقفا يمكن أن نجده عندأغلبنا،خصوصا المثقفين والمتحدثين جدا. امـــتلأت غيظا ورحت أكرر لزملائى أنه لا يمكن علاج مريض أو الانتصار على عدو إلا بتنشيط وعى فاعـــل

طول الوقت، وأن تعداد الأمة وقوتها ليس بعدد أفرادها، ولا بعدد أغانيها، ولا بندوات مثقفيها، ولا بكمّ معلوماتها، وإنما هو بجماع الوعى الفاعل.

أدركت الآن وأنا أصحح التجربة الأخيرة قبل الطبع أنى مازلت عند عهدى، ألاّ أخدع الشباب إلا وأنا أخدع نفسى!!!!! فتماديت فى خداع نفسى!! (نوفمبر ٢٠٠٠)

فى أوراق أخرى متوسطة القِدمْ

1976/8/12

راجع راجع إلى الحياة العادية ضاربا تعظيم سلام دون تسليم، راجع بعد أن استوعبتُ بكـل صـدق، كل البدائل تقريبا، راجع راجع وكلى ألم ووعى بما كـان، أعظـم التجـارب لا تظهـر حقيقتهـا إلا بالممارسة لاكتشاف الصعوبات، إلا وأنت داخلها بوعى صارم، لا فائدة من الحلول الفردية، ولا بـديل عنها فى الوقت الحالى، ومع ذلك راجع أنا الآن، وليس بعد.

ثم 1976/٩/٨ (بعد حوالى شهر)

للمرة الألف وكذا أقول: لا يوجد حل سهل، لا مفر من الاستمرار، دورى حضارى يمهد لثـورةٍ مـا، إذا لزم الأمر، الثورة بلا ناس معدّون لها عبث يرثه المتشنجون، والناس بـلا ثـورة تـنقلهم بقفـزة ضرورية خدعة يهرب فيها المسالمون.

27مارس 2000

أثناء بحثى عن الفصل الضائع فى أوراقى المبعثرة وجدت فى أوراقى الأقدم (١٩٥٠) كلاما مفـصلا عن أفلام بذاتها وموقفى منها، كما وجدت كلاما قديما جديدا لم أكن أعرفه عن نفـسى، ولـولا أننـى وجدته مكتوبا لما تذكرته، ولما تصورت أنى أكتب مثله فى تلك السن، مثلا:

{ملحوظة: لا أعرف لماذا اقتطفت هذه المقتطفات الأقدم بالذات دون غيرها. ولم أحاول أن أفسِّر، أو أتراجع إلا نادرا، شكراً}

22 يناير سنة 1950

ذهبت إلى سينما فاروق فيلم مغامرات عنتر وعبلة تمثيل سراج منير، أعجبنى سيد سـليمان (مَـنْ سيد سليمان هذا؟ مارس 2000) ويظهر أن هذا الفيلم خطوة موفقة للرقى بالسينما فى مصر!!

(هذا ما كتبته منذ نصف قرن مالى أنا والسينما فى مصر يا عم توفيق يا صالح، وهل حالـه الآن – سنة 2000 – أفضل ؟)

22يناير سنة 1950

انظر إلى مالك واعجب على حالك

وابكى على ما فات من عمرك الحـالـك

فأنت من أموات فاسلك مع السالك

فى عالم اللذات فكلـــــــكُم هالـــــــــك

2000/6/9

كيف يكتب شاب عمره ٦١ عاما وشهرين و٢٢ يوما هذا الشعر الكهل؟

لمن يكتبه؟ أى مال؟ وأى هلاك؟ وأى لذة يكاد لا يعرف معناها أصلا.

شككت من البداية (فى الترحال الأول) أننى أعانى من ظاهرة "اللاهيدونيا" العجز عـــن الاســـتلذاذ أو على الأقل أننى متهم بذلك!!، هل كانت هذه إرهاصات باكرة لهذه الظاهرة؟ مازلت أتعجب ممن يـــدعو إلى "مجتمع الرفاهية"، رفاهية ماذا؟

ومع ذلك فأنا أعيش أعلى درجات الرفاهية. عندى كل شىء.

أخيرا، وأخيرا جدا اكتشفت معنى آخر للتناغم المتصاعد إلى ما بعد المدى.

اكتشفته وأنا أكتب فصل اضطرابات الإدراك (أعراض الزمراض النفسية)

عدت اكتشافه وأنا أقرأ استلهاماتى من مواقف النقرى. ربما يكون هذا الكتاب الذى صدر لـــى أخيـــرا مع إيهاب الخراط أهم كتاب فى حياتى.

الخميس أول يونيو 1950

امتحنت اليوم شفهى، (التوجيهية) وأعجب الممتحنون بمحادثتى،، ومن طريف ما حدث هذا الديالوج:

(هذه المقدمة منقولة بحروفها ولم أغيّر أى شئ منها أكتوبر ٢٠٠٠).

*** Why are you so big, do you play sports ?**

- No, it is the characteristics of my family .

*** How do you pass your leisure time ?**

- Reading .

*** What sort of reading?**

- Stories .

*** What sort of stories**

- Romantic ones .

*** Why ? Are you in love with somebody**

- I am in love with the fair sex.

*** All of them**

-Yes or rather the beautiful.

*** Good, fine thank you .**

2000/6/8

هل هذا هو ما حدث فعلا أم أننى ألفته بعد الامتحان كما تمنيّت أن أقولـــه؟ لا أعــرف. كـــان أحـــد الممتحنين انجليزيا . وجدت أيضا مثبتا فى نفس التاريخ:

أول يونيو سنة 1950

ذهبت إلى سينما بالاس: فيلم كوميدى هو The Street with no Name لا أعرف ممثلية وفيلم The Big Man تمثيل الأستاذRichard Woman وكان رائعا. (هكذا كان الاسم مكتوبا مسبوقا بـــ"الأستاذ" لعلـــه ريتشارد ويدمارك .)

26 مارس 2000

كيف، أو لماذا كنت أسجّل الأفلام هكذا بهذا الإلحاح؟

25يناير 1950

ذهبت إلى سينما متروبول فيلم صراع تحت الشمس Duel in the Sun كان رائعا، لم أستذكر شـــيئا.... قرأت قصة "بعد الغروب" ياله من مؤلف، محمد عبد الحليم عبد الله إنه هو الذى ألف "لقيطة".

(صفحة مستقلة بعد تاريخ 31 يناير 1950)

كتبت فى هذا الشهر من مؤلفاتى:"إلهام"، و"مصافحة و "وداع فى الريف"

فى هذا الشهر كان مما دخلت من الأفلام,House of Strangers ، جان دارك، والبجعة السوداء تمثيـــل مورين أوهارا، وتايرون باور.

(ملحوظة: لم أعثر على شئ من مؤلفاتى المزعومة تلك يونيو ٢٠٠٠)

٣١ يناير سنة ١٩٥٠

ـــ أعجبنى أيضا من أفلام هذا الشهر Key Largoتمثيل Edward G. Robinson

ذهبت إلى "فيلم بيومى أفندى"، الفيلم الجبار، أو إن شئت الأصح فقل إن ممثله الأستاذ يوسف وهبـــى هو الجبار.

11 يونيو سنة ٢٠٠٠

الأعجب أننى اكتشفت أننى كنت أسجّل مقتطفات من حوار بعض الأفلام، وأيضا بعــض الأغنيـــات، وبالإنجليزية فى بعض الأحيان، مثلا:

5 ثم ٦ مارس ١٩٥٠

ذهبت إلى سينما نورماندى مع عبد الفتاح فيلم South of St Louis فيلم عظيم أجبنى قولهـــا (الممثلـــة المغنية فى الأغلب، لعلها ألكسيس سميث التى وردت فى الصفحة التالية ـــ اليوم التالى):

ومازالو يسيرون

يقال إنى جذابة،

ويقال إنى أنثى،

ومازالوا يسيرون

ورفعت الثوب عن حذائى، ثم عن رجلى، ثم عن ساقى،

فنظروا إلىّ، وما زالوا يسيرون.

ثم بالانجليزية فى اليوم التالى من نفس الفيلم فى الأغلب.

I want to sit with a soldier, any soldier, who kisses me

I want to walk with a soldier, any soldier, I don't, worry

٢٦ يونيو ٢٠٠٠

هل صحيح أننى التقطتُ ذلك حرفيا سواء بالانجليزية، أم من خلال الترجمة أثناء مشاهدتى الفيلم؟ هل هذه هى ألفاظ الأغنية أم أن الخيال قد ملأ الفجوات؟

كل هذا ليس مهما بشكل خاص، المهم هو دهشتى الآن وأنا أحاول أن أفهم عقلية ومزاج من هو فى هذه السن التى كنتها سنة ١٩٥٠؟

هل ما زالت هناك مساحة فى عقول الشباب يملئونها بالخيال أو بالتسجيل أو بالمناجاة؟ العجيب أننى أكتشف أن هذه المنطقة ما زالت موجودة بنفس النوعية فى تركيبى الحالى حتى الآن، نكمل قليلا

١٢ مارس ١٩٥٠

ذهبت إلى فيلم ربيكا تمثيل لورنس أوليفييه وجون فنتين، وهى أخت أوليفيا دى هافلين، .. . وقد تعجبت أن هذا الفيلم قد مثله (أوليفييه) سنة ١٩٣٨ مع أن فيلم هملت قد مثله ١٩٤٢، لكن قصارى القول أنه مثّل فأبدع ،

٢٦ يونيو ٢٠٠٠

لم يقتصر ما عثرت عليه من آراء فى الأفلام والروايات، بل كانت ثمة تعليقات تبين بعض علاقة هذا الشاب بالسياسة. ودلالة ذلك مقارنة بما يجرى الآن، قرأت:

٢٩ يناير ١٩٥٠

ـ ظهرت نتائج الانتخابات وتولى النحاس الوزارة.

عملت جميع المدارس إضرابا. "يحيا النحاس باشا" عدا مدرستنا، أثبتنا أننا راقيين مثقفين وأننا لم نُكتب فى أم الكتاب وفديون

١٤ فبراير سنة ١٩٥٠

. رأيت جلالة الملك اليوم وهو يمر إلى مكانٍ ما وراء المدرسة الإنجليزية English School كان يضع حجر الأساس لمستشفى الأميرة فريال، كان منظره يحـّرك الحب والإجلال.

٣ يوليو ١٩٥٠

معذرة لقد نسيت أن أعلق على الحرب الكورية

٢٠ يونيو ٢٠٠٠

لمن يعتذر هذا الشاب، ولمن يعلّق على الحرب الكورية؟ "بصفة ماذا؟

٢٠ يونيو ٢٠٠٠

كان ضياع الفصل الرابع ثم البحث عنه فرصة للرجوع نصف قرن إلى الوراء، لأتجول هكذا. كنتُ نسيتُ ما لم أتذكره أصلا، فتغمرنى دهشة تبرر هذا الترحال الآخر. أشعر أننى لو تركت نفسى بين أوراقى المبعثرة هذه لأصبح هذا الفصل كتابا بأكمله، لقد بلغت الأوراق التى عثرت عليها عدة مئآت أو آلاف. قد تكون مهمة، وقد يثبت أنها أتفه من أن تنشر، وأن هذا الاستطراد قد نشَرَ تسلسلا ما كان ينبغى أن يـُقطع. أشعر أن نداء الرحلة ونحن فى طريقنا من تركيا إلى أثينا يشدنى بشكل ملحّ حتى لا تكون هذه الاستطرادة هربا من نبش الذاكرة لتسترجع الفصل الذى ضاع، لم أكن أذكر أننى كتبت شيئا عن الرحلة القصيرة إلى اليونان هدية زواج ابنى الأكبر تعويضا عن هذا الاغتراب الذى كاد يخنقنى فى فندق "هيلتون" النيل يوم عرسه. لم أذكر لأحد ذلك الدافع الخفى. هالة زوجته ابنة أخرى، وكما تعرّفت أكثرعلى والد ابنتىّ مايسة ومنى من خلال حبهما لى، وله، على اختلافنا، تعرفت كذلك على د. حلمى نمّر والد هالة من خلال حبّها لنا معا على اختلافنا. مات الدكتور حلمى منذ أيام.

لم يكن د. حلمى نمّر، صديقى، تماما كما لم يكن د،السعيد صديقى، عثرت بين أوراقى المبعثرة على خطاب كنت أرسلته إليه دون معرفة فور توليه منصب رئيس جامعة القاهرة، كان ذلك سنة ١٩٥٨ فى قمة خلافى مع المرحوم أ. د. هاشم فؤاد، (عميد الكلية) ذلك الخلاف الذى جعلنى أكتب كتاب "أسمار وأفكار" عن قصرالعينى وموقفى منه، هذا الكتاب أعتبره علامة أيضا لما يمكن أن يسمّى "سيرة ذاتية" أو لعله يندرج تحت "أدب المكاشفة" بشكل ما.

كان الاختلاف بينى وبين د. حلمى كأشد ما يكون الاختلاف. أذكر أن زوجته د. إجلال رأفت قالت بصريح العبارة فى أوائل فترة خطوبة ابنى لابنتها: إنها لا ترى أى فرصة لإقامة صداقة بيننا (د. حلمى وشخصى) وفعلا. كان كل ما يمثله هو نقيضى، إلا أننا كنا نشترك فى أمرين (حسب تقديرى) هما: حمل هم أهل بلدنا، ومحاولة الإسهام فى الأخذ بيدهم، كلٌّ بطريقته.

مات الدكتور حلمى نمّر، خلال عشرة أيام، مَرِضَ ثلاثة أو أربع أسابيع، ومات فى أيام، فيروس فى الكبد، يحمله ربع سكان مصر، ومصاب به عُشرهم، ينتشر هذا الفيروس بشكل متزايد فى الجسد المصرى بشكل ليس له تفسير،ينتشر كما ينشر القضاء والقدر، قد يظل كامنا ما استطعنا أن نقاوم، فما

أن يلتفت الواحد منا أو يتوقف ولو للنظر حتى ينقض عليه مفترسا، أتصور هذا الفيروس مثل القـــرادة التى شبه باتريك زوسكيند بطل روايته العطر جان باتيست غرنوى.

"القرادة العنيدة المتعفنة والمقرفة"..."...المتكورة على نفسها فوق شجرتها "... تنتظر حتى تسوق لهـــا ...."صدفة عجيبة فى صورة حيوان ما"،..."...حينئذ فقط تتخلى القرادة عن تحفظهـــا،فترمى بنفـــسها فوق اللحم الغريب لتتكالب عليه وهى تعض وتنهش"

انقض فيروس س على الدكتور حلمى منتهزا ضعف مقاومته، فتهتك كبده، فمات، تصادف هذا مـــع صدور قانون للجامعات استقبله د. حلمى على أنهم:"طردوه من بيته"، فانهارت مقاومته، ورأيته فـــى ألم لم أره من قبل أبدا، زرته أحاول مداعبته كعادتى معه، فوجدته مطعونا بجد، ثم اكتشفَ تذبذبا فـــى مستوى السكر فى الدم، ثم الصفراء، ثم السبب: انقضاض الفيروس على الكبد، ثم انتقل إلـــى القـــصر العينى التعليمى الأحدث، (يسمّونه الفرنساوى خطأ واحتقارا لنا واحتراما للصوص الذين بنـــوه قبيحـــا ونشازا) ثم السفر إلى إنجلترا ثم كان يوم السبت ١٥ يونيو ٢٠٠٠ حين كلّمنى إبنى مصطفى يخبرنـــى بوفاته فى إنجلترا.

أتذكر رد الست نعيمة حين حدثتها عن مرض د. السعيد، أرد على نفس السؤال الذى لاح لـــى بعـــد مرض الدكتور حلمى، أرد قائلا:

واشمعنى غيره؟ إشمعنى غيرى؟

منذحوالى عام وبعض عام دخل علىّ فى العيادة مريض فارع الطول حاضـــر الهيبـــة، كـــان يلـــبس الجلباب البلدى الأنيق، وكان أيضا حاسر الرأس، عمدة هو أو كالعمدة، هذا الحضور الجميـــل أعرفـــه عن أعيان بلدنا الظرفاء

كان مريضا، قطع كشفا، وقال لى شكواه باختصار، فتبينت أنه يعانى من اكتئاب من النوع الـــشريف اليقظ، وكان يتجرع ألمه بطيبة وصبر، حين سألته عن سبب لجوئه إلىّ وهو بهذا التماســـك ؟ ردّ ردا طيبا متواضعا، وحين تطرق السؤال عن أولاده والظروف التى سبقت معاناته، ذكر لى بنفس الهـــدوء أن ابنه مات فى حادث طريق ولم يمض على عرسه بضعة أسابيع، لم أصدّق أن يـــذكر هـــذا الخبـــر وكأنه ليس سبب اكتئابه مع أن معاناته بدأت مواكبة لهذا الفقد. لاحظ الرجل دهشتى وألمى من الخبـــر، فسألنى وكأنه الطبيب وأنا المريض، ماذا بك يا دكتور، فذكرتُ له – مع أن الأمر لا يحتاج إلـــى رد – أننى جزعت من الخبر، لكن يبدو أن اضطرابى كان أكثر مما ينبغى، فأخذ الرجـــل يطيـــب خـــاطرى وكأنى أنا الذى فقدت ابنى . قال لى بإيمان طيب أن ابنه الفقيد "ما يغلاش على اللى خلقه"، رحت أنظر فى وجهه، واحترمته، وشكرته، وأحسست أنه هو الذى يستحق أن يأخـــذ منـــى كـــشفا لنجاحـــه فـــى مواساتى.

لا أحد "يغلى على الذى خلقه". فلماذا أجزع هكذا من الموت؟

خلال وقوفى بجوار هالة قبل أن يصل الجثمان من انجلترا شعرت أننى حزين جدا، **(جدا)**، وعرفت أن علاقتى بالموت لم تُحلّ رغم كل ادعاءاتى، وعرفت أكثر أنه يبدو أننى لا أحزن على الميّت، بل أحتجّ على الموت.

كذلك اكتشفت اكتشافا أخطر، وهو أن الناس تقترب منى جدا حين تموت، بعد أن تموت!! ألم أقل إنه رغم كل ما جاء فى الفصل الأول فى هذا الترحال الثانى ورغم ما لا أحب أن أذكره من حديث الناس عن حميمية علاقتى بسعيد واحترامهم وقوفى بجواره مريضا ومع أسرته كل الوقت، أنه لم يكن صديقى،

أيضا: لم يكن الدكتور حلمى صديقى . فلماذا كل هذا الجزع على موته؟ وجدت نفسى حزينا جدا، عندما أخبرنى ابنى مصطفى بنبأ وفاته، وكان ما زال فى إنجلترا، كانت هالة وحدها فى بيتى، ذهبت إليها، أخذتها فى حضنى ثم رحت أقرأ قرآنا طويلا شجيا، ودموعى تنساب، وأنا أذكر نفسى أنه "واشمعنى غيره"؟ "واشمعنى غيرى"؟ وأيضا أنه "مايغلاش على اللى خلقه"

عنونت كلمة رثائى للدكتور حلمى بعنوان فرعى يقول: "صداقة الاختلاف" ويبدو أنه كان عنوانا غريبا غامضا فاكتفى الأهرام بالعنوان الأول: "عطاء المصرى الطيب".

٢٠٠٠/٦/٢٠

"فجأة، فعلا فجأة، وكل رحيل هو فجأة، على الرغم من كل ما نردد، أقول: فجأة رحل عنا رجل شديد الطيبة، بالغ المصرية، سهل الحضور، جميل العطاء، وافره. وحين رحل حلمى نمر، اكتشفت أنه كان صديقا لى أكثر كثيرا مما كنت أتصور، نعم رحل صديق حميم كنت أتعلّم منه أكثر مما كنت أحسب، كان الاختلاف بين طبعينا شديدا بقدر شدة احترامنا لما يحاوله كل منا بطريقته، ولم أكن أتصور، كما تنبأت زوجته الكريمة أ. د. إجلال رأفت، ألهمها الله الصبر، لم أكن أتصور أنه يمكن أن تنشأ بيننا صداقة كما هى بين الناس، لكننى الآن، فور رحيله أكتشفُ أنه كان صديقا جدا، فأنا أفتقده بجزع لم يخطر على بالى. "

وقد أنهيت الكلمة باعتراف آخر، يرتبط بطريقتى فى التعلم ممن أعرف، سواء اختلفت معهم، أم اتفقت، كانت نهاية كلمتى تقول:

يا د. حلمى من الذى سيعلمنى بعدك أن ما أمارسه فى حياتى مع الناس ليس هو السبيل الوحيد، ولا الأمثل، على الرغم من شركتنا فى حبهم؟ من سوف يفهمنى "المعنى" الذى تمثله لى ولغيرى؟ يا د. حلمى:أعاهدك أن أواصل الحوار معك رغم رحيلك. مع أننى أشعرأنى أعجز عن تصحيحِى بدونك. أيها المصرى الطيب البديع. صاحبتك السلامة.

أنا أتساءل الآن: هل صحيح أننى كنت أعاهده على ذلك؟

هل كنت أعنى أننى أريد تصحيحى فعلا؟ مع أننى اعترفت على الملأ أنه لا فائدة (منّى)؟

هل تصنعت أنى أحاول؟

فوجئت بحزن زوجتى عليه حزنا شديدا، مثلى وربما أكثر، لكننى حزنت حزنا آخر.

بمنتهى القسوة قررتُ أن أختبر معنى حزنها، ومعنى موتى (بالمرّة). لا أقصد أختبرها أو أختبر صدقها، حاشا لله، فهى لا تنافق أحدا بحزنها ولا تجنى من ورائه أى شيء، لكننى تعجّبت من أنها تصر أن تلبس الأسود عليه، وهى لم تفعل بنفس الإصرار بعد موت بعض أختيها، كانت إحداهما – أم نبيل – بمثابة أمها ،

الذى رحت أختبره هو معنى هذا الحزن وليس صدقه، رحت أجرّب "بروفة موتى أنا" إن صح التعبير،

فقد تصادف موت د. حلمى مع تمام إعداد ركن "محلى" لى فى أعلى المستشفى،

حققتُ فيه كل ما تمنيته من بساطة وعزلة ودفء وطبيعة، فيه: أعرف أين تطلع الشمس وأسمح لها بمساحة محسوبة، كما أستطيع أن أحاور القمر لا أقل من عشرين يوما فى الشهر، يودعنى القمر قبل أن أنام فى أول الشهر، و ينتظرنى عند استيقاظى قبل الفجر. أطل على القاهرة كلها فى صمت وأنا أعمل، قلت فرصة: أختبر موتى، بالذات بالنسبة لزوجتى، وصارحتُها ببساطة، منتهزا فرصة خلافٍ عابر، أننى لن أحضر البيت، بيتنا/ بيتها، بعد الآن، وأن تفترض أننى رحلت مع د. حلمى، وأن الفرق الوحيد هو أن الدكتور حلمى الآن يزار وهو تحت التراب، أما أنا فيمكن أن أزار ـــ بعد موتى هذا ـــ وأنا ما زلت حيا فى ركنى أعلى القاهرة. وفعلتُها.

ما هذا بالله عليكم؟ لن تصدقونى؟

ليكن، لكن هذا هو الذى حصل، وهو ما زال حاصلا، كنت أعنيه وهو متحقق حتى كتابة هذه السطور. ويبدو أن نتائجه ليست كلها إيجابية، يمكن أن تكون خطيرة، مع أن هذا "الموت التجريبى" هو الذى أتاح لى كتابة هذا العمل – وغيره – بعد أن تأخر ظهوره ما يقرب من عقدين حتى ضاع ما ضاع، وزاد ما زاد، فكان ما كان.

قفزة إلى الخلف (الآن) طولها ستة عشرة سنة وشهرين لأحكى ـــ من الذاكرة ـــ عن لبتوكاريا وجدلية الجنون والإبداع أثناء عودتنا من تركيا إلى أثينا.

١٩٨٦/٨/٢٧

كانت الانحرافة التى انحرفناها إلى ليبتوكاريا فرصة للمقارنة بين جذب الحنين الغامض إلى ركن الـــ "باراليا"، (أو البارانويا)، ذلك الركن الهادئ المظلم الواعد الخطر، بالمقارنة بما تمثله تلك القرية التـــى كانت بمثابة الركن الدافئ المحاط بأنفاس الناس الطيبين، وسماحهم وبهجتهم.

شعرت أن أيامى فى لبتوكاريا هى أشبه بتلك لأيام التى قضيتـــُها داخل الخيمة وحيدا فى مخيم فـــى فينسيا، وحيدا لكنى كنت محاطا بالناس جدا، و حين أمطرت السماء بعد أن أوصلت زوجتى وإبنى إلى السفينة فى طريقهم إلى مصر فى سبتمبر سنة ٨٦٩١ قبعت داخل الخيمة مـــضطرا بـــسبب اســـتمرار المطر، لكن أنفاس المخيمين كانت تصلنى بكل ما هو إنسانى جيّد، كانت تلك الخلوة الإجبارية بمثابـــة نقطة تحول فى فكرى فى الطب النفسى حيث أتاحت لى قراءة كتاب جانترب عن "الظاهرة الـــشيزيدية، والعلاقة بالموضوع والنفس" Schizoid Phenomenon Object Relation and the Self مرتين،

فى لبتوكاريا عشت نقطة تحول أخرى فى فكرى، من خلال الكتابة لا من خلال القراءة هـــذه المـــرة، فقد رحت أكتب كل يوم فى موضوع " جدلية الجنون والإبداع " كتابة لم تخطر على بالى من قبل، وقد يثبت (كما تبين لى حتى الآن يونيو ٢٠٠٠) أن هذا الموضوع هو أهم ما كتبته فـــى حيـــاتى، (ولعلـــه أقرب للتصديق، من الموضوع الأول فى سلسلة نظريتى فى الإبداع عن "الإيقـــاع الحيـــوى ونـــبض الابداع"، ولعله أقرب فى التناول من استلهامات النفرى- ياخبر !! كلما كتبت موضوعا تصورت أنـــه الأهم بين كل ما كتبت!!!!).

كل يوم يوقظنى ديك الجارة الفلاحة اليونانية جارتنا فى النزل الذى لا ينزل فيه غيرى أنا وزوجتـــى، لأول مرة أعرف كيف يصادق طفلٌ ديكا، كنت أعرف صداقة الكلاب وأحبها، ولا أحـــب القطـــط ولا أطيق صداقتها، أما الديك فلم أعرف أبدا كيف تكون صداقته منذ كنا نغنّى صغارا:

ديكى ديكى

أنت صديقى

أنت رفيق البيت رفيقى

صح فى الدار

أيقظ جارى

واشرب ماء من إبريقى"

هنا فى لبتوكاريا كنت أنا الجار الذى يوقظه الديك، وأنا الصديق معا، صديق عن بعد كالعادة، حتـــى مع هذا الديك أصادقه عن بعد!!! كنت أصحو فأحييه من نافذة حجرتى المتواضعة، ثم أنزل فورا إلـــى الكرسى الخالى والمنضدة الصغيرة أمام النزْل (هل كلمة النزل هى الترجمة المناســبة لــــMotel ؟ لا أعرف، فهو لم يكن حتى موتيلا)، أجلس أمام الباب وكأنى أجلس على المصطبة علـــى جـــدار بيـــت

جارتنا (خالتى تُحفة) فى بلدنا، وهات يا كتابة، كنت أحيانا لا أرفع رأسى من على الورق قبـل خمـس ساعات، الكتابة طول النهار، وحضور الغناء ومشاهدة الرقص (ياليتنى أعرف كيـف أرقـص هكـذا جميلا) ومشاركة الناس الطيبين فرحتهم كل ليلة، ناس قلائل وقلوب فرحة جدا، الله!، تصورت أننى لو أمضيت هنا عاما وبعض عام أكتب هكذا، إذن لغيّرتْ الأفكار التى تأتينى هكذا الكون، وحمـدت الله أن أحدا (خصوصا من زملائى آلأطباء لم يسمعنى).

١٩٨٦/٨/٢٩

بقيت فى لبتوكاريا ليلتين أكثر مما حسبنا، وإن كنت شخصيا لم يكن عندى مانع أن أبقى هنا حتى يوم السفر لأذهب إلى أثينا ومنها إلى القاهرة فى نفس اليوم، لكننى لا أعرف ميعاد اقلاع المركب تحديـدا، ولابد أن أودع االفندق كما وعدتُـهُ، ألم أتحدث طويلا ومكررا عن علاقتى بالأماكن؟

قررت مع زوجتى ليلة أمس أن نزور "البندر" نعم، نحن فى "لبتوكاريا" مركـز "كاتيرينـا" محافظـة سالونيكى، وعيب علينا ألا نمر على "المركز" لنوقع بالحضور.

فى الطريق إلى كاترينا (على بعد ٣٠ كيلو متراتقريبا) مررنا على الرجل نصف اليونـانى ونـصف البلجيكى صاحب محل الملابس على ناصية مدخل القرية. كنت أود أن أشكره، علـى أنـه، وغـروب الشمس، كانا صاحبا فضل فى تعرفى على لبتوكاريا هكذا. لم نجده، فشكرت الله.

وجدنا المركز "كاتيرينا" بلدة كبيرة كما توقعت أول مرة، وكما كرهتها احتياطيا، واشـترت زوجتـى بعض الستائر الأجمل والأرخص فوقرت الشئ الفلانى، وأنا مالى؟ مادمـت لـن أزن الحقائـب فـى المطار، هذه هى ميزة السفر بالعربة، كانت ميزانيتنا قد اعتدلت تماما بما وفرناه بإقامتنا فى لبتوكاريـا. الفندق إيجاره حوالى خُمس أى فندق فى أثينا، والأكل شديد الرخص، ولو كنا نأكل ما اسمه باليونانيـة على ما أعتقد"خورينو" لكنا وفرنا أكثر. كانت زوجتى هى التى اكتشفت أن "الكفتة" لهـا رائحـة غيـر مألوفه (قبيحة، بل، ولا مؤاخذة، نتنة) وحين سألنا بدقة، اكتشفنا أن الخورينو باليونانى هـو الميـالى، بالإيطالى وتذكرنا مقلب مخيم "الألبا دورو" قرب فينسيا.

عند عودتنا من كاتيرينا إلى لبتوكاريا، وجدنا الساحة الرئيسية بها ثلاث عربات شحن مليئـة بـآلات موسيقية، وعدد من الشباب يقوم بإنزالها وترتيبها، والناس، على قلتهم،تتجمهـر مـن حولهـا، سـألنا بالإشارة، وفهمنا أنها فرقة كذا، وسوف تحيى الليلة حفلة عامة فى هذه القرية الهادئة. بـدا لـى عـدد أفراد الفرقة أكثر من سكان القرية، وسألنا عن ثمن التذاكر فقالوا: بلا تذاكر، إنها مجانا، خير وبركـة، لكن داخلنى توجس ما، فقد تحرمنا هذه الآلات العملاقة من الرقص الزورباوى، ومن رقـة العـازفين الثلاثة، ومن جمال الـقِـلّة، أضيع أنا وسط الأعداد الهائلة.

كنا فى الليلة السابقة قد تعرفنا على "وحيد" يونانى، ذكّرنا بـــ"وحيد" حانة تاكسيم فى اسطنبول، لكـــن هذا الوحيد كان ربعة فى الجسم، له كرش صغير وأنف مدبب، وكان لا يكف عن الشراب والرقص ثم الرقص، فالشراب، لم يكن يراقص أحدا بل كان يرقص مع نفسه، لم يعرض أن يرقص مع أحد، ولـــم يعرض أحد أن يرقص معه، هذا الرقص الزورباوى (كما أسميناه) لا يحتاج إلى رفيق، وفـــى إحـــدى جولات الرقص، أخذتـــه الجلالة فدعا طفلا لا يزيد عمره عن أربع سنوات إلى دائرة الـــرقص، وراح يراقصه فى نشوة بالغة، والطفل يشاركه فى أبوة حانية (الطفل هو الأب)، وحـــين صـــفقنا لهمـــا أنـــا وزوجتى بشدة حتى بعد أن عادا إلى المائدة، حيّانا الرجل فرحاً بنا ثم أرسل لنا مشروبا، ورأسه وألـــف سيف أن يدفع حسابنا كاملا ترحيبا وكرما، ولم نردّه، وقد تأكدنا من أصالة كرمه ونحن نشاهد ســـعادته بقبولنا ضيافته، وكأننا بذلك كسرنا وحدته كثيرا أو قليلا، وقررنا، زوجتى وأنا، أن نعزمه على العـــشاء فى اليوم التالى، تذكرناه ونحن نشاهد اليوم هذا الاستعداد لـــلحفل الكبير وسط الساحة، قلنا كيف سنعثر عليه وسط الزحمة المتوقعة، وفعلا لم نجده هذه الليلة وسط هذا الجمع الذى لا أعرف من أيـــن أتـــى إلى هذه القرية الصغيرة، وكادت تضيع علينا الفرجة لحساب البحث عنه.

ازدحمت المساحة الكبيرة بعدد من الناس لم نرهم من قبل (وكأننا رأينا ناس القرية من قبل)، رجحنا أنه شئ مثل الموالد فى القرى عندنا يحضرها كل من يهمه الرقص والحـــب والغنـــاء، مـــن القـــرى المجاورة، لم يعد الأمر عندنا مثلما كان زمان، الأمور تزحف عندنا، بل فى الدنيا كلهـــا: ضـــد لقـــاء الناس بالناس، يحل محل ذلك نوع من التخلى، ليس تخليا بالضبط لكنه خليط من القهر والكسل والحياء الزائف ثم استبدال الناس بما يشبه الناس، كما تستبدل الطبيعة بتقليدها (ولامجال للتفصيل الآن).

فى بلدنا كلما تخلّينا عن بعضنا البعض، زادت الأحضان والقبلات، خاصة بين الرجال. ما هذه العادة الجيديدة القبيجة؟

وعندهم، يحل التواصل عن بُعد (بالإنترنت مثلا) محل الحميمية والدفء الطبيعـــى المباشـــر، يحيـــا الشذوذ الجنسى !! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

لم نستطع أن نكمل الليلة ولا بعضها، ليس هذا هو ما شدّنا إلى هذا المكان، قارنّـــا ما يجرى بالليلـــة السابقة التى عَزَمَنَا فيها ذلك الرجل البديع الراقص مع الطفل الجميـــل، وانـــصرفنا مبكـــرين، غيـــر ساخطين، وغير مؤتنسين.

عند العودة، وعلى باب الفندق وجدنا صاحب النزل وزوجته الصغيرة وقد خلعـــت "مريلـــة" العمـــل وتزينت، وثمة ثمان أوتسع أفراد جالسون معهم، وثم جيتار وغناء وما يشبه حفل عشاء أمـــام الفنـــدق، حفل يغلب عليه الطابع الأسرى بشكل أو بآخر. عند دخولنا أصرّ صاحب الفنـــدق (المنـــزل/ النـــزل/

الكوخ الجميل) أن نشاركهم. كانوا يحتلفون بعيد ميلاده، ولم نستطع أن نعتذر، ولم نتمكن من المشاركة بحق، فجاملناهم حسب ما تبقى لدينا من كل شيء، واستأذنا ،

نحن منبهران من هذه الحياة الزاخرة، فى هذه القرية النائية، حياة بها دفق العمل، وجـذل الـرقص، ودفء الناس، وجمال الطبيعة!!

١٩٨٦/٨/٣١

فى الصباح ذهبت إلى مقهى الشاطئ كعادتى، وكنت قد استأذنت زوجتى فى البقاء ليوم اخـر، وأنـه يكفى لأثـينا التى حفظناها عن ظهر قلب بعض يوم وليلة، ووافقت بطيبة حقيقية، مع أننـى أكـاد لا أكلمها طول النهار، وقد تيقنتُ من أنها تفرح إذا أنا كتبتُ ما أريد أن أكتبه، لأننى أكون حينذاك أقـرب إلى نفسى، هى لا تفرح لما أكتب، بل إنها عادة لا تعرف ماذا أكتب، لكنّها تطمئن إلـى حـالتى حـين تشاهد أثر ذلك بوضوح على كل ما هو أنا.

دائما كنت أتصور أنها لا تطيق استغراقى فى القراءة والكتابة طول الوقت على حساب أشياء كثيـرة ينبغى أن تكون فى الحياة الزوجية، إلا أننى لاحظتُ أنها راضية هادئة مباركة لما أقـوم بـه دون أى احتمال لألعاب المجاملة أو أوهام المرأة التى هى وراء كل عظيم، أين العظيم أصلا؟

ذهبتُ إلى مقهى الشاطى أو دعه صباحا، وجدت الرجل صاحب الفندق، ومعه ابنه (حوالى ١٤ سنة). وهما منهمكان فى إصلاح، أو إعداد، شبكة صيد كبيرة كبيرة، غلبنى حب الاستطلاع وسألته فقال لـى بإنجليزيته المكسرة إن هذا هو عمله الأصلى الذى يعمل به طول السنة، وأن ابنه يساعده معظم الوقت، فموسم التصبيف قد انتهى، وعليه أن يعاود الصيد، أكل عيش، والمدارس ستبدأ بعد أيام، ومـا الفنـدق (أو الموتيل أو الكوخ) الذى كنت فيه إلا عمل صيفى مؤقت أعده ليستـضيف اليوغـسلاف بقروشـهم القليلة حين يحضرون ليصيّفوا بعض الوقت، وهو ليس فندقا تماما (هذا ما لاحظنـاه فعـلا)، ولكنهـا بعض حجر منزله يخليها بأن يسرب أولاده إلى بيت أمه لفترة الموسم لا أكثر. فإذا ما انتهى الموسـم عاد كل شئ إلى حاله، ومن ذلك أن يعود هو إلى شباك صيده.

شعرت أننى قد أخذت حق هذا الشاب الجميل (ابنه) حين سكنتُ فى حجرته، وفرحـتُ أنـه برحيلنـا اليوم سوف يعود الشاب إلى حجرته وإلى أركانه، وحين عدت إلى الحجرة كنـت اسـتودعها وطيـف الصبى معى وكأنى أسلمها له شاكرا، حاولتُ أن أرجع كل شئ إلى مكانه، وأنا لا أعرف مكانه أصلا، بل إننى لست متأكدا إن كانت الحجرة التى أشغلها هى حجرة الشاب بالذات أوهى حجرة أخته مـثلا. لمْ أحجر على مشاعرى وأنا أعيد ترتيب كل شيء، صدّقت افتراضات خيالى.

١٩٨٦/٩/١

نهاران وليلتان هما ما تبقى لنا فى الرحلة كلها، الطريق أصبح طريقنا، ولم يبـق أمامنـا إلا توديـع الأماكن دون الالتزام بوعد معها بالعودة، أثينا تنادينا على الرغم من الود المفقود من جانبى، ومع ذلك ما إن لمحتُ لافتة لفندق صغير فى الطريق حتى عرجت إليه أملا فى تجنب البقاء ليلتين فى أثينا، لـم نجد أحداً رغم أن الباب كان مفتوحا، انتظرنا طويلا حتى حضرت لنا سيدة أنيقة وهـى لا تـصدق أن ثمة زبائن يطلبونها، وسألت وتعجبنا، وأفهمتنا السيدة أن الموسم انتهى، وأن الفنـدق سـيظل مفتوحـا لشهر سبتمبر بشكل روتينى لا أكثر، وأنها ترحب باستضافتنا ليلة أو كمـا نـشاء، أحسـست بوحـشة صعبة، ولم أحاول أن أنظرفى وجه زوجتى أصلا لأننى أعرف ما اعتراه، وانصرفتُ شـاكرا شـكرا حاولتُ أنت يكون خواجاتيا، فتنفستْ زوجتى الصعداء.

فرقٌ بين حجرة فى نزل ريفى، وبين زنزانة مكيفة فى فندق خال حتى من أصحابه!

أخجل أن أقول أننا حين اقتربنا من "باراليا" تذكرتُ ما كان منى نحو الركن الصغير وهـو يجـذبنى وكأنى سوف ألقى إليه بنفسى إليه من أعلى الجبل، تباطأتُ عند محطة البنزين إياها لكننـا كنـا علـى الجانب الآخر، وكان عندنا ما يكفى من الوقود، فلم ألمح ذلك الكوخ المعزول فى السفح على الـشاطئ. بحثت عن رغبتى التى كانت، فلم أجدها، ولم أشر لزوجتى إلى المكان ولا إلى محطة البنزين ولا إلـى وصيتى أن يذكرَنى أحد أولادى "هنا". وأنى رغبت يوما فى المبيت ليلة واحدة ثم أقضى.

عاودنى شعور بالألم لما ألحقتـُـه بزوجتى دون مبرر.

٢٣ يوليو ٢٠٠٠

يتضح لى الآن بجلاء كيف اهتممت فى ممارستى وتنظيرى (فى السيكوباثولوجى، والعـلاج النفـسى وغير ذلك) بوصف صعوبة العلاقة مع الآخر وميكانزماتها. أما الممارسة فليس هنا محل الإشارة إليها الآن، أما التنظير فسوف أكتفى بعرض عيّنات محدودة، ظهرت بشكل أدبى قد يتفق مـع سـياق هـذا العمل.

ظهرذلك فى شعرى بالعربية الذى رسمت به حركية الإمراضية (ديوان سر اللعبة ــ دراسة فى علـم السيكوباثولوجي) وأيضا بالعربية المصرية (العامية) كما ورد فى ديوان "أغوار النفس".

إن ما وصلنى وأنا أكتب هذا العمل، خصوصا فيما يتعلّق بالموت من جهـة، والعلاقـة بالموضـوع (الآخر) من جهة قد أضاف لى بعدا شخصيا أحسب أنه من صلب المكاشفة. إنه يضيف رؤيـة تـربط بين ما أحاوله هنا من تعرٍ شخصى وحوار متعدد الأطراف، وبين ما وصلنى من مرضـاى أصـحاب الفضل بلا حدود، ليس فقط لأننى تعلّمت منهم ما هم، ولكن أيضا لأننى تعلمت من خلالهم ما هو "أنا".

حين أفقتُ لنفسى وأنا أمر على "باراليا "لأدرك كيف خفـّ الحنين إلى الركن، على الأقـل بالمقارنـة بحالتى أثناء الذهاب، حمدتُ الله على أننى لم أسارع بإنكار ما غمرنى أثناء الذهاب بافتعال تفـسيرات

سطحية، أو بقمع قهرى ممنطق. أخذ الحنين حقه بما ترتب عليه من ظلم لزوجتى وغم كاد يجهد الرحلة أصلا.

ثُرى هل شفيتُ من داء "الحنين إلى الركن"؟ هل شفتنى لبتوكاريا؟ هل كان هو علّة أصلا أم هى بعض تجليات الطبيعة الإنسانية حين يصل إلى الوعى أحد ذراعىّ "برنامج الذهاب <=> العودةً فى صورة هذا الحنين الجارف إلى"ركن قصى"؟،

أحاول فى هذا الاستطراد، ومن باب أمانة التعرية أن أجيب، بدءا بتساؤل هام:

هل هذا هو أنا دون غيرى، أم أن لكل واحد منا ركنه الظاهر أو الخفى، وأننا لا نفعل شيئا فى هذه الحياة إلا تنفيذ برنامج "الذهاب والعودة" طول الوقت طول العمر، حتى يحل وقت الذهاب بلا عودة؟ أو إلى عودة أخرى ترتبط عندى بالإيمان بالغيب؟

ثم: لماذا يحتد وعيى تجاه هذا الجذب/العودة هكذا بشكل ملح؟

يزداد تأكّدى من أن أسفارى المتعددة هذه، وبهذه الصورة ليست إلا تأكيد لهذا الفرض القائل: "إنها تفعيل Acting out لهذا البرنامج الأبدى ،

هل كنتُ أعلم كل ذلك عن نفسى وعن الناس، مرضى وأصحاء، حين كتبت ديوان سر اللعبة ثم شرحته فى "دراسة فى علم السيكوباثولوجى"، وأيضا حين كتبت ديوان "أغوار النفس"، وألحقت به شرحا فى العلاج النفسى؟

رحت أقلّب أوراقى ــ قصدا هذه المرّة ــ بحثا عن وظيفة "الركن" (ومكافئاته) وتجليات ظهوره فى أعمالٍ لم أقصد بها تعرية ذاتية أصلا، ولا مكاشفة، لكنّها قد تثبت بشكل أو بآخر بُعداً لما هو "المنهج الفينومينولوجي" حين يكون الفاحص والمفحوص جزءا من الظاهرة، فلا هو استبطان وتأمل ذاتى، ولا هو رصد من الخارج يدّعى الموضوعية ،

سوف أكتفى بإشارات محددة لمقتطفات دالّة، كتبتها فيما مضى من واقع الخبرة المهنية المباشرة (فى العلاج الجمعى خاصة، دون استثناء مجموعة المواجهة مع الأصدقاء والزملاء غير المرضى) ولم تكن فكرة السيرة الذاتية ولا أدب المواجهة أو المكاشفة مطروحة أصلا.

إن مجرد وجود الركن كملجأ وملاذ فى وعى الفرد (وعيى) ليس ضد العلاقة بالآخر، بل إنه قد يشجّع على هذه العلاقة، لكنّ المبالغة فى اللجوء إليه، أو تصور السكون فيه يجعل الحركة مكبّلة والعلاقة ناقصة،

الركن المرفوض هو الذى يغرى بالانسحاب تبريرا لعدم المخاطرة برؤية الآخر "كما هو"، وتحمّل الاختلاف، فالاستمرار، أما الركن النابض فهو رحمٌ حى يحتوى ويدفئ لتفريخ البيض حتى يفقس، ثم يطلق الطير الجديد.

إن اختيار الإقدام فى كل جولة (من جولات حركية الداخل<=> الخارج) يجعل كـل جولـة بمثابـة فرصة حرة جديدة لترسيخ العلاقة مع بعضنا البعض بطريقة موضوعية، أما أن يكون الـركن مـلاذا ضد الاقتراب، فهذا ما وصفتـه ورفضته:

"الركن بتاعى متحضّر

حارجعله واسيبكم

ساعتِنَ حسِّـــــــبْكم" .. ..

الفرق بين حركية برنامج الدخول <=> الخروج إلى الركن، وبين الانسحاب فور التهديـد بـالاقتراب هو فرق جوهرى ،

وطوال هذا الترحال الذى عايشته ثم كتبته اكتشفت أنه بقدر ما كان الحنين إلى الركن ملحّا فإنـه لـم يكن هربا من التهديد بعلاقة ما، بقدرما كان أملا فى إعادة ولادة، حركية برنامج الدخول<=> الخروج التى تجعل الشد إلى الخلف هو تقوية للانطلاق إلى الأمام، كما تجعل الكمون هو إعداد جيّد "للفقس"

لكن ثمة خدعة إذا رسخ اليقين بأن أى علاقة هى محكومة بالانسحاب فى النهاية.

إن هذا قد يسمح بعمل علاقات ليست علاقات طالما كتب عليها الانتهاء قبل أن تبدأ. إلى الركن، فـإن ذلك يسهل علاقات ليست علاقات.

حين أشعر أن الركن جاهز فى وعيى منذالبداية بهذه الصورة قبل أن أبدأ، فلا علاقة.

وما دام الركن متحضر هنا تحت الأرض

راح انط لفوقْ،

وأعدّى الطوقْ

وارضى القرداتى!!

يسترزق.

فهو النكوص بلا رجعة بديلا عن تواصل كاذب

فينك يامّه

نفسى اتكوّم جوّاكى تانى

بطنك يامّه أأمن واشرف من حركاتهم

وإلا: فهو الموت

وان ما قدرتشْ، يبقى ماليّاش إلا التربة.

والله تراب القبر دا أرحم من ألعابهم.

نفس الصورة تنتهى بتصوير موقع آخر يقوم مقام الركن.

هو موقع للفرجة يسمح بعلاقة يمكن أن تسمى:علاقة "القناصة" (إخطف واهــرَبْ) حيــث لا يــصبح الركن رحما محتويا، ولا قبرا خافيا، وإنما موقف متفرج على مسافة، يسمح بعلاقات سريعة خاطفة

قاعد ساكت تحت سرير الستْ.

حاخطف حتة نظرةْ، أوحبة حبْ.

واجرى آكلها لوحدى،

تحت الكرسى المِشْ باينْ.

لست متأكدا: هل سبقت رؤيتى العلمية (من منطلق فينومينولوجى) ممارستى الذاتية لأكتــشف نفــسى بالنظر فى ذاتى بعد عشرين عاما من تسجيلها علما وشعرا؟

فى متن "دراسة فى علم السيكوباثولوجى، ظهر هذا الجذب إلى الركن تحــت أســماء أخــرى، مثــل موضوعات " السرداب" أو "القوقعة المسحورة" أو الكفن، أو الضياع

وحتى لا يخرج هذا الاستطراد من "أدب المكاشفة" إلى تنظير علمى ليس هذا موقعه، ســوف أقــصر الاقتطاف بعد ذلك على مجرد ذكر بعض مقاطع تشير إلى هذه البدائل التى تعبّر عن هذا الحنــين (وإن كان يظهر هنا أكثر فى صورته المرضية التى لا يمكن فصلها عن تجلياته فى وظيفته علــى طريــق النمو).

فى مقطوعة "جلد بالمقلوب" فى ديوان "سراللعبة" وصفٌ لاستعمال فرط الحساسية من الاقتراب فــى تبرير الهرب من العلاقة،هذا الوصف هو متعلق بالموقف البارنوى (وهو وصف لمرحلة طبيعية فــى النمو،هل تذكر الربط بين ركن بلدة "بارليا" ولفظ "بارانويا" كزلّة قلم مقصودة؟)

ألبس جلدى بالمقلوب

فلينزف إذ تقتربوا

ولتنزعجوا

لأواصل هربى فى سرداب الظلمة

نحو القوقعة المسحورة.. .

وفى نفس المقطوعة يَظهر برنامج الداخل<=> الخارج، لكن فى صورته المرضية:

لكن بالله عليكم، ماذايغرينى فى جوف الكهف

وصقيع الوحدة يعنى الموت؟

لكن الموت الواحد أمر حتمى ومقدر

أمّا فى بستان الحب ،

فالخطر الأكبر أن تنسونى فى الظل

ألا يغمرنى دفء الشمس ،

أويأكل برعم روحى دود الخوف

فتموت الورقة، فى الكفن الأخضر، لم تتفتح

هذا موت أبشع

لا.. . لاتقتربوا.

جلدى بالمقلوب ،

و القوعقة المسحورة تحمينى منكم

٢٠٠٠/٧/٢٤

تأكدت مما خطر ببالى من صعوبة فصل الخاص عن العام وخاصة لمن حاول محاولتى فى مثل مهنتى ،

كذلك تحددت معالم ما يسمّى "المنهج الفينومينولوجى" الذى يتم فيه عرض الذات باعتبارها الموضوع دون أن تمّحى فيه، كما يتم عرض الموضوع من واقع تأثيره فى الذات دون إسقاط.

أيضا ازددت اقتناعا أن من أراد أن يتعرف على ذات شخص، عليه أن يبحث فى بعض تفعيلاته وتجلياته التى لم يقصد بها سيرة أو تعرية، جنبا إلى جنب مع الاستماع لبعض بوحه.

أضف إلى ذلك أن السيرة كما أحاول تقديمها: هى حضور "الآن"، وليست حكى ما سبق ذكريات أم تخيلات .!!

حين اتضحت هذه الرؤى (الفروض) الثلاثة، وأنا أقرأ الاستشهادات الاستطرادية السابقة، رجحت عندى أهمية تقديم أبعاد سبق رصدها دون أن تكون سيرة ذاتية أصلا، وأحسب أن ذلك يمكن أن يكمل الصورة بشكل أو بآخر.

فكان الترحال الثالث (أنظربعد).

عودة إلينا ونحن فى طريقنا من ليبتوكاريا إلى أثينا فبيرياس "بيريه"، فمصر.

١٩٨٦/٩/١

نفس القبضة التى كانت تمسك بقلبى، تبدأ صباح كل جمعة أيام المدرسة الابتدائية، بل إنها كانت تبدأ مساء كل خميس بعد الفسحة مباشرة، كنا نغنى ولو صامتين: "يا برميل الزفت يا يوم السبت على الصبيان، يا منقوع النفط يا يوم السبت على الصبيان".

نعم اشتقت إلى مصر، وأريد أن أرجع، ينتظرنى هناك كل ما يحول بينى وبينى، ومع ذلك فأنا مشتاق وبى لوعة. قلت فأعيد: إن من أعظم ما فى الحياة أن تخترق ماتخاف وأن تتقدم نحو ما ترفض، وأن تقتحم ما لا تريد. وبغير ذلك فلا بد أن تشك فى اختياراتك السهلة.

عودة أخرى غير عودتى من رحلة الأولاد منذ عامين.

أنجزْت فى هذه الرحلة إنجازا لا أظن أنه كان يمكن أن يتم بهذه الصورة وأنا مثقل بكل ما هو لـــيس أنا فى مصر ،

فخور أنا بما أنجزت، والله وحده يعلم أين سوف يقع من الناس، و.. و من التاريخ!!!

تعرفت على زوجتى أفضل بعد ثلث قرن من العشرة الصعبة، هذه السيدة، تتحملنى تحمـــلا لا أقـــدره حق قدره. عدنا إلى الفندق هو هو، لا يوجد سرّيخ ابن يومين. الشاطئ خال تماما.

بيريه (بيرياس) تضرب تقلب.

الرحلة من بيرية إلى الإسكندرية تستغرق يوما وبعض يوم ،

الأولاد ينتظروننا فى الميناء مثلما انتظرونا فى الرحلة السابقة ،

لكن لكل مذاق طعمه الخاص.

أفتقد فرحة الصحبة، وشوقى للقائهم ،

وأيضا:

أمتلئ بفخر الإنجاز وسماح الصحبة.

الفصل السادس

(الفصل الثانى عشر: من الترحالات الثلاثة)

مسافر رغم أنفه

يا جّدنا المصلوب زهواً يحصد الزمن.
قد صار محظورا علينا ننقش القلوبَ فوق هامات الحجر.
فى عصرنا هذا أيا جدّى العزيز
لا تطلع الشموسُ دون إذنْ.
لا يستباح للكلاب الآثمة – أمثالنا – أن تسكن العرين.
ما عاد يجرؤ وعينا أن يفخـــترْ:
أنـــا بشر.

الاثنين ١٩٩٣/٦/٢١

سفر ليس كالسفر....

كان لابد أن أعود...، لا أعرف من أين يأتى هذا البـُدّ،. لكن هذا ما حدث .

قبل هذه السفرة بالذات كان الشيخ (أنا) يكثر من ترديد أنه: ثم ماذا؟

أما الآن فالسؤال الأسبق يقول: لماذا؟ لماذا أسافر الآن هكذا؟ لماذا أوافـــِـق؟

بعض تبريرات سفر هذه المرة أننى أقنعت نفسى ــ كالعادة ــ أنها فرصة لكى أكتب الكتاب الــذى لا أريد أن أكتبه، لأناس لـــن يقرؤوه، الكتاب الذى لن أتقاضى عليه أجرا من قادرين كلــّفونى به، عـــادة لا تنقطع، من كلفنى بهذا الكتاب لا يهمه إن كان سوف يدفع أو لن يدفع ــ ومع ذلك تنازلت عن حقوق المؤلف لهم مقابل أن آخذ راحتى فى حجم ما سوف أكتب، كتاب تقليدى فى الأمراض النفسية والعيـــاذ بالله وافقتُ، قال: لماذا، قال لأن فلانا أصدر كتابا سخيفا لم يقرأه هو، جمَعَ فيه أجزاء معلومات كثيرة ، ووضعها بجوار بعضها مرصوصة مشتتة، توحى بجهد مـــــَنهكين مأجورين مجهولين مختلفين. أنا لا أذكر أيا من هذا إلا لأعلن أننى شوهتُ هذا السفر بزعم الانشغال بهذا الكتاب الذى شعرتُ أننى ملـــزم بكتابته لطلبتى أساسا، لعلنى أنسخ به مالا يصح أن يجثم على وعيهم دون مبرر،

أصبحت المسألة سخيفـــة ومفقوسة. كلما هممت بالسفر، أو حتى بأجازة، أحاول أن أبررهـــا لنفـــسى بأنى سوف أعمل كذا، وأكتبُ كيت، وكأنى قد حرّمت على نفسى الفسحة لـــلفسحة، والمتعة للمتعة، مع أنني، والله العظيم ثلاثا، أستأهل أن أرتاح، ألا أعمل طول الوقت، بل أطول من طول الوقـــت ،فلمـــاذا

هذه الملاحقة بكل هذه التبريرات وكأن راحتى ذنب يحتاج إلى غفران، ثم إن كل أعذارى تبدو سخيفة. هذا الجهد التعويضى يفرغ الإجازة من وظيفتها كما أنه يقلبها عملاً فى موقع آخر، فضلا عما يقوم بـــه من إبعادى عن صحبتى ــ إن وجدت ــ تحت دعوى انشغالى حتى فى الإجازة .

خذ مثلا هذه الحجة الحالية، هل هذا اسمه كلام؟ أسافر إلى سويسرا مرغما (!) ثم أكمل إلى بـــاريس معتادا (!) لأكتب كتابا مـــُكـــْرْهاً عليه!!

هذا هو الذى حصل، هذا هو ما أدّعية .

سجينُ حجرة ليست أهدأ ولا أجمل من أى حجرة لى فى أى مكان فى مصر؟ ومـــا أكثـــر حجراتـــى وأماكنى الصغيرة الجميلة فى مصر، لكن يبدو أن ما يحول بينى وبين عمق الاستمتاع بأماكنى تلك فى بلدنا هو مجموعة من العوامل التى لا أملك إزاءها إلا التسليم، على سبيل المثـــال لا الحـــصر (كمـــا يقولون) خذ عندك: سرعة الإيقاع، وضباب الشك، وجفاف الوحدة، وتشتت الاهتمامـــات ثـــم الطمـــع الخغى، وإنكاره معا.

المهم أننى سافرت، ليس كما كان الأمر حين كنت أسافر لأتعرى، وأعيد النظر، لعلى أتجدد، وأبدأ ثم أبدأ ثم أعاود البداية، كل هذا لم يخطر على بالى ولا سمحتُ له أن يطوف حتى بظاهر وعىى لكى لا آمل فيه، لكى لا أكذب فأدّعيه.

سفر شكله جديد، غريب علىّ، سفر مـــّيت منذ البداية، تذكرتُ كيف بدأت"الناس والطريق" وأنا أعلـــن أنه إذا لم يكن السفر للتعرى، والكشف، وتجدد الدهشة، فأفضل منه الجلوس فى عقر الدار، والطيـــّـب أحسن. هأنذا أسافر هذه المرّة ليس ككل مرة، أسافر هامدا، وكأنى لا أسافر. السفر يبدأ داخلى أولا، ثم تلحقه الحركة، أنا أسافر بوعيى أولا ثم أسحب الآخر ورائى، لكننى هذه المرّة لا أستـــشعر الـــسفر ولا غير السفر. يتحرك بالداخل حتى أنتظر ما يجود به خارجا، أو ما يكتمل به بعد .

عشر سنوات مضت على الرحلة الأولى على ما أذكر أو قل ثمان. ما الفرق؟

ربع قرن مضى بين ولادتى ــ إقامتى ــ فى باريس سنة ١٩٦٨ ــ ١٩٦٩وبين مـــا هـــو أنـــا الآن. ولكن ما هو هذا الذى هو أنا الآن؟

فهل ثمّ فرق؟ فلتكن تجربة، فمازال من حقى أن أجرب .

تعلّمت من إصرارى على التواجد بين"الناس" على"الطريق" أن أتحمل من لم أخترْ، وأن أكتب ما لـــم أحددْ، وأن أكتشف ما لم أكن أعرف. بل ما لم أتصوّر أنه كان يمكن أن أعرفه، ألتقطُ الـــصدفة، فـــلا أرفض ولا أتحمّس. بعد البداية: أقلبها اختيارا حتى لو بدأتُ مرغـــما، ثم تتفجّر المسائل بما لا أعـــرف، ولولا هذا، ومثله، وقريبٌ منه، ومكافئٌ له، ما كان عندى ما أقوله الآن عن هذا الذى يسافر الآن هكذا؟

حين اضطررت أن أكتب ما يسمى"التاريخ العلمى" أو سيرتى العلمية.C.V منذ عامين تعجّبت أننـــى أكتبه لأول مرّة. وتعجّبت أكثر أننى"كل هذا": كتيّب بأكمله كان آخر ما ينبغى أن يضاف إليه هو زمالة الكلية الملكية البريطانية للطب النفسى التى حصلت عليها هذا العام، والتى كدتُ أعزف عنهـا مكتفيـا بعضويتى كمؤسس، فعلى الرغم من أثر هذه الحروف الكثيرة التى يُلحقها الأطباء بعد أسـمائهم، فأنـا أعرف دون الناس كيف تحصل على زمالة أمريكية، وعضوية كندية، وأن تسجّل نفسك كذا وكيت فـى هذا وذاك، بتزكية عضوين أقدم، حصلوا على نفس الحروف والعضويات والزمالات بنفس الطريقـة، أعرف كل هذا ولا أساهم فيه، لا أطلبه، ولا أسعى إليه أصلا، ولكنى لا أرفضه. أشفق علـى النـاس وهم ينبهرون به، وأدعو للجميع بالستر.

كتبت هذه"السيرة" .C.V لكلية الأطباء النفسيين الملكية بالمملكة المتحدة. ثم ألحقتها بملحـق أصـدق، تصوّرت أنه سيكون ضد ترشيحى للزمالة، حيث نقدت فيه ما كتبتـُه مما يـسمى الـسيرة بالطريقـة التقليدية، ثم إنى كتبته باللغتين: العربية والإنجليزية، وأصررت على إرساله باللغتين لناسٍ لا يهمهـم، ولا يعرفون، غير لغتهم. قلت فى الملحق: إن هذه السيرة لا تعنى عندى شيئا كثيرا، وأن ما أشرُفُ به مما أعتقد أنه يميزنى هو علاقتى بلغتى فى كذا وكيت، واستلهامى إيمانى فى كذا وكيـت، وارتبـاطى بثقافة أهلى فى كذا وكيت، أما كل النشر والأرقام والمناصب التى عدّدتها فى المتن دون الملحق فهـى من إنجازى فعلا، وأنا لا أتخلى عنها، إلا أنها ليست بالضرورة موضع فخرى، ولا هى"أنا" كما أحـب أن أقدم نفسى. احترمتُ الإنجليز الذين بادروا بمنحى الزمالة دون تردد بالرغم من كل ما ذكرت فـى المحق متحديا، باللغتين العربية والإنجليزية.

من الناحية العملية، أنا طبيب كبير، وثرى مستور، ولى أولاد ليس بهم عيب ولا عاهة، والحمـد لله، وعندى عربات حديثة لا تقف، ولا أغيّر إطاراتها فى السفرة الواحدة عدّة مرات بعد أن أكون قد ركّبت لكل إطار طاقية داخلية، وفى كل طاقية لحام.

كم كان ذلك معطّلا، ومؤلما أحيانا، ومحرجا كثيرا، لكنه هو هو: كم كان ثريا بالناس، كيـف نحتـك بالناس إذا أغنتنا كل هذه التكنولوجيا، وهذه النقود، عنهم؟ الناس على الطريق ليسو ناسا والطريق ليس طريقا إن لم يستعيروا رافع عجلات بعضهم من بعض، إن لم يرشدوا السائل إلى أقرب محـل لحـام. كانت معالم الطريق ومسافاته تـُـعرف بموقع محلات اللحام والخدمات الأخرى.

أما الآن، فقد اختلف الأمر بالنسبة لى على الأقل. انفصل الناس عن الطريق، مع الرفاهية والطـرق السريعة، اختفى الناس من الطرق. لم يعودوا بظهرون بالقدرالكافى إلا فى نهايات الـرحلات. كانـت عدد رقع الإطارات تفوق طواقى لاحِمى الإطارات جميعا، وكان الناس الذين يعملون هذا وذاك أكثـر وأكثر، أما الآن فالإطارات ــ على مايبدو ــ تأبى أن يـُركب لها رقع من أصله، مع أن العـالم كلـه

أصبح مرقعا، بل هو مجموعة من الرقع بجوار بعضها، يلضمها شئ هلامى قبيح اسمه النظام العالمى الجديد، هذا النظام ضرب الـــعراق أول أمس. أنا لا أحب صدّام حسين وأكره هذا الكلينتـــون، ميثـــاق حقوق الإنسان الذى يتشدّق به هؤلاء الأدعياء يقول إن المتهم برئ حتى تثبت إدانته، أما العربى فهـــو مجرم حتى تـــُمنح براءته، براءة لزجة مشروطة، تصدر من غير ذى صفة، ذات عمر افتراضـــى لا يدركه مانحه، لأنه سينقرض هو ومن يخدع فيه قبل نهاية العمر المزعوم.

يخيّل لى أن الاسم الأفضل لهذا العمل هو: أطروحة"الاضطرار والـــصدف والتعـــرى". لا هـــو أدب رحلات، ولا هو حتى سيرة ذاتية، ما هى حكاية أدب المكاشفة هذه هى الأخرى؟

إن حياة الفرد ــ دع المجموع والجنس البشرى وتطوير النوع جانبا ــ حياة الفرد هى مجموعة ذكية أو غبية من"الاضطرار والصدف"."أما التعرى" فأنت وشطارتك. الحرية هى أن تقبل الاضطرار لتجعل منه اختيارا، وأن تتجاوز الصدفة حتى تصبح من فعلك الذى أهداه الغيب إليك فجعلته شهادة وجـــودك. متى يعرف الناس معنى الناس والحركة، متى نتعرّف علينا، ما يعلم النفس وحتى التحليل النفسى بكـــل هذا؟

أوصلنى إلى المطار محمد ابنى المتورط فى دراسة هذا الذى يسمى، علم النفس، وهو أيضا المتوقف عن لبس العمامة أو قل: المتلكّئ فى لبسها تحت وهم حرّية الاختيـــار. لـــو علـــم إبنـــى هـــذا معنـــى الاضطرار والصدفة لانطلق بما يكره إلى ما يـــُفـــجـــِّرُ فيتفجّر، تمنيّت يومها وهو يوصّلنى للمطـــار (حتى لا يصله داخلى فيزداد رفضا) أنْ يكون معه ابنه عمر ــ صديقى ــ يخفـــف الحـــوار الجـــانبى الصامت. أحيانا أتصور أن كلاً منا ــ إبنى محمد هذا وأنا ــ يلبس خنجرا معقوفا، يلفه كل واحد منـــا حول وسطه، يتدلى على ناحية. وهات يا مبارزة جانبية ونحن نتبادل الحديث"من فوق". عمـــر (ابنـــه، وحفيدى) كان سيخفف هذا الجو، فما زلت أذكره وهو يوصلنى إلى المطار فى رحلتى قبـــل الأخيـــرة، وهو يطلب من أبيه أن يفتح نافذة السيارة، وكان الهواء باردا نقيا، فأخذ يستنشقه رشفة رشـــفة، هادئـــا عميقا، وكأنه يحتسى ببطء متأمّل شرابا سائغا بإرادته، ثم يقول عمر دون سؤال:"أنا أحب هذا الهـــواء"، فرحتُ به. نحن نعلّم أطفالنا أن يحبّـــوا اللعب البلاستيك، وجنجا ترتر (أنا لا أعرف لها نطقا إلا هـــذا، وقد عانيتُ كثيرا لأحفظها، ولم أنجح إلا حين رحت أذكّر نفسى أنها على وزن: بمبة كشّر) وضـــفادع التليفزيون القبيحة. لا نعلّمهم حب الهواء والشجر.

صديقى عمر هذا أول كلمة نطقها كانت بحْحّ،، نطقها قبل"بابا، وماما"، و" مَـــــمْ" قالها وهو يشير إلى البحر فى رأس الحكمة. مرّت عليه بضعة أشهر قبل أن ينجح فـــى أن يُلحـــق بالحـــاء المـــشددة راءً، لينطقها"بْحر".

أما أبوه فأول كلمة نطقها كانت"إوّا" (يعنى بها"إوعى"). كان ذلك فى اليوم السابق لبلوغه عاما. كان قد تعلّم المشى قبلها ببضعة أيام، فوجدنى واقفا أكاد أسد باب حجرة يريد أن يمرّ منه. فأخذ يـــزيح ســـاقى من طريقه بيد عنيدة ناقدة، يزيحنى إلى جانب، بعيدا عن طريقه، ونطق إوّا (ومازال يفعل ذلــك حتـــى الآن). فى الطريق إلى المطار: افتقدتُ عمر صديقى، ولم أبلغ والده وهو يودعنى أن يسلم عليه، لكنّــه سمعنى دون أن أنطقها، ولم يسلم عليه.

ركبتُ الطائرة وأنا كلى مقاومة، مغلقٌ تماما عن السماء والسحاب، جلستى فـــى الطـــائرة بالـــصدفة بجوار جناح قبيح يحجب عنى المدى والأفق، كرسى منفرد، أحسن، لا أريد"ناسا"، لا أقطـــع"طريقـــا"، يشيلنى هذا الجسم الحديدى مكبـّلا ليلقينى حيث لم أعمل حسابى، بجوارى كرسى مقلوب وجهه عكس كرسيّ، أول مرّة ألاحظ ذلك. ما إن تحركت الطائرة حتى جاءت المضيفة وجلست عكـــسى. ربطـــت نفسها فى هذا الكرسى القبيح المقدد الذى يعطينى ظهره بجانبى. كأنى أنا المسئول عن خلـّوه وقبحـــه، أو كأنى آذيت قريبه فلم أضف إليه درجات فى امتحان البكالوريوس. المهم: قامت المـــضيفة بعـــد أن استقرت الطائرة فى الجو، فحاولتُ أن أحرك الكرسى المقلوب فإذا بى أتأكد أنه هيكل كرســـى فقـــط، جُـــعل خصيصا لجلوس طاقم الطائرة عند الإقلاع والهبوط، الكرسى"عيرة". جناح الطائرة مثـــل جثـــة حوت لفظته أمواج السماء فحال بينى وبين الله الذى أناجيه أكثر: أناجى ربى مباشرة حين أصـــّعد فى السماء، وحين أتقدم بين الموج مغمض العينين، وحين تحتوينى جبال سيناء من كل جانب، وحين أتمدد مع صحراء المقطم حين كنت أعدو مع مرضاى، فلماذا الآن ليس الأمر كذلك؟ مع أن الطائرة تحلـــق على ارتفاع عدة عشرات الألاف من الإقدام.

أخذت أزيح جثة الحوت من فوقى لأسترق النظر ــ بالرغم من كل شئ ــ لعلّى أفهم لماذا أنـــا فـــى الطائرة. وحدى أنا هذه المرّة، كنت أحتاج جدّا أن أكون وحدى هذه المرة، زوجتى ظلمتُها معى، وأكاد لا ألتقى بها إلا حين نسافر معا. كانت آخر مرة رأيتها فيها (رأيت زوجتى رغم أننا مـــا زلنـــا نعـــيش تحت سقف واحد، ونعمل بعض الوقت فى مكان واحد، لكن هذا هو الذى حصل!!) كانت هـــذه المـــرّة التى رأيتها فيها فى البتراء فى الأردن لمدة ثمانى عشر ساعة. قابلتُها هناك قبل وبعد شجار له دخـــان خانق.

مضت الساعات وأنا لست هنا، اكتشفتُ أنى لم استمع لتعليمات النجاة، ولا لتعقيبات الطيار وهو ينبـــه إلى بعض معالم الطريق بين الحين والحين، ثم بدأت أستيقظ من اللا نوم واللا يقظة (قياسا علـــى مـــا هو:اللاسلم واللا حرب) ببطء ثقيل. أستيقظ وكأنى أعوم منهكا فى بحرٍ لزج، أستيقظ من خِـــدْر ممتـــد على مساحة مجهولة طولها عدة سنوات.

تحسست وحدتى لأتأكد، واطمأننت إليها. وحدى، نعم. إذن فأنا مع كل الناس بلا استئذان. لـيكن مـا يكون. أزحتُ جناح الطائرة بإصرار هذه المرة. كنا قد اقتربنا من باريس دون أن أدرى كيـف مـرّ الوقت، فإذا بالخضرة والمربعات الزراعية المقسمة بالمسطرة، والبيوت الأكواخ الممتلئة بالحياة والرقة الغربية والنبيذ والحضارة الآفلة والنظام والاستعلاء والتكنولوجيـا والتأمينـات الاجتماعيـة وغيـر الإجتماعية، كل هذا أطل علىّ مخترقا كثافة الجناح، ما الحكاية؟ ولماذا لم ينزح الجناح هكـذا ونحـن نقـلع؟

مازالت مسامى مغلقة تماما ــ السيدة الفاضلة خلف نافذة المكتب فى المطـار (فاضـلة والله العظـيم ثلاثا، وحق وجهها السافر) تشير السيدة إلى بوابة ب ٢ حتى أنتظر أربع ساعات وهو ميعـاد إقـلاع الطائرة إلى جنيف حيث أقصد، ذهبت فوجدت ناسا قليلة تنتظر. ماذا سأفعل فى هذه الساعات الأربـع؟ معى هذا الصديق الجديد الذى اسمه الحاسوب، وهـو لـيس كـذلك. حاولـت أن أنحـت لـه كلمـة المـُكـَمـْبـِتْ، أو المـُكـَمـْتـِرْ، فلم يرض عن ذلك إبنى محمد المناقِش الأعظـم، ودارس علـم النفس اللغوى !!كَمْبَتَ يُكَمْبِتُ وفى الخليج يقولون عن ثقب إطار السيارة"بنشر" (يبنشِـرُ فهو مبنـشِر) وهى كلمة معربة من،puncture فلنكن شجعانا ونرعى لغتنا بإثرائها. معى هذا الشئ الصديق المطيـع المُكمتِر (كَمْتَرَ، يُـكَمـتِـرُ. لعلّها أخفّ computor:) ،قلت أحاوره وأمتطـى صـهوته وأعبـر بـه، وأناجيه وأتجـوّل معه فيه، حتى تأتى الطائرة إلى جنيف، ولكن أبدا. حالت الظروف، وفرحَ هوَ لى.

عدت للسيدة الفاضلة ذات الوجه السافر، وقلت هل يمكن أن أدخل فرنـسا هـذه الـساعات الأربـع، فنظرت فى جواز سفرى فى ثوان، وقالت ما معناه"ياسلام يا سيد، أنت تشرف". هكذا ترجمتُ ما قالـت مما بدا على وجهها لا من كلماتها، وأضافت أن عندى تأشيرة لعدة مرات، فما هى المشكلة، ولم تكـن ثمة مشكلة إلا فى أننى تذكرت وقفتى أمام سيد آخر فى نفس الموقف، فى بلد عربى شقيق جـدا كنـت ذاهبا إليه فى مهمة رسمية، والمفروض أن ناسا رسميين فى استقبالى، ومع ذلك وقفت أمام مـن هـو مثل هذه السيدة هناك من الساعة الحادية عشر وثلث مساء إلى الساعة الثالثة صـباحا حتـى خرجنـا. وقيل فى تفسير ذلك أن رجال الطيران الوطنى لهذا البلد العربى الشقيق كانوا فى حالة توتر مع رجـال الجمارك، لأسباب خاصة جدا، فأقسم رجال الجوازات أن يطلعوا ديننا (لا يخرجوننا منه، ثـم إنـى لا أعرف تحديدا معنى هذا التعبير المصرى: أطلّع دينك" يطلعه أين؟)، فكان ما كان.

الحضارة شئ آخر. احترام الوقت هو احترام الإنسان .

دخلت فرنسا والدنيا سهلة، وكنت خارجا من بلدى ــ بلدى الطيب ــ والدنيا صعبة، الحـوادث هنـا أكثر، والإرهاب وارد، وكل شئ يعدو ويحتاج إلى آلة إدارية عملاقة لتديره، لكن الأمور تسير بيـسر أزعجنى على بلدى، منذ شهرين فقط كنت مسافرا بالعربة من نويبع إلى سوريا وعند العودة إلى نويبع

انتظرتُ ساعتين حتى حضر من مرر العربة فوق بئر مثل بئر التشحيم ليرى رأى العين فى منتصف الليل إن كنت أنا أو غيرى (بما فى ذلك دبلوماسى نرويجى وزوجته كانا يتقدمانى)، إذا كنا نخبّئ مواد إرهابية، أو ربما مواد تستعمل للدمار الشامل!! فى شاسيه السيارة من تحت أم لا، أليس هذا هو ما يجعل الناس القادمين إلينا يتصورون أن سائحا عندنا يموت كل يوم، كيف يحقق هؤلاء الناس هنا فى مطار شارل ديجول العملاق هذا النوع من الإدارة السلسة. حوادث الإرهاب عندهم ليست أقل من عندنا. من أين لهم بهذه الثقة بى؟ بنا؟

دخلت المطار الذى كنت أكرهه،مطار شارل ديجول، أكرهه رغم علاقتى الخاصة والسرية بديجول شخصا. أحسب أنى كنت أكره هذا المطار لكثرة زجاجه، مثل مركز بومبيدو الزجاجى أيضا والذى كتبت فيه قصيدة قبيحة (البيت الزجاجى والثعبان).

حمدت الله أننى من داخل المطار لا أرى قبح زجاج المطار الأملس جدا، فوجدت نفسى فجأة فى فرنسا شخصيا، بل فى باريس بالذات، لم يُتَح لى من قبل أن أمكث فى هذا المطار عدّة ساعات مثل هذه المرّة، فشعرتُ أن فرنسا كلها قد جاءت تستقبلنى فى المطار لتفتح مسام وعيى الذى أغلقتْه رئاسة القسم، ومسئولية المركز، والخوف، والطمع، والروتين، والسن، وتفُرق الشلة القديمة، وكهولة أصدقائى الأطفال، وسفر الباقين للرزق والرفاهية والهرب جميعا. كل ذلك أغلق مسامى فلم يبق إلا تقطيبة وجه، وعربة مكيفة، ووحدة متفاقمة، وهذا المنظم الصديق (المكمترْ) الجديد الذى حلّ محل كل هؤلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كل الناس والأشياء ترحب بى، أهلا يا مسيو، أين الكافتيريا، يردّ علىّ الوجه المنمنم ذى الصوت الـمُـنَـوْنـوِْ، من جنوب شرق آسيا والذى سبق أن أرشدنى إلى كيفية استعمال الهاتف آتوماتيكيا بكارت جديد علىّ أن أشتريه من أى"بوتيك" مثل علبة السجائر، كنت قد وضعتُ حقيبتى الصغيرة بجوارى وأنا أتكلم فى الهاتف، فمرّ آخر (من أهلى الخوجات الذين ليس لهم أسماء) فحمل حقيبتى من جوارى ووضعها فوق اللوحة أمامى تحت التليفون، وغمز بعينه باسما، استولوا منّا حتى على شهامة أولاد البلد، فهمتُ أن ذلك يحمى حقيبتى من أن يحملها عنى ويمضى أحد أفراد"الجماعات" الفرنسية (!!!). أثناء انهماكى فى الحديث فى التليفون، ثم يذهب يحارب ــ بثمن ما فيها ــ الجزائريين إن كان فرنسيا عنصريا، أو الكفرة إن كان ولىّ أمر اللجنة الخصوصية لأمة الإسلام.

هذا الخواجة الشهم أبٌ حانٍ، فغمزت له بعينى أن الرسالة وصلت. وضحكتُ لأول مرّة منذ سنتين ونصف.

أنا لا أذكر أننى غمزت بعينى هكذا منذ هذا الوقت إلا لابن بنتى (أصبحتُ جدا لثلاثة) من بضعة أيام، لكنّها ــ الغمزة لحفيدى هذا ــ كانت غمزة المداعبة التى تستجدى ابتسامة اجتماعية لا يقصدها

طفل فى الشهر السادس، ونتصورها نحن كما يحلو لنا. هذه الابتسامة التحذيرية من الرجـل المهـذب الفرنسى ذى الأصل الأصفر. هى رسالة والديّة كاملة تستوجب هذا الشكر الغامر الذى فك حصرى .

هؤلاء المستقبلون المجهولون أحبهم أكثر وأكثر من المستقبلين الرسميين، وأكثر فقط من المـستقبلين الخصوصيين. الاستقبال الأهلى عادة يكون حارا لكن عمره قصير، وربما شروطه الخفية لم تعد تصلح لى. هؤلاء المستقبلون المجهولون شئ آخر. جاءت باريس كلها تستقبلنى(!!) أنا أعرف بـاريس مـن عازفى الجيتار فى محطات المترو، وعلى الأرصفة، ومن السكارى النائمين على سلالم أنفـاق تحـت الأرض، ومن الرقص فى الشوارع، ومن فتّح عينك تأكل ملبن، وفيما عدا السكارى فى مداخل المترو تحت الأرض وجدت كل ذلك قد حضر لاستقبالى فى المطار.

مطار هذا أم ملهى ليلى ظريف؟ أنا لا أعرف هذه الملاهى ولا أحبها. مطار هذا أم"يورو دزنى" التى يقولون إن الخواجة ديزنى قد أرساها فى أوربا أخيرا؟ ضبطت أن الابتسامة التـى رددت بهـا علـى صاحب الغمزة مازالت على وجهى. ياخبر (!!). كيف استطاعت ابتسامة واحدة أن تبقـى كـل هـذه الفترة؟ ابتساماتى فى الثلاث سنوات الأخيرة موقوتة بعدّة ثوان لابد أن تنطفئ بعدها مثل عود الكبريت الفاسد الذى تتناثر شراراته وأنت لا تكاد تنجح فى إشعاله، ثم ينطفئ حتى قبل أن يؤدى مهمتـه. هـذه الابتسامة ظلت على وجهى دون استئذان وأنا ألوح للمستقبلين يمينا ويسارا. وكأنى رئيس دولة سـابق فى بلد حر مازال أناس يذكرون فضله، فيحيونه وهو يمشى وسطهم واحداً منهم كأننى مستر مانـديلا. وقد خرج من السجن بعد عشرين عاما وأهله السود يستقبلونه دون زوجته صاحبة الحكايات إياها (مع أنها كانت بينهم). طالت غيبة زوجها وهى ثائرة جدا جدا، فماذا تفعل؟ لكن لماذا القتل؟

ظلّت الابتسامة على وجهى. لم تختف حتى حين ضبطتها بغير مناسبة. مسامى تأبى أن تتفتح أكثـر، فعرجتُ إلى فرقة الموسيقى التى قررتُ أنهم أحضروها لتصاحب حرس الشرف فى استقبالى. وجدتهم يضبطون أوتارهم كالعادة. كانت مكبرات الصوت والأنغام جميلة. الصدى أجمل. أنـا عنـدى شـغف بحكاية ضبط الأنغام بشكل عشوائى هكذا. أتصوّر أحيانا أنه لو جمعها ملحّن عبقرى لأعاد توزيعها بما يخرج لحنا يستأهل .

دخلت البنات السيدات العاريات الكاسيات، من باب المطار. دخلن مـسرعات قـافزات، هائـصات. صعدن على الدائرة العالية نسبيا وهات يا رقص ويا غناء. يا خبر!! أين أنا بالذمـة؟ لكـنّ ذلـك لـم يستغرق عشر دقائق كانت كافية لتقول لى أشياء كثيرة، لا أحد دفع، ولا أحد اعترض، ولا أحد أرهب، ولا أحد قتل، ولا أحد اندهش إلا شخصى.

مازلت قادرا على الاندهاش، وعلى الابتسام، الحمد لله. أنا حى.

كيف يُعتبر حيا من لا يندهش ولا يبتسم. وكيف يا أولادى وتلاميذى وكافة المنتفعين أشعتم عنى أنـــى جاد طول الوقت؟ وكذا وكذا؟ سامحكم الله مهما بررتم، هذه الرحلة هى بدونكم يا أولادى من ظهـــرى. ليست كمثل رحلة"الناس والطريق"حين كنتم معى أحاول أن أتعرف عليكم. مـــاذا يفيـــدنى أن أتعـــرف عليكم صغارا، ثم تكبرون فلا أعرفكم؟ وهل عرّفتنى الرحلة السابقة بكم؟ كل ما حدث أننـــى تعرفـــتُ أكثر على بعض نفسى.

آخر رحلة قمتُ بها كانت مع ابنتى الصغرى"مى"وأمها فى أسبانيا. تباعدتُ عنها وتباعدتْ عنى حتـــى كدنا نتشابك. كنا فى طريقنا إلى أختها"منى" التى تزوجت وحدها بدوننا فى لوس أنجلوس. ذهبنا مثـــل الفلاحين نقدم لها"الصبحية. كانت صبحية مكلّفة بعد إضافة ثمن التذكرة وحسابات الوقت هذه ومررنـــا على أسبانيا، فى الذهاب والعودة. رغم افتراقنا أنا وزوجتى عن ابنتى الصغرى تـــاركين إياهـــا مـــع صديقاتها الأسبانيات، إلا أن الوقت الذى اجتمعتُ فيه مع ابنتى هذه كان من أصعب وأكثـــر الأوقـــات إيلاما لسبب لا أعرفه حتى الآن. حتى الإعياء الذى أصابها من تغيير الإيقاع الحيوى نتيجـــة للانتقـــال عبر المحيط الأطلنتى من الشرق إلى الغرب، حتى هذا التعب الجسدى رفضتـــُه بـــشكل لـــم أفهْمـــه، وجرحتـــُها، إبنتى الصغرى"مى" هذه شديدة الرقة، والقسوة، والحدة، والمسئولية معا، جرحتـــُها وكأنى لم أحتمل مرضها، ولا عنادها. أكتشف بعد هذا العمر معاً أننى لم أكدْ أعرفها، ولا أعرفنى. إذن لم يعد لى أولاد بالمعنى الذى حلمت به وأنا أرتب لـــرحلة الناس والطريق الأولى، أولادى لم أعد أراهـــم إلا فى الوقت بدل الضائع إذا تفضّل بعض أصدقائهم واعتذر عن لقائهم أو السفر معهـــم أثنـــاء الإجـــازة. الشائع هو أن هذه هى سّنة الحياة. لتكن، ولكن من حقى ألا أقبل سنـــّة الحياة هكذا. ثم إننى لا أطالبهم بحق خاص بالمعنى التقليدى، وإنما بذكرى صداقة آملة، وبعض الاحترام، لا أكثر. فهمت الآن عمـــق الآية الكريمة"قل لا أســـألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى".

رحلتى هذه الآن هى، عكس رحلة الناس والطريق الأولى تماما.

"تلك" كانت، لهم، لى، بى. خططت لها، وأملت فيها، واشتريت لها أتوبيسا صغيرا جديـــدا، وأخـــذت خيمتى وقروشى القليلة وأبوتى الشديدة وانطلقنا فى بلاد الله لخلق الله. أما"هذه" فهى قد فـــُرضت علىّ، وأنا فى أشد حالات مقاومة الرحلات ومقاومة كل شىء."تلك" كانت معهم،"وهذه" أنا"معى" فقط لا غير، استفرْدتُ بنفسى وربنا يستر. تلك كانت سيرا أرضيا وئيدا وإيقاعا سريعا."هذه" نقلات سمائية فى خـــدر غامض، إلى استقرار فندقى مرفـــّه. صاحبى فيها منظـــّم (كمبيوتر)، ومعى نقـــود وفيـــرة وكـــارت سحرى اسمه"الأمريكانى السريع"American Express، أسافر مسلحا بمصادر طمأنينـــة متعـــددة ضـــد مجاهيل ومفاجآت السفر.

هل هذا سفر؟

سوف نرى. أنا لا أذكر على وجه التحديد تاريخ آخر يوم فى رحلة الناس والطريق، وآخر يوم كتبت فيه هذه التجربة. ذلك الكتاب الذى لم يصدر أبدا. ولا أقول لم يصدر بعد، وهو سوف يصدر حتى لو لم يصدر أصلا، ذلك لأننى رحت أعتقد أن الكتاب ليس بصدوره، وإنما بحضوره، لماذا؟ لست أدرى تحديدا. حين قررت هذه المرّة، وكان سفرا مفاجئا جدا، حضرنى هذا الكتاب الذى ألفتُه تحت اسم الناس والطريق، حضرنى فاحتل وعيى بشكل مثير ودون استئذان .

خرجت من باب المطار لأتأكد أننى فى باريس شخصيا، وأن سماح تلك السيدة الفاضلة السافرة كان سماحا حقيقيا وليس"أى كلام". أنا فى الشارع، وشركة اير فرانس تعلن عن أتوبيساتها التى هى مستعدة لتوصيلى بالسلامة إلى مونبارناس وخلافه. هذه هى. هذه هى باريس. حتى وأنا بعدُ على أطرافها. لكن من هؤلاء النسوة العاريات الكاسيات اللاتى يسرعن عدوا أو هرولة ليعبرن الشارع إلى المطار أو من المطار؟ هن هن الراقصات اللاتى أشعرننى أن باريس تستقبلنى فى المطار. ولكن ما الذى أخرجهن هكذا عاريات كاسيات فى الشارع بعد أن كن يتمايلن فى المطار فرحا بقدومى (!!)، لعلّهن كن يقضين شيئا عاجلا ثم يرجعن. لعلى أخطأت وكلهن مثل كلهن. أنا لا أستطيع أن أميز وجه هذه السمراء. عن سيقان هذه الشقراء. لكن ما للوجوه كئيبة، والأثداء متهدلة، والخطوات نشاز؟ هل هؤلاء حقيقة هن هن اللاتى كن يرقصن ويتمايلن ويضحكن ملء الأشداق؟ نعم هن هن. أخذتنى الشفقة الدفاعية التى كانت ــ ومازالت ــ تملؤنى على بائعات الهوى على أبواب الفنادق الرخيصة فى ميدان كليشى ومحطة أنفير والبيجال.

عدت إلى المطار، كلّمت أحد أبنائى (تلاميذى = زملائى) الذى يعمل فى"رين" فى بريتانى شمال فرنسا، د. رفيق حاتم رد علىّ ولم يرحب بى. هكذا تصورت. العيب فى تصوراتى طبعا. أنا أعرف أن عنده أسبابه. ماذا أريد بالضبط؟ أريد أن أراه عبر الهاتف وهو يرقص فرحاً بصوتى الدافىء؟ أى جوع!! ومَعَ ذلك صدق ظنى بعد ذلك حين لقيته وعاتبته، فاعتذر بانشغاله ومفاجأته. باريس استقبلتنى كلها، وتلميذى زميلى بدا أكثر فتورا مما هو. هل أعْدَتْه رقة الخوجات الدمثة (ولامؤاخذة؟)

ليكن، معه الله فى غربته .

كفانى حنان الدفء البشرى الذى يصلنى من مجهولين دون طلب. مازالت نفس الابتسامة فى وجهى. آه لو رأتِها مُنى ابنتى لكفت عن اتهامى بالـ ١١١ الدائمة بين حاجبىّ. قال إيش وضع بين حاجبيك المائة وأحد عشر، قال الألف وميّة التى تعملونها فىّ يا أولاد الحلال."هنا" الابتسامة لا تزال فى وجهى،"وهناك" القنبلة لا تزال فى جيبه، إبن الرفضى، يلقيها فى القللى ونفق الهرم وأمام جامع شبرا، يا شيخ إخص عليك، بل جاءتك نيلة فى ليل ليس له نهار. نعم الابتسامة ــ رغم أنفه ــ ما زالت فى وجهى (لاحظ"فى" وليس"على" وجهى). ساعة واحدة فى مطار شارل ديجول أحيت فىّ ٨٦٣ يوما.

سنة وثلاثة أيام سنة ١٩٦٨ ــ ١٩٦٩، هذه السنة التى لم أذكرها بالدرجة الكافية فى الناس والطريــق. ولو أن هذا العمل سيرة ذاتية بحق لاستغرقت هذه السنة نصف السيرة بالتمام. الذى عاد لــى، أو عــاد بى الآن، هو"أنا"حالة كونى وحيدا بين ناس كــُثــْر. أنا"كثير" بين ناس حقيقيين."الطريق" هو هــؤلاء. أنا هو ناس الداخل يوقظهم ناس الخارج الغفل إلا من التواجد معا، ثم ربما: التوجّــه معا.

ساعة واحدة قلت بعدها"كفى". أتوجّه إلى مهمتى فى سويسرا وأنا فى شوق أن أرجــع إلــى بــاريس بضعة أيام لإلقاء التحية والاعتذار عن الغيبة. أذهب إلى باريس هذه المــرّة، لا ســائحا ولا مــؤتمِرا والعياذ بالله، ولا حامل حقائب الأولاد، ولا أمين صندوق المشتريات، ولا"دارس مادرســشى حاجــة". أعود إلى باريس معتذِرا صافحا فى آن. كنت قد خاصمتها أو خاصمتنى فى كل مرّة رحلتُ إليها بعــد تلك السنة الطويلة العظيمة. خاصمتها حين لم تكن هى، كان ذلك فى صيف ١٩٨٦. ذهبت إليها ملهوفاً وإذا بها معجونة فى كتله من القيظ الرطب. كنت ذهبت مع الأولاد لمدة ٤٢ ساعة ثم تــركتهم متجهــا مع زوجتى إلى بوسطن فى مهمة طبية لم تنجح إلا فى أنها أقحمتنى فى أمريكا حشرا. كنت قد نــذرتُ ألا أدخلها (أمريكا) حيّاً، لكن الله أراد.

كانت باريس فى تلك الأربع وعشرين ساعة فى يوليو ٦٨ تختنق، كانت الأنفاس ثقيلة تحتــاج معهــا إلى شقاط حتى يمكن أن تسمح لبعض الهواء الذى مثل قلته أن يزور رئتيك بلا فائدة. كان الناس فــى غابة بولونيا ملقون على الحشائ كالكلاب الضالة التى ارتمت فى صحراء قاحلة بعد أن أنهكها العطش فاستسلمت ليأس تنتظر الشئ ــ لعله الماء. لعله الهواء. نسى الناس اسم ما يلزم ونحن نسينا نحن فــى ذلك نحاول أن نجذبه إلى صدورنا. هو شئ لزج أشبه بالعجين الذائب فى صمغ خفىّ.

عدت إلى باريس منذ سنتين فى مؤتمر علمى مدفوع الأجر مازلت أعانى من آثاره الأخلاقية حتــى الآن. وكانت ابنتى"منى" معى. وحضرت المؤتمر. وكان الطقس أخف والنــاس أثقــل..، فخاصــمتُ باريس أكثر، شعرت فيها لأول مرة بعدم الأمان مقارنة بما غمرتنى به من الحنان والرضا ذلك العــام (٨٦/٩٦). حين خاصمتُها أصبحت أرى الوجوه الجزائرية أكثر قسوة وجفافا، والوجوه البيضاء أكثــر تسطيحا ولا مبالاة، والقبل فى المترو أكثر ميكانيكية. قلت لم تعد باريس هى باريس التى أعرفها فيمــا عدا المونمارتر والمقاهى الصغيرة فى الشوارع الصغيرة.

أخرجت كتاب"آلان واتس" Alan Watts عن العلاج النفسى بين الشرق والغرب، صدر ســنة ١٩٦٤. لم أتمكن من تصفحه إلا فى هذه الرحلة. هو يشير إلى خبرة الــشرق الأقــصى ولــيس إلــى شــرقنا الأراجوز المشوه. لم أجد فى نفسى رغبة فى القراءة، لن أتصنع ولو لم يبق على جبهتى ــ يا ــ منــى إلا المائة وأحد عشر (!!!)، لتذهب الابتسام من حيث أتت إن كان هذا هو مستقرها، لكنها موجودة فــى

أعماقى أقوى وأبقى من تصوراتك يا مُنىَ.. لا يغرنك تجهمى يا منى فأنا أحبك حبا كثيرا وأحب الناس وأحب الله حتى لو كنت متجهما طول الوقت. الحمد لله.

سمعت أصوات ضبط الآلات، فى مكان أخر، اتجهت صوبالصوت. يقفون هذه المرّة فــوق منــصة على شكل مربع لا دائرة. شباب سود ثلاثة، وواحد أبيض وفتاة شقراء. فرقة أخرى. مــن أيــن؟ أرى السود عادة فى منتهى القوة والحضور الفطرى الجنسى إن صحّ التعبير. أخذوا يضبطون الآلات أيضا. قلت لنفسى متماديا فى خيال المصالحة: ثَبَّتَتْ الرؤية: هذا استقبال معدّ لى خصيصا، وهذه هى الفقــرة الثانية. كل الناس من حولى يعْدون أو يسيرون أسرع من العدو، وأنا الوحيد الذى يتمتع بهــذا العــزف والرقص مع الإصرار والترصد.

صوت عربة البوليس يصيح خارج حجرتى الآن فى الفندق فى"مونتريه" وأنا أكتــب فنظــرت عبــر زجاج الشرفة، المطر يهطل كما تمنيت. قلت هذه إشارة إكمال هذا الفصل (!!! كيــف؟) ـــــ فلأتمــاد وأعتبر أن المطر أيضا سقط الآن ترحيبا بى بالمعنى المناسب لعلاقتى بربى، أقترب منه أكثــر كلمــا سافرت، وكلما نجوت من خطر ما، وكلما فوجئت بفرحة طيبة. هذا ما كنت أحتاجه فى تلك اللحظــة. أواتصل الكتابة.

توقف الشاب المسئول عن فرقة المطار السوداء المخططة بأبيض، بدا لى الأكثر شبابا (وليس الأكبــر عمرا) وقال بالإنجليزية:"سيداتى سادتى". لا يوجد إلاىَ وأربعة آخرون تباطأ ســيرهم ولــم يتوقفــوا. استمر الشاب الرئيس: أقدّم لكم فرقتنا المكونة من فلان الفلانى من الكاميرون". انحنى فلان هذا سعيدا بنا– تزايد العدد قليلا. جلست على مقعد من المقاعد حو ل المربع وأنا فى حال بهيج أنسانى كل ثقــل الرصاص الباردااللزج الذى بدأت به رحلتى. أكمل الفتى:"وفلان من غانا"، وانحنى هذا أيــضا وكــدت أنحنى أنا بدورى، وعليكم السلام يارجل يا طيّب. (لم يبق فى سيدنا الحسين، حتى فى رمــضان غيــر القهوة على الناصية البعيدة، هى التى فيها حياة، الباقى خــَفــُتَ حتى مات، حتى حمّص الشام لم يعــد ساخنا لاسعا. لماذا يا مصر؟؟؟ إلى أىن؟ لا تطردينى بالله عليكِ فأنا لا أصلح إلا فيك مهما تغزلت فى غيرك). و"فلان الفلانى من نيجيريا" وإذابفلان الفلانى الأخير هو هو هذا الذى يقدم نفسه، فانثنى ونحن نحييه. الظاهر أننى لم ألتقط تقديمه لنفسه بأنه العبد الفقير إلى الله، خدامكم فلان. أكمل الشاب: وفــلان من الولايات المتحدة، مشيراً إلى الشاب الأبيض) الذى نظر إلى زملائه بامتنان أن ســمحوا لــه بــأن ينتمى إلى هذا اللون الأقوى. ثم إليكم"فلانة" (الشقراء)، لم ألتقط من أين تحديــدا، لــم أســمع تقــديمها تفصيلا. صفقنا من جديد.

بدأوا فى الغناء بكل المكبّرات المميزة، وكأنهم فى مسرح يحضره بضعة ألاف (أصبح عددنا أقل من عشرة جلوس وأكثرقليلا واقفين). تساءلتُ: لمن يغنّى هؤلاء الناس، ومن الذى سيدفع لهم؟ طبعا كففــت

عن المضى فى مسخرة أنهم فى استقبالى وهذا الكلام، كانت أغنية جميلة. لم أفهم كلماتها. كانت شديدة الاختراق. صفقنا بعد أن كدت أهم بالانصراف خشية أن يمرّ علىّ أحدهم بقبعته يطلب المعــلوم فــلا أعطيه ولا أستطيع أن أدارى خجلى، لكنى بقيت وصفقت مرة أخرى، ولم يمرّ علىّ أحد. بــدا علــيهم أنهم فى غاية السعادة أنّهم بسطونا جدّا،"هكذا جدعنة". من أين يأكلون؟ كيف يصرفون؟ ولماذا هنا؟ فى المطار؟ ومن الذى أعد لهم المكان؟ بأى هدف عام أو خاص؟ وأنا مالى، ربّنا مهيئ الأرزاق، وسبحان من غدّى الطيور فى أوكارها، وقبــّضَ موظفى المجالس المحلية مرتباتهم وأنصبتهم من الإكراميــات وهم فى منازلهم، لماذا يا مصر؟ إلى أين؟ إلى متى؟

قبيل وصولنا جنيف شعرنا بمطبات هوائية عنيفة وقال الطيار أننا سنهبط فى خــلال دقيقــة أو أقــل لظروف الجو أو ما أشبه، لكننا لم نهبط، وحمدت الله أن زوجتى ليست معى، فهى لا تحتمــل مطبــات هذه الطائرات الصغيرة، فى حين أغــفــلها أنا تماما وخاصة إذا شغلتنى الأجــواء الدوليــة فأهاجــت شاعريتى المتواضعية التى تنشط بمجرد التواجد بعيدا عن حدود الدول و حدود الناس الذين يحــددون وجودى بطقوسهم.

مازلت أذكرها (زوجتى) بجوارى ونحن راجعون بطائرة صغيرة من أبو سنبل إلى أســوان. كانــت تمسك بذراعى بين الحين والحين وأنا أنظر إليها متسائلا صامتا، ثم أمضى فيما أنا فيه، كنــت أكتــب قصيدة فى"رثاء الفخر" بعد أن شاهدت وجه رمسيس الثانى وسمعت المرشد وهو يحكى كيف أن شعاع الشمس يسقط على وجهه يوم مولده ويوم توليه العرش. شعرت بعظمة هذا الرجل وكرهته، تــساءلت عن حقيقة انتسابى/انتسابنا/انتمائنا إليه، أنا أستطيع أن أنتمى لأى جد، لــيكن. فرحــت أكثــر بعظمــة مهندسيه وتصورت أنهم كانوا يحبونه لا يطيعونه فقط. هل نحتاج دائما لفرعون لكى نحقق المعجــزات ؟

لم نعد نفرز إلا فراعين مزيفين، ومهندسين موظفين. نحن مصرون أن نُفرْعِن من لا يــصلح أصــلا للفرعنة. المصيبة أنه يصدّق، وبالتالى نصدقه. لكن الفَراعين المصنوعة محليا بلاتاريخ هى فــراعين خائبة لا أحد يحترمها،ولا أحد يفخر بها.

مات الفخر وبقى الادعاء. كنت منهمكا فى كتابة"رثاء الفخر" فلم أشعر بالمطبات الهوائية التى تبينــت فيما بعد أنها سبب زعد زوجتى المتقطع لى، بدأت المرثية قائلا:

-1-

يا جّدنا المصلوب زهواً يحصد الزمن .

قد صار محظورا علينا ننقش القلوبَ فوق هامات الحجر .

فى عصرنا هذا أيا جدّى العزيز

لا تطلع الشموس دون إذنْ .

لا يُستباح للكلاب الآثمة ــ أمثالنا ــ أن تسكن العرين.

ما عاد يجرؤ وعينا أن يفخترْ: أنا بشر

وأنهيتها:

-4-

حَبَك الوليدُ دِثــارهُ: كــفنا

وبلا رثاءٍ وسّدُوهُ لحده: مهدا .

كتبو عليه بلا دموع:

"ما عاش منْ لمْ يولدِ" .

حين نزلنا مطار أسوان، وكانت زوجتى قد شبعت فىّ زغرا، وزغدا بلا زغد، وأنا لست هنا، راحــت تلوم الطيار وكأنه مسئول عن مطبات السماء، فلما سألتها عمّا أزعجها، اتهمتنــى ــ دون تــصريح ــ بفقد الإحساس، هذا هو المعنى الذى أستنتجُه أحيانا من تكرار اتهامها لى أن"اللى فى مخى هو اللى فى مخى"، وأننى لا أهتم بما يجرى حولى، وأننى حتى لا أشعر بالحر ولا بــالبرد مثــل النــاس، فمــاذا يعنىنى إن ماتت هى (والركاب) رعبا؟ ولم أحاول أن أدافع عن نفسى فقد تعلمتُ أنــه لا فائــدة مــن الدفاع، علما بأنه لو حدث شئ من الذى فى بالها فسوف لا يستثنينى هذا الشىء، ولن يشفع لى شعرى، ولا نثرى. ولا بلادة شعورى.

حمدت الله أنها ليست معى الآن وإلا تجمدت رعبا. الطيار مازال يدور فى السماء فى انتظــار الإذن، يحاول الطيار أن يطمئن الركاب بأنه سيحاول الهبوط مرة أخرى خلال عشر دقائق تقريبا، ســيحاول؟ لم يقل سنهبط، هل نحن فينا من محاولة؟ لنفرض أنه حاول المرة تلو المرة ولم ينجح، هل نظل معلقين هكذا فى السماء؟ لابد أن زوجتى كانت على حق. لابد أن أخاف، فبحثتُ عنه (عن الخوف) فلم أجــده، ولم أكن ساعتها أكتب شعرا مثل رحلة أبو سمبل. ابتعد الشعر عنى منذ مدة بعد أن ثبت لى أنه لم يكن السبيل الأمثل لتوصيل ما عندى. أنا راجع من استقبال باريسى حافل. استطاع أن يــزيح مــن علــى صدرى ثقل بداية هذه الرحلة. تصورت أن ما حدث فى مطار شارل ديجول هو نوبة إفاقــة واعــدة. فليأت الخوف لأثبت لنفسى، ولزوجتى، أننى أحس. أن الذى فى مخى ليس هو هو الذى فــى مخــى. نظرت إلى الوجوه حولى، ولم أجد على أى منها أية مظاهر للخوف، هى معتادة دائما. دائما معتادة.

هبطنا فى المحاولة الثانية. فى ثوان. فهمت أعمق معنى"الحمد لله على السلامة" .

استلمتُ الحقيبة الوحيدة ووجدت وجها أسمر فى انتظارى، ومعه ورقة مكتوب عليها اســمى، وفــى رقة صحراوية لها طعم آخر رددت: وعليكم السلام، نعم هو أنا، ولكن كيف عرفتَ وجهــى؟ فابتــسم

وردد ماكنت فيه حالا أن: حمدا لله على السلامة، ياه ما أجمل أن تصبح الألفاظ المعتادة لهــا معناهــا الأصلى!! حمل الرجل العربى الأسمر المهذب عنى الحقيبة وأنا خجلان لا أدرى كيف أتــصرّف، أنــا غير متأكد من رتبة سعادة البيك هذا، إذ لابد أنه البيك السائق مادام يتصرّف هكذا بهذه التلقائية والكرم والأدب، وقلت لو حملت حقيبتى كعادتى وقد يظن أننى لست"هو". دعها تمر.

ركبت فى المقعد الخلفى (أمــرٌ آخر لم أعتده، ولكنى التقطت ضرورته لنفس الأسباب) .

كم كنت أعجب من أمر أحد الزملاء الشمجيين (شخص. مهم. جدا.V.I.P.) حين يفعل عكــس ذلــك تماما إذ يصر فى مواكب الموتمرات إياها على ركوب الدرجة الأولى فى الطائرة وحده، وبقية الزملاء فى"السكوندو"، مع أنه ركوب مدفوع الأجر لنا جميعا من شركات الدواء المعنية بإعادة تشكيل أدمغتنــا حسب معادلات الكيمياء الخائبة وحسابات مكاسبها المفترىة. الفضل يرجع عادة لهذا الزميل الــشمجى ذى الاتصالات الواسعة الدسمة، فهو الذى يقوم بمعظم هذه التسهيلات المؤتمراتية، وكذا فإن الوزر يقع عليه فى نتائج غسيل المخ ظاهرا وباطنا، نتائج ذلك على ميزانية وزارة الصحة والتــأمين الــصحى، وعلى جبوب المرضى على حد سواء. كنت أعجب كيف يجرؤ وكيف يستريح هذا الزميل أن يتركنــا وينفصل عنا ليجلس فى مقعد أوسع عشرة سنتيمترات، وكلنا من شركات الدواء ملتمسٌ (غــوْرا علــى المخّ، أو سحقاً لذى القيَم)، ينفصل عنا زميلنا هذا فى حركة طبيعية متعالية، وأنا لا أجرؤ أن أجلس إلا بجوار السائق حتى فى تاكسى القاهرة.

أما هذه المرّة فالحدس هدانى أن أفعل عكس ما اعتدت، ويبدو أن ما فعلته كان فى محله .

داخل السيارة الفخمة راح الكاسيت يغنى أغانى دينية حديثة وليست تواشيح. ما هــذا؟ هــذا صــوت مألوف يغنى؟ بقدرة قادر أغنية دينية لم أسمعها من قبل، سألت البك السائق من هذا الذى يغنى، قــال: عبد الحليم حافظ. نعم هو، يبدو أن المتدينين الجدد، قد جمعوا أغانى كل المطربين الدينية فى أشــرطة دينية. قلت لعلّها ضمن موجة"أسلمة الأغانى" مثل أسلمة التاريخ والجغرافيا والرياضة والطبيعة والطب وغيرها، واستغفرت ربى، ودعوت ألا تعود مسامى للانغلاق بنفس الدرجة التى بدأتُ بها الرحلة حتى أستطيع أن أكمل صلاتى له، وأتمم مراسم عبادتى إياه بطريقتى الخاصة .

الثلاثاء ١٩٩٣/٦/٢٢

استيقظت أقل إقبالا، وبحثت عن أثر الغسيل الذى غسلنى فى مطار باريس فوجدته باقيا، لكنّه لم ينجح أن يزيل كل البقع من على وعيى المتسخ بالسنوات الأخيرة .

يارب ساعدنى أن أواصل ركوب الاضطرار لأجعله اختيارا أغسل به نفسى بفضلك .

يارب أنت أدرى بى، وأنا عندى ما يقال"للناس على الطريق"، احمنى ربى أن أنساق إلى غيــرك، أو أن أخط حرفا إلا لك، إنك سميع بصير.

فاستجاب لى ربى فتاب علىّ .

رسائلى مع الله أسرع من التراسل بالبريد الإلكترونى، أتلقى الاستجابة أحيانا قبل أن أتم الدعاء، وحين تتأخر الاستجابة أتلقى قرص الأذن أوالعتاب.

فجأة، وأنا أتحايل على تلك الولادة المتعسرة للكتاب الثقيل إياه،الكتاب الذى تصنعت أنى سأنجزه فى هذه السفرة لأبرر به قبولى ما لا أرتاح إليه، فجأة وأنا فى بهو الفندق اكتشفت أنها فرصة لأعدِلُ عن كتابته لا لأمضى فيها، أنا لست هو، لست هذا الكتاب، ولستُ مَنْ دفعنى لكتابته لأرد به على ما سيزول وحده لأنه جفاء لا ينفع الناس، اكتشفت أننى لم أكتب ما أرضى عنه إلا إن كان من واقع خبرتى ومرضاىَ وذاتى. أنا لا أكتب إلا نفسى. ليس باعتبارها نفسى وإنما بما هى مَصْدرُ لما يصلنى. كل ما لم يختلط بها يظل مجرد تحصيل حاصل، مهما ملأت به الصفحات. حمدت الله ووصلت إلى عدّة قرارات، يبدو أننى كنت أحتاج إلى هذه السفرة لأصل إليها، أهمها أننى سأكمل هذا الكتاب فى اتجاه عكسى، لا يرضى من طلبه منى. وعليهم هم أن يحددوا إما: أن يقبلوه، يقبلونى، وإما أن أهديه للتاريخ مثل بقية أعمالى. والتاريخ هو وضميره بعد ذلك. شكرا لوهم حكم التاريخ الذى يصبّرنى على المضى هكذا. إلى متى ؟.

الفندق الذى نزلت فيه شديد الهدوء واسع البهو، بسيط التأثيث، راقى الخدمات، سمح لى أن أجتّر آخر ما كنت فيه قبل حضورى إليه .

كنت منذ أكثر من ستة أشهر قد استجبت لبعض أبنائى وطلبتى وغيرهم أن أكون"فى المتناول" مرة أسبوعيا فيما يشبه جلسة الثلاثاء التى كان يعقدها بافلوف، أو جلسة الأربعاء (لست متأكدا من اليوم) التى كان يعقدها فرويد. كنت قد استجبت لهم لأكون"فى المتناول" عصر كل أحد من السادسة إلى الثامنة مساء، فى متناول من يريد أن يقابل هذا العقل المصرى المجرّب المجتهد فى كل ناحية طرقَتْ وعيه. انتظمت هذه الجلسات بلا انقطاع، وأعتقد أنها أثرتنى بقدر رجوت معه استمرارها، ولا أعرف ماذا فعلتْ بهم لقاءآتى هذه على وجه التحديد. لكننا ظللنا نتناول فى هذه الجلسات مسألة الحضارة الغربية أكثر من عشر أسابيع متفرقة، وما إذا كان ثمة وسيلة لتجاوزها، بتقليدها، أو اختراقها، أو خداعها، أو عرض بديل لها، تلك الأسئلة الأبدية التى لا تريد أن تنقطع أبدا، قنديل أم هاشم، موسم الهجرة إلى الشمال، حب فى المنفى، سلاسل التنوير، لم يعد يصلح أن نصدر كتب المنورين مرّة أخرى نبيعها بخمس وعشرين قرشا أو حتى جنهين، نرشو بها شبابا أعمى لا يقرأ ولا يكتب ولا يفكر ولا ينقد.

موسم الهجرة إلى الشمال. عرفت الطيب صالح مصادفة وهو يشارك فى مقيل كنت أحد أفراده، فى بيت أحد الأصدقاء فى صنعاء، ومعنا عبد العزيز المقالح الشاعر الدكتور مدير الجامعة، الصديق

القديم، وآخرون، الطيب صالح يقول إن صنعاء هى روما العرب. هذه الجلسات من العصر إلى المغرب والتى تسمى"المقيل" بلغ عددها فى صنعاء وحدها حوالى عشرة آلاف، إذا ضربت فى متوسط عشرة أفراد لبلغ من يلتقون يوميا مائة ألف، أى مجتمع هذا؟ ديمقراطية أثينا هذه؟ ليست المسألة تخزين قات، أو طق حنك، لكنّه مجتمع يتنبه ويتحدث، هذا هو الجانب الإيجابى الذى سمح لى أن أسمع الطيب صالح وهو يقول قولا فى هذه القضية ــ قضية"نحن والغرب": أين نحن من الحضارة الغربية، وكيف يقيسوننا بمقياسهم فنقيس أنفسنا بمقياسهم، ثم نضع أنفسنا حيث يريدون، كان الطيب صالح يقول إنه إذا سأله أحدهم لماذا يتزوج الواحد منا نحن المسلمين أكثر من امرأة؟ لا يرد عليه أصلا، بل إنه يجيبه"إنت مالك يا أخى"؟ هل اشتكت لك زوجتى الأولى أو الثانية، الخلاصة إن المنطق الذى طرحه الطيب صالح هو حكاية"إنت مالك يا أخى؟؟"، وهذا ما نحتاجه تحديدا فى هذا المنعطف الخطر بيننا وبين الغرب.

نحن مُعَطّلون ليس بسبب أننا كسالى أو متخلفون أو متحجرون فقط، ولكن لأننا نبدأمن حيث لا ينبغى، لنقيس أنفسنا بمقياس وُضع لنا دون اختيار. رحنا نطرح هذه القضية (نحن وأوربا) فى جلسات"الأحد" قبل سفرى، وخاصة أنها كانت أحد وجوه مسألة المد، أو الجزر الدينى كله فى العالم العربى والإسلامى كما زاد وفاض أخيرا. ثم هأنذا أجدنى هكذا فجأة ــ مرة أخرى، دون اختيار ــ وسط الحضارة الغربية، كنت قد كتبت كثيرا أن حوادث القتل والإرهاب عندهم أكثر، وكنت أفخر أن ابنتى تسير فى المقطم وحدها فى الحادية عشر مساء، الأمور اختلفت يا سادتى، قبل سفرى مباشرة وبعد قنبلة شبرا قالت لى ابنتى هذه أنها تحاول أن تتجنب أن تخرج مع زوجها وابنها مجتمعين فى سيارة واحدة حتى إذا انفجرت قنبلة هنا أو هناك مات أحد الوالدين دون الآخر ليربى من يبقى منهما الصغير. أرفض الاستسلام لهذا النوع من الخوف فما زلنا بلد الأمن والطيبة والنبض الإيمانى الطبيعى. هذا وهمى الذى ظللت أكرره أيام الآحاد المتتالية دون ملل، ثم سافرت إليهم من جديد، فكان علىّ أن أعاود النظر.

فعاودت النظر:

هاتفتُ محمد ابنى، أحد أفراد جلسة الأحد، وقلت له شبه مازح إننى أوافق على أن نحذو حذو الحضارة الغربية شريطة أن أرجع وأجدهم قد فعلوها هم دون عون منى، ذلك أن الأطروحة البديلة التى كنت مصرا عليها هو أننى مسلم أتكلم العربية، وبالتالى فأنا أتصور أننى أقرب إلى الفطرة، والفطرة هى أقصر الطرق للدفع إلى الحضارة والتطور، وأن الحضارة الغربية رغم إنجازاتها قد ابتعدت عن الفطرة بما أصبح نذيرا لخطر حقيقى، ونحن أعجز من أن نقلدها، وأقدر من أن نتوقف عندها. كانت هذه هى الأطروحة التى ظل ابنى وأقرانه يعارضوننى فيها قائلين إن الإسلام الذى

أتحدث عنه لم يعد موجودا، وأن أول من سيرفضنى هم المسلمون الذين أحاول أن أجـد لهـم عـذرا ومخرجا ودورا وإضافة، وكنت أصبّر نفسى قائلا: أنا مالى، إنه هو الذى سيحاسبنى مهما كانوا وكنّا.

قال لى إبنى فى الهاتف ـ مازحا أيضا ـ (ومزاحنا هو وأنا دائما جد أكثر من الجد) إنـه وأقرانـه سوف يحققون الحضارة الغربية بطريقة إسلامية !!!. اعتدت مع ابنى هذا أن نتبـادل الأدوار بطريقـة تكاد تكون دورية، يناقشنى حتى ليبدو أنه لا مجال لكلينا للاقتناع برأى الآخر، ثم يترك بعضنا بعـضا فنلتقى فأقول له أننى عاودت النظر ويبدو أن عنده بعض الحق، وإذا به قد عاود النظـر هـو أيـضا وذهب إلى الطرف الآخر حتى تبيّنَ هو أننى كنت على حق. حين ابتعد إبنى لعام وبعض عام مهـاجرا إلى نيوزيلاندا كتب لصديق له أننى كنت على حق ليس بالنسبة لرأيى فـى هجرتـه، ولكـن بالنـسبة للحضارة الغربية، وكان أكثر أمانة حين أضاف، ومع ذلك فلا يبدو له (ولا لى) بديل محتمل فى الأفق القريب. حوارى معه يترك شيئا مختلفا فى كلينا، لكن أحدا منا لا يذهب إلى حيث كان الآخـر تمامـا. كل منا يجد له بعد الحوار مكانا جديدا، أقرب أو أبعد أو على جنب من حيث كان قبلا، حركـة عقليـة دالة لعلها تعنى شيئا حقيقيا. (هذا نوع من الحوار بينى وبينه غير الحوار الذى أشرت إليـه فـى أول الفصل، وكلٌ معلّق خنجره المعقوف فى جانب حزامه).

الساعة الثانية وعشر دقائق (نفس اليوم) .

ذهبت إلى المطعم فى الفندق"الذى هو"، قال لى الرجل المسئول المجلجل (الظريف المهـذب الـذى لا عيب فيه Genetleman) إن الميعاد انتهى، وكان علىّ أن أحضر قبل الثانية، ومع ذلك أحضرَ لـى مـا تيسر مما لا أعرف. هكذا الانضباط يا رجال. المطعم خالٍ تماما، اختفت شهيتى فجأة، ذلـك أننـى لا أذهب للمطاعم عادة لآكل ولكن لأجلس مع الناس، مع أنى لا أجالس أفراد عائلتى للأكل معا إلا نادرا.

مواعيد الطعام شديدة الانضباط عند الأجانب، الفرنسيون يتناولون غـداءهم الـساعة الثانيـة عـشر بالثانية .

حين كنت أعمل مع بيير برينتى صديقى الحقيقى الذى يحل فى وعيى قارئا مواكبا لأغلب مـا أكتـب رغم أننا لم نلتق خلال الربع قرن الماضى إلا مرة واحدة، حين كنت أعمل معه فى مستشفى سانت آن فى باريس كان يقوم ملسوعا فجأة إذا انتصف النهار، ثم يمضى جادا ومسرعا وكأن أمرا ذا بال سوف يفوته، ماذا وإلا..، فأفزعُ لفزعه، وأصحبه لاهثا (من داخل)، فيلقى بى فى الشارع على أقرب ناصـية توصلنى إلى المترو، ليمضى إلى غدائه فى منتصف النهار وكأنه أذان مغرب رمضان، لم أعرف سـر لهفته هذه إلا حين دعانى للغداء معه فى بيته ذات يوم فاكتشفت أن كل هذه الانطلاقة واللهفـة والجـد كانت لتناول الغداء مع أسرته فى الميعاد تماما (منتصف النهار تحديدا)،. ياصلاة النبى. أنـا انقطعـت صلتى بأولادى أو كادت نتيجة لسوء عادات ومواعيد أكلى. أكتشف أننى بعاداتى القبيحة هذه لم أتبـيّنّ

ما للأكل من وظيفة اجتماعية غير أن نــُســْكت جوعا أو نملأ بطنا، أنا آكل عادة وأنا أسـير، وأنـا أعمل، وأنا نائم، آكلُ وحدى، حتى لو كنت معهم!!

"الأكل معا" وظيفة اجتماعية فى الحضارة الغربية.

هو كذلك أيضا فى عمق ريف بلدنا، من هذا ما وصلنى ولم أتبين عمق معنـاه منـذ كنـت أشـارك الفلاحين غذاءهم على رأس الحقل. كان أحدهم ينادى على الآخر أن يحـضر منديلـه ويـشارك فـى عمل"غدّيوة"، يحضر الآخر فيدعوه الداعى أن ينتظم فى دائرة الغداء، يقول له وهـو يهـم بـالجلوس أن"يحب" (والحبّ عند الفلاحين هو الاقتراب، وهو أدق تعريف للحب الناضج بديلا عمّـا شـاع مـن معانى العشق وموت المحبين بعضهم فى بعض ،(يقول الفلاح عندنا،"حب يا راجل شـوية خـد فـلان جنبك"، أى اقترب من جارك حتى يتسع المكان لثالث ورابع وهكذا، ويحقق تنـاول الطعـام وظيفتـه الاجتماعية.

الأربعاء ١٩٩٣/٦/٢٣

عرض علىّ سكرتير مضيفتى أن أذهب إلى لوزان أو جنيف فى وقت فراغى صباح اليـوم التـالى. اعتذرت. لا أعرف وقت فراغى من وقت عملى. فضّلت أن أعكف على الكتابة إياها، خاصة بعـد أن استرددت حقى أن أكتب لى، وليس لهم .

فضّلت الحبس الاختيارى فى هذا المكان المريح على شاطئ بحيرة ليمان.

تشرق الشمس فأرى شعاعها من حجرتى وهى تضئ ما يشبه الكهف الممتد إلى غور الجبل، وكـأن النور يخرج من هذا الكهف وليس مجرد انعكاس شعاع قادم إليه،

أنعم الله علىّ فى بلدنا بفرص الإقامة بعض الوقت أمام أجمل ثلاث مناظر فى العالم، فى الإسـكندرية والعلمين ورأس الحكمة، (ومؤخرا فى دهب فى جنوب سيناء). أقر أننى لم أر بحرا أجمل مـن بحـر رأس الحكمة إلا فى شمال شرق أسبانيا (سان سباستيان)، حيث اقتطع الجبل جزءا من المحـيط كأنـه قضم قضمة فاستطعمها فلم يبلعها خشية أن يذهب طعمها، فأحاط بها وجعلها شاطئا فى لون الزبرجـد (طبعا أنا لا أعرف ما هو الزبرجد ولا مالونه، لكننى متأكد أن البحر هناك كان فى لون الزبرجد) ولم أجد هذا اللون إلا فى سيدى عبد الرحمن الذى أصبحتُ جاره فى مارينا العلمين ــ ثم فى رأس الحكمة ــ وكلما رحت هنا أو هناك تذكرت ناسى الذين لا يستطيعون الانتقال إلى مركـز قـريتهم إلا بالـشئ الفلانى، لكننى فى نفس الوقت لا أتصور أن يظل المكان كما هو إذاهم شاركونى فيه، من منهم يمكـن أن يحافظ على مثل هذا الجمال؟ متى أحل هذا التناقض؟ كان إذا حضرت مجموعة من العمـال مـن معسكرهم الصيفى فى مرسى مطروح لقضاء يوم فى رأس الحكمة فى مواجهة بيتى مباشرة، بـالقرب من استراحة الريس، يتركون مخلفات أظل أجمع فيها أسبوعا، وكأنى المسئول عن نظافة الشاطئ كله.

(تغيّر الأمر وحرم الجميع من رأس الحكمة بعد أن أزيلت بنايات كثيرة، من بينها بيتى هناك، أزيل كل شئ رغم أنف القانون، لأسباب أمنية وكلام لا يُذكر أصلا لأنه يتعلّق بـــالأمن والرياسـة والرفاهيـة والقانون الذى لا ينفذ وغير ذلك).

المهم كانت الشمس هنا، فى مونتريه، تشرق على الجبل وتغيب فيه، وأنا أرصـدها طـول النهـار، فضلت أن تكون حركتى مع الشمس جالسا، أبقى فى الفندق وأرتحل مع الشمس مـن الـشروق إلـى الغروب. هى التى تقوم بدورتى نيابة عنى، هذا ترحال آخر .

حين يجتمع الجبل والبحر فى إيقاعهما الدائرى بالتبادل، أجدنى أقرب إليه، إلىّ.

تسألنى يا محمد يا ابنى أنت وأصدقاؤك: كيف؟ كيف أحقق المعادلة الصعبة بين إسلامى، وإنجـازات الغرب، وحلم الفطرة؟ أنا مالى كيف، ثم ما الذى قفز بك الآن يا محمد إلى وعيى هكذا لتوقـف سـيل دعواتى وأحلامى، أليس من حقى أن أحلم حتى وأنا متقوقع فى هذه الغربة المختارة اضطرارا؟ طظ يا أخى، ليس عندى إجابة، وسأظل أحلم إلى أن أجدها، وإن لم أجدها فأنا لست ملزما يا أخى، الـله.!!!!

" حاكْتبها وان ماكتبتهاش أنا حر، الطير ما هوش ملزوم بالزقزقة". طيب يا صلاح يا جاهين،تعملهـا وتتركنا هكذا؟

ظللت فى الفندق أتحرك جالسا بين الشروق والغروب، كنت محتاجا لهذا تماما وتحديدا، الآن، بالذات: الآن، ثم تقول لى صُدَفَة واضطرارا.

أى صدفة هذه التى تجعلنى أحصل على ما أنا محتاج إليه تماما وكأنه مقاس بجزء من المليمتـر؟ أى صدف تلك التى تسمح لى بهذه الجلسة الآن وهذا التدفق وهذه الاستعادة وهذا الحساب؟

لو قالوا لى ما الذى ينقذك مما أنت فيه طوال الثلاث سنوات الماضية لما جرؤت أن أحلم لأقول: هو ما أنا فيه الآن، ولا كان عندى من القدرة ما يسمح لى أن أرسم الوقت، والوحدة، والمنظر، والصمت، والنظام. كل ذلك هو الذى يتيح لى الآن أن أتنفس بهدوء هكذا، أنا ــ مثل عُمرَ حفيدى ــ أحب طعـم هذا الهواء، طعم هذا الذى يحمله هذا الهواء الذى هو هو بلا إسم، هو همس متسحّب يلمس ولا يجذب، يُفـسح الطريق إلى كل ما هو وسع كرسيه السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، نعم هو ذلك الذى هو ليس كمثله شىء، هو الذى كل يوم هو فى شان، هذه هى الأسماء تحضرنى أكثر من سواها.

حضرالسائق. لا يا سيّدى، شكرا. لن أنزل لا إلى جنيف ولا إلى لوزان، أجّلها للغد. بل لأجـل غيـر مسمّى .

أخذت بعضى – من ورائه – بعد الظهر ونزلت وحدى، ناسيا أو متناسيا حكاية ركبتىّ وما أصابهما، متعشما فى وجه الله خيرا، لبست حذاء المشى وتوجهت خارج الفندق للمرة الثانية، بصراحة: المـــرة

الأولى لا تُحسب لأنها لم تستغرق سوى دقائق، كنت أتأكد خلالها أننى فى مدينة فيهــا نــاس بحــق، ولست فى مكان آخر فيه نوع آخر من البشر. نزلت على الدرج المجاور للفندق حتى شاطئ البحيرة،

"مونتريه"، بلد لها قصة مع الوفد المصرى، كنت قد زرتها من قبل مع سيدة مصرية فاضلة أصــرت أن ترينى إياها وأن تذكرّنى بأن النحاس باشا قد حضر فيها مؤتمرا لست أدرى ماذا، لعله كــان زمــن الحرب العالمية الثانية،

نزلت إلى شاطئ البحيرة، وهات يا مشى، ساعة ساعتين، أبحث عن آلام ركبى فلا أجدها. كنت قــد اعتبرت نفسى مُقعدا منذ أصاب غضاريف ركبى ما أصابها. استأصلتُ جزءاً من أحــد الغــضروفين بعملية جراحية، والركبة الأخرى صبرت على ما أصابها حتى خفّ الألم دون جراحة، لكــن الإعاقــة هى الإعاقة. أيامها توجهت إلى ربى عاتبا، فى عشم والله العظيم، قلت له: إن الناس تعمــل بعقلهــا أو بيدها وأنا أعمل بساقىّ. أنا أعالج مرضاى يا رب بساقىّ، مثلما أعالجهم بعقلى أو علمــى، أنــا أسـير بجوارهم، أعدو معهم، ألعب معهم ما لا أعرفه، فلمَ أصبتنى فى أداة أكــل عيــشى وبعــض وســائل تفكيرى، بل إننى يارب ــ وأنت خير الشاهدين ــ قد وصلت لأحسن ما وصــلت إليــه فــى فكــرى وتنظيرى وأنا فى حالة"عَدْوٍ خّلاق"، إن صح التعبير.

حين كنت أكتب نظريتى فى الإبداع والأحلام والإيقاع الحيوى كنت أحمل الفكرة وهى على طــرف القلم يريد أن يطلقها، فتتعسّر أن تجد الصيغة التى تحتويها، فأنطلق أعدو ســائلا الله الفــرج، دون أن أفكّر فيها بشكل مباشر (طبعا)، أعرق وأعدو، ثم أعرق وأعدو، حتى إذا رجعــت واســتحممت بمــاء أقرب إلى السخونة منه إلى الدفء، وأمسكت بقلمى انساب يقول ما كنت أبحث عنه بعد أن انزاح مــا كان يعوقه، وأحيانا كانت تضيئنى الفكرة حين يبدأ العرق يتصبب منى، ما علاقة هذا بذاك؟ لا أعرف،

لم ياربّ حرمتنى من هذا؟ ألستَ خيرالعارفين أننى اكتشفت علاقة الفكر بالجسد من خــلال ســاقىّ وهما يجاوران مرضاى. فنتعتع ما لا يتتعتع من أفكارنا المتصلبة. ونستقبل شمسك وهى تــشرق فــى وجداننا فتحل بجلالك فى وعينا. قبل أن نغنى لها وهى تطل علينا من مشرقك لتذيب شــمس الــداخل التى أظلمتْها وجمّدتها أفكارنا المتصلبة.

نحن نشرق مع الشمس ونغرب معها لنشرق من جديد، لمَ نسيناها حتى لم يبق بين جنبينــا، إلا تلــك الكتل من الظلام المكدسة خلف أبواب الوصاية والتأويل .

لمَ – يارب– ركبتاىَ بالذات؟

لم أكن أعلم أنها رسالة السن قد أرسلها ربى إلىّ عن طريق ركبتى لأعيد ترتيب أوراقــى، فرحــت أتعلّم العوم وأنا أقترب من الستين، ونجحت بعناد شديد.

تعلمت العوم، ثم تعلمت التفكير أثناء العوم، ثم الآن أقرأ وردى وأنا عائم .

اهتديت أثناء عومى إلى فكرة أن كل واحد منّا"نصٌّ" يحتاج أن يُقرأ، وأن يُنقد، وأن النصوص الإلهية نزلت لنستلهمها لا لنفسرها، وأنها تطلق فطرتنا لا تفرض عليها ما ليس منها .

(من هذا المنطلق قرأت استلهاما بعض مواقف النقرى، وصدر الكتاب أخيرا أكتوبر ٢٠٠٠ اشترك معى فيه صديق تلميذ انجيلى بمثابة قس. كانت تجربة رائعة بالنسبة لكلينا. ربنا يستر).

نسيت أن أحضر معى فى هذه الرحلة لباس العوم. أنا كنت فى ماذا أم ماذا؟ وحمدت الله على هذا النسيان لأننى أحتاج لوقت ساكن أعيد فيه النظر، غير أنى أحتاج أيضا لحركة عضلات تساعدنى على الوعى"بكلّى" بشكل أعرفه ويعرفه من أنعم الله عليه أن يفكر بجسده معا.

توكلت على الله، وهات يامشى، ساعة، ساعتين، خط السكة الحديد يفصل المدينة عن البحيرة، يعبر الجبل، محطة صغيرة للقطار على الجانب الآخر، قررت أن أعبر إليها لأختصر المسافة وأرجع قبل أن تحتج ركبتاى. الصبيان والفتيات (حول العاشرة) فزعوا وتصايحوا حين شاهدونى أهم بالنزول للعبور فوق القضبان، ما هذا ؟ هل تصورت أننى أعبرقضيب قطرالدلتا المنفرد والقطار لا يأتى كل عدة ساعات إذا أتى أصلا؟ هل أنا الأستاذ ورئيس القسم الذى حضر إلى سويسرا بصفته هذه؟ لوّحت للفتيات والصبية وكأنى كنت أمزح، اللافتة التى تقول ممنوع تسد عين الشمس، كيف لم ألاحظها؟ منذ متى ونحن نقرأ اللافتات أو نلاحظها؟ منذ متى ونحن –فى بلدنا– ننقد ما هو مكتوب على اللافتة أو غير اللافتة ؟ طبعا ممنوع وهل هذا الأمر يحتاج إلى لافتة؟ لكنها شطارة أهل بلدنا،رحم الله صالح أفندى ناظر المحطة وسعد افندى الأشرجى، كانا مسيحين طيبين جدا، أحببتهما بجد، ومازلت.

واصلت سيرى حتى وجدت جسرا علويا طبعا. عدت راجعا من الطريق العام بعيدا عن شاطئ البحيرة. سألت عن الفندق رغم أننى أعرف الطريق إليه مائة فى المائة، مجرد أن تسير فى عكس الاتجاه تصل، لكننى أحب سؤال الخواجات حتى عما أعرف، كل من أسأله يقف، ولا يخاف منى رغم شكلى العربى وغرابة عـرَقى وبلاء حذائى. كل من أسأله يقف، ويستدير، ويجيب، وينتظر حتى يطمئن أننى فهمت. هؤلاء هم ممثلوا الحضارة الغربية جنبا إلى جنب مع حاملى المطاوى وشاقى الجيوب ورؤساء الدول، لا بد أن آخذ الصفقة على بعضها. تحيا الرقة الغربية. تحيا الدماثة السويسرية.

نظرت فى ساعتى فوجدت أننى مشيت ساعتين ونصف ساعة، الأمر الذى لم أفعله منذ سنوات، منذ أن أصاب ركبتى ما أصابهما. بحثت عن الألم الذى اعتدته، والذى خفت منه، فلم أجد له أثرا. هل شفيت؟ ضمور الغضاريف هذا لا يشفى، هذا حَكم السن، هكذا قال لى الأطباء والجراحون معا، إذن ما الذى حدث؟

الذى حدث هو أن الرسالة الآن اتضحتْ، وهى أن هذه الرحلة ليست بالصدفة كما تـصورت، وهـى ليست رغما عنى كما زعمت، هى رسالة موجّهة، إما أن أحسن الاستماع إليها، وإما ما لست أدرى — لم تشفَ ركبى لكننى مشيت ساعتين ونصف ساعة دون ألم، آخر مرة تجرأت على المشى فيها كانـت ربع ساعة.

أليس معنى هذا أن الله سبحانه يبلغنى أنه ينبغى علىّ ألا أكون إلا كما صنعنى،

وألا أكتب إلا ما أعتقد وألا أقلد غيرى، وألا أخاف من فقر أو فشل، وألا ألـقـى معاذيرى...،

وألا وألا.وألا.. كنت ما زلت أنوى أن أكتب ذلك الكتاب الثقيل، أو الذى كان ثقيلا، وكان من بين ما وصلت إليه هو شرح عرَض يقال له"ضلال التأويل"Delusional Misinterpetation، وهو هذا النوع من الضلالات التى يكـتشف المريض فجأة من خلالها دلالات يقينية على غير أساس أصلا، نتيجة لتأويله الخاص جدا لبعض أحداث الحياة العادية. أليس تأويلى لما حدث من مشى دون ألم هكذا،بأنه رسالة من ربى أن كذا وكيت، وألا وألا..، ألا ينطبق عليه هذا التعريف تماما؟ هل يعنى أنـى مـشيت سـاعتين ونصف ساعة دون ألم على الرغم من ضمور غضاريف ركبتىّ وتعرية الأعصاب حولها أننى أحمـل رسالة خاصة من ربى؟؟ هل أصابنى مثل ما أصف به مرضاى؟

هذا التفسير الخاص جدا بدلالات رضى الله سبحانه هو أمر طيّب ومفيد. لكننى حين أضـعه بجـوار مآسى العالم، والمجاعات، وتشريد الأطفال أنتبه أن المسألة فيها حسابات أخـرى لا أعرفهـا، وأن الله سبحانه ليس متفرغا لأمثالى على حساب كل هؤلاء البشر. أستغفره ولا أزيد.

ليكن كل ما قلته ليس له أساس من الصحة، لكننى سأجعله صحيحا بما أفعل الآن وما أقرر. فقـررتُ أن تمتد الإجازة لغير ما سبب إلا أن أكمل انتهاز هذه الفرصة، فأجعل وجودى المنفرد هكذا لهذه الفترة هو ركنى إياه، لكنه ركن وسط الناس، ركن سرى، وسوف يريد هو ما أريد.

أليس له عباد إذا أرادوا أراد؟ لا يا شيخ؟ .!!!

الخميس ١٩٩٣/٦/٢٤

صدر أمر الإفراج المؤقت من هذا السجن الرائع الذى دخلته بمحض إرادتى بعد أن استسلمت لحكـم الصدفة وقهر الاضطرار، أنا الذى أفرجت عن نفسى. كنت قد طلبت من السائق منذ أمس أن يصحبنى إلى لوزان، وجنيف فى التاسعة صباحا، لكنّه رجانى أن يكون ذلك فى الحادية عشرة حيـث يبـدو أن يومه يبدأ متأخرا، هو نفس؛ البيه" السائق الذى صحبنى من المطار وغمرنى بالأغانى الدينيـة تهـذيبا وإصلاحا. منعت نفسى من أى افتراضات تفسر سهره. وافقت على الساعة الحادية عشرة. سألته عـن الوقت الذى تستغرقه المسافة إلى جنيف فقال أكثر من ساعة (وهذا غير صحيح حسب رحلة المجـئ، وكما ثبت بعد ذلك). استنتجت أنه يعزف عن تكبد مشقة المشوار والانتظار. أخلاق العرب تغزو بـلاد

الخواجات. فعدلتُ عن الذهاب أصلا. حولتُ وجهتى إلى وسط المدينة هنا. لا لوزان ولا جنيف. هنـــا فى مونتريه.

كل أوساط المدن مثل بعضها. كل الفنادق الفخمة مثل بعضها. فلا داعى للترحال لمجرد ذكر الأسماء المألوفة عند الرجوع. أخذنى السائق إلى وسط المدينة، وإذا بى أكتشف أنه لايبعـد سـوى عـشرات الأمتار، ياساتر يا ربب، فلماذا هذا الإزعاج والسائق والعربة؟ فصرفته. فضلت أن أكون حرّا.

كنت قد أخذت ـــ دون داع ـــ قرصا مسكنا أستبق به حدوث الألم، حتى لا تتدخل آلام ركبتـي فـي تجوالى المحتمل، لم هذا؟ هل أشك فى رضا الله؟ لم أحتمل السوق. ليس لى أى رغبة فـي التـسوق، عادى. لستُ مدينا لأحد، كل شئ هنا (مثل كل الأسواق !!) هو فى أوكـازيون دائـم طـول الوقـت، مصيبة هذا العالم أنه ينتج. أولا ثم يبحث عن تصريف ما أنـتج. بـل إنـه يخلّـق غرائـز شـرائية واستهلاكية ورفاهيتية (!) لتصريف ما أنتج، !!).

على الأقل هم يستهلكون ما ينتجون، أما نحن !! نحن نتقدم حثيثا نحو التخلف العملاق. ننتقـل مـن التخلف المتراخى إلى التخلف المترهل .

الرحالة الحقيقى هو من يعلق حقيبة الظهر ويضع الحذاء المطاط فى قدميه، ثم خذ عندك: بلد تـشيله، وبلد تحطّه؟ هو بهذا المنظر إذا تسوّق يصبح حمّالا لا رحالة .

ها أنذا الآن حرّ لا أشترى شيئا أصلا، اللهم إلا بطاقة مصورة تذكرنى بالمكان، لكننى أصدر قـرارا بشراء خوذة، ومطواة بها ملعقة وشوكة معا يمكن فصلهما فى الرحلات. ذلك أننـي بعـد أن أصـاب ركبتى ما أصابهما قررت أن أقتنى" موتوسيكلا" فى هذه السن و أنا أشغل هذه الوظيفة. اشتريته فعـلا قبل سفرى مباشرة. كانت الفكرة قد جاءتنى بعد ما وصلنى معنى"الموتوسيكلات" وأنا فى الطريق مـن اليونان إلى يوغسلافيا. لما صار العوم هو النشاط الآمن الممكن لم يحقق لـي العـوم هـذا الـشعور بالاختراق، خاصة وأنا أعوم مغمض العينين أسبح الله. جاءتنى فكرة أن أستعيض بالموتو (وهـذا هـو الإسم الفرنسى، وهو اختصار جيّد وسهل نطقه بالعربية) عن الجرى. كأننى بذلك أستعيد هذا الـشعور الذى حُرمت منه وأنا أخترق ـــ عدوا ـــ طبقات الجو أمامى، فأخترق بالتالى طبقات الوعى داخلى. لم أصرح لأحد بتفسير شرائى للموتو، سألت عن غطاء للرأس خاص براكبى هـذه الموتوهـات، فـدلنى أحدهم إليه على الخريطة. قررت تأجيل كل شئ لـلغد حين أعاود التجوال على قدميّ فى سرية حرة.

تعلّمت أن أذهب إلى مطعم الفندق فى منتصف الوقت المحدد تماما حتى أتجنب نظرات رجل المطعم، الرجل المجلجل الذى لاعيب فيه، كانت الساعة الثامنة حين دخلت، فإذا المطعم على آخره. قلت لنفسى بحسرة، هاهى السياحة عندهم تسترد صحتها، العقبى لنا. انتظرت بالباب. الأدب فضلوه عـن الأكـل. حضر إلىّ الرجل المجلجل الذى لا عيب فيه، ووجهنى إلى حيث ينبغى أن أجلس. الجلوس فى مطاعم

هؤلاء الناس ليس كما تشاء، ولكن كما يشاؤون هم. بعض المناضد عليها كروت، وبعضها لا تفهم ماذا، وبعضها أيضا لا تفهم ماذا (غير الأولى) ــ فتوجّهتُ حيث وجّهنى. حشرنى البيك المجلجل بين منضدتين، وجدت على يمينى امرأة"فاضلة"، ومعها ابنها ــ فى الأغلب ــ ذى الأربعة عشر عاما تقريبا. هو بدين بدانة جعلتنى أتصور أنه جاء إلى هذا الفندق الذى بدأت أدرك أنه فندق للاستشفاء أساسا. أخيراً فهمت أننى فى مركز صحّى مُفَنْدَق، وكله مكسب. لا بد أن هذا الصبى البدين جاء من بعيد لينقص وزنه، وكأنك لكى تمتنع عن الطعام، لابد وأن تقطع مئات الأميال وتغيّر محل الإقامة!! كل واحد حر"بنقوده" يعمل ما بدا له ــ أنا مالى؟!

على اليسار وجدتها: امرأة فى حوالى الأربعين جامدة الوجه بشكل يكاد يكون متصلبا. تبدو كأنها تجمدت على حزن دفين، هكذا قدّرتُ رغم خلو وجهها من أى تعبير. غلبتنى صنعتى، فقررت أن طبقة ما تحت الجلد تحتوى ما وصفته من حزن متقلص. كنت قد لاحظتها أثناء الوجبات السابقة وهى جالسة فى مواجهتى. ولا حظت رعشة شديدة فى يدها وهى تصب من زجاجة المياه المعدنية الكبيرة جرعة فجرعة بنفس الرعشة القاسية العاجزة المثابرة. وغلبت علىّ مهنتى أكثر فرجّحت أن هذا من أثِر بعض أدويتنا المهدئة الجسيمة نعم تلك النيورولبتات (Neuroleptics) القبيحة التى تقوم باللازم وهى تعالج ظاهر الأعراض وهى فى نفس الوقت تكتم على نفس نبض الوجود. نحن الأطباء لانرى من هذا التصلب إلى جمود العضلات الظاهر الذى قلب وجه هذه السيدة إلى تمثال لفرانكشتينة مقهورة. أحاول أن أنسلخ من هذا التفكير شبه العلمى، لكننى تذكرت أن شعورى هذا نحوها كان قد بدأ منذ أمس. هى تجلس بعيدا عنى فى مواجهتى. طنبلتُ (= طنّشت!) أمس، ونجحت ألا أفسر وأحلل، لكننى حين حشرنى النادل هكذا بينها وبين فتاها"المكلبظ" هذا، اضطررت إلى الانتقام منه بهذا التفكير المغيظ.

الخدمة فى هذه المطاعم بطيئة بطئا مقصودا، ويد السيدة بجوارى تنقل المياة المعدنية من الزجاجة الكبيرة إلى الكوب جرعة فجرعة بانتظام كأنه اللزمان .Stereotypy لم أستطع أن أقاوم: فجأة أحسست أنى أكاد أفعل مثلها، بل إنى تصورت أن يدى تكاد ترتعش مثل يدها وأنا أفرغ الكوب. فزعت. أحسست بعضلاتى تكاد تتصلب مثلها، وتذكرت أعراضا من أعراض مرضانا تقول أن ما أنا به هو أشبه بصدى الحركة Echolalia حيث يعمل المريض نفس الحركة التى تُعمل أمامه، الله..الله!! ما هى الحكاية؟ مرّة أتصوّر أن تفكيرى هو يقين ضلالى، ومرّة أكاد أقلّد امرأة متصلّبة مرتعشة وكأن حركاتى صدى لحركاتها، هل أصبت بمرض من أمراض المهنة؟ عذرت زملائى الذين يمارسون الطب النفسى"من الظاهر". قلت إن معهم كل الحق فهم يحمون أنفسهم من رؤية مرضاهم. ومما أنا فيه الآن. بأن يعتنقوا نظريات كيميائية، وأن يغرقوا مرضاهم بفيض كيميائى يرحمهم من أن يروا وجه الشبه بينهم وبين مرضاهم. ماعلينا. لم أستطع أن أستمر مختنقا بين الصبى البدين، والمرأة المتخشبة

فقمت طالبا من النادل المجلجل، أنه إما أن يبحث لى عن مكان آخر، أو أن أنتظر فى البهو حتى يجد لى مكانا آخر، وبترحيب شديد، ودون أى تساؤل عن السبب أو احتجاج أو انتظار، وافق على أن أنتظر فى البهو، وقد كان. بعد دقائق نادانى حيث أجلسنى فى مكان رحب فى مواجهة الجبل وهو يحيط بالبحيرة مثلما يحيط الأب كتف ابنته ذات الخمسة عشر ربيعا بذراعه العارى القوى العضلات الملئ بالشعر.

لكل شئ إذا ما تم نقصان. تمّت الحضارة الغربية على أكمل وجه وأخفاه، الجلوس بالترتيب، والنظام بالمليمتر، والاعتراض مسموح به، والتباديل والتوافيق ممكنة، والصبى السمين سمين، والأدوية المصلـِّبة على أذنه، والمرأة متخشبة مرتعشة بملء إرادتها الغربية الحرة، وصاحبكم يوحد الله ويحمده أن استطاع أن يمشى أمس ساعتين ونصف ساعة.

الجمعة ١٩٩٣/٦/٢٥

الفجر هنا أوسع ،

لست أدرى كيف، فأنا فى هذه الأيام التى رضيت فيها أن تكون حركتى مثل عبّاد الشمس (اللهم إلا من تجربة المشى أمس الأول) توثقت علاقتى بكل أطياف السماء والأرض والبحيرة، طيف الفجر وطيف الشفق، طيف الكهف وطيف الجبل، فى هذه الأيام المـُشـَرْنقـَة عشت فى المساحة بين الخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر، حين كنت صغيرا أحاول الصيام من سن السادسة، وأفخر به، وأهرب منه، وأتصنّعه، كدت أمسك بخيط أسود وخيط أبيض فى الظلام لأسمح لنفسى أن آكل وأشرب حتى أتبين الفرق بينهما. كان يؤرقنى حرف"من" فى قوله تعالى".. من الفجر"، لماذا"من"؟

علاقتى ببعض ألفاظ القرآن علاقة عيانية مباشرة. أول ما سمعت أبى وهو يقرأ"يا يحيى خذ الكتاب بقوّة"،- كنت طفلا فى الرابعة -. رحت آخذ منه المصحف مستجمعا قوّتى مثلما يثنى حفيدى الآن ذراعه ويشد على عضلاته قائلا" شوف أنا قوى ازاى". ضحك" والدى وربـّت على كتفىْ، ونادرا ما كان يفعلها.

دائما أقول إن التربيت أفضل من إسهال القبل التى نـُغرق بها الأطفال حتى نغمس وجوههم فى عسل صناعى. والحضن الصامت الذى يوصل نبضات القلب ويسمح بإحاطة دفء الصدر أن ينساب دون حاجز ودون إذن هو الأفضل من الاثنين. أقول إننى هنا، وأنا أعيش فى هذه المساحة الممتدة من الفجر، أشرق مع الشروق ولا أغرب مع الغروب، وأتذكر بيتا الشعر اللذان كان يرددهما أبى عن الشمس بين تبلج وتفرج، ووجه الحسناء التى كملت محاسنها ولم تتزوج، هذه الصورة اهتزت حديثا، فالبنات لا يتزوجن إلا قرب التعنس، هذا إذا تزوجن أصلا، تـُرى هل هذا العزوف يفسر حلّ الاستكفاء الذاتى أو الاستغناء النسوى محل الرجال"الأىْ كلام".

حين كنت عند صديقة زوجتى الاسبانية"كامينو" فى ألكالا (القلعة) إحدى ضواحى مدريد، انطلقت هذه الصديقة تعطينا درسا فى فائدة عدم الزواج للبنات خاصّة، طبعا لم أفهم، ولكن يبدو أن ابنتى فهمتْ، والحمد لله أنها لم تقتنع بما فهمتْ إلا مدة محدودة، تلكأت ابنتى هذه كثيرا فى استقبال رسائل العرض حتى رُعبتُ من احتمال فوتها القطار، لكن الله سلم. كانت هذه الصديقة الأسبانية تصيح وهى لا تكف عن الكلام: لماذا؟ لماذا يتزوج البنات ويفقدن حريتهم؟ لم تكن تعنى تحديدا أى شئ مِن الذى يخطر ببالك الآن، لكنّها كانت تقفز صائحة كلما ذُكرت سيرة الزواج كمن لدغتها عقرب فى مكان حسّاس.

فى هذا الجو هنا فى مونتريه، بدت لى الطبيعة مساحة مجسدة، هذا الفجرالممتد أتجول فيه ــ جالسا ــ هو لا يمرّ بى، بل أنا الذى أتجول فيه. أتجول فى الفجر وأتبين الخيط الأبيض من الأسود منه. هذا التشرنق الحالى الذى لم أعهده من قبل فى رحلاتى السريعة الإيقاع كان فجرا خالصا. الركن الذى كنت أسعى إليه دائما أبدا ثبت أنه موجود بداخلى طول الوقت، أستطيع أن أنصبه وسط أى زحام، أدخله فى جوف الليل أوفى عز الظهر، حين يطلع علىّ الفجر ولا أريد أن أغادره أستعى الليل إلى داخله، حتى طلوع الشمس لا يستطع أن يقتحمه. ياه !! فلماذا كان كل ذلك الإلحاح من قبل.هل الحل هو أن يعثر كل منا على ركنه بداخله ليطمئن أنه يمكن أن"يكون" وسط كل الناس دون أن يقتحمه أحد دون إذن.

أكتشف أيضا أن الفجر أحلى من الشروق.

كانت شرفتى على شاطئ هذه البحيرة فى حضن الجبل فجرا خالصا .

قام التليفزيون داخل الحجرة بالواجب فى نقل العالم، كل العالم، إلىّ، والإرسال المحلى فى سويسرا باللغات الثلاث، حسب التنويعات العرقية الثلاث، وأنا أحب أن أشاهد الصور الملونة فى التليفزيون أكثر من الاستماع للكلام، حتى فى مصر، وبلغتى الجميلة، يؤنسنى فى رحلتى الأسبوعية إلى مارينا أو الإسكندرية أن أفتح التليفزيون على أى صور ملونة تتحرك، ثم أنطلق فى الكتابة أو القراءة دون أن أسمع شيئآ. تكفى الصور الملونة، بل إنهم بعد اختراع ما يسمى الضابط عن بعد remote control أصبح التليفزيون هو المنوم العظيم لى من خلال متابعتى لهذه الصور المتلاحقة بلا صوت، ثم هُبْ، تعيش التكنولوجيا العصرية أحدث منوم عن بعد، تصبح على خير.

هذا الصباح حمل لى التليفزيون خبر حريق فى مستشفى الأمراض العقلية فى"رين" فى شمال فرنسا، حيث يعمل زميلى– صديقى – تلميذى – د. رفيق حاتم الذى حادثته من مطار شارل ديجول.

أسرعتُ إلى التليفون أطمئن عليه. كان نصف نائم. طمأننى أنه على قيد الحياة، وأن المستشفى ليست مستشفاه، وإن كانت قريبة منه، وأنه يعمل فى عيادتها يوما واحدا فى الأسبوع، فاطمأننت، وإن كان الحادث قد ترك فىّ ما ترك.

تيقنت من مشروعية مبررات خوفى بعد أن علمت أن هذا المستشفى كان به مرضى مكبلين بالعقاقير إياها لدرجة أنى تصورت أن بعضهم لا يستطيع الهرب من الحريق، اللهم لا علينا ولا حوالينا.

طلبت من صديقى الذى كنت أزمع زيارته فى رين أن يحجز لى حجرة فى الريف الفرنسى الشمالى عند أسرة فلاحة أقضى فيها أغلب إقامتى فى فرنسا هذه المرة. أنا أحتاج إلى نقلة شديدة إلى أقصى الجانب الآخر، ياه !! أين اكتشافى أننى تخلصت من هذا الجذب الملح إلى الركن القصى، وأنه فى داخلى وأن هذا الجذب إلى الركنِ فى الخارج لم يعذبنى شيئا، وأنه وأنه..؟؟ يبدو أننى مازلت غير مطمئن إلى مصالحة باريس. الخصام السابق أدى إلى أن يختزل باريس إلى الطقوس المعادة، والوجوه المتلفتة إلى غير وجهة، والخبز الذى أصبح يصنّع فى مصر فلم أعد أشتاق إليه. ليكن ريف فرنسا فى الشمال هو رحلتى إلى داخلى أكمل بها شرنقتى لعلى أخرُجُ فراشة حقيقية قادرة على البيض من جديد.

استبعدَ صديقى على الهاتف أن توجد مثل هذه الحجرة التى وصفتها له متاحة للإيجار حيث يقيم. أكدت له (لست أدرى كيف) أنها متاحة، ولكن هو الذى لا يعرف لأنه لم يسأل أصلا، وأنه متى سأل عرف، وقد سأل وعرف. حجز لى بصفة مبدئية، وأخطرنى هاتفيا بذلك.

بلغنى أيضا فى هذا الفجر من التليفزيون مسألة الجماعة السودانيين الذين أمسكوهم فى نيويورك فى اتهام بتخطيط مؤامرة لقتل بطرس غالى وحسنى مبارك وآخرين (حسب القرعة). كانت الأخبار المعادة والخطيرة طول الوقت تحكى عن حادث رشوة مباراة مارسيليا، وعن جريمة البوسنة، ثم ضرب العراق تأديبا على محاولة اغتيال بوش. الله يخرب بيتك يا كلينتون يا ابن الهبلة، وكذلك يا صدام يا حسين فى يوم ليس له فجر.

أشرت سالفا إلى علاقتى بالأخبار وإذاعات العالم حين أكون فى السيارة، وهذا أمر يزعج زوجتى لدرجة العزوف عن الفسحة أصلا. ذلك أننى كلما خرجت معها للفسحة، أو نكون على سفر، تجد مؤشر مذياع السيارة يتحرك من لندن إلى مونت كارلو إلى صوت أمريكا وكأننى سأمسك بالخط الساخن لأعطى تعليماتى حتى لا تقوم الحرب العالمية الثالثة. فتهمس زوجتى همسة أكثر اختراقا من صيحة استغاثة أفهم منها أنها تتساءل: هل هذه فسحة أم مؤتمر صحفى عن أحوال العالم السياسية. كيف نستطعم العشَاء بعد هذا الدم الذى سال داخل العربة سواء فى البوسنة والهرسك أم فى الضفة أو غزة أم فى الصومال أم فى الفلبين. تجرجرنى هذه الأخبار ــ رغم كل دفاعاتى ــ سحْلا على وجهى وأنا متمدد فى مساحة الفجر.

كيف يجتمع الألم الحقيقى بالمشاركة مع هذا التشرنق الرائق فائق اليقظة؟

تقدّم الفجر الخالص ليصبح فجرا متداخلا فيما هو صباح .

أضع نفسى فوق ساقىّ شاكرا لهما تحمّلى، فتبادلانى ثقة بثقة. لا آخذ مسكنا ولو من بابــا الاحتيــاط. دليل جديد على الثقة. انطلقتُ مبكرا قبل ميعاد استيقاظ السائق إلى وسط المدينة. كنت قد ذهبت أمــس خلال عودتى إلى ميدان المحطة أبحث عن خوذة الموتو، وعرفت المكان لكن المحل كان مغلقا. قلــت: أول ما أفعل هو أن أذهب أشترى هذه الخوذة، ولم تأخذ المسافة من الفندق إلى وسط المدينة أكثر مــن عشر دقائق. ما إن اقتربت من شارع المحطة حتى وجدت ما أعرف أن حدسى يهدينى له دائمــا، هــا هى اللافتة تقول"إلى المحطة"، وتحتها مباشرة إلى"المدينة القديمة"، هكذا: شعرت أننى فى بيتــى الــذى ينتظرنى فى كل مكان. نظرت إلى ركبتىّ واستأذنتهما أن يكونا فتيّتــان بالدرجــة الكافيــة، وأن يتمّــا جميلهما هذا الصباح، فهمسا لى أنهما رهن إشارتى على شرط أن......، فسارعت بالموافقــة دون أن أسمع شروطهما. انحرفت يمينا، وفى الطريق وجدت ربوة أعرفها (لم أرها أمس طبعا فــى الــسيارة الفخمة) بها حديقة صغيرة أعرفها أيضا. ظاهرة الألفة هذه هى الأخرى تعتبر عادة عرضا نفسيا، ومع ذلك فأنا فخور بائتناسى هكذا بكل مالا أعرف وكأنه منّى وفىّ من قديم، لتكن ظــاهرة ســبق الرؤيــة Deja vu، والحديقة فيها أرائك محدودة كما تعودت. هى هى. جلس كهل قصير علــى إحــداها فــى شمس هذا الصباح الحنون. قلت:"نادانى".

عرجت إليه، وجلست، جلسنا، صامتين متحاورين. سمحت للشمس أن تتخللنى أسوة بجــارى، حتــى وصلت حرارتها إلى درجة يسهل معها أن نكون موصلين جيدين بعضنا لبعض. ألــيس البــشر مثــل المعادن، وأحيانا مثل الأوانى المستطرقة يحتاجون لدرجة من الحرارة ومسالك مفتوحة، حتــى يــسخن التواصل بينهم فيرتفع إلى نفس المستوى الذى يسمح أن يصبح الكلام كلاما حقيقيا وعلاقات، فنــصير بشرا؟ إننا حين انفصلنا عن الشمس والبحر والزرع والجبل جمدت خلايانــا فــى"فريــزر؛ الكلمــات والنظريات والأشياء المنفصلة عنا، المهم (تكررت هذه الكلمة كثيرا ــ المهم ــ ولن أرجع عنها حتــى لو أفسدت البلاغة!!!) وصلت حرارتنا ــ جارى وأنا ــ إلى ما يسمح بالتواصل فقلت له صباح الخير، فرد عمت صباحا، وسألته كيف الذهاب إلى المدينة القديمة؟ فأجاب إننا على حافتهــا، وإن أى شــارع صاعد فى هذا الاتجاه يوصل إليها. تماديت وسألته إن كان يتمتع بالشمس فقال طبعــا. عقبــت: هــذا المكان هادئ فعلا، فأجاب: وأنا معتاد الجلوس فيه فى الصباح المناسب."تعرف أنى غريب" ـــ"يبــدو ذلك" ــ"وأنت؟" ــ"أنا مولود هنا" ــ"تغيرت الأمور" ــ"جدا" ــ"خمّن من أين أنا قادم" فنظر مليّا يحــاول أن يكون حاذقا، وقال:

ــ من البرتغال؟

ــ بل من مصر

ولم يشعر أنه أخطأ، إذ يبدو أن السن قد جعلت البشر يتساوون عنده بشكل ما. تشجّعتُ وسألته عن سنّه، فجاء عليه الدور ليسألنى أن أخمن، قلت: ثمانين عاما؟ قال: وخمس. فرحت، لست أدرى لماذا، ربما قدّرت أننى يمكن أن أصل إلى مثل سنّه، إذن فعندى خمس وعشرون عاما أستطيع أن أكمل فيها ما بدأت، (قال يعنى، ولِمَ لا؟). أشعر أننى فى هذه الرحلة قد بدأت شيئا جديدا تماما يجدر به أن يكمل، وأن خمسة وعشرين عاما تكاد تكفى بالكاد لإتمامه. نظرت إليه: يا ترى ماذا يفعل بوحدته فى هذه السن، فسألته عن عائلته، فابتسم فرحا وقال لى"أعزب"، وأشار إلى بنصره الأيسر وأنه لا يرتدى خاتم الزواج، قالها فرحا فعلا، لا أدرى لماذا، وكان وهو يرينى إصبعه كمن يُطَمْئن فتاة يعاكسها فى سن الشباب أنه غير مرتبط، وأن لها أن تأمل فى علاقة أو ارتباط ما. كان قد نطق كلمة أعزب فى هدوء وبإيقاع منغّم (هكذا تصوّرت)، وخاصة أن كلمة أعزب بالفرنسية مكونة من أربع مقاطع موسيقية، والمقطع الأخير ممتد أو يمكن أن يقسم إلى مقطعين،"سى""لى""با""تير" Ce-Le-Ba -Taire أما أعزب بالعربية فهى من مقطعتين لا يصلح معهما التنغيم والارتياح،"أعْ ـ"زَبْ"، لابد أن تشعر وأنت تنطقهما أنك سارق أو متهرّب تريد أن تتخلص مما فعلت بهذا الاقتضاب، هل هناك دلالة لهذا الاختلاف تدل على اختلاف الموقف من العزوبية بين الثقافتين؟

قلت له عملتَ طيّبا، ما جدوى لو أنك أنجبت، وكان بعض أولادك الآن يقترب من سنى (الستين)، يذكّرُك أولا يذكرك، يزورك أو لا يزورك؟ (ثم أضفت فى سرّى، وغالبا ما كان سيودعك بيتا للعجزة). صدّق على كلامى فرحا رغم أنه لم يكن يحتاج إليه. تماديت سائلا (وأنا أتذكر سهير البابلى فى ريا وسكينه): فمن الذى يرتب بيتك ويطبخ لك؟، فقال معتزا"أنا". تماديت أكثر: وماذا عن من سبقك من الأصدقاء؟ أظن أن الإنسان فى هذه السن يبدأ فى الوقوف فى الصف، وكلما تناقص الصف انزعج (وتعبير الوقوف فى الصف له دلالة خاصة بالفرنسية). أقرنى بشجاعة رائعة، وقال"هذا هو"، لكن لاداعى للوقوف فى الصف والانتظار. بل لا داعى للصف أصلا مادام الواحد لا يعرف طوله (طول الصف) ولا موقعه الحقيقى فيه،

تشجّعت سائلا سؤالا أسخف :

ـــ هل تحب الحياة؟

فأجاب :

ـــ"طبعا" .

أخذتُ جرعتى، ودعوت الله أن أتزوّد منها بما ينفع، ثم وجّهت خطابى للجماعات الدينية متسائلا هل يجرؤ أى منكم أن يطلب من الله أن يُدخل هذا الكهل الصديق النار؟ استأذنته، ودعوت له فى سرى، وسمعت دعاءه لى فى سرّه (هكذا بالعافية). انصرفت أكمل طريقى إلى محل الخوذات. طلبت أكبر

خوذة، خجلت أن أقول إنها لى، قلت. خوذة لابنى، لكنّ مقاس رأسه مثلى تماما فأعطانى إياها. قـستها وكبسـَتْ على نفسى. ورغم ذلك فرحت فرحتى بثوب العيد فى سنة بذاتها لا أذكرها:

كان جلبابا مقلما ذى خطوط خضراء لامعة. (الجلباب الذى أشرت إليه فى فصل سابق) اشترته عمتى من زفتى، كنت فى الثانية عشر ولامَهَا والدى على غلو ثمنه، أظن كان المتر بـسته قـروش، وكـان المسموح به من وجهة نظر والدى فى حدود أربعة قروش. أذكر كم تألمتُ وهو يسألها لائما: هل كنتِ سوف تشترينه بنفس الثمن لو كان لابنك أنتِ؟؟ تألمت من تقريعه لها لكننى فرحت بمغامرتها لتتحمـل فى سبيلى كل ذلك، وأيضا لأننى سوف ألبس جلبابا ثمينا يستأهل هذه المشاجرة. تصورت أنـه سـوف يكون متفردا بين أقرانى.وأتبين الآن أن كل الأطفال الذين كانوا حولى كـانوا يـشعرون أن أثـوابهم متفردة، حتى لو كانت من الدمور .

بعد شراء الخوذة مباشرة رحت أهزها، أمرجحها، لأتكد من حيازتى لها، انطلقت عائدا إلـى حـديقتنا (العجوز. وأنا) هكذا أصبحت: حديقتنا. فلم أجده.

كنت قد قدّرت ذلك فلم أفتقده.

انحرفتُ حيث أشار إلى موقع بيته فى القرية القديمة. وجدت نفسى أتوجه إلى أحد الطرق الـصاعدة. الطريق يضيق رويدا رويدا، وهذه هى من علامات المدن القديمة عندى. أى نظافـة ونظـام. تـزداد المبانى قدما وتزداد النظافة دلالة، وتزداد القلوب دفئا. فى الطريق كانت جماعات من شبان وشـابات تمتلئ بالحيوية والشطائر والمثلجات ــ رغم برودة الجو نسبيا ــ وبالحب، دون إفراط فى القبل والذى منه. كان التجمع أمام مطعم صغير، أو حول علامة لمحطة أتوبيس. لاحظت أن المطـاعم الـصغيرة تضع بطاقات الائتمان (التعامل الآجل) مثل بطاقة"الأمريكى التـشهيلاتى"(American Express)!! ولـم أجد فى المطاعم أحدا ولا سياحة ولا غيره ناسيا أننا مازلنا فى الصباح. وسّع الله عليهم وعلينا. أخذت فى الصعود، ثم الصعود ثم الصعود، وكلما صعدت ازداد المنظر إبداعا، واتسع مجال رؤيـة البحيـرة فى حضن الجبل القوى الحانى. صعدت من جديد ولم أفكر فى ركبتى، أصعد متوجها أنـا إليـه. أنـا أعرف ذلك دائما ولا أعلنه عادة. استمر الصعود حتى وصلتُ ــ كما قال لى بعض من سألت ــ إلـى الكنيسة القديمة، أو لعلها الكنيسة الرئيسية. كان مكتوباً عليها"كنيسة مونتريه". كانت مغلقة، لكن ثمّـة صندوق مثل صندوق البريد تحته لوحة حجريّة تقول:"يا زائر هذا المكان تذكرالفقراء، وجـُدْ بما ترى وأنت فى هذه البلاد المبتسمة" ولم أجـُد بشىء، هل أنا هنا لأعطى ما تيسر إلى شعب كله مؤمّن عليه حتى ضد غدرالزمان؟ إن ما يحتاجه المصرى"يحْرَم على الخواجه"، لهم بعضهم ولنا الله. بخيلٌ أنا؟

أكملت السير دون شعور بذنب أو خجل. بعد الكنيسة بقليل وجدت درجا صاعدا إلى جانب، فـصعدت عليه، صعدت حتى وصلت إلى قضيب قطار منفرد كقضيب قطار لكن فـى الوسـط بـين القـضيبين

المعتادين يوجد قضيب ثالث بارز ومدرج، فخـّمنت أن هذا لزوم"التليفريك" وفرامله، ووجدت درجـا فى الناحية الأخرى من القضيب، وتساءلت هل ممنوع عبور القضبان مثلما كان الحال فى السكة الحديد بجوار الفندق. أجبت نفسى أنه: طبعا لا، وإلا كيف يصعد النـاس إلـى الناحيـة الأخـرى؟ فعبـرت القضيب، وجلست على الدرج الأعلى، واستدرت أنظر إلى الدنيا على امتداد كل شىء، المنظر أمـامى أوسع مما ذكرت: الكنيسة، والبحيرة، والجبل، والله من خلفهم محيط، بل هو قرآن مجيـد فـى لـوح محفوظ .

سمحت لأى دعوة صادقة أن تنطلق منى فخرجـَتْ من جديد:"اللهم اجعل عملى خالصا لوجهك" ،

عرفت أن الدعاء قد يأتى بأثر رجعى، ذلك أن ما قررته بشأن الكتاب اياه وتغيير وجهته ٠٦٣ درجة كان يعنى أن أكتبه خالصا لوجه الحق وما عرفت، وليس لإرضاء الجهة التى كلفتـنى به، أو لمنافـسة الزميل الذى جمع كتابا قصّا ولـصقا دون أن يقرأ ما قصَّ ولصقَ. إن هذه الدعوة امتدت حتى شـملت رفض حضور المؤتمرات شبه العلمية لمجرد تذكرة سفر مجانية ومائدة مفتوحة، هذا ما عنيته سـاعتها من أن يكون عملى خالصا لوجهه، وكأنى ما دعوت إلا مافعلت، وكأن الدعوة قد اسـتجيبت قبـل أن تخرج، أو أشياء من هذا القبيل. كلها تصل إلى ما أريد.

أم ماذا؟

جاء التليفريك يتهادى كما ظننت، وكان مليئا بالسوّاح. قلت يارب العقبى لنا. انطلقـت منـى ـــ دون صوت ـــ أغنية لرباعى الأخ (أو الإخوة)"جاكو" (Freres Jaqou)،كانوا يؤدونها فـى مـسرح صـغير رخيص متفرع من شارع مقابل محطة مترو"أنفير" بين ميدان كليشى والبيجال (لا أذكر اسم الـشارع). كنت أحسب أن الإخوة"جاكو" لا يغنون إلا للأطفال. حين حضرتهم وجدت أغلب الحضور كبارا مثلى، وأكبر. كان العرض لمدة ساعة واحدة قبل العرض البشع التالى الذى يناقضه تماما، كان ذلك منذ ربـع قرن. يقول المقطع الذى راح يملؤ ساحة وعيى راقصا:

وهذا هو الطائر"لير"

الذى يمر فى السماء

الطفل يراه الطفل يسمعه الطفل ينادى عليه

رحت من موقعى أعلى الجبل بجوار الكنسية أنادى على طائر يقال له"لير" وأنـا لا أراه ولا أسـمعه ولا أعرف إن كان"لير" هو اسم الطائر هكذا، أم صفة أم لفظ يمكن ترجمته، من منا من أهـل الريـف وهو طفل لم يخاطب عصفوراً، أو لم ينصت ليمامتين يتناغيان، أخذت أبحث عـن أول الأغنيـة فلـم أجده، حين تصيبنى هذه الحالة: حالة نسيان اسم محدد أو مقطع محدد ـــ وكثيرا مـا تـصيبنى الآن ـــ أتذكر سنى على الفور، وأقول: ها هو تصلب الشرايين يزحف، أسارع بتذكرة نفسى أن علىّ أن أكتـب

ما أعرف قبل أن يضيع بين حبيبات الدهن المترسبة تحت جدار شرايين مخى. لكننى ما كـدت أتـرك مكانى صوب الإجليز (الكنيسة) حتى صدحت فى رأسى أول الأغنية. قلت: زال تصلب الشرايين كمـا زال ضمور غضاريف الركب من قبل (!!) ولم أخْف ابتسامة عميقة. كان مطلع الأغنية يقول:

إثنين واثنين أربعة

أربعة وأربعة ثمانية

وثمانية، زائد ثمانية: يصنعون ستة عشر

وهذا هو الطائر لير.. إلخ،

يا جماعات يا دينية: إثنين وإثنين أربعة، فماذا أنتم صانعون؟ ؟ إخص على بعدكم عن الله، ألم يعلّمنـا الطائر"لير" أن أربعة وأربعة ثمانية، ماذا تريدون بعد هذا التحديد البديع منى أو من الطائر"لير" الـذى يعلن ببساطة أن اثنين واثنين أربعة، حتى أن الستة عشر هى مجموع ثمانية وثمانية، تريدونى ألا أرى الله هنا فى وجه هذه السيدة النمساوية، ولا فى صوصوة الطيور فى الأفق أو فى حجارة هذه الكنيسـة وفى قلبى معا، أعذركم، وأدعو لكم، وأدعو لى معكم بالهداية جدا،

لا بد للإكتئآب القومى الذى نعيشه من نهاية، حتى لو لبس دعوى التدين القـابض المجمّـد، يـا رب اشرح صدورنا إليك، إليهم، إلينا .

نزلت الدرج عابرا خط التليفريك دون خوف أصلا هذه المرّة. نزلت لأجلس على أريكة فى الـساحة المجاورة للكنيسة المطلة على الدنيا. كان هناك رجل وامرأة يتحدثان بما يشبه كركرة قلّـة متوسـطة الفتحات. عرفت أنهما يتكلمان الألمانية، بدرجة أهدأ مما كان دفق الكلام القوى من ألمان مخيم جنيـف منذ عشر سنوات.

سألت الرجل وهو يمر بى، سألته بالفرنسية إن كان"هنا" هو نهاية مطاف المدينة القديمـة. وقبـل أن أكمل جملتى قال نو" "NOوقدّرت أنه لم يفهمنى، فقلت له ماذا عن اللغة الإنجليزية، فكرر أنه،"نو"، ولم أعرف إن كان ذلك الصوت"نو" يعنى"لا" أم غير ذلك، ثم تذكـّرت أن"نو" هذه موحّدة فى أغلب اللغات (الفرنسية ــ الألمانية ــ الإيطالية ــ الإنجليزية) فى حين أن"نعم" تختلف من لغة إلى أخرى، فابتسمت، وتصورت نقاشا مع إبنى الباحث فى سيكولوجية اللغة.

انصرف الرجل وحده حتى كدت أظن أن الرجل ليس معه أحد. لكن سرعان ما اقتربت السيدة التـى ذكرنى وجهها بصنعة الخالق البديع. اكتشفت أنهما معا، ويبدو أنها سـمعت طـرف محـاولاتى مـع الرجل، فاقتربت منى متبرعة ودار حديث قصير بالإنجليزية. أنا من مصر، وهى نمساوية لا ألمانية.

قلت تتكلمون الألمانية هناك؟ فقالت بما يشبه الغضب، نحن من النمسا، وتذكرت أننى لم أزر النمـسا رغم الإغراءات الكثيرة التى لاحت لى أثناء إقامتى فى باريس وتجوالى بالعربة المرّة تلو المرة ما بين

هولندا وبلجيكا، وألمانيا، ثم بين أسبانيا وسويسرا، فلماذا لم أزر النمسا أبدا؟ ولو من أجل خاطر عيون المأسوف على سيرته سيجموند فرويد، قلت لنفسى إذا كان فى العمر بقيّة، وفى الركبتين ثقة، فلتكن ضمن قادم الرحلات.

قلت لها عددكم فى النمسا قليل لكن عطاءكم كثير. فابتسمتْ، فأكملتُ خشية أن تتصور أنى سأطلب منهم عطاء تسهم به مع صندوق النقد الدولى فى حل أزمتنا الاقتصادية. أكملت أن فرويد كان نمساويا، وأن التحليل النفسى نشأ هناك وترعرع، وأن عطاء التحليل هو الذى أعنى. لا أظن أنها تابعت شيئا فقد انتقل الحديث إلى أنهم ثمانية ملايين وأننا ستون مليونا غير ساقطى القيد .

فى طريق عودتى عرجتُ إلى الميدان الذى كنت فيه أمس والذى حال حرصى على عدم التأخر عن السائق عن التعرف على تفاصيل أركانه، وترحيب مقاهيه، وحوار عاملات البيع فيه، كنت مشغولا بخبرالصباح الخاص بمحاولة اغتيال بطرس غالى ومبارك فى نيويورك، والذى لم أستبن تفاصيله بسبب اللغة ومفاجأة الخبر. وجدت مكتبة على رصيفها، بين الصحف، صحيفة" الحياة" العربية اللندنية. شئ طيّب هذه الحركة الصحفية العربية فى الخارج، لولا الشك فى مصادر التمويل وحقيقة الدور الذى تقوم به تلك الصحف، دخلت إلى المحل وقال لى راعى المكتبة أن ثمن الصحيفة ثلاثة فرنكات سويسرية (حوالى ثمانية جنيهات مصرية). لم أجد معى سوى فرنكين، قلت له ذلك، فقال ما عليك؟ هل أنت ذاهب بعيدا؟ قلت هنا أو هناك، قريبا. قال: خذها ثم نرى فيما بعد. أعطيته الفرنكين.

تصوّرت أنه مثل بائع الصحف الذى كان يعامله والدى حين يتفق معه على أن نقرأ كل الصحف والمجلات مقابل"اشتراك شهرى"، فيما عدا الاحتفاظ بصحيفة واحدة، وأظن أن"الأبونيه" كان ريالا كاملا فى الشهر، غير ثمن الصحيفة (خمسة مليمات)، وكنا نعانى الأمرين حتى نتمكن من قراءة المجلات التى تأتى وأغلب صفحاتها مغلقة من أعلى أو من جانب، مما يحتاج منّا أحيانا إلى إتقان سلسلة من الحركات البهلوانية أو حركات اليوجا حتى نتمكن من قراءة بعض موضوعات المجلات، أو حتى مشاهدة الصور، دون أن نفتح الصفحات الملتصقة، ولم يمنعنى ذلك أنا أو أخى من أن نقطع صورة لسوزان هيوارد أو إستر وليامز نحتفظ بها بين طيّات كتاب الأحياء. وكان والدى يرى أن هذه العملية ــ القراءة بالاستعارة ــ هى من حقنا حلالا زلالا، لأن الصحف تصدر لتُقرأ، ونحن بذلك نحقق الغرض الاساسى من صدورها، أما الأغراض الأخرى وهى الأهم عند والدتى، مثل تلميع نحاس وابور الغاز أو فرش الأرفف بكرانيش مزركشة من ورق الصحف كنت شديد الإعجاب بها، فيكفى لتحقيقها تلك الصحيفة الوحيدة التى نحتفظ بها، ولم يكن الأمر يتوقف عند هذا الحد، فما كان يتراكم من صحف بعد ذلك ولو بعد ستة أشهر كان يبيعه والدى بالأقة لمقلة لب، لم يكن والدى بخيلا لكنّه كان ناصحا.

أخذتُ الصحيفة من الرجل وأنا لست مستوعبا تماما مغزى تساؤلاته عن مدى جولتى وهل هى قريبة أم بعيدة، أعطيته الفرنكين والودّ ودّى أقول له خليها باثنين فرنك"جدعنة"، فأهرام الجمعة عندنا قــدرها مرّتين ونصف وهو بربع جنيه (لاحظ تاريخ هذا السفر). انصرفتُ ظانا أننى سأقرأ مـــا أريــد مقابــل الفرنكين (مثل اشتراك أبى) ثم أعيد له الصحيفة بعد قراءتها. فى القهوة المجاورة قرأت الصحيفة كلها حتى الأخبار التى لاتهمنى كى آخذ حقى ما دمت لن أحتفظ بالصحيفة رغم حاجتى إليها لزوم الوظائف البيولوجية التى حصل لها مع قراءة الصحف ارتباط شرطى، فأمعائى تأبى أن تطلق سراح ما تمــسك به إلا بعد أن تطمئن على أخبار العالم، وتبتسم مع مصطفى حــسين وأحمــد رجــب كــل صـــباح، وتكشرأحمد يوسف القرعى على تحمّله بعض ما يضطرلنشره،. أخذت حقـــى كـــاملا مـــن الــصحيفة الإيجار، فى حين أنها لو كانت ملكا خالصا فربما كنت اكتفيت بعناوين الصفحة الأولى ظنا منـــى أنـــى سوف أعود لها فيما بعد.

لم يحضرالنادل مبكرا وأنا أعلم أن بعض المقاهى تتطلب أن تذهب أنت لتأتى بطلبك شخصيا، شـــئ أشبه بنصف نظام الخدمة الذاتية:"ساعد نفسك"، وبما أن الجلوس على رصـــيف المقهـــى هـــو هــدفى الأصلى وليس تناول شئ بذاته، فقد حققتُ هدفى دون حرج أو غرامة، ومن البديهى ـــ مثلما هو الحال عندنا أن الجلوس على مقاعد أى مقهى هو مشروط بالطلب،".. اللى حايطلب راح يقعــد، واللـــى مـــا يطلبشى يبعد، طب يا للا بينا يا مِسعد شارع الترماى"، لكن النادل حضر، وسألته: تقبــل الأميريكـــان إكسبريس، قال طبعا، فطلبت قهوة، فقال الحد الأدنى للتعامل بهذا الأمريكانى السريع هو كــذا فرنـــك، فاستأذنت منصرفا، لم تكن معى عملة سويسرية جاهزة، وكنت قد شبعت جلوسا وحوارا صـــامتا فـــى الفترات التى استطعت أن أهرب فيها من إلحاح سطور الصحيفة.

فى طريق عودتى قلت لنفسى من أين لهذا الرجل بائع المكتبة أن يثق بى وأنـــا أســتطيع أن أعـــود أدراجى دون المرور عليه، لكن ذلك لم يكن أبدا ضمن ما تعلّمته من أبى، حتـــى الــصور التـــى كنـــا نقطعها من بعض المجلات خلسة كنا متأكدين أنها ليست سرقة لأنها لن تنقص المرتجع شيئا. مـــررت على المكتبة وأرجعت الصحيفة. ظهر ظل دهشة على وجه الرجل، فألهيت نفــسى بــشكره مجــددا، وهممت بالانصراف، إلا أنه نادانى وأعطانى الفرنكيْن معا. فهمت أنه يبدو أنه كان علـــىّ أن أحــضر الفرنك الباقى لا الصحيفة، لكن وجه الرجل البشوش لم يوصّل لى أدنى عتاب. ولإزالة الحرج بعــد أن كدت أقول له خلّ يا رجل لا يوجد فرق، سألت عن كتاب"تاريخ الجنون" لــــ"فوكـــوه" فـــى العــصر الكلاسيكى، فذهب الرجل بمنتهى الجدية، وأخرج كتابا كبيرا كدليل التليفونات وأخذ يبحث عن الإســـم، واعتذر أنه ليس عنده، وسألنى إن كنت أريد أن يدلنى فى أى مكتبة أخرى يمكن أن أعثر عليه، فنبّهته أننى أريد أن أعثر عليه بالإنجليزية، فاعتذر أن فهرست كتب بالإنجليزية ليس فى متناوله الآن.

ما كل هذا التحضر والجدّية ؟ ما كل هذا؟ مقابل ماذا؟

شكرا يا أهل الطيبة والإتقان،

ورحمك الله يا أبى رحمة واسعة .

انتهت مهمتى والحمد لله فى مونتريه. تم تحديد موعد السفر غدا إلى باريس. أخيــرا ســأخرج مــن القفص الذهبى. قفص مفتوح الباب ومع ذلك فسجنه أحكم .

لا خوف أن تطير الطيور من باب القفص المفتوح،

طيور بلا أجنحة، ولا وجهة.

غدا أهرب بجلدى داعيا لهم بالسلامة.

الفصل السابع

(الفصل الثالث عشر: من الترحالات الثلاثة)

الصلح خير

أهو لزاما أن أجوع بالعافية، لمجرد أن معى نقودا أريد أن أشترى بها أكلاً شهيا؟

أهو لزاما علىّ أن أجلس مع من لا أحب، فأكون من لا أريد؟

أهو لزاما علىّ أن أكتب مالا أريد، لمجرد أن غيرى كتبه أسوأ مما أستطيع؟

أهو لزاما علىّ أن أحضر مؤتمرا يقال له مؤتمر علمى عالمى (إلخ)،

وأن أحتمل ما يجرى فيه وحوله أحضره لمجرد أننى أستاذ جدّا؟

السبت ٢٦ يونيو ١٩٩٣

....لكن لم أنمْ.

ما ألمّ بى طيف ولا غيره. لكن لم أنم.

هو الفرح بالخروج من الشرنقة. أم لعله الشوق إلى باريس

مازلت مخاصمها خصاما شديدا منذ الرحلتين السابقتين. تذكرت أن الواحد لا يخاصم إلا من يهمه أمره، فهى تهمنى جدا، الغالية. لكن استقبالها لى فى المرة السابقة وما قبلها كان غريبا مريبا، مـرّة كان الهواء يقطع بالسكين (كما يصف صديقى الفلاح المنواتى سعيد أبو عيد الشاى الثقيل الذى يصنعه لى كلما مررت عليه)، ومـرّة تالية كانت زيارتى لها زيارة مؤتمرية قبيحة، حاولت أن أخفف من قبحها بأن اصطحبت ابنتى معى، وبأن نمر على إسبانيا قبل ذلك المؤتمر الخبيث. نعم: مُخاصم باريس مهما كان، ربما لذلك قررت أن أغادرها غدا إلى الشمال، إلى بريتانىْ، إلى"رين" حيث صديقى الذى أكدت له إمكانية حجزحجرة عند عائلة ريفية لبضعة أيام. سوف أضع قدمى فى باريس ليلة واحدة، ثم إلى رين،

"مقموص" أنا جدا من باريس مازلتُ .

فى بهو الفندق شعرت شعورا مخالفا. ليس قفصا ذهبيا أبدا،أنا أصادق الناس بعد موتهم (ألم أقل هذا بالنسبة للدكتور حلمى نمر ولسعيد الرازقى)، وآنس للمكان وأنا أودعه حتى لو كان سجنا. هذا الفندق احتوانى رحِما طيـّبا ممتدّا إلى حضن الجبل، موصلا جيدا لهمس الفجر، ركنا حقيقيا وسط ناس يتألمون ويحاولون، لماذا أسميته قفصا حتى لو كان ذهبيا؟ لماذا وصفتهم بالإعاقة ؟

ودّعت الشمس والبحيرة والجبل والكرسى والمنضدة ومقبض الحمام ومفرش المائدة وسلة المهملات واعتقدت أنهم يبادلونى ما أشعر، والذى عاجبه.

حضر سائق آخر يصطحبنى فى هذه الساعة المبكرة، قلت أحسن، فكم أحسست بصعوبة أن أوقظ السائق نؤوم الضحى هكذا مبكرا، لم أكن قد قررت شيئا بعد بالنسبة لمرورى على جنيف التى لم أستطع أن أتعلّق بها تعلقى بغيرها. نادتنى جنيف القديمة فى السر، اكتشفت أن علاقة ما تكونت معها من وراء ظهرى. أعرف أنى أننى أحتفظ بموقف خاص عادة من مواقع خاصة،أحيانا يصبح العام خاصا من خلال هذه العلاقة السرية. أشم فى كل زاوية رائحة أعرفها حين أعود إليها، أسمع من كل كرسى همسا، وأستنشق تحت كل شجرة نسمة هى هى، أعود إليها جميعا ولو دقيقة واحدة، أحيى ذا الديار وذا الديار، لا أبكى طللا، لكننى أقرئ تحيّة وأسمع الرد واضحا جليّا، (عرفت معنى ذلك لاحقا حين شاركت فى ندوة عن: شاعرية المكان لبشلار).

حين اقتربنا من جنيف لاحت لافتة تقول:"إلى المطار" قلت للسائق: إلى وسط المدينة. كان السائق على ما يبدو قد أبلغه أحدهم بأن عندى ما أودّ أن أنجزه فى جنيف"البلد" لا جنيف المطار،ربما أكون قد ذكرتُ بعض ذلك لمضيفتى. سألنى إلى أىن فى جنيف، وجدت نفسى أجيب دون تفكير: إلى فندق"الرئىس" (البريزيدانت– هذا هو اسمه، الله!!) ثم ساحة الزهور فيما بعد. ولم يكن لى أحد فى فندق البريزيدانت هذا، لكننى أريد أن أشم رائحة جدرانه لما سلف شرحه من علاقتى بالأمكنة وروائحها.

دخلتُه شامخا (مستغفرا) حتى لا يسألنى أحد إلى أين. كانت الساعة بعد السابعة صباحا بقليل، انطلقتُ إلى البهو الداخلى مباشرة دون الاستقبال، وجدت نفسى فى المطعم الخفيف (أو الكافيتريا)، وبعضهم يتناول إفطاره. خِفت أن يأتى النادل يسألنى ماذا أطلب مع الإفطار: شاىاً أم قهوة، فتشبثتُ برجلى فوق الأخرى فى ثقة مزعومة، وتمنيّت أن أكون من مُدَخنى الغليون، فهو يتناسب وهذا الموقف تحديدا. نظرت إلى الساعة وقررت ألا أقوم إلا بعد ربع ساعة، وإلا ماذا يقول السائق. وقد كان.

فى هذا الربع ساعة المحشور فى فندق لا أحبه، وجدتنى أضع فهرسا كاملا لسِتّ كتب هى بديلة عن ذلك الكتاب السخيف الذى كدت أتورط فى كتابته. هل هذا وقته؟ متى تأتينى الأفكار العلمية ومتى يقتحمنى الشعر الذى لا أتقنه ولا أريده؟ لم يكن معى قلم وورق لكننى فهرستُ الستّ كتبٍ وحفظت مواضيعها صمًا عن ظهر قلب، هكذا فى ذاكرتى، تأكدت أن شرايين مخى تتصلب على مزاجها. تُغرق الذكريات الخائبة فى دهن الشيخوخة حين تريد، وتتمطى مرونة وطزاجة وحيوية ودفقا للدم والأفكار والمعلومات حين تريد. مضى الربع ساعة فخرجت وتمنيت أن أستطيع السير ومازالت رجلى على رجل، لأن رجلى الأعلى بدت لى مثل الدرع الذى يعطينى منظرا يحمينى من الاقتراب. تسليما باستحالة المستحيل استعضتُ عن هذا الخيال الكاريكاتيرى بنفخة مناسبة، جعلتْ سعادة البيك الخواجة

البواب يعدو إلى العربة التى أقلتنى، وما زال السائق أمام عجلة قيادتها، ويفتح لى البـــاب منحنيـــا ثـــم يغلقه خلفى مطأطِأً، يا إلهى!!!! من يقول لأمى عن الأمـــلَهْ التى يرفل فيها ابنها.

قال لى السائق وقد صدّق أننى أنهيت مهمة ما فى البريزيدانت شخصيا،"إلى ساعة الزهور؟ بعد ذلـــك ياسيدى ؟"، استحليتها وهززت رأسى دون أن أنطق. لاحظ السائق هزة رأسى فى المرآة فتوجه صامتا إلى حيث أشرتُ .

أنا لم تعد تعنينى ساعة الزهور مثلما كانت تعنينى أول ما شاهدتها أول مرة سنة ١٩٦٩. عندنا فـــى الإسكندرية الآن مثلها وأحسن. بل فى القاهرة كذلك (لولا الاعلانات!!)، وهى (الـــساعة) ليـــست مـــن مزارات طقوسى، ثم كيف أختفى عن السائق هذه المرّة والشوارع خالية والمحلات مازالـــت مغلقـــة؟ تذكرت أننى ما جئت هنا إلا لأزور جنيف القديمة التى ساقتنى قدماى إليها منذ أول زيارة دون خريطة كالعادة. شحذت حدسى المكانى ومضيت إلى الشوارع الجانبية مباشرة. فجأة وجـــدت التـــرام. مـــازال يميّز جنيف. لماذا أزلنا الترام ذا الدورين من الإسكندرية؟ عبرت شريطه بسرعة دون تردد، واتجهـــت بالحدس المكانى إلى أمكنتى. لـــمحت ثمن قفاز حريمى فى أحد الواجهات الزجاجيـــة. حـــسبت ثمنـــه فتساوى مع مرتب خريج جامعة مصرية فى مصر لمدة أحد عشر عاما. أكملت السير بالسرعة نفسها، أسير مع الطرق التى تضيق وترتفع. هذا هو طريقى. أهلا. ها هو الدرج، وراء الدرج، لافتـــة تـــشير إلى شارع كذا. أنا مالى. أنا أعرف الأمكنة دون أسماء، الدرج غير منتظم جميـــل، شـــديد الجمـــال. ابتسمت، لففت حول البيت العتيق، ووجدتها، الأريكة نفسها التى... التى ماذا؟ ولا شىء. لم يحدث هنـــا حدث معيّن. لم ألتق بأحد، لم ينبض قلبى بغرام ليلى ولا عزّة، كان معى أولادى آخر مرة وضـــحكوا منى وأنا أقودهم: بغير خريطة إلى حيث اعتادوا أن أقودهم. المدينة القديمة بشوارعها الضيقة.

أى مدينة مهما تعملقت لا بد أن يكون بها حى مثل هذا الحى، المدينة التى تفتقر إليه ليـــست مدينـــة، أعنى ليست....، لا أعرف ليست ماذا، ليست والسلام، لا أعترف بمدينة نصر، ولا بحى المهندســـين، ولا بمصر الجديدة إلا مصرى الجديدة التى بناها البارون امبان. منزل والد صديقى د. عماد غز فـــى روكسى بمصر الجديدة يقع فى حارة سد، نعم، إبعد عن ميدان روكسى عشرين خطوة فى اتجاه البلـــد، انحرف يمينا بعد ثانى ناصية يحتلها محل ملابس نشاز، سوف تجد منزل حمدى غز، ظللت أزوره كل أسبوع وهو وحيد بعد فقد زوجته حتى تغمده الله برحمته،كنت أحبه وأتعلم منـــه الحـــب بعـــد أن فقـــد زوجته وفقد بصره جميعا. ظل يحكى لى قصص مشروعات خطوباته وغرامياتـــه ويـــداعبنى حتـــى انقلبت جدا وكان ماكان. منزل الشيخ البرماوى صديق والدى الذى كان يرسلنى إليه والدى لاعتذر عن موعد ما يقع فى درب الوسط فى بلدنا، نفس الشوارع الضيقة التـــى لا تـــسمح إلا بمـــرور الحميـــر والمارة، قد تضيق بجمل إذا زاد حمله من الحطب عن حده.

جلست على نفس الأريكة، قالت همسا دافئا: عِـمت صباحا، ردت التحية. سألتـــْني:"هـل مازلـتَ أنتَ هو أنت؟ قلت لها"أنتِ وما ترين"، قالت" كدتَ لا تكون هو، لو تأخرتَ أكثـر مـن هـذا كانـت غضاريف ركبك ستزداد ضمورا، وشرايينك ستزداد تصلبا، وسوف تنسانى". لم أفزع مـن التهديـدين الأولين، فهذا أمر الله وحكم العمر، لكننى فزعت من التهديد الثالث، أنساها؟ أنساهم؟ يارب هـل هـذا ممكن؟ حين تضمحل الذاكرة وتنسى حتى أسماء أيام الأسبوع لا تنسى رائحـة الأمكنـة، أو طيـوف الأضواء، أو أنغام همس أوراق الأشجار، لعل الأريكة لم تقصد ذلك، ربما تقصد أننى لو تأخرت أكثر فلن أستطيع أن...، لن أستطيع والسلام، حين لا أستطيع لن أكون أنا. ماذا يهم عندئـد؟ فـلا عتـاب ولاماض ولا حاضر

سألتها: هل يا ترى جئت قبل فوات الأوان ؟ قالت"نعم"،

صدّقتـُها مطمَـئِنّا .

نظرتُ فى الساعة فإذا الوقت قد قارب الميعاد، كنت قلت للسائق ربع ساعة، فجريت وكـأن جـرس المدرسة سيدق والناظر ينتظر على الباب من يحضر متأخرا. قبل الوصول إلى العربة بقليـل أبطـأت الخطى وانتفخت. فرقٌ واضح بين نفخة واجبة، ونفخة للاحتياط. لا يوجد بواب برتبة"بك" يفـتح لـى السيارة، ولا السائق ملتفت، فحمدت الله لغفلته. لم يلحظ السائق عرقى. لم يخطر على باله خوفى مـن التأخير. دلفت إلى السيارة فأدار السائق المحرك صامتا، ولم أعتذر. أوصلنى للمطاروتمنى لـى سـفرا طيبا، وخلاص.

فهمَتْ مسئولة التذاكر فى القاهرة فهما خاطئا من موقف تذاكرى وحقى فى العودة إلى بـاريس قبـل عشرة أيام وما إلى ذلك، فطلبتْ مسئولة التذاكر فى جنيف ثمن تذكرة جديدة. لم أحاورها كثيـرا مثـل زمان، ليكن، فهى مستورة، ولأدبر أمرى مع الشركة المخطئة عند عودتى إلى القاهرة. قلـت لنفـسى هذه أول ميزات الستر، ألا تـُغيـّر غرامة مهما بلغت مزاج السفر. الأهم من ذلك أننى لا أدفع شـيئا، فهذا الشئ القبيح الذى اسمه"الأمريكانى التشهيلاتى" هو الذى يدفع عنى كل شىء. أنا أعرف أنى أدفـع عن طريقهٍ أكثر، وأصرف أكثـر، هـذا إذا تـشجعتُ فـصرفتُ بـه أصـلا،"فليكـعّ" الأمريكـانى التشهيلاتى(الأميريكان إكسبريس) كما شاء له أن"يكع"، وليبحث بعد ذلك عمن يدفع، فأنا فى مـصر لا أدفع، (هكذا أوهم نفسى) ولاأعرف قيمة محددة للقرش، لأننى لا أعرف كيف ولا لماذا يجئ، وإن كنت أحاول أن أعرف كيف وإلى أين يجب أن يذهب،

وصيتى لأولادى مكررة وحادة ومؤلمة. قال لى إبنى مصطفى وأنا أحاول أن ألمح له إلى بعض هذه الوصية. كنت أحاول أن أخفف منها، أو بصراحة أن أعلمهم أننى لا أستطيع أن أضمن تطبيقها، وأنـى مسامح، قال مصطفى:"إنك لو أعطيتنى كل يوم ألف جنيه، فإن ذلك لن يـُصلح ما قلتــــَه سـابقا"،

قالها وكأنه يلومنى لوما شديدا على ما لا أعرف، وبلعتـــُها، كيف أصلـِح ما قلتــــُه لـــه ســابقا؟ وماذا قلت له سابقا يحتاج لإصلاح أو اعتذار؟ قلت لأولادى مرارا (كما ذكرت قبْلا): إن المـــال مـــال الله، وكل ما أتركه لكم، بل كل ما ستكسبونه حتى بعرقكم، هو مسخـــّر أساسا لخدمة المرضى الـــذين هم أساتذتى وأصحاب الفضل علىّ وأصحاب هذا المال. ثم لخدمة المعرفة (تأليفا أو نـــشرا أو توســـيع أفق وتحريك وعى)، ثم بعد ذلك لكم كامل الحرية فى أى شىء، لعلّ مصطفى كان يلومنى على أننـــى –بذلك– لم أترك له ولهم أى"بعد ذلك". ما ذنبى أنا إذا كان هذا هو ما تعلمته مـــن مرضـــاى وحيـــاتى وربى عن معنى حمل الأمانة ؟ حين اجتمعت بأولادى فى لقاء تال أبديت دهشتى وعدم فهمى لموقـــف هذا الأصغر، فأجابنى بما يعنى: لا عليك فقد تفهم فيما بعد!!! كذا؟؟؟ هذه هى الإجابة التى اعتـــدنا أن يجيب بها الأب على أطفاله وهم يسألون عن الجنس أو عـــن الله، فنجيـــبهم: غـــدا حـــين ســـتكبرون ستعرفون،...، لم يكن ينقص ابنى إلا أن يضيف بعد قوله. "فيما بعـــد" أن يـــضيف"لمّـــا تكبـــر"... الله يسامحك يا مصطفى يا إبنى، ثم ماذا عليه هو أو إخوته لو لم ينفذ أحدهم الوصية مادام ســـيختبئ فـــى حروف وكلمات وفتاوى لا تعنينى، حتى آية الذكر والأنثيين هذه أبديتُ رأيى فيها، لأن تعريف الـــذكر يتغيّر بتغيّر الأحوال الاجتماعية، والذكر عندى الآن هو: من يتصدّى لحمل أمانة المال، مال الله الـــذى تصادف أنه فى يده، ويتعهّد مسئوليته، ويوصله إلى أهله، هذا الذكر هو ذكر سواء كان له شـــارب أو ثديان، ولم يعجب بعضهم هذاالتفسير وإن لم يعلنوا ذلك.

لكنه هو وحده الذى سيحاسبنى، أم أبيع عقلى لغيرى يا ربنا؟

قام عنى الأمريكانى السريع التشهيلاتى بدفع المعلوم. والتفت إليه فى جيبـــى وللفتـــاة الوديعـــة التـــى اعتذرت لى عن هذه الغرامة. أخرجت لهما لسانى فى سرى. هذه أول مرة تتوقف آلة عقلى الحاســـبة عن الجمع والطرح فى الغربة، وأنه لو وفرتُ كذا لصرفتهُ فى كيت،، وأنه كان أولى بـــى ألا أتنـــاول غذائى فى المطعم الفلانى حتى أستطيع أن أشترى لعبة لحفيدى من هذا المحل. كان الأمر هكذا دائمـــا أبدا، وإلى هذا الحد؟ نعم!!، حتى بعد أن أصبحتُ مستورا كما أنا الآن؟ نعم!. اختلف الأمر هذه المرة، حدث تغيير يبدو حقيقيا. هل اطمأننت؟ هل توقفتُ عن الخوف من الموت جوعا؟ ربما، فليأت التغييـــر حتى أستطيع أن أعيش ما تبقى لى كما ينبغى دون أن أتخلى عن مسئوليتى نحو القرش والناس. ربنـــا يسهّل ويمنحنى ما أستأهله قبل أن يفوت الأوان، ليس ذنبى أن أكون حريصا أتور أننى أرعى الله وأنـــا أتذكر الناس الذين لا يقدرون على مجرد تصور ما أكرمنى الله به من سعة رزق وفرص حركة.

يقول أولادى أحيانا – بأدب غالبا وفى سرّهم معظم الوقت!!– وهل هذا الذى تعمله فى نفـــسك يعـــود على من لا يقدر بشىء؟ وأكتشف وجاهة رأيهم، لكن العكس أيضا شديد السوء، ماذا لو نسيت، ونـــسوا

قبلى أن هناك أصلا من لا يقدر؟ ثم إنه لا مثل هذا التفكير ولا حتى الاشتراكية قد استطاعت أن تحــل لى هذا الأمر.

حين كنت فى سوريا فى أبريل الماضى، زرتها بالعربة بعد طول حنين. شعرت أن هناك شيئا مــازال باقيا مما يسمّى اشتراكية، مثلنا زمان، الأشياء رخيصة، والشعب خائف، والرئيس مقــدس، وبلــودان جميلة وخلاص، قال: خلا ااااص، قال لسّة، خلاااااااص، لساااااه، وظل الأمر هكذا سبعين عاما ثــم تفكك الاتحاد السوفيتى. من ورائه توابعه. تركونا فى الخلاء – لابد من حكومة، وضرائب، وزراعــة وصناعة وتصدير وتحديد نسل، وبعدها يا أولادى يا كرام سوف أصرف – وتصرفون – كل ما يصل جيبى دون أن أفكر فى أحد غيرى كما تريدون لى، بل كما تريدون لكم يا خبثاء.

إينى مصطفى هذا يتمتع برفاهية مبكرة شديدة الدلالة، لكنه ليس مدللا ولا مستسهلا، أعتقد أنه يــريح نفسه بأن يتصور أنه أكثر تدينا منى. مادام لا يوجد"نص" يمنع هذه الرفاهية فهى حقه مهما قلــتُ أنــا. الأخلاق الدينية الرسمية المعلنة تعفى صاحبها من الأخلاق الربانية. هكذا أفهم كيف أن الإنسان علــى نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره.

تحتاج رحلاتى إلى البلاد العربية وتجوالى فيها بالسيارة (وعلى الأقدام) أيضا إلى عمل مستقل. هــل هناك نصيب وبقية من عمر لأكتب ترحالا خاصا لمعايشتى ناس وطرق البلاد العربيــة؟ لــن أفعلهــا، رغم أنى مدين بقدر كبير من الوعى لرحلتى لليمن، صنعاء وثلا، والبيوت ذات الــستة أدوار منحوتــة فى الجبال منذ آلاف السنين، يسكنها ناسها هم هم حتى اليوم، ومجالس القات. صنعاء: رومــا العــرب (كما نعتها الطيب صالح) والسعودية، والطائف، والأردن، وإربد، والبتراء، وبلودان والشام، و بيروت، وطرابلس الشرق ١٩٥٤.

أتصور أن علىّ أن أرجع إلى كل هذا وأن أسجــّله، أليس العرب كل العرب هــم ناســى وطريقنــا واحد، ؟؟ ناسنا ليسوا كالناس لم أقل أحسن أو أسوأ، وطرقنا أيضا ليس كالطريق.لمــاذا كتبــت عــن الخواجات دونهم؟ وكيف أكتب عنهم لو أردت؟ كنت قد لوّحت باحتمال الحكى عن الناس والطريق فى سيناء، وسانت كاترين، ودهب والعسلة....، ثم هذا العام فى العلمين ورأس الحكمة، ثــم طابــا، حــين زرتها بفضلك يا عمنا أنور ياسادات، دعوت لك بالرحمة حين عبرت نفق أحمد حمدى أول مرة،وحين زرت جزيرة فرعون، وقلعة صلاح الدين ونويبع. زرت طابا قبل أن نأخذ الفندق إياه، ثم زرتها بعــد أن استرددناه. كلما عدت إليه أتذكر الزيارتين وأنتقل بين حالتين، وأحمد الله أننى عشت حتــى أقــارن بين حقدى وأنا وراء الأسلاك أنظر إلى ألف متر فى يد نذل قاتل، ثم أرانى مضيفا لهم بسماح وكــرم. كل واحد يعمل بأصله .

لن أكتب عن أى من ذلك. لا أستطيع الآن. ليكن الأمر متروكا لفرصة أخرى إن كان فى العمر بقية، وفى القلم عافية، وفى الذاكرة متسع، أم أن الهرب من التعرية والمواجهة ونشرالغسيل إياه هو الذى يدفعنى أن أزوغ متمثلا القول المأثور"فين الهرب يا عرب؟" نعم، وبكل ألم وخجل، حين تضم ضيق الوقت إلى حكمة الهرب تجد مبررات العزوف عن الكتابة عن بلاد العرب وناس العرب، وطريق العرب، جاهزة ومنطقية. رحلاتى إلى الجانب الآخر من العالم تسمح لى بالتعرى، بالطلاقة. رحلتى إلى داخلى تحتاج إلى الستر والصبر والتقية، أما رحلتى فى العرب وبينهم فهى تحتاج إلى مغامرة أخرى لها استعداد آخر، وهدف آخر. ماذا أقول عن السعودية وقد زرتها هذا العام مرتين مضطرا بغير أوان؟ ماذا أقول غير ما ألمحت إليه فى مسألة التأشيرة والجوازات والتأخير واحترام الإنسان العربى وغير العربى؟ ماذا أقول عن الشوارع و"الوثاق المزدوجس؟ (Double Bind أن تقول الشئ وضده على قناتين للتواصل، فضلا عن أن تقول ما لا تفعل، وتفعل ما لا تعلن).

ماذا أقول عن البؤر الثقافية، والشوق الحضارى، والحس القِيَمى، وكل هذا عايشته فى كل بقع العالم العربى، ولكن فى حجرات لها أقفالها المتينة، حركات رائدة كثيرة متطلعة واعدة، وموقف نقدى يقظ مسئول، كل ذلك مع وقف التنفيذ، والاقتصار على الحلول الفردية، والأحلام الثللية. والقصائد أحيانا .

كل ذلك يقول:

إننا نستيقظ دون أن نتخلى ،

وسوف يتراكم ما ينفع ليبقى .

مهما طال الزمن.

أجاهد نفسى حتى لا أستطرد وإن كنت لا أستطيع ألا أعرُج إلى الدار البيضاء،- كازابلانكا- لكننى أنجح فى كبح هذه الطلاقة الغامرة، علما بأن هذا العمل ليس إلا مجموعة من الجمل الاعتراضية، والشاطر يوصلها ببعض، لدرجة أنه من كثرة الجمل الاعتراضية لم يعد القارئ - ولا الكاتب- يستطيع أن يعرف أين الأصل الذى تعترضه هذه الجمل، ومن يريد أن يضع تشخيصا مناسبا لكل هذا: يورينى شطارته.

خرجتُ من البوابة رقم (٨) كما أرشدنى رجل مطارجنيف متجها إلى الأتوبيس لينقلنى إلى الطائرة، فأشار لى سائق الأوتوبيس معتذرا، وهو يوجهنى إلى طائرة منمنمة تقف بالقرب منا، وأنّ علىّ أن أتوجه إليها على قدمىّ سائرا، وكنت قد نسيت أننى هكذا نزلت على قدمىّ، لكن الصعود على الأقدام شئ آخر يشعرك فعلا أنك ذاهب لتركب تاكسيا أو أتوبيسا - محليا.

وصلنا باريس بعد خمس وأربعين دقيقة دون أى مغامرات أو مطبات هوائية أو سوء أحوال جوية، أو قصائد شعر. بسرعة جاءت الحقائب وخرجتُ. نسيت المظلة التى جئت بها من مصر- فى

الطائرة– أحسن. رددت قول أمى" إن جت فى الريش بقشيشش"، وقلت: أحرص على مـــا هـــو أهـــم، قرصة أذن واحدة تكفى، كيف لم يطلب منى أحد شيئاً أصلا بالنسبة لتأشيرة الدخول وإجراءات المطار والجوازات والذى منه؟ كيف يحمون هذه الحقائب التى نتسلمها وكأنها تُلقى بالصدفة؟ كيــف يحمونهـــا من السرقة؟ لو أن غريبا جاء ووقف على السير والتقط بسرعة حقيبة غيـــره ومـــضى بهـــا؟ وكيـــف وكيف؟ (كالعادة)، لعل هذه التسهيلات وتلك السيولة ترجع إلى أنى قادم مـــن جنيـــف، وأن إجـــراءات جنيف سارية فى بنت العم باريس، أنا فى الولايات المتحدة الأوربية فى الأغلب (حتى قبل اليورو) .

ها هو صديقى وزميلى الذى يعمل فى رين (أصبح فرنسيا الآن هو و زوجته، تلميذتى أيضا، وبناتـــه صديقاتى جدا. أكتوبر ٢٠٠٠) د. رفيق حاتم"رين" قادم هناك لاستقبالى، ليس صحيحا تماما. تـــصادف أن زوجته وبناته قادمات من مصر منذ ساعة فى نفس المطار، لم أكن أعلم.. ابنته الكبـــرى"ياســـمينة" هى صديقتى الأولى، فرحتى الأولى، قبل أن أصاحب الوُســـْطى (فـــَرَحْ) أيضا،"نسمة" (الثالثة) ولـــدت هناك ولم أصاحبها إلا هذا العام (أغسطس ٢٠٠٠)، ياسمينة تتقيأ وهى تقاوم غثيانا صـــعبا، وأمهـــم لا تدرى ماذا تفعل، أحسست بحرج لم أتبين تفاصيله إلا فيما بعد، حرج هو الذى كان له الفـــضل فـــى مصالحتى على باريس.

الأم الـــقادمة من مصر لا بد أنها تحمل معها لها ولبناتها حقائب كثيرة، وأنه لا يوجـــد مكـــان فـــى سيارتهم لحقائبى، فاقترحَ علىّ زميلى أن أترك الحقيبتين فى"الأمانات" لحين سفرى ثانية إلـــى القـــاهرة مادامت إقامتى بهذا القِصَر. فرحت فرحة الرحّالة الذى سينطلق خفيفا خفيفا. كان المفروض أن أعتـــذر أو آخذ تاكسى. لم يخطر فى بالى ذلك. تصرفت بعشم فلاح مصرى غشيم. يريد أن يـــستغل الـــصداقة فى التوفيرأو الاستنفاع والسلام.: ذهبنا إلى الأمانات متصورا أنهم –فى مطار شارل ديجول شخصيا– سيعطوننى خزنة لها قفل أستلمه ولا يفتحه غيرى إلى آخر ما سمعت وتصورت، لكنهم أخـــذوا منـــى الحقائب وإحداها مفتوحة. ركنوها بإهمال وسط كوم من الحقائب، أشفقت عليها وعلىّ، أعطونى ورقة، وخلاص. لعِبَ الفأر فى عبّى، حدثت أشياء وأنا واقف أكّـــــدت لى عدم حبكة الأمانـــات هـــذه. لعـــل الاطمئنان إلى التأمين إياه هو الذى يجعلهم يتصرفون هكذا، أنا لم ولن أؤمّن، لم أستطع التراجع.

إلى باريس مع العائلة الصديقة، والوعى بطبعى الريفى المستغِل –عشما !!– يقترب، يجر معه الخجل من ثقلى عليهم. استمرت ياسمينه تتقيأ. يبدو أن العدوى انتقلت إلى فَرَح. كدت أشعر أنا أيضا بمثـــل ذلك، أدرك أكثر فأكثر كم أنا سخيف. كيف أثقلت هكذا على هذه الأسرة دون حساب يذكر؟ فلاح أنا ما زلت لاأفهم فى الأصول الباريسية، ولاحتى القاهرية. لا فائدة. هكذا أزاحمهم وأعطلهم وأربكهـــم. لا، ليس شوقا هذا، ولا وُدّا، ولا شيئا. هو تصرف مصرى ريفى سخيف وقبيح. ياه!

وصلنا باريس وأمرت صديقى بإلحاح ألا يوصلنى إلى الفندق الذى تعوّدت أن أنزل فيه حتى يتفرغ لأحوال أسرته، وغثيان، ثم قئ ابنتيه. أسمّى هذا الفندق: فندقى، أضيف ياء المتكلم إلى أى مكان أعمل معه علاقة ولو بضع دقائق، هذا شارعى، وتلك حديقتى، وهذا فندقى، فندق متواضع ذو نجمتين، و ذكريات كثيرة كثيرة، جاهزة وحاضرة، أنزلنى صديقى بالقرب من"ميدان إيطاليا" فتنفست الصعداء، حقيبة الظهر على ظهرى، والمظلة ضاعت فى الطائرة، ويداى حرتان تتمرجحان حولى حتى كدت أرقص وسط الأشجار العريقة الرائعة طوال شارع"أراجو".

ينغص على شعورى بما ألحقته بهذه الأسرة الصغيرة هكذا،وخجلى مما فعلت،

أتوقف عن النعابة، نصف ساعة بالتمام سائرا أهز ذراعىّ على الآخر وكأنى أرقص، وصلت أخيرا إلى ميدان الجوبلان، وابتسمتْ باريس فى سرّها، (نظرت إلىّ نظرة إهلاسا – سرّا ولم تعلم علىّ باسا!!)، وكأنها انتصرت علىّ فى النهاية. شعرت أنها دبّرت كل هذا الحرج حتى لا أتركها إلى رين كما كنت مقررا. مثل الزوجة القديمة المدربة التى سمعت بنية خطبة زوجها فدبّرت مكيدة حتى تحتفظ به (القديمة تحلى، وباريس ليست وحلة)

فى الناحية المقابلة للفندق مباشرة يوجد المقهى الصغير الذى كتبت فيه قصيدة"الجوبلان" تصفهما: كيف التقيا وكيف تناجيا، وكيف تلاثما، وكيف انصرفا، تلك القصيدة التى أنهيتها بزغم أن مثل هذه الحرية هى نوع من الانتحار، أشعر الآن أن هذه القصيدة تدخّل سافر فى حرية أسيادنا هؤلاء، لو ضبطتْها منظمات حقوق الإنسان سوف يحاسبونى حسابا عسيرا." أفرج عن الضحايا تنتحر". لا يا شيخ. البديل الذى تقترحه بقصيدتك أن نظل محتفظين بالضحايا فى السجن خوفا عليهم من الانتحار، هذه جريمة أكبر من ضرب العراق!!"ماشى"!

تذكرتُ المقهى الأحمر على الناصية الأخرى. هذه هى نهاية شارع"أراجوا" ليبدأ شارع"سان مارسيل"(امتداد).

تذكرت أيضا كيف أردت أن أغيّر"فندقى" فى الزيارة السابقة لأسكن فى فندق آخر لمحته فى شارع سان مارسيل لأوسع دائرة أصدقائى من الأمكنة. العِشرة لم تهن وفضّلت"فندقى. العادة وولع الأمكنة يحولان دون المغامرة والاستكشاف.

فجأة عاودنى خجلى مما حدث فى المطار، كيف حمّلتُهم عبء انتظارى هكذا؟ علمت، دون أن أنتبه، أن طائرة البنات وأمهم قد وصلت من القاهرة قبل وصول طائرتى من جنيف بساعتين، صحيح أنهم أوحشونى، وأننى كنت أود لقاء صديقاتى الصغيرات، وأنى لم أكن فى مصر وهم فى هذه الإجازة، كل ذلك لا يبرر أن أفرض نفسى عليهم هكذا.

ابتسامة باريس أخذت تتسع لتخفف عنى، غواية متسحبة. ترحيب هادئ غير ما كنـــت أتوقـــع، غيـــر المرات القريبة السابقة،باريس تثنينى فعلا عن هجرها وقضاء مدة إقامتى هذه المرة فى فرنسا فى رين فى الشمال، كيدهن عظيم، فليكن، على عينى يا ست الكل: سوف أبقى فيكِ ومعكِ هذه الأيام، لن أثقـــل على هذه الأسرة رغم شوقى لصديقاتى الثلاث، يكفى هذه الأسرة الجميلة ما أزعجتُها به، لن أذهب إلى رين، لن أذهب إلى الريف فى الشمال، لن أترك حقائبى فى الأمانات، بل إننى من فرط السماح الـــذى حلّ علىّ فجأة، ومن حبكة مناورة باريس لاسترجاعي، قررت أن أمد إقامتى فيها بـــاريس أســـبوعا. أسبوع وحدى جدا، مؤتنسا بى، وبها، بناسها، وزوارها، وأمكنتها، ورائحتها، وريحها، وروحها، ليكن.

أنا لا أذهب لملاهى الشانزلزييه، وشبعت وجبات شهية، وخدمة فائقة حين كنت فى مونتريه فى الأيام القليلة الماضية، ثم إنى لا أدخل متاحف. الـــــلوفر نفسه لا يغرينى مثلما تجذبنى المـــارة والتجمعـــات حوله، أنا لا أصاحب فى السفر إلا الخُضرة، والجبال والشوارع المرصعة بالحجارة القديمة، والأرائـــك الخالية فى الشوارع العامة، والناس الغفل فى صحوهم وقصفهم.

الكتاب الذى حضرت أسرق له أسبوعا اختـــفَـــى فى ظلال هذه الروائح والذكريات، أحسب أنه مـــن السفه أن أقيم فى باريس يوما أو عاما لأحبس نفسى فى حجرة أكتب فيها خمس عشرة ساعة، أستطيع أن أفعل نفس الشئ فى بلدى دون سفر .

حين صدر قرار واقعى أن تأتى الكتابة فى المقام الثانى واجهنى احتمال لا معنى له يقول: ليس عندى ما أعمله هنا. كذا ؟"أهكذا"؟

قررت أن أسترد حقائبى من الأمانات فى المطار فورا ما دمتُ سوف أبقـــى وحـــدى فـــى بـــاريس، اصطحبنى صديقى د. رفيق بعد أن اعتذرت له عن السفر معه إلى رين، كان قد اطمأن إلـــى وجـــود الحجرة التى يمكن أن أستأجرها بالقرب منه فى رين، وتعجب كيف عرفت أن هذا ممكن وأنا لم أذهب إلى رين أبد.

قال لى ونحن فى طريقنا إلى المطار إن العلاقات التلقائية والحقيقية هنا تزداد صعوبة، وأنه لم يعـــد أحد يبذل جهدا أو يعمل حركات لـــلحصول على صديق أو صديقة، وما على الواحد إلا أن يعلن فـــى الصحف عن حاجته وشروطه ليحصل على ما يريد. ثمة أبواب فى الصحف خصصت لذلك، كمـــا أن صحفا بأكملها تصدر لذلك. هذه الأبواب وتلك الصحف تعلن عن المواصفات المطلوبة، مواصفات التى تريدها (أو تريده) ثم يتم الذى منه. والذى ليس منه. وثمة مكاتب لها أرقام تليفون. ويا بخت من وفّـــق رأسين فى الصداقة. كنت قد قرأت عن مثل ذلك فى أمريكا أثناء رحلة"الصباحية" إلى ابنتى فى لـــوس أنجلوس. قلت لرفيق: وما الجديد فى هذا؟ قال: نشأتْ مؤسسات جادة لتنظيم هـــذه العلاقـــات، وأيـــضا مكاتب نصب لتزييف وترويج تلك العلاقات، ثم ســـرَى عُرفٌ يُـــقـــنـــن هذه العلاقات التى أصبح لها

قواعد وطقوس، كما أن لها سماسرة وعمولات، وتسمّى هذه العلاقات بالعلاقات"ذات الصبغة الزواجية" maritalement، ويترتب على هذه الصبغة حقوق وواجبات والتزامات وما شابه، قلت له:"أليس هذا هــو الزواج بعينه"، ألا يتم كل ذلك فى علانية وتسجيل أحيانا؟ قال:"نعم.... ولكن... .

خذ مثلا: إن هذا النظام معفى من مسئولية الأطفال، والتَّرك فيه أسهل من الطلاق، والتعدد سهل أيضا فى بعض الأحيان، وكل شى ء جائز ما دام مدرجا فى اتفاق سابق. كل شئ بمعنى كل شئ فعلا. هناك إعلانات يعلن عنها اثنان (رجل وامرأة– صديقان أو خليلان أو كالزوجين) يعلنان عن حاجتهما لاثنــين آخرين مثلهما ليتبادلوا العلاقات كل، أو بعض، الوقت، بتخصيص أو دون تخصيص. وهنـــاك وهنـــاك وهناك إلى آخر ما هنالك، بحسب قدر الحرية مضروبا فى نوع المزاج. ....، (فظُنَّ ما تظن أنت أيهـــا القارئ من توافيق وتباديل جنسية وغير جنسية، واعلم أنك لم تشطح مهما شطحت).

قلت: الله أكبر، خلّنا فى المسألة الأعم، وهى الصداقة الحميمة جدا (والمؤقتـــة حتمـــا) عـــن طريـــق الإعلان، أنا أرى أنها مناسبةٌ لمن هو مثلى جدا، وأنها زواج بشكل ما، وليست مجرد"كنظام الـــزواج"، أليست عرضا وقبولا، مع العلانية، إن كل ما يعيبها دينيا هو نيّة الانفصال ابتــداء"، فقـــال:"إن ذلـــك بالضبط هو ما يميّزها، وأحيانا يعيش اثنان معا عشر أو خمسة عشر عاما ثم يقرران الزواج"، تذكرت مارادونا الذى تزوج بعد أن أنجب ثلاثة زطفال على ما أذكر.

رحت أتأمل الأمر بعمق وأفهم مبرراته حتى لمن هو مثلى، فطول عمرى لا أفهم كيف يكذب شـــاب على فتاة، وبالعكس، حتى يعلّقها أو تعلّقه باسم الحب، ثم تبدأ علاقة ناقصة موقوته، أو كاملة ومغتربة، وأنت وبختك.

على الجانب الآخر: أنا طول عمرى لا أستطيع حتى مجرد تقمّص إنسان يدفع لا أدرى كم. . ليقـــذف لا يدرى ماذا... فى ما لا يدرى أين، تجارة الهوى هذه كذب وامتهان للشارى والبائع على حد سواء.

النظام الجديد عن طريق سماسرة تجارة ما يشبه الزواج هكذا، وعلى عينك يـــا تـــاجر، قـــد يكـــون أكثرملاءمة لمن يحاول الصدق، وأنا أحاول الصدق والله العظيم". شرطى أن ترانى تلك التـــى ســـوف أعلن عن حاجتى إليها، ولها بعد ذلك كل ما تطلب. ما أسهل هذا الشرط لدرجة الاستحالة، مـــرّة قلـــت هذا الشرط لإحدى تلميذاتى فإذا بها تقول،"وهل ستحتمل ؟"، فاكتشفت أننى أخدع نفسى، وأننى أريد من ترانى رؤيتى لنفسى، وليس على حقيقتى، ما هى حقيقتى ؟ لا أعرف. خلّ الطريق مستور. شـــكرا يـــا ابنتى. نبّتهتِـــنى.

هذا النظام – كنظام الزواج – يعلن صعوبة العلاقات الزواجية، وفى نفس الوقت صـــعوبة التحايـــل عليها،

قلت لرفيق ونحن فى طريق المطار: كله صعب، لأن الحياة هى نفسها صعبة.

قارنت ذلك بما ما ظهر مؤخرا عندنا مما سمّى"زواج المسيار"،ولعل هذا اللفظ بالذات (المسيار) ينطبق أكثر ما ينطبق على الرحالة دون غيرهم، قلت فى نفسى: لم يعد ناقصا للسيدات، فى مقابل زواج المسيار للرجال، ولعلمى المُضمر بنهاية الحوار المتعدد الأوجه هذا سمحتُ لخيالى بالشطح المناسب، ثم رحت أفكر فى هذه المكاتب التشهيلاتية للعلاقات العاطفية والجسدية، ربما يكون أقرب تشبيه لها هو أنها"شركات توظيف الأحوال" قياسا على شركات توظيف الأموال، فكما أن الأخيرة كانت تنافس البنوك الرسمية للاستيلاء على رؤوس الأموال، فإن"شركات توظيف الأحوال (العاطفية ومتعلقاتها)" يمكن أن تنافس المؤسسة الرسمية (الزواج) للاستيلاء على رؤوس الأمزجة والذى منه. والله ما أنا عارف. خفت أن يكون أشرف السعد الذى هرب فى بدايات المشاكل اياها إلى فرنسا بالذات، خفت أن يبلغه أمر هذه التجارة الجديدة وهو هنا فى باريس، فيسهم فيها تمام التمام بما يزيد من حسناته، ويطيل من لحيته، ويزيد من رصيده جميعا، وهو لا يحتاج لأسلمة هذا المشروع الإنسانى (جدا) إلا لفتوى بالمقاس، ومسئول كبير نقتدى به، وبعض عطايا البركة.

عدت من المطار بعد أن استرجعت حقائبى وصديقى محتج على عدولى عن زيارتهم فى رين لدرجة أخجلتنى، اعتذرتُ صادقا، وودعته، ولجأت إلى فندقى .

صاحبى فى هذه الرحلة هذه المرة هو ذلك الجهاز الذى أكتب عليه الآن، ماذا لو لم يكن معى: هل كان الأمر سيمضى بهذه البساطة؟ هل كان الوقت سينقضى بهذه السهولة؟ يمكن"نعم"، ويمكن"لا"، كنت سأفكر أكثر، وأضجر أكثر، وأمشى أكثر، وأحزن أكثر، وأكتب وأنجزُ أقل. الجديد فى هذا الصاحب أنه قد يحرق أى ترحال، إننى إذا كنت سأنتقل إلى آخر الدنيا أو حتى أول الدنيا لأظل أمامه طول النهار وبعض الليل، فلماذا السفر؟ المنطق يقول إنه قعدة بقعدة فليلزم الرحالة قاعدتهم، السفر يسهم فى كسر ما اعتادته الحواس، والأدمغة من مثيرات وطقوس، ومع ذلك فللصديق الحاسوب حقوق ما دام قد تكبّد الحضورمعى،

فانقلب حاسوبى محاورا وليس فقط مؤديا.

جلست إلى صاحبى هذا مؤتنسا، وكان الموضوع الذى ينبغى أن أكتبه فى ذلك الكتاب الذى لم يعد هُوَ من أهم الموضوعات التى تشغلنى، كان عن"البصيرة"والحكم على الأمور"والعلاقة بالزمن" كيف نرصد كل هذا ونحن نفحص المرضى.

وأنا أكتب هذا الفصل وأحاول طرد ذكرياتِ غثيان وقئ صديقاتى الصغيرات، وخيال الحجرة الصغيرة فى بيت ريفى قرب رين يراودنى (يا خبر!! هل عاد هوس الحنين إليه؟) اكتشف وسط كل هذا تشكيلات لما هو"بصيرة" تشكيلات لم تخطر على بالى هكذا من قبل، وعجبت-مرة أخرى - كيف

تتدفق المعلومات البحتة بكل هذا النظام العلمى الرصين وسط كل هذه الزحمة وطيران الأفكـــار! وأنـــا أرتحل بعيدا عن كل علم وكل أكاديمية ؟

خذ عندك بعض هذه التشكيلات :

ثمة"بصيرة مع وقف التنفيذ"،"وبصيرة شكلية لتأكيد انعدام البصيرة"،"وبـــصيرة مقطعيــــة""وبـــصيرة ناقصة""وبصيرة مؤقتة""وبصيرة مشروطة"، هل كنت سأكتشف كل هذا فى القاهرة والتليفونات حـــولى تضرب تقلب وأنا مسئول مشغول، مشدود، محدود؟

أقول لأولادى وتلاميذى : ياناس يا طيبين أنا لم أجلس مرة واحدة لأكتب شيئا روتينيـــا مفروضـــا إلا وخرج منى ما هو غير مفروض. كل لحظة أقضيها مع القلم (ثم الحاسوب الآن) هى فرصة لا أعرف ماذا ولا مدى ما يمكن أن يخرج منها. الذى يحدث أنه غالبا ما يخرج منها مالا أتوقع، فهيّئـــوا–مـــن فضلكم – لى مزيدا من الفرص، فى فسحة كافية من الوقت، ربنا يخليكم. يقول كل واحد منهم،"خـــذ ما تشاء من وقت وفرص، إنه من عينى الإثنين". لكننى فى النهاية لا أتحصّل على شئ مـــن عيـــونهم مجتمعة، ولا أكاد أخلو بنفسى بعيدا عنهم حتى انتزع الفرصة والوقت انتزاعا، فيأتينى مثل هذا الكـــلام الجديد المفيد.

هذا السفر الذى بدأ اضطرارا انقلب إلى هذه الصدفة التى أصبحت بدورها فرصة، والذى كـــان قـــد كان. لعلّنى ما جئت إلى هنا إلا لهذا. ما"هذا"؟

أتذكر الفصل الذى ظهر فى الترحال الأول بعنوان:"بعد ظهر يوم سبت حزين". وكان ذلك فى بلغراد، التى لم تعد بلغراد، أو التى ظلت بلغراد لغير ما كانت. كنت قد كتبت عن الفرق بين جنوب مـــا كـــان يسمى يوغسلافيا، ثم شمالها، ثم غربها، وكنت قد تعجّبت لاختلاف الطباع، وحين همّ زملائى وطلبتى بنشر العمل مكتملا، قلت لهم لابد من هوامش لاحقة تقول إن ما شاهدتـــه لم يعـــد يـــصلح لـــشئ ولا لأحد، وإن الفروق اليوغسلافية (بين أقصى جنوب يوغسلافيا وغربها مثلا!!!!) التى لاحظها وســـجّلها عابر سبيل مثلى سنة ١٩٨٤ ثبت أنها كانت تعبر عن حقيقة عميقة، أفرزتْ دولا مستقلة لهـــا حـــدود، وضحايا، وجرائم بلا حدود، وإبادة منظمة، وشرف مهدرا، ونظام عالمى، نـــذل، ورئيـــس عـــالمى عيـــّل، ومواثيق لحقوق الإنسان على ورق مصقول.

تذكرت عنوان ذلك الفصل عن بلغراد وأنا أتجوّل الآن بعد ظهر يوم سبت آخر يرفض بإباء أن يكون حزينا على الرغم من أن المحلات مغلقة، والحركة أهدأ، لكن الحزن يمضى قبل أن يأتى (يا صـــلاح يا جاهين، لمَ تركتنا؟؟)، ليكن هذا الذى أنا فيه هو:"بعد ظهر يوم سبت جديد".

أريد أن أطل على الأسعار فى محلات الـــ"مونوبرى" التى اعتدت ارتيادهـــا دون غيرهـــا لرخـــصها النسبى. ووفرتها فى كل مكان، وكانت ابنتى قد اشترت لى قبل سفرى مباشرة ما يشبه القميص الـــذى

يسمونه"قميص تاء" T shirt بثلاثة جنيهات ونصف من شارع خالد بن الوليد فى سيدى بشر بجوار بيتى فى الإسكندرية، وزوجتى اشترت لى من سوريا بعشرة جنيهات"شيرتا تائيــا"!! أفــضل منـــه (هكــذا يقولون، فأنا لا أعرف الأفضل من الأسوأ، على الرغم من أننى أعرف الأقبح من الأجمل)، فوجــدت هنا فى هذا المونوبريه أنهم عاملون تخفىضا جدا، جدا، ووجــدت أن التخفــيض (التخفــيض ولــيس الثمن!!) الذى نزل على قميص التاء المماثل لما اشترته لى ابنتى يزيد عــن عــشرة أضــعاف ثمــن قميصى (أى حوالى: خمسون جنيها). ولك أن تتخيّل أصل الثمن. إذا كان التخفيض خمسين جنيها فكــم كان أصل الثمن، إن الفرحة بكبر التخفيض تنسينا حقيقة القيمة، فماذا لو أن القميص الذى اشترته ابنتى نزل عليه التخفيض وثمنه كله ثلاثة جنهات ونصف، هل يمكن أن يخفض أكثر مــن جنيــه؟ فتــصبح المقارنة بين تخفيض جنية وتخفيض خمسين جنيها لصالح التخفيض الأخير!!!، أرأى تَ كم توفر لــك محلات المونوبرى فى باريس عن محل الحاج مصطفى ألف صنف (مثلا) فى شارع خالد بــن الوليــد بالاسكندرية.

حدّثنى أبى أن تاجر قطن فى بلدنا فقد حقيبته وكانت مليئة بحصيلة تجارته، فأرسل المنــادى عمــى الشيخ"أبو العلا"(القصير الأحدب الذى كنت أخاف منه، ثم صادقته كبيرا) لينادى حول داير الناحيــة فــى بلدنا أنه:"يا أهالى يا فلاّحين يا صغيرا أهالى هورين: ثم يذكر ضياع الحقيبة التى شكلها كذا كــذا، ثــم ينتهى أن من يجدها سوف يأخذ حلاوتها (مكافأة)" مائتين جنيه"، كانت العادة أن يقول المنادى إنه ضاع كذا كذا" واللى يلاقيها ياخد حلاوتها أحسن منها!! لكن"عم أبو العلا" هذه المرة حدد الحــلاوة بمــائتى جنيه (أيام زمان)، وكان هناك خواجة سمسار (قطن أيضا) يجلس على الدكة أمام دكان العراقى البقــال فسمع عم ابو العلا ينادى، فارتفع حاجباه– حقدا أو عجبا– وهو يقول:"ميتين جنيه خلاوة والباقى كام يا خبيبى" فصارت مثلا.

حين تصل التخفيضات إلى عشرات(أو مئات) الجنيهات فما هو أصل الثمن الذى انخفــض يــرحمكم الله !!

يشترى الأذكياء والذكيّات (جدا) من منطلق"كم وفروا"، وليس"كم دفعوا"

أليس هذا هو المنطق الذى نسيّر به اقتصادنا حين نتكلم عن نجاحنا فى الاقتراض بفوائــد أقــل، أو نفرح بالاقتراض من الداخل دون الخارج، كذا مليارا، وبدلا من أن نربط هذه الأرقام بأرقام الإنتــاج، نربطها بما وفرناه بالمقارنة بالقروض الأخرى؟ يا فرحتى .

كلّمت تلميذتى وزميلتى أم البنات فى فندقهم، اطمأننت عليهن، لهجــة الأم ليــست تمامــا، ودّعتهــا ودعوت لبناتها بالسلامة، وطلبت منها ألا ينتظرونى فى رين .

الأحد ٢٧ يونيو ١٩٩٣

ليس عندى خطة، ولن أمضى الأسبوع مع الكتاب إياه حتى بعد أن أصبح كتابى وليس كتابهم، يلـــوح لى وعدٌ ما، من مجهولٍ ما، أننى مقبل على أمرٍ ما، فى هذا الأسبوع الـــ"ما". أنا مـــصمم، والمجهـــول مصمم، ولسوف نرى .

نزلت أتجول مثل زمان. ربع قرن، نعم مثل زمان، أعرف طعم هذا الهواء. أنا متأكد. اليوم الأحـــد. الشوارع خالية أكثر من أمس لكننى أذكر أن المخابز مفتوحة، اشتريت رغيفا"باجيتـــا" آكلـــه حافـــا، لا أعرف أصلا لكلمة حاف هذه، وهى من أجمل الكلمات العامية، وبعض المرفهين لا يعرفون أنها تعنى الخبز دون"غموس"، بل قد لا يعرفون كلمة غموس أصلا، مع أن غموس كلمة عربية، وعلـــى مجمـــع اللغة أن يدخل حلمة"حاف" لتتضح المعانى مثلما اتضحت عندى بالممارسة. لمحتُ بجوار المخبز الذى اشتريت منه الرغيف غسّالة أتوماتيك، لا يرعاها"سرّيخ" ابن يومين، تعمـــل بـــالعملات أوالماركـــات، ويستلم الواحد ملابسه"توموتيكى" وهو واقف"، يا حلاوة!! هكذا يشترى"المستثمر" عددا من العدد، يهيئها ببعض البرامج، وينام فى بيته. ثم يأتى يلم الفلوس، أصبحت المعامل ومراكز الأشعة – فى واقع الحال – تعمل بنفس طريقة هذه الغسالة فى الطب، وربما يبرمجون الصحة النفسية على نفس النمط، تـــدخل دماغك الذى تجرأ أن يتحرر، حتى بالمرض، ولا مؤاخذة فى مثـــل هـــذه الغـــسّالة، فتزيـــل منـــه أى احتمال"آخر"، !! والله فكرة!!!!

حملت رغيف"الباجيت" أظن كان بثلاثة فرنكات وستين سنتيم ،ما يعادل جنيهين مصريين، وأظن أنـــه أصبح الآن موجودا فى مصر، ربما عند السويس شاليه، فى القاهرة، وسان جيوفانى فى الإســـكندرية، وربما غيرهما، لكننى هنا أجد له طعما آخر، فى جو آخر، أمسكتـــُه بالورقة الصغيرة حول منتـــصفه، وأخذت أتأمله فى غزل عفوى. جلست على أريكة من أرائك الرصيف الجميلة، ورحت أقضمه قضمة قضمة، نفس الريح والرائحة.

لم تُتَح لى هذه الفرصة أبدا بعد سنة ١٩٦٩، زرت باريس أربع مرات على ما أذكر، غير هذه المرة، لكننى فى كل مرة كان معى بعضهم، وكنت أتمنى أن أفعل ما أفعله الآن فى السر، لكنّ ملاحقتهم لـــى بالمطالبة بالمشاركة فى الإفطار والغداء والعشاء، واستغرابهم من كهل مثلى قادر ومستور، يفـــضل أن يأكل العيش الحاف هكذا فى الشارع، كل ذلك منعنى تماما من مثل هذه الفرصة الحقيقية.

أية فرصة أن أجلس فى شارع"أراجو"، والجو غائم والحمد لله، أقضم رغيفا حافا؟ هناك أشياء وراء الشىء، هى هى الفرصة التى جذبتنى إلى هنا دون سابق توقع، ألم أقل إن مجهولا نادانى فأجبتُ؟ ألـــم أقل إننى تمنيت مالا أعلم فأُعطيتُ ما تمنيت؟ ولكن ماذا تمنيّت؟ الآن وأنا على هذه الأريكة أستطيع أن أجيب:

تمنيّت أن ألتقط أنفاسى!!!، وهأنذا أفعل .

ألتقط أنفاسى. من ماذا؟

من كل شىء، كل شىء.

التقطتُ أنفاسى مرّتين قبل ذلك فهل تكون هذه هى المرة الثالثة؟

فى كل مرّة ألتقط فيها أنفاسى يتحوّل مسارى بعدها إلى ما قـُدّر له، باختيارى.

المرّة الأولى كانت سنة الامتياز فالنيابة (٧٥-٩٥) وفيها استطعت أن أتخلص من أن يكون نجاحى فى الامتحانات بناء عن ضغط والدى ودعاء والدتى، قلت حينذاك، آن الأوان أن أنجح لى، وبدعائى أنا مباشرة دون وسيط، ومن يومها أخفيت توقيت أيام امتحاناتى عن الجميع، ونجحت، جدا، حتى الآن .

والمرّة الثانية كانت هنا فى باريس سنة كاملة (٨٦-٩٦) لم أفعل فىها أى شئ علمىّ بالمعنى الشائع، رغم أننى كنت فى مهمة إسمها"مهمة علمية"، لكننى التقطت أنفاسى بعيدا عن ما يسمونه علما، وعن ما يتصورونه مهمّة، وكان ناتج التقاط الأنفاس هذا أن كتبت أولى كتاباتى وأنا أعبر الجسر بين الطب والأدب ذهابا وجيئة، كتابى الأول:"عندما يتعرى الإنسان (صور من عيادة نفسية)، كذلك كتبت أولى نظرياتى عن"مستويات الصحة العقلية"، ورغم أننى نسختها بعد ذلك إلا أنها ظلّت تمثّل بداية تفكيرى المرتبط بالهيراركية والتنظيماتية المتداخلة للدمار البشرى، وللوجود البشرى، وبدا لى أننى أمر الآن بنفس التجربة .

هل هذه هى المرّة الثالثة؟ وهل يخرج منها ما ينبغى قبل ألا تكون لى أنفاس ألتقطها أصلا؟ فإن كانت فرصة حقيقية؟ فهل يصلح لها أسبوع؟ من يدرى؟"يصلح ونصف"."،هكذا ردّ مَن وعدنى بما تمنيّت.

قلت له: ماشى كلامك .

أكملتُ الرغيف الحاف واستطعمته أكثرمن أكل مطعم مونتريه ذى المائة نجمة!!!، الرغيف الحاف هنا أشهى وألذ، كدت أقول: أشرف وأطيب، لكننى تراجعت، فما عاد يجدر بى أن أنعت كل ما هو رفاهية بغير ما هو. الرفاهية شئ، وما يحدث من طقوس فى هذه المطاعم شئ آخر. كانت آخر وجبة أكلتها هناك فى ذلك المطعم كالمعبد المقدس، تحتاج لتسجيل، طلبت طلبا كأنى فتحت بختا فإذا به مكتوب بلغة البنغال. أحضر الرجل المجلجل منضدة بجوار المنضدة، (منضدة و طاولة) قلت أعرف هذا الطقس، سوف يحضر"سبرتاية" ويتمم تسوية"الشىء" أمامى قبل الأكل، لكن الرجل لم يـُحضر سبرتاية ولا شواء، ولكنة أحضر سمكة كبيرة مطهية وكانت مستلقية فى الطبق المستطيل، وكأنها حسناء تأخذ حمام شمس على الشاطئ قبل نزولها للبحر، كدت أتصورها وقد سندت رأسها بذراعها فى تثنٍّ وقور، استخسرتها فى الأكل والله العظيم، كانت إما مشوية أو مقلية (فلا يوجد احتمال ثالث إلا أن تكون نيئة) وأرانى الرجل إياها، وكنت أعرف مثل ذلك فى محل"بيس" أبو زيد فى الهرم، ومطعم لا

أعرف اسمه فى"أبو قير"، لكنّهم يحضرون السمك هناك نيّئا لأختار قبل التسوية، أما هذه السمكة التـــى ظهرت لى فى البخت فقد حضرت وقد تم نضجها بالفعــل، فماذا يريد منـــى أو منهـــا هـــذا الرجـــل المجلجل؟ فأشرت برأسى له علامة الموافقة حتى أنــهى الموقف، وهل أملك حق الاعتراض أصلا؟ ثم جاءت المساعدتان الجميلتان الصغيرتان الشهيتان المقليتان (فى الأغلب) ووقفتا فى أدب مبتــسم علـــى مقربة من الرجل المهذب. وقفتا، وأخذ الرجل يلعب بالشوكة والسكين مثل المايسترو، يخـــرج جـــزءا مثل رأس الدبوس من تحت خياشيم السمكة العظيمة ويريه لـــلجميلتين ويضعه فـــى الطبـــق الآخـــر، فتـــــتـــعجّبان انبهارا (هكذا بدا لى)، هل هما اللتان سوف تأكلانها ؟ ثم يقطع لا أعرف ماذا، كمـــا لا أعرف كيف، إلى أن أتم العملية الجراحية بين تنهيدات التلميذتين المعجبتين الصامتتين، ونقل كل ذلـــك إلى طبقى، وقال لى بأدب جم:" شهية طيبة يا سيدى" فقلت له بالعربية فى سرّى:"تسلم إيدك"، وهمهمت بالفرنسية بما فتح الله علىّ، ولم أجد فى طعم ما قدّم ما يستأهل أيا من هذا، بل ما يستأهل الأكل أصلا، وقمت وأنا جوعان.

تذكرت ذلك كله وأنا أقضم الباجيت الحاف على الأريكة على رصيف شارع"أراجو"، لماذا يجعلـــون من الأكل ما يشبه تقديم القربان هكذا؟ كثرة نقود أم قلة آلهة؟ الذى"معه قرش محيّـــره يجيـــب"شـــيف" يـــمِـــنـــْظـــَرُهْ"، واللى"مامعاهش قرش يغـــيـــَّره يجيب عيش حاف ويقمّره".

ذهبت إلى السوق القريب جدا. لم أكن أعرفه من قبل رغم ألفتى مع الحى كلـــه، لكـــن هـــدانى إليـــه صاحب محل مشروبات وهو يفيدنى أن محلات الأكل لا تغلق يوم الأحد، فاشتريت من السوق أشـــياء كثيرة من بينها فرخة كاملة مشوية جدا، بثمن زهيد نوعا، ورجعت فرحا بالفاكهة ورقائق البطـــاطس، والفرخة، والبارد، وقلت أدلّع نفسى وآكل أشياء أعرف اسمها وأحب طعمها، مع تحيـــاتى لتوصـــيات الشيف فى مونتريه، وأهم من كل هذا أنى فعلت تماما ما كنت أفعله منذ ربع قرن فـــى حجرتـــى فـــى الحى الثامن عشر على أعتاب المونمارتر.

بدأت"الجرعة التدعيمية" تحى كل ما كان. تتلاحق بسرعة رائعة دون قـــصد محـــدد. فـــــبمجرد أن جلست على الأرض فى الغرفة فى الفندق، وفرشت الورق حتى لا تتسخ أرض الحجـــرة، شـــعرت أن الربع قرن الذى مضى لم يمض. كان ذلك حين كانت الأمور غير ذلك، لم أكن قـــد بـــدأت مـــشروع المستشفى الخاص فى مصر بعد، وكنت أغلق عيادتى من بعد ظهر الثلاثاء حتى مساء الـــسبت، ولـــم أكن، ولم أكن، ولم أكن، وكنت، وكنت وكنت، وهأنذا: أفكر، وأحلم، وأؤلف، وأسافر بعد كل مـــا لـــم أكُنــــْهُ وما كنتُه. وكأنى لم أبدأ بعد.

قالت لى فتاة الفندق (فندقى) إنه لا توجد أماكن بدءا من غد، وإنها تعتـــذر لأن الـــسياحة، والطلبـــة، ويونيو، وكلام من هذا، تذكرت رغبتى أن أقيم بالفندق الصغير المجاور الذى لمحته فى شـــارع ســـان

مارسيل. أريد بهذه النقلة أن أبتعد عما تعودته موخرا، لعلنى أقترب من ذلك العام الماثـل حـالا فـى وعيى (٦٨ / ٦٩).

حين نزلت فى فندقى هذا (الذى أتركه راضيا فرحا) منذعامين لما كنت قد سبقت وفداً جاء لحـضور مؤتمر من إياهم، كانت الدعوة الأصلية تشمل أن ننزل على حساب شركة دواء ما لمدّة يومين أو ثلاثة فى الفندق الكبير Le Grand Hotel فى ميدان الأوبرا فى باريس، لكننى سبقتهم بليلة أو اثنتين لأتـزود من باريس بما يجعلنى أحتملهم، فنزلت فى فندقى المتواضع هذا، وحين وصلوا إلـى الفنـدق الكبيـر هاتفتهم، فأصرّ زميلى (الذى كان يبدو صديقا – بعض الوقت – أيامها) على أن يعرف أين أنزل فـى هذه الليلة الزيادة أنا وابنتى، وأصررت ألا أريحه، لأن كل ما كان يريده هو أن يعرف إن كان فنـدقى بنجمتين أو أربع، فيصنفنى بعدد نجومى كما يجب، ويرتاح لتفوقه النجومى علـىّ، ولا مـانع مـن أن يشهر بى ويفسّراختيارى هذا بقلة الأصل، أو بالبخل، إنْ لـَزم الأمر، فندقى هذا ذو النجمتـين، أدفـع فيه حوالى أربعمائة فرنك (وكنت أدفع سنة ٨٦٩١ اثنى عشر فرنكا فى فندق النجمة الواحـدة) وهـذا الذى اسمه الفندق الكبير فى ميدان الأوبرا والذى ينزل فيه زميلى على حساب شـركة الـدواء ليلتـه تقترب من الثلاثة آلاف فرنك، ولا يوجد فرق من حيث الخدمات والتليفزيون والنظافة والتدفئة، اللهـم إلا فيما يتعلّق بتوصيات الشيف والفخر عند العودة بذكر اسم ما أوصى به شيف فندق كـذا(إن كنـتَ شاطرا وحفظت اسمه)، المرضى هم الذين يدفعون ثمن كل ذلك طبعا، لأن شركات الدواء لا تـصرف علينا هذه الملايين من أجل سواد عيوننا، ولكنها.... إلى آخره، المهم، ذكرت ذلك كله لأتحـدث قلـيلا عن سذاجتى آنذاك، فقد كتبت لصديقى، هذا (الذى كان صديقى) خطابا جادا شريفا عند عودتى أعتـذر فيه عن عدم إعطائه رقم تليفونى فى فندقى المتواضع، وأذكر أننى تحدثت فى ذلك الخطاب عن معنـى الناس،والطريق، والشجر، والنبض،ونجوم السماء،ونجوم الفنادق، وتصوّرت أننى قد احترمـت بـذلك إنسانيته، وحبى له، وأملى فيه، لكن ما حدث بعد ذلك علّمنى أن أدقق الخطاب لمن أتوجّه به إليه، فلا آخذ المسألة جدا، و لا بهذا العمق لمن لايرى إلا نوع رباط العنق واسم العطر الخاص، ومن لا يعلـم أن العلم – بالتالى– قد يصطبغ بنفس الطريقة التى يربط بها رباط عنقه أو يتذوق بها نوع عطره.

من أهم ما أكتسبه بالسفر هو أن ألتقط أنفاسى قبل أن أتوه وأنسى، فقد وجدت نفسى قبل سفرى هـذا وقد كادوا يسرقوننى لألهث وراء قيمهم، فأؤلف ما ينافسهم، لا ما ينبغى، الأبحاث العلمية التى يمكـن أن يموّلوها هى من نوع الخمس نجوم، أنا أتصور أن مهمتى هى الإنارة المتسحبة كشعاع شمس يدخل من شق جدار قاعة مظلمة تتراقص فيه حبّات التراب فى نغم خاص.

لا يا شيخ؟!!

الأحد ١٩٩٣/٦/٢٧

انتقلت إلى الفندق الجديد وقد كان أفضل مرّتين من القديم، وأرخص ثمانين فرنكا، فكيف هذا؟ لم أتوان عن سؤال صاحب الفندق الجديد تفسيرا لهذا الفرق، ولم يتردد فى الإجابة بأدب جمّ أنه"لا يعرف" .

هأنذا أُقيمُ بيتا جديدا، ركنا جديدا، سوف أعود إليه حتما حتى دون أن أعود. ما أوسع ممتلكاتى وأسهل اقتنائى، الآن فهمت أكثر ماذا كان يعنى زميلى، الذى استقبلنى فى المطار من أنى أبنى لى عشا حيث أحل، أرسى فىه بعض نفسى فأعود إليه كما أشاء بكل وسيلة، حتى خيّل إلىّ أن روحى تستطيع أن تحوم حوله – ذبابة خضراء– بعد ما يحال بين جسدى وبينه. من يدرى؟؟!!!

بعد الظهر شددت الرحال إلى الشانزلزييه، أحد المعالم التى أكرهها، لكن زيارتها من ضمن الطقوس التى أمارسها، وليست كل الطقوس محببة دائما .

ليس معى تذاكر للمترو، ولم أجد فى محطة الجوبلان تذاكر، فسألت فتاة نشطة دخلت مسرعة إلى المحطة: من أين أحصل على التذاكر، فلوّحت لى بيدها أنه من أى مكان هنا أو هناك، وضربَتْ بساقها العمود الحديدى الحاجز فى مدخل المحطة دون أن تضع تذاكر ولا يحزنون، ودخلتْ غير ناظرة إلىّ. فهى ليس معها تذاكر مثلى، فقلت أفعل مثلها وما يحدث يحدث، وأنت فى روما افعل مثل أهل روما ،ها هم أهل باريس يزوّغون ويقفزون. دخل شاب آخر مسرعا فانحنى من تحت العمود الحاجز، ودخل دون تذاكر، فقلت هذا ثانى تشجيع، ولكن ماذا لو ضبطونى وأنا أستاذ جامعى قدر الدنيا، ماذا لو ضبطونى وأنا أقفز فوق الحواجز أو أدفعها قهرا وبسرعة دون تذاكر؟ يبدو أن يوم الأحد له وضع خاص. ثم ماذا لو كسر هذا العمود وأنا أدفع هكذا؟ لا بد أن تلك الدفعة الخاطفة تحتاج لتمرين خاص، والألعن الألعن لو انحنيت كى أمُرّ فانحشرتُ تحته وأنا جسمى باسم الله ما شاء الله، فانسحبت بغير هدوء .

خرجت إلى الشارع. قال لى أحدهم أن علّى أن أواصل السير إلى"ميدان إيطاليا" وسوف أجد التذاكر فى المدخل الرئيسى فى المحطة هناك، وفعلت، ولم أجد المدخل الذى يبيع التذاكر. وكدت أقفل راجعا إلى الفندق، لكن الباب الأوتوماتيكى (بديلا عن الحاجز الحديدى) ذا الاتجاه الواحد فتح ومرّ منه أحدهم خارجا، ثم فتح ثانية وبدا على طرفه شاب أسود نحيف رقيق، ولا أدرى كيف التقط حيرتى بهذه السرعة، فتوقف عن المرور وأشار لى إن كنت أحب أن أدخل إذّ سوف يحافظ لى على فتحة الباب بالوقوف حيث هو، حتى أتمكن من الدخول، أدخل بسرعة مهتديا بإشاراته وهو يمسك بالباب الذى فتح له ليمر فى عكس الاتجاه خارجا، أدخل وأنا لا أكاد أصدّق، ثم يواصل هو سيره، مخالفة رقيقة بالمقارنة بالخبط والأكروبات السابق ذكرهما – مخالفة محسوبة بالتكنولوجيا، وهى مخالفة تحت رعاية

وبإرشاد وكرم إخوة فى الإنسانية والتزويغ، هذا التعاون الصامت ضد القانون دون مقابل، فشكرته بالإشارة بشكل واضح، وخرج مبتسما.

أتعجب من هذه السرعة الغريبة التى يتكلم بها البشر صامتين. وذلك الاتفاق غير المكتوب على مخالفة القانون بالأصول الجديدة، عقود اجتماعية خفية تسرى هنا وهناك من وراء أنف الحكومات واللوائح. هذا القانون غيرالمكتوب هو قانون أيضا له قواعده ومواعيده وشروطه والتزاماته، هل يكون مثل هذا القانون هو الذى جعل الإرهاب عندهم لا يؤثر فى السياحة، واللاقانون عندنا فى مصر هو الذى خرب بيت السياحة مع أن الضحايا عندنا ندرة، وعندهم السائح مسئول عن مقتله؟

القانون (الفعلى) عندهم محسوب ومخالفته محسوبة، واللاقانون عندنا، برغم قلة ضحاياه، يجعل الأمر سداحا مداحا. ولا يستطيع الغريب أن يحسب احتمالات المكسب والخسارة أو المقتل والنجاة .

وصلت إلى الشانزلزيه كارها، ووجدتهم كأنهم وضعوا كل أدوات حفر مترو أنفاق القاهرة هناك. ابتسمت وأنا أتخيل المنظر فى شارع الملك فيصل، أو ميدان النافورة بالمقطم والعمال يفترشون الأرض صباحاً وفؤوسهم ومقاطفهم أمامهم ينتظرون أن يفتح الله عليهم بمقاول يلتقطهم من على باب الله. قلت لابد أن الفرنسيين بعد أن أنهوا إقامة المترو عندنا، أحضروا بولدوزاراتهم وفئوسهم وافترشوا أرض الشانزلزيه هكذا فى انتظار مقاولى السوق الأوربية المشتركة. هل يحفرون هنا مترو جديدا أم ماذا؟ المهم كل الشارع ملئ بالسقالات والحواجز، لكن بنظامٍ ما، فرحت فى سرّى لأنى وجدت سببا مباشرا لكراهيتى لهذا الشارع الذى ليس لها حل، و التى تتصاعد بمجرد الوصول إليه ــ شعرت – دون أدنى وجه شبه أو حق – أننى فى عين الصيرة أو طريق مجرى العيون الذى لا تنقطع منه المياه الجوفية البشرية إياها، ما علينا.على الرغم من أنه ليس ثمة رائحة ولا مياه، إلا أن مشاعرى السلبية وجدت ما يبررها، وحتى إن لم تجد ما يبررها، فهى تحاول أن تزيّف أى شئ لصالح ما تعتقد.

فى أول الشارع ظهرت لافته تغيير النقود، هو هو المكان، هو هو المحل، هى هى الوجاهة، هو هو ما خدعنى فى تبديل النقود فى المرة السابقة، حيث استلمت النقود أقل خمسين فرنكا فى المائة دولار على ورقة مكتوبة ومختومة لأسباب لم أفهمها حتى الآن، قلت فرصة لآخذ حقى: وبحماس شديد قلت: ولسوف أنتقم، وأفقسهم، وآخذ حقى (الأدبى على الأقل) منهم هذه المرة، لا أحب أن يخدعنى أحد، وخاصة إذا كان"خواجة"، فدخلت: ووجدتها كأنها هى هى الجميلة نفسها أو أجمل منها، جمال مصنوع بحرفية، وقرأت بهدوء شديد حتى لا أقع فى خطأ المرة السابقة، فإذا السعر الأعلى من البنك مكتوب بمنتهى الوضوح وأنه لا عمولة no commisssion. صح. سألتها ماذا يعنى ما هو مكتوب"لا عمولة"؟، فغنَجَتْ قائلة إنه يعنى ما هو مكتوب:"لا عمولة" يا مسيو، وأعطتنى خريطة باريس مجانا أتلهى فيها، قلت لها: أنت متأكدة أنه"لا عمولة" قالت: طبعا هذا مكتوب، هذا أمر رسمى، فأعطيتها المائة دولار؟

فأعطتنى النقود ناقصة الشئ الفلانى (أكثر من المرّة الماضية، أى والله، حتى أننـــى أخجــل أن أقـــول الرقم)، تحفزت أكثر وأنا أتذكر الخبرة السابقة وردودها، قلت لها كيــف، فانقلبــت ســحنتها وذهــب جمالها– أى والله– وأعطتنى ورقة صغيرة بها رقم المبلغ نفسه الذى استلمته، وتذكرت أن هذا هو مــا كان تماما بالحرف الواحد فى المرة السابقة لكننى كنت قد نسيت التفاصيل، وقلت لها:"لقد صرفتُ أمس فى المطار بكذا"، فقالت:"هذا هو، واذهب إلى البوليس ومعك الورقة". ثم أكملتْ: نعم لا توجد عمولـــة ولكن نسبة كذا مقابل خدمة كيت، ولا أدرى ماذا مقابل لا أدرى كيف. . إلخ (كلـــه بالفرنـــسية التـــى خانتنى طبعا) وكلام لا أعرف له أولا ولا آخر، ملأنى غيظ فظيع لأننى لم أكن أحتاج أن أغيّر نقـــودا ساعتها، كنت داخلا فقط أمحو خيبة قديمة، وأتحدى، فلبست الخازوق نفسه، وأخذت أتحـــسس فـــروة صلعتى أتأكد أن الخازوق قد وصلها بالسلامة، ونسيت كل الذى كنته من الـــصباح البـــاكر، ونـــسيت حكاية البسط والبساطة، والولادة وإعادة الولادة... وهذا الكلام كله، هل فقدُ خمسين فرنكـــا (أو أكثـــر قليلا) فى لعبة شانزلزييهية، من واحدة مزيفة الجمال محترفة الوقاحة يفعل بى كل هذا؟، هل أنا الـــذى قلت سوف أتغيّر وتتغير علاقتى بالنقود والممتلكات، وبالأهداف؟، حاولتُ أن أمنع الخازوق من البروز من منتصف صلعتى بعد أن وصل بالسلامة فكانت المحاولة بمثابة إدخاله من جديد، فهمـــت لمـــاذا إذا خوزق إنسان فعليه أن يصبر حتى يطلع الخازوق بالسلامة من الناحية الأخرى، إذا لم يكن قد قـــضى عليه تماما (هذا مبدأ جيد فى الحياة، فتذكّـــر فقهك الله)، حاولت أن أطرد ذكرى حرب الخليج وهزيمة ٧٦،

جلست على أحد المقاهى الفاخرة التى كم وعدت نفسى بالجلوس عليهـــا حـــين ميـــسرة، واجهتنـــى بولدوزرات وحواجز مترو الأنفاق) هكذا سميـــتها) ثم رائحة عين الصيرة التى فرضتها بالعافية وهـــى غير موجودة أصلا، ثم بقايا زوايا قصر العينى– كل سقالات الدنيا أحاطت بى، فنظرت حـــولى علـــى كراسى القهوة فرأيت كل من هب ودب ممن لا أعرفهم، ولا أريد أن أعرفهم، ليسو ناسى، لـــست هنـــا من أجلكم، ناسى أنا هناك فى المونمارتر، والجوبلان، ووسط باريس فى سان ميشيل، وأمام مـــصطبة عم مصطفى أبو أحمد فى المظاطلى مركز طامية، أما هؤلاء الناس فهم تبع النظام العـــالمى الجديـــد، حتى قبل أن يصبح جديدا .

قمت كالملسوع من المقهى قبل أن يأتى النادل، وهو لابد قريب البنت المزيفـــة الجمـــال. المحترفـــة النصب، ولا بد أنه يعرف ما فعلته به، أليسا من مواطنى الشنزلزييه؟ قمت زاغرا له وهو مقبلٌ علـــىّ، هكذا تصوّرت، ولم يكن ينقصنى إلا أن أتصوّر أن الناس تشير علىّ أن العبيط أهه"اتخـــمّ" مرّتين بـــين المرة والأخرى سنتان والذى لا يشترى يتفرج، وانطلقت لا ألوى على شىء.

أخذت أتأمل الموتوسيكلات التى تملأ أرصفة الشارع، وأرى وأقرأ أرقـام اسـطوانات محركاتهـا، والخوذات الملقاة بجوارها مربوطة إليها، وأقارن كل ذلك بموتوسيكلى الجديد الذى لـم أركبـه أبـداً، وأذكر خوذتى التى اشتريتها من مونتريه، كل ذلك لأشغل نفسى وأنـسى ذاك الـذى اخترقنـى حتـى صلعتى منذ قليل، وكلما زاد لسع الخازوق زادت سعة خطوتى، قدماى لم تؤلمانى بعد، وركبى شـرّقت حتى الآن، وآلام الخازوق تتلاشى، تتلاشى تدريجيا.

أتذكر أن أرعب ما كان – وربما ما زال ــ يرعبنى من وسائل التعذيب هو أن يدخلوا فىّ خشبة غير مشذبه (بها شظايا جانبية) حتى أعترف، وكنت أتصوّر أننى يمكـن أن أقـاوم الـصعق بالكهربـاء، والضرب، والتعليق من الأرجل ولكننى حتما سوف أضعف أمام هذا الخازوق الخشبى غير المـشذب، وقررت أن أعترف لهم إذا اكتشفوا نقطة الضعف هذه، ولكن المصيبة أننى حين كنت أطـاوع خيـالى حتى هذه المرحلة، هى أننى لم أكن أدرى بماذا أعترف، فلا أنـا محـرِّض ثـورة، ولا أنـا سياسـى معارض، ولا أنا شىء، بل إننى متهم من أصحاب الأصوات العالية (الناحية الثانية) بـأننى إصـلاحى جبان، (ضد ثورى تنويرى)، ثم إننى لا أعرف أحد أصلا يصلح أن أعترف عليـه حتـى مـن بـاب الميكدة؟، وحين أفيق من خيالى هذا ولا أجد فى كل تاريخى ما يبرر أيـا مـن ذلـك أصـلا، أطـرد تفسيرات فرويدية تتعلّق بهذه المنطقة من جسدى، وأشخط فى فرويد أن يبعد عنى

حمدت الله أن خازوق تبديل النقود فى الشانزلزييه لم يكن خشبيا، بل كان ناعما مثل بنت"الفرطئوس" التى ألبستنى إياه، لا أعرف معنى هذه الكلمة"الفرطئوس" لكن القارئ يعرف طبعا ما أقصد، وإن كـان التعبير العربى الفصيح يقول: فرطس الخنزير مدّ فرطوسته لأن فرطوسة الخنزير أنفه، يا حلاوة، والله كانت مثل ذلك بعد أن اختفى جمالها المزيف وهى تبرز لى أنيابها التبريرية.

من الكونكورد إلى شاطئ السين. لست أدرى ما الذى جعلنى وأنا أواصل السير هـذه المـرة أسـأل عن"الشاتـليه" بالذات، وأنا ليس لى أية علاقة بالشاتليه تحديدا، لكن"هكذا"، قال لى العسكرى الظريـف إن أقصر طريق هو كذا وكيت، فقلت له: أنا لا أسأله عن أقصر طريق ولكـن عـن أجمـل طريـق، فابتسم. وتفتحتُ من جديد، ويضرب الله النصبَ بالرقة فإذا هو ذائب،

هذا هو"السين" الصديق، وسوف أصل إلى الجسر الجديد (پون نيف) و هو له شأن معى بكل ما يعنى ما قدّمت، واستبدلت بسؤالى عن الشاتـلّيه سؤالى عن الجسر الجديد، وأغلب من سألت كـان سـائحا لايتكلم الفرنسية بطلاقة، لكن كم توقف، وكم نظر فى خريطته ونحن فى عز الليل (المغرب يحلّ هنـا بعد العاشرة فى هذا الوقت من السنة)، وقال، وسمعت، وأشار، وفهمت، وأعـاد، وصـدّقت ومـشيت. وقالت، ومشيت ومشيت، وقالوا، ومشيت، ووصلت إلى الجسر الجديد، بعد أن مررت بما يقـرب مـن خمسة كبارى، ولم أكن أتصوّر كل عدد هذه الكبارى مع أنى قطعت هذا الطريق عـشرات المـرات.

وعلى أغلب الجسور وقف الشباب يرقصون ويغنون من كل جنس ولون، يارب لمَ مصر ليست هكــذا مع أنها أجمل؟

كنت قد لاحظت أن القبل والأحضان والذى منه فى الشوارع أقل بشكل واضح من مــرات زيــارتى باريس من قبل، أهذا صحيح أم لأننى لم أقض هنا سوى نصف سبت ويوم أحد فقط، لكن الأحــد هــو الأحد، و هو يوم السكارى الملقين على مداخل المترو، وغير ذلك. فماذا جــرى؟ هــل صــد الغــزو الأمريكى نفوس الناس عن الحب فى الشوارع مثلما سُدّت نفوسهم عن تذوق الجمال بنشر هذه المبــانى الزجاجية مسطحة الوجدان؟ أم أننى أنا الذى أصبحت كهلا فلم أعد انتبه إلى هــديل الحمــام وزقزقــة العصافير، ورسائل النظرات، ورائحة اللثم العابر، والحضن الغائر؟

لم أكد أصل إلى هذا التساؤل حتى وجدتهما فوق الجسر الجديد (بون نيف: أكره هذه الترجمة لكننــى أعملها بالعند فى لافتات بلدنا المعرّبَة إلى لغة لا تُقرأ). أما"هى" فقد جلستْ القرفــصاء فوقــه، و"هــو" ممدد الساقين تحتها،على الأرض، وقد أسند ظهره على حاجز الجسر، هى تمسك برأسه بين يديها، هو مستسلم لها، كل هذا تبع النصف الذى فوق، ماشى. أنا أعرف من"أيام الهايد بارك" أن النــصف الــذى فوق مسموح له بالحركة دون غيره، لكن مسألة القرفصاء هذه وفوق ساقيه الممــددتين جلوســا علــى الأرض، هذا وذاك يمثلان وضعا جديدا تختلط فيه الأنصاف فلا تميّز أى نصف هو الذى فوق، عموما لاحظت أن هذا الوضع إنما يسمح للفتاة أن تعبط الفتى عبطة ذكّرتنى بهند عمر ابن أبى ربيعة، وقلــت لابد أن ابن أبى ربيعة هذا كان يتمنى أن"تستبد" به هند (ولو مرّة واحدة) كما تــستبد هــذه المُقرفِــصة بذاك المُــمَــدَّد، ثم إن نصفها التحتى (تقريبا) بدأ يتحرك فى إقدام مثابر منتظم، نصفها هى، وهو فــى حالة استقبال ثابت. حاولت أن أبعد نظرى عنهما فأنا معتاد بعض ذلك، لكن هذا ليس بعض ذلك، هــذا هو"كل ذلك"، فرُحت أبحث بنظرى عن شرطى يحوش، ولكن يحوش ماذا؟ وتذكرت قصيدتى عن مثل هذا فى المترو بين"النيسان" الإتوالّ، ثم قصيدة"الجوبلان" وعذرت نفسى حين تعجبت كيف يتوقف اللــثم والذى منه بمجرد توقف المترو ونزول أحد الوليفين تاركا الآخر دونه، أما هذا المنظر فأنا لم أره أبــدا هكذا من قبل.

بدأت ركبتاى تنقران علىّ، فتحججتُ بهما وافترشت الأرض قبالة الفتاة علــى الفتــى، وتــذكرت أن علاقتى بهذا"الجسر الجديد" كانت علاقة نهارية جدا، كنت أحضر كتابى، وأختلى بأريكة فوق الجسر أو تحته حسب المطر، وهات يا قراءة فى الشمس. لا أذكر أننى مررت به فى هذا الوقت المتأخر هكــذا، فلعل ليله أومساءه كانا"هكذا" طول الوقت وأنا ليس عندى خبر، ولكن هذا"الهكذا" زاد وفاض، لم أشــعر برفضٍ أخلاقىّ أو ما شابه، بل تزايد عندى حب الاستطلاع لدرجة مخجلة، والدنيا ظــلام نــسبى، ولا أحد يمكن أن يرى خجلى؛ وأيضا ولا أحد يمكن أن يلاحظ علامــات حــب اســتطلاعى، أو مظــاهر

ومشاعر أخرى ربما من بينها الحسد، وهات يا"هكذا"، والوقت يمر، والـ"هكذا" لا ينتهى، قلـت أقـوم أواصل السير مادمت لم أنجح أن أحوّل النظر، قال ماذا، قالت ركبتاىّ إنهمـا لـم تـستريحا كفايـة،. فنهرتـُهما لخبث ما وراء تصنعهما، وشرحت لهما أنه مادام الأمر قد وصل إلى هذا الهكـذا، فـإننى كنت أود لو كان معى أربعة شهود عدول لنثبت الفاحشة، والله لست أدرى كيف، لكـن رحمـة ربنـا أرادت أن تصعّبها لدرجة الاستحالة، لعلنا نخجل من هذا الحقد والادعاء.

ثم أفيق بلا غيظ: لأتساءل: وأنا مالى؟؟

قمت، وواصلت السير، وصلت لمحطة المترو، أدّهـَبَ المنظر"الهكذا" كل آثار خازوق الـشانزلزييه، وقلت إن خسارتى فى تغيير الفلوس، أقل بكثير من خسارتى فى شرب بارد علـى قهـوة شـانزليزية باهظة لا أحبها، وحولى ناس أكرههم ،

أعود أنهر نفسى عن الحسابات حتى لو كانت صحيحة، كيف بعد كل هذا يستمر معى قهر الحسابات. خازوق الاستعباط وخسارة النقود شئ آخر. الله يكسفك.

قالت لى باريس وأنا أصعد درج فندقى الجديد الجميل: حمدا لله على السلامة.

فقلت لها بصوت مسموع وأنا أدير مفتاح الحجرة: الله يسلمك، ويسلم مصر.

الاثنين: ١٩٩٣/٦/٢٨

كنت أكتب هذا الصباح فى الكتاب إياه عن كيفية تقييم اضـطراب الـزمن عنـد المـريض كأحـد الأعراض التى لابد من النظر إليها بالجدية نفسها التى ننظر بها إلى اضطراب الكـلام أو اضـطراب التفكير، ووجدتنى فى بؤرة المسألة – هكذا تُكتب الكتب يا سيدى، وليس كما بدأ مشروع هـذا الكتـاب أيام أن كان عبثا سخيفا،"الزمن": من منّا نحن الأطباء النفسيين انتبه بالقدر الكافى إلى"بُـعد الزمن" كما ينبغى .

ذات مرّة، كنا نمتحن طالب ماجستير امتحانا شفهيا، وكان الممتحن الثانى معى هـو هـذا الـصديق الزميل الأستاذ أيام كان صديقا، وكنا ننظر فى مسيرة إنجاز كل منا فى تخصصنا هذا، وفـى الحيـاة، سألته فى الفترة بين ممتَحَن وآخر:"ثم ماذا"؟ (ثـُمَّ هذه حرف عطـف غيـر الـواو والفـاء)، فكـاد يضربنى،"رفض الإجابة لأنه فهمها (لم يعد يفهم الآن – سنة ٢٠٠٠– أى حرف عطف غير"الـواو"، ولا أى علامة حساب غير علامة زائد +) كاد يـضربنى مغيظـا حـين اكتـشف أننـى أدعـوه أن يحدد"المعنى؛، والهدف". أصبح الحديث عن"معنى" ما نفعل أو عن الهدف الذى نتوجه إليه عبر رحلـة الحياة كلها نوعا من السفه المضيع للوقت الذى ينبغى أن يمتلئ فقط بما نعمل دون التساؤل عن معنـاه أوالهدف منه، كما أصبح مجرد طرح مثل هذا السؤال (عن المعنى أو الهدف) على آخر هو تدخّل فـى

حرّية اغترابه مما ينافى حقوق النسان الأحدث، وارد أمريكا. لهذا وذاك رفــضنى زميلـــى ورفــض سؤالى باعتبار أننى ذكّرته بما يخدش الغباء.

لماذا نصرخ ضد ما يخدش الحياء، ولا ننتبه إلى حاجتنا إلى ما يخدش الغباء، يبدو أننــا مــضطرون لكى نعيش هكذا، أن ننسى أن الزمن يمرّ أصلا،

يصدر مرسوم بإلغاء علامات الاستفهام وبالذات أداة الاستفهام"لماذا". أحسن.

إن استدارة الزمن ألغت عمل حروف العطف جميعها، وأنا الآن فى حالة"زمنيــة" جعلــت الأســبوع دهرا، واليوم عمرا، والساعة فرصة، واللحظة إعادة، والكل إحاطة ،

نظرتُ فى الساعة فإذا هى الواحدة ظهرا، والنهار هنا يصل إلى ست عشرة ساعة أو يزيد. وجــدتنى مازلت أكتب فصلا فى الكتاب، وجب الخروج فورا. أليس هذا ما كنت أفعله منذ ربع قرن؟، هو هــو، إذن فهو أنا. هيا بنا .

خرجت واتجهت دون خريطة إلى شوارع لم أطرقها من قبل، ولكن أحسب أنها فــى اتجــاه حــدائق اللوكسومبورج، هكذا حدْسا، مازال حدسى المكانى شديد الدقة جاهز التوجه. بعد دقائق فى هذا الاتجاه وجدت نفسى أمام الجامع، المسجد الكبير لباريس. إذن فأنا حيث أريد وأنا لا أدرى. ابتسمتُ غير فرح ولا منوَّم،

لم أكن أذهب إلى هذا الجامع حين كنت فى باريس إلا لصلاة الجمعة، فانتويت اليوم أن أدخلــه وهــو فى هذه الحال من الهدوء، وأن أصلى صلاة عادية (غير الجمعة) أناجى فيها ربى وألوم أهــل دينـــى وأستغفر لهم ولنفسى .

كان كل من بالمسجد بضعة أفراد فى حالة عبادة صامتة حزينة، يتدارسون بعض الآيات، ويبــدو أن الأمل لم يعد يؤرقهم مثلى، فقدّرت أنهم يئسوا نهائيا من إصلاح حالنا، ومن ثم تخلّصوا مــن الحــزن بالانسحاب والرضا والاستسلام اليائس،والصلاة هكذا، وتذكرت فتى مسجد اسطنبول.

دعوت الله عاتبا بعد ركعتين – نقلاً – أن"كفى" هذا، فأوصانى بنا خيرا.

هناك أغنية أمريكية عنوانها"أســيــُر"مــصْــرِيًّا" (لم أسمعها لكن سمعت عنها) تشير هــذه الأغنيــة إلى تلك المِشية المتراخية التى لا تهتم بالوصول، تقمصــُتها راجعا، الوصول إلى أين؟ عنــدنا –نحــن المصريين– حقّ أن نمشى كما تقول الأغنية، لو حددنا الهدف لأسرعنا الخطى، لكننا ننتظــر خطــاب التعيين بالست سنوات، فعلام العجلة؟ تنازلنا (أو تنوزلنا) حتى عن الهدف، وليس فقط عن السعى إليه.

لم أكن تناولت غداء، ولن أفعل، عادت ريما إلى عادتها بعد عز وقهر الانضباط المائدى عنــد كــل وجبة فى مطعم النجوم الكثيرة فى ضيافة النادل المجلل الذى لا عيب فيه فى مونتريه، فلمحت محــلا صغيرا تقف فيه سيدة صغيرة، ذات وجه صغير، تضع على رأسها"إيشاربا" صغيرا وتحمل فى بطنها

(رحمها) جنينا صغيرا، كل ما فيها صغير متناسق، ولا سلوى حجازى رحمها الله، لكنّها مشمرة عـــن ساعديها حتى فوق الكوع، وعن ساقيها حتى تحت الركبة، أخذت تفاحة واحدة (بصراحة هى تفاحايـــة وليست تفاحة، والفرق ليس فى الحجم ولكن التفاح حين يكون جمعا تصلح له الفصحى، أما حين تصل المسألة إلى واحدة فالكلمة تبُـــــنى على العامية!!)"تفاحاية" واحدة، وثلاث مشمشات وعددا من الكريز، وبسرعة وزنتهم لى السيدة المنمنمة، وحسبتْ حسبتها بالآلة الحاسبة وطلبت مبلغـــا زهيـــدا، دفعـــت، وتمنيّت مثل ذلك عندنا، لماذا نشترى ثلاث برتقالات ونحن نحتاج برتقالتين، لماذا نشترى كيلو خيارا ونحن نحتاج خيارة واحدة؟ سوف يرتفع الدخل حتما لو انتبهنا إلى ضبط معنى الكم والحاجـــة. ســـألتُ المنمنة هذه عن جنسيتها وأنا أتوقع الإجابة، قالت بالفرنسية:"تونس"، فداعبتها كيـــف تلـــبس الحجـــاب وذراعاها عاريتان هكذا؟ فقالت بطيبة وديعة: إنه العمل. لم تنزعج لتدخلّى. أظن أن ســـنها لـــم تتعـــد الواحد والعشرين عاما. قلت لها:"منذ متى وأنت هنا؟" قالت:"من ستة أشهر، لكن زوجى هنا من قـــديم وهو صاحب هذا الدكان".

قبـــــلتُ حجابها، واحترمت عملها، وقدّرت زوجها، ودعوت لها، وعرفت أننا يمكن أن نتحجب دون أن نتعصّب، وأن نتميّز دون أن نتحيّز، وأن نسلم إسلاما يفتح ذراعية لكل من ليس كذلك ،

لم أنم ظهرا؟ لماذا النوم؟ وقلت أنزل مبكرا قبل أن يقبض علىّ الحاسوب، أشترى ماكينة حلاقة مـــن التى تلقى بعد استعمالها، وأدخل محلا من الذى كنت قديما أحب أن أدخله. أخرجت الخريطة، وقررت أن أذهب إلى السامارِيتان، وهو قرب الجسر الذى أحبه، جسر أمس إن كنتَ ما زلت معنا منذ أمـــس. جسر الـــ"پون نيف.

انطلقت سائرا دون استئذان ركبتىّ، فقد قطعتُ عندهما اشتراكا (أبونيها) حتى نرجـــع، و"كـــل واحـــد يعمل بأصله" كما كانت تقول خالتى. حسب الخريطة: اتجهت شمالا فى اتجاه شارع المستشفى (اســـمه هكذا يا أخى، إشمعنى شارع قصر العينى)، ومنه إلى السين، وكان قريبا، ما لباريس قد صغُرت هكذا؟ أم أننى صرت أكثر نشاطا عنى منذ ربع قرن، كنت أتعجب حين أعود إلى بلدنا–كبيرا– فى عـــزاء أو ما أشبه، كيف تصغر المسافة بين بيتنا والحديقة التى هرب إليها والدى فى ركنه الـــصغير إلـــى تلـــك الدرجة بعد أن كنت أسيرها صغيرا وكأنى أسافر إلى قارة أخرى، الزمن عند الأطفال حيـــاة طازجـــة زاخرة، ثم حين نكبر، يصبح الزمن عقاربا زاحفة لزجة، ثم بعد ذلك قد ينقلب عقاربا لادغة سامّة، أمّا الآن وأنا على سفر هكذا، فإنى أشعر أننى وصلت بسهولة وسرعة إلى الـــ"الپـــون نيـــف" لأن الـــزمن أصبح طازجا مليئا، كل لحظة هى متداخلة فيما يليها، فيصبح البدء هو الوصول.

حين وصلت إلى"الجسر الجديد" قلت تم الطواف .

تحسست جيبى الدافئ بما يحمل من نقود حقيقية كانت من الأشياء النادرة أيام زمان، وقلت أريد أن أصرف جدا لأشعر بالفرق عمّا كنته هنا سنة ١٩٦٨، أصرف نقودا والسلام، آكل أكلة من التى هى، من التى كنت أشتهيها منذ ربع قرن ولا أجرؤ على التفكير فيها أصلا، أو أشترى شيئا لم أكن أجرؤ على الاقتراب منه قديما، ولم يكن فى ذهنى شئ محدد، وإنما كان الهدف أن أثبت لنفسى أن نعمة الله علىّ قد أتاحت لى مساحة أخرى من الحركة والصرف تحت مظلة أمان مادىّ لم أعتده ،

حين كنت فى الشانزلزيييه مساء أمس، قلت: يالله يا شيخ إعملها وبرّ نفسك، آن الأوان، لكن ذلك الشئ الذى أصابنى وكاد يخرج من وسط صلعتى (لنَ أكرر اسمه فكفى أمس) كان قد غيّر مزاجى، لكنّه رحمنى من أن أتصنع التلذذ بجلسة لا أحبها، فى مكان أكرهه وسط ناس ليسوا هم، آكل طعاما باهظ الثمن قد لا أستسيغه، ضاعت علىّ فرصة الصرف لأثبت لنفسى أنى اغتنيت، ثم هاهى فرصة أخرى تلوح: ها أنت يا ولد فى الساماريتان شخصيا، وعندك محل (ساماريتان) واحد (١) ومحل (ساماريتان) اتنين (٢) ومحل (ساماريتان) تلاتة (٣)، هكذا أسماؤهم، الله! ولكل محل تخصصه كما أعرف من قديم (دون أن أحفظ أى منها لأى من ماذا)، قلت لنفسى: هيّا يا عمّ، وسوف تجد ما تصرف فيه مما أفاض عليك الله من فضل، لعلّك تصدق أنك لم تعد فقيراً ياشيخ، أنك لم تعد حريصا كما كنت من قبل، رحت أبحث عن أى رغبة فى شراء أى شئ فلم أجدنى محتاجا إلا لشفرة الحلاقة إياها، فأصررت أكثر على ممارسة مبدأ" الشراء للشراء" (مثل الفن للفن).

دخلت وكلى حسن نيّة شرائية، ووجدت أن هذا المحل هو المجال المناسب لمثل هذا التوجّه المناسب – مسّاكِ الله بالخير يا زوجتى العزيزة– ها هى الـ"حاجات على حاجات"، لكن الناس ليسوا"لحما على لحم"، وأظن أننى أشرت إلى طقوس زوجتى فى هذه المسألة من قبل ولا مانع من تكرارها،وهى أربعة (ا) فالحاجات على الحاجات، (ب) والناس: لحم على لحم، (جـ) وهى تشترى شيئا كانت المرأة الواقفة بجوراها تريد شراءه لكنّها اقتنصته منها وفازت به دونها، و (د) وأن وجهها قدم سعد على المحل وعلى البائع، ذلك أنها ما أن تشترى الشئ والبائع جالس ينش حتى تقبل الزبائن على الرجل أو على الركن الذى اشترت منه، وهات يا شراء ببركة وجهها على المحل. ابتسمتُ من جديد ذاكرا إياها بالخير، وجذب نظرى الشماسى والعصى، وقررت ألا أشترى شمسية بدل فاقد إلا من الإسكندرية (حبيّتها فى الشتى يا فيروز) فنادتنى عصا جميلة، وكانت الحسابات قد بدأت تعمل، عصا بمائة وثلاثين جنيها تساوى فى الحسين عشرة جنيهات أو أقل. لو كانت زوجتى معى لأقنعتنى أن هذه"حاجة ثانية"، وأنا أحاول دائما أن أقنعها بأننى مهتم أصلا بالحاجة"الأولانية". نسيت أننى كنت مصمما على الصرْف والسلام (الشراء للشراء). ثم إننى قررت أن أكسر أحد طقوس مشترياتى (حين أسافر أشترى عصى أو مطواة أو كليهما، من أى مكان جديد). ولم أجد طبعا بغيتى (شفرة الحلاقة)، وخجلت أن

أسأل، فى محل بهذه الفخامة فىه حقيبة السامسونايت بألف جنيه ومائة (هذا هو ثمن الحقيبة خالية يـــا سيّد!!!) والعصا الخيرزان بمائة وثمانين، وأنا بجلالة قدرى أشترى شفرة بلاستيكية واحدة. قلـــت قـــد أجد ضالتى أسهل عند الباعة على الرصيف خارج المحـــل، خرجـــت مهـــرولا وأنـــا أتـــذكرعلاقتى بالأرصفة أيام كانت هى الكل فى الكل. أخذت أبحث بسرعة هنا وهناك ولم أجد إلا قمصان التـــاء (T Shirt)، وثمنها الشئ الفلانى، أغلى من زمان جداحتى تصوّرت أن الرصيف قد أصبح امتدادا للمحـــل الفخم بصورة سرية. تقدمت من أحدهم وسألته:"أين أجد شفرات الحلاقة"، فأجابنى باســـتغراب مـــشيرا إلى المحل الفخم الضخم الذى خرجت منه لتوى:"فى الساماريتان يا سيد"،!! وتماديت مخفىـــا دهـــشتى وكأنى أعلم، وإنما أسأله عن بعض التفاصيل، تماديت: أى محل (١) أم (٢) أم (٣)؟ فقـــال محـــل (١) الدور الأرضى، وكان برغم سمرته (لا سواده) يتكلم لهجة باريسية لا تدل على أنه جزائرى، والساعة تقترب من السابعة، فتذكرت خروجى من محل بلجراد لانتهاء الوقـــت. وأننـــى غيـــر مرغـــوب فـــىّ شكرتـــــُه ودخلت بسرعة فوجدتنى حيث كنت، لكننى تشجعت وسألت أحد رجال الأمن الذين يتهيأون لإغلاق المحل، ولم أكن أعرف ما أطلبه بالفرنسية، فلم يسبق لى شرف شراء مثل هذه الشفرة من مثل ذاك المحل، المهم أشرت إلى ذقنى. وكدت أقول له إنه لو يعرف من أنا فى بلدنا لأسرع بالاهتمام بـــأن أكون حليقا، ففهم، وقال الاسم بالفرنسية"رازوار" فتذكرت أنى كنت أعرف الاسم قديما، لكننى تماديـــت فى الإشارة إلى أننى أريد أن ألقى به بعد استعماله، فنظر الرجل فى ساعته وأشفق علىّ وقال لـــى مـــا تعنيه كلمة يلقى بعد الاستعمال" رازوار أجوتابل"– قلت: هكذا زادت مفرداتى كلمة. أسرعت إلى حيث أشار ووجدت ضالتى (حلوة ضالتى هذه بعد كل هذا!!)، لكنها لم تكن ضالتى تماما، وثمنهـــا حـــوالى خمسة وعشرون جنيها، وهى ماكينة فخمة بحالها وليست موسى،. . قفز إلى مخى أنها عندنا بجنيهـــين مثلا، وكدت أكسر رأسى احتجاجا على استمرار الآلة الحاسبة المقارنَة بلا توقف، هل هـــذا تـــصرف شخص قرر أن"يصرف والسلام"، إخص عليك وعلى خيبتك القوية، بسرعة اشتريت ماكينة عادية مـــن ماكينات زمان، وكانت ماكينة جميلة بثمن الماكينات الأحدث نفسها، ومعها عدد من الأمواس، والأهـــم أنها كانت موضوعة فى كيس مكتوب عليه"ساماريتان"، سوف أحتفظ بالكيس لأثبت لكل من ألقى فـــى بلدنا أنى ذهبت إلى هذا"الساماريتان"، على وزن"رامتان" لعمّنا طه حسين رحمه الله وغفر لزوجته التى كادت تـــُكرهنى فيه وفى الفرنسيات يا شيخ، وهل هذا وقت تذكرها بهذا التحامل؟ ما هذا؟ وأنا ضـــيفٌ فى بلدها، ثم إيش عرّفنى بها أنا؟

انتهت كل مهمة التسويق طول الرحلة عند هذا الحد، وابتسمت،فهذه الرحلة لابد أن تدخل عالم الأرقام القياسية، لأن كل ما تم شراؤه فىها من باريس بجلالة قدرها هو ماكينة حلاقة وخمس أمواس، ومـــن أين؟ من ساماريتان شخصيا!!

رجعت وتأكدت أن الفندق ذا النجمتين وراعيه الطيب أحسن مائة مرة من ذلك الفندق الذى كنت فيه فى مونتريه، قال خمس نجوم قال، وتيقنت أن معى الحق فى تفضيلى هذه الأماكن المليئة بالدفء البشرى لا بالثريا الباردة. طالت بى الكتابة حتى بعد منتصف الليل .

الثلاثاء: ١٩٩٣/٦/٢٩

اليوم يوم جديد، الإيقاع يتناغم، فكّرت مرّة أو اثنتين أن أغيّر تذكرة السفر، كنت قد حددت موعد عودتى منذ كنت فى جنيف حتى لا أسمح لنفسى باستعجال العودة لأسباب داخلية أو خارجية، الأيام تسير هادئة وكافية، والطقوس رحبة، وتأتى وحدها بلا جدولة أو تخطيط، وما وعدنى به هذا الهاتف الخفى الذى سوف يساعدنى فى ما أنويه فى المرحلة القادمة سوف يتحقق حرفيا، فلا بد أن أبقى حتى يتحقق .

هذه الرحلة"غير"، (هكذا يقولها إخواننا العرب ولا يكملون"غير"ماذا) فلا أنا ألهث لأتمم طقوس السفر، ولا أنا حريص على رؤية جديد، ولا أنا أضايق أحدا، ولا أحد يزعجنى بأن يعمل حسابى أكثر مما أرجو...، ولا ولا. ولا ولا، من فرط ما شعرت برحابة الوقت وكرم الطبيعة تمنيّت أن تتاح لى فرصة حقيقية أن أكرر التجربة نفسها فى بلدنا، ألا يمكن أن أعمل فى مصر رحلات داخلية هكذا، الجمال فى مصر موجود موجود موجود (رأيته رؤا العين من أسوان إلى الغردقة إلى رأس الحكمة إلى دهب إلى رفح إلى الخارجة ياناس، وسمعت عنه أكثر مما رأيت فى سيوة وغير سيوة) موجود، والناس طيبون، والحال مستور، وهذا المكمِّتر (الحاسوب) هو هو، فلماذا لا أكون هناك مثلما أنا هنا الآن؟

خطر ببالى مرة أخرى أن أتوجه للمطار فورا لأكمل فى بلدى ما أكتبه هنا هكذا، قاومت ذلك مرة أخرى ومرات كثيرة، أغلقت مابيدى، وهاج بى حنين جديد.

شددت الرحال إلى المونمارتر .

جاءنى الرسّامون، اعتذرت، متذكرا آخر مقلب. أو هو المقلب الوحيد الذى أخذته هنا حين رسمنى أحدهم فحدث ما لا يحمد، لكن اعتذارى هذه المرة كان دمثا وليس طردا مما تلاحظه زوجتى وتؤاخذنى عليه خوفا من أن يظن الناس بى الظنون، نعم يبدو أننى حين أُحْرَج أطرُد، وأنِست بكل الناس، لكن باريس هى باريس قبل وبعد كل الناس، أم يا ترى هى الناس، أنا لا أزور متاحف كما قلت ،ولا أذهب لنواد ليلية بمحض إرادتى أو مِن حر مالى .

عزمنى مرّة ابن عم لى على ليلة ساهرة فى الملهى الأشهر فى الشنزلزييه"الليدو." كان ابن عمى هذا يعمل فى الجزائر جاء يزورنى فى باريس (فى تلك السنة ١٩٦٩)، وأصر أن أصحبه إلى هذا الملهى، ومرّة أخرى طفحنا فيه عندما كنا ضيوفا على شركة الدواء إياها فى المؤتمر إياه. الشركة تعزم ونحن نهيّص والمرضى يدفعون. (سبق الكلام عليه)، وأنا لا أعرف أين يسكن جورج الرسام المصرى

الشقى فى باريس. دائما أتذكره حين أكون فى المونمارتر، برغم أنه يفوق طبعا كل الذين هنا، أنـــا لـــم أقابله شخصيا أبدا (قابلته مؤخرا بعد كتابة هذاالكلام مع الحرافيش فى بيت توفيق صالح، وهـــو لـــيس حرفوشا، لكنّه ضيف شرف لهم، ورسمنى وأنا جالس معهم رسما لم أجد نفسى فيه). هـــاهى بـــاريس المونمارتر، أشعر بكِ يا باريس أكثر هنا، لكل بلد عندى علامة ترمز إليها، برغم أنها قد تكون أبعد ما تكون عن حقيقة البلد.

رحّبتْ بى باريسى هذه أكثر، حنَت علىّ، دعتْ لى، وطمأنتنى أننى لم أنسَ، لأنها لـــم تـــنسَ، قالـــت كلاما كثيرا كنت أحسب أنه انقطع (على فكرة لم أذكر أو أتذكر مهمتى فى مونتريه طوال إقامتى هـــذا الأسبوع هنا، وفى الوقت نفسه لم أنس شيئا ولا أنكرت لحظة– فهل لهذا دلالة مـــا؟)، أهـــلا وســـهلا، حللتَ سهلا، هل تعرفون كيف يحل الضيف سهلا، لا تذكّرونى بما آذينا بـــه ضـــيوفنا (فـــى حـــادث الأقصر) من السائحين، إن أهم ما أفرح به فى قناة النيل Nile T.V. هو ماتختتم بـــه تقـــدمتها باللغـــة الإنجليزية، إن بمصركذا وكذا وكيت وكيت، وما هو أهم هو"المصريون"، هذا صحيح رغم كل شىء.

كلما تبادلتُ الحديث مع أحد هنا، وأعطيته بطاقة ودعوته إلى مصر، وافقنى شاكرا ثم نظر إلىّ كأنـــه يقول:"ولكن...."وأحسب أنه يشير إلى الحادث، فأنظر إليه معتذرا كأننى أنا الذى اقترفتهُ، ولا أجرؤ أن أعتذر!!

عادت باريس (المونمارتر) تقول لى: حللتَ سهلا، فحللتُ سهلا.

أقر وأعترف أننى لا أعرف السهولة كما يتصوّرونها، كما أقر وأعترف أن زوجتى وابنتـــى الكبـــرى تعرفانها، الأولى كثيرا، والثانية أحيانا، أوهكذا تزعمان. كثيرا ما أشك فى الـــسهولة وأربطهـــا بعـــدم المسئولية وكثير من هذا الكلام الكبير السخيف الذى يفسد كل سهل، أحفظ الدعوة التى أتوجّه بها أحيانا إلى ربى": أنه لا سهل إلا ما يجعله سهلا، وأن الحزَن يصير سهلا بفضله"، فلماذ أصر أنـــا دائمـــا أن أفعل العكس، ياباى ياأخى، لكنّ باريس حين قالت لى هنا فى أعلى قممها أنى حللتُ سهلا، وعـــدتها - وربنا يقدّرنى – أن أحاول فىما تبقى لى من عمر أن أحلّ سهلا ما استطعت. (أظن أننى لـــم أســـتطع بعد كثيرا) .

أما أهلى وناسى هؤلاء، فهم كل الناس، أى والله، هم مَـــن أبحث عنهم فى نويبع ودهب، وموفنبيـــك جولى فيل الهرم، ومينا هاوس، وصنعاء، وثـــلا باليمن، وسوق اللاذقية، وإبثيا وبونيـــار فـــى شـــمال إسبانيا، هم أهلى وناسى ومن لا يصدق يرانى الآن وسوف يصدّق .

أجلس على المقهى الخالى دون خيار، فأكتشف أنه أجمل المقاهى، شئ به يجعل الأمورهكـــذا، يمـــر المغنى الأسمر يمسك عوده ويرطن بلغة لابد أنها برتغالية أو إسبانية، ويبدو أنه قـــد زوّدهـــا حبـــة أو اثنتين لأنه كان مرحا فرحا، يرقص بقدميه تك تتك تك تك، تتك. ويقبل خدّ جارتى (أظنهـــا أمريكيـــة)

دون استئذان، ثم يقبل مؤخر رقبتها الطويلة مثل رقبة نفرتيتى، وتطول القبلة حتى أحسب أنه نام علـــى قفاها الممتد مثل وسادة مشرعة، وأنا لا أرى إلا خلفها. كانت عندى فكرة عن القبلـــة، أو اللـــثم وراء أسفل الأذن، أما على القفا،... وهكذا، فهذا أمر جديد علىّ، ولا أرى وجهها ولا وجه من معهـــا، فـــلا أعرف إن كانت قد رضيتْ بهذا"البوس" يعنى، وأتذكر شعرا حلمنتيشيا قرأته فى"البعكوكة" منذ نـــصف قرن يكمل بيت قيس بن الملوح الذى يقول:

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الفجر أو قبّلت فاها

فيكمل شاعر البعكوكة الحلمنتيشى قائلا:

وهل رضيتْ بهذا البوس يعنى أم التقبيل كان بلا رضاها

حتى يقولْ :

لنفرض أن بوليس الأداب رآك وأنت منبسط معاها

فبهدلكم بتلطيش وزغـــــــدٍ أو افرض أن والدها رآها. .... إلخ .

أتذكـــــّـــر كل ذلك فأقرض على نهجه ما يناسب ما يجرى الآن أمامى قائلا:

لنفرض أن مـــّدعيا غليظا رآك وأنت مفترشٌ قفاها

فزمجر ثم حَوْقلَ ثم أفتى وكقرك البعيد ومن معاها.

أحاول، فلا أستطيع أن أتقمص هذا الشخص (الرجل) الذى يجلس"معاها" كيف يسكت على مـــا يفعلـــه هذا المغنى الظريف الأسمر الذى يمزج بين ضرب العود والتصفيق والنقر البديع بقدميـــه، ثـــم يـــرن بالتصفيق رنة كأنها صفق الصاجات، أنا لا أعرف كيف ترن أكف الإسبان (أو أهـــل جنـــوب أمريكـــا عامة) هكذا بهذه المهارة أكثر من غيرهم، وحكاية الإسبان مع الرقص حكاية:

ابنتى منى كانت سببا فى زيارتى مدريد المرة تلو المرة. وكانت هى سبب تعرفنـــا بإســـبانيا بعـــد أن قضت شهرا من تدريب سنة الامتياز هناك مع عائلة إسبانية، صادَقَـــتـــْها حتى حضروا ضـــيوفا فـــى منزلنا فرادى وجماعات، ثم صار التبادل بين عائلتينا، ومن ذلك هذه الزيارة التى أشرت إليهـــا تخفيفـــا لإثم الرحلة المؤتمرية الباريسية الدوائية وما حولها.

كنت أسمع كثيرا عن الرقص الإسبانى الفلامنكو وغيره، وأنا لا أفهم كثيرا فى فن الـــرقص (بـــرغم أنى أحب الرقص"التنطيطى" تبعنا، وأمارسه مع مرضاى حين كانت ركبتاى تسمحان، لكن يبدو أن"فـــن الرقص" غير"الرقص".

أصرّت ابنتى ومضيفتنا التى تعتبر ابنتها ابنتى أصرّتا:"إلا"......، قلت: إلا إلا، متى؟ قـــالوا: الليلـــة، قلت: وجب، حتى أخلص وأرى، ثم لعلهم يدعونى أنطلق إلى طبيعتى حرا غدا دون انتظـــار لـــــ"إلا" أخرى. كان ذلك فى بلدة أشرت لها سابقا اسمها"ألـــْـــكـــالا" (القلعة) بجـــوار مدريـــد. نظـــرت فـــى

الساعة، كانت حول العاشرة مساء فقلت:"سوف نذهب الآن. لكن السيدة المضيفة قامت بنا واصطحبتنى مع ابنتى بهدوء مطلق إلى السوق فى مدريد وأنا وراءها: تابع أمين، ثم عدنا، فتصوّرت أننا سـنذهب إلى المرقص أو الملهى كما قالوا، لكن أبدا. ذهبنا إلى المنزل من جديد فى"ألكالا" وأنا أنام فى التاسعة، والساعة قاربت منتصف الليل. قلت:"هل عدلتم"، قالت مضيفتنا:"أبدا، نأكل لقمة". لقمة؟ يـا حاجـّة، كلها كام ساعة ونفطر، قلت لنفسى صبرك ياولد لعلك لا تفهم الأسبان وكانت مضيفتى تتقن الفرنـسية المأسبَنَـة (يرفض الإسبان الآن تعلم أى لغة أخرى غير لغتهم، ومن يعجبه!!!!)، لكـن عقربـى الساعة ليس لهما لغة، أكلنا لقمة، ثم حضر ابن الست بعربته، ونزلنا بعد منتـصف الليـل؟ نـسهر، أم نتصبّح يا جماعة؟

دخلنا المرقص، الدنيا تضرب تقلب، والجلوس وقوفا، والوقوف نياما وهـات يـارقص، وهـات يـا موسيقى، لم تكن فرقة ولكن الناس يرقصون طاخ طيخ، ويشربون ويفرحون، ويقفزون، كل ذلك جـدا جدا جدا، وأنا منبهر لا أجرؤ أن أسأل عما يجرى. قلت أعتبره فلمنكا (وأنا لا أعـرف إلا أن الفلمنـك نوع من الجبن). لاحظت أن سيدتين قد تخطت إحداهما الأربعين لتوها، والأخرى أكبر قليلا، نـازلتين رقصا طول الليل، أعنى طول ما تبقى من الليل. كدت لا أصدق أنهما سيدتان وليستا رجـلا وامـرأة. فكثيرا ما يربى الرجل الأشقر منهم شعره حتى لا تستطيع أن تميّز هـذا مـن تلـك، ولكـن الأثـداء المترجرجة لا تكذب، أمْ ماذا يا مضيفتنا العزيزة؟ قالت:"ولا يهمك"، فعرفت أنهما سيدتان، ومن كثـرة العرق والقفز خفت أن يجرى لهما أو لإحديهما شئ. أخيرا تجرأت أن أطلب الانـصراف وقـد كـاد الصبح أن يطلع، وحين خرجنا–بالعافية– كان البوليس ينتظرنا، فخفت. هل عملنا عملة تستأهل؟ لكـن حضرة الضابط تقدم وكان يجعل قائدى السيارات يتنفسون فى كمامة ليعرف مقدار الكحول الذى يخرج من رئة أى منهم، فإذا زاد عن الحد منعه من القيادة غير المخالفات والذى منه، قلت: والـله معقـول، هكذا يكون الضبط والربط. لكن ضبط وربط ماذا؟ متى يعمل هؤلاء الناس؟، بقدر ماتنـام نيويـورك، وبوسطون، ونيس فرنسا، من العشاء، يسهر هؤلاء الناس إلى هذه الساعة من الصباح. ماذا أسمى هذا: سهرا أم سوبر سهر، متى يعملون إذن؟ متى يزرعون ومتى ينتجون؟؟

تأكد لى هذا الانقلاب بين الليل والنهار فى أسبانيا حين عاودت زيارتها وأنا عائد من زيارة الصباحية لابنتى هذه التى كلفتنا صباحيتها الشئ الفلانى فى لوس أنجيلوس، فأردنا أن نعـوّض المـسألة بهـذا المرور السريع على أسبانيا، كان الجو فى مدريد حاراً لا يطاق، ذلك الحر الرطب الغريب، وكنت قـد رفضت أن أنزل إلى جنوب أسبانيا الشهير، فأنـا لا أحـب الأرض المنبـسطة، مايوركـا والأنـدلس والحديث عنهما يصلح لتزجية الوقت مع من زاروها ممن لا يسافرون مهما سـافروا، هـم ينتقلـون

ويتكلمون، ويشترون ويرجعون، وخلاص، قلت لمضيفتى فى إسبانيا: بل إلى الشمال الشمال، حيث الجبل والقرى الصغيرة، ووافقتنى.

كان لابد أن أترك مدريد بعد أن استقبلتنا بكل هذا الحر والرطوبة، فأنا لم أذهب هناك لأخرج الروماتيزم من ركبى وأسيّح دماغى فى لزوجة رخوة، أعطانا إبن السيدة المضيفة سيارة نصف نصف على سبيل السلف (جدعنة من الإسبان، مثلنا أحيانا)، وانطلقنا زوجتى ومضيفتنا وأنا، وكانت ابنتى الأصغر قد انفصلت عنا تعمل رحلة بمعرفتها، وتوّهتنا المضيفة عدّة مرّات ونحن متجهون شمالا، وأخيرا قلت لها: خلّ عنك وأعطنى الخريطة، ففرحت وقالت إن عندها ثقة فى حدسى المكانى، وقيادتى وراحت فى نوم عميق.

وصلنا إلى إبثيا فى الجبل فى الشمال (حيث لمضيفتنا بيت عتيق، ولأختها بيت رشيق) وقضينا هناك أياما كما توقعت، كنا ننزل كل ليلة إلى بلدة أكبر قليلا اسمها: بونيار ،نشارك فى كرنفالات الشوارع وهيصة الميادين وصخب المقاهى، وتنقلنا بين شعاب الجبل، وزرنا امرأة كهلة مقعدة وزوجها فى أعلى الجبل لم يكونا قد رأيا مضيفتنا منذ ثلاثين عاما، ورحبوا بنا ترحيبا قديما جيّدا ذكّرنى بترحيب خالتى، وعلمتُ أنه فى الشتاء تسد هذه الطرق بالجليد وتصبح الخدمات الطبية الإسعافية بالهليكوبتر (كل شئ محسوب رغم الرقص والسهر) وكانت كل القرى فى الجبل وحوله (مهما صغر عدد قاطنيها) ترقص وتغنى كل الوقت .

لم تستطع مضيفتنا أن تواكب حركتنا ونحن ننتقل فى اليوم عدة مرات بين إبثيا وبونيار وما حولهما، ولا ونحن نتوجه إلى الشمال لنصل إلى أقصى الشمال الغربى أستورياس، كنت قد زرت الشمال الشرقى حيث سان اسباستيان أثناء إقامتى فى فرنسا، وأثناء هذا التجوال الأخير اعتدنا، زوجتى وأنا، على هذا الكم الهائل من الكرنفالات، والهرج، والرقص فى الشوارع والسهر للصباح، لكن مشهدا خاصاً يحتاج للتسجيل:

أثناء مرورنا فى قرية صغيرة، شاهدنا عددا من الشباب يعزف ويرقص وهو يلتف حول فتى قد ارتدى لباس الجندية، وراح الشباب يدقون أبواب أهل القرية واحدا واحدا وهم يغنون، فىخرج صاحب الدار، ويبادلهم بعض الحديث ثم يدخل ويرجع يعطيهم شيئا أو أشياء وهكذا ،وتوقفنا، وسألت، عما يجرى ولم أفهم، فسجلت فى ذاكرتى التفاصيل، وحين عدت استفسرت من مضيفتى، فعرفت أن هذ الشاب (وكل شاب) حين يكون على أهبة أن يذهب إلى التجنيد، يمرّ على أهل البلدة مع أقرانه وأصدقائه يجمع"المعلوم" (شئ أشبه بعادات رمضان عندنا: إدونا العادة ربى خليكم، لقمة وزيادة ربى خليكم) وأنه بناء على ذلك يجمع نقودا وأشياء تكفى للصرف عليه وربما على من يعول حتى يخرج من الجندية، وعارٌ على من يمتنع عن هذا التكافل الاجتماعى، لأنها باقية له،

تظل كل الشوارع فى طول إسبانيا وعرضها ترقص وتغنى حتى الصباح فمتى يعملون؟

أنتبه فى جلستى فى المونمارتر إلى المغنى بالإسبانية وهو يجمع المعلوم بعد أن أنهى غناءه وتقبيلــه وتصفىقه، وترقيصه، وأتساءل السؤال الذى لا يكف عن الإلحاح علىّ دون انقطاع:

أكرر: كيف يتطوّر شعب، أى شعب، دون رقص وغناء جماعى، دون تفكير وحركــة، دون عبــادة حقيقية وإبداع، دون دون دون... المسألة أخطر من أى استسهال أو خطابة أو مثقفين .

شبعت أهلا، وحللتُ سهلا.

نزلت على السلالم المقابلة لــلساكركير، ولاحظت التليفريك الجديد (أو لعله كان موجودا ولم يعننــى فى شئ من قبل) فأنا لا أحب غير المشى إلى كل مدى، نزلت إلى الأنفر تحت أقدام الساكركير، وكنت قد نسيت اسم محطة بلانش لبعض الوقت، فسألت عن محطة أبيس، فدلونى عليها فلم أجدها.

كنت أنوى أن أزور البيت الذى كنت ساكنا فيه منذ ربع قرن فى اليوم التالى، فأنا أزوره فى كل مــرة رغم أنى أعلم أنه مغلق، وأن السيدة كومباليزيه صاحبة الشقة التى سكنت عندها، والتى كانت مــشلولة فى آخر مرة زرتها فىها، لابد أنها سبقتنى إلى هناك، إلى الجانب الآخر من الكون، وتصورت أننــى هناك – فى الجانب الآخر–حين ألحق بها سوف أسأل عنها بالطريقة نفسها، كما توقعتُ أنهــا ستــسأل عنى هى أيضا هناك، ترى سنكون معا؟... كيف سيكون الحساب؟ هو أعدل العادلين، مالى أنــا؟

واصلت السير حتى وصلت إلى الشارع، فالمنزل، ورننت الجرس، ولم يفــتح أحــد كمــا توقعــت، فالمسألة لم تعد جرسا كما كان الأمر قديما، ولم يعد ثم بوابين، ولكن لكل منزل رقــم كــودى يعرفــه السكان فقط، وسألت فتاة المخبز، فى العمارة نفسها على الناصية، عن الــسيدة كومباليزييــه فرفعــت حاجبيها أدبا، وفقط .

قفــلت راجعا، مارا بمطعم فخم جدا كنت قديما أتعجب من وجاهة روّاده، وأنا – كما قلــت – أريــد هذه المرة أن أصرف نقودا كثيرة، ثم إن صورةً الأمريكانى السريع" (الأميركان إكسبريس) ماثلة علــى باب المطعم، ونظرت من خلال الزجاج فوجدت البكوات أو اللوردات أنفسهم وهم يأكلون، أو: وهــم لا يأكلون، فالأفواه مغلقة دائما تحوى قضمات صغيرة لا تجعلك تعرف من يأكل ممن يبتسم، هممــت أن أدخل فإذا بصورتى تنعكس على الزجاج فاكتشفت ذقنى التى لم أحلقها رغــم شــفرة الحلاقــة التــى اشتريتها أمس من سامارتيان شخصيا، ورأيت حذائى المطاط، وتشتت ملابسى، ثم إننى عائد لتوى من مونتريه حيث ضربت اللخمة تلو اللخمة فى مطعم أفخم من هذا مرّات عديدة، فما حاجتى إلى تجربــة خائبة لا معنى لها، كل ما فى الأمر أننى فى مونتريه لم أدفع، فلم أُخْتَبَر.

أريد أن أشترى نصف فرخة مشوية، وأجلس على الأريكة فى الشارع فى مواجهة الطاحونة الحمراء فى محطة بلانش كما اعتدت قديما،...إلخ.

(نقود نقود نقود!، عرفنا أن معك نقودا فاسمح لنا بأن تكون أنت أيضا من هؤلاء الذين عرفوا؟ لمـــاذا تكالبوا علىّ هكذا، كان واحدا فأصبحوا كُثر، حاضر حاضر) .

سارعتُ الخطى إلى محطة بلانش، ووجدتها تغيّرت قليلا، إلى أسوأ.

دخلت المونوبرى، لأول مرة أشعر بالغثيان أمام هذه الفيض من البضائع. سدّت نفسى حتى عن الأكل الرخيض الساخن على الرصيف.

أهو لزاما أن أجوع بالعافية، لمجرد أن معى نقودا أريد أن أشترى بها أكلا شهيا؟

أهو لزاما علىّ أن أجلس مع من لا أحب، فأكون من لا أريد؟

أهو لزاما علىّ أن أكتب مالا أريد، لمجرد أن غيرى كتبه أسوأ مما أستطيع؟

أهو لزاما علىّ أن أحضر مؤتمرا يقال له مؤتمر علمى عالمى (إلخ)، وأن أحتمل مـــا يجـــرى فيـــه وحوله (مما يعرفه من أتى الله بقلب سليم، أو حتى من طنبل على الجـــارى وهـــو مغـــرض نـــصف نصف!!)، أحضره لمجرد أننى أستاذ جدّا؟

رددت ردًّا طيبا على كل هذا،

لعله يفيد. لعله يبقى.

الفصل الثامن

(الفصل الرابع عشر: من الترحالات الثلاثة)

هذا يتوقف على ماذا؟

"تطيرُ الطيورُ بجوفِ الكهوفِ لتنحتَ تحتَ السماءِ طيوفَ اللقاءْ،

تبيضُ النوارسُ فى جوفِ بحرِ عميق، يناشدُ

همسُ المحار حفيفَ المياهِ بموج تهادى".

فتهفو.

فأدعو القدير: سماحًا.

أنا المستجيرُ بكل الحضور يودّع هاذى الجميلة؟

كلاّ.

....

سلاما إلى عودةٍ رغم أنف الوداع، سلاما.

بعد الظهر – الثلاثاء ١٩٩٣/٦/٢٨

طيب طيب طيب. كل هذا طيب .

أىُّ آخر يستطيع أن يكتب أىَّ شئ آخر، أما"هذا" فلا يستطيع أن يكتبه إلا هذا القلم، الآن، هكــذا، إن كان مازال هو هو قلمى، هو هو أنا،

جئت متحمسا لإنجاز مهمهة محددة، لكننى اكتشفت أنها ليست مهمتى، كان يمكــن أن تــضيّع منـــى خمس سنوات تالية (إن كان فى العمر بقية).

أنقذنى الاضطرار الصريح، من الاختيار القبيح، أنقذنى الاضطرار الصريح إلى السفر، من الاختيـــار القبيح أن أكون"خوجة" نمطيا. هأنذا أترك كل ذلك العلم والترقيم والتقسيم والتنظيم، وأعود إلـــى قلمـــى أختبره هذا الاختبار الصعب: هل هو قادر فعلاً على أن يكتب من جديد؟ وبالذات:"الناس والطريق"، أن يكتبنى أنا؟

كتبت صفحات متدفقه، فوجدت أننى هو، لم أمت، ما هذا الذى يتدفق منى؟ ما كل هذا؟ أنا؟ أنـــا هـــذا الذى يكتب مثلما كنت أكتب؟ نفس المشاعر، نفس المواقف، نفس نفس نفس كل شئ، اللهـــم إلا دافـــع الرحلة ودافع الكتابة، كان الدافع من عشر سنوات هو أن أتعرف على أولادى، أما الدافع الآن فهـــو أن أتعرف عما تبقى لى. التعرف على أولادى أصعب، ولكن التعرف على مـــا تبقـــى أخطـــر، أخاطـــب

أولادى معترفا: أنا أعرف ماذا فعلت بكم، ولكنى مثلكم تماما، أحاول. عملت الرحلة الأولى والتى أفرزت الناس والطريق لكم وبكم لكن هذه الرحلة هى لى.. إليكم. علّها تصل إلى كل من يهمه الأمر، ولعلكم بعض من يهمه ذلك.

لبست حلة كاملة، وانتقيت رباط عنق أنيق، أنا لا أفعل ذلك عادة حين أكون وحدى، ولا أفعله أبدا فى رحلة حرّة، بل إن مجرد عدم الاضطرار إليه يشعرنى بالإجازة، أحيانا حين تحيط بى المشاغل فلا أستطيع السفر فى نهاية الأسبوع، أكتفى بأن ألبس حذاءً مطاطا، وسروالا واسعا، (يقال له بالعربية المشوّهة: كاچوال، وترجمته العربية"كيفما اتفق"، وبالعامية" أى كلام" وإن كنت أسميها أحيانا ملابس البهدلة المتعمّدة!) وقميصا تائيا(!!)، فأشعر أنى فى إجازة، رغم أنى أكون فى طاحونة العمل إياه أدور، أظن أن"مودة" (بدعة) ملابس البهدلة تحقق هذا الغرض: أن تخدع نفسك وكأنك أكثر استرخاءا، وأقل التزاما، وأرحب حرية. لكنّه خداع غبى، وتصل قمة غبائه حين تفتعل فى الرداء رقعا ليس بسبب البلى والقدم، ولكن حسدا للفقراء المرقعة أسمالهم!! فلماذا ألبس الآن الحلة كاملة، هذا اللباس الرسمى بالذات؟ لا أعرف.

السماء تملؤها الغيوم لكنها لم تمطر بعد، نزلت وأنا فى كامل هيئتى الرسمية وقد صممت أن أفعلها هذه الليلة، لتكن هذه الحلة الكاملة تذكرة لى أن أجلس فى أوجه مقهى وأن آمر أحد الخواجات أن يمسح حذائى وأنا واضع رجلا على رجل، سوف أرفض أن يفعلها جزائرى أو بورتويكى، بل لا بد أن يكون فرنسيا أو ألمانيا، وياحبذا لو كان يهوديا إسرائيلا جاء يسترزق أو يتجسس، ربما هذه الأحلام الهواجس التى لبستنى دون أن أدرى هى التى جعلتنى ألبس حلة كاملة ورباط عنق أنيق، خجلت من أفكارى، أهذا هو الذى أتشطر عليه!!

نزلت إلى الشارع وأنا فى كامل الهيئة، هذا هو الجو الذى أريده، قلت إذا عدت مع زوجتى يوما ما هنا فسنأتى فى هذا الميعاد، وتذكرت"المطرية" (هذا هو الاسم الذى أطلقته على ما نسميه الشمسية فى بلاد الشمس، أما اسم المظلة فهو اسم تقريبى غير دقيق!!) أعلم أنه بمجرد ان يسمع محمد إبنى هذا اللفظ سوف ينبرى لى محتجا :وصىٌّ أنت على اللغة يا محمد؟ أمين مخزنها؟ اللفظ يكتسب شرعيته بالاستعمال وليس بالتفعيص الذى تعملونه. سوف أرد عليه صامتا معاندا: إننى حر فى لغتى، إنها لغتى قبلك، سوف أقتحمها لها ياأخى– لغتى النبيلة القادرة، ألم تقل أن اللغة مؤسسة؟ فها أنذا أعيد تأسيسها، وإن كان لايعجبك إفعل ما بدالك.

فرحت أننى فقدت المطرية، كى أسير وسط الناس مثلهم، هم لا يمسكون مطريات. ومرة أخرى حين تكون فى سان مارسيل فلا تمسك بيدك إلا ما يمسك الناس فى سان مارسيل – وكنت قد لمحت مطعما

هنديا فى شارع جانبى صغير وأنا فى طريقى إلى المسجد أمس، وقلت هذا مناسب، وقبله لمحت مطعما لبنانيا، قلت لا، أنا أريد أن أسافر.

أذكر أنى تساءلت فى سان فرانسسكو لماذا حين يسافر المصرى يأكل أكلا مصريا؟ هل سرعان ما أوحشه؟ عرض علىّ أحدهم هناك فى سان فرانسيسكو أن ندخل مقهى (مطعما) مصريا، ولم يكن نظيفا كما ينبغى، وتقدم شاب يسير"مصريا" وحيّا وقرّع وطجّن وعرض خدماته فى الفول والطعمية، فتذكرت أغنية كنا نغنيها على لسان المشايخ أنه"الرز طش طش طشطش عالفرا.. راخ اتحمّرت، إلى أن نصل إلى مقطع يهجو العدس ويعايره بأنه"يا عدس جبّتك صفرا"، ونظرت إلى الفول المدمس وقلت له وأنت أيضا جبّتك بنيه، هذا الطعام المصرى الخاص أظن أنه يفسر بناء الهرم الأكبر وصبر المصريين على رؤسائهم.

دخلت إلى المطعم اللبنانى أستكشف فقط، ففرح بى صاحبه أو نادله اللبنانى وهات يا حديث فى السياسة والوحدة العربية مع وقف التنفيذ، ليس عندى ذكريات طيّبة فى باريس تتعلق بالوحدة العربية، نحن الآن سنة ١٩٩٣، ومحادثات السلام على أذنها (السلام الذى أصبح أقرب إلى السلام شوبنج سنتر للسياسات المحجبات أمام فحولة النظام العالمى الجديد!! وقد تأكد ذلك مؤخرا بعد حكاية السوق الشرقأوسطية!!)، صورة موشى ديان بعينه العوراء مازالت تطالعنى فى الميادين فى باريس وعلى واجهات السينما، كما كانت منذ ربع قرن، كان ذلك سنة ١٩٦٨ (والبصقة مازالت على وجهى يا إحسان يا عبد القدوس، أتحسسها حتى الان وأنا نصف نائم) لا ياعم، يفتح الله، لبنان التى أحبها هى لبنان جبال الأرز وفيروز ورقصة الدبكة، ليست لبنان التبولة والحرب الأهلية.

حين زرت لبنان لأول مرة سنة ١٩٥٤ كنت أجلس ناظرا إلى التليفريك يحملنا فوجا فوجا إلى الثلج على قمة الجبال مصافحا السماء، مستدفئا بالسحاب، فانسابت منى الدموع باكيا بلا سبب، كنت أجلس على مقهى صغير أعلى جبال طرابلس الشرق، سألنى صديقى المرحوم د.نبيل غنيم (رحمه الله: تزوج سائحة أمريكية، وتأمرك، ومات) سألنى نبيل: (كنا طلبة فى سنة ثالثة طب) ماذا بك؟ فذكرت له سببا غير السبب الحقيقى. علما بأننى لم أكن – وحتى الآن– أعرف السبب الحقيقى، (أعيد هذه الذكرى حتى لو حكيتها قبلا!!) أعتقد أنه من حق الدموع أن تنهمر دون سبب، وقتما تشاء، بل ودون حزن أو فرح، إنها تعبير مستقل لا يحتاج إلى تفسير، ثم ماذا؟

تعيش أنديرا غاندى (تناسيت أنه"الله يرحمها" !!). هذا المطعم الهندى يذكرنى بلندن، رغم النزل الهندى الذى سكنّا فيه لرخصه قرب الهايد بارك، والذى تميّز برائحة مستوردة من الهند مباشرة. رائحة لن أصفها، لعلهم يعتبرونها غير ما وصلتنى والعياذ بالله. فروق ثقافية!!

ترددت فى الدخول قبل أن أخطو إلى الداخل. أنا أفضّل الأرصفة فى باريس (وغير باريس)، دلفت إلى الداخل فإذا بالمطعم ملئ بالزبائن رغم تحفظاتى الخاصة، الحر شديد – كلهم فرنسيون، أو حُمر بيض والسلام، ومع ذلك يجلسون فى الحر هكذا. عدلت. قلت لابد من جلسة فى الهواء الطلق بغض النظر عن جنسية المطعم أو نوع الأكل.

يلوح مطعم آخر هناك، لكنه للأسف بيتزاريا. هكذا المكتوب عليه. أنا لا أحب هذا الطعام الطليانى من أصله. ماذا يحب الناس فى عجين"زِفِر" عليه قشر طماطم؟ ومع ذلك أغرتنى المقاعد خارج المحل، وقد بدأ الجو يتلطف أكثر فأكثر فأحس للهواء طعما، وأتذكر، مرة أخرى، حفيدى"عمر" وهو يوصّلنى إلى المطار ليلا ويصر أن يطلب من أبيه أن يفتح النافذة لتصل إلينا لسعة هواء القاهرة البارد فى حنو رائع يتميز به شتاء مصر خاصة، أتذكر عمر وهو يقول لأبيه:"أنا أحب هذا الهواء"، و أنا أيضا هنا يا حبيبى أحب هذا الهواء، حتى لو اضطررت...لا لن أضطر..(قف).

جلست على مائدة على الرصيف، هذا هو المهم. أنا مصمم ألا آكل"بتزا" مهما حدث. قلت أفكر حتى يأتى النادل ويسألنى، سوف أستعبط إذا صمم، وكان بجوارى ثلتين من الشباب الظريف أنسونى حتم البتزا المهدِّد. انتظرت ولم يأت أحد بسرعة، قلت أحسن أول ما سيأتى ويقول بتزا؟ أكون قد استكفيت من الجلسة مجانا، وأهرب.

خرج السيد النادل يتهادى، هذه المشية أعرفها، لماذا تعود تتردد فى وعيى تلك الأغنية التى لم أسمعها أبدا، كل ما أعرفه عنها هو عنوانها:"أمشى مثل مصرى" لكن مشية هذا النادل ليست"مثل". إنها مشية أصلية لا تقليد، أنا أعرفها، هل يا ترى...؟. ذهب إلى المنضدة المجاورة وقال:"مسيو" لكنه كاد ينطق النون والراء (الـ n والـ r فىmonsieur)، قلت هُوَ والله العظيم.

وتذكرت مدرِّسَتِى فى مدرسة" ما بين اللغات Inter Langue قرب ميدان الإتوال حين كنا ندرس الفرنسية بالطرق السمعية أول قدومى إلى باريس سنة ١٩٦٨ وكانت تتابع نطقى، وما إن أنطق حرف الراء راءً، حتى تدخل فى الخط صائحة لا"ترُلّ"(لا تقلقل) الراء يا سيدى، فأنطقها بالغين كالباغيسيين أنطقها كما تأمرنى لكنى لا أستطيع أن أحجب خجلى من نفسى وأنا أفعل، كنا نحسب ذلك دلعا لا يليق إلا بابنة ذوات من الزمالك.

ها هو هذا السيد النادل يـرُلُّ الراء ويكاد ينطق النون فى"مسيو" وهو يتهادى لايقفز. هى مشية المصرى. قلت له بالفرنسية"من أين"؟ فرد بالعربية"من بلدْكم". شخّصَنى كما شخصته، رددت بالعربية"أين بلدتك"؟ قال، مازحا:"اللى دنب بلدكم" (يقصد جنب لكنه ينطقها بالصعيدى تلطفا) فرحتُ به على غير العادة، رغم ظاهر رغبتى فى الالتحام مع الخواجات دون أبناء بلدنا، أبناء بلدى يملأون

بلدى، لم أستوحش لهم لدرجة أن أبحث عنهم –مثلهم مثل عزوفى عن مطاعم الفول المدمس فى الخارج، لكننى فرحان بهذا الشاب ما يكفى، فرحت به من وراء ظهرى.

بدا شابا طيبا، ربما أحسست أنه هو الذى فى حاجة إلى أن يرانى هنا هكذا – يسألنى بدوره:"وأين بلدكم" ،رددت له التحية"تبقى دنب بلدكم، البلدة اللى دنب البلدة تبقى التانية دنبها بالصلاة على النبى، يعنى كل واحدة دنب أختها" التقط القفشة فأطلت من وجهه ضحكة عريضة، هذه هى."هى" والله العظيم – وطلع أنه من الفيوم – ذاتها، وليس من جوارها!!! أستر يا رب، سألته لمّا علمت أنه هنا منذ سبعة عشر عاما:" فلماذا فرنسيتك لم تُصقل؟"، قال:" عملت مع العرب سنوات طويلة، فلم أحتج للغة الفرنسية، ثم إن ما تعلّمته يكفينى أن أُمَشِّى حالى هكذا". تأكد رضاى وقررت أن أبقى، وسيجد لى بلدياتى حلا غذائيا مناسبا (وكأنى جوعان)، وقد كان. أعلمنى أن هذه البتزاريا تقدم ما هو ليس بيتزا، طلبت ما طلبت بتوصيته، وجاء لى بالأسباجيتى والاسكالوب باالليمون والصلصة البيضاء، ذكرنى بالمطعم بالقرب من فينسيا وقد حكيت عنه كثيرا فى الجزء الأول من هذا العمل. عزمنى على الحلو"جدعنة" وفرح بى، واطمأننت على مصر من خلاله بشكل ما، هذه الضحكة وهذا الكرم وهذا السماح، ثم ما حدثنى به من أن الذى أعدّ لى غذائى الطليانى هو طاه مصرى بلدياتنا، وأنه يتقن الطهى الإيطالى أكثر من الإيطاليين أنفسهم،"مصريين يا عم"!!! وأن المصريين هنا مثل الجن يتعلمون كل شىء، وأن صاحب المحل ترك له وللطاهى كل أمور المحل، ثقة ورضا، كان الشاب الفيومى فخوراً، فانتقل الفخر إلىّ رغم كل شىء.

التقطتُ صورتى فى زجاج واجهة المحل المتواضع وأنا فى كامل حلتى، ورباط العنق آخر تمام، وابتسمت، كل هذه الأبهة من أجل عشاء عابر على رصيف محل متواضع أتحاور أثناءه بالمصرية مع شاب فيومى يتلهف على ضحكة مصرية، وغمزة إبن بلد، لم أفلح أن أكون سائحا شَمَجيًّا VIP (شخصٌ مهمٌ جدًا). يلعن الله أبا النقود التى كادت تستدرجنى – مرة ثانية – إلى حيثُ لستُ هناك، إلى مَنْ لستُ أنا.

تصبح على خير يا رجل يا طيب. ربنا يحميك.

ما إن فتحت نافذة الحجرة حتى أطل علىّ وجه صديقى البعيد القريب، بيير برينتى، كان يسير بين السيارت فأرفع رأسى فينادينى من على أسطح العمارات، ثم يبتسم من بين السحب، قال" إخص عليك". مع أننا اتفقنا من قديم أنه لا عتاب، ولا رسائل، دائما أذكره ودائما يذكرنى، لا نتراسل، ولاتهاتف، ولاشىء، هكذا فحسب. طلبت من رجل الفندق الطيب (جدا) أن يبحث لى عن رقم هاتف، باسم"برينتى"، وذكرت له أنه يسكن فى شارع كبير أمام الأنفاليد، فاستطاع أن يجد لى الاسم بسرعة

شديدة، وقال لى:"فعلا، هو شارع بريتاى وهو فى الحى (الدوران) السابع، ويقع أمام الأنفاليد مباشره – قلت له نعم هذا هو العنوان. اسمه بيير برينتى، قال بل جان بول برينتى.

يا خبر!!!، هذا اسم إبنه الوحيد، هل ياترى؟ لم أجرؤ أن أكمل إعلان مخاوفى، حتى لنفسى، أنـا لـم أر"بيير" خلال ربع قرن إلا ساعتين فى سفرة سابقة مع أولادى، ذهب فيها إبنى الكبير مع ابنـه جـان بول هذا فى رحلة بالدراجات، إلى الجنوب مخترقين بعض جبال الألب، هل يا ترى مات بيير ؟ وهـل معنى أن التليفون أصبح باسم ابنه جان بول أن بيير اختفى نهائيا؟

هو أكبر منى بعشر سنوات، وهو سيموت طبعا، مثلى أنا لا أراه أصلا، ولا أراسـله ولا أحـاوره إلا فى خيالى. هل أستطيع أن أواصل الحوار معه وكأنه مازال حيّا؟

مالى أتكلم عنه هكذا وكأنه مات فعلا؟ لماذا سألت عنه هذه المرة بالذات؟ حضرت قبل ذلـك مـرتين ولم أسأل عنه، لم أبحث عن هاتفه، ما الذى دعانى هذه المرة للبحث عن رقمه؟ ما الذى جعل وجهـه يقفز بين صفوف السيارات ويطل من فوق الأسطح ويلوح بين السحب، أنا فى حال طيب جدا، أعـرف أن الله سبحانه أرسل لى هذا الأسبوع هدية لعلها تكون تحويلة ذات معنى. إفاقة. فرصة. فلماذا؟ لماذا؟ ماذا؟ هل خلاص اعتبرته مات – وماذا لو مات؟ عمرى ستون عاما فهو فى السبعين بالتمام، ولابد أن يموت كما لابد أن أموت. كنت أتمنى أن أراه هذه المرة، ربما أراه لأودعه قبل أن يفعلهـا، أو ربمـا لنتواعد أن نتقابل على الجانب الآخر لنكمل حديثا لم يكن أبداً واقعا مـُلحـّا على الرغم من أنه استمر ربع قرن فى صمتٍ حَى. ألهذا كان الجزع؟ حقيقة لقد كان بيير معى طول الوقت، يمثل لى شيئا حقيقيا باقيا، وإن كنت لا أعرف معنى لهذا اللفظ"باقيا"، فلماذا يموت.. هكذا دون إخطار؟ ثم من أضمننى أننا سنلتقى على الجانب الآخر؟ ألسنا من ملـّتين مختلفتين؟ قد يكون أحـدنا فـى جـو شـديد الحـرارة (كتـــــِّم على الخبر) فى حين يكون الآخر سائرا يتنسّم النسيم العليل على شـاطئ نهـر مـن تلـك الأنهار، هل هذا سيرضيك يا أرحم الراحمين؟ عندى أمل فى عدلك ورحمتك ألا تحرمنا منّا لتضع كل منا مع من لا يعرف ممن لا يستطيع أن يتم معه جملة واحدة مفيدة.

أتذكر خيبتى فى حكاية العلاقات، وما تحدثت به عن صداقاتى التـى لا تتوثـق وتـسمى كـذلك إلا والصديق بعيد جدا، أحيانا بعد موته. أصادق من لا أراه. كلما زاد البعد زاد القرب. لم أكـن أريـد أن أفقس نفسى هكذا إلى هذه الدرجة.!!

كم اشتكى لى بيير من أبيه الذى زرته فى ميلانو أثناء عودتى، وكم شكى لى وحدته وهو يؤمن بـالله بطريقته، وكم شكى لى من معاناته فى البحث العلمى من غلاة مناهج الجمود، وكم حكـى لـى عـن فصوله مع بعض ذوى الياقات البيضاء، وأنا حكيت له مثل ذلك، فلماذا لا نكمل حديثنا علـى الجانـب

الآخر معا؟ لا.. لا تـَمـُتْ يا بيير حتى نتفاهم ونتفق كيف سنلتقى هناك، لا تمت الآن وإلا فأنت أنذل من عرفت. عمّر مثل أبيك يا بيير، حتى لو كان الخلاف مازال حادا بينكما.

كانت زيارتى لأبيه فى ميلانو اضطرارا أثناء عودتى بعد المهمة العلمية فى أكتوبر١٩٦٨ بعربة مرسيدس قديمة كنت قد اشتريتها من شاب سورى بما يوازى خمْسمائة جنيه مصرى تقريبا، كانت أرقامها ألمانية ولم أستعملها- طبعا- طول اقامتى فى باريس. اكتشفت على الحدود أن الشاب السورى خدعنى، وأنه ليس من حقه أن يبيع العربة، وأنهم سوف يصادرون العربة. فزعت- ليس لأننى خسرت ثمنها، ولكن لأننى على الحدود، ليس عند نقود إلا ثمن البنزين ومبيت ليلة هنا أو هناك، أنا حجزت تذكرتى على السفينة التى ستقوم من فينسيا بعد غد، والعربة محملة بكل أشيائى ويستحيل أن أجد من ينقلها وينقلنى معها إلى فينسيا، ليس معى حتى أجر من يقبل أن ينقلنى. أنا على بعد بضع كيلو مترات من نفق مون بلان. قلت لرجال الحدود كل ذلك - بصراحة - حتى كدت... لا. لن أقول. أخرجت لهم كل ما معى من نقود بعد أن عرفت أنه علىّ أن أدفع الجمرك إذا كانوا سيسمحون لى بالخروج، يا خبر أسود، عدَّ أحدهم النقود ونظر إلى زميله متعجّبا أو ساخراً. لكننى تصورت أنه صدّقنى، يبدو أن المبلغ كان لا يكفى عشر معشار الجمرك. نظروا إلىّ ثانية، وفجأة قال أحدهم بعد أن همس لزميله ببضع كلمات لم أسمعها، قال لى: إخفِ أوراق الشراء المزعومة هذه، ولا تظهر إلا رخصة العربة وكأنك أنت الذى دخلت بها بلا بيع ولا شراء، وسوف نأخذ هذه النقود كلها باعتبارها"غرامة" بقاء العربة فى فرنسا مدة أكبر من المسموح، ولا من شاف ولا من درى. لم أصدق كدت أقبّل صاحب الاقتراح وانصرفت عدوًا إلى العربة. قدتها بأسرع ما يمكن نحو نفق مونبلان. فى داخل النفق تذكرت أننى أعطيتهم كل ما معى من نقود فعلاً، حتى"الفكّة". ليس عندى فرنك واحد ولا أى شىء، مازال أمامى يومان وليلة وحوالى ألف كيلو متر. يا خبر أسود. ماذا لو كنت حجزت جانبا من النقود؟ نظرت إلى عداد الوقود كان يشير إلى أقل من منتصفه. مازلت داخل النفق. ضبطت أعصابى خوفا من اختلال عجلة القيادة وأنا فى هذه الحال.قلت: لتكن المغامرة بحق وحقيقى. سوف تُحل (لا أعرف كيف).

ما إن ظهر نور النهار خارج النفق حتى كنت قد قررت أن أبيع أى شئ معى مقابل ما يعيننى على وضع بنزين، أما المبيت فليكن داخل العربة مهما كانت الظروف. لم أجد مشكلة على الحدود الإيطالية عملا بنصيحة الفرنسيين الطيبيين. حتى لو كنت تذكرت أنهم أخذوا كل ما معى من نقود لم أكن لأجرؤ أن طلب منهم هناك ثمن البنزين. هذه لافتات ميلانو تشير إلى أقل من مائتى كيلو متر. تذكرت ما حدثنى بيير عن والده، وأنه قد أعطانى عنوانه فى ميلانو. قلت أمرّ عليه لو أوصلنى البنزين إليه.

رجل يفوق التسعين عرفت سر صراع بيير معه. رجل متماسك تماما، قوى جدا يـتكلم عـن بييـر (الأكبر منى بعشر سنوات) كأنه مازال فى المرحلة الثانوية. أنا فى بيته. حكيت لـه القـصة بفرنـسية مكسرة. قلت له أن المركب ستسافر بعد غد، وأنى يعنى، أنى، ماذا، كـذا، يعنـى، لـم يعـزم علـىّ بالمبيت.(عادى). لم يلتقط أنه ليس معى صلداً. لم أجرؤ أن أطلب منه شيئا. طلبت بيير من عنده هاتفيا حكيت له القصة، وصارحتُـه هذه المرَّة أن يبلغ أباه أن يعطينى ما يكفى وقود السيارة حتى أصل إلـى فينسيا وأنى سأرسل له المبلغ فور وصولى مصر. لا أعرف لماذا سكت بيير مدة قبل أن يطلب منـى أن أناول السماعة لوالده. هل شك فى؟ هل خاف من والده؟ خاف من سوء تأويله أو من رفض طلبـه؟ المهم بعد رطان بالطليانى لم أفهم منه حرفا، ربّت علىّ والده وأحضر لى ما طلبـتُ بالـضبط (حـق البنزين، دون زيادة) وهو يتمتم بكلمات طليانية، لعلها تعاطف، هكذا تمنيت. لماذا لـم أطلـب أكثـر؟ حمدت الله وشكرته، تساءلت بعد قليل: لماذا لم يفكر وحده فى كيف يمكن أن أصل إلى الميناء؟ لمـاذا لم يسألنى إن كنت أريد شيئا؟ أليس هذا معنى ابن اسبيل باالضبط الذى بدأت به الترحال تلو الترحال؟

شكرته جدا وشكرت بيير، وشكرت رجال الحدود الفرنسيين وواصلت رحلتى .

لابد أن أغامر بمحاولة التأكد من الشكوك التى ساورتنى. يا رب أراك يا بيير هـذه المـرة، يـارب أطمئن عليك على الأقل. أخاف أن يفرقوا بيننا على الجانب الآخر،

أمسكت بسماعة الهاتف بيد مرتعشة، وقلت لن أنام إلا إذا اتضح الأمر، وليكن ما يكون، الـرقم الأول بدأ يرد (كان ثم رقمان أعطاهما رجل الفندق) الرقم الثانى مشغول – قلت ربنا يريد لى أن أنام الليلـة على أمل: الصباح رباح، وضعت السماعة، إلاّ أبدا، أدرت الرقم الذى كان مـشغولا، ثـم مـشغولا، ثم....ثم رنّ هذه المرّة، يارب سترك ،

"ألو: جان بول"، قال"نعم من الذى على الجهاز" (السماعة؟ – تعبير فرنسى)"أنا يحيى، سـميّك، هـل تذكرنى؟ ("يحيى" هو"جان" بالفرنسية ،هكذا قال لى بيير منذ ربع قرن)"دكتور يحيى مـن مـصر"؟؟!! فرح جان بول وهاص حتى رأيت فرحته عبر الأسلاك، لكنها فرحة ناضج وقور، طول عمـرى وأنـا أعتبر جان بول أكبر من أبيه حتى وهو عنده ست سنوات، مازلت أخشى – حتى أرجّح – أن أباه قـد رحل إلى الناحية الأخرى دون استئذان،، فكيف يفرح هكذا وأنا أذكره بالمرحوم؟ لكن لعله فَرِحَ لأننـى من رائحة العزيز الفقيد!!! يسألنى جان بول عن محمد إبنى رفيقه فى رحلة الدراجات فى جبال الألب، قلت له أنه تزوج وأنجب ولدا وبنتا، ابتهج ثانية برقة ناضجة أيضا،"وأنت يا جان بول؟"(مازلت أؤجـل السؤال عن والده) قال"تزوجت وعندى طفل"، كل ذلك ولم أجرؤ أن أسأله بعد عـن والـده، فبـادرنى هو:"تريد والدى؟" قلت فى نفسى، وهل هذا سؤال؟ ثم..، رددت:"طبعا أريده"، قال"هو فـى فالوريـسين الآن".

الله يخرب بيتك يا جان بول يابن بيير برينتى، ما كان من الأول..، أول ماذ؟ وأنا لم أسـألـه أصـلا؟ فالورسين بالذات يا جان بول؟ الحمد لله، ذلك الكوخ ذو الستائر الحمراء؟ فالورسين أعلى جبال الألب؟ قضيت هناك أياما لن أنساها، ولن أحكى عنها، لماذا لم تبادر يا جان بول بذكر ذلك من أوّل المكالمـة يا شيخ؟ لماذا رحتَ تحكى لى عن طفلك وتسأل عن محمد؟ إخص عليك (كل ذلك فى سرى طبعـا)!! الحمد لله، الحمد لله ماذا؟

ماذا يهم إن كان بيير على قيد الحياة أم لا. أنا لم أراه منذ غادرت باريس بعـد المنحـة (١٩٦٨) إلا مرّة واحدة، اتفقنا ألا نتصل هاتفيا، لست أدرى لماذا، وقد لا أراه حتى نهاية العمر، فلماذا هذا الجزع؟

سألنى جان بول: تريد أن تحادث أبى ؟

قلت :

"طبعا ياجدع أنت"،

أعطانى رقم هاتفه، سألته:

والوالدة؟ كيف حال فرانكا؟

هى امرأة دمثة إيطالية شديدة الاحترام شديدة الحب لزوجها ولبيتها شديدة الصبر، لكنها قديمة الجمال، متواضعة الأنوثة، هادئة التدين.: هى التى أشرت إليها فى الترحال الأول حين شجعتنى، أو قرظتنـى، على لعبى كرة القدم بعد عشرين سنة من خيبتى فى سن الرابعة عشر. تردد جان بول قليلا، قلت فـى نفسى: إذن هى التى ماتت، هكذا خبط لصق، (كانت أكبر من بيير سنا) كل تأخير فى أى معلومة عـن أحدهم تساوى عندى ترجيح الموت. ما هى الحكاية؟ قال بعد صمت، هى هنا فى بـاريس تعمـل. لـم أطِلْ. فهمت. كان الأوان قد آن أن ينفصلا. أكمَـلَ جان بول:

"أبى يعمل فى فالوريسن" ،

يعمل؟ يعمل ماذا وأنا أعرفه دائم البدايات (مثلى) قليل الإنجاز،، هل هو يعمل فى كـوخ التـصييف هناك فى فالورسين؟ المهم أعطانى جان بول رقم التليفون وتمنى لمحمد (إبنى) ولى الخيـر، وسـلام، سلام.

أدرت رقم التليفون فوراً وإذا بيير شخصيا يرد. هو هو وكأنى أكلمه قبل ربع قرن فـى منزلـه فـى الحى (الدوران) السادس عشر لأعتذر عن عدم الذهاب للمستشفى فى اليوم التالى. ربع قرن أمـّحى فى ثانية .

-بيير!!…………… —من؟……………

- خمِّنْ؟…………… —مَنْ……………

-يا رجل خمّن…… – من؟……………

نفس الصوت الطفلى ذى اللكنة الطليانية، قلت:

"يحيى".

قال"غير معقول" قلت: بل" معقول"، هاص،وزاط، رأيته يقفز وراء السماعة، فقفزت قبالتـــه، يحيـــى، بير، يحيى، بير، غير معقول، غير معقول، أين أنت، فى باريس، كيف عرفت رقم التليفون؟ من جـــان بول، جان بول؟ وهل عَـــرَفَـــــك؟ طبعا، غير معقول، إعقل يا بيير، جان بول تـــزوج وأنجـــب، مازلتَ تـــتصور أنه لا يعرف أحدا ولا يستطيع شيئا، ولا حتى أن يعطينى رقم تليفونك فى الألب، مـــا هذا الذى تستبعده؟ أن يعرفنى ابنك (الذى صار أبا)؟ أن يعطينى رقمك؟ أن يوصلنى إليك؟ مـــاذا هـــذا الذى هو"غير معقول"، أكملتُ:

-لقد سألنى عن محمد؟" – محمد من؟

ما كل هذه المشاعر التى تغمرنى وتغمره عبر الأسلاك؟

-"يا بيير محمد إبنى،" –وهل عرف اسمه وحده؟

-"أحسن منك يا بيير، نسيتـــَه أنتَ وذكـــَره هو" .

مازال بيير يتصور جان بول طفلا لن ينمو أبدا (نفس موقف والد بيير من بيير حين لقيته فى ميلانو) منذ ربع قرن.

تزوج جان بول، وأنجب، واستقل وجعل التليفون باسمه ومازال والده لا يصدق أنه عرفنى، وأنه سأل عن محمد ابنى صديقه.

يتحرك الزمن بالنسبة لكل شئ إلا بالنسبة لنظرتنا لأولادنا، وبالذات لتصورنا عن عجزهم أن يفعلـــوا كذا وكيت بدوننا، ربع قرن لم يتغير صوت بيير ولا حماسه ولا طفولته. يبدو أننى أنا أيضا لم أتغيـــر، ضحكنا عاليا تماما مثلما كنا نضحك معا فى مكتبه فى مستشفى سانت آن، أكمل بيير

"-يحيى" غير معقول، لابد أن تحضر إلى فالورسيين"

(الألب) فكّرت لحظة وكدت أوافق، لكنه أكمل: فقط أنا مسافر غدا، لى عمـــل فـــى جنيـــف، أعمـــل بطريقة جديدة، أبحث فى مشاكل الأسوياء، منهج آخر، غيرما تعرف – لابد من إثبات شئ – لابد مـــن منهج جديد، هل تذكر؟ تركت بيشو، تركت مستشفى سانت آن، عملى الجديد يبهرنى".

هل هذا الشخص الذى يتحدث قد تجاوز السبعين؟ خيل إلىّ أنه هو هو بيير من ربع قرن بل أصـــغر، وكأنه شاب يبدأ من جديد، طمأنتنى المكالمة على نفسى، هاهو بيير مازال محتفظا بالأمل، ذكرت ذلـــك الكهل ذا الخمس وثمانين عاما الذى قابلته فى الحديقة الصغيرة على سفح مونتريه القديمة، ذكرته دون مقارنة، فقط لأتأكد أن الحياة، مجرد البقاء على ظهر الدنيا: تستأهل، (تستأهل ماذا؟ لا أعلم، وهل يعلم البرغوث وهو يقفز إلى أين هو سوف يحطّ؟ حتى متى؟).

عاد بيير يكرر:

-وجان بول هل حقيقة هو قد عرف اسم ابنك وحده ؟

مازال لا يصدق بعد أن ابنه المتزوج والأب يعرف اسم صديقه"إبنى" أكثر منه

قلت :

-"يا بيير اعقل، طبعا عرف"

-"ماذا عرف؟ هل كلمته؟"

.ماذا أفعل مع هذا الطفل الجميل ذا السبعين عاما؟؟"طبعا يا بيير كلمتـــه، وإلا فكيـــف عرفـــت رقـــم تليفونك فى فالوريسين"،

-"وما اسم ابنك"؟"محمد"،"آه محمد كيف حاله"، وهل نطق جان بول الاسم جيدا؟

وكأن جان بول مازالا طفلا يتعلم النطق فنـــفـــرح به حين ينطق جملة على بعضها، ضحكتُ وكدت أمدَّ يدى أقرص أذنه، ألن تعقل يا بير،

- كيف حال لويزيلا وسيلفيا؟ (ابنتاه؟)

- لقد أصبح لى ست أحفاد لويزلا ثلاثة، وسيلفيا اثنين وجان بول واحد،

ذكرت له بدورى عدد أحفاءى،لم أسأل عن فرانكا أصلا احتراما لما وصلني.

الحمد لله، بيير مازال حيا، طفلا كما هو، أصغر من كل أبنائه وأحفاده، يحلم بمنهج جديد، يستطيع أن يحلم وهو فى السبعين. ما أروع أن تحتفظ بحق الحلم، الجماعات إياها لا تحلم، يارب اجعلهم يحلمـــون حتى يسمحوا لنا بحق، الحلم، حتى لا يحرمونا من الحلم؟

أعطيتـــُـــه رقم تليفونى فى الفندق، ووضعت سماعة الهاتف حامدا ربى عز وجل أننى لم أفقده،

ياسلام، صديق لا تراه خلال ربع قرن إلا يوما أو بعض يوم، ثم هو هو الصديق، وآخـــر تـــصنعه على عينك، وتعطيه لب قلبك ثم لا تراه إلا من خلال غلالة الخوف والحـــسابات والغمـــوض وســـوء التأويل،

وثالث تتقدم به السن ويكسب قرشين، فيستغنى عنك وعن نفسه، ولايتوكـــأ إلا علـــى لقـــب، وســـفر مأجور، ومؤتمر كاذب، وكلام زائف كثير، ومكاسب تراكمية خاوية،

الحمد لله، ابحثوا لنا عن أسماء غير الصداقة والعلاقة والحب نفهم بها من، وماذا نحن، مـــع بعـــضنا البعض.

انتهت المكالمة وقدقفزنا نحن الاثنين وأيدينا متشابكة ربع قرن إلى الوراء استعدادا لأن نقفز معا فـــى قرون قادمة.

دق جرس التليفون، فقلت من ياترى فى جوف هذه الليلة، وإذا به بيير،

-يحيى!!"........... – نعم" ،

-ألا تستطيع أن تنتظر فى باريس حتى الأسبوع القادم؟"

..-يا بيير عندى مسئوليات، أنا رئيس قسم تارك الامتحانات ورائى،

"أنت ماذا"؟ رئيس قسم"؟"مثل بيشو إذن"!!

انزعجت (مع أن بيشو هذا كان رئيس قسم بيير بعد أن غادرت أنا باريس، ثم إنه كان رئيس الجمعية العالمية للطب النفسى حين زارنا فى مصر سنة ١٩٧٩، ولكننى لا أقبل أن أكون مثله تحت أى ظرف أو لقب)،

قلت له:

- أبصق من فمك يا رجل، هل تريدنى بعد هذا العمر أصبح بيشو؟

نضحك معا فى نفس الوقت بطول الخط بين باريس وجبال الألب،

أكملت:

-قل مثل ديليه مثلا،

-جان ديليه،؟

- طبعا، لاتستهن بى يا رجل (جان ديليه هذا هو مكتشف عقار اللارجاكتيل، وله نظرية فى الــذاكرة، وعضو الأكاديمية الفرنسية ويكتب القصة والشعر باسم مستعار)

قال :

-أنا فرحان لك يا يحيى، لك قلب يستأهل ذلك كله وأكثر، يسع كل ذلك.

فرحتُ بهذه الشهادة وكأنى حصلت على نوبل، نظرت إلى كتفى الأيمن وقلت له سجّل، أو أنت حر، قال قلبك يسع كذا وكذا.

أكمل بيير يحدثنى عن مشاريع عمله وطريقته الجديدة فى البحث التى كان يعترض عليها بيشو، قلت له:

-"قابلتُ"بيشو" فى الدار البيضاء

-"وكيف كان

-كما هو لايكف عن الكلام ولايسمع إلا نفسه

" قال أ"نا لا أحبه" قلت"ومن سمعك"، قال:"ولو أنى أرسل لزوجته باقة ورد كل رأس سنة".

بيشو رجل تقليدى جدا، فرنسى قديم جدا، متحفظ جدا،خفيف جدا،لا يذم ولا يمدح، لكنك متى ذكـرت له اسما مط شفتيه ورفع حاجبية وحكى حكايات، وأنت وما تفهم، أو هو يخرج الهواء من بين شـفتين مضمومتين (فرنسى.عادى) ويدعك أن تترجم. وهو يحب التاريخ (عامة، لا تاريخ الطب النفسى فقـط) وصديقى بيير يهديه بين الحين والحين كتابا فى التاريخ. لا بيير ولا أنا احترمنا منهجـه العلمـى ولا لثانية واحدة: طول وقته، قياسات وإحصاء قياسات وإحصاء، ثم لا شىء، ولا إضافة.عكس بيير.

عرفت بيير وهو مشغول طول الوقت بأحلام عن منهج جديد، وعن مستويات للصحة النفسية، يحـب الفارابى ويعرف ابن عربى، ويتخيل شرقا سحريا لا وجود له (الآن على الأقل). يتصور أننـى أمثـل هذا الشرق.

وزوجة بيشو امرأة رقيقة ذكية، تتلطف معى فتزيل حرجى وهى تستقبلنا على العشاء فى منزلها فـى باريس، وأنا الغريب الجاهل فى أصول الضيافة والأكل، أشعر أنها كريمـة ودافئـة وشـديدة الطيبـة والاحترام، زارتنى هى وزوجها فى مؤتمر سنة ١٩٧٨ وأحبت حلوى"أم على" جدا.

أحب بيير، وأرفض بيشو، وأحترم زوجته التى قفزت صورتها فى خيالى بمجرد أن ذكر بييـر باقـة الورد كل عام،

أشياء صغيرة لكنها هى الأشياء يا بيير. هى كل الأشياء.

بيشو هذا يمثل الكتاب الذى كنت قد بدأته ثقيلا قبيحا، وهو يمثل النظام العالمى الجديد، ويمثل شركات الدواء على خفيف، أخف من"دينيكير الذى بلغ الثمانين ومازالت شركات الدواء تضعه على رأس موائد الطعام المؤتمراتية، أو التآمرية،مع أنه هو هو الذى اشترك فى اكتـشاف أول عقـار نفـسى لعـلاج الفصام/ الذهان؟ يجلس بعد تاريخه العلمى هذا على رأس المائدة التى أعدتها شركة دواء مـا، وكأنـه برميل فارغ جاهز لأن يملأ بنبيذ الدعاية المسطحة، أو كأنه مذياع قديم كتلك التـى كنـا نحـسب أن شخصاً يجلس داخلها يقرأ القرآن، تفتحه شركة الدواء كما كنا نفتح هذا المـذياع الجـالس القرفـصاء، يتدفق وهو يعلن عن الدواء الحديث الذى يشفى كل الأمراض النفسية (مثل شربة الحاج محمود)، بيشو أيضا يمثل الانتخابات التوفيقية فى الجمعيات العالمية التى جعلته رئيسها يوما، كما يمثل المناصب التى لا يعرف قيمتها الحقيقية إلا من يعرف حقيقة القيمة الحقيقية.

بيير – رغم عدم إنجازه لأى شئ واضح، يمثل لى اللبنة الحقيقية التى تضاف إلـى غيرهـا لتـصنع صرح الحياة.

الحضارة هى الصرح الذى يتكون من مجموعة اللبنات المليئة بالصلابة والحيويـة، هـى الوحـدة المتولدة من تجمع نبض ملايين العقول البشرية الحيـّة، الملتحمة بوجدان ووعى مجموع البشر الذين يمثلون فترة تاريخية بذاتها،

بيير لبنة مجهولة، لكنها فى مكانها تماما، لا يعرفه أحد، لم ينل جائزة، ولن ينال شيئا، لم ينشر بحثا مشهورا، ولن يفعل، لكنه ينتمى إلى الحياة مباشرة، يبحث عن منهج فى سن السبعين، يضحك، يحاول من جديد، بيير لبنة متينة فى موضعها بجوار لبنات كثيرة مجهولة، هى الأصل،

بيشو لافتة مزركشة من الجبس أو البلاستيك المصنّع بعيدا بآلات صمّاء. لابد وأن توضع على أعلى المبنى، ليعرف الناس اسم المبنى وكيف يصلون إليه، أو يرسلون بريدهم عليه، لكن اللافتة ليست المبنى، اللافتة لا تصلح مكان لبنة حقيقية فى بناء الإنسانية الشامخ، المجهولون هم الذين يصنعون الحياة ولا يغير من الأمر شيئا وأن يظلوا مجهولين

والله زمان يا حجرة بيير فى مستشفى سانت ان كم ملأناك بمثل هذه الأحاديث..

كل شئ يزول إلا الحلم، حالة كونه يتحرك ليجدد الحقيقة ،

كنت فى أول هذه الرحلة على وشك أن أصبح بيشو ،

فلحقتنى هذه المصادفة لأظل بييرا، بل لأظل أنا.

ألم أقل إن الناس هم الناس وأن الطريق هو الطريق. هذا هو.

الأربعاء: ١٩٩٣/٦/٣٠

اليوم طقس آخر،

يقول التليفزيون أن الغمام سيعم كل مكان، أحسن. لتكن الصورة، كما كانت دائما، سأذهب إلى سانت آن، المستشفى التى كنت أعمل بها، ثم إلى الفياب (دوّار باريس FIAP) ثم غابة بولونيا والأوبرا حتى أكمل طقوسَك يا باريس، ثم أصبح حُرًّا، يوم غد محجوز أنا للمونمارتر مرّة أخرى، هو عندى باريس الأصل، سوف أودعها فيه، لا ليس وداعا بل سلاما إلى عودة ياnabليون بونابرت، كنتَ حالما كبيرا خربَ الله بيتك وأكرم مثواك، ثلاث سنوات فى مصر تعمل فيها"كل هذا"، ثم تأتى الجماعات إياها بعد قرنين تعمل فينا"هذا"، ليس وداعا A dieu ولكن إلى لقاء Au revoir،

هذا غدا، أما اليوم فإلى الطقوس المتبقية :

أخرجت سترة المطر بدلا من المطرية (المظلة) تحسُّبا لرحلة اليوم، اطمأننت على ركبتى وقلت زكاتهما وشكرهما أن أعود للمشى مع مرضاى صباح كل اثنين حين أرجع، فتحرك الألم، قلت لهما: هل تستبقان الأحداث وتحتجّان من الآن، لماذا حملتُمَانى هنا فى الغربة كل هذه الساعات والمسافات وسط الخواجات، ثم تريدان أن تحرمانى من مرضاى وصحبتهم مرة فى الاسبوع وهم أصحاب الفضل؟ زاد الألم قليلا، قلت ليكن، آسف، أكمِلا جميلكما وسوف نرى حين نرجع.

شارع باسكال – محطة جلاسيير، الحى (الدوران) الثالث عشر، شارع كابانيس مستشفى سانت آن، لم يسألنى أحد، ولم يعترضنى أحد، بعض المرضى المزمنين يتجوّلون فى الحديقة الخارجية، هم هم،

سانت آن فى وسط باريس يا سيدى يا وزير الصحة، سانت آن أثر، تاريخى وكل مستشفى عقلى أثـــر باق يعلن بعض صور فشل المبدعين، ويحترم ذلك فى حدود، فلماذا تريد أن تنقــل العباســية خـــارج القاهرة يا معالى وزيرنا الهمام؟ لماذا تريد أن ننسى أن الجنون جزء لا يتجزأ مـــن حياتنـــا؟ شـــاهدت بعض المرضى المزمنين مفرطى النشاط يمرحون بشكل هزلى، كأنى أعـــرفهم، كـــان أحـــدهم يـــشبه مريضا ترك فىّ أثرا قريبا. الرائحة واحدة جدا، للمرض العقلى رائحة واحدة عبر العالم.

الرائحة هى الرائحة، رائحة البشر والطوب والشجر، الخضرة أجمل وأزهى، شهر يونيو أدفأ؟ ربمـــا، درت دورتى، صالة الحراس هى بيت النواب: لماذا أسموها صالة الحراس؟ (Sale de Guard) ســـوف أسأل تلميذتى التى عاشت فيها سنة، رحت أسلم على الجدار تلو الجدار، وفهمت – مرة أخرى ليـــست أخيرة– معنى الوقوف على الأطلال عندنا نحن العرب.

كان عملى (حضورى) فى مستشفى سانت آن إضافة لتعميق وعى بمعنى الجنون جزءً لا يتجزأ مـــن وجودنا،

فى مستشفى سانت هذه أتيحت لى الفرصة للحضور على"هنرى إى" ومقابلة جان لاكان (للتبـــرك !! فلم أفهم منه شيئا، كنت أحسب أن ذلك بسبب صعوبة اللغة، وإذا به بـــسبب كـــل شـــىء، الفرنـــسيون يشكون من عدم فهمه أكثر منى أحيانا).

قد فسرت وجود مستشفى الأمراض العقلية وسط المدينة، فى صرة العاصمة تفسيرا إيجابيا احتججـــت به على وزراة الصحة عندنا حين همُّوا لنقل مستشفى العباسية إلى مدينة بدر، ولما شككت فـــى حـــسن استماعهم نشرت فى الأهرام ما يشير إلى علاقة الحضارة بالجنون، وأن الوعى بالجنون الكامن عنـــد كلٍّ منا، هو الدافع للإبداع، كما أن الوعى بالموت هو الدافع للحياة (انظر قبلاً).

كتبت فى الأهرام دفاعاً عن بقاء مستشفى العباسية مكانها:

" ...إن تاريخ الجنون هو تاريخ الحضارة، وهذا لا يعنى أن الجنون هو الحضارة، ويترتب على ذلـــك أن موقف المجتمعات والأمم من الجنون يدلّ ارتفاعا ودنوا على موقعها على ســـلّم الحـــضارة، وهـــذا المنظور التاريخى لا يتوقف على طريقة الرعاية التى يحظى بها المرضى العقليين فى مجتمع ما فـــى فترة بذاتها، (وإن كان هذا عامل هام) ولكنّه يشير أساسا إلى مدى تحمّل الناس لـــشطحات المجـــانين، واحترام وجودهم، والتعلم من خبطاتهم وحكمتهم، والنظر فى أنفسنا لنجدهم داخلنا وليس فقط خارجنـــا، ومنذ كتب ميشيل فوكوه كتابه الرائع عن تاريخ الجنون أصبح هذا المنظور من بديهيات التاريخ ومـــن أبجدية المعالم الحضارية لأمة من الأمم.

ومن هناء جاءت أهمية الدلالة الرمزية والتاريخية لمستشفيات الأمراض العقلية فى أى أمة من الأمم، وفى أى مدينة من المدن، ومن هنا جاء الحرص على أن تكون مستشفيات الأمـــراض العقليـــة مكانـــا

ومعنى من آثار أى أمة تحرص على المحافظة عليها أينما هى كيفما هى، مثلما نحرص على آثارنا فى كل موقع كما هى حيث هى سواء بسواء، وتعامل مستشفيات الأمراض العقلية بكل ملحقاتهـا معاملـة الآثار الخالدة، والمسموح بالنسبة لها فى كل العالم... ومع إنه يستحيل أن نحترم المجنون أو نعالجه إلا إذا احترمنا جنوننا نحن، ولكن دون أن نجن، ومن هناء جاء حرص المتحضرين والمبدعين علـى أن يجعلوا هذا الرمز قريبا من وعيهم وفى مجال رؤيتهم وذاكرتهم، ولا يقذفون به بعيـدا فـى أطـراف المدينة أو جوف الصحراء، وكأنهم بذلك قد أعفوا أنفسهم من النظر إلى الداخل".

(انتهت معركتنا مع وزارة الصحة ببقاء مستشفى العباسية وتجديدها بمئات الملايين اكتوبر ٢٠٠٠)

فى مواجهة مسشفى سانت آن مباشرة، يوجد"دوّار" باريس الـ FIAP فـى نفـس الـشارع،"شـارع كابانيس" ربما سبق أن تكلمت عنه، كان بيير يعتبره قبيحا لديكوراته المودرن جـدا، فـى الزيـارتين السابقتين لباريس لم أتمكن من الوفاء بطقس الطواف به، ما هذا؟ الدَّرَجُ قد انتقـل مـن مكانـه، أيـن الكافتريا؟ كانت فى الدور الثانى؟ صعدت؟ لم أجدها، نزلتُ، كل الجنسيات موجوده كالعـادة، اقتربـت من المطعم، كان ثمن الوجبة آنذاك (٨٦ / ٩٦) ستة فرنكات وربع، قرأت: خمـس وثمـانون فرنكـا، ماذا؟ هذا الدوّار هو لخدمه الزوار الذين على قدر حالهم، تشجعت فتقدمت إلى الـشابة النـضرة فـى الاستقبال كانت تتحدث فى التليفون، فانتظرت، سمعتها تقول"محجوز حتى سبتمبر"، إذن؟ ولهذه الليلـة؟ الفرد بمائة وستون فرنكا بما فى ذلك الإفطار.

بدون أى مناسبة، وضد كل الحسابات قفز إلى مخى اقتراح أن أقضى آخر ليلة هنا، فأنا أدفع أربعمائـه فرنك فى الفندق الذى أنزل فيه، ضبطت نفسى. لم تكن المسألة إحياء ذكريات عزيزة، فأنا لم أنم هنـا إلا ليلة واحدة يوم وصولى فى أكتوبر ١٩٨٦ وكانت ليلة مثل بعضها، سرير على دورين فى حجـرة لثمانية، لكن ماذا أعمل والحسابات والمقارنات لاتهدأ، ضبطت نفسى وأنا أريد توفير مائتين وأربعـين فرنكا، وكأن كل ادعاءات"أريد أن أصرف"، أريد أن أصرف" هى كذب فى كذب.

ولو!!، فأنا هكذا، أحاول طول الوقت، والأمور تسير. وسوف أنجح.

قلت للشابة النضرة، وراء حاجز الأستقبال: الأمور تغيرت أليس كذلك؟ قالت أية أمور؟ قلت كل شـئ كل شىء، وأكملتُ قبل أن تفهمنى خطأ: لقد كنت هنا سنة ١٩٨٦، منذ ربع قرن، وعدت أزور المكـان الآن، ووجدت، ما وجدت، فهمت الشابة بسرعة وابتسمت ابتسامة واسعة مرحّبة، وقالت:"فعلا كل شئ تغيّر، كل شىء"، قلت:"خلال ربع قرن تحدث أشياء كثيرة"، اتسعت ابتسامتها قائلة"لم أكن هناك"، وهـو تعبير بالفرنسية غير"لم أكن هنا"، التعبير الأول يعنى-كما وصلنى ووافقتْ هى عليه- أنها لم تكن قـد ولدت بعد، والثانى يعنى أنها لم تكن تعمل هنا،

ثارت أبوتى حتى قبـّلتها على جبهتها من بعيد طبعا، وصلت القبلة.

استأذنتُ وتمنت لى وقتا طيبا ،وتذكرت"على" ابن بنتى، عمره عام وبعض عام ،

انصرفت إلى الطقس التالى: إلى غابة بولوينا.

محطة بوابة (بورت) دوفين، نعم، هى المحطة التى اعتدت أن أدخل منها إلى الغابة، وبحيرتها، كم أمطرت علىّ هناك وحدى، ثم مع أولادى وصُحْبتى كم قرأت على أرائكها فى شمس الخريف، لكننى لم أحبها مثل المونمارتر، أو مقاهى الجوبلان. مع ذلك كان لزاما هذه المرة أن أزورها، الطقوس إياها، ولكن بإيقاع آخر، أريد أن أوقظ فى داخلى كل لحظة، أن أشعل كل زاوية، أن أسمع همس كل مكان، أن أتحسس كل حجر. أن يسمعنى ويتحسسنى كل ذلك، أسبوع واحد أحيا كل شئ كأنه يبعث الحياة فى ربع قرن بالطول والعرض، سوف أذهب إلى الغابة والبحيرة وأحسن الإنصات، وسوف تقول البحيرة كما ستقول الغابة،، أنا واثق من ذلك، لا أحد يتكلم صادقا إلا وجاءه الرد خالصا بقدر إخلاصه، أعرف أن الحوار يستأهل، نظرت إلى ركبتىّ، ولم أطل خوفا من تكرار الحوار واحتمال الخلاف، عجبت أن المسافة (أيضا) أصبحت أقرب؟

لمحتُ على جانب من الطوار تحت أشجار الغابة قبل الوصول إلى البحيرة امرأتين باسم الله ما شاء الله، تزن الواحدة منهما أكثر من مائة وعشرين كيلو، مثل أبطال المصارعة الحرة، واقفتان تتحدثان. رأيت كثيرا وقليلا لكننى لم أر مثل هذا المنظر من قبل، إحداهما تلبس منطلونا قصيرا (شورتا) فتبدو وساقاها والعياذ بالله" شيئا لـُبــَداً، لو رآهم يس أحمد عبد الجواد (الثلاثية)، لوضعهما بجوار بعضهما ليس فى الحجرة التى كان يتخيل الجسيمات فيها وإنما فى صحن دوار عائلة أو بئر سلم واسع وراح يلف حولهما مرددا"الله حى... ديجول جــَىّ". الأخرى تلبس بلوزه مفتوحة الصدر جدا، وجونلة ليست قصيره تماما قصر"شورت" زميلتها، وفجأة توكلتْ على الله هذه الثانية ومدّت يدها إلى صدرها وأخرجت أحد نهديها، باسم الله ما شاء الله، لم أفهم قط عبده الحمولى فى أغنيته"شفتى بتاكلنى" وهو يمدح حبيبته بأن نهودها"قول ييجى وقة"، شوهت فرقة الموسيقى الشرقية الأغنية بتحوير كلماتها، قال ماذا؟ قال خوفا على الحياء العام، حياء ماذا يا عم، حياء ماذا هذا الذى يُخفى الحقيقة البسيطة. التى يعرفها كل الناس صغارا وكبارا ببساطتها وصدقها، فمن أين الخجل ؟ نبذل جهدا مضاعفا لنغطيها بالكذب وادّعاء الحياء.

ها هى ذى المرأة الجسيمة تتوكل على الذى فى ضميرها وتظهر الباقى، مدت يدها إلى النهد الآخر، فأصبح منظرا لا يحتمل، لم يكن الجو حارا لدرجة الرغبة فى التهوية. ظلت المرأتان تتحدثان. لم تشيرا إلى أحد، ولم يظهر عليهما أنهما واقفتان تنتظران أحدا، فأنا أعرف منذ علاقتى بحى"كليشى" لغة هذه التجارة مضيت وأنا أتعجب من هذا المنظر ولا أجد له تفسيرا. نظرت خلفى بعد قليل فوجدت الأمر كما هو عليه، قلت كل واحدة حرّه فى نهودها، وسماء الله واسعة، أوسع من"الماسك التحتى؛

(الترجمة الدقيقة لكلمة: سوتيان Sous-tien)، أنا مالي، لكن الأمر غريب حتى لمن اعتاد مسخرة باريس،؟ لعله الحر!.

وقعت عينى على مبنى عريق كأنه مَعْلم أثرى مكتوب عليه"بافيون دوفين"، محاط بحدائق جميلة، لا أذكر أنى لمحته من قبل لكنه قديم قديم، وحين اقتربت منه كدت ألمح فى داخله ما يشبه طاولات طعام وبعض"البَكَوَات" الذين ذكّرونى بالنادل المجلجل فى مطعم فندق مونتريه، وكانوا يقومون بخدمة الجلوس وقفت على أطراف أصابعى من بعيد، لم أتبين أكثر، لمحت فتاتين صغيرتين تتحدثان خارج المبنى، اقترب المغرب، لو تقدمتُ أسألهما ستخافان منى، لكنى اقتربت، ولم تخافا. قلت لنفسى، هل أصبحتُ كهلا لا يخيف، أم أن الدنيا بخير كثير عكس حساباتى؟ لماذا يا مصر؟ لماذا يا مصر؟ نعم الدنيا بخير، وسوف تكون كذلك فى مصر رغم أنف الجميع.

قالت إحدى الفتاتين ردا على سؤالى: هذا مطعم يا سيدى؟

مطعم؟ ياخبر، كل هذا الأثر البالغ الروعة، الذى يبدو وكأنه جزء من التاريخ، مطعم؟

وصلتُ الغابة. البحيرة آسنة، ميته بصراحة. انتهى ميعاد تأجير القوارب. قارنتها ببحيرة مارينا العالمين بعد تطهيرها حيث أنعم الله علىّ بنعمة أن أرتادها، إيش جاب لجاب، تحيا مصر (وتحيا فرنسا أيضا). وتحيا كل البحور والغابات والجبال الجميلة. جلست بجوار رجل فى منتصف العمر، يقوى عضلاته على ظهر الأريكة كل بضع دقائق. شبعت سريعا، فقفلت راجعا.

دخلت بين أشجار الغابة على الرغم من اقتراب الظلام. سددت الرأى حين أفرغت ما كان قد ملأ مثانتى، وتذكرت إبراهيم أصلان فى مالك الحزين، قابلتنى فتاة فى العشرين، فتاة بحق وحقيق، فتاة ذكرّنى عودها ونشاطها ونضارتها بأنى هنا أخيرا، ذلك أن منظر المصارعتين ذواتىْ الأفنان كاد ينسينى أننى هنا – كانت الفتاة السمهرية تمارس رياضة العدو وحدها فى هذا الوقت الذى يقترب من الغروب، لا معها كلب، ولا هى خائفة من الخطف ولا الاغتصاب، إلى أى مدى كنت قد ذهبت فى الهجوم عليهم باعتبار أن هذا مجتمع خطر وكذا وكيت؟ لا لا لا، هنا غير أمريكا – كل شئ"يقول"، كما ذكرتُ سابقا: لا أسأل أحدا فرنسيا أو غريبا عن عنوان أو مواصلة إلا وتوقف للرد علىّ، لم أخَفْ، لم أخش العودة حتى آخر مترو، ماذا جدّ؟ لماذا أشعر بأمان غير مُفسّر هذه المرة أكثر من المرات القريبة السابقة؟ هل حدث تغيير حقيقى فى باريس أم أن كل التغيير فىّ أنا؟ إجرى يا ابنتى ما شاء لكى العدو، كم جريتُ مثلك وأكثر.

وصلتُ إلى حيث بقرتا الفريزيان (لولا اختلاف السيقان)، الوقفة هى الوقفه مع أن ساعة زمن قد مّرت بالتمام، والنهدان كما هما يشمان الهواء، (أظن أن كل فردة تزن سبعة كيلو وربع، وليس مجرد أقة يا سى عبـُده) والحديث متصل، تقف عربة فخمة BMW قبالتهما تماما، وتتبادل النظرات معهما،

غير معقول، أنا أرجح أنهما ليستا كذلك، أكاد أجزم بهذا الاستبعاد. دققت النظر فى العربة خوفا أن يكون الراكب عربيا مغامرا جذبه الحجم السوبر. قلت لنفسى أناديه أحذره من باب الشهامة العربية. الناس لبعضهم، ولكن أحذره من ماذا؟، عاودتنى حواديت أمنا الغولة، وخفت من هاتين البقرتين الوحشيتين أن تستدرجا مواطنى العربى وتأكلانه داخل الغابة. دقّقت النظر. وجدته خواجا إبن خواجاية، ترى ماذا يريد هذا الخواجة الدمث راكب الـBMW من هاتين المصارعتين؟ لم تتحرك السيارة لا هو، نزل ولاهما ركبتا، اقتربت قليلا، اقتربت قليلا، أكثر قليلا، لم يتغير المنظر، خجلت، انصرفت.

وجدت المترو قريبا، المسافة فعلا أقصر، أنا لم أخطئ حين شعرت أن المسافات تغيرت، الدنيا اقتربت من بعضها، هذا يوم الطقوس الفاترة، لكنها واجبة، ميدان الأوبرا فى باريس هو أيضا من الأماكن التى لم أنجح أن أوثق علاقتى بها، وإن كان أخف ظلا من الشانزلزييه، صحيح أنه أكثر نصبا (حادث النصب، والسترة المزيفة، أنظر الترحال الأول) لم أكن أحب فيه إلا قهوة"السلام، سمعت أنها كانت تجمع المفاوضين المصريين الباشوات، لكننى أدرجتها مع"الأماكن الفاترة".

كرهت ميدانالأوبرا أكثر حين نزلت ضيفا منذ عامين فى الفندق الكبير فوق المقهى فى المؤتمر إياه، شركات الدواء لم تفلح أن تفسد عقلى فأفسدت علاقتى بالأمكنة.

لولا أن المؤتمرات تتيح لى فرصة أرى أماكن لم أكن لأراها إلا متورطا لقاطعتُها تماما ،

المؤتمر الذى عقد فى الدار البيضاء أضاف لى معارف شديدة الدلالة (ليس لها علاقة بالطب النفسى طبعا). كان من أفضال هذا المؤتمر أنه اتاح لى فرصه أن أعرف بعض من أحذرمن الزملاء عن قرب، فأحببت أغلبهم، وأحببت الدار البيضاء، وأجرت سيارة وذهبت بها مع زملاء نادرا ما اصطحبتهم فى مصر إلى الرباط، وأحببت الرباط، لماذا الناس فى المغرب مطمئنون أكثر منا فى مصر،هل علاقتهم بحكومتهم أوثق، هل حبهم لمليكهم أوضح(أتكلم عن الملك الحسن).، كذلك يبدو لى الحال فى الأردن، (أتكلم عن الملك حسين). هل يا ترى نحن العرب (دون استثناء المصريين) نرتاح أكثرأن يكون لنا ملكا؟ أم أن الزائر لا يعلم أسرار الداخل وكبد الحقيقة؟ بل هو لا يعلم إلا ما يرى ظاهرا فعلاً. تأكدت من ذلك فيما بعد.

فى المغرب كل شئ متاح، وكل شئ مباح، أمير المؤمنين (الله يرحمه وقت المراجعة.أغسطس ٢٠٠٠) يدعو الناس إلى صلاة الاستسقاء بعد صلاة الجمعة غداً، وفى نفس الوقت يجرى ما يجرى فى القهوة البار المجاور للفندق الذى دخلته مع زوجتى عن طريق حب الاستطلاع والخطأ. حسبناه مطعماً صغيرا. ما أن دخلنا حتى كاد يقذفنا إلى الخارج. يبدو أن المطلوب فى هذه الأماكن أن أدخل وحدى، فتأتى الفتيات وكأنهن النادلات يعرضن المشاريب والأجساد، فينتقى الزبون ما يشاء، قلت لزوجتى يبدو أنه غير مرغوب فينا، فشربناها، وتفرجنا على المساومات من بعيد.

مشيت على الشاطئ فى كازابلانكا، شاطئ قبيح بالنسبة لشواطئنا على البحر الأبيض والأحمر جميعا، وجدت شبابا ملتحيا يصلى على الشاطىء، وعلى بعد مائة متر لا أكثر، كان ثمة شباب يهرجون، سألتهم عن بعض وجهتى، فلم يفهموا العربية، هم لايفهمون العربية المصرية أو الشرقية بسهولة، أعدت السؤال بالفرنسية، ولو!! لا العربية، ولا الفرنسية، ثم فتح الله على أحدهم وقال لى بالإنجليزية:"نساء؟ women؟ سبحان الله هذا شاب يصلى على الشاطئ بطيبة وسكون وابتهال، وذاك لا يعرف مطلبا لغريب إلا النساء، ومستعد أن يقوم بالواجب، أما ذلك البربرى الأبيض (!!) الذى أرانا قلعة أثرية فى الرياط، وشرب حتى انطلق لسانه دون توقّف فقد ذكرنى بهذه الحضارة البربرية المنسية الرائعة التى لابد من وضعها فى الحسبان، كما ذكرنى بأهل النوبة وجنوب السودان، لماذا اختار المغرب من كل شئ آخره وكماله،؟ الخلافة، والمسجد الكبير يحاول أن يضاحى الكعبة الشريفة وأمير المؤمنين، والدعارة وإرهاصات الثورة!!

رغم كل ذلك أنا لا أطيق المؤتمرات. أخسر فيها أكثر مما أكسب.

كـّرهنى ذاك المؤتمر الباريسى أكثر فأكثر فى ميدان الأوبرا، فما الذى جاء بى إليه الآن؟ أما كان يكفينى أن أمارس طقوس ما أحب؟ أقولها لك ثانية: الطقوس طقوس لما تحب وما تكره، تصور! اكتشفت هذه الحقيقة مرتين وأكثر، أكتشف أن ما تكره له نفس أهميه ما تحب فى تكوينك يا أخى، والأصل أن تذهب إلى ما تكره بنفس الاضطرار والعناد الذى تصر فيه أن تزور ما تحب،

كررت ذلك مرارا: إن عليك أن تقتحم ذاتك بما هى، وأن تُقحمها فيما هو: لتخلقها، لتوجّهها من داخلها إلى ماتقرر.

العود أسرع ،

أذهب إلى بلدياتى بجوار فندقى أدردش معه وآكل ما تيسر، فأنا جوعان هذه الليلة يا صديقى، ولن أميز. فقدّم لى لحما طيبا ونخاعا وسط عظم صغير، وأرزا مفلفلا، وضحكة مصرية، وصلصة إيطالية، وشرابا فرنسيا، كل ذلك على رصيف متواضع تحت سماء حنون وسماح لم أشعر بمثله منذ مدة طويلة. هذا مكانى.

الخميس ١٩٩٣/٧/١

مازال القلم يتدفق بما يطمئننى أننى لم أمت،

يريد ربى بى خيرا، لحقنى ربى قبل أن يستدرجنى مْن ليس"هو" إلى ما ليس أنا، نسيت الكتاب إياه تماما، ما أكتبه الآن هو كتاب آخر لهدف آخر (خالصا لوجهه حتما) رغم أنه يحمل نفس العنوان.

غداً أسافر.

كنت قد سألت عن الوسيلة للوصول إلى المطار، سألت الإيرانى الذى يعمل فى الفندق الذى نزلت فيه أولا، فقال لى إياك أن تأخذ تاكسيا، إنهم لصوص، وتساءلت هل يوجد لصوص تاكسيات غير مصريين، أخذ يشرح لى الإيرانى كيف أذهب إلى المطار، وكان قد تبقى معى ثلاثمائة فرنكا. سألت كم يكلف التاكسى إلى المطار، فقيل مائتين قلت أصرف مائة فما عدت أحتاج شيئا وأذهب بتاكسى رغم تحذير الايرانى، ولست أدرى ماذا،"وكم" إلى آخره، ضبطت نفسى متلبسا بالجمع والطرح، أنا الذى أدّعى أننى أريد أن أصرف على نفسى فى هذه الرحلة ما لم يحدث من قبل، أنا الذى لم أشتر طوال هذه الرحلة غير شفرة حلاقة عادية رغم أنها من ساماريتان، أنا الذى لم يأكل فى مطعم سوى مرتين عند ذلك المصرى الطيب بأرخص سعر، يبدو أن شيئاً لايتغير. أنا هو أنا، والحسابات هى هى، فما العمل؟

هذا الصباح هو صباح المونمارتر، صباح باريسى أنهى به الرحلة بالعودة إلى طقس أحبه، وكنت قد وعدت نفسى بفرخة مشوية مثل الفرخة الأولى التى لم استطعمها لأنى لم أكن قد تفتحتُ بعد، فقررت أن أشتريها قبل أن أذهب للمونمارتر أودعه واشترى لابنتى قواعد تذكارية للأكواب الساخنه طلبتها منى أمس فى الهاتف، على فكرة، الأمر الذى بالغت فيه لأثبت أن النقود لم تعد تهمنى هو المكالمات التليفونية لمصر على الملآن والفارغ.

فى طريقى إلى شراء الفرخة. وجدت بنكا، ودار بينى وبين السيدة اللطيفة فى نافذة الصرف حديثا شفانى من نصب البنت المُلعب فى الشانزلزية، قالت نحن نأخذ عمولة يا سيد: واحد بالمائة، قلت"وجَبْ" مادامت هذه هى الأصول، ولكن لماذا تقولين لى يا سيدتى هذا مسبقا؟ وفى الشانزلزية وُضعت لافته"لا عمولة" وسرقونى، قالت لابد أن تعرف، وتختار قبل أن تتعامل معنا، هذا واجبى، قلت فكم ستعطينى"خالصا"، قلتها بالانجليزيةnet قالت كذا، فوجدت المبلغ أكثر مما أخذت من الفتاة النصابة بحوالى خمسين فرنكا كما قدرت، فقلت لها ما أكرمك، ولكن قولى لى هل كلمة net صحيحة بالفرنسية؟ قالت هى كلمة فرنسية خالصة. تدخّل رجل عجوز كان بجوارى وكان يستمع إلى الحوار قائلا: أنها أصلاً بالفرنسية، والانجليزية هى التى أخذتها منها، إيش عـرّفه؟ كذا كل شعب يريد أن يكون هو الأصل، وتمنيت أن نستولى على هذه الكلمة وننقلها كما هى إلى العربية.

المونمارت نسلم، وندعو – لم يعد أمامى شئ سوى الحمد، حتى الوداع لم يخطر على بالى، ليس وداعا بل وعد بالعودة، بخطوات هادئه صعدت الطريق الحجرى، ثم الدرج ثم إلى المقهى، مقهى آخر غير الذى كان يغنى فيه الأسبانى، علىّ أن أجعل مقهى أمس فى مرمى البصر، اشتريت بطاقات صغيرة من رسوم صديقى البائس الرائع فان جوخ، وكذلك وجدت قواعد الأكواب الساخنة التى تحمل معالم فرنسا وباريس بالذات، وبطاقات أخرى، ما أحلى أن تكون الهدايا بعض أوراق ورموز،

واشتريت كوبا صغيرا لزوجتى، وحشــتــنــى، وهى تحب الأشياء الصغيرة، واشــتريت لهــا أيــضا حــُقاً صغيرا لا أعرف ماذا يمكن أن تضع فيه، لعله يظل فارغا، كل ما اشــتريت لــم يمــلأ كيــسا صغيرا، جلست إلى المقهى وطلبت شرابا باردا. جاءت جلستى بجوار ناس بيض شقر لكنهم يتكلمــون العربية بالتبادل مع الفرنسية، وأحيانا الانجليزية إذ وجهوا الخطاب لامرأة منهم شديدة الجمــال تــتكلم الانجليزية فقط، ثم تبينت أنهم من تونس، وأنها زوجة أحدهم، من كندا.

أريد أن أركب عربتى وأسير على الشاطئ الشمالى من بيتى فى رأس الحكمة حتى الــدار البيــضاء لأتعرف على بقية العالم العربى، أتعرف على نفسى بينهم، مَنْ أنا؟ مِنْ أين أنا، أريــد أن أذهــب إلــى جنوب شرق آسيا لعلى أرى الجانب الآخر من الوجود البشرى شريطة ألا أشترى شيئا يا زوجتــى إن أردت صحبتى، نظرتُ حولى، لم تتفتح مسامى فقط، بل تحرك كلّ داخلى، فأخرجت قلماً كان متواريــا تحت طبقات من الغيوم المتناثرة ثم اختفى تماما فى أكوام الضباب الكثيف، فما الــذى أخرجــه الآن – هو الشعر؟ إذا كان الاختبار حقيقياً والتحريك عميقا، فلابد أن يحضر الشعر، شعرى له وضع خــاص بغض النظر عن قيمته الأدبية. آخر شعر كتبته كان المقامات، لم تنشر. لم تــُفــــْهم. لكنهــا الأقــرب إلىّ، راح القلم يسطر المقامة" الأخيرة فى المونمارتر فى حضن الحجارة والرؤىَ:

وعُدْنا

فقالتْ وقلنا...

وكمْ نحن إلا"أنــــا"..

وما كنتُ كُثْراً ولكنّ رجع الصدى: تردد حتى تمادتْ، فمادتْ، فراحتْ تعاتبُ ذاك الــذى حــال دون لقانا، كأن الذى كان منه وليس بنا.

وما كان يوما يحق العتاب لمثل الذى ليس أهلاً له.

وما غبتُ عنها، وما راح منّى الكلامُ،.. انطلقنا كأن الحديثَ استمر بغير انقطاع طوال المدى.

تــُهَدْهِدُ منى الجنانَ، أذوب بجُنح الحنان، أخاف الفناءَ بغير أوانِ الخلودِ كَفَى !!

وما صالحَتْنى، فما كان قبلاً خصامٌ، وما كان إلا غيابَ الرؤى خلف خطف البصر. كذاك التقينا.

وحقُّ الذى لا يقالُ، وحقُّ الذى ليسَ مثلاً لِمِثْل الذى كنتَ تعنى ولمّا تقلهُ، وحقُّ الحياة، وحقُّ الممــات الذى مات فى سدرة المنتهى. وحقُّ الذى ليس حقًّا سواهُ، أقولُ: بأنَّ الذى كان لمَّا يَكُنْ ذات يومٍ فراقــاً، ولكن تأجّل ذاك الحديث إلى جاءَ يومٌ يقال له:"بغير أوان".

فقالت" ."....

خجلتُ ،

غمزْتُ التى بجوارى

فعادت تقول الذى كان قبلاً،

تغافلتُ قصدا،

فعادتْ،

تصنّعتُ فهماً غبيّا،

تغاضتْ،

فقلتُ كلاما كثيرا لكى لا أقول الحقيقة:"... قطُّ، وبعدُ، وإلا، ومثل الذى كان حتى الثـــــُّمالة شـيئاً فشيئاً.. وكيتَ وكيت"

فهَمــَّــــــتْ، فهمْتُ، فهيّا إذن.

فــــــرِحْتُ، غفوتُ، انتبهتُ...اختفتْ:

توارت وراء"الدخيل الخبيث العذول الغريب المقزز، ردّ المجالس، لص الحروف، خبيث الطويةِ..مـــا لست أدرى..إلى آخره"

فعادت تهرول قالت :

أعايثُ خِلاًّ قديما (أنا!!!) ،

قفزتُ على القفز أجرى إليْها، فعادتْ تسارعُ خَطْفَ الخُطَى.

وما قلتُ شيئًا غريباً، وما كنت يوماً بعيداً، فأنشدتُها نبضَ لحنٍ قديم تَردَّدَ دوْما على حِجْرِها، فقالــت: أعِـــدْ.

فــــرحتُ جديدا وراح االغناء يغنّى بنا :

" ..تطيرُ الطيورُ بجوفِ الكهوفِ لتنحتَ تحتَ السماءِ طيوفَ اللقاءْ، تبيضُ النوارسُ فى جــوفِ بحـــرٍ عميقٍ، يناشدُ همسُ المحار حفيفَ المياهِ بموجٍ تهادى".

فتهفو.

فأدعو القدير: سماحًا.

أنا المستجير بكل الحضور يودّع هاذى الجميلة؟

كلا.

إلى عودةٍ تستميح الغروب يكون شروقاً حبيباً كِمِثِْل الذى كان يوماً بنا، وأكثر دفئا، وأوثــق وصـــلا، لأن الذى كان زيفاً يموت، يموت ولو طال عمر الخداع، ولو طال مهما يطول، سلاما.

سلاما إلى عودةٍ رغم أنف الوداع، سلاما.

المونمارتر، الساعة عشرة وربع صباحا ١٩٩٣/٧/١

أريد ألا أقول للقارئ ماذا حدث بعد أن كتبت هذا، ذلك لأننى لست متأكدا إن كان يستطيع أن يعــرف أو يرى أن ما تساقط ليس بكاء، ليست كل الدموع بكاء ولا هى دموع الفرح، هى دموع فقط، إذا كــان أحدكم يعرف ما أقول حين تكون الدموع دموعاً لا أكثر، فليعرف أنها تدحرجت تغسلنى من أدران هذه السنوات الثلاث دون أن تفصلنى عن روعتها. ترى هل لهذه الدموع علاقة بدموع شاب يجلس علـــى مقهى يشاهد الجليد الناصع البياض فوق جبال لبنان أعلى طرابلس الغرب سنة ١٩٥٤!!!

لم يبق عندى ما أقوله .

الجمعة: ١٩٩٣/٧/٢

أعددت حقائبى.

نزلت إلى"ملحق البهو" الجميل فى الفندق الجديد الوديع، نسيت أن أقول إنى أكتشفت هذا"الملحق" مـــن يومين فقط، فرحمنى من الشعور بأنى سجين الحجرة، سلمت المفتاح مبكرا للكريم صاحب الفندق حتى يعد الحجرة لمن يشغلها فى وقت مناسب، جلست فى البهو أكمل"الناس والطريق"، لست متعجلا، لــست قلقا، لست خائفا أن أصل المطار متأخراً، وضعت يدى فى جيبى فوجدت عددا كبيــرا مـــن العمـــلات الصغيرة، والأصغر، مـــرّ الوقت، طلبت قهوة سوداء أى بغيـــر لـــبن، وكنـــت قـــد أنهيـــت حـــسابى بالأمريكانى التشهيلاتى، وكأنى ضحكت على الأمريكان، وكأنهم سيدفعون هم عنى الفاتورة، ظريف – مرة أخرى – أن تصرف ولا تدفع، ولا تفكر فى وقت الحساب، وقت الله يعين الله!!، قبلت خدعتكم يـــا أولاد اللذين(!!)، لكننى سوف أتصور يقينا كاذبا أننى هكذا أقمت بالمجان، أو شـــيئا كهـــذا، شـــعور غريب، أحضرت لى السيدة القهوة، قالت سبعة عشرة فرنكا وأربعين سنتيما أخرجت كل ما فى جيبى، وقلت لها أنت وبختك، حوالى خمس وأربعين قطعة عملة بقايا البواقى طول الرحلة، عدتهم السيدة فـــى بطء، بدت دهشة هائلة على وجهها، لم أفهم، قالت:

-سيدى تصور أنهم سبعة عشر فرنكا وأربعين سنتيما، لا أكثر ولا أقل، ثم أردفتْ:

-أنت يا سيدى ستذهب إلى الجنة .

لم أفهم لأول وهلة لكننى بسرعة أدركت أنها تعنى ما يوازى عندنا التعبير: أننى رجل فـــىّ شـــئ لله، تقولها حين تعلن الصدفة حبكة البركَة، فذكّرتنى كلماتها بأغنية بالفرنسية كنا نرددها فى رحلاتنـــا هنـــا منذ ربع قرن، يقول الـــــــمُـــــنشد ونحن فى حافلة الرحلات ونحن نردد وراءه:

-فلان سيذهب إلى الجنة.

فيرد الجميع:

هذا يتوقف هذا يتوقف

فيتساءل المنشد:

هذا يتوقف على ماذا؟

فيرد الجميع:

هذا يتوقف على أطنان من الأشياء

وبعد

تمت بحمد الله كتابة هذا الفصل، وهذا العمل، الساعة ١٠,٢٥ توقيت القاهرة يـوم ١٩٩٣/٧/٢، فـي الطائرة التى ستهبط إلى مطار القاهرة بعد ربع ساعة. بدأت هذا الفصل كله فى مطار شارل ديجول ثم أكملته فى الطائرة إلى القاهرة عن طريق نيس، حيث مكثت الطائرة بـضع سـاعات، تـسع سـاعات ونصف لم يتوقف القلم فيها إلا لقضاء حاجة أو بسبب دعوة مجهضة لحديث غامض، ولم أشعر بنفسى إلا وأنا على وشك الهبوط،

"سيداتى سادتى، نحن الآن على وشك الهبوط إلى مطار القاهرة، الجو معتدل نسبياً، درجـة الحـرارة كذا..، نرجوا أن تكونوا قد استمتعتم بصحبتنا..." إلى آخره،..إلخ

راجعُ إليك يا بلدى ،

راجع وأنا حامد شاكر راضٍ مؤتنس، راجع أشارك بما أملك، لكن تساؤلات تقفز إلى ظاهر وعيـى تطرح سؤالا يشككنى فى كل شىء: سؤالا يقول :

ماذا سيتبقى من كل هذا؟

فأرد :

هذا يتوقف .هذا يتوقف.

فيرد الهاتف :

هذا يتوقف على ماذا؟.

الفصل التاسع

(الفصل الخامس عشر: من الترحالات الثلاثة)

مفتاح الخزانة فى كومة القش

وأحب بيض الحورِ والوجنات تنبض جامحهْ،
ككرات ثلج قد أحاط بها اللهبْ.
وأحب هذى المرأة السمراء تحتضن الجذور النابتة،
والعشب يلثم دفء جوع هامسٍ،
والشق من خلفٍ يشير إلى الذى لم يُستبح.

٩ / ٥ / ١٩٩٧

إذن ماذا؟

قرأت بعض ما نشر من هذا العمل بعد هذه السنوات، وكانت أشياء كثيرة قد حدثت، من بينها أن الناس الذين تتبعوا نشر أغلبه فى حلقات كرروا طلب نشره مكتملا، ومن بينها أيضا أن رفقاء الرحلة الأولى كبروا، حتى طفلىْ الرحلة الأولى هما على وشك التخرج الآن واحد من كلية الطب، والآخر مهندسا، (تخرّجا فعلا، المهندس مجند الآن، والطبيب امتياز بقصرالعينى يعد عدّته للحاق بوالديه فى إنجلترا – يونيو ٢٠٠٠)، أما بناتى الأربعة (اثنتان من ظهرى) فقد تزوّجن وثلاثة منهن أنجبن.

ومن بينها كذلك أننى سافرت وسافرت، وسافرت، سافرت فى الداخل كثيرا وفى الخارج كثيرا، ثم تولّيت مسئولية الامتحانات فى الشهادة العربية للطب النفسى مما جعلنى أسافر بانتظام كل ستة أشهر على الأقل، إلى دمشق أساسا. حتى باخ السفر أو كاد. لم يعد يقلّبنى كما كان، لم يعد يعرّينى ويفاجئنى، ليست مسئولية السن تماما، ولكنّ شيئا ما حدث غيّر الأشياء إلا قليلا.

كنت وأنا أكتب هذا العمل أسأل نفسى ماذا يفعل أولئك الذين يسافرون أكثر منى ألف مرّة، لى زميل كان يسافر أسبوعيا إلى السعودية ولمدّة سنوات طويلة يعود/ يعالج/ يتتبع أحد المهمّين (الشمجيين VIP) ،لا بد أنه مهم جدا، لأن زميلى هذا مهم جدا، وهو يسافر أيضا إلى المؤتمرات طول الوقت ويساهم فى اللجان العالمية كثيرا كثيرا، ولم يحدّثنى أبدا عن السفر، بل عن نتائجه، وعائده .

ثم ماذا عن الدبلوماسيين الماكوكيين؟ هل تبلدت مشاعرهم تجاه السفر؟

يقول عبد الرحمن بدوى فى سيرته أن كثرة الخضرة وثراء الطبيعة تتبلد إزاءهما المشاعر إذا تكررت المعايشة (أغسطس ٢٠٠٠). هذا صحيح، وغيرصحيح، أنت وشطارتك وحرصك على أن تتجدد طزاجتك.

أشفق عليك أنا يا عم عبد الرحمن، أحبك أكثر مما تحب نفسك وأنا لم أرك فى حياتى. أفهم وأرفض ما فعلوه بك بعد نشر مذكراتك، وإن كان المشهد قد بدا معادا بالنسبة لى، حكاه لى شيخى الطيب نجيب محفوظ عندما التقى بك الشيخ كامل عجلان بك أمام كازينو الأوبرا. كان المشهد كما فهمته أقرب إلى ما فعلوه فيك بعد نشر هذه المذكرات. كنتَ حاضرا معى يا عمنا عبد الرحمن وأنا أعد هذا العمل للنش، فألهمتنى حرصا ليس جديدا علىّ، فما عرّيت إلا نفسى قدر ما استطعت، ساعدَنى فى ذلك أنها ليست سيرة ذاتية أصلا، هذه المحاولة المستحيلة.

كنت أبحث عن نظرية قديمة كتبتها عن الانفعال لأعطيها لزميلتى التى طَلَبَتْهَا بعد مناقشة طريفة حول إنكارى للحب السائد، وأيضا حول قصورى عن الإلمام بحقيقة الوجدان، وإذا بى أعثر على عدد من الكراريس يربو على العشرة وكلّها مكتوب عليها مذكرات، مذكرات، أغلبها كتب سنة ١٩٧٤، حين كنت أمرّ بتجربة خبرة 'المواجهة الجماعية" Encounter Group، التى اخترقت أثناءها حواجز اجتماعية وأيديولوجية، وطقسية: صلبة، وقفزت فوق أسوار عالية، واختبرت جدوى تقاليد خانقة، وتغيّر من خلال هذه التجربة ناس كثيرون، فى هذه الكراسات لم أكتب كل التجربة، ولم أستمر فى تسجيل الخبرات، والحمد لله أننى لم أفعل، ولكن الصحيح أيضا أن ما عثرت عليه، ربّما يكون أهم دلالة، وأقرب وصفا لما يمكن أن يسمّى"سيرة ذاتية أكثر مما أفعل الآن،، أليس كذبا أن أقول بعض الحقيقة وكأنها الحقيقة، وإذا كان بعض الناس يهمّهم أن يتفرّجوا على طبيب نفسى حاول وأخطأ وأصاب، أليس الأولى أن يحصلوا هم بأنفسهم على عيّنة عشوائية قد تكون أكثر دلالة من كل هذا؟

ثمّ إنى عرفت نجيب محفوظ عن قرب، ومضى على ذلك عامين وخمس شهور، (قاربت المدّة الآن ست سنوات: يوليو ٢٠٠٠) وهى معرفة يمكن أن تعادل كل خبراتى قبل وبعد ذلك، وقد قلب لى أشياء كثيرة فى حياتى بمنتهى الطيبة والسماح، انقلبتْ بالمقارنة، والتقمص، والصداقة، والحوار، وفرص معرفة بعض من حوارييه ومحبيه والمحيطين به، وقد سجّلت بعض ذلك لمدّة عام كامل أو بعض عام، أعتقد أن ما كتبته خلال بعض عام معه هو سيرة ذاتية متأخرة دالة بالمقارنة بما أكتبه الآن. فماذا؟ (انظر الترحال الثالث: الفصل الأخير).

كتب لى حفيدى عمر (٨ سنوات) خطابا من نيوزيلانده وصلنى منذ أسبوع، وبالرغم من أن أباه محمد هو إبنى الوحيد الذى لم يصحبنا فى تلك الرحلة الأولى، أصل هذا العمل، فقد كان مجندا فى

الجيش أيامها، بالرغم من ذلك فهو الوحيد من بين أولادى الذى صحبنى ويصحبنى فى رحلات الداخل جميعها تقريبا، كتب لى حفيدى عمر خطابان، أحدهما بالعربية يقول فيه:

"جدى وأمى: إزّيكم، وأهلا بكم، أنا وحشتَكْ جدا. أنا مبسوط جدا فى نيوزيلندا، بس عاوز أرجع مصر برضوه، أنا بالعبfoot ball كويس جدا وممكن أغلبك يا جدى،...أنا أتعلم كمنجة وبيانو، ساعات أخترع موسيقى".

وقد كتبت له ردّا لم أحتفظ بنسخة منه على غير عادتى، لكن خلاصته أنه وَحَشَنا فعلا، وأن انبساطه فى نيوزيلانده هو خير له إن بقى هناك، وهو أيضا سيبقى له حين يعود، وينفع مصر، وأننى عمرى ما عرفت ألعب كرة، وأنه كان سيغلبنى سيغلبنى حتى لو لم يتحسن لعبه فى الكرة، وأننى لا أعرف فى الموسيقى، لكننى أخترع حاجات أخرى فيما أعرف"

سفر محمد إبنى وزوجته وولده وابنته بتأشيرة هجرة إلى نيوزيلندة كان حكاية بالنسبة لى. قد يأتى ذكرها أو لا يأتى، لكنّها خطوة لها دلالة بالنسبة لقضيتى التى كتبت بها هذا العمل، بل وكثير من أعمالى، والتى ما زالت تشغلنى وتشغل أغلب المساحة التى تدور حولها حواراتى ومشاجراتى مع أستاذنا نجيب محفوظ: اختلافنا عنهم. هذا هو الدافع الحقيقى لأسجل ما تيسر باعتبارى مواطنا يحاول، ويقارن، ويتعرى جزئيا. أكتب ما أمكننى مما تراءى لى، ثم أترك كل ذلك لمن يهمه الأمر، ولو بعد حين.

الخميس ٢٣ يونيو ١٩٩٤

كأنى عامل عملة.

دعوتهم للغداء فى المطعم الصينى بالمعادى عشية سفرى هذا، حضر ابنى الأكبر، وزوجته وإبنه، وابنتيّ الاثنتين وزوجتى، لا أستطيع أن أميز بين إبن وحفيد وزوجة إبن، وزوجة، ما هذه العواطف العمومية؟ بدأت أراجع مسألة الأبوّة العمومية هذه التى امتدّت من مرضاى إلى طلبتى حتى لحقت حفيدى وزوجة إبنى بل وزوجتى، بل أذكر أن والدى فى مرضه الأخير حين كان يمتنع عن الدواء كانت أمّى تهمس لبعض إخوتى أن هاتو له أبوه (تقصدنى أنا)، تبيّنت ببطء شديد، وربما بعد فوات الأوان- أنها أبوة سخيفة قبيحة معطّلة، أبوّة عمومية قد لا تعنى فى النهاية شيئا طيبا، موقف الأبوة هذا يفيد جدا فى مهنة مثل مهنتى فى بلد مثل بلدى، ليكن التبنى لمرضاى فى ضعفهم، ولأتعهدهم تعهد الأب، لكن هذه الأبوّة العمومية طول الوقت، لكل الناس، أصبحت سخيفة ومفقوسة، ثم إنى أنا شخصيا الذى أدفع فيها ثمنا باهظا لم أكن أعرف مقداره فى البداية،. أراجع موقف السادات فى هذا الصدد وأرفضه من جديد وأنا أرفض نفسى.

كأنى عاملٌ عملة

وكأنى أعتذر لهم بدعوتى هذه على الغداء فى مطعم خارج المنزل لأودعهم، كأنى أعتذر لهـــم عـــن ذنب سوف أرتكبه فى حقهم بسفرى هذا دونهم، لكنّهم غير حريصين على السفر كما أتـــصوّر، فقـــط أمّهم هى التى تحب السفر، خاصة هذا السفر، تحت كل الظروف إلى أى مكان، ربما لأنها لا تلتقى بى بدرجة ما إلا ونحن على سفر رغم ما يحدث من اختلاف ومواجهات وكل شىء.

قررت أن أسافر وحدى هذه المرة. هكذا دون تردد.

ألمحت زوجتى –بطيبة شديدة -أننى أنا هكذا، أحب الوحدة حتى مع "من هو باللذى" لم أرد. صـــحيح أننى أعيش ونصب عينّى مقولة "وينيكوت" الصعبة وهى أن غاية الصحبة هو أن "تكون وحدك / مع" to be alone withولا أحد ممن أقول لهم هذه المقولة العلمية يصدّقنى. يتصوّرون دائما أنها تبريـــر لما أحب، وهم – أو أغلبهم– يمارسون وصاية علىّ فى هذه المسألة.يتصورون أنهم يعرفون ماذا أحب وماذا لا أحب أكثر منى. ذكّرتها (زوجتى) أن أحدا منهم (كلهم) يكاد لا يعرف ماذا أحب وماذا أكـــره، بل إننى شخصيا لا أعرف ذلك، وما أعرف أننى أحبه هو غريب وبسيط،

أنا أحب أشياء صغيرة جدا تكاد لا تخطر على بال أحد، فمثلا: أنا أحب قمر ليلـــة ١٢ فـــى الـــشهر العربى (وليس ١٤) وأحب صوت البحر وخشخشة أعواد الأذرة الخضراء فى شهر ســـبتمبر، وأحـــب جبال سيناء كلها، ولا أحب صحراءها، وأحب آية قرآنية منفردة أكثر من ترتيل جزء كامـــل بـــصوت ليس له شخصية، وأحب نظرة عمر حفيدى ابن محمد. وضحكة على (حفيدىّ) من ابنتى منى، (أحـــب الآن حوار ليلى بنت "مى" بشكل متعب)، صحيح أنى أكره التسوّق، لكن صحيحا أيضا أن –زوجتـــى– والشهادة لله قد عدلت مؤخرا عن هذه الشهوة الشرائية التى تلتهم أى رحله فتفسد كل شئ مهما حسنت.

كنا، زوجتى وشخصى، قد ذهبنا طائرين اخر مرة إلى دمشق، وأخذنا تاكسى إلى بلودان والزبـــدانى، وأخذ السائق الذكى الأمين يذيع علينا تلك الأغانى المصرية المسماة بالشبابية، وظننا أنه يكرمنا فنبَّهنـــاه أن "ليس هذا ما يطربنا، وأننا ضيوف عندهم، وقد تطربنا الأغانى السورية أكثر. نبّهَنا بدوره إلـــى أن أكثر الأغانى شيوعا لدى كل السوريين هى هذه الأغانى المصرية الجديدة الخفيفة (لم يسمّها الشبابية). ولم أتعجّب كثيرا، أنا لست ضد هذه الأغانى على طول الخط، بل إنى سبق أن دافعت عنها ذات مـــرّة فى مجلة "شموع" حين كان يرأس تحريرها – لبضعة أعداد– أحمد بهاء الدين، وبلغنى بعد نشر رأيى هذا أن د. على الراعى رافض لدفاعى عن هذه الأغانى. هؤلاء أو أولئك حين ظهرتْ – يونيـــو ٢٠٠٠ – مؤخرا أغنية جميلة يشارك فيها طفل يقول: "بابا أَبّح"، ثار كل الناس: المثقفون والمحـــافظون، بـــل وشباب يسارى أعرفه اعترض عليها جدا، ولم أجد من أى واحد من هـــؤلاء ردا مقنعـــا يبـــرر لـــى رفضها. نحن أحوج ما نكون إلا الإنصات لأطفالنا والتعلم منهم، وحين كتبت منـــذ ســـنوات تفـــسيرا وقبولا لمشاركة محمدهنيدى فى أغنية "كماننّا، كتب لى أحد الأطباء (من تلاميذى وهو يعتبر نفسه مـــن

الثوار الجدد) أنه شك أننى فعلت ذلك نتيجة لأزمة منتصف العمر، ولم يقل، وإن كنت قد شممت رائحة احتمال اتهامى بـــ"خرف الشيخوخة".

ذهبنا أنا وزوجتى إلى صديق/زميل لنا فى بلودان، زوجته إنجليزية، وكان قد قـــال لنـــا فـــى الليلـــة السابقة، ردّا على تساؤلاتى "كيف تتمتع زوجته وهو بالعيش فى سوريا تحت ظل هذا الحكم الـــشمولى، ولهما بيت فى لندن، وأخوال أولادهما هناك"، فردّ قائلا: إنه هنا "يعيش" تحت كل الظـــروف، وكـــذلك زوجته الإنجليزية، وأنها رفضت اقتراح أن ينهيا فترة معاشهما فى إنجلترا حتى قالت له: أنا أحببـــت هذا البلد (سوريا) وأريد أن أُدفن هنا "ثم أكلمت: هل يقبل أهلك أن أدفن فى مدافنهم؟

"نظرتْ إلىّ زوجتى وابتسم كل منا للآخر معجبا بهذه السيدة الخوجاية. هؤلاء الخواجات فيهم شـــئ دمث جدّا، هذه الأم الإنجليزية تستأذن أهل زوجها فى أن تدفن فى مدافنهم. حكم شمولى، غير شمولى، هى اختارتْ، وقبلتْ، وأحبتْ، وبقيتْ وتريد أن تدفنَ حيث أحبّتْ.

إن عندنا شئ مختلف، وهذا الشئ هو ما أبحث عنه لأتعهده، بشكل ما .

زوجتى– فعلا ـــ لم تعد تشترى كما كانت، وهاهى تشاركنى فى بلـــودان والزبـــدانى همـــوم النـــاس وفروق الحضارات، فلماذا لا آخذها معى فى هذه الرحلة؟ لا أدرى. لقد قررت ذلك هذه المرّة بمحـــض اختيارى، أريد أن أخلو إلى نفسى مرّة أخرى.

قلت لزوجتى فى سياق آخر: لا أريد أن أذهب إلى هذا المؤتمر بالذات، ليس عندى ما أقوله، ولـــست ممن يباع لشركة أدوية برحلة أو هديّة، ولا أريد أن أخدع أحدا، ولا أن أدخل فى صفقات ســـرية لـــم أحَط علما بكل بنودها، ردت زوجتى بحماس هادئ وراءه رغبة طفلية شخصية: هل تتصور أنهـــم لا يعرفونك، ولا يعرفون موقفك منهم ومن أدويتهم؟ هل تتصور أنك بادعاء التعفف هذا سوف تواجههم؟، أم أن المواجهة الحقيقية هى أن تحافظ على نفسك وعلمك وموقفك وأنت تتكلم لغتهم؟ قالت ذلك وهـــى تخفى – فى الأغلب– رغبتها فى السفر، وإحباطها أننى لم أعُها لصحبتى هذه المرّة

علاقتى بزوجتى تتحسن بالتقدم فى السن ومحاولات فض الاشتباك معا، نحـــاول أن نحـــافظ علـــى مناطق الاتفاق: المشاركة فى حب الخروج ليلا، وحب السفر، وحب الناس كل بطريقتـــه. أرفـــض أن يكون الرباط بيننا، حتى فى هذا العمر، هو الأولاد، فأحاول باستمرار أن نخوض تجربة، وما يحـــدث يحدث، وللأسف فإن ما يحدث لا يعد بنتائج آمنة دائما.

إذا كانت السيرة الذاتية هى إشاعة محتملة الصدق فى بعض أجزائها فدلّونى على سيرة تتـــاول فيهـــا صاحبها حياته الزوجية بأمانة مناسبة، فإن فعلتم بالنسبة لبعض أهل الغرب، فهل من إشارة ولو لحالـــة واحدة من كل مائة سيرة ذاتية طرقتْ هذه المنطقة.

قالت لى زوجتى وهى تخلط المزاح بالجد ونحن نعزى فى والد صديقة أصغر منا: هل سمعت الأرملة الثكلى وهى تعدد محاسن المرحوم قائله"... الذى عمره ما ضاق بى، الذى عمره ما صاح فىّ، الذى عمره ما أخرَّ لى طلبا (إللى عمره ما زعّلنى، إللّى عمره ما ردّ لى طلب..إلخ).." ثم أردفت (زوجتى) فى مزاح يحمل كل الجد "...أنا سألت نفسى إذا سبقتنى أنت ماذا أقول بالله عليك؟ "، فوعدتها – وأنا أخلط المزاح بالجد أنا الآخر– أنى سوف أحاول فى ما تبقى لنا من أيام أن أترك لها ما "تعدّد به على"، وقالت لعل الأسلم أن أذهب أولا، فاقترحتُ – رغم الأدب الغربى الذى أحاول أن أتحلّى به حديثا والذى ينص على أن السيدات أولا– اقترحتُ حسْما للموقف أنه حين يأتى سيدنا عزرائيل نقول له مستأذنين أن يضرب مهمّته فى "اثنين" Make it Double، توفيرا لجهده وطلبا للستر، فنذهب معا ولا من شاف ولا من درى.

نعم. سوف أسافر وحدى هذه المرّة أيضا، أنا فى حاجة إلى خلوة بعيدا بعيدا، ليس فيها حس ولا خبر، ليس فيها آخر أعمل حسابه أصلا، رحلة ليس فيها حركة مفروضة. لقد أنهيت لتوى تلك الأشهر التى مدّوها لى لأسباب إدارية منذ أيام بالكاد. أنا فى المعاش المالى والحقيقى منذ ثمانية أشهر، وبقى لى أقل من أربعين يوما لأصبح من أرباب المعاشات، ما أجمل إسم الدلع لأساتذة الجامعة حين يحالون إلى المعاش "أستاذ متفرغ"! متفرغ لـ ماذا؟ قيل: للعلم، قلت: ياليت.

أنا أعلم الخدعة، ومع ذلك قررت أن يكون هذا السفر هذه المرة هكذا حتى أتمكن من الإجابة على السؤال بينى وبين نفسى: لأى شئ أتفرغ من الآن حتى الذى منه؟ قلت لنفسى: مادمتُ أستاذا متفرغا، بشهادة رسمية من الحكومة، فسوف أتفرغ لنفسى لمدة هذين الأسبوعين لعلّنى أرى.

انتهى الغداء فى مطعم بكين الصينى بالمعادى على خير، لا لوم ولا تلميح بعتاب، وتمنى لى الجميع السلامة، اليوم الخميس، ليس هناك عيادة، كلمت زوجتى بالهاتف أن نحرج سويا الليلة، وعجبت أنها ليست "مقموصة" ولا شئ والحمد لله، وخرجنا ورجعنا بسلام.

عرضت علىّ زوجتى – بنصف قلب على غير عادتها– أن توصلنى للمطار ففضلت – بكل فهم – أن أستعير سائقا من المستشفى يوصلنى حتى لا أتعب أحدا، ووافقتْ زوجتى بسرعة، كذلك فعلت ابنتى الصغرى، و إبنى الأكبر جارنا –وصديق الداخل– كان مصابا فعلا بأنفلونزا حادة.

ليكن، هذا أفضل، فلتكن الرحلة مختلفة، وليكن الوداع مختلفا، ولتبدأ الوحدة مبكّرة بدون عواطف من اياها. ومع ذلك فقد صَعُبَتْ علىّ نفسى.

أرتب حقيبتى الخاصة صباحا، ولا تستيقظ زوجتى حتى لتودعنى فى المنزل، أتعجل النزول وأنوى ألا أوقظها فأخشى أن تلومنى، أقبّل جبهتها وهى نصف نائمة فتكمل نومها مدمدة بما يشبه "بالسلامة"،

أنقبض بمبرر، أشعر أن شرخا غير ظاهر يمتد فى علاقتنا، أمضى إلى المطار وفى داخلى همس يقول: لستُ متحمسا. (لماذا؟ لا أعرف)

أوصلنى السائق نصف النائم إلى المطار فى عربة نصف نقل هى تابعة لمستشفاى، وحطنى هناك وكأنى بضاعة يريد التخلص منها بسرعة ليذهب يكمل نومه، (هذا غير صحيح طبعا)، ودخلت إلى المطار يتيما عمره واحد وستون عاما.

حتى تكتمل الدعوة المشبوهة، وجدت أن تذكرتى هى فى درجة رجال الأعمال المسماة "النادى" إسم غريب والله، نادى من؟ نادى ماذا؟ المهم أمام طاولة تناول التذاكر لتحديد المقاعد وتسليم الحقائب، قالت لى برقة تلك السيدة المصرية المتفرنسة، إن الطائرة سوف تتأخر ساعة وأربعين دقيقة. وأن معنى ذلك أننى لن ألحق طائرة واشنطن التى تغادر باريس قبل الوصول الجديد بساعة، وأنها آسفة. وأننا سنضطر للمبيت فى باريس يوما على حساب الشركة، يا ما انت كريم يا رب! ! نضطر؟؟

إنّ يوما واحدا فى باريس فى ظل ظروفى هذه لهو أهم عندى من بقيّة الرحلة.

أغادر بلدى هذه المرّة مختلفا.

أغادرها هذه المرة وقد تمت المواجهة بما لا يمكن التهرب منه، ليست المسألة هذه المرة جبل من الرماد الناعم الزاحف على وعى متهرّب، بل هى نتائج محددة ظهرت أساسا فى ما آل إليه حال بعض طلبتى، أغلب طلبتى، (هل أقول كل طلبتى؟).

حين تقوم بتجربة آملة، يستحسن ألا تتبعها حتى نهايتها، لم أتمادَ فى التحسّر. لكننى انقبضت جدا.

ماذا حدث لطلبتى –أبنائى، زملائى – على وجه التحديد؟ لمَ لمْ يتحمّلوا الجرعة؟ هل اكتشفوا غلوائى؟ هل خافوا منى؟ هل قنعوا من الرؤية بالفرجة؟

بصراحة كلهم أفضل مما يدور بخلدى، وربما أصدَق،

أنا المخطئ، نعم أنا المخطئ الأول ،

وإن كنت لا أستطيع أن أحدد خطئى حتى الآن.

أقول لزوجتى ليلة السفر وأنا أسترجع هذه السلسلة من الإحباطات الحقيقية والمتخيّلة: أليست الطيور على أشكالها تقع، أليس ما آل إليه هؤلاء الطلبة والأبناء والزملاء هو دليل على أننى مثلهم لكننى أذكى أو أخبث، أو لعلى قد أوصلت إليهم رسالة خاطئة لم أكن أدرى أنها كذلك؟ تشفق علىّ زوجتى" ولا ترد، فأكمل "أو لعل الجرعة كانت أكبر من قدرتهم فغصت بها حلوق وعيهم فتقيأها البعض، وتسمم بها البعض حتى تشوّه ،

ما زلت لا أشعر بالخجل، و إن كنت أشعربالمسئولية.

أخرج منها هربا إليها (نفسى/أرضى/سيرتى)، أريد أن أختلى بها، ما ذا يمكــن أن تكــون الخطــوة التالية؟ تالية...؟ تالية لماذا؟، المسألة هذه المرّة أننى أواجه النتائج بهدوء وعن بعد :

إنسان لم يهمد، وإن كان لم يفعل شيئا ذا بال فى واقع الأمر، اللهم إلا إذا كان التاريخ يمكن أن يَرْصُدَ –تحت أى عنوان– هذا الإلحاح المتلاحق لشخص عادى،، شخص اضطر أن يطرق أبوابا متجــاورة، دون قصد محدد، ولم تفتح له إلا أبوابه الداخلية ذات السراديب الخادعة، ففتحها، فلم يــدخل منهــا إلا هو، دخل ليجد أبوابا أخرى أكثر عددا وأحكم إغلاقا، وكلما فتح واحد تكرر نفس التكاثر،

هكذا قرأت إطناب ألف ليلة وليلة. لم تكن ليال وإنما سراديب غير متناهية التفرع. إن مــن يعــايش رحلات السندباد فى الخارج لابد وأن ينقصه الكثير لو لم ينتبه إلى تجوال الداخل، جمهورية أفلاطــون لم توجد إلا فى الداخل، كذلك ألف ليلة، شهرزاد قد تكون مجرد شهريار الأنثى التى يريد أن يــتخلّص منها فتطل من جديد، حتى ينتبه أنه لن يتكامل ببتر نصفه، وإنما بالتكامل به، فكان الإبــداع المؤجــل للبتر، والواعد بالبسط.

سألنى الطبيب الشاب رفيق رحلتى (ومندوب الشركة الداعية) إن كنت مدخنا، فقلت لا، فقال: " سوف أحجز معك فى مقاعد غير المدخنين حتى لا تمل الرحلة"، "نعم"؟ نعم؟ إلاّ هذا، الرحلة طويلة يــا بنــى ولا أحب أن أنتقص من حريتك، إلا هذا".

قابل رفيقى هذا الحماس الأبوى بشكر حقيقى دون أن يعلم الدافع الأهم الذى جعلنى أقفز مقسما هكــذا بأغلظ الأيمان. أنا فى عرض صمت داخلى، لا تقطعه دردشة مقتحِــمة. وكنت قد اســتعددت لرفقتــه بأن أحضرت معى ما أتصوّر أنه يشغله بدرجة مناسبة. كتب فى العلم، وأخــرى فــى الأدب وبعــض مؤلفاتى، وآرائى السلبية فى عقاقيرهم التى نسافر على حسابها هكذا، إلا أنه استقبل كــل هــذا بفتــور طيب. تيقنت أن عمله يحمله بعيدا عن كل هذا: إلى أين؟ ليس هذا موضوعى الآن.

السفر فى هذه الدرجة (درجة رجال الأعمال! ! ! أية أعمال؟ أنا الرجل غير المناسب فى المكان غير المناسب) السفر هكذا أقل ثقلا على نفسى من مصيبة الدرجة الأولى وانفصالها الحاد عن الناس، وهــو أيضا أرحم من التصاق كراسى الدرجة السياحية، بعضها ببعض فى هذا السفر الطويــل، والمــضيفات الفرنسيات هن هن، لا يتغيرن، لا يكبرن فى السن ولا يبدلن الابتــسام، ولكــنهن يبتــسمن ردا علــى النظرات المهذبة، الذى زاد هذه المرة أن أمام كل كرسى من الكراسى شاشة تلفزيون صغيرة فى ظهر الكرسى الذى أمامها، والتعليمات إياها – والعياذ بالله– تقال من خلال هذا التليفزيون.

"وحين يفتح الباب هكذا (فى التليفزوين هذه المرّة) سوف تنزل منه وسادة هكذا، وعليكِ يــا ســيدتى أن تخلعى الحذاء ذا الكعب العالى (وتظهر قدما سيدة تجرى حافية)، وأن تنزلــق – ســيدى وســيدتى

هكذا- (ويظهر واحد وهو يخرج من باب الطائرة المفتوح، وهو ينزلق، وبعده واحده، وواحـــد)..، وإذا كان هبوطك فى البحر (بالسلامة! !) فإن الحشية سوف تنقلب قاربا صغيرا (وانت وبختك)

الله يبشركم بالخير! ! كالعادة.

فى المطار، قبل أن أغادر، قابلتُ مصادفة ـــ بعد انقطاع أكثر من عشر سنواتـــ الزميـــل الفيلـــسوف الصغير الذى أسميته "الإبن الآبق"، والذى نبّهنى باكرا إلى مغالاتى فى تقدير قدرات طلبتى وزملائـــى الأصغر الذين كنت أحاول أن أبلغهم ما أعرف، كان يودّع أخاه أو ابنة أخيه لا أذكر، أخبرته بوجهـــة سفرى والداعى، نبّهنى أنه بعد انتهاء الحرب الباردة أصبحت أقوى قوة اقتصادية فى العالم (وبالتـــالى أقوى لوبى سياسى) هى شركات الدواء، وليس شركات السلاح كما كتبت سابقا.

أنا- هكذا- ضيف النظام العالمى الجديد (جدا! !)، ضيف أكبر لوبى فى العـــالم، هـــذا اللـــوبى لا يقتصر تأثيره على مجاله (الدواء والتداوى)، وإنما يمتد إلـــى الـــسياسة والبورصـــة والديمقراطيـــــة والحروب! !

قبل هبوطنا إلى مطار شارل ديجول شكَرنا الطيار أننا استعملنا طائرات شركته، كما فاجأنَا بقوله إنها أول رحلة يقوم بها متدرب صغير من الطاقم، وأنه - المتدرب - سعيد بنجاحه، وأنـــه يحيينـــا تحيـــة خاصة، وهذا أمر طبيعى، فكل واحد مهما بلغت مهارته فى أى شئ له "أول"، أول رحلـــة، أول مـــرّة، أول زواج..، ومع ذلك فقد تعجّبت وكأن المفروض أن يتعلموا فى غيرنا، وتذكرت مثلا فى بلدنا يقول "يتعلّمو الزيانة فى رؤوس اليتامى". نحن لسنا يتامى (فى هذه الدرجة على الأقل)، نحن رجال أعمـــال أو كنظام رجال الأعمال، فكيف يجرؤ هذا الطيار المبتدئ أن يتدرّب فينا، وأتذكر قول زميلتى الحكيمة "الست نعيمه عن مرض صديقى الراحل (الفصل الأول)، ردا على تساؤلى "إشمعنى ســـعيد؟ أتـــذكرها وهى تقول "واشمعنى غيره"؟ صحيح لكل شئ أول، و لا مفر من مخاطرة، ثم يخرج من تجاه حجـــرة القيادة شاب صغير فعلا، سعيد فعلا، لكنه كان يرتدى ما يشبه الجلباب القصير الـــ... "أى كلام" وأخـــذ يحييّنا مبتسما، وكأنه يبعد العين عنه أنه أتمّ أول رحلة بلا مفاجآت، وهو يمر بيننا بهذا اللبس المبهدل، تماما مثلما كانت تفعل "أم الشحات"فى بلدنا، وهى تُلبس ابنها مثل ذلك، وتشحت عليه، لتكـــسر العـــين، وحتى "يعيش" لأنه لم يعش لها أبناء قبل ذلك.

وصلنا إلى نفس المطار، مطار شارل ديجول،، ليس هذا هو المطار الذى وصفته فـــى رحلـــة العـــام الماضى، ما كل هذا الهدوء والصرامة؟ أين هذا من كل ما وصفت سابقا؟ يا أخى يبدو أن كـــل رحلـــة تحدد جوّها العام وتنتقى ما يناسبها، أين فرق الرقص، وأين العازفون، وأين، وأين...؟

هذا الجو مناسب جدا لما أنا فيه الآن الذى هو مختلف جدا.

الجمعة ٢٤ يونيو بعد الظهر

اكتشفت أن رفيقى الشاب هذا لم ينزل باريس تقريبا قبل ذلك (مرّ بها طالبا جامعيا ممــن يــسافرون لجمع العنب فى جنوب فرنسا منذ عشرين عاما)، بل إنها أول رحلة له إلى أمريكا. كنت أحسبه مندوب الشركة الذى هو مقطع السمكة وذيلها لكنّه كان بكرا فعلا (ربى كما خلقتنى). ومنذ كنــا فــى مطــار شارل ديجول أحسست أننى أقوم بدور المرشد السياحى، والمترجم معظم الوقت، لم أكن ضجرا بــذلك بل كنت أعامله كإبن طيّب، لكننى حين قررت السفر وحدى هذه المرّة كنت أود أن أشفى من مــرض "تَبَنِّى" خلق الله هكذا طول الوقت، لا مفر. هذا ابن جديد، حتى لو كان هــو المــسئول عــن رعــايتى وتوفير الخدمات لى من قبل شركته.

توجهنا إلى "مريديان بورت مايو"، وتمّت الإجراءات بسرعة وأعطتنى السيدة فى الاستقبال بطاقــات صغيرة لم أنظر فيها حاسبا أنها مسألة روتينية يقوم بها الشاب المكلف برحلتي، كما برمجتْ لكل منــا بطاقة ممغنطة خاصة بحجرته، ألعاب تكنونولوجية جديدة تمنع السرقة قدر الإمكان.

قمت بدور المرشد لهذا الإبن الطيب دون أن أفقد وحدتى. بدأنا من المونـــارتر، مــشتريا البطاقــات الصغيرة جالسا على الرصيف مستعيدا الذكرى، كنت أتحدث معه عن أشياء عابرة، فأشــير لــه إلــى حَجَر جلست عليه مرّات وحدى، ومرّة بجوار زوجتى، فيخفى تعجّبه، فهو ينتظر أن أشرح لــه معــالم باريس: كنيسة الساكركير، حديقة لوكسمبورج، أى شئ باريسى، أما أن أشرح لــه تــاريخ حجــر لا شخصية له، جلس عليه شخصى المنتفخ بذاته، وكأنه أهم معلم فى باريس، فهو ماله؟ ماله هــو بهــذه الشجرة الخاصة، وهذا الكرسى فى هذه الزاوية، وهذا الحجر الناقص فى زاوية الشارع، ثم أشــير لــه إلى عامود نور مائل، مازال مائلا، كان يحلو لى أن أرتكن إليــه وأنــا أخاطــب المقــابر الرخاميــة الخوجاتية أسفل المطلع الذى يوصلنى من ميدان كليشى إلى شارع كولانكور، حيث كنت أســكن، هــل كنت أنتقم ــ بذلك ــ منه لأنه أفسد وحدتى؟ فجعلت أدور به ورائى سائرا يلهث، وكأنه هو الشيخ وأنا الشاب، طوال ست ساعات لا يرى فيها ما سمع عنه، فأنا همى فى رحلاتى هــو النــاس، والوجــوه، والحجارة، والروائح التى لا يشمها غيرى. ما ذنبه هو أفرض عليه دورتى الخاصة جدا.

أخيرا تجرأالشاب وطلب منى أن يرى "برج إيفل"، فمطتت شفتى، فلاحظ، فكاد يعــدل عــن طلبــه، لكننى لاحقته أننى لا أحب هذا الكيان الحديدى القبيح، وأننى لم أكتب عنه فى أى من وصف جــولاتى فى باريس، ومع ذلك هى فرصة أن أذهب معه لأعرف سرّ نفورى هذا منه. وركبنا ــ أخيرا ــ إلــى الأنفاليد معتقدا أنها أقرب محطة مترو إليه، فتنفس الشاب الصعداء، لكن المحطة لم تكن أقرب أبدا، إما أننى كنت قد نسيت، وإما أننى أتمادى فى عقاب رفيقى هذا وأستجيب لكراهيتى لهذا النصب الحديــدى التافه الذى لا معنى له (عندى)، فمشينا أكثر من ساعة بعد نزولنا فــى المحطــة، وفرحــت بالمــشى وبالضياع، ولم أحاول أن أسمح لشفقتى على رفيقى أن تحول دون متعتى القديمة، وعلاقتى بالتوه.

وصلنا إلى هذا الصنم الحديدى الأخرص. وفعلا وجدته ما زال سخيفا جدا، سخيفا سخف أهراماتنا لولا معنى الخلود عندنا. ماذا يحب الناس فى هذه الرموز الضخمة الخالية من النبض والحياة وإن لم تكن خالية من الإيحاء؟ أى عظمة أن أضع الحجارة فوق بعضها أو ألحم عيدان الحديد بالطول والعرض وأظل أحميها-دون وعى الناس- من الصدأ وعوامل التعرية، هذا هو يا صديقى ما أردتَ، وأخذت له صورة بجوار الحديد القبيح حتى إذا رجع ونظر فى الصورة أو أراها غيره، اطمأن إلى أنه عمل اللازم ونال البركة.

من برج إيفل إلى الكونكورد، ومن الكونكورد إلى قوس النصر، ميدان الإتوال، الشانزلزييه، ذهبت آثار العام الماضى إلا من نـُصُبٍ خشبية يبدو أنها سوف تكون مدرجات تصلح لمشاهدة الاستعراضات القومية، وأتذكر حادث المنصة، وأترحم على السادات، وأعاتبه، وأدعو له، وأمتلئ غيظا منه.

نمر فى نهاية الشانزلزييه على محل تغيير النقد الذى خدعنى مرّتين، فأجد نفس الإعلان عن السعر الأعلى، وأنه - قال ماذا- لا عمولة، ياأولاد الـ...، ألم يقبض عليكم الأنتربول بعد؟ أخرج للمحل لسانى سرّا، ولا أتحسس أثر خازوق العام الماضى، التأم الجرح بالنصاحة والتوقى وصحبة هذا الشاب، وأعبّر لصديقى الشاب عن تعجبى من هذه الملابس التى تلبسها بعض المارات والتى تشبه البيجاما تماما، (هفهفة وشكلا) مما تسميه فلاحات بلدنا حرير طبيعى لمجرد نعومة ملمس الألياف الصناعية التى صنع منها، وبعضهن يلبسن نفس البيجاما ولكن من قماش أقرب إلى ما تسميه خالتى هندية " رمش العين"، (عليكى نور والله يا خالة هندية)، فيقول لى الشاب أن هذه ليست بيجامات، ولكنها "الموضة" ويذكر لها اسما لا أعنى بالتقاطه.

ونصل إلى الفندق سيرا على الأقدام.

الفندق جميل، وأكتشف أنه ملاصق لطرف غابة بولونيا، فأفرح وأدعو صديقى الشاب للذهاب إليها (الساعة الحادية عشر مساء) فينزعج حاسبا أننى أدعوه لذلك الآن، وكنت أعنى صباح اليوم التالى قبل السفر فيدمدم، وكأنه يدمدم بقدمية المتورمتين.

أخلو إلى نفسى أخيرا مؤجلا العشاء، إلى قرب منتصف الليل، لا أجد فى الفندق إلا مطعما فخما أوحدا وكنت لا أعرف أن مختصة الاستقبال قد حدّدت لنا مطعما بالذات، فأحكم ربطة رباط عنق لم أرتده من قبل، وقلت لو منعونى من الدخول تكون جاءت منهم، ولو أنى كنت أريد أن أستعيد فخامة مطعم مونترية ورجاله المهذبين، وقد كان، وجاء سعادة "البك"، فولْدان مخلدون يبتسمون ويرحبون، فسيدة رائعة مزيفة، ولا "مس جور" شخصيا (أنظر بعد) ونظرت فى القائمة فوجدتها باهظة، لكننى لم

أحسبها، أنا مالى، ما علىّ إلا أن أوقع، تأخيرنا هذه الليلة هو خطأ شركة الطيران، ونحن نبيت على حسابها. وانتهى الطعام على خير وأنا هادئ مؤتنس بأفكارى ووحدتى.

هاتفت رفيقى فى الصباح إن كان يريد أن يرى غابة بولونيا، فالفندق فى حضن أطرافها، فاعْتذرَ محقا وكدت أسمع –عبر الهاتف–أنين قدميه المتورمتين من جولة أمس، فرحت باعتذاره رغم حسن نيتى لإكمال دور المرشد السياحي، نظرت من النافذة فإذا بها تمطر، فرحت أكثر بعد حرّ ورطوبة أمس، هذا الجو المتقلب الرائع: أليس له فضل تقليب الوعى عندهم ومن ثمَ الإبداع. انطلقت هذه المرة لا لأحىّى البحيرة الصديقة كما اعتدت، ولكن لأختلى بنفسى بين أشجارها قبل أن أعود إلى زحمة البشر، مررت على حديقة الأكليماتاسيون، الأهالى وأطفالهم يتدافعون إليها، ظهرت ملامحها من الخارج، أعرف هذا الجمال الذى يجعل الناس تذهب إليه حتى فى اليوم المطير، لم أر بعد الحديقة الدولية عندنا لا فى القاهرة ولا فى الإسكندرية، بل إننى لم أركب مترو القاهرة بعد، لم أره أصلا، ما هى الحكاية؟ متى أصالح بلدى؟ أم أنها هى التى خاصمتنى؟

بحيرة بولونيا غير آسنة هذه المرة، والمطر يلثم صفحتها برقة بالغة، وثلاثة فقط قابلونى وهم يهرولون فى المطر دون رداء واق للماء، أحدهم يكاد يقارب سنى، حيّانى، وهى عادة نادرة أن تحيى غريبا أثناء الجرى، ولا حتى أثناء المشى، ولا الجلوس، كلٌّ ملهى فى حاله، أو كل "يدلع نفسّه"، واحد، هذه التحية لم تخدش وحدتى، تأكدت أننى لا أتعرى بدرجة كافية إلا حين أكون وحدى، فرق بين سيرى أمس مع رفيقى وسيرى اليوم وحدى فى المطر، لمحت لأول مرّة متحف الفن القومى والعادات الشعبية، وابتسمت متذكرا المطعم المتحف الذى جذب انتباهى وأنا فى طريقى إلى بحيرة غابة بولونيا العام الماضى، فرحت بفكرة أن يكون هناك متحف للتقاليد وليس فقط للفن، ورغم ضعف علاقتى بالمتاحف فقد تمنيّت أن أدخله لأعرف كيف يعرضون التقاليد الشعبية فى متحف، وخطر فى بالى منظر غير واضح من الواحة الخارجة فى مصر التى زرتها هذا العام.

عدت متأخرا بضع دقائق عن اتفاقنا، ونحن على وشك الذهاب للمطار، كل شئ معدّ، نظرالطبيب الشاب، مندوب الشركة إلى الفاتورة الخاصة بى وكاد يقفز، وسألنى ألم تستعمل بطاقة الأكل الحمراء، وفهمت أنها "كوبونا: للعشاء، كان مفروض علىّ أن أقدمها حتى لا أتعدى مبلغ ١٨٠ فرنكا فى الوجبة، ياخبر، قلت له: ما عليك يا بنىّ سوف أدفع الفرق، ذلك أننى اكتشفت لتوّى أننى تناولت عشائى بما يقارب من مائة وخمسين دولارا أمريكا، (خمسمائة جنيه مصرى – أيامها! ! ! ملحوظة: المهرالذى دفعته فى زواجى كان ٢٠٠ جنيه! !) وأصررت، على أن أدفع الفرق من جيبى، وأصر رفيقى الشاب على الرفض، حتى كاد يقول "كله على حساب صاخب المخل (الشركة)"، فكدت أرد: بل كله على

المريض الذى سيشترى الــدواء، ثم يا صديقى الطيّب، إننى لن أكتب دواءكم وأنا غير مقتنع به حتـــى لو أدخلتَنى الجنة.

تذكرت نفس الخطأ الذى ارتكبته فى الباخرة التى أقلتنى من الإسكندرية منذ أكثر من عشرة أعوام فى الرحلة الأولى التى بدأت بها هذا الحكى. وكيف تدبست فى مطعم الباخرة مع الأمريكى الأســود مـــن فلوريدا، وكيف أكلت فى المطعم بدلا من أن أستعمل بطاقة الغداء على الواقف، لكننى أذكر أن الفـــرق كان عشرة جنيهات أو مايعادلها، أما هذا المبلغ! ! ياه! ! !.كيف يمكن أن يتكيف الناس فى مثل ســـنى مع هذه الأرقام؟

اليوم هو يوم السبت، والجميع فى انطلاق لقضاء نهاية الأسبوع، وحافلة شركة الطيران التـــى تقلنـــا تتحرك ببطء لم نحسب حسابه، ومع ذلك وصلنا فى الميعاد بعد أن خاب أمـــلى فى أن نـــتخلف ليلـــة أخرى فى باريس، ما باليد حيلة، إلى الطائرة، نعبر الأطلنطى نسابق الشمس نحو الغروب فنكسب ست ساعات سوف تربك نظام نومى حتما.

أثناء عبورى الأطلنطى أوّل مرة، تصورت أننى أسافر فى الزمن، أضحك على الشمس التى تركتهـــا طالعة، فأسبقها لأرغمها أن تطلع من جديد بعد وصولى، كدت فعلا أمسك الزمن بيدى، هـــاج شـــعرى عبر الأطلنطى، تصوّر لى هذه الطائرة "ذرة حمقاء" تخترق الزمن بعشوائية محسوبة.

تلامس المساء قبل دورة الغروبْ،

تخدشُ حائط.الأوهام.

ترتجفْ.

السفر فعلا يغير علاقتى حتى بالمفاهيم العلمية، لا بد أن نظرية أينشتاين جاءته وهو على سفر، أكـــاد أكون متأكدا، أحب وصف أينشتاين لتقلصات عضلاته الصغيرة قبل الإبداع وأثنائـــه، وحـــين هبطـــت الطائرة تصوّرت أنها تعود إلى أمها الأرض. ومن فرحتها تركل أمها دلالا قبل أن تهمد مـــستقرة فـــى حضنها.

تلقفت تلك الحنونُ ركل طفلها العنيد،

ومهّدت لهاالمسار،

أعدّت الغطاء والرضاعْ.

وأدفأت جوانب الرحم

يبدو أننى ما أن تقمّصت الطائرة حتى تصورت رحلاتها ذهابا وإيابا مثل رحلاتى، وأن الأرض هـــى الرحم، وعلى الأرض الرحم أن تستقبل، ثم تطلق باســـتمرار، هـــذا مـــا أقـــصده –ربمـــا–ببرنـــامج الذهاب<=> العودة،

وإذا لم تصلح الأرض (أو الركن) أن تحتضن فتطلق من يحط عليها، من يلجأ إليها، انقلبت قبرا،

ولمّ تُهلْ بعدُ التراب فوق رحلة السلامة.

هل هذا كلام بالله عليكم؟

ماذا أفعل فى نفسى؟ ماذا تعمل بى نفسى؟

الحمد لله أننى لم أنشرهذا الشعر.

السبت 24/23 يونيو 1993

انتهت إجراءات الدخول إلى أمريكا بسرعة فيس معنا خضروات ولا فاكهة، مباريات كأس العالم فـــى كرة القدم على أذنها، تقام هذا العام فى الولايات المتحدة، لكنك لا تحس بإيقاعها هنا مثل مصر، فاللعبة مقحمة على أمريكا، مؤخرا، وأخبار الرياضة فى التلفاز تفضل أن تقدم البيسبول لفرقة الحـــى الـــسابع عن تعادل اسكتلندا مع البرازيل، ناهيك عن انتصار السعودية على بلجيكا، كرة القدم تحتاج إلى "لبّيسة حتى تنزلق على حافة وعى الأمريكيين، والتذكرة بمائتا دولارللمباراة الواحدة فى كـــأس العـــالم، وإن كان ثمنها يتناقص تدريجيا بعد بدء المباراة.

هذه المرة، أنتقل – على غير العادة – من المطار إلى الفندق بسيارة أجرة، (كله على حساب صاحب المخل !) هلتون العاصمة (كابيتال هيلتون)، السائق أسود، ورجل الاستقبال أسود، والحارس على الباب أسود، صحيح أن السود أكثر فى واشنطن لكن هل هم يقومون بالأعمال الأدنى أيضا؟، ليس دائما كما يبدو، ما علينا، الفندق ليس فخما كما بدا فى الصور، ورجل الاستقبال حالقٌ رأسه زلبطة، وحين أنهـــى الرجل الإجراءات أخرج صوتا قصيرا عاليا مثل نفير التحذير، لم أتبين الكلمات التى لا بـــد أن هـــذه الصرخة كانت تحملها (أظن أنها أقرب إلى كلمةwaiter) فجاء الساعى وحمـــل الحقائـــب، ألا يوجـــد عندهم – مع كل هذه التكنولوجيا– جرس بدل هذه الصيحة الغريبة، وتصوّرت أن الجرس بـــه خلـــل مؤقت، لكننى كنت كلما جلست فى الردهة الأمامية بعد ذلك، وجاء زبون إلى الاستقبال وأتم إجـــراءات دخوله سمعت نفس الصيحة، فأقفزُ نفس القفزة متذكرا فؤاد المهنس والسيدة المهجورة فى مسرحية "أنا فين وانت فين" وهى ترفض المقاطعة بصيحة مماثلة: "أرجوك" حتى يفـــزع فـــؤاد المهنـــدس ويكـــاد يتقمّصها منتفضا، كدت أنا أيضا أخرج نفس الصيحة مناديا waiter.منعت نفسى بالكاد.

فى الحجرة: يلاحقنى التليفزيون حتى فى الحمام، يا ناس دعونا ننظر فى وجوهنا ولو أثنـــاء حلاقـــة الذقن ولو بضع ثوان، إلا أبدا، مؤامرة هى؟ تريدون أن ننظر فى شاشة التليفزين طول الوقت حتـــى لا نرى أنفسنا، حتى لا نرى إلى أين يسوقوننا. قبل سفرى كنت قد اقتنيت طبقا هوائيا خاصا فـــى بلـــدى، نقلنى إليهم، وفـــــرضهم علىّ، ثم زهدته، فسد أو تباطأ أو خيّل إلى ذلك فلم أعتن بالكـــشف عليـــه أو إصلاحه. لست ناقصا أن أنفصل عن ناسى حتى بما تمثله تفاهات تليفزيوننا المتواضع.

الفندق سخيف، والأمريكان يبدون أطيب من سابق عهدى بهم، التعبيرالأصح: من سابق ظنى فيهم، أتذكر تناقضاتى المكررة، أحب الناس واكره طبعهم، أحب مصر وليس – بنفس الدرجة – المصريين، أحب الأمريكان وأكره أمريكا، ما هى الحكاية؟

قابلت زميلا مصريا قادما من الإمارات وعلمت منه أن ثمة حلقة علمية تسمى عادة " ما قبل المؤتمر Pre-congrss تعقد فى مركز كيندى لمدة يوم، مضى يوم وبقى يوم، وأطلعنى على برنامجها فوجدته أهم من كل ما جئت إليه، ما هذه المفاجأة ياربى، الحمد لله أن ثمة علم يستأهل شد الرحال وإلا رجعت، الله أعلم بى، لم كل هذا الضجر وانتظار الرجوع قبل حتى الوصول، هل هو من فرط الخجل من نفسى أو من فرط الحذر من نوايا مضيفى (الشركة وليس صديقى الشاب)؟.

الأحد ٢٥ يونيو 1993

الإفطار مُحكمةٌ طقوسه الرقيقة، حين أنزل مثل هذه الفنادق أفرح بجلسة الإفطار وابتسامة التصبيح أكثر من عملية الأكل وتصنيفات القهوة وعصيرالبرتقال، أثناء الإفطار عرّفنى صديقى الشاب بممثل قبرص فى هذا المؤتمر، وجدته رجلا فى منتصف العمر يلبس "بلوفرا" كأنه منسوج بمسلة عم أحمد أبوعمارة المزيّن الذى كان يحلق لنا فى بلدنا وينسج لنا "الأجراس" (جمع جرْس يعنى بلوفر) من الصوف الذى يغزله بيده. فيظل يحكُّ فى جلدنا محتفظا برائحة الغنم مهما هدّه الغسيل.

كان مندوب قبرص – الشاب– يَلبس حذاء "كاوتشا" ويفتح قميصه وعينيه بالعافية وكأنه لم يستيقظ بعد. انحنى الزميل القبرصى مدمدما أنه يعرفنى (سمع عنّى)، سمع عنى أين؟ ومِن مَن؟ وأنا لا أنشر ولا أتراسل علميا، تعجّبت ولم أسأل، ثم إننى ائتنست به أكثر مما ائتنست بزميلى القادم من الإمارات، وهو زميل مصرى إنجليزى الجنسية أيضا، لكن يبدو عليه أنه لم يغادرحى المنيرة ولا إلى مدينة نصر.

أسماء العلماء الذين يلقون الكلمات والأبحاث مجهولة لى، لكن التعريف بها يعلن أنها أسماء جادة وخطيرة، من السويد إلى ألمانيا إلى الولايات المتحدة إلى إنجلترا، كررت أكثر من مرّة كم أن هذه المؤتمرات ليست علما، وليست هامة، وليست وليست هذا اللقاء إلا أننى فى هذا الصباح وجدت نفسى فى لقاء علمى رائع، ليس مؤتمرا من إياهم، هذا نشاط علمى جاد على هامش المتن، وكم من هامش أهم من المتن، ألم تكن مقدمة ابن خلدون هى كل شىء، ألم تكن محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى لفرويد هى التحليل النفسى؟ فهل يكون ما قبل المؤتمر هو زبدة المؤتمر؟

نعم هو كذلك.

خلال ثلاث ساعات ونصف أحسست وأنا جالس فى مقاعد المستمعين أتابع خلاصة الأبحاث التى تلقى تثبت بعض ما سبق أن سجّلته باللغة العربية قبل خمس عشرة سنة من واقع الممارسة العملية،

أحسست أنهم يخاطبوننى شخصيا (شئ أشبه بما يقوله مرضاى أحيانا من أن الراديو يعنـيهم شخـصيا بأخباره! !) ولكن الحقائق حقائق، ها هم يتكلمون عن نقطة الانبعـاثPace Maker، وعـن النـبض الحيوىBiorhythm، وعن التنظيمات المتوازنة فى الدماغ، وليس عن المواقع المحددة للعطـب، وعـن التكنولوجيا الأحدث التى تسير فى اتجاه رؤيتى وفروضى. هل أنادى زملائى التابعين المقلدين الفرحين بمناصب شرفية، وألقاب حركية، ليسمعوا من مثلهم العليا الخواجات أولاد الخواجات ما كانوا يهزؤون به (وبى) حين قلتهُ لهم منذ عشرين عاما وحتى الآن؟

الحمد لله

منذ عشر سنوات وأنا أراقب تحوّل الموجة العلمية (والمنهج إلى درجة أقل) إلى وجهة فكرى، فأفرح وأخجل، وأحيانا أمتلئ غيظا أنهم ينشرون ما سبق أن عرفته وسجّلت بعضه من خـلال خبرتـى مـع مرضاى، ثم أفرح أن المعرفة الحقيقية ليس لها صاحب. يسعدنى أن يعرف الناس ما هو أحق بالمعرفة وأنفع للناس أكثر من أن أفخر بوضع اسمى على هذا الكشف أو هذه النظرية، هذه ليست تـضحية ولا يحزنون، ماذا يفيد فرويد –الآن وهو تحت التراب– أن يذكر اسمه مرتبطا بإنجازاته فى اليـوم ألـف مرّة. ألهذا يا ربنا جئت بى – بالرغم منى كالعادة – لتطمئننى قبل أن تأخذنى؟

أتريد – يا ربنا أن تلهمنى بإجابة السؤال: أن أتفرغ لــ: ماذا؟ أتفرغ لــ: هذا؟

أصابتنى هذه الجرعة العلمية بصدمة فرح حقيقية، كانت مفاجأة بكل المقاييس. العلم أيـضا وأساسـا رحلة لها مفجآتها السارة، (وغيرالسارة)، كنت أعلم طوال كتابتى لهذا العمـل أن مـا يبهرنـى لـيس الجمال المطلق فى الطبيعة والناس، ولكنه الحوار المتناغم بين آثار طفولتى، ونماذج وعىـى، وبـين المثيرات المتجددة أمامى، وهأنذا أكتشف أن العلم جميل فى ذاته، وأن رحلة الاستكشاف فيه ليست أقل من رحلات الطبيعة ورحلات داخل النفس.

أشعر هذه المرّة أننى أرتحل فى بحور الوعى البشرى حالة كونه يستكشف قارات المعرفة الجديـدة، أسمع التنويعات والتقسيمات على نغم فُرُوضِى، تقدمها هذه الجوقة من العلمـاء الـشديدى التواضـع، وكأنى أشاهد تنويعات الخضرة فى ربوع يوغسلافيا وشمال إيطاليا كما وصفتها فى أول هذا العمل، أو كأنى أسترجع رشفات لبن أمى وهى ترضعنى بعد اليوم الثالث من ولادتى.

علمت مؤخرا (نوفمبر 2000) كيف يمكن أن أودع

كل ما وصلت إليه، فى موقع شخصى على الإنترنت

لمن يريد. هذا هو الحل، تصور!!

أخيرا!! أخيرا جدا!! وقبل أن أموت! يحدث هذا؟

الحمد لله. سوف أغيظهم وأترك لهم ما عرفت بمثابة

إنذارات لن يستطيعوا أن يهربوا منها.
لم يعد أحد وصى على إعلان فكرى.
تحيا التكنولوجيا والشفافية والتواصل
والمواصلات. والمعلوماتية وكافة اللغات، تتيح
الفُرَصْ. الحمد لله.)

أثناء استراحة القهوة بين الجلسات العلمية، قابلت زميلا من المغرب العربى، وهو يكاد يكون نقيضى تماما، هو شديد الذكاء، شديد الطلاقة، متدفق الأبحاث المنشورة بالفرنسية والإنجليزية، وأنا أعلم ألوان شرائحه العلمية وأرقامه المئوية وإحصاءاته المستديرة، أعلم عنها ما يخجلنى أنا على الأقل. هو لا يخجل من أى شئ، انتقى من مشاعره الأنفع والأسرع، حين رحت أستكشف منه ماذا وصله من روائع ما قيل فى الجلسة السابقة التى اعتبرتها فتحا فى مجالنا. فإذا به لم يصله أى حرف مما وصلنى، بل وصله عكس ما تصوّرت تماما. راح يؤكد لى أن علينا ألا نفتح فمنا إلا إذا امتلكنا أدوات مثل أدواتهم نستعملها بمثل المهارة التكنولوجية التى أوصلتهم إلى ذلك، وأتحدث معه عن حقنا فى رصد ما نلاحظ فى مرضانا وأنفسنا، وأن علينا أن نستّقبل ما يمكن أن نصيغه فروضا حتى لو لم نملك وسائل تحقيقها الآن، ويصر هو أن علينا أن نعطى الخبز لخبّازه، فأنبّهه إلى أننى لو اتبعت توصياته هذه لكان علىّ أن أمحو رؤيتى أو أنكرها لمدّة عشرين عاما فى انتظار أن يصلوا هم إليها بأدواتهم هذه، وماذا أفعل أنا إذا كانت هذه الأدوات تكلف مثل ميزانية بلدى برمتها؟

يقينا: لو لم يكن فى هذه الرحلة إلا هذه الساعات الثلاث ونصف لاستحق الأمر أن أشد الرحال إليها. للمؤتمرات فائدة إذن يا أخى.

وأسمعه –ربنا– يقول لى (ربما بالمعنى الذى خاطب به النفرى): لم تكن مخطئا حين اختلفتَ، ولم تكن عابثا حين نظرتَ، ولم تكن غريبا حين كتبتَ. لم تكن إلا عبدا مجتهدا حين أصررتَ على رؤيتك رغم ضعف الإمكانيات، وألم الوحدة. قلها وتوكّل، أكملِ وسْوف يلحق بك من يسندك فى أى وقت، فى أى مكان.

حاضر. الحمد لله.

ومع ذلك، ورغم اقترابهم أخيرا من فروضى، وإن اختلف المنهج والسبيل (وتكلّف ما تكلف)، فإن المسألة تحتاج إلى حذر مضاعف، فالوسيلة التى أوصلتهم – ربما بالرغم منهم– مازالت فى أيدى رأس المال المستثمِر وليست تحت أمر الباحثين عن الحقيقة الموضوعية، فمن أضمننا أن الذى يملك الوسيلة المادية لن يلوى الحقائق لصالح مصالحه واستثماراته لا لصالح الناس؟ فأرد إنه حتى لو حدث هذا فسيفشل، وسيتغير المنهج بعد فشل الزيف – كما حدث فعلا عدّة مرّات عبر التاريخ – وستصل

الحقيقة إلى أصحابها: إما برؤية مخترقة متواضعة من واقع الحياة، وإما بتكنولوجيا متفوقـــة لابـــد أن تعدل نفسها رغم أنفها، وكل منهما يكمّل الآخر بغض النظرعن من يسبق من! ! !

هل يا ترى يقبلون قسمة جيّدة هكذا :

علينا أن نحسن الرصد والرؤية، ونصدّر لهم الفروض

وعليهم أن يخلّقوا التكنولوجيا التى تحقق أو تنفى هذه الفروض

هل معنى ذلك احتمال أن تنقلب الآية فنصبح نحن السابقون وهم التابعون؟

ما هذا الشطح بالله عليك؟

وهل الرحلة إلا شطحا منظما فى مختلف المجالات، فلماذا أحرم عقلى من الترحال الشاطح كما شاء، مُثارا بفرحة السبق، واحترام الذات.

لم أكن أعرف أن الرحلة هكذا فى العقل البشرى العلمى هى هى الرحلة فى حضن الطبيعة وطبقـــات الوعى، ما أوروع كل شئ والله العظيم. الحمد لله مرة أخرى.

الإثنين ٢٧ يونيو :

قابلت مساء أمس بعض الزملاء المصريين وغير المصريين من السعودية، أساسا، أغلـــبهم طلبتـــى، متوسط ما بينى وبينهم حوالى عشرين عاما، لم أرتحْ ولم أأتنسْ ولم أرفضْ ولم أتعجبْ، ســـمعتُ عـــن وجود بعض الزملاء من سنى، وآخر أكبر منى، فتسحب إلىّ آنسٌ ما، رغم عدم اللقاء، لـــم أجـــد فـــى نفسى رغبة فى التجوال مع هذه المجموعة ولا فى البحث عن تلك. كنت الوحيد الذى سبق لـــه زيـــارة واشنطون، كما أننى الأكبر سنا، فحسبونى الأعرف ذهبت بهم سيرا إلى البيت الأبيض، من هنا تصدر قرارات حكم العالم، الإجراءات الأمنية قليلة تكاد لا تُلاحظ، والرئيس يقيم فعلا هناك، وما خطـــر لـــى عن معنى رئيس أمريكا، والنظام العالمى، وخداع الديمقراطية، واحتمال انقراض الإنسان هو ما توحى لى به هذه الزيارة، وأمثالها.

توجّه زملائى إلى متحف يحكى تاريخ أمريكا. أمريكا ليس لها تاريخ. هى تتمحّك بأى شئ فيه رائحة التاريخ. بدا لى أن غياب التاريخ هو ميزة قد تضعك فى الحاضر رغم أنفك، وحاضر أمريكـــا "لـــيس هو" رغم كل شيء. (ذكرت من قبل متحف الأحياء ومتحف الفضاء فـــى واشـــنطن،أمريكا تـــستعير تاريخا وتتمحك فى السماء!!)

الإثنين مساء ٢٧

افتُـــــتح المؤتمر والعياذ بالله

رجل يرتدى سترة حمراء من الأحمر الذى لا أعرف له اسما، فارقٌ شعره كما ممثلى السينما، يقـــول إن هذا المؤتمر هو أجدع مؤتمر، وأنه يشكر الذين أعدّوا، والذين كافحوا وكـــدّوا، والـــذين أفطـــرو ا

واتغدّوا، والذين حضروا وتكبّدوا... إلى آخر مثل ذلك.(طبعا هذه ترجمة لــروح كلمتــه المقاماتيـــة)، سمعت ترحيبه كما التحيّة التى يحيّيها المغنى الشعبى عندنا حسب كمّية النقوط التى تعطى له، ويفــرح الذين مُدحُوا فرحا غريبا مع أنهمم يعرفون مقدما أن هذا لا بد أن يقال دون أى معنى ولا أى داع، و كان أدمثهم الرئيس الجديد المنتخب، أما الرئيس الحالى الذى يبدو أنه انتهت مدته والذى شاهدته أمــس فى اجتماع ما قبل المؤتمر فهو طليانى جدّا، وحاذق، "وبتاع كله"، وكلام من الذى يصلح له أن نرجـــع لوصف خبرتى مع "الطلاينة" فى سابق هذا العمل.

بدأت هذه الرحلة وأنا أبحث عن موقفى العلمى، وموقعى الوظيفى كأستاذ متفرغ، فإذا بى أكتشف أنـــه لا هذا ولا ذاك ينفصل أى منهما عن موقف وجودى الشخصى اليومى ،

الناس الذين يشغلون وظائف ويحملون شهادات، ويتسلمون جوائز، ويتبعون مناهج، يتصورون أنهــم بذلك قد حددوا موقفهم العلمى. أنا أعرف – ثم هاأنذا أتيقن– أن موقفى العلمـــى يمثـــل لـــى "اختيـــارا كيانيا". لا يمكن أن "أكون" إلا إذا تبينتُ معالمه، بل لعل هذا هو إشكالى الدائم، بـــل لعلّـــه المحـــور الحقيقى الذى يكمن فى عمق ما هو داخل هذا العمل المتخفى، مرّة تحـــت مـــا يـــسمى أدب رحـــلات وأخرى تحت ما يسمّى سيرة ذاتية، ثم بدعة "أدب المكاشفة"، أما ما هو أخيرا، فهو هذا الذى هو.

بعد مقدمة قصيرة و تبادل الخطب القصيرة، والقبلات السريعة التقليدية، والشكر والثنـــاء المتبـــادل، والجوائز على أبحاث علمية لشباب العلماء على ما يبدو (شباب يعنى تحت الأربعين على ما أظن) بعد ذلك ذكرت عدد الدول المشتركة (٦٤ دولة)، وحلقات النقاش العلمى (٦١٠ حلقة فى أربعة أيام (وعدد المشتركين (حوالى خمسة آلاف)، ثم نودى على الدول بترتيب أبجدى، ومن بينها مصر، وكلما نـــودى على دولة تقدم صبى أو فتاة تحمل علمها وتدور حول المنصة لتقف خلف المتحدث، وهكذا بالترتيـــب (الصبيان والفتيات أغلبهم سود، لماذا؟) وكلما ذكر اسم بلد وتقدم علمها صفق أهل هذه البلـــد، وأحيانـــا يهللون ليظهر حجم الممثلين، أو ليعبروا عن عاطفة وطنية طيبة، وظهر ذلك أوضح فى ثلـــة أمـــامى (من الدانمرك على ما أذكر) ،

تمنيت أن نصفق أنا وأربعة مصريين بجوارى بما ينبغى حين يذكر اسم مصر، إلا أننا لـــم نفعـــل إلا فرادى وبدون نِفس (لماذا؟؟). خيّل لجارى المصرى أن ثمة تصفيق مصرى صدر من مكـــان آخـــر، فقال لى أن ثمّ مصريين غيرنا، ولم أرد لأنه كان تصفيقا هزيلا جدا، إذا كان قد حدث أصلاً. حين جاء دور إسرائيل بدا واضحا أين نحن منهم وماذا نفعل، لن أصف أيضا –حتـــى لا يتجـــدد ألمـــى– مـــا اعترانى من غلّ وغيظ وشعور بالدونية، ولن أحاول أن أفسر أحداث المؤتمر تفسيرا تآمريا (اليهود هم السبب، الصهاينة وراء كل هذا) حتى لو كان ذلك حقيقة، لو كان ثمة مؤامرة، فلا رد عليها إلا بالعمـــل والإبداع حتى التفوق، وكل ما عدا ذلك باطل وقبض الريح.

ثم جاءت المتحدثة الرسمية نيابة عن الرئيس بيل كلينتون "مدام جور"، وهى المرأة الثانيــة (زوجــة نائب الرئيس) وقالت كلاما شبه كلام زوجــات الرؤســاء: ملــئ بالإنــسانية، والرحمــة، والأمــل، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والذى منّه، بضاعة العصر الحاضر للأقوى، بضاعة ممجوجة كاذبــة، برّاقة مُسَكّرة المذاق "زيادة"، لونها بمبى بمبى، ليس نفس لون بمبى صلاح جاهين وسعاد حسنى، لكنّه بمبى مسخسخ، بضاعة ما إن تضعها تحت اختبارات العدل والموضوعية حتى تستشعر فــى طعمهــا لزوجة المصاصات الرخيصة التى كانوا يضحكون علينا بها صغارا، والتى كــان مدرســو الإبتــدائى ينهوننا عنها فى كراريس الأشياء والصحة، والذى كان مصروفنا لا يسمح إلا بها حتى لو عفّ الذباب عليها وهى مكشوفة حتى غطى سواده حمارها، كان حديث الست "جور" مثل هذه المصّاصة، خاصــة وهى تقول إنها "معالِجَة أسرية" متطوعة advocate وليست حرفية نظامية، وزاد سخف حــديثها حــين عرجت إلى برامج الصحة العقلية وضرورة اعتمادها على "الحقائق الطبية" أملا فى تنقية المــخ مــن أوهام التفكير الخرافى "والصوفى" بالمرّة، وقد استعملت تعبيرا غريبا ودالا وهو تنقيــة الــدماغ مــن الصوفية، وكأن الصوفية نوع من المخدر الذى يمكن أن نتخلص منه بغسيل تكنولوجى معــدّ بواســطة شركات الدواء والنظام العالمى الجديد. أضافت الست "جور" ما يشير إلى ضرورة تكمية (مــن الكــمّ) العواطف والأفكار والعقائد (هكذا سمعت!)، الله يرحمك يا صلاح (جاهين): "الحزن مابقالهوش جــلال يا جدع، الحزن زى البرد زى الصداع " ألم تلهمنى يا صلاح (أنت وشرفاء العراة) أن ما صرنا إليــه نحن أطباء النفس يعلن ما كتبتَه شعرا عن ما آل إليه حال الأطباء النفسيين والناس. كتبت يــا صــلاح بعد ذلك بلغتك،

والعواطف تتشحن جوّة العيون زى البضاعة ،

والجنازة زقة ترقص ع السراير ،

فى البيوت اللى حوالهيا الستاير ،

إلى أن قلت :

واللى بيسوّق دوا ضد الذنوب ،

سر ْمحلــّكَ أو تأخر للأمام،

سرْ بضهرك والعرق الكوز بكام.

حين كتبت هذا الكلام لم أكن أتصور أن تسويق العلم الجديد سيتطلب تكميَــة الدموع أيــضا، ولــيس العرق فحسب، بل قد يصل الأمر بالقياسات التخطيطية الجديدة إلى قياس اتساع فتحــة الفــم، وعمــق غمّازة الخد نتيجة لإعطاء هذا العقار دون ذاك. عشنا وشفنا يامدام جور ولا حول ولا قوة إلا بمثبطات استعادة السيروتين انتقائيا.(SSRI)

هناك مصيبه مشابهة تقترب، رغم روعة أساسها، وهى قرب اكتمال الخريطـة الوراثيـة (الجينـوم البشرى) ثم انظر ماذا ستصنع به شركات الدواء (ندوة شاركت فيهـا منـذ يـومين ٧ / ٧ / ٢٠٠٠). يخطر ببالى أن هذا الاتجاه سيوصّلنا -إن شاء النظام تعالى- إلى اختراع دواء يعفـى الإنـسان مـن الشعور بالذنب، اللهم إلا من على قتل اليهود أيام هتلر. هذه هى العاطفة الوحيدة المسموح لها بالبقـاء، وكل من يحاول إزالتها بالدواء، أو مراجعة التاريخ، أو قياس حجمها الحقيقى هو جاهل ونـذل ومعـاد للسامية وللعلم وللنظام العالمى سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

مضت السيدة "جور" تقرأ لنا رسالة الرئيس الأمريكى يبلغنا التحية، وأن المعاقين عقليا والمـضطربين نفسيا "صعبانين" عليه جدا جدا، ثم أضافت جدا أخرى، الإمضاء بيل كلين (أى والله. قالت إسـم الـدلع هكذا وليس كلينتون).

ذكرت الست جور (الجور فى العربية يعنى الظلم ولكن بتسكين الراء) إنه يوجد فى الولايات المتحدة ٢٥ مليون شخصا يعانون فى فترة ما من فترات حياتهم من اضـطرابات نفـسية، وسـوء اسـتعمال العقاقير،

25 مليون يا ست؟ والباقى كام يا خبيبى؟ طق الحنك لا يحاسب عليه أحد.

قال رئيس المؤتمر والجمعية المسئولة عن المؤتمر فى نهاية كلمته: إن البرنامج الاجتمـاعى حافـل، وأرجو أن تمتّعوا أنفسكم (شئ أشبه بـ: كل واحد يدلّع نفسه). ثم بدأت فرقة الإنشاد الجماعى بآلاتهـا تتقدم إلى المنصة، أغلبهم سود (لماذا؟؟) بينهم رجل لا يقل وزنه عن مائة وستين كيلو جـرام، وفـى المقدمة امرأة جسيمة، أحسب أن وزنها فاق المائتى كيلو جرام، علّق عليها جارى أنها ٤ فى٤ (4x4)، وبدأت رئيسة الفرقة تقول لنا مقدمة عن الغناء والعزف، وتدعونا للمشاركة فى الغناء الـذى رن فـى سمعى وكأنه تراتيل، وكأننا نصلى(! ! !) فعلا أحسست أننى فى قداس زائف، وليس فى حفل افتتـاح مؤتمر علمى.

حمدت الله أن ترديد الأهازيج الزائفة لم يكن بنفس حماس الافتتاح.

ما هذا الذى يجرى هكذا؟ ومع ذلك فقد فرحت بمجيئى هنا لأسمع ما سمعته أمـس ممـا هـو قبـل المؤتمر،حول المؤتمر، بمناسبة المؤتمر، على هامش المؤتمر.الهامش أهم.

أتذكر ما سبق أن تذكرته مرات كثيرة: كنت قد سمعت محمد عبد الوهاب فى مذياع سيارتى مصادفة (وقد أصبح هذا المذياع المصدر الأساسى لمسايرة العالم، ليس عندى وقت لسواه) سمعت محمد عبـد الوهاب وهو يرد على سؤال عن الإبداع الذى أضافه وهو يلحن لأم كلثوم، فضحك بتواضع قـائلا إن اللحن – أى لحن- ليس إلا هوامش على هوامش، هوامش تنتظر الجملة الموسيقية المبدعة، تأتى أو لا تأتى، وأنه حين يلحّن لا بد وأن يمضى بشكل راتب وربما مكرر حتى تأتيه هذه الجملـة، أو الجمـل

المميزة، ثم...إلخ، وفهمت أن وظيفة ما أسماه عبد الوهاب الهوامش هو تخطيط الأرض وإعدادها حتى تصبح صالحة لإثبات ما يمكن – إذا أمكن.

وقد فسّرت لى هذه الملاحظة الدالة كثيرامما كان يغفل علىّ :

فسرت لى كيف أن الإبداع يبزغ وسط الفعل اليومى العادى.

وفسرت لى فساد فكرة العزلة عن الناس تحت زعم التفرغ للإبداع.

وفسرت لى تبرير استعارة (اقتباس) ما ليس للمبدع، باعتباره هوامش تسخينية علّها تصلح أرضية لجملته الأصيلة – وهو ما يسمى أحيانا "سرقة" كما زعموا أن عبد الوهاب بالذات كان يمارسها.

وفسرت لى فائدة الوساوس، وتكرار ما ليس له داع عند المبدعين لدى كثير من المبدعين، لعل كل هذا التكرار ليس إلا إعادة الهوامش فى انتظار الفرج.

وأخيرا هأنذا أحاول أن أصالح هذا المؤتمر من هذا المنطلق فقلت أنهى هذا الفصل هكذا :

لعل هذا المؤتمر – ومثله– هو هوامش على هوامش تستجلب الأفكار غثها وثمينها، وتواجه العقول بعضها ببعضها: لعل فكرة واحدة وسط العشرة آلاف فكرة، تكون قادرة على البقاء والمواجهة والنفع والتفجير.

وعليه – سيداتى سادتى– فعلى كل من يهمه الأمر أن يحترم هذا الكوم الهائل من هذا الذى...، لعل وعسى.

ألم أقل من قبل أن ما حضرته مما هو قبل المؤتمر ثبت أنه برقبة مائة مؤتمر؟

أعود إلى الفندق وأنا فى غاية الرضا بما منّ الله علىّ من بصيرة تقبل أن تبحث فى كوم القش على مفتاح الخزانة الحاوية للصناديق المرتبة داخل بعضها الأصغر فالأصغر حتى المفاجأة.

القاهرة 10/٥/1997

آن لهذا العمل أن ينتهى، أن يتوقف.

من أكثر الأمور إيلاما لى هو أن ينتهى الأمر بتصنيفى فى المنطقة الرمادية التى تسمّى منطقة "التسوياتية"، والتى أكرهها لدرجة أننى أنكرت عليها هذه التسمية ترجمة لكلمة Compromise، و من واقع رفضى لهذا الموقف الوسط رفضت تعادلية توفيق الحكيم، وحكمة نجيب محفوظ (فى حياته دون إبداعه) وسوء تفسير وسطية الإسلام، هى ليست إلا ميوعه، نحت لها كلمة مركّبة، ثقيلة الظل، كنت أقصد أن تكون كذلك، هى "حـلْـوَسَط"، بتسكين الواو والطاء، ولكى أزداد نفورا من هذا الموقف المائع كنت أستعمل هذه الكلمة بينى وبين نفسى بصيغتها الفعلية كفعل خماسى: حلْوَسَطةً يُحَلْوسَطهُ. فهو مُحَلْوسَطٌ. بالذمّه هل هذا اسمه كلام؟ تصوّر –حضرتك– أنك مُحَلْوسَطَ هكذا، حتى دون أن تعرف كيف نحتت الكلمة ولماذا، فلا بد أنك سترفض هذا الموقف تماما، وكلمّا فسّرو الآية الكريمة " وكذلك

جعلناكم أمّة وسطا" بأنها الأمّة المتوسّطة..إلخ، أحسست بمدى السطحية واستنقذت بسيدنا محمد إقبال، أو ابن عربى، أو جلال الدين الرومى، وأخيرا النقرى. رحت أعاتب توفيق الحكيم الذى مسح تعادليته فى الاسلام (دون إذن منى)،

هل يا ترى كتبت كل هذا الهجاء لأنفى عن نفسى هذه التهمة؟

هل هناك موقف حقيقى يمكن أن يكون قد بلغه القارئ من هذه الأميال والأفكار والأحجار والمكاشفة بين الناس على الطريق؟

الثلاثاء 28 يونيو صباحا 1994

أتعرف على هذه الواشنطون دى سى وحدى هذه المرّة، فرق حقيقى، الشوارع تتالى بالأرقام وتتعامد عليها شوارع بالحروف نحن فى شارع ١٦بين تقاطع K& MMيكاد الواحد لا يحتاج إلى خريطة،

أتعرف على الناس من منطلق جديد، من هؤلاء الأمريكان؟ ما هى أمريكا؟ لا يوجد واحد مثل الثانى، يتسحّب حب الناس –كل الناس– إلىّ رغم كل التحذيرات التى بدأتُ بها الفصل السابق، ورغم اعتراضات زوجتى وشكها فى أن هذا الموقف العمومى هو مؤشر لاحتمال عدم حب أحد محدد فعلاً. ليكن. ماذا أفعل بنفسى؟ أصدقهم، أوافق الأقربين وأحجز إعلان مشاعرى نحو بقية البشر حتى يصدّقوا أننى أحبهم هم (الخاصّة) جدا جدا؟ أننى أموت فيهم؟ هأنذا وسط الأمريكان الذين لعنتُ"سنسفيل" أجدادهم من أول ذلك الأمريكى الأسود من فلوريدا الذى قابلته فى بداية الرحلة الأولى على الباخرة (الصفحات الأولى من الترحال الأول) ذلك الأمريكى الذى تنازل عن سواده حتى هذا الكلينتون الذى كأنى رأيته وأنا أزور البيت الأبيض وهو يتجوّل داخل البيت الأبيض بسرواله الملون، يصقر بفمه وهو ينتظر صوت الهاتف الذى سيخبره من خلاله مستشاره اليهودى عن ماذا يفعل فى القدس وزائير دون الصين واليابان طبعا. هل يجرؤ؟

مع كل هذه العواطف السلبية حسب كلامهم، فإن حبى لكل الناس عند المواجهة والعشرة لا يستثنى أحدا، حتى هؤلاء الأمريكيين، هؤلاء الأمريكيين الطيبيين.

أثناء سيرى بينهم بعد أن تخلّصت من أوهام الحكم المسبق، ضبطته (حبى لهم) يتسحب ليشمل هذا الخليط العجيب المسمى الشعب الأمريكى. هذا الخليط الذى جعلنى أردد فى أول الرحلة على ظهر الباخرة، وفى مواجهة هذا الأمريكى الماسخ بلا لون رغم سواده، جعلنى أردد أن الذى بنى أمريكا كان فى الأصل "بتاع كشرى"، وكنت أحسب فى أول الرحلة أننى بذلك أزهو على هذا الأمريكى من حيث أن الذى بنى مصركان فى الأصل حلوانى، لكننى أكتشف الآن بالمراجعة (ألم أقل أننى مازلت قادرا على المراجعة) أننى أحب الكشرى أكثر من أى نوع من الحلوى، حتى الشامية، الكشرى فى المحلات التى هى، وليس الكشرى المصنوع بالبيت الذى لا يتعدّى العدس الأصفر والأرز. كشرى المحلات

بالتقلية المحروقة، والمكرونة المسلوقة، والأرز المنقى، والصلصلة الحامية والعدس أبو جبّة، هكذا رأيت الشعب الأمريكى فى وشنطن،

السود الذين قابلتهم حتى الآن (وما أكثرهم حتى تكاد تحسب نفسك فى أفريقيا) هم العدس أبو جبّة، وبعضهم بشبه التقلية المحروقة الجميلة، كنت عادة أدفع قرشين أكثر حتى يكثر العدس أبو جبّة، لست أعرف كم علىّ أن أدفع الآن؟

غمرنى هذا الشعور بالسماح حتى صالحتُ المصريين الذين ذكرت كم كنت أتجنّبهم إذا ما سافرت حتى أعمّق شعورى بالسفر.

المصريون هنا فى واشنطون الآن، وأنا فى هذه الحال، طيبون أيضا، بل طيبون جدا، أغلب من قابلتهم كانوا أصحاب، أو عمّال فى: أكشاك متواضعة، وهم يبيعون بحداقة مصرية لا تخفى، ويمشّون حالهم.

كنت أسير فى شارع M وإذا بواحد خواجة أبيض أشقر لا جدال حول خواجيته، إذا به يقترب من كشك من هذه الأكشاك مبتسما ابتسامة مصرية رافعا يده مصافحا أن "سباه الهير يا هلاوة". لم أستطع أن أفهم بأى لغة يتكلم إلا حين سمعت صاحب الكشك وهو يرد عليه بوضوح أن "صباح الفل يا عسل"، إذن فقد كان الخواجة يقول له: صباح الخير يا حلاوة، فرحت أن هذا الخواجة الطيب يجامل إبن بلدى فيتعلم منه تحية الصباح المصرية، بل إنه يتكلم اللهجة المصرية بعد التحديث (يا حلاوة).

وسط هذه المشاعر رحت أرصد التسول فى واشنطون بما يميّزه، فلكل بلد طبعها المميز فى التسول حسب ما لا حظت. أغلب المتسولين هنا من السود. يجلس الرجل العجوز، أوالمرأة الشديدة البدانة، يجلس هذا أو ذاك على أرض الرصيف وهو يضع "كوز البلاستيك أمامه"، ولا يمد يده، وإنما يمد إحدى أو كلا ساقيه أمامه، ويكاد ينام (ربما من فرط الشرب فى الليلة السابقة)، أو هو ينقل بصره بين الكوز والمارة دون أن ينطق حرفاً، بل دون أن يبدو عليه أنه يتصنع أى ضعف أو يعلن أى استجداء، وكأنه يأمر المارة أن يتصرّفوا بما يرونه مناسبا، وتمثلت المثل المصرى "حسنة وأنا سيدك" لكنه لم ينطبق تماما فحوّرته إلى " حسنة واللى عاجبه" فليس هنا سيد ظاهر، كل الأسياد مجتمعون فى مجالس سرية يديرون الشركات المتعددة الجنسيات، ويحكمون أمريكا التى تحكم العالم، أما نحن جميعا سائر البشر فنقع فى أحد الجانبين، إما متسولون كسالى ولكن بصيرتنا تسمح لنا أن نعلنها هكذا على عينك يا تاجر، وإما متسولون مُنوَّمون ننتظر حسنة خفية، نسميها قروضا أو معونة وتكنولوجيا، تحفظ علينا استمرار الحياة حتى نصلُح لخدمة الأسياد الظاهر منهم والخفى.

يلفت نظرى قصّات الشعر الجديدة التى بدأت تنتشر أيضا فى مصر بين شباب لا أحبهم، لكننى لا أكرههم، كل الرأس محلوقة نمرة واحد، ماشى، أسفل الشعر محلوق دائريا، أيضا نمرة واحد،

أيضا"ماشى"، لكن هذه التسريحة التى تجعل الشعر مضفرا مائة ضفيرة صغيرة، والتى لاحظت كثرتها بوجه خاص عند الفتيات السود، لا أستطيع أن أقول لها نفس الـ "ماشى"، ذلك أننى أتساءل عن الوقت الذى يستغرقه كل هذا التضفير. أنا أحب البنات ذوات الضفائر، وقريبتى التى تصورت أننـــى أحبهـــا، والأهم أنى تصورت أنها تحبّنى فى سن التاشر(سن التاشر ترجمة جديدة لتعبيرTeen age) كانـــت لهـــا ضفيرة واحدة تنزل خلفها تتراقص حتى ساقيها. كانت إذا جعلت من ضفيرتها هذه اثنتـــين بـــدت لـــى مختلفة وأقل جمالا، أكتشف معنى الضفيرة عندى، إذْ يبدو أننى أتصور الضفيرة رمـــزا لـــولاف جيّـــد حيث يحتضن كل فرع الآخر، ثم إن الضفيرة لا بد أن تعمل من ثلاثة فروع، يحتضن بعضها بعـــضا، فلا هى ثنائية احتكارية، ولا هى تسوية "حَلْوسطية سائحة تمحو شخصية فروعها، فهى ثلاثة فى واحد، ولا بد أن الدين المسيحى الحقيقى (ثلاثة أقانيم فى واحد) على علاقة طيبة بما هو ضفيرة، وحين كنـــت أسمع الأغنية " لا احطك فى عينى واتكحل عليك، وانْ جُمْ يسألونى ما اقولشى عليكَ لم يكـــن خيـــالى يسعفنى لقبول هذه الصورة، أما حين تكمل الأغنية إلى وضع الحبيب داخل الـــضفيرة أفهم وأتـــصور نفسى مختبئاَ بين طيّاتها: "لاحطّك فى شعرى واتضفر عليك وان جم يسألونى ما اقولشى عليك، واقول دا غريب يا خواتى ما هوش من هنا".

لا.. لست غريبا الآن، لم يعد السفر يشعرنى بالغربة، بل هو لم يكن يشعرنى بالغربة أبدا، بـــل إننـــى أشعر بالغربة فى بلدى أكثر، يا خبر ما هذا الذى أقوله؟ الحمد لله أن زوجتى ليست معى وإلا نبّهتنـــى إلى أننى لا أحب بلدى. أنا أحبها جدا والمصحف ولكن ماذا أفعل فى صدق مـــشاعرى؟ يـــاه، أيـــن ذهبتُ؟ أحببت الضفيرة الواحدة، والضفيرتين استثناء أما هذه الضفائر الكثيرة فهى تثير دهشتى وبعض رفضى، ماذا لو أرادت الواحدة من هؤلاء أن تحطنى فى شعرها وتتضفر علىّ، لا بد أننـــى ســـأتمزّق مائه قطعة، هل هذا هو ما تعنيه هذه النقلة من الضفيرة الواحدة إلى هذا العدد الغريـــب؟ الـــضفيرة لا تكون ملاذا جميلا إلا إذا عمـــلتها الأم لابنتها (مهما كان سنها) وهى جالسة فى حجرها. فجأة أنتبه إلى هذا العجوز، رجل كهل زحف الصلع على نصف رأسه، بل أكل ثلاثة أرباعها، كما زحف الشيب على ما تبقى له من شعر وقد جلس جلسة المتسول الأمريكى، والكوز أمامه (حسنة واللى عاجبه)، ثم هو قد ضفر ما تبقى من شعره بكل ما تجمع فيه من قاذورات، بنفس طريقة الضفائر الكثيرة الرفيعـــة، كـــدت أذهب أسأله، لماذا؟ ومتى؟ فلا يمكن أن يكون قد فعلها وهو شاب عامل، ثم شاخ وتسول وتصلّع وهـــذا ما بقى من أيام زمان، ومع ذلك لم أتصور غير ذلك، متسول كهـــل أســـود ذو مائـــة صـــفيرة. آخـــر "موضة"؟

مضيت فى شارع M أبحث عن حذاء كاوتش أفتقده منذ عشر سنوات، يعيننى على ما حلّ بغضاريف ركبى. كنت أرسل مع كل مسافر إلى أمريكا اسم الماركة ورقم المقاس، لكنهّ يعود بحذاء آخـــر غيـــر

الذى طلبته، والأدهى أنه صنع فى الصين أو فى كوريا. أذنك من أين يا جحا؟ ثم اكتشفت أخيرا أن نفس الماركة ونفس المقاس قد يوجد منه مائة نموذج ونموذج، وقلّة من هذه النماذج هى التى تصلح لقدمى، خاصة بعد الذى كان من أمر ركبتى. انتهزتها فرصة وهات يا أحذية، رجعت وأنا أحمل ثلاثة أزواج مما تناسب قدمى من النوع الذى أريده، وكل زوج من الأحذية يكاد يحتل ربع الحقيبة، ماذا يقول رجال الجمرك؟ هل يا ترى أعمل أشعة لركبتىّ وأظهرها لرجال الجمرك لأثبت لهم أن هذه الأحذية ضرورة طبية. والأهم هو: هل بقى من العمر ما هو جدير بأن يبلى أى زوج من هذه الأحذية، ثم إن علاقتى بقدمىّ كما ذكرت، واستعمالهما فى السير الطويل تفسّر فرحتى بهذه الصفقة، وبالرغم من أننى عادة لا أفرح باقتناء الأشياء، إلا أننى لم أخرج من محل الأحذية إلا وأنا لابس الجديد، لأنه بمجرد أن قبض الحذاء على قدمى خيّل إلىّ أننى استعدت قدرتى على الترحال راجلا، وفهمت اسم هذه المحلات التى تبيع هذه الأحذية حيث تسمى "مقبض القدم" Foot Lock. حين نظرت إلى حجم الحذاء أعدت فهم التعبير المصرى "مبروك عالأرض"، ذلك التعبير الذى لم أفهمه إلا مؤخرا، حيث البديل أن يكون مبروك على دماغك إذا ما وصل غيظ الست هانم من جنابك إلى ما يغريها بتجربة متانة الحذاء على صلعتك (!!)

الأتوبيس الفخم يمر على الفنادق كل ربع ساعة بانتظام، ليحمل المؤتمرين إلى مركز المؤتمرمجانا، لكن الحذاء الجديد يتحدى، أكاد أشعر أنه هو الذى يقودنى، حذاء "أتوماتيك"، ينقل درجات السرعة وحده، أعلّق الأتوبيس، وأذهب سائرا على قدمى إلى مركز المؤتمرات، وإن كانت الترجمة الحرفية هى " المركز التقليدى" Conventional Center، لم أتمادَ فى التفسير لأثبت لنفسى أن ما يجرى فى المؤتمرات هو اجترار تقليدى أبعد ما يكون عن الإبداع.

أمتطى صهوة حذائى، وأنتقى الطريق الطويل. دائما أنتقى الطريق الأطول حتى لا أنسى، حتى حين أركن السيارة أركنها فى أى مكان يبدو قريبا لكنّه ليس بالضرورة أمام الموقع الذى أنزل فيه، وتحتد هذه المشكلة مع زوجتى وهى تفضل أقرب مكان متعللة بالكعب العالى (لماذا الكعب العالى لمن طولها لا يحتاجه؟ هل يعمل فى ضبط إيقاع الجسد الأنثوى مثل الملاءة اللف التى رصد لغتها الأنثوية وحوارها مع فن حركتها المرحوم د. صلاح مخيمربأبدع ما يراه كفيفٌ جميل.

قاعات المؤتمر بلا حصر، وقاعة عرض إعلانات شركات الدواء عبارة عن بوفيه مفتوح فيه من المأكولات والمشاريب أكثر مما فيه من الأدوية والنشرات، إطعم الفم تستحى العين، لا أحد يستطيع أن يلاحق كل هذا الفيضان من العقاقير الجديدة لأى سبب كان، إحدى الشركات، تدخلك فى رحلة إلى داخل الدماغ، وكأنك تركب القطار الصغير فى أرض ديزنى (ديزنى لاند)، قال ماذا؟ لتريك كيف يعمل الدواء الفلانى فى المشتبك العلانى، يا أخى إلى هذه الدرجة يحاولون قلب "الفرض" المتواضع

إلى يقين كأنه الحقيقة الثابتة!! "الذين اختشوا ماتوا" – نحن لا نعرف عُشْر معشار ما هو موجود من مشتبكات وموصّلات نيورونية، فلماذا هذا الاختزال، ولماذا هذه الإغارة الجاهزة كاليقين، ثم تحتجون على اليقين بوجود الله دون أدلة، وأنتم تبيعون لنا اليقين الزائف بأدلّة أكثر زيفا، وكسلنا واستسهالنا هما المسئولان عن ذلك (المصيبة الآتية هى تجارة معلومات الخريطة الوراثية «الجينوم» بنفس الطريقة بنفس محلات التجارة العظمى (يوليو ٢٠٠٠).

البهو والممرات خارج القاعات مليئة بعدد لا حصر له من الحاسوبات الجاهزة لخدمتك، وفى كل يومُ تُلقى مئات الأبحاث والمحاضرات، وعليك أن تنتقى ما تريد، ثم تبرمج هذا الانتقاء على أزرار الحاسوب، فتخرج لك بطاقة تهديك إلى القاعة الخاصة، والوقت المحدد لما انتقيت، مسألة سهلة جدّا لكن فكرتها غير مألوفة لى. أبدأ فى برمجة ما أريد، فتقفز لى شطرتين من صلاح جاهين يقول فيها":
أندم على الفرص اللى أنا سبتهم، ولا على الفرص اللى ما سبتهمش، وأنظر فى الورقة التى برمجها زميلى وأسأله عن الباقى، فيقول سأجده فى الكتب والدوريات، ولا أتمادى لأسد نفسه من أن ما اختاره أيضا سيجده فى الكتب والدوريات، وأن المسألة أننا نحاول أن نقنع أنفسنا بجدوى هذه المؤتمرات، نتصوّر من خلالها حوارا لا يحدث أبدا، صحيح أن وظيفتها الاجتماعية بلا حدود، لكن ينبغى أن نضع حدّا لهذا الوهم بالمعرفة، اللهم إلا إذا وضعناه فى موقعه المتواضع. إن التحدى الآن ليس فى الحصول على المعلومة، وإنما فى مهارة انتقاء أى معلومة تحصل عليها، ثم أين تضعها فى منظومة وجودك.

لا أخضع لما يُفرض علىّ استسهالا لعرضه. تصورت مراكز الشركات المنتشرة تماما مثل أكشاك الموالد وخيم الغوازى. وألعاب السحرة: فتّح عينك تأخذ مُهَدئ، قرّب قرّب، تخلّص من الاكتئاب بحبّة السحر الجديد..إلخ (ملحوظة مكررة: أنا لست ضد العقاقير أبدا، ولا أصلا، ولكن هذا الذى يجرى شئ آخر).

قلت أحضر ولو محاضرة واحدة حتى أحلف بها عندما أرجع، وأحلل هذه المبالغ الباهظة التى دفعها مضيفى. اخترت المحاضرة وحددت القاعة وهات يا سؤال، وهات يا جرى وبمساعدة من المشرفات الجميلات الرائحات الغاديات، وصلت بعد أن انتهت المحاضرة التى اخترتها، أحسن. قررت ألا أذهب لمثل هذا المولد بعد ذلك أبداً، إن طلب العلم المعاصر له مناهل جادة لا يمكن أن يكون هذا أحسنها!!

نذهب إلى البوفيه الكبير، ونحتار أمام عدد البوفيهات وتصنيفات المعروض، وكانت صلتى قد انقطعت مع ما يسمى البوفيه المفتوح، والذى لا أظن أنه يصلح لمن حرم صغيرا مثلى، حيث يريد أن يحصل على كل شىء، فمن يدرى متى سيرى ذلك ثانية؟ هذا الذى أمامى ليس بوفيها واحدا بل عشرات فماذا أنا صانع، أحسن شئ أن أعتذر لزميلى هذا وننفصل لأننى وجدت فى عينه نظرة أعرفها فى نفسى قديما. حين تاب الله علىّ من الحرمان الذى كانت مثل هذه البوفيهات تكشفه بلا

خجل، شبعت حتى عزفت عن المشاركة فى مثل هذا أصلا، ومازلت أتعجّب من زملاء أثرياء من ظهر أثرياء، لا أظن أنهم مرّوا بما مررت به من حرمان، ولا أظن أنهم وضعوا ثلاث قوالب جبن قريش على بيضتين اثنتين لإخوة ثلاث (أنا وأخوىّ) حتى يزيد حجم الغموس الذى شم رائحة البيض المقلى، لم نكن فقراء، ولكن هذا هو ما حصل، مرّة ذكرت هذه الحادثة مداعبا والدتى أمام زوج أختى الكبرى أ.د. بيومى السباعى، له ثلاثة أولاد وبنت من زواج دام أكثر من ربع قرن يوم ذكرت ما ذكرت، فإذا بأمى تنزعج وتزغر لى أن هكذا عيب، فأتمادى وأقول لها هل تخشين إذا عرف الدكتور بيومى مثل هذا الحادث ألا يكمل زواجه بأختى مثلا، وأضحك ولا تضحك هى.

أقول أتعجب لهؤلاء وهم راجعون غادون على مثل هذه البوفيهات وكأنها فرصة. لن تتكرر. شمتّ فيهم وأنا أرى عشرات البوفيهات المفتوحة، وكل شركة تتنافس فى إكرام الضيوف (أى رشوته) على ما قسم، مولد وصاحبه حاضر.

ذكرت هذا الموقف مؤخرا فى إحدى ليالى الحرافيش (نوفمبر ٢٠٠٠)، ضحك نجيب محفوظ وحكى لنا ما حدث له فى سفرته الوحيدة فى يوغسلافيا حين أتوا له بالمشهيات مساء، وكان جائعا، وكانت شهية، فأكل حتى شبع، ثم بعد ذلك رفعوا الأطباق وأخبروهم أن العشاء سيأتى حالا.'عشاء ؟ عشاء ؟ ماذا ؟ "ويردف نجيب محفوظ " مش كنتوا تقولوا يا ولاد الـ ..."،

يمكن أن نتعرف على كثير من صفات البشر من خلال موقفهم من الطعام.

وبقدر ما كان البهو الملئ بالبوفيهات غاصّا من كل الجنسيات كانت قاعات المؤتمر خاوية على عرشوها حتى تصورت أن الذين يدخلون القاعات لا يمكن أن يزيد عن واحد فى المائة من الحضور. كان بعض الأصدقاء يعيدون بعض النوادر عن مشايخ زمان، حين كانوا ينهمكون فى أكل الزفر مشمرين أكمام الجبّة مرددين أنه ".. وما القصد إلا اجتماعنا، وما الأكل إلا من صفات البهائم، وهات يا أكل، المنطق هنا أن "الشئ لزوم الشيء" الأكل لزوم الاستغراق فى الحضور وقضاء طول اليوم بين القاعات والمحاضرات، ولكن...

قابلت زملاء لا أقابلهم فى مصر، وتعجبوا لحضورى هذا المؤتمر بالذات لما يعرفون عن موقفى من مثل ذلك. لم أشرح، ولم أعتذر.

ركبت الحذاء "مقبض القدم" (ولا أدرى لم تصوّرت أن أسميه إسم دلع يقول: توسَّد خيرا (معارضا الاسم العربى القديم: تأبَّط شرا)، فأسْرَعَ بى إلى الفندق لأصل قبل زملائى الذين انتظروا الحافلات الدورية، وحين وصلت فرحا بصديقى الجديد "تأبّط خيرا" كنت أتصبب عرقا مثل زمان أيام العدو مع مرضاى، ومسحت عرقى وأنا فخور بشئ ما لا أعلمه.

خجلت من نفسى ومن جديد حتى قلت أحضر جلسة ما بعد الظهر لأخزى العين، كانت الجلسة المنتقاه فى فندق السلام هاييتى

فوجئت أنهم أعدّوا وليمة خفيفة قبل الجلسة وليس أثناء الاستراحة كما اعتدنا، وكان اسم هذا استقبالا، وكنت أتصور أن الاستقبال هو استقبال، وإذا به الإسم الحديث لأكل خفيف، ومشروبات نصف نصف. استقبال أهل العلم والتداوى بكل هذا الأكل والشرب هو أمر يحتاج تفسيرا "علمياً". أين يذهبون بكل هذا الأكل؟ ومن الذى يحضر إلى هذه المؤتمرات الوليمة، أغلبهم من مدعوى الشركة صاحبة الدواء الـذى ستدور حوله الندوة، والباقى من موظفى الشركة، ولا مانع من وجود واحد أو اثنين من السذج محبـى العلم. الاستقبال مشهيات وشراب على الواقف، تذكرت المقلب إياه مع المرحوم محمد حلمى شاهين فى باريس.

دخلت إلى قاعة المحاضرات المختارة. وجدت بجوار كل كرسى فى قاعة المحاضرة ما يـشبه الآلـة الحاسبة، قلت -ساخرا- سيوزعون علينا دولارات ويريدون أن نعلم قيمتهـا بالعملـة المحليـة حتـى نختشى ونكتب دواءهم، سألت جارى فقال إن هذا لزوم معرفة تفاعل واستجابة المجتمعين أولا بـأول، آخر تكنولوجيا للتفاعل بين المحُاضر والمتلقّى، سعدت بهذا الحوار تماما، وقلت هكذا يكون الكلام ليس مونولوجا سائلا يلقى فى وعاء فارغ. بدأ المحاضر تلو المحاضر، يضع أسئلة لتوقعاتنا للمعلومة التـى يقدّمها، أو التى سوف يعرض لها، ويطلب منا فى شكل أسئلة متعددة الإجابة أن نختار ما نعتقـد أنـه الجواب الصحيح، وفى خلال عشر ثوان تظهر النتيجة على الشاشة الملونة لتقول الـرقم الـصحيح أو الإجابة الأرجح. فى البداية أحسست أننى فى امتحان، وأنهم سيكتشفون خطأ إجاباتى إن أخطأت، فكدت أعزف عن المشاركة، فأنا مازلت – فى هذه السن – أرعب من الامتحانات بكل أشكالها، أخذت أذكّـر نفسى، حتى كدت أقرصها أننى أستاذ، وأننى تخرّجت من زمان، وأننى هنا فـى مـؤتمر لـيس فيـه حضور ولا انصراف، وأنه لا يوجد باقى من الزمن كذا وأنه لا توجد وسيلة للتعرف على مَـنْ الـذى ضغط الزر الخاطئ ومع ذلك كان ما كان.

استمتعت بالبحث الأول، وبطريقة العرض فبقيتُ لما يليه. حضرنى شعور جميل بالتلمذة من جديـد. أنا تلميذ نجيب حين أقرر أن أكون كذلك رغم تفضيلى طول عمرى الحصول على المعلومات بطريقتى الخاصة. عدد المحاضرات التى حضرتها فى كلية الطب طوال سـبع سـنوات لا تزيـد عـن بـضع عشرات، كنت أفضّل أن ألخِّص الكتب بنفسى لتكون أنا، ظلت تلمذتى تتنامى حتى كدت أضع ذراعـىّ مضمومتين أمام صدرى دليلاً على "سماع الكلام" ثم حدث ما شككنى من جديد فى أغلب ما يجرى:

كانت الورقة (البحث) تتحدث عن عقار حديث. (باهظ الثمن طبعا) حتى جئنا لسؤال عن نـوع مـن الأدوية يخص الشركة وكان السؤال المطروح على الحاضرين هو عن جدوى هذا العقـار فـى منـع

النكسة، العقار عمره سنتان، والنكسات لايمكن الطمأنينة إلى منعها إلا بعد عشرات السنين، لكن الإجابات جاءت فى صالح فاعلية العقار فى منع النكسة (٢٧%) وأنه أحسن من غيره وكلام من هذا. ليس هذا هو مربط الفرس رغم مخالفته رأى منطق علميّ بسيط. لكن الذى أزعجنى حقا هو أن الحاضرين صفقوا لهذه النتيجة،أى والله، وكأنها نتيجة انتخابات، أو كأن فريقا لكرة القدم وضع هدفا فراح مشجعوه يصفقون له، كدت ألقى الآلة المبرمجة جانبا، بل كدت أترك القاعة محتجا غاضبا حزينا، لكننى تراجعت متذكرا أن الحضور إما موظفين أو مدعوين من قبل الشركة، حلال عليهم وعليها، (ملحوظة: هذا العقار الجديد المصفق له يبلغ ثمنه ثلاثين ضعف العقاقير التقليدية المستعملة!! وقد ثبت تواضع فاعليته بعد سنين معدودة).

إذن فهذا هكذا، سامحكم الله،

يالسوء استعمال التكنولوجيا، حتى "تكنولوجيا التلقى" يشوهون بها استجاباتنا.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة ليلا، وما زالت فرحتى بالحذاء تغرينى بالعودة سائرا حتى لو كان فى ذلك ما فيه من مخاطر التعرض للسود السكارى (رنّت فى وعيى أغنية كارم محمود: البيض الأمارى للمقابلة!!)، لا بأس من السير مادمنا اثنين، الخطر فى السير فى هذا الوقت أن تكون منفردا، كدت أصدّق أننا اثنين، أنا وصديقى الحذاء "توسّد خيرا"، لم يرد ربّنا أن يحبطنى فقابلت أحد الزملاء الذى وافق بعد إلحاح أن يعود معى سيرا على الأقدام.

على الناصية المقابلة لفندقنا لمحت تشريفة أو ما شابه، وهم يشيرون إلى المارة بالالتفاف حول الناصية الأخرى، لم أعِرْ الأمر اهتماما حتى نادانى رفيقى الذى كان قد سأل الجنود عن الأمر، فأجابوه أن الرئيس كلينتون شخصيا يتناول عشاءه فى الفندق المقابل لشيراتون (وهو نفس الفندق الذى تُفضله الملكة إليزابيث حين تنزل واشنطون وقد نزلت فيه ثلاث مرات، هكذا قالت لنا المرشدة فى اليوم التالى) ولم أستطع أن أكره كلينتون هذه المرة مثلما أفعل كلما ذكر اسمه وهو يتحدث بشهامة مشبوهة عن مأساة البوسنة، لففتُ حول الناصية متذكرا تشريفات القاهرة التى تسد علينا الطريق ساعات حتى تُكّرهنا فى أنفسنا وليس فقط فى صاحب الموكب.

استجابة لدعوة للعشاء من الشركة المضيفة ذهبنا نأكل سمكا على شاطئ بحيرةٍ ما، وجلسنا وسط الناس المزدحمين فى بهو مغلق بحيث احتجنا – أو احتجت أنا شخصيا على الأقل لقدر هائل من الخيال حتى أتصور البحيرة التى زعموا أننا على شاطئها، ثم استأذنت قصدا لأخرج إلى الشرفة أتأكد أين نحن. ماء ساكن لا يقول، ولا حتى يهمس، رجعت والضيق يزحف ليقترب منى فيكاد يفسد علىّ حالتى التى سمحت لى بقبول الأمريكان من أول المتسول الأصلع ذى الضفائر المائة حتى كلينتون، وبجوارى جلس الزميل القبرصى خفيف الظل، وكانت الدعوة متضمنة السماح بلبس ملابس "أى كلام"

(كاجوال")، وفى آخر لحظة تبيّن زميل عراقى أن المكتوب هو "أى كلام مهندم" (smart casual)،لـيس أى كلام أى كلام، قلت يا صلاة النبى، أصبحت هناك تنوعيات وتصنيفات فرعية للملابـس أى كـلام، فصعدت إلى حجرتى، و ارتديت ما ظننته مهندما (نصف نصف)، لكن جارى القبرصـى لـم يهمـه التعليمات، وجاء بالحذاء الكاوتش، والرداء المتدلى والذى يعجبه (!!!)، فرحتُ به وقررت أن أجـاوره لعلّه مثل حالاتى، بشكل أو بآخر، ومضى العشاء على خير، لكننى قبل أن أنـصرف سـألت جـارى القبرصى متشجعا بجرأته على مخالفة تعليمات اللبس، سألت: أكان هذا الذى أكلنا سمكا فعلا؟ لم يجـب بنعم، ولا بلا، فتصوّرت أنه يظن بى الظنون، لكنه سرعان ما استجاب مازحا: يبدو أن المسألة تحتـاج إلى قدر من الخيال، ثم أردف: لقد أقنعت نفسى أنه كذلك، وهنا تأكدت من رجاحة ومـشروعية شـكى رغم أننى كثيرا ما لا أدرك ما آكل تحديدا.

عند العودة أَخِذَتِ الآراء فتبين أنه كان دجاجا حتما، فتذكرت تلك البدعة التى يبيعـون بهـا شـرائح البطاطس بطعم الكباب وطعم الخل وطعم الكارى إلخ..، وقلت لصاحبى: أكلنا دجـاج بطعـم الـسمك والعياذ بالله.

الأربعاء ٢٩ يونيو 1994

سألنى بائع الأحذية وأنا أرجع له حذاء آخر من ماركة أخرى كان قد أصرّ أن أعطيها فرصة، فإذا لم تصلح أرجّعها، هذا هو النظام هناك هكذا: تستطع فى خلال ستين يوما أن ترجع الحـذاء دون إبـداء أسباب، حتى لو كنت ترتديه طول الوقت، وفكّرت بنصاحة أهل بلدنا، أننـى لـو كنـت أعـيش هنـا لاستبدلت حذاءً كل ٩٥ يوما، ليظل حذائى جديدا طول العمر، وابتسمت لأننى تصوّرت ماذا سـيترتب على ذلك. فى الأغلب سيعلّقون صورتى فى كل محلات أحذية "مقبض القدم" ويجرّسـونى كمـا كنـا نجرّس سارق الجاموسة فى بلدنا مع "أن القانون فى صالحى"!!

تحاورت كثيرا مع بائع الأحذية الأسمر قال بعد أن ترددت عليه هذه المرات حتـى كـدنا نتـصادق: ستَذْكُرُنى؟ قلت له: بقدر ما ستذكرنى، فضحك دون تعليق، ولم أقل له أن ما تعلمته منه هو أفضل مـن كثير مما تعلمته من المؤتمر العلمى.

أستيقظ فى الثالثة صباحا، مازال إيقاعى البيولوجى متباطئ فى التأقلم للتوقيت الأمريكى، كتبت كثيرا، وتأملت كثيرا، وأنا أتقدم نحو الإجابة على التساؤل الذى صورت لنفسى أننى حضرت لأجيب عليه :

هذا الذى تبقّى لى من عمر، وأنا أستاذ متفرّغ، فيم أقضيه؟ أتفرغ؟ أتفرغ لـ"ماذا"؟

ولم تحضرنى إجابة شافية .

الأربعاء 29 يونيو 1993

كان الفندق يضرب يقلب، مازال كأس العالم تجرى مبارياته، كثير منها فى واشنطون، الفنـدق ملـئ بناس يرقصون ويغنون، أسأل فإذا بهم مشجعون من أمريكا الجنوبية، يقولون أمريكا الجنوبيـة مثلنـا، أبدا، لسنا مثلهم ما لم نرقص، ونغنى، ونكتب ما هو نحن ونتميز.

السعودية كسبت مباراة ما – لا أذكر ضد من – ماذا يعنى هذا؟ هل يعنى أنها ارتقت حضاريا حتـى أخذت الرياضة موقعها المتميز، هل يعنى أنه أمجاد يا عرب أمجاد، هل يعنـى أن القـرش البترولـى أصبح يستخدم فى محلّه فى شراء اللاعبين سابقى التجهيز؟ الخداع تتسع دوائره: المشاركة مع العـالم زائفة، والبنية الحضارية الأساسية مُفتقدمة. مهما بلغت المكاسب من نوع "كنظام الحضارة"؟

فاتحتُ ميكائليدس (زميلى القبرصى "الكاجوالى") فى اقتناء كوخ فى قرية فى قبرص، رحّـب حتـى انزعجتُ. يا خبر!!! لم أشْفَ بعد من هذا الجذب المعاودْ. يبدو أن حالتى من الحالات المستعصية.

متى يأتى الوقت الذى أعرف أن كوخى الحقيقى هو فى طمأنينتى هنـا والآن حيثمـا كنـت، طـول الوقت؟ متى يأتى الوقت الذى أعرف أنه لا داعى أصلا لأكواخ حقيقية أو نفسية؟ الوقت الذى أستوعب فيه أكثر فأكثر أن رحلة الداخل<=> الخارج ضرورة حتمية غير مخيفة ولا يمكن أن تكون ذات اتجاه واحد تحت أى ظرف، يكفينا إيقاع النوم والحلم حتى تتحقق هذه الرحلة يوميا،

فلماذا وسواس الكوخ البعيد، والناس الأغراب؟

أذكر حين كنا نلعب "بيوتا" أننى كنت أفرد البطانية على سور شرفة المطبخ، وأختبئ تحتهـا مـع أن اللعبة لم تكن "استغمّاية"، هل كان هذا هو الكوخ الأول، بل إن أحلام يقظتى فى هذه السن لم تكـن أن أصبح ضابطا طيّارا، أو طبيبا مشهورا، ولكن أن أعمل خادما عند أسرة ثرية بناتهـا حلـوات، ولـى كرسى خاص فى شرفة المطبخ بالذات، أجلس فيه عصرا أقرأ، وأفهم، وأحيانا أشرح لبنـات أسـيادى بعض دروسهن، وما قدر يكون.

لم يكن كوخا حلم اليقظة هذا، ولكننى تذكرته حين تذكرت شرفة المطبخ والبطانية على سـوره وأنـا تحتها .

تحمّس ميكائليدس لهذا الكوخ فى قبرص، وعرض بعض مشاريع علمية للتعاون ما دمت سأكون فـى المتناول فى بيتى المزعوم فى قبرص. انزعجت، ما الفائدة إذن، حين تصوّرت أن بيتى المتواضع فـى رأس الحكمة هو كوخى الحقيقى، حين انتظم ذهابى إلى رأس الحكمة انقلب بيتى المنعزل على البحـر فى خلال ثلاثة أشهر إلى عيادة طول مدّة إقامتى هناك، عيادة يأتيها الناس المصابين بالنفـسية وبغيـر النفسية، من الضبعة حتى السلوم، وامتنعت عن أخذ مقابل طبعا حتى أحول دون فهم أننى فتحت عيادة بحق فى منزلى هذا، فتدقق الناس أكثر، حتى حرمونى من الذهاب نهائيا،هناك. حدث هذا قبل إغـارة السلطة السالفة الذكر على منزلى ومنازل أخرين ضد كل القوانين. ثم تأتى أنـت يـا ميكائليـدس الآن

تقول لى نتعاون فى مشاريع علمية؟ أتصور أن جارتنا ماريكا (كانت تسكن مقابل شقتنا فى شارع قمبير مصر الجديدة سنة ١٩٤٤) سوف تحضر لى هناك فى ركنى الذى سيشتريه لى ميكائيليدس لتشكو من حفيدها ميخالى، أنه لايستطيع أن يركز؟ طيّب يا عم ميخائيليدس الله يسامحك. قال مشاريع علمية قال!؟

أعلن له بعض تخوّفاتى فيفهمها إلا قليلاً.

ينتقل الحديث إلى أعظم أمراضنا وأخطرها "الفصام" .

يحكى لى عن خبرته فى بعض العقاقير الجديدة، بعضها قديم استعملته سنة١٩٧٣ بكفاءة عالية وكانت العلبة بأربعة جنيهات، فاختفت لتظهر نفس العلبة بمائة وسبعة وأربعون جنيها، هى هى. يخطرنى أن ثمة برنامجا للتدريب على علاج الفصام يجرى من ضمن نشاطات المؤتمر، يا صلاة النبى، أعرف أن مثل هذه البرامج التدريبية شاعت فى مثل هذه المؤتمرات، وأن الإقبال عليها يفوق الوصف، وأتذكر كيف أقول لطلبتى وزملائى أننى تعلمت الطب النفسى كله من معايشتى معالجا مريضا فصاميا واحدا لمدة ستة عشر سنة، وها هم يدرّبون الأطباء على علاج الفصام فى بضع ساعات.

سريع سريع. ومن يتدرّب يأخذ شهادة مختومة!!

الخميس: ٣٠ يونيو 1993

فى كل مؤتمر يوجد ما يسمى العشاء الختامى "عشاء الجلا Gala Dinner، ولم أفهم أبدا معنى كلمة "جلا" هذه، ولم أحاول أن أسأل، وحين استشرت القاموس قال إنها تعنى "مهرجان"، هو عشاء فيه أكل، ونمر، وخطب، وجوائز أحيانا، فلماذا أسأل؟ والليلة هى ليلة عشاء "الجلا" هذه، وله اشتراك خاص (أظن مائة دولار للفرد) طبعا لم أوافق على دفع مليم فيما لا أحب، فإذا بالشركة المضيفة تدفع لى، يا ذى الكرم. كان هذا الكرم قد بلغ بصديقى الشاب، مندوب الرحلة أن يعرض علىّ مبلغا من الدولارات، أسماها مصاريف جيب، لأن الشركة مكلفة بمواصلاتى الداخلية،وبما أنه لا يوصّلنى طول الوقت فالشركة ترسل لى هذا المبلغ البسيط. فزعت بصراحة، قلت له إننى أمتطى صهوة حذائى مجانا، بعض الزملاء راحوا يساومونه وهم يقبضون المبلغ بل ويناقشون فى زيادته (حج الشاهى !!= حق الشاى).. خطأ ما يتمادى ويستشرى فى كل ما يجرى هكذا. وحين أصررت على الرفض، اشترى لى تسجيلات صوتية لكل محاضرات وأبحاث الجلسات التى كنت أنوى أن أحضرها ولم أتمكن.

حضرت عشاء الجلا، وحين شاهدت أربطة العنق الفاقعة، والخطب الماسخة، والفرقة المتواضعة، عرفت أنه يحق لنا أن نزيد جلا أخرى من عندنا وليكن المعنى دون حاجة إلى سؤال أو قاموس، فهو عشاء"الجلا جلا".

وأنا عائد للفندق، بعد انتهاء كل شئ وجدت إعلانا عن رحلة سياحية إلى الإسكندرية بعدد ضئيل جدا من الدولارات، يا خبر، نكته هذه أم يانصيب؟ رحت أسأل رجل الفندق فإذا بالإسكندرية ضاحية من ضواحى واشنطن، وإن كانت فى ولاية أخرى،(فرجينيا على ما أظن) لأن واشنطون العاصمة ليست ولاية أصلا. سألت، وعرفت المترو الموصّل لها، ورفضت الاشتراك فى الرحلة. ونويت فى نفسى أمرا.

الجمعة: ١ يوليو ١٩٩٤

اتفقنا أن نفطر سويا إفطار الوداع. نحن خمسة. ربطت بيننا مودّة حقيقية، رغم المؤتمر وبسببه. لولا المؤتمر ما التقينا.

على الإفطار كان لنا زميل سعودى ينبه على رجل المطعم بتجنب لحم الخنزير، وكلنا كذلك، ولكن الذى أصرّ عليه هذا الزميل ليس فقط تجنّب هذا اللحم لأنه حرام، وخلاص، ولكن لأن لحم الخنزى يميت قلوب الرجال، كما ورد فىما يعتقد هو أنه حديث شريف، ولم يقبل أى تفسير يسمح بفهم الحديث – لو صحّ – على أن مخالفة الشرع لمن يعتقد أنه مخالف فعلا قد يبلّد الشعور مثلا، أو ينتج عنه شعور خفى بالذنب يجعل صاحبه ليس سلسلا، وقد يكون هذا هو موت القلوب، إلا أن زميلنا –الطبيب النفسى الاستشارى – أصرّ أن المقصود بموت القلوب هو الضعف الجنسى (هو) بالذات، وقلت له لا بد أن كل هؤلاء الخواجات كذا كذا،

ويرفض تعليقى وربما ظنّ بى الظنون.

مررنا على مكتبة رائعة، كان الجزء الفنى فيها من أجمل ما يكون، واشتريت كتبا عن فان جوخ، ولوحات مصوّرة من لوحاته، هذا الرجل قد يكون فان جوخ هو هو مدخلى –لو أتيح الوقت– لاستيعاب الفن التشكيلى والجنون الأعمق معا. لعلى ذكرت من قبل موقفى مع النور المشع من لوحاته.

يكفى هذا ولأتوجه إلى الإسكندرية ،

إسكندرية واشنطون. أنا شديد الشغف باسكندريتنا. كنت دائما أحلم أن أقضى شيخوختى بها. ورغم فقر ليلها، ومحدودية تنو ع مزاراته، إلا أن لها سحرها الرائع خاصة فى الشتاء. وحين قررت أن أذهب إلى اسكندربة واشنطون بدا لى أن ذلك من أجل عيون إسكندريتنا، وأعذر إدوارد الخرّاط، ويوسف شاهين، وتوفيق صالح وأحسدهم على أنهم أمضوا فى الإسكندرية أياما قديمة وحديثة أكثر منى، وأتمتع بحكايات صديقى توفيق صالح عن شبابه فى الإسكندرية، حضرنى كل ذلك وأنا أشد الرحال إلى الإسكندرية الواشنطونية.

لم أركب مترو واشنطون قط، ومن لا يركب مترو بلد لا يعرفه كما ينبغى، وكما قلت سابقا أنا لم أركب مترو القاهرة حتى تاريخه، ربما أخاف أن أركبه حتى لا أغيّر صورة قاهرتى عمّا هى عليه ،

فرحت أن الطريق إلى الإسكندرية الأمريكية هو المترو ،

فى المحطة سألت سيدة زنجية بدينة عن وسيلة قطع التذاكر، واتجاه الركوب وما إليه، فسألتنى هل أنت راجع اليوم، قلت نعم. لماذا؟ قالت لكى تقطع ذهابا وإيابا أرخص، وتُخرج من جيبها حاسبة صغيرة، ثم تذهب إلى آلة التذاكر، وتطلب منى ثلاثة دولارات وأربعين، تذهب بها إلى الآلة وتعطينى التذكرة. طيب بالله عليكم كيف كنت سأعرف هذا كله والمحطة ليس بها سرّيخ ابن يومين؟

تغمرنى مشاعر البنوة تجاه هذه الأم السوداء الرائعة، وأسألها أين أنزل، وتتعجّب، وتقول إنها محطة شارع الملك (كنج ستريت) وأبتسم وأنا أكاد أقول لها ربما أسموه الآن شارع حرب الخليج، أسوة بما نعمل فى شوارعنا، وتشرح لى متفضّلة كيف أنها بعد محطة المطار، وكلما شرحت بطيبتها الغامرة، وأسنانها البيضاء تلمع وثدياها يترجرجران ازددت رغبة فى محادثتها رغم علمى بمعنى الوقت عندهم وخشيتى أن يفوتها قطارها.

أركب، وأتمتع بالمناظر، وأحسدهم بلا انقطاع، وأصل، وأنزل، وأسأل عن شارع الملك، فإذا بالمسئول يتعجّب من السؤال، ويشير بسهولة فى اتجاه معيّن وهو يرفع حاجبه دهشة، وتتكرر المسألة حتى أعرف أن الإسكندرية هذه تكاد لا تكون إلا هذا الشارع، وحين وصلت إليه ورحت أقطعه كان ظاهرا أنه طويل طويل، وكان المنزل الذى قلت أزوره رقم١٦٥٠(عرفت الرقم من نشرة الدعاية)، والباقى كم يا حبيبى؟ كان منزل شاعر لا أذكر اسمه، ماذا نفعل نحن بمنازل رموزنا، أين فيلا أم كلثوم؟

ويبدأ السير العظيم، والله زمان!!

لست أدرى كم كيلومترا هذا الشارع المدينة، لكننى استمتعت بصحبة حذائى الطيّب، "مقبض القدم" وحقيبتى على ظهرى، وشعرت شعورا غريبا باستعادة قدرتى على السير هذه المسافات، وأخذت أتمتع بالهدوء والإيقاع الناعم، والجمال المتسحب. شعرت وكأنى فى الحى الثامن عشر فى باريس. تذكرت كلمات بناتى فى بداية الرحلة منذ أكثر من عشر سنوات حين فوجئوا بجمال جليفادا فى اليونان، وصاحوا ياه، نحن فى أوربا، فكدت أصيح، ياه هذه هى باريس التى أحبها، باريس الناس، والمطاعم الصغيرة، والخدمات النظيفة، والذى أكمل الرحلة الوديعة أن كان فى آخر الشارع (ربما بعد خمسة كيلومترات) متحف للفن التشكيلى، يعرض رسوما ونسخا لرسوم، وتهبّ علىّ روائح مونمارتر، وحين ينتهى الشارع أجد نفسى دون سابق إعداد على شاطئ بحيرة ما، يا خبر أين أنا؟ بولونيا هذه؟ بل فرجينيا؟!! دهب /سينا/ مارينا العلمين؟ وكما صالحت الأمريكيين منذ يوم أو بعض يوم صالحت أمريكا وحدث لى أمر عجب.

قلت فى بداية هذا الفصل إننى متهم بأننى أحب كل الناس، متهم لأن هذا يعنى عندهم أننـــى لا أحـــب أحدا، يلعبون معى لعبة النفسية، يبيعون الماء فى حارة السقايين، فماذا لو قلت لهم الآن أننى فى نهايـــة رحلتى هذه اكتشفت أننى لا أحب باريس كما كنت أتصوّر، ولكننى أحب كل باريس، ولا أحـــب رأس الحكمة التى هى هى سان سباستيان، ولا أحب دهب، فأنا هاهنا أمام دهب، هل يا ترى سأقع فى غـــرام المكان بلا تمييز كما وقعت فى غرام البشر بلا تمييز، ربنا يستر، وحدى تمامـــا وســـط حـــضن كـــل الأماكن، كل الدنيا.

جاءت أسرة من الأسر الأمريكية/الأسيوية فى الأغلب، وجلسوا بالقرب مني، ولعب أطفالهم حولنـــا، ورقصوا ورقصت جالسا معهم.

على بعد فى متناول بصرى جاءت وحدها، سمراء كالأبنوس، ممشوقة كالسهم، جلست قليلا تتأمل، ثم تمددت على بطنها واحتضنت الحشائش، وخيّل إلى أنها راحت فى غفوة جميلة حتى تـــصورت أننـــى يمكننى أن أشاركها أحلامها .

أهاج كل ذلك شعرى لكننى لم أخُطّ إلا بضعة سطور على ظهر تذكرة المتـــرو. خجلـــت وتوقفـــت، ونسيْت.

مساء الجمعة: ١ يوليو ١٩٩٤

كما بدأت هذه الرحلة الأخيرة فى المطعم الصينى فى المعادى مع أسرتى، انتهت أيضا فـــى مطعـــم صينى فى واشنطون دلّنى عليه سائق تاكسى نيجيرى، تكلم بإيجابية عن وضع الـــسود فـــى الولايـــات المتحدة، ربما لأنه وهو النيجيرى يستطيع أن ينتمى إلى أقلية تزداد قوة كل يوم فى هذا البلد العمـــلاق، ولكن العجيب أنه لم يأخذ الجنسية، ولا يسعى إليها، على حد قوله.

المطاعم الصينية فى كل العالم تشعرنى دائما أن هناك شعوبا أخرى على الجانـــب الآخـــر يمكـــن أن تنقذنا من واحدية الذل والاستعلاء، هى هى خاصّة لو كان من يخدمك صينيا، وقد كـــان، أصـــررت، على غير العادة، أن يكونوا ضيوفى مثلما فعلت فى مصر، ياه !!! عادت أبوّتى تسجننى، يبـــدو أننـــى أستعد للعودة "كما كنت"، حيّاك الله يا كونفوشيوس، أنور عبد الملك كتب مؤخرا (بالنسبة لكتابـــة هـــذا الكلام وليس بالنسبة لحدوثه) أن أمريكا تعمل حساب البديل الإسلامى الكونفوشيوسى، والآن أفهم مـــاذا يمكن أن يعنى هذا التجاور الغريب،

طلبت من النادل أن يخمّن جنسياتنا. قال إننى إيرانى، وأننى أشبه مصدق، وقال أيـــضا إن صـــاحبنا القبرصى "ميكائيليدس" كوبى، وواحد آخر منا إسرائيلى، وحين نبهته أن إسرائيل تحـــوى ألـــف شـــبه وشبه، وكلهم إسرائيليون، أجاب إجابة غريبة ظلت معى تحتاج تفكيرا، أجاب أن نعم، ولكنّهم أقرب ما يكونون إلى المصريين (ولم يكن يعرف أننى مصرى).

السبت ٢ يوليو 1995

وصلت باريس مع الشاب الطيب الذى من فرط طيبته كاد يصالحنى على شركات الدواء. على فكـــرة هو لم يذكر لى اسم الدوآء الذى تنتجه شركته والتى تزمع أن يدخل مصر أبدا طوال الرحلة، (وأنـــا لا أعرف اسمه حتى الآن نوفمبر ٢٠٠٠) وهذه الشركة بالذات ليس لها عقاقير نفسية هامّة حتى تـــاريخ الرحلة. ربما كان هذا الموقف من فرط ذكاء منظومة الدعاية فيها أو لأسباب تتعلـــق بخلـــق الـــشاب الصديق وذكائه أيضا. وصلنا إلى مطار شارل ديجول صباحا بتوقيت باريس، وكان المطار رزينا كما كان عند قدومنا من القاهرة، توجه صديقى الشاب إلى طائرته المغادرة بعد قليل إلى قبـــرص. ودعتـــه شاكرا داعيا، وتوجهت أنا إلى فندق صوفيتل بالمطار لأقضى مـــا يـــسمّى الاســـتعمال النهـــارى لأن طائرتى كانت ستغادر إلى القاهرة فى المساء، لم أجد عندى أدنى رغبة أن أقضى هذه الـــساعات فـــى باريس، فكل العالم أصبح لدىّ باريس، يا خبر !! هل أفقد أيضا حنينى إلـــى رائحـــة الأرض، وريـــح الناس ودفء الحوار، وبهر الولادة والكشف تحت دعوى حب كل الأماكن مثل دعوى حب كل الناس؟

لا ليس الأمر كذلك تماما. حب كل الناس لا ينفى حبى لأحد الناس. وأكتشف أن حبى لكـــل الأمـــاكن يجعل أى مكان يحتوى غيره لا ينافسه، عثرت على السطور التى بدأت بها قصيدة نهاية شـــارع كـــنج فى الاسكندرية"الواشنطونية والمرأة السوداء السمهرية ممدّدة نائمة علـــى وجههـــا تحـــضن الخـــضرة وتحضنها الحشائش الجميلة. أخرجت الشخبطة التى تخططت هنـــاك، وأعـــدت، وأعـــدت، وأعـــدت، وفوجئت بأنى أنفى أى تعلّق بمكان بذاته، وأن ثم قاسم مشترك أعظم هو الذى يـــضم الأمـــاكن إلـــى بعضها، بل إننى فوجئت باكتشاف جوهرى و هو أنه يستحيل أن تعمل علاقة بأحد إلا إذا مـــرّت هـــذه العلاقة بهذا القاسم المشترك الأعظم، بكل الناس، تحابّا فى الله، اجتمعا عليه وافترقا عليه، ألهذا يفـــشل الناس هناك فى عمل العلاقات التى هى؟ حين يلغونه من وعيهم وليس فقط من فكرهم. وفـــشل نحـــن لأننا نضعه فى ألفاظنا لنلغيه فى وعينا؟؟

تناولت تذكرة المترو التى شخبطت على ظهرها وأنا على بحيرة شارع كنج فى إسكندرية واشنطون، ولعب بى الشعر حتى اكتملتْ المحاولة،

لا، لم تكن باريس، تلك الغانية.
كلا ولم تكُ بلدتى.
حتى ولم تكَ "رأسُ حكمةٍ" ذلك الرمل المقدس تحت أقدام المياه الفاتنة.
(والثور هاج وماتَوَانَى أن يسوِّى الأرض
بالوعى المدنَّس بالسّعار وبالطمعُ)
هذى الحياة أحبها

هى كل شئ دون شئ نرصُدهْ، أو نقصِدهْ

فأُحبُ ثلجاً هامساً من فوق دير الكاتِرين وقد حوى تلك الجماجم

رمزَ حقٍّ لا يموت:

ملأتْ كيانى بالجمالِ وبالصلاةِ وبالقدرْ

...

قد كنت أحسبها الفلاةَ وكنت أحسبها المياهَ وكنت أحسَبُه الجَبَل.

بل كنتُ أحسَبُه القمر.

هل كنتَ تحسَبْه السفرْ؟؟

كانت حياةً حرّكت كل الحياة حقيقة لا تنتهى.

كانت حياةُ الناس كل الناس نبض الناس.

كانت طريق الوعى والحق المقدس والغيوم الواعدة.

يا ذى الحياة: أحبّكِ،

أنتِ، "كــذا".!!

حبى المغلــــَّـف بالمخاوفِ والألم

حبى الـــــــــتَجَدَّدَ بالطريق وبالحراَكِ وبالنغمْ

حبى لكل الكل قبل الخلق بعد الخلق وسط الخلق بعد المُنْتَهَى

....

هذى الحياة أحبها.

فأحب هذى الحصوة الملقاة تهمسُ فى حياءٍ: "إننى لم أُخْتَبَرْ".

وأحب شوك الساق لمّا يرتوى،

(عطشا يصلّى للمطرْ)...

وأحب قطرَ الماءِ فى جوفِ اليراع المرتقبْ.

وتساقُط الأوراق تذبل أو تطير بلا هدفْ.

وأحب بُرْعُمَها الذى لماّ يَــــــبُح بالسرِّ بعدُ.

وأحب تعتعة النسيم لوعى طفلٍ لم ينمْ..

وأحب دغدغة الطيور ليأس شيخ كاد يمضى بالزمان كما قضَى.

وأحب دودَ الأرض فى طين الــمُبَاح المرتقبْ

وأحب صيداً صاده ذا الدودُ وهو شهيدُ حبٍّ لم يذقــهُ،

شهيدُ ظلمٍ خادع: سمكاً بريئاً جائعاً:

(لا الرمحُ واجَهَ غَاِصَباً والسَّهمُ لمّا يُستشرْ)

وأحب بيض الحورِ والوجنات تنبضُ جامحهْ،

ككرات ثلجٍ قد أحاط بها اللهبْ.

وأحب هذى المرأة السمراء تحتضن الجذور النابتة، والعشب يلثمُ دفء جوع هامسٍ، والشق من خلفٍ يشير إلى الذى لم يُستبح، وبقدر ماباحَ استباحَ الساق ألا يُظهر الجزَء المغطىَّ خلف بعض المنتقى.

وأحب ذاك العود كالأبنوس يُشرَع فى السماء كرُمح صيدٍ لم يــــُـفَــــلْ

وأحب: "أهلا مرحبا".

وأحب: "حتى نلتقى".

لكننى أخشى الوداع وأن خــِلاً لا يعود ولا يــَــعِد.

وأحب حَمْلا غامضا لمّا يَبُح بالسرِّ.

لكنْ: تحدّى الموت قسراً فانتصرْ.

وأحب كلَّ الناس .

وأحب ربَّ الناس.

ويحبنى !!!!

(انتهى الترحال الثانى ويليه الترحال الثالث)

ذكرُ ما لا ينقال